المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

علاقات مملكة غرناطة مع الدول الإسلامية

٦٣٥ - ٨٩٧هـ

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالب
عبده بن محمد عواجي عبد القهار

إشراف
أ .د . سعد بن عبد الله البشري
أستاذ التاريخ الإسلامي في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى

١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة دكتوراه

بعنوان ((علاقات مملكة غرناطة مع الدول الإسلامية))

٦٣٥-٨٩٧هـ

تعد دراسة هذا الموضوع من الدراسات المهمة في التاريخ الإسلامي بصفة عامة والتاريخ الأندلسي بصفة خاصة ذلك أن في دراسة هذا البحث رصد للعلاقات بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية بمفهومها الشامل لمختلف النشاطات التي عرفها التاريخ الإسلامي ، سياسية وعلمية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وهكذا فقد جمعت هذه الدراسة بين التاريخ والحضارة والاجتماع .

ويشتمل البحث على مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة .

تناولت المقدمة أسباب إختيار الموضوع ، والتعريف به ، وعرض لأهم المصادر التي أفاد منها البحث ، أما التمهيد فقد تناولتُ فيه تطور مملكة غرناطة منذ نشأتها إلى سقوطها .

وجاء الفصل الأول : تحت عنوان ((العلاقات السياسية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية)) .

وقد سار الحديث في هذا الفصل على النحو التالي : أ - العلاقة مع دولة الموحدين ، ب - مع القوى الإسلامية في الأندلس . جـ - مع الدولة المرينية . د - مع بني زيان . هـ - مع بني حفص . و - مع المماليك في مصر . ز - مع العثمانيين .

وأما الفصل الثاني : فقد أتى تحت عنوان ((العلاقات العلمية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية)) .

وتناولته الرسالة في فقرتين : أ - دراسة لمظاهر الحياة العلمية في مملكة غرناطة . ب - التأثيرات العلمية المتبادلة بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية واحتوت ثلاث نقاط : ١ - الرحلات العلمية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية . ٢ - أثر إشتداد العدوان النصراني على مملكة غرناطة على الساحة العلمية . ٣ - تأثير علماء مملكة غرناطة على الحياة العلمية في البلدان التي هاجروا إليها .

وفي الفصل الثالث تناولتُ ((العلاقات الاقتصادية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية))

وقد درس هذا الفصل في النقطة : أ - الحياة الاقتصادية في مملكة غرناطة من " زراعة " و " تجارة " و " صناعة " و " سكة " ، أما النقطة (ب) فقد تناولت فيها ((العلاقات الاقتصادية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية)) وتشمل طرق التجارة برية وبحرية ، والتبادل التجاري بين مملكة غرناطة ودول المغرب الإسلامي ودول المشرق الإسلامي .

أما الفصل الرابع : فكان عنوانه ((العلاقات الاجتماعية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية))

وتحت هذا العنوان فقرتان : (أ) تناولت تأثر الأحوال الاجتماعية بحركة الجهاد الإسلامي في مملكة غرناطة ، (ب) التأثيرات الاجتماعية المتبادلة بين المجتمع الغرناطي والمجتمعات الإسلامية . ١ - في دول المغرب الإسلامي . ٢ - في المشرق الإسلامي .

وأخيراً خاتمة البحث التي أوضحت جملة من النتائج من أهمها :

١ - تبين من خلال الدراسة أن التضامن الإسلامي بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية في المغرب لمواجهة العدوان النصراني كان قضية مصير وضرورة وجود .

٢ - أثبتت الدراسة أن كل عالم ارتحل أو هاجر من مملكة غرناطة إلى الدول الإسلامية كان بحد ذاته نقطة توهج تأخذ وتعطي وتتأثر وتؤثر.فهم في البلدان التي هاجروا إليها أساتذة وعلماء وأطباء وإداريين وقضاة وأئمة في المساجد وأئمة للحرمين الشريفين في مكة والمدينة.

٣ - أكد البحث أن مملكة غرناطة قد شهدت صفحة مشرقة للتطور الحضاري من زراعة وتجارة وصناعة على النحو الذي لا تزال آثاره شاهد عيان على الحضارة الإسلامية إلى يومنا هذا .

٤ - أثبت البحث أن المجتمع الغرناطي قد تأثر من جراء الحرب مع النصارى بما خلفته تلك الحرب من أيتام ونساء وأطفال وأرامل ، ومعتوهين ومفقودين وأسرى . وبذلك قدم البحث دراسة للأحوال الاجتماعية للأسر المسلمة في مملكة غرناطة .

٥ - تبين من خلال البحث أن التواصل السياسي والعلمي والاقتصادي والاجتماعي بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية قد ساهم في نقل المعطيات الحضارية وفرض تبادل التأثير والتأثر في مجالات شتى في الحياة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الطالب / عبده محمد عواجي عبدالقهار — التوقيع :

المشرف — الأستاذ الدكتور سعد بن عبدالله البشري — التوقيع

عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية — د . محمد بن علي العقلا

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .... أما بعد :

فمنذ أن حصلت على درجة البكالوريوس في التاريخ كانت رغبتي تتمثل في دراسة التاريخ " الأندلسي " الذي لم يحظ باهتمام يماثل ما حظيت به جوانب التاريخ الإسلامي الأخرى ، وبتوفيق من الله درست في مرحلة الماجستير موضوع ((الخلافات السياسية في الدولة النصرية ودورها في سقوط الأندلس)) ، ومن ثم طمحت في مواصلة دراستي في هذا الحقل من الدراسات التاريخية ، وبعد دراسة ومناقشة مع أستاذي المشرف حول عدد من الموضوعات عُرض بعضٌ منها على قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية استقر الرأي على أن أقوم بدراسة موضوع ((علاقات مملكة غرناطة مع الدول الإسلامية (٦٣٥ ـ ٨٩٧هـ)) لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي .

وقد دفعني إلى هذا البحث بالإضافة إلى ما ذكر عدم وجود دراسة تأريخية شاملة ترصد علاقات مملكة غرناطة مع الدول الإسلامية بمفهومها الشامل لمختلف النشاطات التي عرفها التاريخ الإسلامي دون اقتصار على جانب واحد ، إذ اقتصرت الدراسات السابقة على بعض سلاطين مملكة غرناطة وعلى الجوانب السياسية والعسكرية خاصة الداخلية منها وبالتالي لم تدرس بقية العلاقات لمملكة غرناطة مما استوجب دراسة شاملة للعلاقات السياسية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية لمملكة غرناطة مع الدول الإسلامية في المغرب والمشرق .

وقد أدرك بنو نصر حكام مملكة غرناطة وكذا شعب غرناطة أن دولتهم جزيرة إسلامية يحيط بها الأعداء المتربصون من كل مكان وأن منفذهم الوحيد إلى القوة والبقاء

بعد الاعتماد على الله ثم على أنفسهم هو جبل طارق الذي يطلون منه على إخوة لهم في العقيدة والمشاعر والمصير ، فهناك في العدوة المغربية توجد ثلاث دول إسلامية ورثت دولة الموحدين وهي دولة بني مرين وبني زيان وبني حفص ... وخلف هذا الجدار المغربي توجد مصر والشام ثم الجزيرة العربية فالمحيط الإسلامي المشرقي كله ... وكان هذا العالم هو الامتداد الطبيعي لدولة غرناطة حيث تجد عنده النصير والمعين في العلم والمال والسلاح والدعم المعنوي .

وقد تدرجت كثافة العلاقات السياسية والحضارية على أساس مدى القرب المكاني من بني نصر ، فكان طبيعياً أن يكون بنو مرين هم أقرب الناس إلى مملكة غرناطة ثم يليهم ممالك المغرب فمصر فالشام وهكذا ... وإنني أكاد أجزم أن من بين أسباب بقاء مملكة غرناطة نحو قرنين ونصف القرن من الزمن أنها وثقت روابطها بهذا العالم الإسلامي في الوقت الذي كانت تخوض فيه حرباً مع نصارى قشتالة وأرغون الذين يتلقون دعماً ومساندة من الصليبيين الأوروبيين .

ولم تكن أمام مملكة غرناطة وهي تقيم دعائم دولتها وتبني صرح حضارتها وهي في الوقت نفسه تواجه حرب الكنيسة إلا أن تلجأ إلى بناء نفسها بناء حضاريًّا قويًّا ، مدركةً أن هذا البناء مهما بلغت قوته لا يستطيع أن يواجه بمفرده هذه القوى الصليبية التي تتصدرها قشتالة والتي تستطيع إجهاض محاولات نهضته ووجوده واستنزاف طاقته وتبديد قواه في حروب موصولة ومعاهدات ظالمة تفرض عليها التنازل عن بعض الأرض وبعض المال وبعض السيادة ـ فكانت الضرورة ـ بالتالي تفرض على مملكة غرناطة ـ حكومة وشعباً أن تتفيأ ظلال الحياة ، وتستمد كثيراً من قوتها وحيويتها من خلال شبكة علاقات مع جيرانها الأقربين المسلمين في المغرب ببلاده المختلفه ودوله المتنافسه ، ومن ثم تقيم جسوراً قوية أيضاً مع بلاد المشرق الإسلامية تلك البلاد التي يقصدها المسلمون للحج ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، والتي يتجه المصلون إلى قبلتها ، وينهلوا من علوم مدارسها وفقه فقهائها ومحدثيها ، ويأخذوا عن أعلامها العلم والحديث والفقه فضلاً عن إمكانية إقامة علاقات علمية تجارية واجتماعية وسياسية أيضا ...

ولم تكن علاقات مملكة غرناطة مع الدول الإسلامية ، وهذه هي قضية هذا البحث علاقات من نوع العلاقات التي تقوم بين بعض الدول وبعض والتي تسمى بالعلاقات الدولية ، والتي يمكن أن تقوم أو لا تقوم ... والتي يمكن أن تدرس من جانب واحد فلم تكن ظروف مملكة غرناطة تسمح ـ بقدر كبير من هذا الاختيار ... بل كانت هذه العلاقات ضرورة لحفظ كيان الدولة نفسها ، فهي ضرورة علمية واجتماعية واقتصادية وسياسية ملحة يدرك من خلالها الشعب الغرناطي المسلم أنه لا يقف وحده ضد المحيط المعادي الذي يحاصره ولفترة طويلة كان يبدو فعلاً لمملكة قشتالة ومن وراءها أن غرناطة وبني مرين كيان واحد وأن هذا الكيان يمكن أن يستعين بكيانات أخرى في المغرب والمشرق .

إن دراسة العلاقات بين غرناطة والدول الإسلامية في ضوء العلاقات الشاملة السياسية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية لهي دراسة من نوع فريد .

فكيف تكون معالم تلك العلاقات ؟ وكيف يمكن رصد كل مفردات هذه العلاقة مع أنها كانت تُعاش كل يوم ويمارسها الناس كل يوم ويجري فيها التواصل كل يوم سياسياً وعلمياً واقتصاديًا واجتماعيًا وتستمر فيها اللقاءات المشتركة في المناسبات والأعياد ، في رحلات طلب العلم ، ورحلات التجارة ، ورحلات الحج كل عام ؟.

وهكذا وجدت نفسي عند دراسة هذا الموضوع أمام شبكة علاقات متداخلة تشمل الإنسان الغرناطي المسلم في وطنه وأثناء رحلاته وتنقله وهجراته إلى المغرب الإسلامي أو المشرق الإسلامي ، وتتبعه في مختلف أنشطته وتصرفاته على الساحة السياسية وفي ميدان الحرب والجهاد وفي حلقات العلم والدرس ، وفي ميدان التجارة والصناعة والزراعة ، وفي حياته مع أسرته وتعايشه مع ظروف الحرب داخل بلاده ومدى تأثره بحركة الجهاد الإسلامي التي خاضها على مدى قرنين ونصف القرن من الزمن وارتباطه مع إخوته في البلدان الإسلامية مغرباً ومشرقاً وارتباطهم معه في مجال الأخوة في العقيدة والفكر ، ومدى تأثره وتأثيراته في أثناء إقامته وترحاله بالبيئة التي انتقل إليها في مجال لباسه وتقاليده

وعاداته ذهاباً وإياباً ، وهكذا فقد جمعت هذه الدراسة بين التأريخ والحضارة والاجتماع .

ولمحاولة معرفة ما أشرت إليه بصفة إجمالية مما يفرضه عنوان الرسالة فقد جاء هيكل البحث مقسماً إلى تمهيد وأربعة فصول ثم خاتمة :

تناولت في التمهيد : تطور مملكة غرناطة منذ نشأتها حتى سقوطها وبذلك قدم هذا التمهيد تأريخاً مختصراً لمملكة غرناطة لمدة قرنين ونصف القرن من الزمن شمل جميع سلاطين غرناطة وأهم منجزاتهم والقى الضوء على فترات تكاد تكون غامضة ومجهولة من تاريخ مملكة غرناطة .

وأتى الفصل الأول تحت عنوان : ((العلاقات السياسية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية)) ، ولما كانت دولة الموحدين في الأندلس والمغرب أولى الدول التي عاصرتها مملكة غرناطة واحتكت بها احتكاكاً مباشراً فقد تتبع البحث تلك العلاقة وكيف استغل مؤسس مملكة غرناطة محمد بن يوسف بن نصر انهيار دولة الموحدين في الأندلس وما صاحب ذلك من فرص سياسية من خلال تزعمه قيادة الدفاع عن أبناء دينه الإسلامي وتدعيم ذلك بعلاقة ودية مع دولة الموحدين وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة .

وناقش هذا الفصل التضامن الإسلامي بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين ومدى أهمية ذلك التضامن لكلتا الدولتين وكيف استجابت دولة بني مرين لنداءات مسلمي غرناطة فكانوا في فترات التضامن يداً واحدة على عدوهم في شبه جزيرة أيبيريا .

ولم تقتصر الدراسة في هذا الفصل على التضامن بين الدولتين الغرناطية والمرينية على المستوى الدولي بل شمل ذلك المستوى الشعبي لمتطوعي العقيدة من المغاربة وما أدوه من دور كبير في مملكة غرناطة .

ودرس هذا الفصل الخلافات بين الدولتين النصرية والمرينية من خلال الظروف والملابسات التي واكبتها وإلى وضع الخلاف بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين في ميزان التاريخ وتقويم الخلافات بين أولئك الحكام وما نتج عن تلك الخلافات من ضياع لعدد من المدن الأندلسية .

وتناول هذا الفصل أيضاً تضامن دولة بني زيان مع مملكة غرناطة وما قدمه سلاطين بني زيان من دعم اقتصادي وحضور عسكري فعّال رغم الصعوبات التي كانت تعانيها تلك الدولة من جراء حربها مع دولة بني مرين ودولة بني حفص من جهة أخرى .

كما كان لدولة بني حفص في تونس أيضاً تضامنها مع مملكة غرناطة خاصة عند قيام تلك المملكة وحاجتها إلى الدعم الاقتصادي وحاجة المسلمين في الأندلس الذين تعرضوا للعدوان من كل جهة للدعم العسكري ، إذ حاولت دولة بني حفص التي خلفت الموحدين أن يكون لها دور عسكري على الساحة الغرناطية .

وفي هذا الفصل عرض لأهم السفارات والمراسلات المتبادلة بين الدول الإسلامية بالمغرب ومملكة غرناطة ونتائج تلك السفارات ، كما تمت مناقشة علاقات مملكة غرناطة مع المشرق الإسلامي خاصة مع دولة المماليك والدولة العثمانية والتواصل السياسي بين الدولتين ، وتخاذل الدول الإسلامية عن نجدة غرناطة وتركها وحيدة يعاني فيها المسلمون المصير المؤلم رغم نداءات الاستغاثة التي حملها السفراء إلى معظم العواصم الإسلامية .

ثم تلا الفصلَ الأول الفصلُ الثاني الذي جاء تحت عنوان :

((العلاقات العلمية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية)) .

ففي الفقرة (أ) من هذا الفصل دراسة لمظاهر الحياة العلمية في مملكة غرناطة شملت مختلف فروع العلم والمعرفة وحلقات الدرس في المساجد والإشعاع الحضاري لمساجد مملكة غرناطة ، إذ غدا المسجد في غرناطة جامعاً وجامعة وتمت مناقشة بناء المدارس في مملكة غرناطة وما اضطلعت به من دور تعليمي ، وأهم المؤلفات التي أُلّفت والكتب التي دِرسَتْ ودُرِّسَتْ .

كما برز دور سلاطين بني نصر في دفع عجلة التقدم العلمي في مملكتهم وطبع التراث الأندلسي بطابع غرناطي أحيا معالم الحضارة الإسلامية الأندلسية وأنقذ ما تبقى من التراث الإسلامي ردحاً من الزمن ويتجلى فيه دور مملكة غرناطة بالرغم من قيامها في جزء محدود من الأندلس ، فقد قدمت للأمة الإسلامية وللبشرية نماذج من العلماء كانوا نجوماً في شتى فروع العلوم خاصة العلوم الشرعية واللغوية .

وأما الفقرة " ب " فقد جاءت تحت عنوان : ((التأثيرات العلمية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية)) واحتوت ثلاث نقاط تناولت في أولاها الرحلات العلمية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية ثم بدأت الحديث عن فكرة الرحلة لدى أهالي مملكة غرناطة والبواعث لقيامها والعوامل المساعدة عليها وأسبابها ، وأهم الراحلين من مملكة غرناطة إلى دول المغرب والمشرق ، وأهم المرتحلين من تلك الدول إلى مملكة غرناطة والطرق التي سلكوها منذ انطلاقهم من بلادهم إلى عودتهم إليها والأماكن والمحطات التي نزلوا فيها مع عدم إغفال الإشارة إلى الفوائد التي عادت عليهم من رحلاتهم نتيجة لاحتكاكاتهم العلمية ، خاصة أولئك الذين ارتحلوا من اهالي المغرب والمشرق إلى مملكة غرناطة ، ثانيها عن أثر اشتداد العدوان النصراني على مملكة غرناطة ذلك العدوان الذي أدى تفاقمه على المسلمين في ممكلة غرناطة إلى أن بث فيهم روحاً جهادية وشعرت كافة فئات الشعب أن الوطن يواجه تحديات خطيرة فهب العلماء وطلاب العلم للدفاع عن وطنهم وألقى العالم وطالب العلم قلمه ومحبرته وتحول إلى قائد شعبي يذود عن دينه وروحه ووطنه ، ويحث الناس على الثبات ويحرضهم على القتال والجهاد ويكتب الكتب في فقه الجهاد وفن الأسلحة ومن هنا بين البحث أن العلماء في مملكة غرناطة وجدوا أنفسهم أمام واقع من الخطأ أن يتجاهلوه وأن يخدعوا أنفسهم بطلب العلم ؛ فالسيف هنا أصدق إنباء من الكتب ، فنزل العلماء إلى ميدان الحرب وشاركوا في اقامة التحصينات الدفاعية والقيام بالواجب ولم تحل مكانتهم العلمية والوظيفة بينهم وبين ذلك واستشهد عدد منهم في سبيل الدفاع عن دينهم ووطنهم .

كما تعرض البحث في هذه النقطة لبيان الجوانب العلمية التي اختفى التاليف فيها في وقت اشتداد العدوان إما نتيجة للاضطراب السياسي الناتج عن ذلك العدوان أو الاجتماعي المؤدي لهجرة العديد من العلماء الغرناطيين خارج مملكة غرناطة وما نتج عن ذلك من إعتداء على العلماء الغرناطيين ومؤلفاتهم .

أما ثالثة النقاط فقد تناولت تأثير علماء غرناطة علىالحياة العلمية في البلدان التي هاجروا إليها فبالرغم من محيطها العلمي الواسع إلا أنه قد تم تتبع أهم المرتحلين والمهاجرين

الغرناطيين لأسباب مختلفة وكيف أعطت تلك الخبرات البشرية والعلمية دفعة قوية للحياة الثقافية في البلاد الإسلامية التي تلقفت تلك المشاعل الحضارية ، وقد تبين من خلال ذلك الرصد أن كل عالم رحل أو هاجر من مملكة غرناطة إلى الدول الإسلامية في المغرب والمشرق كان نقطة توهج تأخذ وتعطي وتتأثر وتؤثر فكانوا في المغرب والمشرق أساتذة وعلماء وأطباء وقضاة وإداريين وأئمة في المساجد وأئمة للحرمين الشريفين في مكة والمدينة كما كان لهم تأثيرهم الحضاري الفعّال في شتى ميادين الحياة وفي ذلك أيضاً رصد لحياة عدد من العلماء المرتحلين والمهاجرين من مملكة غرناطة منذ قدومهم إلى المغرب والمشرق وحتى وفاتهم واستعراض لمؤلفاتهم وأشهر تلامذتهم وطلابهم الذين أخذوا عنهم أو اشهر اساتذتهم اللذين أخذوا عنهم العلم وحضروا لهم حلقات الدرس وما أثروا وتأثروا به من فكر أو مذهب وما قدمه بعضهم من علوم لا تزال حية في العالم الإسلامي إلى يومنا هذا وفي ذلك كشف عن معالم التراث الحضاري المشترك بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية في المغرب والمشرق وكيف نقل الغرناطيون معالم الفكر الغرناطي لتلك البلدان وكيف تلقوا هم معالم الفكر الإسلامي من المغرب والمشرق واتضح أنه بالرغم من غربة هؤلاء العلماء واغترابهم فإن ذلك لم يحل دون صدارتهم . واحترام المجتمعات الإسلامية لهم وتتبع المؤرخين لحياتهم وتدوين مآثرهم وفضائلهم . واتضح من خلال ذلك أن رحلة الحج بين مكة وغرناطة قد شكلت خطًّا ثقافيًّا مارًّا بالشمال الإفريقي فمصر فمكة فالمدينة .

ولقد كان لهذا التواصل الحضاري والتفاعل الثقافي بين الأندلسيين وعلماء الدول الإسلامية آثار واضحة في البلدان الإسلامية التي هاجروا إليها .

وتلى الفصل الثاني الفصل الثالث والذي جاء تحت عنوان :

((العلاقات الاقتصادية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية))

ولما كان الاقتصاد الداخلي ضرورة هامة للانطلاق نحو العلاقات الاقتصادية فقد درس هذا الفصل في النقطة (أ) مظاهر الحياة الاقتصادية في مملكة غرناطة بين الازدهار والتدهور وشملت مختلف جوانب الحياة الاقتصادية من " زراعة " و" تجارة " و " صناعة " و " سكة " .

ففي مجال الزراعة عرض لعوامل النهضة الزراعية في مملكة غرناطة من وسائل للري ، وخصوبة تربة وعرض لأهم المنتوجات الزراعية ومحاولة الشعب الغرناطي الاكتفاء الذاتي في إنتاج المحاصيل الزراعية وما اشتهرت به كل مدينة وقرية من مملكة غرناطة من محاصيل وما قدمه المزارعون الغرناطيون وعلماء الزراعة من مشاريع زراعية في سبيل وصول المياه من مصادرها إلى الأراضي الزراعية لاستغلالها استغلالاً جيداً ساهم في رقي الوطن الغرناطي وازدهار نهضته ، وأظهر البحث في الزراعة الدور الأساسي الذي لعبه الفقه الإسلامي في غرناطة في دعم النشاط الزراعي بالفتاوى بحث الناس على العمل والإنتاج وتحذيرهم من صور الحرام في الإنتاج والمعاملات مما ساعد على إحداث نهضة زراعية ساهمت في رفع مستوى الرفاهية والعيش الرغيد لشعب مملكة غرناطة .

وفي مجال التجارة الداخلية في مملكة غر ناطة ، تم التعريف بالتجارة ولما كانت العمليات التجارية الكبرى في عهد بني نصر تتركز في المدن فكان أهل الريف والقرى يتوافدون على تلك المدن حيث اشتهرت أسواق في بعض الأمكنة من مملكة غرناطة مثل سوق القيسرية وسوق البيازين . وبينتُ أهم ما اختصت به كل مدينة وقرية غرناطية من منتوجات وتجارة مع توضيح أهم الاستفسارات الفقهية من جانب أهل مملكة غرناطة فيما يختص بالعمليات التجارية ، كما تم تقديم وصف لسوق العاصمة غرناطة الذي ذاعت شهرته وكان يرتاده التجار من مختلف الأصقاع .

ولما كانت شبكة الطرق الغرناطية عاملاً مساعداً كثيراً على تسيير أمور التجارة والتبادل التجاري داخل مملكة غرناطة فقد تم إيضاح تلك الشبكة التي تربط بين مختلف المدن والقرى الغرناطية .

وأوضحت الدراسة أن النشاط الاقتصادي والتجاري في مملكة غرناطة كان يتأثر على امتداد القرن التاسع الهجري بمستوى الأمن المتاح ، داخليًا وخارجيًا فكانت المدن والقرى المتاخمة للنصارى أكثر تأثراً من المدن الداخلية ، وتم استعراض ارتفاع الأسعار وانخفاضها ، ولقد كان واضحاً لدى الشعب الغرناطي أنه يواجه عدوًا شرساً يسعى إلى استئصاله وبالتالي فإنه كان من خلال فقهائه وعساكره ومجاهديه يمنع أي نشاط تجاري يفيد منه العدو ..

أما في مجال " الصناعة " فقد تحدثت عن العوامل التي ساعدت على قيام الصناعة في مملكة غرناطة نتيجة لتوافر المواد الخام من ثروات معدنية وزراعية ، وحيوانية وتقبل المجتمع الغرناطي لفكرة الصناعة وما نتج عن ذلك من توفر للأيدي العاملة ، ومن ثم تمت دراسة أهم الصناعات في مملكة غرناطة التي تعتمد على الإنتاج الزراعي ، ونظراً لأن صناعة الحرير كانت مورداً هاماً من موارد الرزق لدى أهل مملكة غرناطة وقد ذاعت شهرة الحرير الغرناطي في العالم الإسلامي والأوروبي فقد قدمت الدراسة شرحاً لصناعة نسيج الحرير التي انطلقت انطلاقة واسعة في عهد بني نصر ، وفي طي ذلك بيان لموقف الفقهاء والقضاة الغرناطيين أمثال ابن السَّراج والشاطبي والحفار ... من تلك الصناعة وذلك فيما ورد من أسئلة واستفسارات من أهالي مملكة غرناطة هؤلاء عن تلك الصناعة .

كما تم استعراض لعمليات النسيج الأخرى وعدد من الصناعات التي تعتمد على الإنتاج الزراعي .

ومن بين الصناعات الغرناطية التي تمت دراستها وبيانها المصنوعات الغرناطية الخزفية المزجج منها وغير المزجج واستخدامات تلك ا لصناعة ، إذ كانت في ذلك العصر ضرورة من ضروريات الحياة ، إذ كشفت الحفريات الأثرية الحديثة عن بعض المصنوعات التي تم إنتاجها في عصر مملكة غرناطة والتي منها الجرار ، والخابيات وصناعة الأواني المنزلية مثل الموقد ، والكانون ، والمدفأة ، والمراجل والطناجر المتعددة الأغراض والاستخدامات .وأواني الشرب والأطباق والأباريق ، وصناعة الطوب (اللبن الآجر) والتي صنعت منها القرميدة ، وصناعة التنور وما يتعلق به ، وصناعة الأزيار ، وصناعة مصابيح الإضاءة وحامل الشمعدان ، وصناعة الفانوس النصري ، وصناعات الحبارات التي صنعت في غرناطة بشكل إذا وقعت الحبارة لا ينسكب الحبر منها .

وقدمت الدراسة دراسة لنماذج من الصناعات الغرناطية الرائعة الفن والجمال والمعروفة بروعة التصميم وجودة الإنتاج ما زالت محط إعجاب الزائرين للمتاحف الأسبانية إلى يومنا هذا ، وبالرغم من قلة المعلومات التي وردت في المصادر الإسلامية إلا أنه أمام الجهد والإصرار على الإنجاز العلمي فقد كشفت هذه الدراسة عن صفحة مشرفة للتطور

الحضاري الذي شهدته مملكة غرناطة وفق دراسات علمية ومكتشفات لعلماء آثار أسبان وإخضاعها لأدلة متناثرة وردت في المصادر الإسلامية لم يكن التقاطها بالأمر السهل فاتضح أن الصناعات الغرناطية من الكثرة حيث يصعب حصرها ، وفي هذه العصور كان الفقه الغرناطي وأهل الاحتساب يراقبون جودة الأصناف وحركة الأسواق .

ولما كان الحديث عن الأحوال الاقتصادية زراعة وتجارة وصناعة يرتبط دوماً بالحديث عن النقود ارتباطاً عضويًا ، فقد تمت دراسة السكة في عهد مملكة غرناطة منذ قيامها على عهد السلطان محمد بن يوسف بن نصر إلى سقوطها في عهد السلطان أبي عبدا لله الصغير ، وفي طي ذلك عرض للتأثيرات السياسية على السكة النصرية خاصة في عهد السلطان محمد بن يوسف بن نصر الذي كان في أمس الحاجة إلى تثبيت دعائم دولته الناشئة على أسس اقتصادية وكانت المساعدات الإسلامية من شمال إفريقيا ــ إحدى دعائمها ـ كذلك تم تقديم وصف لشكل الدرهم الغرناطي ووزنه والكتابة المنقوشة فيه والتي اختلفت باختلاف الأزمنة وتعاقب السلاطين من بني نصر ، وبيان أن اشتداد العدوان النصراني قد أثر في الاقتصاد الغرناطي بصفة عامة والعملة الغرناطية بصفة خاصة .

أما الفقرة (ب) فقد تناولت فيها " العلاقات الاقتصادية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية " مبتدئاً الحديث عن طرق التجارة البحرية والبرية ، وبما أن التجارة الخارجية لمملكة غرناطة مع الدول الإسلامية لا بد وأن تعبر البحر فقد تحدثت عن أهم الموانئ الغرناطية كمحطات تجارية تشعبت منها الطرق التي سلكها الأندلسيون بحراً وبراً ، واتضح قيام أهالي مملكة غرناطة برحلات استكشافية سبقوا بها أوروبا في المحيط والطرق التي سلكوها في الصحراء الإفريقية ، وبينت دراسة المتغيرات التي طرأت على طرق التجارة الدولية بحرية وبرية وكيف واكبت مملكة غرناطة تلك المتغيرات التي طرأت على طرق التجارة الدولية بحرية وبرية ، إذ شكلت الهيمنة الاقتصادية النصرانية واقعاً جديداً دفع إلى أنماط متغيرة في طرق التجارة وبخاصة الأهمية التي ظهرت للنقل خلال مضيق جبل طارق وتم بيان أهم الطرق التي سلكها الغرناطيون في تجارتهم ورحلاتهم للحج وطلب العلم في البلدان الإسلامية .

((أما التبادل التجاري بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية)) فقد جاء في فقرتين تناولت في الأولى منها التبادل التجاري بين مملكة غرناطة والمغرب الإسلامي مبيناً أسباب ضعف التجارة بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية ، وبالرغم من العوائق وقلة ما ورد في المصادر فقد تبين لي من خلال الدراسة الفاحصة والجهد المضاعف أن مملكة غرناطة كانت مع بلدان المغرب على اختلافها سوقاً للتجارة الغرناطية ، وكانت حركة السفن والعبور بين العدوتين مستمرة لا تهدأ إما بالتعامل مع بلاد المغرب مباشرة ، وإما عبوراً منها إلى بلاد المشرق ، وقد استطاعت مملكة غرناطة توثيق علاقاتها الاقتصادية بالدول المغربية ، وأن تُقيم معها شبكة من التعامل التجاري سواء في التعامل المباشر أو في جعل التجار النصارى أو المغاربة وسطاء ، وبما أن القمح سلعة استراتيجية تقوم عليها حياة الشعوب فقد كانت تجارته بين غرناطة والمغرب معرضة للشد والجذب بين غرناطة وخصومها النصارى فيما حرصت مملكة غرناطة على توفيره عن طريق استيراده من الشواطئ المغربية ، فقد كان النصارى يتربصون بالسفن المتجهة إلى شواطئ غرناطة من المغرب الأقصى أوالأوسط أو الأدنى الحاملة للقمح أو أي سلعة أخرى فينقضون عليها ، وفي طي ذلك بيان لأهم السلع المتبادلة بين مملكة غرناطة ودول المغرب وعرض لأسماء أشهر التجار الذين نقلوا تلك السلع .

أما الفقرة الثانية فقد تناولت فيها التبادل التجاري بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية في المشرق فتبين تراجع المعلومات الواردة في الوثائق والمصادر التي تناولت التجارة بين مملكة غرناطة والبلدان الإسلامية في المشرق عما كانت عليه في القرنين الخامس والسادس الهجريين نظراً للمتغيرات في التجارة الدولية إذ غدا معظم التجار النصارى هم الذين يُديرون حركة التجارة الغرناطية الخارجية مع البلدان الإسلامية خاصة دول المشرق فتم شرح وبيان أسباب ذلك ، كما كانت السياسة الاقتصادية لدولة المماليك تشكل عائقاً أمام التجارة الغرناطية إذ كان للعقود والمعاهدات التجارية ألتي أبرمتها دولة المماليك مع الممالك النصرانية والأسبانية والأوروبية أثرها البالغ في تدني مستوى التجارة أو نقل السلع

من شواطئ مصر والشام إلى مملكة غرناطة بالإضافة إلى الرسوم الجمركية المرتفعة التي فرضتها دولة المماليك على مسلمي الأندلس والمغرب من الحجاج والتجار أكثر مما تفرضه على رعايا الدول النصرانية ، فأدى ذلك إلى التأثير السلبي على حركة التجارة البحرية الإسلامية ، وبالرغم من ذلك فقد تبين اصرار وعزم تجار مملكة غرناطة على اقامة علاقات تجارية بينهم وبين الدول الإسلامية في المشرق وصلت من خلالها المنتوجات الغرناطية إلى تلك البلدان .

أما الفصل الرابع فقد أتى تحت عنوان :

((العلاقات الاجتماعية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية))

وتحت هذا العنوان فقرتان : الفقرة (أ) تناولت تأثر الأحوال الاجتماعية بحركة الجهاد الإسلامي في مملكة غرناطة ، إذ اتضح أن العدو النصراني المجاور لمملكة غرناطة لم يكن ليخفي أطماعه وبالتالي فرض هذا الوضع على غرناطة حكومة وشعباً جوًّا من الحذر والترقب والقلق ، إذ بينت الدراسة الإجراءات والاحتياطات التي اتخذها المجتمع الغرناطي لمواجهة تلك الأوضاع ، فكان نتيجة ذلك أن غدا المجتمع الغرناطي مجتمعاً محارباً مجاهداً بالضرورة بمختلف فئاته وفق ما تقتضيه الشريعة الإسلامية من الصبر والمرابطة في سبيل ا لله ، وفي الدراسة توضيح عن حقيقة وضع الجهاد الإسلامي في مملكة غرناطة وأساليبه ، والوسائل التي اتخذها الغرناطيون للدفاع عن دينهم وأرواحهم والآثار الإيجابية والآثار السلبية لانتشار الأسلحة والتدريبات بين الناس ومشاركة مختلف طوائف المجتمع الغرناطي في الجهاد ضد العدوان . ودور الرباطات في الجهاد وما طرأ عليها من تغيرات اجتماعية ونزول طبقات المجتمع إلى ميدان الجهاد تقيم التحصينات الدفاعية من أجل المحافظة على المنجزات الحضارية دفاعاً عن الدين والأنفس . وما قدمه المجتمع الغرناطي للوطن في ساعة عجز فيها الجيش النظامي في الدولة الغرناطية عن التصدي للعدوان والقيام بتلك المهمة في ساعة من أشد ساعات الوطن ، وموقف الفقه الإسلامي من ذلك .

وفي الدراسة توضيح للكيفية التي واجه بها الأندلسيون الحروب الشرسة التي شنها النصارى بين آونة وأخرى على المناطق الإسلامية ، والأساليب التي ساعدت على تماسك هذا المجتمع وترابطه وتعاونه وتكافله مع بعضه البعض في التصدي للعدوان وآثاره التي خلفها من الأيتام والأرامل والنساء والأطفال الذين نشأوا يتامى ، والمرضى المصابين والمعتوهين والمفقودين وما أصاب المجتمع الغرناطي المسلم من خلل جراء تلك الحروب ، وألقت الدراسة الضوء على أوضاع الأسرى المسلمين من مملكة غرناطة وما ترتب على ذلك من خلل اجتماعي للأسرة الغرناطية المسلمة وما ترتب على ذلك من أمور شرعية وفقهية ودور الفقه الإسلامي الغرناطي في معالجة تلك الأوضاع ، وكذا تأثر الأسرى الغرناطيين المسلمين من جراء الاختلاط بالنصارى وما أدى إليه ذلك من تفكك اجتماعي في المجتمع الغرناطي ، وَبَيَّنَتِ الدراسة النماء السكاني لمملكة غرناطة وتأثر ذلك بحركة الجهاد الإسلامي ، كما تم بيان الآثار الاجتماعية المترتبه على دخول الفرق الحربية من بني مرين ودول شمال إفريقيا والمتطوعين في سبيل العقيدة إلى مملكة غر ناطة ، وفي هذا كله يتضح دور الفقه الإسلامي في معالجة الأوضاع الاجتماعية الناتجة عن حركة الجهاد الإسلامي ومحاولة الإبقاء قدر الاستطاعة على مقومات ذلك المجتمع الذي كان يتعرض للانهيار والتفكك .

أما الفقرة " ب " فقد تناولت فيها التأثيرات الاجتماعية المتبادلة بين مملكة غرناطة والمجتمعات الإسلامية : في دول المغرب الإسلامي ، وفي دول المشرق الإسلامي : ففي مجال التأثيرات الاجتماعية المتبادلة في دول المغرب فقد أوضحت فيها أن الاحتكاك الشديد الذي أملته ظروف سياسية وحضارية بصفة عامة بين مملكة غرناطة والمغرب العربي بدوله المختلفه قد فرض تبادل التأثير والتأثر بين هؤلاء وأولئك في مجالات اجتماعية عديدة وعلى سبيل المثال الملابس ، والأعياد والحفلات والألعاب ، وفي مستوى العيش وفي الاحتياط المنزلي والتدبير ، ونظام الأسرة ، أما في مجال التأثيرات الاجتماعية المتبادلة بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية في المشرق فقد أكد البحث أنه بالرغم من بعد المسافة وقلة

الرصد لظواهر التأثيرات الاجتماعية من قبل المصادر ، فقد تبين للباحث بمزيد من الجهد قيام تأثيرات اجتماعية متبادلة في مجال اللباس ، والمظهر العام للأفراد في مجال الألعاب والاحتفالات ، وفي مجال التكافل والترابط الاجتماعي بين المهاجرين الغرناطيين وإخوانهم من أهل المشرق وبين المهاجرين وإخوانهم الغرناطيين في بلدانهم عن طريق بعث الوصايا بالأموال والهبات لأولئك المرابطين في الثغر الإسلامي .

أما الخاتمة فقد ضمنتها أهم النتائج التاريخية والحضارية التي توصلت إليها الدراسة . ولتخرج الدراسة بنظرة علمية وشاملة ، فقد اتبعت المنهج التاريخي الإسلامي الموضوعي القائم على جمع الوقائع التاريخية من المصادر ومن ثم تحليلها ومقارنة بعضها بالبعض الآخر والوقوف على مختلف الروايات لإمكان استنتاج الشواهد الحضارية والتاريخية وصولاً إلى الحقائق العلمية الخالصة من شوائب الميل والانحياز والمتسمة بالموضوعية والمنهجية الصحيحة في كتابة التاريخ والحضارة .

ولقد لجأت إلى الاجتهاد كلما أمكن وإلى بذل الجهد في استكشاف ما غمض من خلال تتبع الأحداث والتنقيب عن كل ما له صلة بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية في المصادر الإسلامية وهي من القلة والندرة ما يدركه كل من يتصدى لمثل هذه الدراسات .

* * * * *

وما كان لهذه الرسالة أن تصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد تغلبي على العديد من الصعاب التي واجهتني خلال بحثي المذكور ، ولقد كان من أهم تلك الصعاب ندرة المصادر التاريخية الإسلامية التي تحدثت عن تلك العلاقات خاصة الاقتصادية والاجتماعية وتكاد تلك المصادر تنقطع بوفاة وزير غرناطة ومؤرخها الكبير لسان الدين بن الخطيب الذي كانت وفاته سنة (٧٧٦هـ) ووفاة صديقه عبدالرحمن بن خلدون سنة (٨٠٨هـ) فكان لزاماً عليّ البحث عن المادة العلمية في المصادر النصرانية للسبب المذكور آنفاً وللاطلاع على وجهة نظر الأعداء ، وذلك للخروج بنظرة موضوعية شاملة ، ولما كان الاطلاع وجمع المادة العلمية من خلال المصادر الأجنبية يقتضي معرفة اللغة الأسبانية التي دارت على أرضها تلك الأحداث ـ فقد تغلبت على هذه الصعوبة بأمرين أساسيين :

أولها : القيام برحلة علمية إلى المغرب وأسبانيا لجمع المادة العلمية .
ثانيهما : ترجمة ما يهم البحث من المعلومات المكتوبة بالأسبانية إلى اللغة العربية .

ولنبدأ الحديث عن الأمر الأول :

بعد أن استكملت جمع المادة العلمية من خلال المصادر الإسلامية وذلك بعد العثور عليها في مكتبات المملكة والسفر إلى مصر ومن ثم العودة إلى المملكة . بعد ذلك غادرت المملكة إلى المغرب الأقصى وما إن وصلت هناك حتى بدأت بالاتصال مع عدد من الأساتذة المتخصصين في مجال الدراسات الأندلسية .

ثم قمت بزيارة العديد من المكتبات وخزائن الكتب سواء الحكومية منها أم التجارية وزيارة عدد من المهتمين بالمخطوطات الأندلسية وذلك في كل من الدار البيضاء والرباط وتطوان ، واستطعت بفضل ا لله وتوفيقه شراء العديد من المخطوطات والمصادر والمراجع والوثائق والدوريات وقمت بالتجول بين الأماكن الأثرية والمتعلقة بالرسالة ، ثم غادرت المغرب بعد حوالي خمسة وعشرين يوماً من إقامتي فيها متوجهاً إلى أسبانيا .

وفي أسبانيا وبتوفيق من ا لله زرت الأماكن العلمية التالية : وجمعت منها قدرًا من المادة العلمية سيرد ذكر ما تمت الإستفادة منه في قائمة المصادر والمراجع باللغة الأجنبية وقمت بزيارة الأماكن العلمية التالية :

- المعهد الأسباني للثقافة

Institu to Hispana arofe de cuf tora pasee fuan XXIII- 5 - MADRID .

إذ وجدت في هذا المعهد مكتبة تهتم بالتاريخ الإسلامي وقد ترددت عليها مراراً ، ومن خلال وجودي في هذا المعهد تعرفت على الدكتورة الأسبانية " مانيولا مرين " ذات الدراسات العربية المشهورة والتي تتكلم العربية بطلاقة ، فساعدتني مساعدة بالغة في العثور على المادة العلمية بين ثنايا الكتب ، وقد ترددت على هذا المعهد مراراً حيث استطعت من خلال مكتبته جمع مادة علمية قيمة . ومن خلال مكتبته التجارية شراء العديد من المصادر الأندلسية .

- وقمت بزيارة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، وفيه اطلعت على مكتبة ومجلة المعهد .
- مكتبة الأسكوريال التي تبعد حوالي خمسين كيلومتراً عن مدريد ، وقد حصلت منها على مصادر مهمة باللغتين العربية والقشتالية ، بالإضافة إلى العديد من المصادر النصرانية المعاصرة لموضوع الرسالة ، وكذا الكتب والمراجع الحديثة التي تطرقت للموضوع مدار البحث .
- جامعة كمبلوتنسي قسم اللغات

Universdad Complatense 28040 MADRID .

وفيها قابلت بعض الأساتذة المهتمين بتاريخ أسبانيا الإسلامية الذين استفدت من وجهة نظرهم حيال هذا الموضوع .
- معهد الدراسات العربية التابع للمجلس الأعلى للأبحاث العلمية في مدريد .

In Stituto de filo Logiu departamente de estu dios arabes
- متحف مدريد الحربي الذي شاهدت فيه الكثير من الآثار الإسلامية وما يخص مملكة غرناطة .

وزرت العديد من المكتبات التجارية في مدريد واشتريت منها مجموعة من الكتب التاريخية عن غرناطة .

ثم اتجهت إلى غرناطة التي كانت عاصمة لمملكة بني نصر فزرت قصر الحمراء (المدينة الملكية لبني نصر) وتجولت يوماً كاملاً في أرجائه تتملكني الدهشة والإعجاب والسعادة بما رأيت من جمال بناء وروعة تصميم قل أن تأتي الحضارة بمثله ، ثم عدت إليه في اليوم التالي مصطحباً معي مترجماً يقوم بتدريس اللغة العربية في جامعة غرناطة ، وجال بي في جميع أنحاء القصر ، وكذا جنّة العريف المصيف الملكي لسلاطين بني نصر ، واستطعت التقاط صور عديدة لمعالم هذا القصر الرائعة . وفي يوم آخر تجولت في جميع أرجاء غرناطة ، وشاهدت آثار حي البيازين والقيسرية التي ما تزال على هيئتها الإسلامية حتى يومنا هذا .

وكان مما أدهشني أنه عند وصولي بقدر من ا لله وتوفيق منه لم يكن في الحسبان مسبقاً تصادف إقامة معرض عن تاريخ الفن الإسلامي في مملكة غرناطة قد أعدت له الحكومة الأسبانية منذ فترة من الزمن إعداداً علميًّا كبيراً وعرضت فيه نماذج من مختلف الصناعات الغرناطية والشواهد الحضارية لمملكة غرناطة ، وكذلك عرضت نماذج من الأعمال العلمية لمختلف الباحثين عن حضارة وتاريخ مملكة غرناطة موضوع بحثي العلمي واشتريت من المعرض العديد من الكتب والدوريات التي تهم بحثي بيسر وسهولة وهذا توفيق من ا لله عزّ وجل ، وزرت متحف غرناطة الذي شاهدت فيه نماذج من معالم وحضارة غرناطة الإسلامية والتقطت لها بعض الصور ، وقمت بزيارة المارستان والفندق الأثري بحي القيسرية من غرناطة والمدرسة التي أنشأها السلطان يوسف الأول .

واتجهت إلى مدرسة الدراسات العربية

Esccufa Deestudios Arabes Casa de Chepis Cuesta del Chapic 22 Granada.

التي تتخذ من أحد بيوت بعض وجهاء أهل غرناطة المسلمين - أيام بني نصر - مقرًّا لها . وهذه المدرسة تُعنى بالدراسات العربية وخاصة التاريخ الأندلسي . وقابلت أمين مكتبتها يوسف إدريس (وهو أحد الأسبان المسلمين) وقد ساعدني مساعدة جليلة في معرفة المصادر والمراجع ذات العلاقة بموضوع رسالتي . وقمت بزيارة إلى جامعة غرناطة إذ كنت قد نزلت بفندق مجاور لها ، واهتممت في زيارتي ولا سيما بكليتي الفلسفة والآداب اللتين يلحق بهما معهدان هما : معهد تاريخ الملكين الكاثوليكيين " فرناندو وأزابيلا " ومدرسة الأبحاث العربية التي سبق ذكرها ، وزرت - أيضاً - متحف الحمراء وبلدية غرناطة .

ومكثت في غرناطة أياماً استطعت تصوير مادة علمية قيمة وشراء ما يمكن شراؤه من كتب شملت مصادر ومراجع . وخلال ذلك كنت دائب الحركة متجولاً في غرناطة وما حولها من قرى وأرياض وأماكن زراعية ، وبذلك توفر لدي تصور واضح عن مدينة غرناطة لا يمكن نسيانه بسهولة .

ثم سافرت إلى بلدي عن طريق المغرب تغمرني السعادة بما رأيت من نماذج للحضارة الإسلامية في تلك البلاد ، وبما جمعت من مادة علمية كبيرة .

وهكذا استطعت جمع كم وافر من المادة العلمية ترد أسماء ما تمت الاستفادة منه في قائمة المصادر والمراجع مدعمة بالصور الفوتوغرافية عن زيارتي للأماكن التاريخية ومشاهدة لنماذج من الصناعات وشواهد للحضارة الغرناطية .
مع العلم أنني قمت برحلتين أخريين لخدمة هذا البحث آثرت عدم الحديث عنها وبهذا تكون الرحلات العلمية ثلاث رحلات ساهمت في إثراء معلوماتي حيال الموضوع .

الترجمة :

لم تقتصر الصعاب على جمع المادة العلمية فحسب ، بل أدى عدم معرفتي باللغة الأسبانية إلى الاستعانة بأساتذة جامعيين متخصصين في اللغة يحملون درجة الدكتوراه في اللغة الأسبانية ويعملون في جامعة الأزهر ، ومنهم من يُدرّس اللغة العربية في جامعة غرناطة ، ومن ثم الترجمة إلى العربية ، وبالرغم من المادة العلمية التي ترجمتها من الأسبانية إلى العربية فقد اتضح لي - في معظم الأحيان ــ أن بعضاً من تلك المصادر قاصر عن أداء الغرض المطلوب الاقتباس منه مما ضاعف الجهد بضرورة التمحيص والتدقيق والتقاط المعلومات من المصادر الإسلامية لإمكان المقارنة والتحري في المعلومات بدقة خاصة ما ورد في المكتشفات والحفريات الأثرية الحديثة ، وشملت الترجمة أيضاً من لغات أخرى إلى اللغة العربية مثل الترجمة من الفرنسية والانجليزية وذلك لتضافر جهود العلماء في اكتشاف التراث الإسلامي الغرناطي في أسبانيا ، وبذلك استطعت بتوفيق من ا لله إيجاد توازن علمي بين فصول الرسالة ما كان له أن يحدث إلا ببذل كثيرمن الجهد والتضحية بعد عون ا لله وتوفيقه .

عرض لأهم مصادر ومراجع البحث :

وغني عن البيان أن هذه الدراسة لم تكن لتظهر كما ظهرت به إلا لاعتمادها على كثير من المخطوطات والمصادر والمراجع الإسلامية ، وعدد من المصادر والمراجع الأجنبية وسأذكر باختصار نماذج من هذه المخطوطات والمصادر والمراجع [١] .

فكان من بين المخطوطات المعاصرة لمملكة غرناطة التي أفادت منها الرسالة :

" مجموع فتاوى فقهاء غرناطة " المعروف بالحديقة المستقلة النضرة في الفتاوى الصادرة من علماء الحضرة ، إذ قام مؤلف لا زال مجهول الاسم بجمع تلك الفتاوى لأهم فقهاء مملكة غرناطة والذين أذكر منهم : قاضي الجماعة "أبو القاسم بن سراج" ، والأستاذ "أبو إسحاق إبراهيم بن فتوح" و"أبو عبدا لله الحجار" ، وقاضي الجماعة "أبو عبدا لله محمد بن علاق" ، و"أبو عبدا لله محمد السرقسطي" ، وشمل ذلك لمجموع فتاوى ونوازل الشيخ "أبو سعيد فرج بن لب" المسماه تقريب الأمل البعيد في نوازل الأستاذ أبو سعيد ، والحق أن هذا المجموع من الفتاوى وغيره من الفتاوى المطبوعة كان من أهم المصادر وذلك لما عاد به على الباحث من الفائدة في مجال الدين والدنيا ، ولقد عالجت تلك الفتاوى جوانب من الحياة الاقتصادية من زراعة وتجارة وصناعة وسكة وشملت أيضاً النواحي الاجتماعية في مملكة غرناطة والآثار المترتبة على حركة الجهاد الإسلامي في مملكة غرناطة جراء الحرب مع النصارى ومعالجة أوضاع الأسرى وأسر القتلى والمفقودين وعملت على تكافل المجتمع الغرناطي وترابطه في وقت من أشد الأوقات خطورة وقسوة .

وكان من بين المخطوطات الفقهية أيضاً كتاب " زهرة الروض في تلخيص تقدير الفرض " لمؤلفه أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن باق ، وكان من حيث الفائدة مشابهاً لما ورد في المجموع لما تضمنه من إشارات اقتصادية واجتماعية وحضارية لمملكة غرناطة .

وإن كانت كتب الفتاوى والنوازل والفقه الغرناطية قد تطرقت للحياة الاقتصادية والاجتماعية داخل مملكة غرناطة أو فيما يتعلق بخروج المواطن الغرناطي منها وغيابه عن

---

(١) وسترد التعريفات بالأعلام في ثنايا الرسالة ، أما سني وفاة المؤلفين فسترد بقائمة المصادر والمراجع .

أرض وطنه ، فإن مخطوطه " كتاب نصيحة المشاور وتسلية المجاور " لابن فرحون : محمد بن فرحون اليعمري قد شملت عدداً من جوانب حياة الغرناطيين الذين غادروا مملكة غرناطة خاصة من أقام منهم في مكة والمدينة أزاح ابن فرحون في مخطوطته الستار عن تأثر عدد من المهاجرين من مملكة غرناطة في عاداتهم وتقاليدهم بالمجتمع الإسلامي في المشرق فكانت الفائدة عظيمة في مجال العلاقات الاجتماعية ، إذ انفرد كتاب نصيحة المشاور وتسلية المجاور بإشارات اجتماعية مهمة تناولت تأثر الغرناطيين بمجتمع المدينة في مجال اللباس أو العادات والتقاليد .

ومن بين المخطوطات أيضاً التي استفادت منها الرسالة : " تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس " لأبي الحسن علي بن عبدالرحمن بن هذيل ، وفي هذه المخطوطة معلومات مهمة عن الجهاد في الإسلام بصفة عامة والأندلس بصفة خاصة ، وفيها تحريض لأهالي مملكة غرناطة على الدفاع عن الدين والأنفس والوطن وكيفية إعداد العدة لمواجهة الأعداء وفضل الرباط والجهاد في سبيل ا لله .

ومن بين المخطوطات التي أفادت منها الرسالة مخطوطة " نزهة البصائر والابصار " لأبي الحسن علي بن عبدا لله بن حسن النباهي ، وكان الجديد في نزهة البصائر والابصار هو المعلومات الاجتماعية الهامة التي أوردها عن تأثر الحياة الاجتماعية في مملكة غرناطة نتيجة لحركة الجهاد الإسلامي خاصة فيما ورد عن الحياة الاجتماعية الخاصة لسلاطين بني نصر .

كذلك من بين المخطوطات التي أفادت منها الرسالة ، فهرسة السراج لمؤلفها علي ابن يحيى بن أحمد النفزي الحميري الشهير بـ السراج وفيها معلومات مهمة خاصة ما ورد فيها عن الحياة العلمية في مملكة غرناطة ، بدأ المخطوطة بالحديث عن فضل الحديث وأهله ووجوب التثبت في حمله ونقله ، أما فهرسة المنتوري المخطوطة لـ محمد بن عبدالملك علي ابن عبدالملك ابن عبدا لله القيسي المنتوري فكانت ذات أهمية خاصة للحياة العلمية في مملكة غرناطة في القرن التاسع الهجري ، فمن خلالها استطعت معرفة عدد من العلماء وأهم المؤلفات التي دُرست ودُرِستْ في مدارس ومساجد مملكة غرناطة ... وغير ذلك من المخطوطات التي استفادت منها الرسالة .

ومن المخطوطات أنتقل إلى المصادر التاريخية ، وكتب الجغرافيا والمعاجم والرحلات وكتب الأدب وكتب البرامج ، وكتب التراجم ، وكتب الفتاوى ، والنوازل وأذكر نماذج من تلك المصادر :

ولقد كان في مقدمة المصادر التأريخية أو ذات الصبغة التاريخية التي اعتمد عليها البحث التراث الثرّ العظيم للسان الدين بن الخطيب من هذا التراث أذكر " الإحاطة في أخبار غرناطة : و " اللمحة البدرية في الدولة النصرية " و " أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام " و " نفاضة الجراب في علالة الاغتراب " و " ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب " و " معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار " و " كناسة الدكان بعد انتقال السكان " ولهذا التراث أهمية كبيرة باعتبار ابن الخطيب مؤرخاً معاصراً للدولة النصرية ووزيراً من وزرائها طالما شارك في صنع العلاقات السياسية في مملكة غرناطة مع الدول الإسلامية كما كان هو نفسه سبباً من أسباب الخلافات السياسية بين مملكة غرناطة وبني مرين ، ويعد كتاب " الاحاطة في أخبار غرناطة " مصدراً تأريخيًّا شاملاً وردت فيه بعض المعلومات التي توضح العلاقات السياسية والاقتصادية ، والعلمية والاجتماعية ، ولقد استفدت من هذا المصدر فائدة طيبة ، أما كتاب " اللمحة البدرية في الدولة النصرية " فقد أرّخ فيه ابن الخطيب لسلاطين مملكة غرناطة منذ مؤسس دولتها وحتى عصر السلطان محمد الخامس بأسلوب تأريخي مختصر استطعت من خلاله معرفة التسلسل التاريخي لأسرة بني نصر حتى مطلع القرن التاسع الهجري .

ويُعد كتاب " أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام " القسم الخاص بالأندلس من الكتب التاريخية المهمة التي أفادت منها الرسالة خاصة فيما يتعلق بالخلاف بين الدولتين الغرناطية والمرينية .

أما كتاب " نفاضة الجراب في علالة الاغتراب " فقد استفادت منه " الرسالة " استفادة قيمة وذلك فيما يختص بالعلاقات السياسية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية ، إذ تناول عدداً من الشخصيات الغرناطية والمغربية واحتكاكاتها العلمية وتواصلها الثقافي والحضاري ، كما قدّم وصفاً لجغرافية المغرب مع الإشارة إلى بعض النواحي الاجتماعية والاقتصادية للمغاربة علماً بأن ذلك المصدر قد ألفه ابن الخطيب خلال

إقامته في المغرب لاجئاً مع سلطان بلاده محمد الخامس . أما " ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب " فقد كانت منه فائدة جليلة فيما يتعلق بالسفارات والمراسلات بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية ، كما قدم بعض الوثائق الخاصة بالحياة الاجتماعية وتأثرها بحركة الجهاد الإسلامي ، وكذا كان الحال مع " كناسة الدكان بعد انتقال السكان " ، أما " معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار " فقد تحدث فيه ابن الخطيب عن خصائص عدد من المدن الغرناطية خاصة فيما يتعلق بالثروة الزراعية وبعض المنتجات الصناعية والتجارة وما اشتهرت فيه كل مدينة وقرية في مملكة غرناطة مع تعرضه لأشهر المدن المغربية في مجال الصناعة والزراعة والتجارة محاولاً بذلك بيان التكامل الاقتصادي بين العدوتين .

ولقد استفاد البحث أيضاً مما دونه أبو زيد عبدالرحمن بن محمد المشهور بابن خلدون في مقدمته وفي كتابه " العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " وأخص بالذكر الجزء السابع فقد كان ابن خلدون معاصراً لمملكة غرناطة وأقام بها فترة من الزمن ، وصديقاً لابن الخطيب وبذلك غطت المعلومات التي اقتبستها من كتابه التاريخي المذكور بعض الجوانب التي أغفلها ابن الخطيب إما سهواً أو عمداً وبالأخص الوقت الذي لاحقت فيه الدولة النصرية وزيرها ابن الخطيب وإن كان تأريخ ابن خلدون لمملكة غرناطة لا يُقاس بالمعلومات التاريخية التي اوردها ابن الخطيب إلا أنها كانت ذات أهمية .

ومن المصادر ذات الصفة التأريخية التي استفادت منها الدراسة خاصة التمهيد فيها : كتاب " المعجب في تلخيص أخبار المغرب " لمؤلفه عبدالواحد المراكشي والذي وردت فيه تفاصيل عن أواخر دولة الموحدين بالأندلس ، وكذلك كان كتاب " البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، قسم الموحدين " لأبي العباس أحمد بن محمد المراكشي المشهور بابن عذاري ذا معلومات تاريخية قيّمة عن مملكة غرناطة عند قيامها يكاد ينفرد بها عن غيره .

أما أبو الحسن علي بن عبدا لله الفاسي المعرف بابن أبي زرع المعاصر لمملكة بني مرين ففي مؤلفاته المعروفة بـ " الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب

وتأريخ مدينة فاس " و " الذخيرة السنية في تـاريخ الدولـة المرينيـة " كـان يسـجل الوقـائع الجهادية لبني مرين في الأندلس بكل دقة ، كما كان يتابع الخلاف والتضامن بين بـني مريـن وبني نصر .

وكذا فعل ابن مرزوق (محمد التلمساني) في كتابه الذي سماه " المسـند الحسـن في مآثر مولانا أبي الحسن " إذ سجل فيه تضامن السلطان المريني أبي الحسن مع مسلمي مملكـة غرناطة والدعم المادي والمعنوي والتحصينات الدفاعية التي قام بها من أجـل صـد العـدوان النصراني عن مسلمي مملكة غرناطة .

أما المصادر الجغرافية فقد كنت على اتصال دائم بها خلال بحثي للتعرف من خلالهـا على العلاقات الاقتصادية ، والمنتجات الصناعية ، والزراعية وللتعرف على أمـاكن ومواقـع المدن والقرى الإسلامية والطرق التي وردت في ثنايا هذا البحث ، فكان مـا كتبـه كـل مـن الإدريسي (أبي عبدا لله محمد إدريس) في كتابه " نزهة المشتاق واختراق الآفاق " ويـاقوت الحموي في " معجم البلدان " وابن سـعيد (أبـي الحسـن علـي موسـى " في " جغرافيتـه " ، وابن الخطيب في معيـاره ومشاهداتـه ، نعم المساعد في تحديد المدن والحصون التي وردت في الدراسة ، وما اشتهرت به من صناعة وزراعة وتجارة ..

أما كتب الرحلات والبرامج فهي في مجال العلاقات ذات أهمية خاصة ، فقد كـانت رحلات الحج ورحلات التجارة والرحلات الفردية بغـرض الإقامـة في المغـرب والمشـرق أو العكس أحياناً هي السبل المتاحة للتواصل الحضاري بين غرناطةوالدول الإسلامية في المشرق والمغرب ، ومن بين هذه الرحلات أذكر : تاج المفرق في تحلية علماء المشـرق لـ خـالد بـن عيسى البلـوي الذي دوّن فيه لقاءاتـه العلمية بعدد من علماء شمال إفريقيا وعدد من علماء المشرق ، وذلك من لحظة انطلاقه من المرية إلى وصوله إلى مكة والمدينة ثم عودتـه إلى بـلاده فقدم خلال رحلتــه عدداً كثيراً من أسماء العلماء الذين التقى بهم محدداً الأماكن التي زارهم والتقى بهـم فيهـا فكانـت الفائدة عظيمة فيما يخص الفصل الثاني من الرسالة ، وكذا كتب

أبو عبدا لله المجاري برنامجاً عن رحلته من مملكة غرناطة إلى المشرق ، عُرف " ببرنامج المجاري " دوّن فيه لقاءاته بعدد من العلماء وكيفية تدريسهم وحضوره لحلقات العلم والدرس في البلدان التي زارها ذهاباً وإياباً .

كما دوّن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي معلومات قيّمة عن رحلته عرفت برحلة القلصادي من لحظة خروجه من مدينة بسطة إلى مكة المكرمة ثم عودته إلى غرناطة واصفاً لقاءاته العلمية هناك .

ولم تكن الرسالة بمنأى عن كتب الأدب خاصة المعاصرة منها تلك التي وردت فيها معلومات مهمة عن العلاقات الاقتصادية ، أو الاجتماعية ومن بين تلك المصادر الأدبية أذكر : " ديوان أبي الحسن بن الجياب " لأبي الحسن بن الجياب ، وديوان " الصيب والجهام والماضي والكهام " لابن الخطيب و" ديوان ابن الخطيب " ولابن الخطيب "الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه من شعراء الأندلس في المائة الثامنة " و " نثير الجمان فيمن نظمني وإياه الزمان " لأبي الوليد بن الأحمر ، و "ديوان السلطان يوسف الثالث " ملك غرناطة ، وديوان " أبي الحسن بن فركون " ، و "مظهر النور الباصر لابن فركون " وديوان " عبدالكريم القيسي " ، وكانت الفائدة عظيمة من موسوعة المقري (الأندلسية والمغربية) في نفحه وأزهاره .

ولم تقتصر الرسالة على الإفادة من مؤلفات المؤرخين المسلمين الذين عاشوا في الأندلس أوكانوا مجاورين لها في الشمال الإفريقي بل رجعت إلى ما كتبه المؤرخون المسلمون المشارقة في تراجمهم والذين التقوا بأبناء مملكة غرناطة في رحلاتهم العلمية أو عن طريق الحج أو السفراء أو المهاجرين من غرناطة ومدنها وقراها وتتبع حياتهم الاجتماعية ونشاطاتهم العلمية والوظائف والمناصب التي تقلدوها والمؤلفات التي ألفوها والعادات والتقاليد التي نقلوها أو تأثروا بها وبذلك استطعت إلقاء الضوء على حياة الغرناطيين وعلاقاتهم السياسية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية خارج الوطن الأندلسي في مصر والشام والحجاز ، ولقد بذل المؤرخون المشارقة في مؤلفاتهم أو في تراجمهم جهداً كبيراً في

تتبع الغرناطيين المهاجرين أو المرتحلين في طلب العلم أو الحج تتبعاً قل أن تأتي الحضارة بمثله ، من بين هذه المصادر : " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار القسم الخاص بالأندلس " ورغم صغر حجم هذا الكتاب إلا أنه في غاية الأهمية إذ وردت فيه معلومات عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لمملكة غرناطة انفرد بها عن غيره .

وعلى رأس كتب التراجم يأتي : " إنباء الغمر بابناء العُمر في التاريخ " لـ شهاب الدين علي ابن حجر العسقلاني والذي ترجم فيه لعدد كبير من المشاهير والأعيان سواء كانوا من أهل الأندلس أو المشرق مع الإشارة إلى بعض الحوادث التاريخية المهمة ، كما كانت الفائدة عظيمة أيضاً من مؤلفه " الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة " الذي وردت فيها معلومات هامة عن الأندلسيين الذين هاجروا إلى المشرق وعن تأثيراتهم العلمية وتأثيراتهم الاجتماعية .

وكانت الفائدة جليلة فيما دوّنه المقريزي في تراجمه خاصة في كتابه " المقفى " إذ تتبع فيه حياة عدد كبير من الأندلسيين الذين غادروا مملكة غرناطة وسكنوا في المشرق ومشاركتهم العلمية في مجال التدريس والحياة العامة ومؤلفاتهم التي ألفوها وأهم الطلاب الذين تتلمذوا ونبغوا في شتى العلوم على أيديهم وأهم العلماء الذين أخذوا هم عنهم وسني وفاتهم ، وكان من الأهمية بمكان كتابه الاجتماعي والاقتصادي والتأريخي المعروف بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ومن خلاله استطعت معرفة بعض التأثيرات الاجتماعية المتبادلة بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية .

كما كان للسخاوي في مؤلفه " الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع " أهمية في ذكر أسماء عدد من الأندلسيين الذين زاروا المشرق واستوطنوه ، وكان من جراء ذلك وقوع نوع من التفاعل الحضاري والتواصل الثقافي ، ومن خلال ذلك ألقى السخاوي في ضوئه مزيداً من الأضواء على حياة هؤلاء الذين احتكوا بالمجتمع في المشرق الإسلامي أو السفراء الذين قدموا من غرناطة يحملون نداءات الاستغاثة من بلدهم المنقطع بين بحر زاخر وعدو كافر إلى إخوانهم في المشرق .

أما محمد بن أحمد بن إياس الحنفي فقد سجل وتابع في (بدائع الزهور في وقائع الدهور) أخبار مملكة غرناطة رغم بعد المسافة وصعوبة الاتصالات في وقت اشتدت فيه وطأة العدوان النصراني على المسلمين فيها وتضييقهم الخناق عليها من كل جانب واستمر ابن إياس يسجل ما يحصل عليه من معلومات من أفواه القادمين من غرناطة أو المغرب إلى أن وصلته الأخبار باستيلاء النصارى على العاصمة غرناطة ونتيجة لتزايد عدد المهاجرين الذين غادروا بلادهم الأندلس بعد سقوطها فإن المؤثرات الاجتماعية كانت لدى ابن إياس أكثر وضوحاً إذ تمكن من تسجيل بعض ظواهرها استفاد منها البحث فيما يخص العلاقات الاجتماعية . والحق أنه كان هناك عدد كبير من المصادر لم يرد في هذه العجالة وإذا كانت المصادر هي مادة الدراسة بالدرجة الأولى فإن ذلك لا يعني أنها كانت بمنأى عن الاستفادة من الدراسات الحديثة فقد أفادت الدراسة بما وقع تحت اليد من كتب وأبحاث ومقالات ورسائل تمس جوانب الموضوع من قريب أو بعيد ، فقد استفاد البحث من مما أورده كل من محمد كمال شبانه في كتابه السلطان يوسف الأول ملك غرناطة .

وروجيه لوتورنو ، فاس في عصر بني مرين .

وروبار برنفشك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي .

محمد رزوق : الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرن ١٦ ، ١٧ .

بو عياد : جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري .

وعبدا لله السويسي : تاريخ رباط الفتح .

وغير ذلك كثير من المراجع والدوريات التي أفادت منها الرسالة . والتي سترد قائمة بأسمائها في فهرست المصادر والمراجع .

ولم يقف البحث عند حدود المصادر والمراجع الإسلامية فحسب بل تجاوز ذلك إلى الإفادة من المصادر والمراجع النصرانية ، إذ لم يكن من السهل تجاهل وجهة نظر أعداء مملكة غرناطة في شبه جزيرة أيبريا التي دارت على أرضها تلك الأحداث وانبثقت منها تلك العلاقات وكان من بين تلك المصادر :

سـيرة الهالكونـيرو Cronica del Halconero بقلـم " بـدرو كاربــو دي ويـت "
Pedro Carriblo de Huete

وسيرة الملوك الكاثوليك فرناندو وإزابيلا ملوك قشتالة وأرغون لفرناندو دي بلجار

Fernando dil Plulgar, Cronica Serncores reyes Catolicos don Frenando dona Isbel de castilla X de Aragon, Escrita por Sucronista.

ولقد كان المـؤرخ النصراني فرنـاندو دي بلجـار معـاصراً للسـلطان أبـا الحسـن وابنـه أبـي عبدا لله ومعاصراً لسقوط غرناطة وقد أورد تفاصيل سقوط المدن الغرناطية تباعـاً في أيديهـم والمذابح التي كان يقترفها أبناء دينه .

أما المؤرخ هيرناندو دي باثا (Heranando BAza)

المعاصر لأواخر عصر مملكة غرناطة فقد أرخ لأواخر حياة السلطان سعد وابنائه أبي الحسـن علـي وأبـي عبدا لله محمـد وحفيـده أبـي عبدا لله محمـد بن علـي فـيما كتبه تحت عنوان "ما حدث بين ملوك غرناطـة منـذ عهـد الملـك دون خـوان ملـك قشـتالة إلى أن اسـتولى الملـوك الكاثوليك على مملكة غرناطة La Scosasque dosaron entre Losreyes de Granada

de eltimpo del reydon Juan de Castille egunde de este nom pre hosta gue los Catolicos reyes gunaron el reino de Granada.

في كتاب :Delas Cofas xue Posoron entrelos reyes de Granada ومعلوماته كتبهـا مـن خلال اقامته داخل بلاط الحمراء إذ إنه كان قـد وقـع أسـيراً في أيـدي مسـلمي غرناطـة ثـم عاش في غرناطة واتخذه السلطان أبو الحسن خادمـاً لـه في منزلـه ، وقـد شـاهد عمليـة ذبـح السلطان محمد الحادي عشر على يسار ساحة الأسـود كمـا شـاهد في الوقـت نفسـه خنـق أطفال السلطان المذكور كما أنه عمل مترجماً لدى السلطان أبي عبـدا لله محمـد بـن علـي . وبذلـك قـدم هـذا المـؤرخ النصرانـي الـذي عـاش في قصـور سلاطين بـني نصـر معلومـات استفادت منها الرسالة في التمهيد عنها وأنارت جوانب كانت ستبقى غامضة .

كما أفادت الرسالة أيضاً من الوثـائق خاصـة مـا يتعلـق منهـا بالتجـارة والمعـاهدات والاتفاقات السياسية التي شارك فيها النصارى مع مملكة غرناطة والدولة الإسلامية في شمـال إفريقيا ومن تلك الوثائق العربية والمراسلات الدبلوماسية في أرشيف مملكة أرغون

Documentos Arabes Diplomaticos Del Archivo Dla Corona DeAragon.

كذلك استفاد البحث من بعض المراجع مثل ما كتبه " أماسيا روس " في كتابه مملكة أرغون وحكومات شمال إفريقيا

A Musia de Ros (A.) la corona de Aragon Y los Estudos del nort de Africa .

وكتاب بوسك موريل " الجغرافيا المدنية لغرناطة "

Bosque Mourol
Gegrafia A larana de Granada .

وقد استطعت من خلاله معرفة حدود مملكة غرناطة واقتباس خارطة لمملكة غرناطة .

وكانت الفائدة عظيمة من الأبحاث التي نشرها علماء الأسبان بمناسبة المعرض الذي أقامته أسبانيا تحت عنوان الفن الإسلامي في غرناطة إذ عرضت فيه للبيع مختلف المقالات التي تناولت الحفريات والمكتشفات الحديثة لعلماء الآثار الأسبان وغيرهم وذلك في دوريات مختلفة صدرت في مدينة غرناطة في سنين مختلفة .

وليس هناك من كلماتٍ في ختامِ هذا التقديم أولى من توجيه الشكر إلى ا لله تعالى أولا ، ثم توجيهِ الشكر للأستاذ الدكتور سعد بن عبدا لله البشري المشرف على هذه الرسالة والإقرار بفضله لما أولاني من رعايته وما وهبني من علمه وخبرته ووقته وما قابلني به من بشاشةِ وجهٍ ورحابةِ صدرٍ وكرم ضيافةٍ وما أسدى إليَّ من نصائحَ وتوجيهاتٍ تضاءلتْ معها الصعوباتُ على كثرتها وتعقيدها وكان له أكبرُ الأثرِ في إنجازِ هذه الدراسةِ وتقويمها كما كان له أكبرُ الأثرِ في النفس لما ترك من عمقِ استاذيةٍ وحسن تعامل ؛ فجزاه ا للهُ خيراً كفاء ما قدم من عونٍ صادقٍ وتوجيهٍ سديدٍ داعياً ا للهَ أن يَمُدَّ في عُمُرِهِ وأن يبارِكَ في وقتِهِ وأن يديم النفع به .

ولا يسعني إلا أن أتوجهَ بالشكرِ الجزيلِ لعمداء كلية الشريعةِ والدراسات الإسلامية بجامعةِ أم القرى الذين تَوَلَّوْا عمادةَ الكلية خاصة عميدها الحالي الدكتور محمد بن علي العقلا لما ترك في النفس من انطباع حسن عن هذه الكلية ، وكذلك لرؤساءِ قسمِ الدراساتِ العليا التاريخيةِ والحضاريةِ الذين تعاقبوا على رئاسةِ القسم خلال فترةِ البحث وأخصُّ بالذكرِ الأستاذَ الدكتور يوسف الثقفي الذي تيسرتْ على يديه كثيرٌ من الأمورِ

الإدارية المتعلقة بالدراسة . وإلى الأستاذين الفاضلين عضوي لجنة المناقشة الأستاذ الدكتور يوسف أحمد حواله والأستاذ الدكتور مريزن سعيد عسيري فإليهما أتقدمُ بالشكرِ والتقديرِ على ما بذلاه من جهد في قراءةِ هذه الرسالةِ والحكمِ عليها .

وفي الختام فإنني أزجي الشكر لوالديَّ اللذين قاما برعايةِ أسرتي أثناء غيابي لانشغالي بهذا البحث كما رعياني من قبل . كما أشكرُ كلَّ من أسدى إليَّ عوناً في بحثي هذا وكلَّ من شرفني بحضوره وأدعو ا لله مخلصاً أن ينفعنا بما علمنا إنه على كل شيء قدير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،،

عبده بن محمد عواجي عبدالقهار

التمهيد

تطور مملكة غرناطة منذ نشأتها حتى سقوطها

بعد صلاة الجمعة الموافق ٢٦ رمضان ٦٢٩هـ /١٢٣١م بايع الحاضرون بمسجد مدينة أرجونة (الواقعة في في ضواحي جيان) [١] أحد وجهائهم . ويُدعى محمد بن يوسف ابن نصر أميراً عليهم ، وسموه بأمير المسلمين [٢] ...

وفي سنة ٦٣٥هـ /١٢٣٧م وصل محمد بن يوسف بن نصر إلى مدينة غرناطة [٣] بعد أن أرسل أهلها ببيعتهم إليه ، وكان يوم وصوله إلى غرناطة كما شاهده الناس يلبس (لباساً بسيطاً خشناً) [٤] ، ولكنه كان بطلاً شجاعاً فأورثه ذلك سمواً وارتفاعاً [٥] .

---

(١) جيان : إحدى الولايات الغرناطية في الجنوب الغربي من الأندلس تقع على سطح جبل مرتفع ولها قصبة حصينة ، وهي غنية بينابيعها وعيونها ، سقطت في أيدي النصارى في عهد محمد بن يوسف بن نصر . (انظر ياقوت الحموي : أبو عبدا لله شهاب الدين ياقوت بن عبدا لله الرومي ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٤هـ خمسة أجزاء جـ٢ ، ص ١٤٥) .

(٢) ابن أبي زرع : أبو الحسن علي بن عبدا لله الفاسي ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط، ١٩٧٢م ، ص ٢٧٥ ، النباهي : أبو الحسن علي بن عبدا لله بن الحسن المالقي ، نزهة البصائر والأبصار مخطوط بمكتبة الأسكوريال رقم ١٦٥٣ ، ص ٨٣أ .

(٣) غرناطة : أو إغرناطة ، وهي تعني الرمانة بلسان عجم الأندلس وسميت بذلك لحُسنها وجمالها ، تقع على الضفة اليمنى لنهر شنيل ، وهي عاصمة الإقليم الجنوبي للأندلس منذ أن دخلها محمد بن يوسف ابن نصر سنة ٦٣٥هـ ، (انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان، جـ٤ ، ص ١٩٥ ، وابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبدا لله السلماني ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، تحقيق محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤٧هـ ،ص ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، أربعة مجلدات ، تحقيق محمد عبدا لله عنان ، الطبعة الثانية ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٣٩٣هـ /١٩٧٣م ، جـ ١ ، ص ٩١ وما بعدها) .

(٤) ابن عذاري : أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، قسم الموحدين . تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ، محمد بن تاويت وآخرين ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط الأولى ١٤٠٦هـ ، ص ٣٤٢ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٩٦ .

وما أكثر ما أثر فيه اشتهار لقب أبيه بالأحمر واستعمله في كل شيء وعليه في الشهرة والعلامة اقتصر [(١)] .

ومحمد بن يوسف بن نصر هو : أبو عبدا لله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الأنصاري ، من ولد سعد بن عبادة [(٢)] - رضي ا لله عنه - فانتسابه إلى سعد بن عبادة أحد كبار صحابة رسول ا لله ﷺ أضاف إليه عراقة في المجد ، ونسباً في التاريخ الإسلامي مشهور .

وفي سنة ٦٣٦هـ صعد أبو عبدا لله محمد بن يوسف بن نصر (محمد الأول) إلى هضبة في غرناطة وأجال فيها نظره ، ووضع حجر الأساس للقصر الملكي (وجعل فيه مَنْ حَفَرَه ، وما تمَّت السنةُ إلا والحصن مُشيّد البناء حصينة وقد جاءه من ماء الوادي برفع سدّ وحفر ساقية مُعينه) [(٣)] .

ومنذ ذلك الحين اتخذ السلطان النصري أبو عبدا لله محمد الأول غرناطة عاصمة له وحول الجزء الداخلي للقصبة التي شيدها الزيريون [(٤)] إلى عاصمة ملكية حقيقية شكّلت في الوقت نفسه قصراً ملكياً وحصناً دفاعياً[(٥)] وخضعت لسلطته كل المدن الأندلسية التي نجت من

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب قسم الموحدين ، ص ٢٩٦ .

(٢) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٢١ ، ٢٢ ، والاحاطة جـ ٢ ، ص ٩٢ ، وابن خلدون : أبو زيد عبدالرحمن بن محمد ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، ٧ أجزاء بيروت ١٣٩٩هـ ، جـ ٤ ، ص ١٧٠ .

(٣) ابن عذاري : المصدر السابق ، ص ٣٤٩ .

(٤) الزيريون : نسبة إلى زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي الذي اتخذ غرناطة مقراً لحكمه سنة ٤٠٣هـ ، وبقيت إمارتها في عقبة إلى أن أطاح بهم المرابطون في عام ٤٨٣هـ (انظر ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٢٠) .

(٥) ابن جزي : عبدا لله بن محمد الكلبي: كتاب الخيل مطلع اليمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال ، تحقيق محمد العربي الخطابي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٤٠٦هـ ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

الاحتلال النصراني بعد تدهور دولة الموحدين ، وأسس دولة وصفها ابن خلدون بعد قرن من إنشائها بأنها تمتد على طول الساحل الأندلسي ، يحدها من الغرب رونـدا [١] ومن الشرق ألبيرة [٢] على مسافة سير عشر مراحل من الشرق إلى الغرب ، وبطول أحد عشر يوماً من البحر إلى الشمال [٣] .

تلك هي مملكة غرناطة التي شهدت عاصمتها نمواً وازدهاراً وكثافة في السكان نتيجة للهجرة المكثفة لمسلمي الأندلس الذين غادروا مدنهم التي سقطت في أيدي نصارى مملكتي قشتالة وأرغون بعد هزيمة دولة الموحدين في معركة العقاب والانهيار التام الذي أصابها بعد ذلك .

وفي عهد السلطان النصري محمد الأول قويت عمارة غرناطة ، فأراد أن يوسع جامعها ويزيد فيه [٤] لكي يستوعب المصلين والذين زاد عددهم نتيجة لما أشرت إليه آنفا ، ونشأ في غرناطة حي بأكمله يسمى بحي البيازين [٥] ، وساد الأمن والاستقرار في مملكة

---

(١) روندا : أو رندة : تقع في الجانب الغربي من مدينة مالقة ، وهي من أهم القواعد الأندلسية لارتفاعها وحصانتها ، وكانت تدعى بعش النسر ، وتعتبر الحصن الذي يحمي مالقة من ناحية الغرب ولأهميتها أسندت حمايتها لبني مرين ، ولما سقطت رندة في أيدي النصارى ، أضحى الطريق سهلاً للاستيلاء على مالقة . (انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٩٥) .

(٢) ألبيرة : مدينة أندلسية أسسها الأمير الأموي عبدالرحمن بن معاوية نزلها جند دمشق من العرب ، ازدهرت فترة من الزمن ثم لم يلبث أهلها أن انتقلوا إلى مدينة غرناطة المجاورة لها (انظر الحميري : أبي عبدالله محمد بن عبدالمنعم ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار عني بنشرها إ . لافي بروفنسال د. ت . ، ص ٢٩) .

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ص ١٧١ .

(٤) ابن عذاري : البيان المغرب قسم الموحدين ، ص ٣٥٨ .

(٥) حي البيازين : هو الحي الريفي من العاصمة غرناطة والذي يقطنه مربو الماشية والفلاحون ويمكن مشاهدة هذا الحي باكمله من داخل نوافذ وشرفات قصر الحمراء (انظر الصورة في الملحق رقم (١) والتي التقطها لجانب من هذا الحي من داخل قصر الحمراء) .

غرناطة وتم جمع مسلمي الأندلس في كيان واحد ودولة موحدة بعد حالة الفوضى والسلب والنهب وعدم الاستقرار السياسي التي سادت بعد موقعة العقاب .

وانتهج السلطان النصري محمد بن يوسف بن نصر سياسة الحزم والعدل في الرعية ؛ ((إذ كان يعقد للناس مجلساً عاماً يومين كل أسبوع ترتفع إليه الظلامات ويشافهه طلاب الحاجات ، وينشده الشعراء ، وتدخل إليه الوفود ، ويشاور أرباب النصائح ، في مجلس يحضره أعيان الحضرة ، وقضاة الجماعة وأولو الرتب النبيهة في الخدمة يفتتح بقراءة من احاديث الرسول ﷺ ، ويختتم بأعشار من القرآن الكريم ثم ينتقل إلى مجلس خاص ينظر فيه أموره ، فيصرف كل قصة إلى من يليق به النظر فيها ، ويواكل العشيات خاصة من قرابته ومن يليهم من نبهاء القواد)) (١) .

ولقب السلطان محمد بن يوسف نفسه بالغالب با لله ، كما اتخذ هذا اللقب شعاراً لدولته ، وبقي كذلك في عقبة من بعده ، وفي ذلك يقول أبو الوليد بن الأحمر : ((وقد اشتق بعضهم العلامة مجالساً للقبة ، كالسلطان جدي أمير المسلمين الغالب با لله محمد بن يوسف بن الأحمر أول ملوكنا بالأندلس ، تلقب بالغالب با لله ، فكتب علامته ولا غالب إلا ا لله (٢) ، وسك عملة ذات قيمة اقتصادية طيبة (٣) ، وتولى بنفسه الشؤون المالية في بلاده ، وشحن خزائن دوره بالمال والسلاح (٤) ، وكان لا يسرف في الانفاق ولا يحابي (٥) .

وفي سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م وقّع معاهدة سلام مع مملكة قشتالة نصت في أحد شروطها على أن يسود السلام بين الطرفين لمدة عشرين عاماً (٦) . استغلها في تثبيت دعائم

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٣٦ ، والاحاطة جـ ٢ ، ص ٩٥ .

(٢) ابن الأحمر : أبو الوليد إسماعيل بن يوسف ، مستودع العلامة ومستبدع العلامة ، تحقيق محمد التركي التونسي ، محمد بن تاويت ، المركز الجامعي للبحث العلمي (د ت) ، ص ٢١ .

(٣) انظر : ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٧ .

(٤) انظر : ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٣١ .

(٥) ابن عذاري : البيان المغرب قسم الموحدين ، ص ٣٥٨ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٣٦٧ حيث ترد تفاصيل تلك المعاهدة .

الحكم وفي بناء البنية الأساسية لدولة يحيط بها الأعداء من كل جانب مُرَكِّزاً على بناء قوة عسكرية وروابط أخوية مع الدول الإسلامية في شمال افريقيا .

وبعد انتهاء فترة السلام المشار إليها ومحاولة ملك قشتالة الاجتماع والالتقاء بالسلطان النصري للنظر في أمر تلك المعاهدة ((حلف ابن الأحمر بأيمانه حين ذلك أنه لا يراه ولا يلقاه إلا في قتال أو جلاد فكان الأمر كذلك)) (١) .

وفي سنة ٦٦٢هـ /١٢٦٣م عقد البيعة بولاية العهد لابنه محمد الثاني ، والذي تولى الوزارة في عهد أبيه وسانده في إدارة شؤون الحكم في غرناطة ، وما إن حلت سنة ٦٧١هـ /١٢٧٢م حتى كان السلطان محمد بن يوسف قد جاوز الثمانين من عمره وكانت وفاته ليلة الجمعة التاسع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة عقب عودته من حملة تأديبية في ضواحي غرناطة ، وسقط من فوق جواده ، وتوفي في الحال ، ودفن بجوار قصره بمقبرة السبيكة (٢) . ومحمد الثاني الذي خلف أباه كان عالماً تقيّاً قارئاً للقرآن الكريم ، وقد لقّب بالفقيه لعلمه وتقواه (٣) . وهو الذي أرسى دعائم مملكة غرناطة ، وأقام رسوم الملك فيها ، وقمع ثورة بني أشقيلوله (٤) .

ومرت مملكة غرناطة في عصره بحوادث جسام كانت فيها غرناطة بمثابة القلب النابض في أوروبا وشمال إفريقيا ، ووصف ابن الخطيب موقف السلطان محمد الفقيه من تلك الأحداث بقوله : ((فثبت لزلزالها رابط الجأش ثابت المركز ، وبذل من الاحتيال والدهاء المنوفين بجميل الصبر مما اضطره بخلو جوه ، وطال عمره وبعد صيته واشتهر في الآفاق ذكره ، وعظمت غزواته)) (٥) .

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب قسم الموحدين ، ص ٤٣١ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ١٠٠ واللمحة البدرية ، ص ٣٦ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، جـ ٢ ، نشر ليفي بروفنسال ، ط٢ ، ١٩٥٦م ، بيروت دار المكشوف ، ص ٢٧٧ .

(٤) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٣٨ ، ص ٤٤ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٨ .

توفي محمد الثاني سنة ٧٠١هـ /١٣٠١م وخلفه ولي عهده محمد الثالث الذي كان له نفس اسم أبيه وجده ، ولقد كان من أعظم أعماله الداخلية (ابتناء المسجد الأعظم بالحمراء من غرناطة على ما هو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش من فخامة العمد واحكام أنوار الفضة وإبداع ثرياتها ووقف عليه الحمام بإزائه) [(١)] . وقد أدى هذا المسجد دوره في كونه مكاناً للعبادة وإلقاء الدروس وحلقات الذكر ووقفت لصالحه بعض الأحباس في غرناطة [(٢)] .

وقد نشأ محمد الثالث نشأة علمية فكان يسهر الليالي في قراءة الكتب على ضوء ضخام الشمع مما أدى إلى إصابته بالمرض في عينيه [(٣)] .

وفي عصره ازدهرت البحرية الغرناطية وصناعة السفن في المرية [(٤)] وما أن حل عام ٧١٢هـ /١٣١٢م حتى كان أهالي مملكة غرناطة يشعرون بمدى قوتهم البحرية [(٥)] وأصبحت البحرية الغرناطية في عهد محمد الثالث سيدة مضيق جبل طارق ، وبسبب سياسته الخارجية تجاه بني مرين وبضغط من الشعب الغرناطي اضطر محمد الثالث للتنازل عن الحكم لأخيه نصر الذي استمر حكمه حتى سنة ٧١٣هـ /١٣١٣م .

وفي سنة ٧١٢هـ /١٣١٢م قاد أحد أمراء بني نصر ، ويدعى أبو الوليد إسماعيل انقلاباً ضد السلطان نصر ، وبعد حوادث يضيق المقام هنا عن سردها حاول النصارى خلالها الاستيلاء على غرناطة [(٦)] ، استقرت الأوضاع لصالح السلطان النصري

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٥٠ والإحاطة ، جـ ١ ص ٥٤٦ ، ٥٤٧ .

(٢) الونشريسي : أحمد بن يحيى ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب ثلاثة عشر جزءاً أخرجه جماعة من الفقهاء باشراف د. محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ١٤٠١هـ ، جـ ١ ص ٣٩٦ .

(٣) انظر ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٤٨ .

(٤) سيأتي التعريف بهذه المدينة .

(٥) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٥٣ .

(٦) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٨٩ .

أبي الوليد إسماعيل سنة ٧١٦هـ /١٣٢٦م والذي وجد فيه أبناء مملكة غرناطة ضالتهم المنشودة ، فقد وصفه ابن الخطيب بإقامته للعدل والاجتهاد في مدافعة أعداء الله وأنه شديد المحافظة على تطبيق الشريعة الإسلامية (١) ، وفي عهده ظن النصارى في قشتالة أن الوقت قد حان لتوجيه الضربة القاضية لمسلمي غرناطة ، وذهب الأمير دون خوان بسكي الوصي على عرش مملكة قشتالة ((إلى البابا ، وسجد له وتضرع ، وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس)) (٢) ، وقدم البابا تبرعاً بالأموال اللازمة لشن حملة صليبية على غرناطة ودعا النصارى للاشتراك في هذه الحملة ، وأمام تلك الحشود الصليبية وجّه السلطان أبو الوليد إسماعيل نداءً إلى إخوته في مملكة بني مرين لطلب النجدة والمدد ، فرفض السلطان المريني أبو سعيد ذلك مطالباً بتسليم شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء الذي كان في مقدمة المجاهدين (٣) والذي كان على خلاف مع بني مرين والتجأ إلى غرناطة فآوته والتحق بصفوف المجاهدين . وعندئذ لجأ أبو الوليد وجيشه إلى ((أعظم الأدوية وهو اللجوء إلى الله تعالى)) (٤) عملاً واعتقاداً قوياً بقوله تعالى : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ (٥) .

وفي أواخر عام ٧١٨هـ /١٣١٨م وصل الجيش الصليبي بقيادة الأميرين دون بدرو ، ودون خوان بسكي إلى مرج غرناطة ، وخرج للقائهم الجيش الغرناطي بقيادة

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٧١ .

(٢) المقري : شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٨هـ ٨ أجزاء ، جـ ١ ص ٤٤٩ .

(٣) كان ذلك في نطاق الخلاف بين الدولتين ولا يقلل هذا الأمر من الدور الجهادي العظيم الذي قامت به الدولة المرينية في سبيل نصرة مسلمي مملكة غرناطة ولقد بينت ذلك في الحديث عن التضامن الإسلامي بين الدولتين انظر ص ٦٦ .

(٤) المقري : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٤٩ .

(٥) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

عثمان بن أبي العلاء ونشبت المعركة بين الفريقين ، فهزم النصارى ، وقتل عدد كبير منهم ومن بينهم الأميران " دون بدرو " و " ودون خوان بسكي " وفي ذلك يقول ابن الخطيب : بعد خمسين سنة من تلك المعركة التي سميت بمعركة المرج :

لله يومُ المرج لا بَعدتْ به　　　أيدي الزمان وَشَفَعَتْهُ بثان [١]

وفي عصر السلطان أبي الوليد إسماعيل تنامت القوة الحربية الذاتية لمسلمي مملكة غرناطة وتم صنع مدفع البارود والذي سماه ابن الخطيب " بالآلة العظمى المتخذة من النفط " [٢] والتي استخدمها أبو الوليد أثناء حصاره لنصارى حصن أشكر المجاور لمدينة بسطة [٣] ، فكانت القذيفة التي يطلقها ترمي بشآبيب من الشرر ثم تسقط وسط المحاصرين محدثة من عظيم التخريب ما تحدثه الصاعقة السماوية [٤] .

وحقق السلطان أبو الوليد إسماعيل العديد من الانتصارات في ميدان الحرب مع النصارى واسترد منهم العديد من المواقع والحصون ، مثل مارتش وبسطة وبياسة ، ولكن لم يمض على هذه الانتصارات إلا أيام قلائل حتى قتل السلطان أبو الوليد عقب عودته لغرناطة من واحدة من تلك الغزوات على يد ابن عمه محمد بن إسماعيل ، طعنه بخنجر غدراً ، وذلك في اليوم الذي أعده استقبالاً للمهنئين بتلك الانتصارات في ٢٦ من شهر رجب ٧٢٥هـ /١٣٢٤م [٥] ، ثم ولي بعده ابنه محمد الرابع الذي لم يتجاوز سنه الحادية عشرة ، وقام بتصريف شؤون الدولة الوزير الحسن بن مسعود لفترة قصيرة ، إذ توفي متأثراً

---

(١) ابن الخطيب : ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام ، دراسة وتحقيق د. محمد شريف قاهر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ط١ ، ١٩٧٣م ، ص ٥٩١ .

(٢) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٧٢ ، والإحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٩٠ .

(٣) بسطة : مدينة بالأندلس بالقرب من وادي آش كانت أيام مملكة غرناطة عامرة آهلة بالسكان ذات أسواق وبها تجارات (انظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٤٤ ، ٤٥) .

(٤) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٧٢ والإحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٩٠ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٩٢ ، واللمحة البدرية ، ص ٧٣ ، ٧٤ .

بالجراح التي أصابته عند اغتيال السلطان أبي الوليد إسماعيل ، وتولى الوزارة وكيل أبيه محمد بن أحمد المحروق الذي انفرد بالأمر ، وأدى ذلك إلى تدهور الأوضاع والانشقاق في الجيش الغرناطي (١) .

وأدرك السلطان محمد الرابع خطورة الموقف في بلاده فاستدعى في اليوم الثاني من المحرم ٧٢٩هـ /١٣٢٨م الوزير محمد بن المحروق وتخلص منه ، وقام السلطان بأعباء ملكه (٢) .

ونظراً لشجاعة هذا السلطان وقوة شخصيته خشي شيوخ الغزاة من سطوته ، وبعد عودته من زيارة لدولة بني مرين والتي أسفرت عن تحرير جبل طارق بعد أن ظل في أيدي النصارى أربعة وعشرين عاماً . وقبل أن يصل إلى العاصمة غرناطة دبَّر شيوخ الغزاة من بني العلاء خطة لاغتياله ونجحوا في ذلك ، وكان مقتله يوم الأربعاء الثالث عشر من ذي الحجة ٧٣٣هـ /١٣٣٢م (٣) .

بعد اغتيال محمد الرابع بويع أخوه يوسف الأول أبو الحجاج ، وسارع الجناة شيوخ الغزاة بالدخول في بيعته .

ولقد كانت من أولى اهتمامات هذا السلطان أن يثأر لأخيه من بني العلاء وقد تم له ذلك (٤) .

ويعدّ عهد هذا السلطان ذروة مجد مملكة غرناطة وتطورها ، وفي خلال فترة حكمه (٧٣٣ - ٧٥٥هـ / ١٣٢ - ١٣٥٤م) كان محاطاً بوزير مخلص هو الحاجب رضوان . وبجمهرة من الفقهاء والأدباء والعلماء والمشاهير والقضاة ، وكان من بين هؤلاء الشاب

---

(١) انظر ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٨١ ، والإحاطة ، جـ ١ ، ص ٥٣٣ .

(٢) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، نفس الصفحة ، والإحاطة نفس الجزء والصفحة .

(٣) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٨٣ ، والإحاطة نفس الجزء ، ص ٥٤٠ ، ٥٤١ وابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ١٧٤ .

(٤) انظر : ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ٣٧٢ وابن الخطيب اللمحة البدرية ص ٩٢ .

الذي ذاع صيته مبكراً (ابن الخطيب) ، مما أضفى على عهد السلطان يوسف أبي الحجاج شهرة وفخراً ، ما زالت آثار مملكة غرناطة تحمل آثارها إلى اليوم ، ففي عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م شُيد الباب الأثري للحمراء الذي أطلق عليه باب العدالة وكذلك تم تشييد جزء كبير من القصر الملكي ، وتم إنجاز العديد من المنشآت المدنية ، وبُنيت في عهده مدرسة غرناطة (١) ، وخاضت في عهده مملكة غرناطة ودولة بني مرين حرباً مشتركة ضد الجيوش النصرانية المتحالفة (٢) .

وفي سنة ٧٥٥هـ /١٣٥٣م ، وفي صبيحة يوم الأحد من عيد الفطر المبارك ، وفي أثناء الركعة الأخيرة من صلاة العيد هجم على السلطان يوسف رجل معتوه ، وطعنه بخنجر كان قد شحذه من قبل ، وقبض على الجاني وحمل السلطان إلى منزله وما كاد يستقر على سريره حتى انتقل إلى رحمة ا لله (٣) .

وخلفه في الحكم ابنه محمد الخامس والذي حكم غرناطة في فترتين : الفترة الأولى من سنة ٧٥٥ - ٧٦٠هـ / ١٣٥٣ - ١٣٥٨م ، حيث أطاح به انقلاب بقيادة أخيه إسماعيل ؛ حيث غادر محمد الخامس مملكة غرناطة إلى المغرب (٤) واستقرت الأوضاع لصالح إسماعيل الذي لم تطل مدة حكمه ، إذ تمكن ابن عمه أبو سعيد البرميخو من قتله (٥) ، وأعلن أبو سعيد نفسه سلطاناً على غرناطة سنة ٧٦٣هـ /١٣٦١م وفي عهده تدهورت الأوضاع الداخلية في مملكة غرناطة لتفشّي المنكرات فيها ، والخروج عن تعاليم الشريعة الإسلامية ،

---

(١) انظر ص ١٤٦ من الرسالة .

(٢) انظر ص ٧٦ من الرسالة .

(٣) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٩٧ ، والإحاطة ، جـ ٤ ، ص ٣٣٣ وأعمال الأعلام ، جـ ٢ ، ص ٣٠٦ .

(٤) انظر ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٥) انظر نفس المصدر ، ص ١١٦ ، والإحاطة ، جـ ١ ، ص ٤٠٢ . والبرميخو باللغة الأسبانية تعني اللون البرتقالي الضارب إلى الحمرة ولقد كان مؤسس الدولة النصرية محمد بن يوسف بن نصر يُعرف بابن الأحمر نسبة إلى لونه الأزهر وإلى جده عقيل الملقب بالأحمر ولقد توارثت أسرة بني نصر هذا اللون إذ ظهر بعد ذلك في السلطان أبي سعيد (انظر النباهي : أبو الحسن علي بن عبدا لله ، نزهة البصائر والابصار ورقة ٨٢ وجه) .

وأمام الضغط الشعبي الموالي للسلطان محمد الخامس الذي كان لاجئاً في المغرب ، والذي وصل إلى شواطئ الأندلس بمساعدة من السلطان المريني والملك القشتالي . ونتيجة للضغط الداخلي والخارجي ، غادر أبو سعيد البرميخو غرناطة في زيارة لملك قشتالة الذي أمر بقتله مع الوفد المرافق له [(١)] ، فوصل محمد الخامس إلى مملكته لتبدأ فترة حكمه الثانية والتي شهدت خلالها مملكة غرناطة ذروة مجدها وقمة عزها وشهدت فيها الحضارة الغرناطية الإسلامية ازدهاراً ورقياً في شتى مناحي الحياة ، وازداد التواصل الحضاري بين مملكة غرناطة والعالم الإسلامي[(٢)] ، وتعتبر نهاية محمد الخامس وموته سنة ٧٩٣هـ /١٣٩٠م بمثابة خط فاصل بين مرحلتين متميزتين مدة تاريخ مملكة غرناطة إذ بدأت في دور الانحطاط والسقوط .

وفي اليوم الذي توفي فيه محمد الخامس بويع من بعده ابنه أبو الحجاج يوسف الثاني والذي لم تطل مدة حكمه إذ توفي سنة ٧٩٤هـ ١٣ اكتوبر ١٣٩١م [(٣)] .

ثم تولى من بعده ابنه محمد السابع والذي يعتبر بحق آخر سلاطين غرناطة الذين تحملوا مسؤولية الحكم وحملوا راية الجهاد بإخلاص واقتدار ، ومن أبرز مميزات حكمه في المجال الداخلي إقالة الوزير ابن زمرك ، والذي تولى منصب الوزارة ردحاً من الزمن ، فداهمت الشرطة منزله وقتل في ليلة صيف ٧٩٥هـ /١٣٩٢م [(٤)] وأحل محله في الوزارة أبو بكر محمد بن عاصم .

أما في مجال علاقته بمملكتي قشتالة وأرغون ، ففي عهده شَنَّ مسلموا غرناطة هجوماً على مملكة مرسيه وصلوا فيه إلى حدود قرطاجنة [(٥)] .

---

(١) انظر ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، جـ ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٢) انظر الفصل الثاني والثالث والرابع من الرسالة .

(3) **M. LA FUENTEYALCANTRA ; Historia de Granada, Greade , TomII 1846, p. 8 .**

(٤) المقري : نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ١٦٤ .

(5) **I. De Mata Carrioza untra los cristianosy los moros dons AlAndolus, XIII,1948, p96.**
وقرطاجنة هي : إحدى مقاطعات مدينة مرسية لها ميناء ترسو فيه المراكب الكبار والصغار بينها وبين مرسية أربعون ميلاً وتسمى قرطاجنة الخلفاء ، (انظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص ١٥١) .

كما تصدى ووقف بحزم السلطان محمد السابع لمشروع الحملة الصليبية على مملكة غرناطة ، وذلك في عام ٨٠٧هـ /١٤٠٤م واشتعلت الحرب على طول الحدود بين مملكة قشتالة ومملكة غرناطة ، وفي إحدى المعارك مع نصارى قشتالة تمكن الجيش الغرناطي بقيادة محمد السابع من قتل العديد من الفرسان والنبلاء النصارى في سنة ٨٠٩هـ /١٤٠٦م (١) .

واستمرت الحرب بين الجانبين لمدة ثلاث سنوات نشر خلالها محمد السابع الفزع والرعب بين جموع النصارى ، واستعاد العديد من المواقع والحصون التي كان النصارى قد استولوا عليها مما أدى بالملك القشتالي فرناندو إلى التماس الهدنة لمدة ستة شهور وافق عليها محمد السابع سنة ٨١١هـ /١٤٠٨م (٢) ، ولم يمض إلا وقت قصير على توقيع الهدنة حتى مرض محمد السابع ، وتوفي في ١٦ من ذي الحجة عام ٨١٠هـ /١٤٠٧م (٣) . وولي من بعده أخوه يوسف الثالث أبو الحجاج الملقب بالناصر (٤) بن أبي الحجاج يوسف الملقب بالمستغني با لله بن محمد الخامس .

وكان السلطان يوسف من الأحفاد الذين نشأوا في رعاية السلطان الغني با لله يستظلون ويرفلون في قمة الحضارة والرقي التي شهدتها بلادهم في عهد جدهم ، ويوسف هذا قضى جزءاً من حياته مقيماً إقامة جبرية في حصن شلوبانية (٥) وذلك طوال عهد أخيه محمد السابع (٦) .

وقد تميزت فترة حكمه بالعناية بشؤون رعيته وإغداق النعم عليهم ، والتنقل من مدينة إلى

---

(1) Cronica del halconero de Juan II . Pedro carrillo de huete. Pu Fili cacionespso calp , ma drid, 1953 pp . 11 - 12 .

(2) M. Alcantu, Historia de granada , p. 39 .

(3) Ibid .

(٤) مظهر النور الباصر في أمداح أبي الحجاج الملك الناصر ، جمع أبي الحسين بن فركون ، إعداد محمد بن شريفة ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٤١٢هـ ، ص ١٩ ، ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث ، حققه وقدم له عبدا لله كنون ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٢ ، ١٩٦٥م ، ص ٢ .

(٥) شلوبانية : قرية أندلسية على ضفة البحر بينها وبين المنكب عشرة أميال وهي تقابل من العدوة مرسى مليلة (انظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٩٩) .

(6) M. Alcantara , Historia de Granada , p. 18 .

أخرى طوال فترة حكمه ، وكان للمنشآت المعمارية في عهده نصيب من اهتماماته فقد عني بتشييد مبان في الحمراء والعناية بتجديدها ، ونقش في إحدى قباب الحمراء من شعره :

يا دارُ شكراً للخليفة يوســـف فهو الذي والى الجميل وأنعمـا
وحياك من روض العريف بنسمة تروي الجوانح من تباريح الظما (١)

ومن المؤسف أن يشهد عصره مظاهر الضعف والانحلال اللذين قادا إلى تسلط النصارى واتساع عدوانهم ، وهذا ما عبّر عنه السلطان يوسف الثالث نفسه إذ قال :

لهف نفسي على الثغور تخلت فهي صفر من الكماة الحماة
وأناس على المعاصي جهاراً قد أباحوا حريمنا للعـــداة (٢)

وأدرك النصارى الضعف الذي بدأ يدب في كيان مملكة غرناطة ، وذلك بإضاعة السهر على حدودها والدفاع عن ثغورها والمرابطة فيها ؛ فاتخذ نصارى قشتالة مدينة أنتقيرة (٣) هدفاً لهم فشنوا الهجوم عليها ، فضربوا حولها الحصار ؛ فأرسل السلطان يوسف جيشاً من غرناطة بقيادة أخويه علي وأحمد لنجدة أنتقيرة ، وبعد مناوشات بين الطرفين لم يستطع الجيش الغرناطي أن يفعل شيئاً ، وحاول السلطان يوسف الثالث شراء انسحاب النصارى بالذهب والحصول على هدنة لمدة عامين وذلك عن طريق مقترحاته التي قدمها سعد الأمين إلى مملكة قشتالة ، ولكن قوبلت مقترحاته بالرفض القاطع (٤) .

ومن الجدير بالذكر أن أهالي أنتقيرة والمجاهدين الذين انضموا إليهم من أهالي غرناطة كانوا

---

(١) يوسف الثالث :ديوان يوسف الثالث ، ص ١١٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٨ .

(٣) أنتقيرة :إحدى المدن الغرناطية الحدودية المهمة لمملكة غرناطة لا تضاهيها في جدوى فلاحه وعظم ملاحة ساحت الجداول في فحصها الأفيح وسالت ، تمد مملكة غرناطة بالثروة الزراعية والحيوانية (انظر ابن الخطيب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، تحقيق محمد كمال شبانة ، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة ، ١٣٩٦هـ ، ص ١٢٧) .

(4) Coleccion de documentos entosine ditospara la Historia de Espana tVIII, XI, xiv, xxxvI et Lt [CODOIN] cornica de D. Juan II de castille ed codoin , pp 329 -325 .

يقاومون الأعداء بشراسة وبطولة ، وأمام عجز الحكومة المركزية في غرناطة عن نجدتهم استسلم أهالي أنتقيرة شريطة الخروج بأمان إلى مدينة أرشدونة [١] وقد تم ذلك واحتل النصارى أنتقيرة ، واكتفى السلطان يوسف الثالث بإبداء التأسف والتحسر على ما حدث [٢] .

وهكذا ألقت هذه المعركة الضوء على حقيقة تاريخية هامة وهي أن مملكة غرناطة بدأت تتحرك نحو السقوط والانهيار .

وبعد وفاة السلطان يوسف الثالث خلفه ابنه الأكبر محمد الثامن ثامن من يحمل هذا الاسم ، وكان طفلاً في الثامنة من عمره ، وكان الحكم بيد وزير أبيه علي الأمين [٣] ، ولم توضح المصادر مصير أخوي يوسف الثالث واللذين كانا يتوليان قيادة الجيش النصري ، مما ادى إلى ظهور احد أحفاد السلطان محمد الخامس ، والمعروف بمحمد الأيسر ، وذلك بدعم من القادة العسكريين في مدينتي وادي آش [٤] وأليورة [٥] ، والذين هاجموا غرناطة وقتلوا علي الأمين بعد أن فر محمد الثامن في معية أسرة الوزير القتيل . وبُويع محمد الأيسر سلطاناً على غرناطة [٦] .

---

(١) أرشدونة : من أعمال مالقة ، وهي برية وبحرية سهلها واسع بينها وبين مالقة ثمانية وعشرون ميلاً (انظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٢) .

(٢) يوسف الثالث : ديوان يوسف الثالث ، ص ٧٠ .

(3) LAFu ENTEA LCANTRA (E.) Inscripciones Arabes de Granada, Madrid, 1859, p4 .

(٤) وادي آش : مدينة من أجمل مدن مملكة غرناطة بعد عاصمتها ، يوجد بها معدن الحديد ولقد كان بين سكان هذه المدينة وسكان غرناطة تنافس في إيواء السلاطين من بني نصر على مر تاريخ مملكة غرناطة (انظر ابن الخطيب معيار الاختيار ص ١١٢) .

(٥) أليورة : حصن بالأندلس من كور تدمير ، وهي إحدى المدن الغرناطية الحدودية المهمة المتاخمة لأراضي النصارى ، لها قصبة في غاية الامتناع وبها بساتين وجنات وفيها رخاء وأسواق وضياع (انظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٣٤) .

(6) Lafuennte Alcantra (E.) inscripciones Arabes de Granada , p4 .

ولقد أشرت فيما سبق أن مملكة غرناطة باتت تسير ببطء نحو السقوط ، ولم تعد قادرة كما كانت من قبل على حماية منجزاتها ومكتسباتها الحضارية والحفاظ على كيانها الإسلامي وسط جموع من الأعداء ، لذا فإن محمد بن نصر المعروف بالأيسر قد وقع هدنة سلام مع مملكة قشتالة في عام ٨٢٤هـ /١٤٢١م لمدة أربع سنوات تعهد فيها بدفع مبلغ ١٣ ألف دوبلة ذهبية للملك خوان الثاني [١] .

وكان من نتائج ذلك أن تدهورت الأوضاع الاقتصادية في مملكة غرناطة وقاد السلطان السابق محمد الثامن (الصغير) الذي أصبح قادراً على تحمل اعباء الحكم الثورة على السلطان الأيسر ، وتمكن من اقتحام الحمراء وفرّ السلطان محمد الأيسر إلى شواطئ مملكة غرناطة ومنها ركب إلى تونس [٢] .

ولكن لم تكد تحل نهاية سنة ٨٣٣هـ /١٤٢٩م وبتدخل من مملكة قشتالة ودولة بني حفص حتى عاد السلطان الأيسر إلى حكم غرناطة وقبض على محمد الثامن وأرسله سجيناً إلى شلوبانية حيث سجن أبوه من قبل يشاركه في سجنه أخوه الأمير أبو الحسن علي الابن الأصغر ليوسف الثالث [٣] . وبعد عودة محمد الأيسر إلى حكم غرناطة لمع نجم بني سراج وذاع صيتهم ومجدهم في قصر الحمراء [٤] ، ولم تهدأ الحرب على الجبهة بين غرناطة ونصارى قشتالة وأرغون ، واشتعلت الحرب بين المسلمين والنصارى على طول حدود مملكة غرناطة وخاف محمد الأيسر من محاولات نصارى قشتالة إثارة الوقيعة والفتن بين أبناء الأسرة الحاكمة في غرناطة وضرب بعضهم ببعض ، لذا أمر بقتل محمد الثامن (الصغير) في سجنه بشلوبانية في نهاية عام ٨٣٥هـ/مارس ١٤٣١م تاركاً في عقبه ابنه المولود بين عامي

---

(1) Cronica de D. JuanII p. 57 .

(٢) السخاوي : شمس الدين محمد بن عبدالرحمن ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ستة مجلدات تحتوي ١٢ جزءاً ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د. ت ، جـ ١٠ ، ص ٦٨ .

(3) Cronica deLhalconero de Juan II, pp 57 - 58 .

(٤) واشنطون ، إفرنج ، قصر الحمراء في الأدب والتاريخ ، ترجمة إسماعيل العربي ، دار الرائد العربي ، بيروت ١٤٠٤هـ ، ص ١٤٨ .

٨٣١هـ ، ٨٣٣هـ [١] (١٤٢٦ ، ١٤٢٩م) .

وكان قتله ظلماً وخطأً كبيراً أحدث تصدعاً وانشقاقاً كبيراً في البيت النصري ، إذ إن ذلك القتل لم يحل مشاكل السلطان الأيسر ، إذ أثار إعدامه غضب الأحزاب المناهضة للأيسر وعلى رأسها القائد العسكري رضوان بن غازي الذي طلب تدخل نصارى مملكة قشتالة للإطاحة بالأيسر وتولية أحد الطامعين في العرش النصري وهو يوسف بن المول [٢] .

واستجاب الملك خوان الثاني لذلك ودخل بجيشه الأراضي الإسلامية لإجبار الأيسر والضغط عليه للتنحي عن الحكم ، وبعد حوادث يضيق المقام هنا عن شرحها [٣] اضطر محمد الأيسر للهرب من غرناطة واتجه إلى مالقة .

وتمكن يوسف بن المول من دخول غرناطة وحمرائها وبعث برسالة إلى الملك خوان الثاني يخبره فيها بتوليه الحكم وأن وجهاء غرناطة وأعيانها قد قبلوا يديه وسلموه الحمراء وهو بدوره يقبل أيادي الملك القشتالي وأنه تابع له ؟! ويشكره لمساعدته في الوصول إلى السلطة ويحيطه علماً بهروب الأيسر وبرفقته أخت للقائد الأعرج وبنت أخ له ، وولدين اثنين للملك الصغير محمد الثامن كان قد أمر بذبحهما [٤] .

كما يجدد للملك خوان الثاني فروض الطاعة والولاء والتي نصت عليها معاهدة سرية وقعت بينهما في حصن برغالش [٥] .

---

(١) انظر النص بالقشتالية تحت عنوان ذيل على مقال الأستاذ عنان في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد المجلد الثاني ، مدريد ١٣٧٣هـ ، ص ٤٦ .

(٢) عن يوسف بن المول ، انظر شجرة نسب بني نصر في الملحق رقم (٢) .

(٣) للمزيد من التفاصيل حيال هذه الأحداث ر (العواجي : عبده محمد : الخلافات السياسية في الدولة النصرية ودورها في سقوط الأندلس ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية العلوم الاجتماعية) ص ٢٣٢ - ٢٣٤ .

(٤) انظر عنان : وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجري ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثاني ١٣٧٣هـ ، ص ٢٨ - ٤٥ .

(٥) نفس المصدر .

تلك المعاهدة رفضها الشعب الغرناطي المسلم ، وتحول يوسف بن المول إلى شخص مكروه بين الجموع الإسلامية في مملكة غرناطة . ومن المرية وجّه الأيسر نداءً إلى الشعب الغرناطي للثورة على يوسف بن المول . وبالفعل ثارت الأقاليم الغرناطية ضد ابن المول ، وتمكن القائد الحربي محمد بن عثمان (الأعرج) من فتح أبواب غرناطة ، وتم حصار يوسف بن المول الذي تخلى عنه كل حرسه وأنصاره واستسلم لمحمد الأيسر الذي أمر بذبحه ، وكان ذلك في عام ٨٣٦هـ /١٣٤٢م [1] .

وهكذا عاد محمد الأيسر للمرة الثالثة إلى حكم مملكة غرناطة بعد عودة السلطان محمد التاسع (الأيسر) شعر المسلمون الذين مزقتهم الحرب الأهلية بضرورة التماسك في وجه أعدائهم النصارى وكبَّدوهم هزيمة فادحة في معارك أليورة وأستجة [2] وذلك في عام ٨٣٨هـ /١٤٣٤م [3] ، واندلعت الحرب الحدوديّة بين مملكة غرناطة وقشتالة من عام ٨٣٩ - ٨٤٣هـ /١٤٣٥م - ١٤٣٩م خسر فيها الطرفان عدداً من المواقع ، وهدأت بتوقيع هدنة في شهر ذي القعدة ٨٤٣هـ /١٤٣٨م [4] وما كادت الهدنة تنتهي حتى أعلن القائد العام للجيش محمد بن عثمان الملقب بالأحنف والمعروف بالأعرج خلع الأيسر وتوليه مقاليد السلطة في غرناطة مما أثار مخاوف أسرة بني سراج ، الذين لاذوا بالفرار إلى مدينة مونتفريو [5] القريبة من الحدود مع النصارى ومنها اتصلوا بالملك القشتالي من أجل السماح لأحد أبناء الأسرة النصرية المقيمين في مملكة قشتالة بالتوجه إليهم ، فوجّه إليهم

---

(1) Cronica del Halconero , p 127 .

(٢) أستجه : بينها وبين قرطبة مرحلة كاملة وهي ذات أسواق وفنادق ، كثيرة الثمار والبساتين (انظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٤ ، ١٥) .

(3) Cornica del Halconero , pp 104 , 171: انظر

(4) LiETo (A) , REGLO (J) , FOVER (J. M) introducciona la de Espana , 2 d Barcelona 1965, pp . 171 - 172 .

(٥) مونتفريو : إحدى القلاع الحصينة على مقربة من حدود مملكة غرناطة مع النصارى كانت محل رباط وجهاد ومن ثم إيواء للقادة العسكريين الخارجين عن سلاطين بني نصر (ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ١٢٥) .

الأمير يوسف بن أحمد المعروف بـابن إسماعيل [١] بعـد أن أخـذ عليـه العهـود والمواثيـق بـأن يكون تابعاً له وخاضعاً لسـلطته بمجـرد أن يحصـل على حكـم مملكـة غرناطـة وزوده بالمـال والرجال .

ومن مونتفريو حيث التقى ببني سراج والذين غادروها إلى غرناطة وخرج محمـد بـن عثمـان لحربهم ونشبت معركة كبيرة بين الطرفـين هـزم فيهـا محمـد بـن عثمـان وفـر خـارج مدينـة غرناطة ودخل يوسف بـن أحمـد بـن إسماعيل ومؤيـدوه الحمـراء في منتصـف عـام ٨٤٩هـ /١٤٤٥م [٢] .

ولكن لم تطل فترة حكمه إذا لم يتقبل الشعب الغرناطي المسلم موالاته للنصـارى ، وسـحب بنو سراج موالاتهم له ومنحو التأييد لمحمـد بـن عثمـان الأعـرج وأخـذت البيعـة لـه وطـرد يوسف بن أحمد بن إسماعيل خارج مملكة غرناطة [٣] .

وعندما عاد السلطان محمد بن عثمان الأعرج للمرة الثانية إلى الحكم عمل علـى حمـل رايـة الجهاد وتقوية مملكة غرناطة عسكرياً للوقـوف في وجـه أعدائهـا ، وكـان محمـد بـن عثمـان نفسه ممن تمرسوا واعتادوا على حرب النصارى - فقـد كـان يتـولى منصـب شـيخ الغـزاة في بسطة . هذا ولم أتأكد من صحة نسبه إلى أسرة بني نصـر ، وفيمـا يبـدو لي فإنـه أثنـاء تلـك الاضطرابات وصل إثنان من خارج أبناء الأسرة الحاكمة إلى الحكم أحدهما يمت إلى الأسرة بنسب المصاهرة هو يوسف بن المول [٤] ؛ حيث كانت والدته من الأسرة النصرية ، ووالـده أحد أعيان غرناطـة . والآخـر وصـل إلى الحكم مستغلاً مكانته في الجهاد والمثابرة في مدافعة

---

(١) هو أحد أبناء سلاطين بني نصر الذين لجأو إلى النصارى ويعرف بابن إسماعيل لانتسـابه إلى أبي الوليـد إسماعيل ، انظر شجرة نسب بني نصر في الملحق رقم (٢) .

(2) L. Secode la cena pareds . Nuevas reatificaciones ala historia de los ul timos nasries Revesta Alandolus volXXivXXiv 1959 , pp. 285 - 288 .

(3) Ipid .

(٤) انظر شجرة نسب بني نصر في الملحق رقم (٢) .

العدو ، وهو محمد بن عثمان الأعرج [١] الذي استطاع تصفية الوجود النصراني من عدد من المواقع التي إحتلوها حتى وصل إلى مقربة من مدينة إشبيلية [٢] .

وفي سنة ٨٥٦هـ /١٤٥٢م توفي السلطان محمد بن عثمان ولم يكن له ولد يقوم مقامه ولكونه من خارج الأسرة النصرية ، فقد عاد الأيسر الذي كان قد ناهز السبعين من عمره إلى السلطة من جديد سيما وأنه كان في عهد السلطان السابق يتمتع بنوع من الحرية ، وفي هذه المدة كانت شهوة الحكم قد خفت في نفسه وندم على ما اقترفه من ذنوب ، فعمل على التقرب من الحزب الغرناطي الذي ظل على وفائه للوريث الشرعي الذي اغتصب الملك من أبيه في عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م وقتله في عام ٨٣٥هـ /١٤٣١م فأشرك معه في الحكم أحد أبناء محمد الثامن (الصغير) والذي أطلق عليه في الروايات النصرانية (محمد الحادي عشر) وزوّجه بإحدى بناته ، وعيّنه ولياً لعهده .

إذ كانت نهاية السلطان محمد بن عثمان غامضة فنهاية السلطان الأيسر غامضة أيضاً ، ولا أعرف شيئاً عن تاريخ وفاته ، ولعله قد نحي عن الحكم أو مات في أواخر سنة ٨٥٧هـ /١٤٥٣م ليخلفه في الحكم ولي عهده وزوج ابنته ((أبو عبدا لله محمد المنصور با لله بن محمد الثامن بن يوسف الثالث بن يوسف الثاني بن محمد الخامس)) [٤] .

---

(١) محمد بن شريفة : البسطي ، آخر شعراء الأندلس ، دار الغرب الإسلامي ، ط١ ، ١٩٨٥م ، بيروت ، ص ١١٥ حيث يمتدح الشاعر المعاصر للسلطان محمد بن عثمان دوره في الجهاد وقيادة مشيخة الغزاة إذا قال :

يا صارخاً جعل الصراخ شعارَهُ ... في مُلْتَقَى الأقران بالأقــران
قل للعِدى بأرفع منطـــــق ... إن الرَّدىَ من داركُمْ مُتَـدانِ
مذ أمكم شيخ الغزاة محمــــد ... نجل المجاهد ذي التقى عثمان

(2) Cronica del Halconero , pp. 532 - 533 .
(3) L.Secode La cena pareds, historia de los nasries, pp 285 - 288 .
4) H. Liver , El segando rey chiguto muhamad xI, y y la sucesion de losu de Ibn Nasr Sa'd (452 - 56) douns Al Andalus vol . XXVIII, 1963 , fasc , 2 pp331 - 348 .

ولكن تلك الولاية قوبلت بمعارضة من الأمير النصري (أبو النصر سعد بن علي) بتحريض من أسرة بني سراج [١] .

وما أن حل ربيع عام ٨٦٠هـ حتى كان في مملكة غرناطة أميران يتقاسمان السلطة محمد الحادي عشر سلطاناً على غرناطة ومالقة ووادي آش والمرية . وسعد مقيماً في أرشدونة مسيطراً على روندة .

وكان الملك النصراني هنري الرابع ملك قشتالة مدعواً للتدخل في الصراع من قبل الثائر أبي النصر سعد بن علي - بعد أن وضع لجيشه خطة حربية تقضي بتدمير قرى ومدن مملكة غرناطة الحيوية والاقتصادية من أجل مساعدة سعد بن علي للوصول إلى حمراء غرناطة [٢] .

ونتيجة للحرب التدميرية التي شنّها الملك هنري الرابع والضغط النصراني الكبير اشتدت شوكة سعد بن علي ودخل مدينة غرناطة ونصب فيها سلطانا [٣] ، وفر محمد الحادي عشر إلى جبال البشرات على رأس مجموعة من أنصاره ومؤيديه .

وفي أحد الأيام ظن محمد الحادي عشر أن الوقت قد حان لاسترداد ملكه وذلك بناء على نصيحة الموالين له داخل غرناطة ، فاخترق جبال سيرانفادا ليدخل العاصمة على حين غرة ولكن أحيط السلطان سعد علماً بذلك فأرسل له كميناً بقيادة ابنه أبي الحسن علي فسقط محمد الحادي عشر في كمين أبي الحسن وحمل أسيراً إلى غرناطة ، ومن ثم أدخل إلى قصر الحمراء ، حيث أمر السلطان سعد بذبحه في بهو على يسار ساحة الأسود كم تم خنق أطفاله بمنشفة [٤] .

وهكذا قتل مظلوماً كما قتل أبوه من قبل وكان ذلك نذيراً بسقوط هذه الأسرة التي سفكت دماء أبنائها وأبناء شعبها في سبيل الدنيا ومتاعها الزائل ، بعد ذلك استقرت

انظر :

(1) H. Livernore . ELSEGun DORey Chico Muhmmad Xi , p340 .

(٢) انظر البسطي المعاصر للحدث في رثائه لمدينة أرشدونة ، محمد بن شريفة ،البسطي ص ١٧٤ .

(3) Op.Cit , p 342 .

(4) H. de Bueza : De Las cofas yue . posoron entrelos reyes de Granada, Madrid , 1808 , p 5 .

الأوضاع الداخلية لصالح سعد بن علي في مملكة غرناطة التي كانت تتعرض لهجوم نصراني كبير على مختلف المحاور . وفي سنة ٨٦٩هـ /١٤٦٤م تعرض السلطان سعد لمحاولة انقلاب من أسرة بني سراج ، يعاونهم يوسف بن إسماعيل الموالي للنصارى ، ولكن سرعان ما استرد سعد وضعه في غرناطة وهرب يوسف بن إسماعيل إلى مدينة أليورة ، ولم يلبث أن توفي في نهاية عام ٨٦٩هـ / ١٤٦٤م(١) .

ولكن عودة سعد بن علي إلى حكمه أخافت قبيلة بني سراج وعلى رأسهم محمد وعلي السراج اللذان لم ترق لهما الحياة في مدينة أليورة في معزل عن قصور الحمراء فاتصلوا بابن السلطان سعد الأمير أبي الحسن علي ولي عهده والذي كان " تحت كنف والده في عزّ ورئاسة "(٢) وزينوا له الثورة على أبيه فدبر مؤامرة ضد أبيه استولى فيها على الحكم في أوائل ٨٦٩هـ /١٤٦٤م وهرب أبوه سعد من غرناطة ولجأ إلى مالقة ومنها انتقل إلى المرية وبقي بها حتى مات سنة ٨٧٠هـ /١٩٦٥م(٣) .

تميزت فترة حكم السلطان علي بن سعد بمرحلتين هامتين في تاريخ مملكة غرناطة : المرحلة الأولى من ٨٦٩ - ٨٨٣هـ (١٤٦٤ - ١٤٧٨م) ، ففي هذه المرحلة حكم أبو الحسن علي بحزم وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية وحصن الحصون على حدود مملكته واهتم بإعادة تشكيل الجيش الذي مزقته الأحزاب وانتشر الخير وانخفضت الأسعار وسك نقوداً ذات قيمة اقتصادية وعم الأمن على طول الطرق الأندلسية(٤) تلك كانت أبرز صفات المرحلة الأولى .

أما المرحلة الثانية فتبدأ من الثاني والعشرين من المحرم ٨٨٣هـ /١٤٧٨م وذلك منذ اللحظة التي أغرق فيها الفيضان الخطير مملكة غرناطة إذ أكد مؤلف نبذة العصر أن

---

(1) L. Secode lu cena paredes, panorama politicodel islam granadion di ante el sigl xvdonsm . E.A . H, vol IX , 1960 fasc I pp 7 - 18 .

(٢) الحنفي : عبدالباسط بن خليل ، الروض الباسم ، الجزء المنشور منه بمجلة الأندلس ALANDAL us ReviSTA, DE Madrid XG RANADA , vol . I 1933 , p 327 .

(٣) انظر : نفس المصدر ، ص ٣٢٧ .

(٤) مجهول : نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ، تحقيق الفريد البستاني ، مطبعة الفنون الصورة ، يوسكا العرائش ، المغرب د. ت ، ص ٢ ، ٣ .

ذلك التاريخ كان بداية للتغير في أحوال السلطان أبي الحسن إذ انهمك في الشهوات واللهو بالنساء المطربات [(١)] ، ووقع تحت تأثير وزيره أبو القاسم رضوان بن يعيش سليل الأسرة النصرانية الذي أخذ يوجه الحكم في غرناطة توجيهاً منحرفاً ((ويظهر للناس الصلاح والعفاف وهو بعكس ذلك)) [(٢)] .

وكان من نتائج ذلك أن تدهورت الأوضاع الاقتصادية في البلاد وتمكن النصارى من تحقيق عدة انتصارات كان من أبرزها سقوط مدينة الحمة [(٣)] .

وفي غياب أبي الحسن عن حمراء غرناطة إذ كان يقضي وقتاً للراحة والاستجمام أعلن الحزب الذي كوّنه يوسف بن كماشة والذي يتألف من بني سراج وأنصارهم تتويج أبي عبدا لله محمد بن علي سلطاناً على غرناطة وذلك في جمادى الآخرة ٨٨٧هـ /١٤٨٢م [(٤)] .

وبالرغم من ذلك فقد نشبت الحرب في شوارع غرناطة بين أنصار السلطان أبي الحسن وابنه أبي عبدا لله وبات انتصار أبي عبدا لله مؤكداً [(٥)] مما اضطر أبا الحسن إلى الفرار واللجوء إلى أخيه محمد بن سعد في مالقة . ومما لا شك فيه أن أبا الحسن قد مرت في ذاكرته اللحظات التي طرد فيها أباه ولجأ إلى مالقة ... وكل هذا التردي يرجع إلى الخروج عن منهج ا لله وسنة رسول ا لله محمد بن عبدا لله ﷺ . سواء في مجال الأخلاق الإسلامية اللازمة لنظام الحكم ، أم في مجال علاقة الابن بوالده .

وأراد أبو عبدا لله الذي استولى على السلطة في غرناطة أن يحرز نصراً على أرض المعركة مع النصارى يكسب به سمعة طيبة في بلاده وحشد جيشاً واتخذ من مدينة

---

(١) مجهول ، نبذة العصر ، ص ٥ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) نفس المصدر ، ص ٧ ، ٨ .
(٤) نفس المصدر ، ص ١٠ .
(٥) نفس المصدر والصفحة .

اللسانة [١] النصرانية هدفاً لحملته .

وفي أثناء هجوم الجيش الغرناطي بقيادة أبي عبدا الله هوجمت مؤخرة الجيش الذي كان تحت إمرته وانتشر الرعب والفوضى بين جنود أبي عبدا الله وسقط أبو عبدا الله أسيراً في أيدي النصارى [٢] .

ولقد أشار المؤرخ المسلم المجهول الاسم المعاصر للحدث إلى مظاهر المبالغة في الحفاوة والتكريم التي قوبل بها السلطان الأسير ، والتي دلت على الهدف النهائي للملك النصراني فرناندو الذي أدرك أنه من خلال أبي عبدا الله سوف يكون الاستيلاء النهائي على مملكة غرناطة [٣] . وبالفعل فقد كان استيلاء النصارى على مملكة غرناطة عن طريق أبي عبدا الله سنة ٨٩٢هـ /١٤٩١م . وبما أنه ليس من منهجنا هنا أن نتبع عملية سقوط الأندلس فحسبنا أن نشير إلى المسئولية التاريخية التي تقع على أبي عبدا الله تلك التي نعتقد أنه يتحمل أكبر قدر منها سواء في سلوكه داخل أسرته أم باندفاعه نحو النصارى [٤] .

---

(١) اللسانة : مدينة صغيرة تقع في الشمال الغربي من لوشة والجنوب الغربي من مدينة قرطبة ، انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٢٧ حاشية ٧ .

(٢) مجهول : نبذة العصر ، ص ١٢ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) العواجي : الخلافات السياسية في الدولة النصرية ، ص ٣٢٢ - ٣٩٢ .

الفصل الأول

العلاقات السياسية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية

أ ـ مع الدولة الموحدية

ب ـ مع القوى الإسلامية داخل الأندلس

جـ ـ مع الدولة المرينية :

١ ـ التضامن الإسلامي بين بني مرين وبني نصر .

٢ ـ دور بني مرين في تدعيم الجبهة الإسلامية في غرناطة .

٣ ـ الخلافات بين الدولتين

٤ ـ السفارات المتبادلة

د ـ مع بني زيان

ـ تضامن بني زيان مع بني نصر لمواجهة التحديات النصرانية .

هـ ـ مع بني حفص

ـ مساندة بني حفص لمملكة غرناطة إبان قيامها ودورهم في تدعيم مملكة غرناطة .

و ـ مع المماليك في مصر

ـ استنجاد بني نصر بالمماليك في مصر للتصدي للخطر النصراني .

ز ـ مع العثمانيين

أ- مع دولة الموحدين :

عندما تدهورت سلطة الموحدين بالأندلس بعد معركة العقاب [١] سنة ٦٠٩هـ /١٢١٢م وازداد هذا التدهور بعد وفاة الخليفة الموحدي العادل سنة ٦٢٤هـ /١٢٢٦م إذ عمت الفوضى جميع الأقاليم الحدودية بالأندلس ، حيث كان السكان المسلمون عرضة لغارات النصارى الذين اشتدت وطأتهم في غياب السلطة القوية لدولة الموحدين مما أدى إلى ظهور رجال أشداء من المجاهدين اللذين اعتادوا وتمرسوا على حرب النصارى وكانت تلجأ إليهم الجموع المسلمة أوقات عدم الاستقرار السياسي الذي ساد الأندلس في أواخر عهد دولة الموحدين والذين أطلقت عليهم المصادر الإسلامية لقب المغاوري أي رجل الحدود أو المرابط أو المجاهد الذي تولى قيادة الدفاع عن أبناء دينه الإسلامي ، وكان من بين هؤلاء المغاورين محمد بن يوسف بن نصر الذي وصفه ابن سعيد بقوله ((وهو الآن بها مشاغراً لعساكر النصارى الكثيرة بدون ألف فارس وهو من عجائب الدهر في الفروسية والإقدام والسعادة في لقاء العدو ... وأنشدته قصيدة أولها :

لمثلك تنقادُ الجيوشُ الجحافل وتُذْخَرُ أبناء القنا والقنابلُ [٢]

ونتيجة لبلائه وجهوده في حرب النصارى فقد بايعه الحاضرون بمسجد أرجونة الواقعة في ضواحي جيان أميراً عليهم وسموه أمير المسلمين [٣] .

---

(١) العقاب : بكسر العين موضع بالأندلس بين جيان وقلعة رباح وإليه تنسب المعركة المذكورة وكانت هذه المعركة بين الجيش الإسلامي الذي يقوده الخليفة الموحدي محمد الناصر والجيوش النصرانية التي يقودها الفونسوا الثامن ملك قشتالة وبيدروا الثاني ملك أرغون وسانشو السابع ملك نافاريا والتي ألحقت الهزيمة بالجيش الموحدي في المكان الذي نسبت إليه المعركة (انظر الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٣٧) .

(٢) ابن سعيد : أبو الحسن علي بن موسى ، المُغرب في حلي المغرب جزءان حقق وعلق عليه د. شوقي ضيف ، ط٣ ، دار المعارف ، جـ ٢ ، ص ١٠٩ .

(٣) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٧٥ ، النباهي : نزهة البصائر والأبصار ، ص ٨٣أ .

وكان محمد بن يوسف بن نصر يتمتع بصفات الزعامة والقيادة ، ومن ثم أهلته لقيادة بلاد الأندلس في تلك الفترة المضطربة من تاريخها فقد نشأ ((جندياً ثغرياً ، شهما عظيم التجلد رافضاً للدعة والراحة مؤثراً للقشف والاجتزاء باليسر ، بعيد التصنع ، جافي السلاح ، شديد الحزم ، موهوب الإقدام ، عظيم التشمير ، فظًا في طلب حقه ، مباشراً للحرب بنفسه ، يخصف النعل ويلبس الخشن ويستشعر الجد في أموره)) [١] .

ولقد حقق العديد من الانتصارات في غاراته التي كان يقوم بها على الحدود مع النصارى ، ولقد أشاد المؤرخون ببراعة السلطان النصري محمد الأول ومهارته في انتهاز الفرص السياسية ، لذلك نراه إبان تزعمه لحركة المغاورين وبالتحديد في سنة ٦٢٠هـ /١٢٢٣م لم يخرج عن سلطة دولة الموحدين ؛ فقد بايع الخليفة الموحدي الرشيد ((وكان يخطب له على منابر طاعته ويكتب كتبه ، وسكته فقنع منه بذلك ، وبقي على هذه الحالة إلى سنة أربعين (٦٤٠هـ) حين توفي الرشيد ، ويؤكد ابن الخطيب أن محمد بن يوسف بن نصر عندما توفي المأمون وولي بعده أبو محمد عبدالواحد (الرشيد) خاطبه محمد بن يوسف بن نصر مبايعاً وداعياً ومتاحفاً ووصله إمداده [٣] .

ونتيجة لهذا الإمداد وتلك العلاقة الطيبة قوي أمر الأمير محمد بن يوسف بن نصر ودخلت تحت طاعته مدينة المرية [٤] وغرناطة وإشبيلية [٥] بالإضافة إلى

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٣٠ والإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

(٢) ابن عذاري : البيان قسم الموحدين ، ص ٣٥٨ .

(٣) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٣٤ .

(٤) المرية : مدينة الإسلام بالأندلس ، حوالي ثمانية قرون كانت بها الصناعات الغربية تقصدها مراكب التجار من الإسكندرية والشام ومنها تتفرع الطرق البحرية إلى شمال إفريقيا والبلاد الإسلامية بالمشرق (انظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٨٤) .

(٥) إشبيلية : مدينة أندلسية بينها وبين قرطبة مسيرة ثلاثة أيام كانت في العصر الإسلامي عامرة لها أسوار حصينة وروابط تجارية مع البلدان الإسلامية (انظر الحميري : المصدر السابق ، ص ١٨ ، ١٩) .

مالقة [١] و جيان [٢] .

ولم تحن سنة ٦٣٧هـ /١٢٣٩م حتى أخذ محمد بن يوسف بن نصر البيعة للخليفة الرشيد ((على أهل غرناطة ومالقة وجيان وسائر البلاد التي كانت تحت طاعته فوصلته المخاطبات الرشيدية بالشكر على مبادرته)) [٣] .

وهكذا عمل محمد بن يوسف بن نصر على لم شمل المدن الأندلسية تحت شعار العودة إلى طاعة الموحدين مما أدى إلى تدعيم نفوذه في بلاد الأندلس وانقاد له أكثر رؤسائها وأنجادها فقويت شوكته بها [٤] . وكان محمد بن يوسف بن نصر يدرك أن دولة الموحدين في طريقها للزوال ولكنه كان (يظهر للخليفة الموحدي الرشيد أنه تحت طاعته ومن ولاته وأنه المجدد للدولة الموحدية بالأندلس وذلك من كفايته ودهائه ونباهته) كما صرّح بذلك المؤرخ ابن عذاري [٥] فقنع منه الرشيد بذكره إياه في الخطب والدعاء [٦] .

ولما توفي الخليفة الموحدي الرشيد سنة ٦٤٠هـ /١٢٤٢م وولي بعده السعيد لم يستمر محمد بن يوسف بن نصر على نفس النهج الذي انتهجه في سياسته إزاء دولة الموحدين إذ سرعان ما قطع الدعوة للموحدين وأرسل ببيعته إلى السلطان الحفصي أبي زكريا [٧] . وبقطع السلطان محمد بن يوسف بن نصر الدعوة للموحدين أستطيع القول أن العلاقات السياسية بين الطرفين قد قطعت ولم يعد لقطعها أي أثر على الساحة السياسية الأندلسية .

---

(١) مالقة : مدينة اندلسية مشهورة على شاطئ البحر المتوسط كانت مزدهرة طول العهد الإسلامي ينسب إليها العديد من العلماء ، لا تزال بها آثار إسلامية باقية إلى يومنا هذا ، انظر (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٧٨) .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب قسم الموحدين ، ص ٢٩٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٥٧ .

(٥) نفس المصدر والصفحة .

(٦) نفس المصدر والصفحة .

(٧) نفس المصدر ، ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

ب ـ مع القوى الإسلامية داخل الأندلس

ليس هناك من قوى إسلامية داخل الأندلس تستوجب الحديث عنهـا بعـد أن دخـل محمد بن يوسف بن نصر مدينة غرناطة وخضعت لسلطته المرية ، ولكن تلك القوى تزامنت في الظهور مع بداية نشأة وتأسيس مملكة غرناطة وذلك إبان إنهيار سلطة الموحديـن ، والـتي لمع من خلالها بريق عدد من الأسر أذكر منها : بنو هود ، وبنو مردنيش ، وبنو نصر .
فالأسرة الأولى كان يتزعمها محمد بن يوسف بن هود الجذامي أحد أحفاد أسرة بني هود في سرقسـطة [١] .والـذي بويـع في مرسية [٢] في غـرة رمضـان مـن سـنة ٦٢٥هـ /١٢٢٧م وتسمى بامير المسـلمين ومعـز الديـن وتلقـب بـالمتوكل علـى ا لله [٣] ، وخـرج إليـه الخليفـة الموحدي المأمون وقاتله وأوقع به الهزيمة وتعقبه إلى مرسـية وضـرب حولـه الحصـار ولكـن لم يواصل الخليفة الموحدي حربه لابن هود إذ سرعان ما رفع الحصار وعاد مسرعاً إلى المغـرب عبر مضيق جبل طـارق ، لما كان قد أهمـه مـن أمر الموحدين بمراكش[٤] ، واستغل ابن هود

---

(١) سرقسطة : مدينة تقع شمال شرق الأندلس وهي مـن أطيـب البلـدان الأندلسـية بقعـة ، واكثرهـا ثمـرة ازدهرت في العهد الإسلامي في قرون عـدة إلى أن سـقطت في أيـدي النصـارى سـنة ٥١٢هـ (انظـر الحميري : صفة جزيرة لأندلس ص ٩٧ ، ٩٨) .

(٢) مرسية : بناها الأمير الأموي عبدالرحمن بن الحكم واتخـذت داراً للعمـال وقـراراً للقـواد ومرسـية تقـع على ضفاف نهر كبير كـان يكـثر بهـا معـدن الفضـة اشـتهرت في عهدهـا الإسـلامي بصناعـة البسـط الرفيعة (انظر الحميري : المصدر السابق ، ص ١٨٢) .

(٣) ابن عذاري : البيان قسم الموحدين ، ص ٢٧٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٨٨ ، ومراكش هي مدينة في جنوب المغرب أسسـها يوسـف بـن تاشـفين ملـك المرابطين سنة ٤٥٤هـ وقد لعبت هذه المدينة دوراً هاماً في التـاريخ الإسـلامي لشـمال إفريقيـا (انظـر ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ١٦١ ، ١٦٢) .

الموقف لصالحه ودخلت في طاعة ابن هود أكثر البلاد الأندلسية ورؤسائها وأنجادها [١] .

وفي سنة ٦٢٥هـ /١٢٢٧م رفع ابن هود العلم الأسود شعار العباسيين وبعث ببيعته إلى الخليفة العباسي المستظهر با لله وفي سنة ٦٢٩هـ أرسل الخليفة العباسي المستظهر با لله رسالة إلى ابن هود وسماه مجاهد الدين سيف أمير المؤمنين [٢] .

ولم تكد تحل نهاية سنة ٦٢٩هـ /١٢٣١م حتى اعلنت مدن : قرطبة ودانية والجزيرة الخضراء وإشبيلية طاعتها لابن هود وكذا المرية وغرناطة ومالقة .

ووصلت سيطرة ابن هود إلى الشاطئ الإفريقي واستسلمت له مدينة سبتة على يد أحد مساعديه ويدعى بالقائد الغشتي سنة ٦٢٩هـ /١٢٣١م وبذلك أوشكت سلطة الموحدين في الأندلس على الزوال وقاربت نهايتها وسيطر ابن هود على معظم أراضي الأندلس [٣] .

ولكن هذا النفوذ الذي تكون سريعاً لم يؤسس على دعائم ثابتة لكثرة المصاعب والضربات التي تلقاها من طرف النصارى ، ومن ناحية أخرى من الثائر في أرجونة والداعي لتجديد دولة الموحدين والخارج على سلطة ابن هود محمد بن يوسف بن نصر [٤] .

وفي سنة ٦٢٧هـ /١٢٢٩م خرج ابن هود بجيوش عظيمة لغزو النصارى أعداء ا لله الكافرين [٥] فالتقى مع ملك ليون ألفونسوا التاسع في ضواحي ماردة [٦] وفي هذه المعركة هُزم ابن هود وكانت هذه الغزوة أولى غزواته وأضخمها فلم ينتصر فيها [٧] .

---

(١) ابن عذاري : البيان قسم الموحدين ، ص ٢٨٨ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٨٨ وابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٢ ، ص ٢٧٩ .
(٤) ابن عذاري : البيان المصدر السابق ، ص ٢٩٦ .
(٥) نفس المصدر والصفحة .
(٦) ماردة : مدينة أندلسية قديمة على مقربة من مدينة قرطبة ، انظر (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٧٥ ، ١٧٦) .
(٧) ابن عذاري : المصدر السابق ، ص ٢٩٦ .

كما جرت معارك أخرى بينه وبين نصارى مملكة قشتالة انتهت لصالح النصارى مما أدى بابن هود إلى أن يعقد صلحاً مع ملك قشتالة لمدة ثلاثة أعوام على أن يدفع للملك النصراني مائة وثلاثين ألف دينار منها خمسين ألفاً معجلة وباقي العدد على الأعوام المذكورة مؤجلة (١) .

وبالتالي أخذت شعبية ابن هود تتضاءل في نظر الجموع المسلمة بالأندلس واخذ المسلمون يلتفون حول الثائر في أرجونة محمد بن يوسف بن نصر الذي حقق العديد من الانتصارات على النصارى وأخذ محمد بن يوسف بن نصر يستغل أخطاء منافسه ابن هود استغلالاً جيداً إذ كان ملولاً عجولاً (٢) .

وبلا شك فقد كانت هذه الصفات تتناقض مع صفات محمد بن يوسف بن نصر الذي دخل في مواجهة مع ابن هود فاعلنت مدينة قرطبة طاعتها لمحمد بن يوسف بن نصر . فدخلها ولكن سكانها لم يستطيعوا تحمل سياسته والتي كانت ترى في الضرب بيد من حديد على العابثين بالأمن والاستقرار وعادوا بعد عدة شهور إلى طاعة ابن هود (٣) .

ثم دخل محمد بن نصر مدينة إشبيلية بحيلة دبّرها وسكنها لمدة شهر ولكن أهالي إشبيلية أذاقوه نكالاً وشراً وطردوه بالجملة وجددوا بيعتهم لابن هود (٤) .

ونتيجة لذلك أدرك ابن هود قوة خصمه ابن نصر وخطورة الموقف فجدد عقد الصلح مع ملك قشتالة وذلك بدفع ألف دينار كل يوم (٥) وذلك للتفرغ لمحاربة خصمه محمد بن يوسف بن نصر .

وفي سنة ٦٣١هـ /١٢٣٣م وقع الصدام المسلح بين ابن هود وابن نصر هزم في هذه الموقعة ابن هود في ضواحي قلعة الفرج على مقربة من إشبيلية (٦) ، وبعد ذلك أوقع به

---

(١) ابن عذاري : البيان قسم الموحدين ، ص ٣٣١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٩ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٠٣ وابن أبي زرع الأنيس ، ص ٢٧٩ .

(٦) ابن أبي زرع : الأنيس ، ص ٢٧٦ وابن الخطيب : أعمال الأعلام جـ ٢ ص ٢٧٩ .

ابن نصر هزائم متوالية ثلاث مرات آخرهن سنة ٦٣٣/٦٣٤هـ /١٢٣٦م [١] ، واستمرت المنافسة بين الطرفين مستغلاً محمد بن يوسف بن نصر الوقت لصالحه إذ عم السخط والغضب على ابن هود في وسط الجموع المسلمة في الأندلس ، ولعل لتلك المبالغ الكبيرة التي كان يدفعها للنصارى دورًا كبيرًا في سخط الناس عليه وتوالي هزائمه أمام ابن نصر ((فلم ينصر به جيش ولا وفق له رأي لغلبة الخفة عليه واستعجاله الحركات ونشاطه إلى لقاء الأعداء من غير كمال استعداد)) [٢] .

فاستغل ابن نصر ضعف خصمه فأرسل من يقوم بدعوته في غرناطة حيث استجاب له أحد أعيانها ويدعى ابن أبي خالد وثار على واليها عقبة بن يحيى المغيلي من قبل ابن هود وأخذ البيعة لابن نصر فاستدعاه لدخولها فبادر إليها في أواخر رمضان من عام خمسة وثلاثين وستمائة وكان وقت دخوله بها وقت صلاة المغرب فصلى بالناس وهو بسيفه مقلد ثم خرج إلى قصر باديس بن حبوس والشمع بين يديه يتقد فدخل إلى خاصته كأنه العروس في مشيته [٣] . من ناحية أخرى قام محمد بن يوسف بن هود بزيارة إلى مدينة المرية للنظر فيها في كيفية مواجهة ابن نصر الذي استولى على غرناطة ، وفي المرية استقبله واليها من قبله المدعو بابن الرميمي وأدخله إلى منزله ((وقضى عليه ذات ليلة بمخدتين أقعدهما على أنفه وفيه وأراه بالغد كأنه مات فجأة ولا أثر فيه)) [٤] .

وبوفاة ابن هود دخلت بقية المدن الأندلسية تحت حكم محمد بن يوسف بن نصر ولم يعد للقوى الأخرى أية أهمية تذكر [٥] .

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، جـ ٢ ص ٢٧٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧٨ .

(٣) ابن عذاري : البيان قسم الموحدين ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

(٥) وقد يقول قائل استبعدت بني مردنيش فما بال بني أشقيلولة فأقول أن بني أشقيلولة لم يكونوا من القوى التي تزامن قيامها مع قيام دولة بني نصر بل هم ثوار متمردون على مملكة غرناطة ولم يكونوا قوة تذكر بمعزل عن بني نصر .

جـ - مع الدولة المرينية :

١ - التضامن الإسلامي بين بني مرين وبني نصر :

ليس من شك في أن التضامن الإسلامي بين المسلمين فريضة شرعية ، بيد أنه في بعض الظروف يصبح قضية مصير ، ويكون السعي إليه والالتزام به ضرورة وجود ، ويعتبر التخاذل فيه والركون إلى الأنانية والأثرة والانعزال إنما هو خطيئة في حق المسلمين .

وتاريخ المسلمين في انتصاراتهم وهزائمهم يدور حول محور التضامن ، وإذا تأملت تاريخنا الإسلامي وجدت المد والجزر فيه يخضعان لقاعدة التضامن ؛ فمع التضامن المد ، ومع الفرقة والخلاف الجزر ، بل إن ذوي المواقف العظيمة في هذا التاريخ على العكس من تواريخ كثير من الأمم ، إنما هم أبطال التضامن الإسلامي ، كما أن فكرته استجابة لقوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا ﴾ (١) .

ويُضاف إلى ذلك أن التضامن حقيقة قائمة في كل مراحل التاريخ الأندلسي والشمال الإفريقي فليس ثمة مسلم في الأندلس إلا وهو يحس بالأخوة لأخيه المسلم ، أخوة في العقيدة ، وأخوة في الشعور ، وأخوة في الهدف ، وأخوة في الألم ، وأخوة إسلامية عامة ، تربط المسلم شعورياً بأخيه المسلم ، وتعبّر بالتالي عن أقوى صور التضامن ، وهي الامتزاج والوقوف صفا واحداً أمام الأعداء ، بالإضافة إلى هذا فإن التضامن تشريع يقتدى فيه المسلمون بالرسول - ﷺ - الذي قال في أثناء تأسيسه لدستور دولة الإسلام في المدينة

---

(٢) من الآية ١٠٣ من سورة آل عمران .

المنورة بأن ((المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ... وأيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم ....)) [1] .

وفي مثل ظروف مملكة غرناطة التي نشأت في ظروف معقدة ، وبشروط صعبة ، ويحيط بها الأعداء من كل جانب ، ويخططون - بوضوح - يدركه العقلاء لالتهامها وفق خطط مدروسة ... في مثل هذه الظروف كان على مملكة غرناطة أن تسعى بكل الطرق للتضامن مع جيرانها في المغرب والشرق الإسلامي بعامة ، ومع بني مرين الذين يواجهونهم في العدوة الأخرى بصفة خاصة .

وكان الواجب الإسلامي يفرض على بني مرين أن يكونوا عند حسن ظن إخوانهم ، وأن يمدوا لهم يد التضامن ، بل كان على الطرفين أن يكونا - وكأنهما - دولة واحدة .

والحق أنه إذا كان المغرب العربي بعد هزيمة الموحدين في موقعة العِقاب سنة ٦٠٩هـ /١٢١٢م ، ينقسم إلى ثلاث دول ورثت الموحدين في المغرب وخلفتهم ، وهي : بنو مرين في المغرب الأقصى ، وبنو زيان في المغرب الأوسط ، وبنو حفص في المغرب الأدنى "تونس" ... فإن هذه الدول قد استوعبت بدرجات متفاوتة درس موقعة العقاب .

ويعتبر بنو مرين أكثر هذه الدول استيعاباً لفكرة التضامن الإسلامي مع بني نصر بالنفس والسلاح والعتاد .

وأستطيع القول - مطمئناً - إن بني مرين أدركوا ضرورة التضامن مع إخوانهم بني نصر في غرناطة ، وأدركوا ان هذا التضامن فرض عين عليهم بخاصة ، لأنهم الأدنون منهم ، ولا يبعد أن يمتد خطر النصارى إليهم .

---

(١) ابن هشام : عبدالملك ، السيرة النبوية ، حققها ووضع فهارسها مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري ، عبدالحفيظ شلبي ، أربعة أجزاء ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ط١ ، ١٤١٥هـ ، جـ ٢ ، ص ١١٦ .

ومن الجدير بالذكر أنه كان من نتائج هزيمة الموحدين في موقعة العقاب توغل النصارى في بلاد الأندلس ، حتى اقتربوا من الجنوب الذي يتاخم العدوة المغربية ، واعتبرت هذه الهزيمة الضربة القاضية لدولة الموحدين ، فكان على بني مرين " وأملاكهم جزء من دولة الموحدين " أن يدركوا أنهم أمام خطر حقيقي على أنفسهم وإخوانهم ، وأن يدركوا أن التضامن مع بني نصر ـ الذين يمثلون حاجزاً جغرافيا وبشريا بينهم وبين النصارى ـ إنما هو ضروري لهم ولإخوانهم في الأندلس .

وفي المقابل لم يكن في صالح شعب مملكة غرناطة وحكومتها أن يكونوا في معزل عن روابط الأخوة الإسلامية التي تربطهم بإخوانهم في العقيدة باعتبار أن مملكة غرناطة جزء لا يتجزأ من الأمة المسلمة في ذلك الوقت بصفة عامة وشمال إفريقيا بصفة خاصة .

وهذا ما أدركه مؤسسها محمد بن يوسف بن نصر الذي أوصى في أواخر عهده ولي عهده بضرورة التحالف مع بني مرين كلما لاح خطر النصارى (١) .

وتنفيذاً لتلك الوصية فقد بعث السلطان محمد الثاني (الفقيه) الذي خلف أباه في الحكم برسالة إلى السلطان المريني أبي يوسف يعقوب يدعوه للمشاركة في الجهاد مرفقاً تلك الرسالة بوصية والده قبل وفاته (٢) .

وهكذا قويت فكرة التضامن الإسلامي لدى بني نصر مع بني مرين ، كما أنها كما كانت قوية على صعيد مملكة غرناطة .

كما أن بني مرين كانوا بطبيعتهم ذوي غيرة إسلامية يؤثرون الجهاد ويسعون إليه ، وفي نفوسهم جنوح إليه ورغبة عارمة فيه (٣) . والدليل على ذلك ما علّق به ابن أبي زرع على صدى وصول رسالة السلطان محمد الفقيه التي أشرنا إليها بقوله :

---

(١) انظر نص هذه الوثيقة كاملاً في : ابن أبي زرع : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، دار المنصور للطباعة والوراقة ـ الرباط ١٩٧٢م ، ص ١٤٢ ، وابن خلدون العبر ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ .

(٢) ابن أبي زرع : المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣) انظر : ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ١٩١ .

((فلبى أمير المسلمين دعوتهم وأجاب استغاثتهم واستنصارهم وكتب إليهم جواب كتاب استنصارهم))[١] ، إذ وصلت السلطان الغرناطي محمد الثاني رسالة جوابية من السلطان المريني أبي يوسف يعقوب تضمنت رغبة بني مرين الأكيدة في التضامن الإسلامي مع مملكة غرناطة[٢] .

وكانت دولة بني مرين في ذلك الوقت في قمة قوتها العسكرية والسياسية ، ففي عام ٦٧٢هـ /١٢٧٣م كان السلطان المريني أبو يوسف يعقوب قد عقد صلحاً مع دولة بني زيان وخضعت لسلطته مدينة سبتة وبإستيلائه على مدينة سبتة بالإضافة إلى ميناء طنجة تحكمت الدولة المرينية في الضفة المغربية للمضيق[٣] ، وعلى صعيد مملكة غرناطة فإن محمداً الفقيه كان على خبرة ودراية بشؤون الحكم ؛ إذ باشر الوزارة في عهد أبيه وكان على علم تام بالثائرين عليه من بني أشقيلولة وأطماعهم ، ولهذا نراه في الرسالة التي وجهها إلى سلطان بني مرين أبي يوسف يعقوب يدعوه فيها للتضامن والمشاركة في الجهاد دون أن يشير إلى نزاعه مع رعيته من أبناء شعبه معتبراً ذلك شأناً داخلياً[٤] ، وكانت هذه كياسة منه . كما أبدى استعداده للتنازل عن مدينتي رندة وطريف[٥] من بلاده لبني مرين حسب طلب السلطان المريني لتكون بمثابة قواعد عسكرية ثابتة تنطلق منها للجهاد لنجدة مسلمي مملكة غرناطة[٦] .

---

(١) ابن أبي زرع : الذخيرة ، ص ١٤٢ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٧ .

(٤) انظر نفس المصدر ص ١٤٠ ، ١٤١ حيث يورد النص الكامل لتلك الرسالة دون الإشارة فيها إلى الثوار من بني أشقيلولة .

(٥) طريف : مدينة أندلسية تتبع ولاية مالقة ، ومرد تسميتها كذلك أنها كانت أول بقعة هبطت فيها حملة إسلامية بقيادة طريف بن مالك موفداً من قبل موسى بن نصير لاختيار جنوب اسبانيا تمهيداً للفتح الإسلامي الكبير عام ٩١هـ (انظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٢٧) .

(٦) ابن أبي زرع : الأنيس ، ص ٣١٤ .

٢ - دور بني مرين في تدعيم الجبهة الإسلامية في غرناطة :

وهكذا كان التضامن فكرة إسلامية مسيطرة على بني مرين وبني نصر معاً انطلاقاً من إيمانهم الإسلامي ومن واجبهم التاريخي ومن التحديات المفروضة عليهم ، وإنطلاقاً من هذا التشبع بفكرة التضامن انطلق الجانبان لتحقيق الأهداف المشتركة بين الدولتين المرينية والنصرية - على المستوى العملي - حين أرسل سلطان بني مرين أبو يوسف يعقوب حملة إلى اسبانيا بقيادة ابنه أبو زيان منديل الذي توغل في أراضي قشتالة ثم عاد إلى الجزيرة الخضراء دون تحقيق نصر حربي يذكر إلا أنه نبه أذهان مسلمي مملكة غرناطة إلى أن هناك إخوة لهم في العقيدة يشاطرونهم الجهاد [(١)] مما أدى إلى ارتفاع الروح القتالية لدى مسلمي مملكة غرناطة وزاد من استقرارهم وصمودهم .

في الوقت نفسه دعا السلطان المريني أبو يوسف يعقوب إلى استنهاض الهمم في بلاده ودعا كافة قبائل المغرب للمشاركة في الحرب والجهاد ضد النصارى في شبه جزيرة ايبيريا . واتخذ من قصر المجاز موضعاً لتجمع القبائل المرينية والتي قدمت في جموع غفيرة ملبية داعي الجهاد .

ولما اكتملت تلك الحشود تفقدها بنفسه ((وأخذ في تجهيز الجيوش والخيل والسلاح والعدد وتجويزهم إلى الأندلس .... وكانوا يجوزون أفواجاً أفواجا وقبيلاً قبيلا)) [(٢)] .

ويصف ابن أبي زرع ذلك الجواز وصفا ضافيا وصادقاً إذ يقول : ((فكانت المراكب والسفن عاديات ورائحات أثناء الليل وأطراف النهار ومن قصر المجاز إلى طريف يزدحمون في ذلك المعبر :

---

(١) ابن أبي زرع : الأنيس ، ص ٣١٢ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

فالمرسلات تسوق العاديـــات إلى غزو العداة وتجويز صباح مساء
كأنما البحر أضحى للجياد مسدا وكل شعبة ماء حولت فرســـا
كأنما اقترب البران واتصـــــلا فصار ذاك طريقاً للبحر يبسا)) (١)

ولما تكامل وصول الجيش إلى شواطئ الأندلس انتشرت محلات المسلمين من طريف إلى الجزيرة الخضراء وصل السلطان المريني فجأة إلى طريف وعلى حين غفلة من الناس كان ذلك يوم الخميس ٢٤ صفر سنة ٦٧٤هـ /١٢٧٥م (٢) ، ومن طريف اتجه السلطان يعقوب إلى الجزيرة الخضراء ، حيث كان في استقباله السلطان النصري محمد الثاني بحشوده العسكرية وبعد اللقاء الذي دار بين الطرفين عاد السلطان محمد الفقيه إلى غرناطة (٣) .

وبالرغم من إنسحاب السلطان النصري وعودته لعاصمته فإن السلطان يعقوب عزم على السير نحو جهاد نصارى قشتالة قاصداً منطقة الوادي الكبير ((فانتشرت الجيوش في أراضي الوادي الكبير كأنها السيل العرم الغزير أو الجراد المنتشر لا يمرون بشجرة إلا قطعوها ، ولا بقرية إلا خربوها ، وإلا بمال إلا غنموه ولا بزرع إلا حرقوه فغنموا بتلك الناحية من الأموال وقتلوا من وجدوا فيها من الرجال وسبوا الذرية والعيال ، وسار حتى بلغ حصن المدور من أحواز قرطبة يقتل ويسبي ويحرق الزرع ويخرب القرى والربوع حتى هتك جميع أحواز قرطبة وآبده (٤) وبياسة (٥) ونواحيها)) (٦) .

---

(١) ابن أبي زرع : الأنيس ، ص ٣١٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣١٥ .

(٣) نفس المصدر والصفحة وكان من أسباب عودته أن جمع مجلس السلطان يعقوب الثوار من بني أشقيلولة ولم يكن السلطان النصري راضياً عن المحادثات بشأنهم .

(٤) آبدة : أو أبذة مدينة أندلسية بينها وبين بياسة سبعة أميال وهي مدينة صغيرة على مقربة من النهر الكبير سقطت في أيدي النصارى سنة ٦٠٩هـ بعد موقعة العقاب ، اظر (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١) .

(٥) بياسة : بينها وبين مدينة جيان عشرون ميلاً استولى عليها النصارى سنة ٦٢٣هـ (انظر الحميري : المصدر السابق ، ص ٥٧) .

(٦) ابن أبي زرع : الأنيس ، ص ٣١٥ .

ودخل حصن بلنسية بالسيف ولما وصل الجيش المريني إلى مدينة أستجة جاءه الخبر بأن مملكة قشتالة قد أعدت العدة وحشدت جيشاً بقيادة الأمير النصراني الدون نيودي لارا .
وعلى الفور استشار السلطان يعقوب أشياخ بني مرين وغيرهم من القادة الأندلسيين في كيفية مواجهة العدو (١) ، وبيّن لنا ابن أبي زرع الكيفية التي استنهض بها السلطان يعقوب همم الجيش المريني وحثهم على الجهاد ((إذ بدأ بنفسه ونزل عن جواده وصلى ركعتين ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمنون على دعائه ، وكان في آخر دعائه ما دعا به النبي ﷺ يوم بدر للصحابة : اللهم انصر هذه العصابة وسلمها واعنها على جهاد عدوك وعدوها وأيدها ... ولما فرغ من دعائه قام فركب جواده وعبأ جيوشه واستعد لجهاده وجلاده)) (٢) ، وكان مما قاله داعياً جيشه للصبر والثبات ألا إن الجنة قد فتحت لكم أبوابها وزينت أترابها فجدو في طلابها فإن ا لله تعالى اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة فشمروا عن ساعد الجد معاشر المسلمين في جهاد المشركين فمن مات منكم مات شهيداً ومن عاش عاش غانماً مأجوراً حميداً فأصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا ا لله لعلكم تفلحون (٣) . مما كان له أكبر الأثر في صفوف الجيش المريني إذ تاقت أنفسهم للشهادة وعانق بعضهم بعضاً للوداع (٤) .

وكان الجيش القشتالي قد وصل إلى مقربة من مدينة أستجة شمال غرب غرناطة والتقى الجيشان وكما يصف ابن أبي زرع (فلا ترى إلا السمر تهوي في الروم كأنها الشهب الثواقب والبيض تفعل في أعداء ا لله فعل العذاب الواصب)) (٥) . فهزم النصارى وقتل قائدهم الدوق نيودي لارا وعدد كبير من أفراد جيشه كان ذلك في يوم السبت الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٧٤هـ /١٢٧٥م وطارت أنباء ذلك النصر في

---

(١) ابن أبي زرع : الذخيرة ، ص ١٤٨ .
(٢) ابن أبي زرع : الأنيس ، ص ٣١٧ .
(٣) اقتباس من الآية ٢٠٠ من سورة آل عمران .
(٤) ابن أبي زرع : الأنيس ، ص ٣١٧ .
(٥) ابن أبي زرع : الذخيرة ، ص ١٥٠ .

جميع أرجاء الأندلس والمغرب ولقد كان لهذه الحملة الأثر في تدعيم مملكة غرناطة إذ أثرت على أعدائهم نصارى قشتالة تأثيراً معنوياً واقتصادياً فغلت أسعارهم وصعبت معيشتهم (١) .

بعد هذه المعركة عاد السلطان يعقوب إلى الجزيرة الخضراء ليستقبل الوفود المهنئة له وكان من بين تلك الوفود وفد السلطان محمد الثاني (٢) وبني أشقيلوله . ثم غادر السلطان يعقوب الأندلس متوجهاً إلى بلاده وكان جوازه من الأندلس إلى بر العدوة في آخر يوم من رجب سنة ٦٧٤هـ /١٢٧٥م ومن الجدير بالذكر أن السلطان يعقوب قد ترك بالأندلس جيشاً قوامه ثلاثة آلاف فارس من بني مرين والعرب (٣) .

وكان مما حث السلطان أبا يوسف يعقوب للعودة إلى الأندلس وصول رسالة من السلطان النصري محمد الفقيه يستنصره فيها ويطلب منه الجواز ثانية وقد أرفق رسالته تلك بقصيدة من نظم الكاتب أبي عمران المرابط مطلعها :

هل من معين في الهدا أو منجد   من متهم في الأرض ومن منجد (٤)

وبنفس الطريقة في حشد الجيوش المرينية والاستعداد لعبور قصر المجاز عبر السلطان المريني أبو يوسف إلى طريف فكان أن حط رحاله فيها في الثامن والعشرين من محرم سنة ٦٧٦هـ /١٢٧٧م أي بعد حوالي سنتين من جوازه الأول إلى الأندلس ، ومن طريف اتجه إلى الجزيرة الخضراء ومنها إلى قاعدته العسكرية برندة حيث نزل بخارجها (٥) .

وبالرغم من أن السلطان محمد الفقيه قد أرسل رسالة إلى السلطان المريني يدعوه فيها للمشاركة في الجهاد إلا أن بني أشقيلولة قد تدخلوا لإفساد ذلك التضامن .

---

(١) ابن أبي زرع : الذخيرة ، ص ١٥٠ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٥٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٦٣ .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس ، ص ٣٢٣ .

فما أن وصل السلطان يعقوب إلى رندة حتى ((أتاه هنالك بنو أشقيلولة وهم الرئيس أبو إسحاق صاحب وادي آش والرئيس أبو محمد صاحب مالقة [١] ، مما أدى بالسلطان النصري محمد الثاني إلى التزام الحيطة والحذر وعدم الانطلاق بصحبة السلطان المريني في الجهاد)) [٢] .

فخرج السلطان يعقوب بجيشه تجاه مدينة إشبيلية فخرج الملك القشتالي على رأس جيش كبير لملاقاته وعلى ضفاف الوادي الكبير إلتقى الجمعان واتخذ السلطان المريني نفس الاستعدادات في حروبه السابقة وتقدم الأمير المريني يوسف بن السلطان يعقوب على رأس ألف فارس من انجاد بني مرين مقتحماً المعسكر النصراني ثم أقبل السلطان يعقوب على رأس جيشه فلما سمع النصارى هدير طبوله وعاينوا اشراق رايته المنصورة وبنوده ولوا منهزمين [٣] ، ولم يقتحم السلطان يعقوب بجيشه مدينة إشبيلية وإنما انتشرت الفرق المرينية في ضواحيها ((يقتلون فريقاً ويأسرون فريقا وتحرق وتخرب)) [٤] ، وكان الأجدر من ذلك هو اقتحام مدينة إشبيلية وإعادتها إلى دار الإسلام ، ثم توجه الجيش المريني نحو مدينة شريش فوصلها في منتصف شهر ربيع الآخر ٦٧٦هـ /١٢٧٧م وقد عزم على هلاكها واستئصالها ، وشدد حولها الحصار وبدأها بالحرب الاقتصادية ومنها أمر ابنه يوسف بالإنطلاق والتوغل في أراضي الوادي الكبير فدخل حصن روطة وعدد من الحصون حتى وصل إلى ضواحي إشبيلية ، ثم عاد إلى شريش حيث يحاصرها والده ومنها غادرا نحو الجزيرة الخضراء ومن هناك أخذ في ترتيب قواته تمهيداً لغزو مدينة قرطبة [٥] .

---

(١) ابن أبي زرع : الأنيس ، ص ٣٢٣ .

(٢) بسبب انضواء بني أشقيلوله تحت لواء السلطان المريني مما سبب الخلاف بين الزعيمين انظر ص٨٣ ، ٨٤ من الرسالة .

(٣) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ٣٢٤ ,

(٤) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

ومن الجدير بالذكر أن سلطان غرناطة محمد الثاني خرج من غرناطة على رأس جيشه للمشاركة مع السلطان أبي يعقوب في هذا المشروع الجهادي العظيم الذي كان أولى به (أي السلطان الغرناطي) أن يكون في المقدمة .

ومهما يكن من أمر فقد التقى الجمعان بقيادة السلطان المريني يعقوب والسلطان الغرناطي محمد الفقيه في مكان يُقال له خمار الورد في نواحي شذونة (١) ، ((وجمع ا لله تعالى كلمة الإسلام وألف بين قلوب أهله فطابت نفوس المسلمين على القتال وقويت نياتهم فاستعدو للجهاد)) (٢) ، وانطلق الجيش الإسلامي المريني الغرناطي فتمكنوا من فتح حصن آشر وأطلقوا الغارات في كل ناحية من بلاد نصارى قشتالة وسقط في أيديهم العديد من الغنائم بمختلف أنواعها حتى وصلوا إلى قرطبة وتفرقت قبائل بني مرين يقتلون ويأسرون ويخربون حتى دخلوا حصن الزهراء بالسيف ، ولما رأى الملك القشتالي ألفونسوا ما حل ببلاده طلب الصلح الذي وافق عليه الطرفان المريني والنصري (٣) . ثم حدث بعد ذلك ما عكّر صفو العلاقات بين الدولتين النصرية والمرينية وذلك في نزاعهما بسبب مدينة مالقة (٤) .

فبعد أن حقق سلطان غرناطة هدفه باستعادة ولاية مالقة (٥) أدرك أن حصار نصارى قشتالة للجزيرة الخضراء عديم الجدوى وأن سقوطها في صالح النصارى ، أعداء مسلمي مملكة غرناطة ودولة بني مرين على حد سواء . لهذا قرر تغيير النهج الذي انتهجه في

---

(١) شذونة : أندلسية كريمة البقعة عذبة التربة فيها كانت هزيمة ملك القوط لذريق سنة ٩٢هـ بلغت أوج ازدهارها في عهد الأمير الأموي الحكم بن هشام (انظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١٠ ، ١٠١) .

(٢) ابن أبي زرع : الأنيس ، ص ٣٢٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

(٤) انظر تفاصيل ذلك في الحديث عن موضوع الخلاف ص ٨٤ من الرسالة .

(٥) لقد فصّلت الحديث عن هذا الخلاف الذي نشب بين الطرفين بشأن مالقة فانظر ذلك في ص٨٥ من الرسالة .

سياسته تجاه بني مرين متناسياً خلافه مع السلطان المريني وبعث بالصلح لأبي زيان واجتمع معه بأحواز مربلة (١) ، وانعقد السلم والصلح بين الطرفين لما يؤمل في ذلك السلطان يعقوب من رضا الله في جهاد عدوه وإعلاء كلمته وانبسط أمل ابن الأحمر (٢) .

وتحقيقاً لهذا الهدف فقد اشتركت البحرية الغرناطية مع الوحدات البحرية المرينية والسفن السبتية العزفية وشنت هجوماً بحرياً على البحرية النصرية وأمام هذا التضامن الإسلامي النصري المريني هزم النصارى في شهر شعبان عام ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م ودخل المسلمون مرفأ الجزيرة واحتلوا معسكر الطاغية (٣) .

وعندما سقطت مدينة طريف سنة ٦٩٢هـ /١٢٩٢م بسبب الخلاف بين الدولتين النصرانية والمرينية (٤) قرر السلطان محمد الثاني زيارة المغرب المريني إيماناً منه بضرورة التضامن الإسلامي مع بني مرين فوصل إلى طنجة ((وقدم بين يدي نجواه مع السلطان المريني هدية كان من أعظمها المصحف الكبير أحد مصاحف عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فأكرم السلطان المريني وفادته واتفقا على استعادة طريف بالقوة وأجازت عساكر السلطان معه لحصار طريف)) (٤) وضرب حولها الحصار لكن تلك القوات لم تنجح في استعادتها (٥) .

وكان للحروب التي خاضها السلطان المريني أبو يوسف يعقوب ضد نصارى مملكة قشتالة تأثير كبير عليها إذ ثبتت أقدام مسلمي مملكة غرناطة وكانت عوناً لهم بأن تظهر بلادهم امام النصارى بمظهر التكافؤ العسكري إن لم يكن التفوق وقد أدرك هذا السلطان

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ٢٠٣ ومربلة : هي مدينة صغيرة بالأندلس بالقرب من مرسى مالقة (انظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٨٠) .

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق نفس الجزء والصفحة .

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠٣ .

(٤) نفس المصدر ، جـ ٧ ، ص ٢١٧ .

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

المريني كما أشار إلى ذلك ابن أبي زرع [١] .

ومن ناحية أخرى كان السلطان المريني قد تنازل في أثناء لقائه بالسلطان محمد في طنجة عام ٦٩٤هـ /١٢٩٤م عن كل المواقع التي كان يحتفظ بها في الأندلس [٢] .

وهذا التضامن الإسلامي فسّر لنا مدى إصرار نصارى قشتالة وأرغون على الاستيلاء على تلك القواعد لما يشعرون به من قوة بني مرين ودعمهم لإخوانهم مسلمي مملكة غرناطة وذلك محاولة منهم عزل غرناطة العاصمة عن الشريط الساحلي المحاذي لبر العدوة ، ولقد تركزت كبرى المعارك في تلك المواقع ، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على أهمية التضامن الإسلامي بين الدولتين النصرية والمرينية ، ونتيجة مباشرة من نتائج هذا التضامن ، فما أن حلت سنة ٦٩٥هـ / ٢٦ / ابريل /١٢٩٥م حتى شنت مملكة غرناطة بقيادة السلطان محمد الثاني هجوماً عنيفاً على الأراضي النصرانية القشتالية على مدار ست سنوات متواصلة [٣] .

ثم لم يلبث أن أعقب ذلك التضامن خلافاً أعقبه إدراك من بني نصر وبني مرين فداحة خلافاتهم التي أعقبت ذلك الوفاق وما جنته على الشعبين المسلمين من ضياع للممر الحيوي بينهما [٤] .

فبادروا للمصالحة وتم زواج السلطان نصر من أخت السلطان المريني أبي الربيع [٥] وذلك زيادة في تقوية عرى الأخوة والمودة . وتنازل بنو نصر عن القواعد العسكرية التي كانت قد أعيدت لهم فعادت الجزيرة ورندة وتوابعها للسلطة المرينية وبدأت الشحنات الحربية تتجه إلى الساحل الغرناطي مصحوبة بفرق من جنود بني مرين [٦] .

---

(١) ابن أبي زرع : الذخيرة ، ص ١٥٩ .

(٢) ابن خلدون " العبر ، جـ ٧ ، ص ٢١٧ .

(٣) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٥٦١ ، ٥٦٢ ، واللمحة البدرية ، ص ٣٩ .

(٤) انظر ذلك في موضوع الخلاف ص ٨٩ .

(٥) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ، ص ٢٤٠ .

(٦) انظر نفس المصدر والجزء والصفحة .

كان ذلك في الوقت الذي واصل فيه ملك قشتالة زحفه نحو الجزيرة الخضراء بعد سقوط جبل طارق محاولاً بذلك عزل مملكة غرناطة عن الساحل الذي يربطها بدولة بني مرين والذي هو أساس قوتها وصمودها ونتيجة للتضامن بين الدولتين النصرية والمرينية اشتعلت المقاومة الإسلامية في الجزيرة الخضراء ، وقد عانت القوات القشتالية النصرانية الكثير من العقبات أمام التضامن الإسلامي المريني النصري ؛ مما أدى إلى أن يوقع الملك فرناندو الرابع ملك قشتالة مع السلطان النصري نصر معاهدة سلام مرتحلاً عن الجزيرة الخضراء بالصلح [١] . ولم يكن هذا النجاح على صعيد الجزيرة الخضراء فحسب بل على صعيد مدينة المرية التي كانت تتعرض لهجوم وحصار من نصارى مملكة أرغون ؛ إذا أسفر هذا الحصار عن الفشل التام للأرغونيين ورحيلهم خائبين إلى بلادهم [٢] .

ولقد كان سقوط جبل طارق في أيدي النصارى مثار قلق لكل من الدولتين المسلمتين النصرية والمرينية ولذلك فعندما تولى السلطان النصري محمد الرابع الحكم في غرناطة حمل لواء الجهاد وشن غارات مكثفة على نصارى شبه جزير إيبريا ، ونتيجة لذلك اشتدت الحركة الصليبية في عهد الملك القشتالي ألفونسوا الحادي عشر لحرب مملكة غرناطة وبدأ يلوح في الأفق مشروع حملة صليبية يشترك فيها نصارى قشتالة وأرغون ولكسمبرج وإنجلترا [٣] .

وعلى صعيد مملكة غرناطة هدد محمد الرابع بالاستنجاد باخوته في الإسلام في دولة بني مرين للوقوف أمام مشروع الحملة الصليبية فعبر محمد الرابع البحر المتوسط في الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة من عام ٧٣٢هـ / ١٢٣١م إلى بر العدوة [٤] ووصل إلى

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ، ص ٢٤٠ .

(٢) ابن القاضي : شهاب الدين أحمد بن محمد المكناسي ، أبو العباس ، درة الحجال في أسماء الرجال ثلاثة أجزاء ، تحقيق محمد الأحمد أبو النور المكتبة العتيقة ، تونس (د. ت) جـ ١ ، ص ١٣٨ .

(3) A Musia de ROS (A.) la corona de Aragon Y los estudos del nort de Africa Bercelona, 1951 . p. 4 - 30 .

(٤) انظر ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٨٠ .

البلاط المريني حيث استقبله السلطان المريني أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بالحفاوة والترحيب وعقدت المباحثات بين العاهلين وتركزت على ضرورة التضامن والجهاد للدفاع عن مسلمي الأندلس والمغرب ، واتفقا بالبدء في فتح مضيق جبل الفتح حلقة الوصل بين العدوتين ولتحقيق ذلك الهدف جهز السلطان المريني جيشاً وأسند قيادته لابنه أبي مالك وزود السلطان النصري بالمال والسلاح وقفل محمد الرابع عائداً إلى بلاده ليقود جيشاً اتجه به إلى مضيق جبل طارق في الوقت الذي وصل فيه القائد المريني أبو مالك أيضاً إلى جبل طارق .

وعلى الفور هاجمت جنود محمد بن إسماعيل وجنود أبي مالك الحامية النصرانية القشتالية في الجبل وتمكنت من فتحه وأسر وطرد من كان فيه من النصارى ، وهكذا تم فتح الجبل واستعادته من النصارى بعد مرور أربعة وعشرين عاماً على سقوطه في أيديهم كان ذلك الفتح في يوم الثلاثاء الثاني عشر من ذي الحجة عام ٧٣٣هـ /١٣٣٢م (١) .

وعم الفرح والسرور بين أوساط الشعبين المسلمين في الدولتين النصرية والمرينية بإعادة فتح الجسر مرة أخرى أمام المجاهدين والوافدين من كلا البلدين والشمال الإفريقي مما أدى بمملكة قشتالة أن تطلب الصلح والمهادنة وعقدت معاهدة بين غرناطة وقشتالة تعهدت فيها مملكة قشتالة بعدم الاعتداء على مملكة غرناطة وتعهدت مملكة غرناطة بالكف عن مساعدة النبلاء والثوار على ملك قشتالة (٢) .

بعد عودة جبل طارق لحوزة المسلمين ، أخذ السلطان المريني أبو الحسن في الاستعداد لخوض الحرب مع نصارى شبه جزيرة إيبريا ، رغبة منه في الجهاد ونصرة مملكة غرناطة ، فأمر بتحصين الثغور في كل المواقع الغرناطية (المرينية) المتاخمة للحدود القشتالية وتزويدها بالمؤن والرجال وكان ينفق من أجل تحصين تلك الثغور خمسين ألف دينار من

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٨١ والإحاطة ، جـ ١ ، ص ٥٣٧ .

(2) JOSE Antonnio conde . Historia de la Dominacionde los Arabes en espana, madrid , 1820 , p. 598 .

الذهب شهرياً (١) ، وكذا أخذت مملكة غرناطة تستعد للحرب بقيادة سلطانها يوسف الأول الذي خلف أخاه محمد الرابع (٢) .

وفي الوقت نفسه كان النصارى يستعدون للحرب فلم تكن مملكة قشتالة الوحيدة في الميدان فقد تحالف الملك القشتالي ألفونسوا الحادي عشر مع صهره ملك البرتغال ، كما أعلن الملك الأرغوني بيدرو الرابع تحالفه وتضامنه مع ملك قشتالة ووضع البحرية الكتالونية تحت تصرف البحرية القشتالية ، كما انضم إلى التحالف النصراني فرسان من الإنجليز ، وملك نفاربا فيليب دي أفرو (٣) .

وكانت الجموع النصرانية قد احتشدت بقيادة الملك ألفونسوا الحادي عشر ملك قشتالة وزحفوا تجاه مدينة طريف التي كان الجيش الإسلامي المريني النصري قد ضرب حولها الحصار إذ إن السلطان المريني أبو الحسن قد عبر بجيشه البحر والتقى مع سلطان غرناطة يوسف الأول الذي قدم من غرناطة في اتجاه طريف .

ولقد اتسمت تصرفات كل من القادة أبي الحسن ويوسف الأول وألفونسوا الحادي عشر وحلفائه بالتردد والشك ، حيث يعلمون جيداً مدى جدية وخطورة الموقف . وفي يوم التاسع من صفر /٧٤١هـ الموافق ١٤ أغسطس / ١٣٢٠م وقع الصدام والمواجهة الكبرى بين الجيوش الإسلامية المتضامنة والجيوش الصليبية المتحالفة وحقق النصارى نصراً حاسماً على الجيوش الإسلامية ، ويعلل ابن خلدون سبب الهزيمة بخديعة نصرانية تمثلت في دخول كمين من النصارى إلى داخل مدينة طريف وعندما نشبت المعركة هاجم الكمين النصراني مقر إقامة عائلة السلطان المريني أبي الحسن فقتلوا نساءه وأطفاله ، فلما شعر

---

(١) ابن مرزوق : محمد التلمساني : المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، تحقيق ودراسة مارياخيسوس بقيرا ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٤٠١هـ ، ص ٣٩١ .

(٢) انظر ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٨٩ .

(3) Gim ENEZ solEr (A.) La corona de Aragon X Granada , B. R. A. B. L. de Burclona . t4 . 1905 - 1906 , p. 213 .

الجيش الإسلامي بما حدث تخلخلت صفوفهم مما سهل للنصارى التفوق والنصر [(١)] . فانسحب السلطان أبو الحسن إلى الجزيرة الخضراء ومنها غادر عائداً إلى بلاده كما انسحب السلطان يوسف تجاه غرناطة ، واستشهد في هذه المعركة العديد من المسلمين من كلا الجانبين الغرناطي والمريني ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم [(٢)] . وكان لهذه المعركة نتائج ذات أهمية على الصعيدين الإسلامي والنصراني في شبه جزيرة إيبريا أوجزها فيمايلي :

- سقوط الجزيرة الخضراء في أيدي النصارى .
- نجاح النصارى في شبه جزيرة إيبريا في إبعاد بني مرين نهائياً ، عن خوض معركة كبرى بهذا المستوى مع النصارى وبهذا تشبه هذه المعركة معركة العِقاب .
- أدى النزيف البشري والاقتصادي لمملكة قشتالة في هذه المعركة وما سبقها من معارك مع بني مرين وبني نصر إلى التأثير على الوضع الاقتصادي القشتالي ، لهذا وقع ألفونسوا الحادي عشر ، بعدها معاهدة سلام مع غرناطة وبني مرين لمدة عشر سنوات [(٣)] .

من ناحية أخرى لم يقتصر بنو مرين على التضامن مع بني نصر على المستوى الدولي بل تعدى ذلك إلى المجهود الشعبي بالمال والعتاد والرجال والتي هي دعامة أساسية في الحروب ، فمن هذا المنطلق سوف أتحدث عن السلطان المريني أبي الحسن كنموذج سار عليه المخلصون من سلاطين بني مرين .

ويحدثنا ابن مرزوق عن تلك الجهود العظيمة التي بذلها السلطان أبو الحسن في سبيل تدعيم مملكة غرناطة لتمكينها من الوقوف في وجه النصارى بقوله :

((وأما إقامته حال المجاهدين فلم يزل ذلك دأبه ... فلا يزال طول دهره معمور الفكر ،

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٢٦٢ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٤ ، ص ٣١٨ وأعمال الأعلام ، جـ ٢ ص ٣٠٤ .

مشغول الظاهر بالجهاد ، فلا تمر سنة إلا وله منها تجهير أسطول وتجهيز غزاة ، رجالاً وركباناً في كل وجه وجهه في أيام الحرب عملاً في السلم استعدادا ، فأكثر أمواله التي جمعها وصارت له .... في سبيل الجهاد أنفقها وفي أعماله أنفذها .... وما من سنة تمضي بل وفصل ينقضي إلا وهداياه تصل إلى الأندلس من الناض والمتاع والعدة والكراع ينفذ ذلك أحمالاً عديدة وأمواله تفرق على البلاد الراجعة لنظرهم ، كجبل الفتح والجزيرة ... ورندة وأعمالها حتى أن المرتبات لتعم في الغالب جميع سكان هذه البلاد على اختلافها)) [١] .

وهذا النص لا يحتاج إلى إيضاح فهو تقرير من شاهد عيان ومؤرخ له خبرة ودراية بأحوال الأندلس والمغرب متنقلاً بين العدوتين متولياً مناصب إدارية فيها فكانت كل كلمة من كلماته لها تأثير مريني إسلامي على طول الجبهة الإسلامية في مملكة غرناطة وكل دعم أشار إليه كان له أكبر الأثر في تمكين تلك المملكة من الصمود في مواجهة أعدائها .

ولقد شيد بنو مرين الدفاعات الحصينة في الأندلس وتولوا الإنفاق على الإقليم الجنوبي لمملكة غرناطة فمن ذلك تحصين جبل طارق فوجّه إليه السلطان أبو الحسن ((أحمال الذهب وأهل النجدة من الخدام لذلك فأبتدؤو بناء الحصن فأحكموا سورة ودوره ومواجله وآثاره وتحصين المواضع التي يحذر منها عليه وبناء جامعه ومخازنه والسفن أثناء ذلك تشحن زرعاً وأدماً ومرافق وعدد بحرية وبرية بما تذهل العقول عند رؤيته وتحار الأفكار في جمع قدره)) [٢] .

ولم يقتصر ذلك العمل على ما ذكر فحسب بل رأى السلطان أبو الحسن المريني أن يحيط جبل طارق بسور من كل جانب فكان ذلك العمل يُعد ضرباً من المحال ولكن همة السلطان أبي الحسن تجاوزت ذلك ((فأخرج الأموال وعين العمال وتخير الثقات والأمناء فأحاط بمجموعة ... اتخذ فيها محارس ومساكن من البر إلى البحر)) [٣] .

---

(١) ابن مرزوق ، المسند ، ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٩١ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

ولما انتهى من بناء السور أمر ببناء المساكن والدور وانتعشت الحياة في جبل طارق وازدهرت الحياة الاقتصادية فيها وصارت بها أسواق وجامع للصلاة والخطبة [١] .

ووفر السلطان المريني أبو الحسن أسباب المعيشة في جبل الفتح إذ شحنه بالسكان وأجرى عليهم مرتبات شهرية من الذهب والقمح يشملهم كل شهر [٢] .

وعلى صعيد الناحية العسكرية فإنه قد شحن ((مجموع أبراج الجبل والسفح ودوره بالأبطال والشجعان من الرجالة والفرسان يجري على كل منهم ومن معهم من العيال والأولاد المرتبات الكافية)) [٣] . هذا وقد شمل التحصين أيضاً جميع القواعد العسكرية المرينية بجنوب مملكة غرناطة ولولا خوفي من الإسهاب لتتبعنا ذلك بالتفصيل .

أما بالنسبة للتموين استعداداً لخوض الحرب مع النصارى فقد رتب بنو مرين في كل معقل من المعاقل الأندلسية عدة مخازن شحنوها بالزرع والأدم والحبوب وسائر الأقوات ، وما يحتاج إليه في عمل آلات الحرب من الخشب والحديد والنحاس والرصاص والقصدير ، والجبن والشحم والزيت للتأدم والمراكب مما يثير الدهشة والإعجاب كما صرح بذلك ابن مرزوق [٤] .

كذلك لم تكن هذه الإمدادات لتتوقف فتواصل تدفق الأموال والخيل فوجه من الخيل من الخمسمائة بجهازها وكل سنة لا تخلو من هذا المدد ، وكذا المال بالأحمال ذهباً وفضة والزرع بالآلاف من الأوساق [٥] . هذا بالإضافة إلى أن السلطان المريني أبا الحسن قد فقد ابنه وأسرته في معركة طريف دفاعاً عن مسلمي مملكة غرناطة كما سبق شرح ذلك .

أما في ميدان إمداد مملكة غرناطة بالرجال فإن بني مرين قد شكلوا جزءاً رئيساً من

---

(١) ابن مرزوق : المسند ص ٣٩١ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٩٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٩٤ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) نفس المصدر والصفحة .

جيش مملكة غرناطة ويصف ابن الخطيب هذا القسم من الجيش بقوله : ((والبربري منه يرجع إلى قبائله المرينية والزناتية ، والتجانية ، والمغراويه والعجيسة والعرب المغربية إلى أقطاب ورؤوس يرجع أمرهم إلى رئيس على رؤسائهم وقطب لعرفاتهم من كبار القبائل المرينية يمت إلى ملك المغرب بنسب)) [١] .

وفي سنة ٦٦٢هـ /١٢٦٣م وصلت الدفعة الأولى من المتطوعين من بني مرين إلى أراضي مملكة غرناطة للمشاركة في الجهاد ضد نصارى شبه جزيرة إيبيريا ، وكان يقود تلك الفرقة اثنان من أبناء أخ السلطان المريني : هما : عامر بن إدريس وابن عمه رحو بن عبدا لله بن عبدالحق ، وكان عدد المجاهدين الذين برفقتهم يزيد عن ثلاثة آلاف بين فارس وراجل [٢] .

وحال وصولهم إلى الأندلس استقبلهم السلطان النصري محمد بن يوسف بن نصر ، ونتيجة مباشرة لما أحدثه هذا الوصول من الحماس وارتفاع الروح المعنوية لمسلمي الأندلس ثار المدجنون [٣] في مدن شريش ومرسية ودخلوا في معارك مع النصارى الذين كانوا موجودين بداخل تلك المدن وحاصر قائد المجاهدين الأمير عامر بن إدريس بن عبدالحق القلعة التي لجأ إليها الحاكم النصراني ، كما أغار المسلمون بمساعدة من هؤلاء الفرسان المغاربة على قصبة مدينة شريش في ٣١ شوال ٦٦٢هـ /١٢٦٣م وقتلوا أفراد الحامية النصرانية وأسروا قائدها وأقرت الجموع المسلمة في تلك المدن بالولاء لمحمد الأول سلطان مملكة غرناطة [٤] .

ولقد ساعدت الظروف الداخلية عند نشأة الدولة المرينية على تدفق القواد الأشداء في الحروب من بني مرين إلى مملكة غرناطة ، وعندما توفي السلطان النصري محمد الأول سار خليفته محمد الثاني على نفس النهج الذي سار فيه أبوه من الترحيب بهؤلاء المتطوعين

---

(١) اللمحة البدرية ، ص ٢٨ .

(٢) ابن أبي زرع : الذخيرة ، ص ٩٨ وابن خلدون ، العبر جـ ٧ ، ص ٣٦٦ .

(٣) المدجنون : من فعل أقام ودجن وهم المسلمون الذين بقوا تحت الاحتلال النصراني لبلادهم .

(٤) انظر ابن أبي زرع : الذخيرة ، ص ١٠٠ وابن عذاري : البيان قسم الموحدين ص ٤٣١ ، ٤٣٢ .

للجهاد ((اللذين تهايلوا ... من كل بيت من بيوت بني مرين ومعظمهم الأعياص من بني عبدالحق)) [١] .

ولقد احتفظت كل فرقة من الفرق الزناتية باستقلالها وكان يتولى قيادتها القائد الذي أحضرها إلى الأندلس ، وقد عين السلطان محمد الثاني موسى بن رحو سنة ٦٧٣هـ /١٢٦٤م كقائد عام لمتطوعي العقيدة ، وفي مناسبة إحدى الغزوات فإن سلطان غرناطة عهد بقيادة تنظيم الغزاة إلى تاشفين بن مؤته الذي استطاع إحراز نصر على النصارى القشتاليين في المعركة التي وقعت أسفل قلعة مكلين [٢] .

وفي غياب موسى بن رحو كان يتولى عبدالحق شقيق موسى وإبراهيم بن يحيى وربما عهد السلطان النصري بقيادة شيوخ الغزاة ليعلى بن أبي عياد بن عبدالحق كما هو الحال في بعض الغزوات وطبقاً لرواية ابن خلدون فإن تلك الأوضاع قد استمرت حتى وفاة السلطان محمد الفقيه [٣] .

وفي خلال قرن من الزمان فإن الأمراء من بني مرين وخاصة أمراء بني عبدالحق الذين علت شهرتهم في عهد كبيرهم عثمان بن أبي العلاء كانوا يشغلون تلك الوظيفة في مملكة غرناطة بطريقة شبه وراثية وكان قائد الغزاة في العاصمة النصرية يتمتع بمكانة وهيبة عظيمتين [٤] .

ويتبع تلك القيادة المركزية قيادات محلية أو إقليمية يطلق عليها مشيخة الغزاة في وادي آش وروندة ومالقة التي كانت تتكون منها الأقاليم الحيوية والمهمة من مملكة غرناطة ، واعتاد سلاطين غرناطة على معاملة هؤلاء الجنود المغاربة معاملة فيها الكثير من التقدير ويغدقون عليهم النعم والمنح والأموال بسخاء كما كان لهم الحق في تلقي جزء من جباية الأموال [٥] ،

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) انظر نفس المصدر ، جـ ٧ ، ص٢٠٣ .

(٣) انظر نفس المصدر والجزء ، ص ٣٦٨ .

(٤) انظر : ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، جزءان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ط١ ، ١٤٠٠هـ ، جـ ٢ ، ص ٦٤ .

(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٦٨ .

كما زيدت رواتب المحاربين الزناتية وكانت تدفع لهم مقدماً وزادت حصتهم من الغنائم التي كانت مقررة لهم ، وطبقاً لقول العمري فإن سلاطين غرناطة كانوا يسكنونهم القصور الرفيعة (١) تقديراً لهم لما أدوه من مواقف بطولية مشهودة في دفاعهم عن مملكة غرناطة إذ حفظوا لمملكة غرناطة كيانها الجغرافي والتاريخي حقبة من الزمن فقد كانوا ماهرين في نصب الكمائن والحيل الحربية وثبتوا مراكزهم على طول الحدود مع الأراضي النصرانية في مواجهة الفرسان النصارى ، ولقد كانوا سبباً في فشل العديد من الهجمات النصرانية على مملكة غرناطة وأوقعوا بالنصارى هزائم وخسائر فادحة في معارك عديدة يضيق المجال عن حصرها وحسبنا أن نشير إلى أحد قادتهم وهو أبو سعيد بن عثمان الذي توفي وعمره يناهز الثمانين سنة قضاه ما بين روحة في سبيل الله وغدوة حتى استوفى على المشهور منها سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة (٢) . واستمر الحال على ذلك حتى عهد السلطان الغني بالله الذي ألغى قبيل وفاته منصب شيوخ الغزاة ومحا رسمها من ملكه وصار أمر المجاهدين الغزاة إليه سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١م (٣) ومن بعده تولى هذا المنصب أمراء من بني نصر في حياته وبعد مماته لم يكونوا على نفس المستوى الحربي لشيوخ الغزاة .

---

(١) العمري : يحيى بن فضل الله ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر (القسم الأندلسي) تحقيق وتعليق د. مصطفى أبو ضيف ، ط الأولى ١٤٠٩هـ ، ص ١٥٩ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ص ٤٥٣ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٣٧٩ .

٣ـ الخلافات بين الدولتين :

انطلقت الشرارة الأولى للخلاف بين بني نصر وبني مرين بسبب الثوار من بني أشقيلولة ؛ وبنو أشقيلولة أسرة من الأسر الأندلسية التي ارتبطت مع مؤسس الدولة النصرية محمد بن يوسف بن نصر بروابط المصاهرة [١] . وقد تولى شيخ هذه الأسرة أبو الحسن بن أشقيلولة رئاسة الجند في عهد السلطان النصري محمد الأول . كما أسند إلى ابنيه إمارتي وادي آش ومالقة فتولى أبو إسحاق إمارة وادي آش وأبو محمد إمارة مالقة [٢] .

فلما أراد السلطان محمد الأول بعد فترة من الزمن عزل أمير مالقة وتقليد إمارتها إلى ابن أخيه أبي سعيد فرج فما كان من أبناء الرئيس محمد الأشقيلولي وهم محمد وعلي ويوسف وفرج إلا أن أعلنوا الرفض القاطع للتنازل عن الإمارة وأظهروا التمرد والعصيان على عهد جدهم السلطان محمد بن يوسف بن نصر ، وقد عالج السلطان محمد الأول هذه الأزمة بكل حكمة وتبصر ((وما عدلوا عن تمويله ولا استبدوا بنقش سكة ولا تقديم قاض إلى أن هلك السلطان الجد)) [٣] .

إلا أن هذا الخلاف تفاقم عندما توفي السلطان محمد الأول وتولى محمد الثاني زمام الحكم في غرناطة فلم يخف بنو أشقيلولة ما يضمرون فسرعان ما أعلنوا المطالبة بحكم غرناطة وخلع محمد الثاني والاستقلال بوادي آش ومالقة ، ولتحقيق أهدافهم استعانوا عليه بادئ الأمر بالنصارى [٤] ، ولما لم يجدوا من النصارى نصيراً لهم عبر محمد بن عبدا لله بن أشقيلولة إلى بر العدوة حيث وصل إلى بلاط السلطان المريني أبي يوسف يعقوب ودعاه لتسلم مدينة مالقة [٥] .

---

(١) انظر ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس ، ٣٢٨ .

فوافق السلطان المريني على ذلك وعبر البحر على رأس جيش كبير واستولى على مدينة مالقة وحضر بها عيد النحر من عام ٦٧٥هـ /١٢٨٦م [١] ، وباستيلاء الدولة المرينية على مدينة مالقة ووادي آش ساءت العلاقات ما بين الدولتين النصرية والمرينية .

فلم تكد تحل سنة ٦٩٠هـ /١٢٩١م حتى هاجم السلطان محمد الثاني مدينة وادي آش وطرد الحاكم المريني منها سنة ٦٩٠هـ /١٢٩١م [٢] .

وتخوفاً من أن يتدخل السلطان المريني بجيشه ونتيجة مباشرة لنتائج هذا الخلاف فقد بدأ السلطان النصري بإجراء مفاوضات خطيرة مع الملك القشتالي سانشو الرابع لاختراق التحالف الثلاثي ودفع ملك قشتالة للدخول في حرب مع بني مرين [٣] .

ولم يكتف السلطان النصري بهذا الحد بل إنه أخذ يتصل بمختلف الدول في شبه الجزيرة الإيبيرية وشمال إفريقيا ونسج بمهارة شبكة بل شباك من التعهدات والروابط والتحالفات لإبعاد خطر بني مرين عن بلاده فحصل أولاً من ملك تلمسان عثمان بن يغمرآسن على وعد بالقيام بتحرشات على الحدود مع الدولة المرينية حتى يعطل أبا يوسف يعقوب المريني عن العبور إلى الأندلس [٤] .

وبالعودة إلى المفاوضات التي كانت قد بدأت ما بين محمد الثاني والملك القشتالي ألفونسوا فإنها قد تمخضت عن اتفاق بين الطرفين يقوم بموجبه الملك القشتالي بمهاجمة الجزيرة الخضراء القاعدة العسكرية لبني مرين في الوقت الذي يعمل فيه السلطان النصري على استعادة مالقة [٥] .

وبالفعل فقد نفذت هذه الاتفاقية فإنه بعد عدة شهور من رحيل السلطان المريني أبي يوسف

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، جـ ٢ ، ص ٢٨٨ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) انظر نفس المصدر والجزء ص ٢٨٩ .

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

يعقوب عن مالقة هاجم نصارى قشتالة الجزيرة الخضراء سنة ٦٧٧هـ /١٢٧٨م بقيادة أحد أبناء الملك القشتالي دون بدرو [١] .

وهكذا حقق محمد الثاني أحد أهدافه الرئيسة في عزل ثوار بني أشقيلولة عن حلفائهم بني مرين واشغالهم بحروب مع النصارى ، وفي ظل هذا الوضع انتهز سلطان غرناطة الفرصة واستطاع استعادة مالقة في رمضان عام ٦٧٧هـ /١٢٧٨م [٢] بعد تمرد استمر ثلاثة عشر عاماً كلف الدولة النصرية الكثير والكثير من الجهد والمال والحروب في سبيل استعادة الوحدة الوطنية لترابها .

ومن المؤسف أن التضامن الإسلامي بين الدولتين النصرية والمرينية والذي أدى إلى هزيمة نصارى قشتالة لم يكتب له الاستمرار طويلاً ؛ إذ لم يكد النصارى يرحلون عن الجزيرة حتى تراجع السلطان المريني عن رأيه وانتهج نفس السياسة التي انتهجها سلطان غرناطة وذلك بأن انضم إلى تحالف نصراني ضد مملكة غرناطة منتهزاً فرصة الخلاف بين السلطان محمد الثاني والملك القشتالي إذ لم ينس أو يتجاهل الملك ألفونسو العاشر لمحمد الثاني خداعه له في الجزيرة فتحالف مع عدوه بالأمس السلطان المريني أبي يوسف يعقوب وبني أشقيلولة ، وزاد على ذلك وطالب السلطان محمد الثاني بإعادة مالقة إلى السلطة المرينية [٣] ، واتفق الطرفان المريني والأشقيلولي من جهة ونصارى مملكة قشتالة من جهة أخرى على مهاجمة مملكة غرناطة على ثلاثة محاور ما بين نهاية عام (٦٧٩ ـ وبداية عام ٦٨٠هـ /١٢٨١م فشن نصارى قشتالة هجوماً بقيادة دون سانش أحد أبناء الملك ألفونسو العاشر واخترقوا الحدود الغرناطية في طريقهم للعاصمة غرناطة ولكن تصدى لهم الجيش الغرناطي بالقرب من قلعة مكلين وتمكن من هزيمتهم سنة ٦٧٩هـ /١٢٨٠م [٤] .

---

(١) انظر ابن الخطيب : أعمال الأعلام جـ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٢) انظر تفاصيل ذلك في نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٢٠٣ .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة وقلعة مكلين هي نسبة إلى بلدة مكلين شمال شرق مدينة غرناطة .

أما الهجوم الثاني الذي يعد من أكبرها زخماً والذي تولى قيادته الملك القشتالي ألفونسوا العاشر وشاركه فيه بنو أشقيلولة كان عن طريق وادي آش وقمارش [١] الهدف منه غرناطة نفسها فقد تصدى لهم محمد الثاني على رأس جيش غرناطي كبير وتمكن من هزيمتهم بفضل من الله ثم بفضل شجاعة الفرسان من زناته المدعمين بالرماة الغرناطيين الأشداء وهلك من النصارى ما يناهز سبعمائة من فرسانهم [٢] .

أما الهجوم على المحور الثالث فكان بقيادة أبي زيان منديل ابن السلطان المريني الذي هاجم مدينة مربلة [٣] ورماها بالمنجنيق من البحر تارة ومن البر تارة أخرى [٤] ، وأمام صمود حاميتها النصرية فشل في الاستيلاء عليها ثم حاول أبو زيان المريني استعادة القلاع والحصون على طوال الساحل الأندلسي لمملكة غرناطة وبالفعل استسلمت له تلك القلاع ولكنه لم يستطع انتزاع رونـدة نفسها والتي تعتبر بمثابة القاعدة الأساسية لتلك القلاع والحصون .

ومن الجدير ذكره أن السلطان المريني قاد جيشاً آخر لمحاربة إخوانه في الدين في مملكة غرناطة ، محاولاً بذلك استعادة مالقة التي استردها محمد الثاني وحاصرها حصاراً شديداً ((وكانت عليها حرب عظيمة بلغت فيها حملات الجيش المريني أن صادمت الأسوار رؤوس الخيل)) [٥] . واستمر حصارها لمدة خمسين يوماً ويعزى فشل السلطان المريني وعجزه عن اقتحامها إلى شجاعة وصمود واليها النصري أبي سعيد فرج . وهكذا مني هذا التحالف بالفشل على جميع المحاور .

---

(١) قمارش : بلدة تقع شمال مالقة وقد أطلق اسمها على بهو في قصر الحمراء تشتهر بمياهها وبساتينها التي تمد غرناطة بحاصلاتها الزراعية (انظر ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ٩٢ ، ٩٤) .

(٢) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٣٠٤ .

(٣) تقع في الجنوب الغربي من مدينة مالقة .

(٤) ابن الخطيب : أعمال العلام ، جـ ٢ ص ٢٨٩ .

(٥) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٢٠٣ .

ولم تلبث بعد ذلك أن هدأت حالة الحرب والاستنفار التي كانت سائدة في شبه الجزيرة الإيبيرية وخف الضغط النصراني على مملكة غرناطة وذلك بسبب الخلاف الداخلي الذي نشب في مملكة قشتالة والذي كان من نتائجه طلب ملك قشتالة معونة عاجلة من السلطان المريني [١] .

من ناحية أخرى لم يتوقف الخلاف بين الدولتين المرينية والنصرية عند ذلك الحد بل أشعل بنو أشقيلولة نار الفتنة بين الدولتين للمرة الثانية ولجأوا إلى السلطان المريني أبي يوسف يعقوب ودعوه إلى تسليم مدينة وادي آش التي كانوا لا يزالون يحتفظون بها وتلقى السلطان المريني رسائلهم بهذا الشأن [٢] . فاستجاب لهم ودخلت مدينة وادي آش تحت السيطرة المرينية . ورأى كلا الجانبين النصري والمريني حل هذا الخلاف بالطرق السلمية وأسفرت المفاوضات عن تنازل بني أشقيلولة عن مدينة وادي آش للسلطان المريني بينما يتنازل لهم السلطان المريني عن قصر كتامة [٣] بالمغرب وتنفيذاً لذلك فقد رحل بنو أشقيلولة عن مدينة وادي آش معوضين بقصر كتامة [٤] .

ونلمس من هذه الاتفاقية أنها لم تحل المشكلة القائمة بين الدولتين إذ نجح السلطان محمد الفقيه في إبعاد بني أشقيلولة عن ساحة الصراع نهائياً من مملكة غرناطة وهذا مكسب في حد ذاته .

ولكن تنتقل المشكلة للمواجهة بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين مباشرة ليبدأ بذلك محمد الثاني مرحلة ثانية من التحالفات الإقليمية من أجل استعادة وادي آش كما فعل من قبل في استعادة مالقة . ولقرب مدينة وادي آش من العاصمة غرناطة أثار استيلاء بني مرين عليها

---

(١) انظر ابن خلدون : العبر ، جـ٧ ، ص ٢٠٥ .

(٢) ابن أبي زرع : الذخيرة ، ص ١٥٧ .

(٣) قصر كتامة : مدينة مغربية زراعية تكثر بها الفواكه وكانت ملتقى القوافل التجارية ومكاناً لتجميع قبائل غمارة (انظر ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ١٤٩) .

(٤) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٤٤ ، وأعمال الأعلام جـ ٢ ، ص ٢٩١ .

مخاوف السلطان محمد الثاني وأعادت إلى ذهنه المصير الذي آل إليه المعتمد بن عباد (١) ، وتزامن ذلك في الوقت الذي اتحدت فيه أهداف نصارى شبه جزيرة إيبريا في معاهدة مونتا جيدو في كيفية التعامل مع المسلمين في شمال إفريقيا (٢) .

وهذا سرعان ما توصل محمد الثاني إلى اتفاق مع الملك القشتالي سانشو الرابع يقتضي بأن يهاجم نصارى قشتالة قاعدة بني مرين (طريف) بمساعدة ودعم سري محمد السلطان محمد الثاني (٣) والذي سوف يتسلمها منهم في حالة سقوطها بأيديهم (٤) . في الوقت الذي يعمل فيه محمد الثاني على استعادة مدينة وادي آش وكان يهدف محمد الثاني من وراء ذلك إلى تكوين تحالف ضد السلطان المريني الذي كان يحاول كسب تأييد سلطان تلمسان أو على الأقل تحييده في هذا النزاع .

ومن أجل تحقيق ذلك فإن السلطان محمد الثاني قد جدد علاقات الصداقة مع السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن لكي يقطع الطريق أمام محاولات فاس التقارب مع تلمسان مستغلاً الخلاف بين بني زيان وبني مرين (٥) .

وعندما علم السلطان المريني أبو يعقوب بتلك التحالفات أمر الفرق الحربية المرينية الموجودة بالأندلس بالبدء بالمناوشات للضغط على النصارى من أجل ابطال ذلك التحالف وكان ذلك في جمادى الأولى من عام ٦٩١هـ /١٢٩١م (٦) .

وعندما بدأ نصارى قشتالة بمحاصرة طريف من أول جمادى الآخرة إلى نهاية شوال ٦٩١هـ /١٢٩١م شنت مملكة غرناطة هجوماً على القلاع والحصون المرينية في ضواحي

---

(١) انظر ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٣٦٧ .

(2) Archives de la Coronica de Aragon rey p. 52.

(٣) انظر ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٢١٦ .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٦) انظر ابن أبي زرع : الأنيس ، ص ٣٨٠ .

مدينة طريف وتمكن الغرناطيون من الاستيلاء على إسطبونة [١] إحدى القواعد العسكرية المرينية في جنوب الأندلس في الوقت نفسه وصل السلطان محمد الفقيه إلى مالقة برفقة عدد كبير من أفراد الجيش ومنها كان يرسل إلى النصارى المحاصرين لطريف السلاح والعتاد والمؤن الغذائية [٢] .

أما بنو زيان فإنهم كانوا يقومون بشن الغارات ضد مراكش وتكفل الأسطول الأرغوني البحري الذي كان يرابط في البحر الأبيض المتوسط بمنع بني مرين من نجدة طريف [٣] .

وسقطت المدينة في أيدي النصارى ، نصارى قشتالة بقيادة الملك سانشو الرابع سنة ٦٩٢هـ /١٢٩٢م وشق الخطب على الشعبين المسلمين الغرناطي والمريني وساءت نفوسهم وندبتها الشعراء [٤] وذلك بسبب الخلاف بين الزعيمين المسلمين ، ولم يسلم النصارى مدينة طريف لمحمد الثاني حسب الاتفاقية بين الطرفين وتملكها العدو حسبما هو معروف [٥] .

وكانت تلك الخلافات في عهد السلطان محمد الثاني سبباً في استمراريتها في عهد خلفه محمد الثالث .

ولقد سبق أن أشرت إلى أن مملكة غرناطة في عهد سلطانها محمد الثالث كانت تمتلك جيشاً قوياً وقوة بحرية لا يستهان بها [٦] .

ولم يكن محمد الثالث في مستوى أبيه من الحكمة والدراية فوجّه هذه القوة نحو

---

(١) إسطبونة : تقع في الجنوب الغربي من مالقة ذهب رسمها وبقي اسمها وكانت مظنة النعم الغزير قبل معركة طريف واستيلاء النصارى على الجزيرة الخضراء ، انظر (ابن الخطيب ، معيار الاختيار ص ٨٣) .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ، ص ٢١٦ .

(3) Cronica de Don Sanch IV Chap VIII p. 100 .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، جـ ٢ ، ص ٢٩١ .

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٦) انظر ص ٣٦ من الرسالة .

مدينة سبتة التي كان يستقل بحكمها بنو العزفي استقلالاً ذاتياً تحت الإدارة السياسية الخارجية لبني مرين ، مع العلم أنه لم يكن ثمة خلاف مع بني العزفي الذين كانوا لا يألون جهداً بل يساهمون مساهمة فعّالة ومؤثرة في إمداد مملكة غرناطة بالمؤن اللازمة للدفاع عن نفسها والتصدي للنصارى وحمل المجاهدين المغاربة على السفن السبتية العزفية وكانوا يشكلون قوة دعم بحرية للأسطولين النصري والمريني (١) .

إلا أن السلطان النصري محمد الثالث أصدر أوامره لابن عمه أبي سعيد فرج بمهاجمة سبتة ؛ منتهزاً انشغال السلطان المريني بحصار تلمسان فامتثل الأمير فرج أمير مالقة لأوامره وبعث جواسيسه إلى مدينة سبتة والذين نجحوا في استمالة قائدها العسكري يحيى بن مخلص الذي لم يكن مخلصاً لبني العزفي والذي وعد بالغدر ببني العزفي حال وصول الأسطول النصري (٢) .

وفي ليلة السابع والعشرين من شهر شوال سنة ٧٠٥هـ /١٣٠٥م أقلع الرئيس أبو سعيد فرج على رأس أسطول بحري يرافقه في قيادة الجند شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء ؛ وعندما وصل الأسطول النصري إلى شواطئ سبتة خرج يحيى بن مخلص رافعاً الرايات الحمراء لاستقباله ودخل جنود البحرية النصرية مدينة سبتة وقبض أبو سعيد فرج على حكامها من أبناء العزفي وأرسلهم إلى غرناطة (٣) ، وهكذا بات الصراع والخلاف بين الدولتين النصرية والمرينية يجتاز منعطفاً خطيراً إذ لأول مرة تتجاوز مملكة غرناطة حدودها الإقليمية لتستولي على أراض مغربية خلف شواطئ الساحل الأندلسي ، ولم يقف السلطان المريني أبو يعقوب يوسف مكتوف الأيدي إزاء هذه التطورات فأصدر أوامره لابنه أبي سالم بقيادة فرقة من الجيش لاستعادة مدينة سبتة بينما كان هو مشغولاً بحصار تلمسان فهاجم أبو سالم مدينة سبتة من ناحية البر ، فكان يأتيها المدد من ناحية البحر .

---

(١) انظر ص ٧٢ من الرسالة .

(٢) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ص ٢٢٩ .

(٣) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٥٣ .

ومن أجل تشتيت انتباه الدولة المرينية وصرفها عن مدينة سبتة فإن محمد الثالث أوعز لشيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء بالإبحار إلى المغرب لانتزاع السلطة من أبناء عمومته بني مرين .

وبالفعل قاد جيشاً وهاجم معسكر أبي سالم واستولى عليه وفر أبو سالم مهزوماً وتابع زحفه داخل الأراضي المغربية حتى وصل إلى طنجة ، وفي هذه الأثناء أغتيل السلطان المريني أبو يعقوب سنة ٧٠٦هـ /١٣٠٦م وخلفه أخوه أبو ثابت [١] .

ومما لا شك فيه أن مجريات هذه الأحداث كانت في صالح دولة بني زيان ؛ من ناحية أخرى فإن السلطان المريني أبا ثابت قد تمكن من هزيمة شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء واستعاد منه طنجة وفاجأه الموت وهو يستعد لمحاصرة سبتة في ٨ صفر سنة ٧٠٨هـ / ٢٨ / يوليه ١٣٠٨م [٢] .

وفي الوقت نفسه عرض السلطان النصري محمد الثالث على خليفة أبي ثابت (أبو الربيع) الصلح استدعى بموجبه عثمان بن أبي العلاء إلى الأندلس [٣] .

ولقد كان لاستيلاء مملكة غرناطة على مدينة سبتة نتائج على الوضع السياسي في الجزيرة الأيبيرية والشمال الإفريقي إذ أثار استيلاء مملكة غرناطة على مدينة سبتة مخاوف مملكة أرغون وكانت الدبلوماسية الأرغونية بالمرصاد لمقاومة أهداف سلطان غرناطة وعزله عن التحكم في البحر المتوسط ومواصلة الضغط على طول الساحل الأندلسي لمملكة غرناطة والوصول إلى المضيق والتطلع إلى ما هو أبعد من ذلك وهو الاستيلاء على مدينة المرية الغرناطية المركز الرئيسي للبحرية النصرية والتي تتحكم في كل الطرق البحرية المؤدية إلى بر العدوة [٤] .

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٢٣٨ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) ابن القاضي : درة الحجال ، جـ ١ ، ص ١٤٧ .

ولتحقيق ذلك الهدف فكر الملك الأرغوني في تكوين تحالف ثلاثي ضد مملكة غرناطة يضم بالإضافة إلى أرغون وقشتالة المغرب المريني ، ولتحقيق تلك الأهداف اجتمع الملك الأرغوني والقشتالي في قلعة هنارس ودارت محادثات رسمية بين الجانبين رسما خلالها خطة حربية لشن هجوم على مملكة غرناطة (١) .

وعندما بدأ نصارى قشتالة وأرغون بتنفيذ تلك الخطة والتحرش بمسلمي مملكة غرناطة ثأر المسلمون في المرية باحتجاز وإعتقال التجار الكتالونيين المقيمين في المرية (٢) .
كما كانت مملكة غرناطة في حالة استنفار قصوى على جميع الجبهات وكانت البحرية الغرناطية تمخر عباب المضيق لمراقبة الشواطئ الأندلسية على طول الساحل الأندلسي .
وانعكست هذه الأوضاع على مملكة غرناطة بل وأثرت تأثيراً مباشراً على السلطان محمد الثالث نفسه ؛ فقد تدهور الوضع الأمني في غرناطة نفسها أمام إلحاح أسرة بني نصر على خلع الوزير بن الحكيم الرندي مدبر السياسة النصرية وعزل السلطان محمد الثالث عن الحكم ؛ وذلك أمام شعور الشعب الغرناطي بالخطر النصراني لافتقادهم التضامن مع إخوتهم في العقيدة في مملكة بني مرين .

وفي صباح يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨هـ /١٣٠٨م تفجرت الأزمة واقتحم الثوار دار الوزير أبي عبدا لله بن الحكيم وقاموا بقتله (٣) . ثم اتجهوا بعد ذلك إلى مقر السلطان محمد الثالث وخيروه بين التخلي عن الحكم أو الموت وتم لهم ما أرادوا .
وأمام الأمر الواقع أشهد السلطان محمد الثالث الفقهاء على خلع نفسه والتنازل عن الملك لأخيه نصر (٤) .
وعندما تولى السلطان نصر السلطة في غرناطة كانت الأوضاع تُنذر بالانفجار على جميع

(1) A . Jimenz Soler, Cornica de Aragon y. Granada t. 3B . R . A. BL pp 99 - 100 .
(2) Ibid .

(٣) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٥٤ والإحاطة ، جـ ١ ص ٥٥٣ .

(٤) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، نفس الصفحة والإحاطة جـ ١ نفس الصفحة .

الجبهات البرية والبحرية إذ غادر الأسطول البحري الأرغوني قواعده في برشلونة في ربيع سنة ٧٠٩هـ /١٣٠٩م وكانت القطع البحرية الأرغونية تقوم بدوريات للاستطلاع جنوب السواحل الأندلسية وبالقرب من مضيق جبل طارق .

من جهة أخرى كانت الاتصالات مستمرة بين السلطان المريني أبي الربيع والملك الأرغوني خايمي الثاني من أجل إرسال وحدات حربية برية وبحرية مشتركة لمهاجمة مدينة سبتة التي استولت عليها البحرية الغرناطية ، وفي الوقت نفسه كانت مملكة قشتالة تعد العدة لشن هجوم بري بحري على مملكة غرناطة .

وكان السلطان نصر يفكر في كيفية إعادة التضامن مع بني مرين وبالتالي التخلص من حالة العزلة التي آلت إليها مملكة غرناطة نتيجة لتصرفات السلطان السابق محمد الثالث .

وأمام هذا الضغط النصراني الكبير والتحالف المريني مع أعداء غرناطة حاول السلطان نصر إعادة العلاقات الأخوية بين بلاده وبني مرين إلى مجراها الطبيعي إذ وصل السلطان نصر إلى الجزيرة الخضراء ولكن فاجأه خبر وفاة السلطان المريني (١) .

ولكن ذلك لم يثن عزمه عن مواصلة الاتصال بالدولة المرينية وسارع نصارى قشتالة وأرغون بشن هجومهم على مملكة غرناطة بينما شنّ القائد المريني تاشفين بن يعقوب هجوماً على سبتة منتهزاً الفرصة ونجح في اقتحامها وإعادتها إلى بني مرين وذلك في نهاية صفر عام ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م (٢) .

كما هاجم ملك قشتالة مضيق جبل طارق وضرب حوله الحصار وتغلب عليه (٣) واستسلم أهالي الجبل ولم يكن في مقدور مملكة غرناطة التصدي لهذا الهجوم النصراني الكبير على مختلف المحاور كما كان ذلك أيام سلطان محمد الثاني ، ولقد كان ضياع مضيق جبل طارق خسارة فادحة للمسلمين في غرناطة والشمال الإفريقي وهنا سارع السلطان نصر

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٧ ، ص ٢٣٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٤٠ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

والسلطان المريني أبو الربيع ومدا أيديهما للمصالحة وتم زواج السلطان نصر من أخت السلطان المريني أبي الربيع وتنازل السلطان النصري عن الجزيرة الخضراء ورونده وتوابعها للدولة المرينية لتتخذ منها قواعد عسكرية لمساعدة مملكة غرناطة (١) كما كانت كذلك من قبل . وبعث السلطان المريني ((بالمدد للجهاد أموالاً وخيولاً جنائب)) (٢) مما كان له أكبر الأثر في رفع الروح المعنوية لدى مسلمي مملكة غرناطة بعودة هذا التضامن ، أما ما كان من أمر نصارى مملكة أرغون فقد أبحر الملك خايمي الثاني على رأس أسطول بحري كبير يتكون من ثلاثمائة قطعة بحرية (٣) ووصل إلى شواطئ المرية وكان بنو نصر قد اتخذوا الاحتياطات الدفاعية اللازمة لصد العدوان النصراني على مدينة المرية ..... بينما كان السلطان النصري نصر يرسل المدد من غرناطة لنصرة المرية بقيادة شيخ الغزاة عثمان ابن أبي العلاء ... وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر رجب سنة ٧٠٩هـ /١٣٠٩م طلب الملك الأرغوني خايمي الثاني الصلح والرحيل عن المرية يجر أذيال الهزيمة إلى بلاده (٤) .

وإن كانت الأعوام الأولى من حكم السلطان يوسف الأول شهدت تضامنا وعلاقات أخوية متميزة بين الدولتين المرينية والنصرية استمرت فترة من الزمن إلا أن الأعوام الأخيرة من حكم السلطان المذكور شهدت تدهوراً في العلاقات بين الدولتين ، وذلك بسبب لجوء الأمراء من بني مرين المنشقين على أخيهما إلى غرناطة وهما الأمير أبو الفضل وأخوه أبو سالم اللذان استقبلهما السلطان يوسف الأول ومنحهما حق اللجوء السياسي في بلاده ؛ وطلب السلطان المريني أبو عنان من السلطان النصري يوسف الأول تسليم اللاجئين إليه واللذين كانوا تحت حمايته فرفض سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٢٤٠ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) ابن القاضي : درة الحجال ، جـ ١ ، ص ١٣٨ .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

الأول هذا المطلب [١] ، ورد على ذلك السلطان أبو عنان بخطاب شديد اللهجة [٢] ؛ فأوعز السلطان يوسف إلى أبي الفضل باللجوء إلى ملك قشتالة وأن يطلب مساعدته ووجدها الملك القشتالي فرصة سانحة للنيل من بني مرين فجهز لأبي الفضل السفن أبحرت به في شواطئ المغرب ومن هناك استعد للصراع مع أخيه السلطان أبي عنان [٣] ، وبسبب وفاة السلطان المريني أبي عنان والصراعات الداخلية في دولة بني مرين التي أعقبت وفاته والتي انتهت بتولي أبو سالم العرش المريني [٤] وذلك بمساعدة من سلطان غرناطة وملك قشتالة ؛ كما تعرض سلطان غرناطة محمد الخامس لمؤامرة إنقلاب في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٧٦٠هـ /١٣٥٨م تزعمها الأمير أبو عبدا لله محمد بن إسماعيل وفرقه من الجند ومن ثم بايعوا الأمير إسماعيل [٤] مما اضطر السلطان محمد الخامس إلى الفرار إلى مدينة وادي آش ومنها أرسل إلى سلطان المغرب المريني أبي سالم مخبراً إياه بما جرى له وطلب منه السماح له باللجوء إلى بلاده ، فاستجاب السلطان المريني لنداء محمد الخامس وأرسل سفيره أبا القاسم إلى وادي آش لإجراء اتصالات مع سلطان غرناطة تمخضت بالسماح لمحمد الخامس بمغادرة مملكة غرناطة إلى المغرب الأقصى وكذا شملت وزيره المعتقل ابن الخطيب [٥] ، وغادر محمد الخامس برفقة أفراد من حاشيته حيث وصل إلى فاس في يوم الخميس السادس من شهر

---

(١) ابن الخطيب : كناسة الدكان بعد انتقال السكان . تحقيق محمد كمال شبانه ، مراجعة حسن محمود ، القاهرة : دار الكتاب العربي للطباعة والنشر (د. ت) ص ١٣٣ وما بعدها حيث ترد المراسلات بهذا الخصوص .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٨ .

(٤) لمعرفة تفاصيل هذه الأحداث انظر ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، نشر وتعليق د.أحمد مختار العبادي مراجعة د. عبدالعزيز الأهواني (د. ت) ، ص ١٠٣ وما بعدها واللمحة البدرية ، ص ١٠٩ والإحاطة جـ ٢ ، ص ٢٧ وأعمال الأعلام ، جـ ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٥) انظر : ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٢٧ ، واللمحة البدرية ، ص ١٠٩ ، وأعمال الأعلام ، جـ ٢ ، ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

المحرم عام ٧٦١هـ /١٣٥٩م وخرج السلطان المريني أبو سالم لاستقبال محمد الخامس ووزيره المرافق ، وفي هذا اللقاء ألقى ابن الخطيب قصيدته المشهورة :

سلا هل لديها مخبرةٌ ذكْرُ   وهَلْ أعَشَبَ الواديّ ونَم به الزهرُ (١)

ومن ناحية أخرى لم يستمر السلطان إسماعيل بن يوسف المغتصب للملك محمد الخامس في الحكم إذ ثار عليه مدبر الانقلاب الذي أوصله إلى الحكم ابن عمه أبو سعيد محمد بن إسماعيل وتمكن من قتله واستولى على الحكم في غرناطة (٢) .

ولم يكن السلطان الغرناطي أبو سعيد على وفاق مع مملكة قشتالة إذ أوقع بنصارى قشتالة هزيمة منكرة بالقرب من مدينة وادي آش وذلك في يوم السبت التاسع عشر لشهر ربيع الأول سنة ٧٦٣هـ /١٣٦١م زاد فيها الأسرى النصارى على ألف أسير أُدخلوا العاصمة غرناطة مقيدين بالحبال ؛ وصف ذلك ابن الخطيب بقوله ((وكان صنعاً لا كفاء له)) (٣) .

من أجل ذلك أوعز ملك قشتالة إلى سلطان بني مرين أبي سالم بغية مساعدة محمد الخامس لاسترداد ملكه نكاية في السلطان أبي سعيد وكان ملك قشتالة يهدف من وراء ذلك زعزعة مملكة غرناطة وضرب أسرة نصر بعضها ببعض .

كذلك فإن سلطان غرناطة أبا سعيد محمد بن إسماعيل كان يمتلك السلاح لزعزعة حكم بني مرين وضرب الأسرة المرينية بعضها ببعض فأطلق سراح الأمراء من بني مرين عبدالحليم وعبدالمؤمن ومنصور والناصر الذين كانوا يقيمون في غرناطة اقامة جبرية (٤) وهم أبناء

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٢٧ ، واللمحة ص ١٠٩ واعمال الأعلام ، جـ ٢ ص ٣١٢ . والمقري : أزهار الرياض في أخبار عياض خمسة أجزاء تحقيق وتعليق : مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبدالحفيظ شلبي ، اللجنة المشتركة للتراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة ، ١٣٩٨هـ ، جـ ١ ، ص ١٩٦ .

(٢) لمعرفة ذلك بالتفصيل انظر ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، جـ ٢ ص ٣٠٧ .

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٠٩ .

(٤) انظر ابن الخطيب : نفاضة الجراب جـ ١ ، ص ٣٠٠ ، ٣٠١ وابن خلدون ، العبر جـ ٧ ، ص ١٥ .

عمر بن أبي سعيد بن أبي يوسف بن عبدالحق ، وجهز للأخوين منهم وهما عبدالمؤمن وعبدالحليم سفينة حربية غادرت بهما شواطئ غرناطة تجاه سواحل الغرب ؛ وبالرغم من اعتراض البحرية القشتالية والمرينية لتلك السفينة فإن عبدالمؤمن وعبدالحليم ومرافقيهم تمكنوا تحت ستار الظلام من الانتقال إلى سفينة أخرى أبحرت بهم إلى شواطئ دولة بني زيان حيث وصلوا إلى مرسى هنين [١] ؛ حيث رحب بهم ملكها أبو حمو الزياني وأعلن اعترافه بعبدالحليم سلطاناً على دولة بني مرين وزوده بالمال والعتاد لقتال السلطان المريني أبي سالم [٢] ، كما أسفرت الاتصالات بين ملك قشتالة والسلطان المريني أبي سالم عن الإيعاز إلى السلطان اللاجئ محمد الخامس بالعودة إلى بلاده من أجل استعادة ملكه ، إذ غادر فاس إلى سبتة حيث كانت البحرية القشتالية بانتظاره لنقله إلى ساحل مملكة غرناطة ، وقد رفض محمد الخامس الركوب في السفن النصرانية التي ألح عليه بحارتها بالركوب معهم لجلب الفخر لملكهم [٣] ، بينما استقل إحدى السفن الإسلامية المرينية التي اتجهت به إلى جبل طارق ومن جبل طارق اتجه إلى إحدى المدن النصرانية القريبة من حدود مملكة غرناطة حيث التقى بالملك القشتالي بيدرو الأول ثم اتجه بعد ذلك إلى مدينة رندة إحدى القواعد العسكرية المرينية ، وذلك حسب الخطة المرسومة له إذ اتخذ منها مقراً لعملياته ومناوشاته الحربية لسلطان غرناطة أبي سعيد محمد بن إسماعيل " البرميخو " يساعده في ذلك فرقة من جنود بني مرين ، وتمكن من الاستيلاء على مدينة مالقة [٤] . وتوالت الأحداث بسرعة مذهلة على صعيد الدولتين النصرية والمرينية إذ قتل السلطان المريني أبو سالم في الحادي

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ، ص ٣١٦ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) انظر : ابن الخطيب : نفاضة الجراب جـ ١ ، ص ٢٩٩ - ٣٠١ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، جـ ٢ ص ٣٠٩ ، ٣١٠ .

والعشرين من ذي القعدة سنة ٧٧٢هـ /١٣٧٠م [١] ، وتولى بعده أبو تاشفين أبو زيان محمد الثاني في شهر المحرم سنة ٧٧٣هـ /١٣٧١م [٢] ، وبعد تولي أبي زيان الحكم عاد محمد الخامس إلى رونـدة بعد أن كان قد انسحب منها وأخذ منها للمرة الثانية يشن الهجمات على سلطان غرناطة، وأمام هذا الضغط وأمام الضغط الشعبي داخل العاصمة النصرية قام السلطان الغرناطي أبو سعيد بزيارة مفاجئة إلى عدوه ملك قشتالة حيث استقبله الملك بيدرو الأول وعقد مجلساً لوزارته في الحال وقرر قتل السلطان أبي سعيد محمد بن إسماعيل ، ولما جن الليل قتل الوفد المرافق للسلطان المذكور وأخرج الملك بيدرو لسلطان أبا سعيد إلى خارج القصر الملكي بإشبيلية وبالتحديد في مزارع تبلادا بالقرب من إشبيلية وقام بقتله بيده [٣] وعاد محمد الخامس إلى ملكه ، والذي في عهده شهدت الحضارة في مملكة غرناطة أفراداً من أبنائها كان لهم أكبر الأثر بالنهوض والرقي بها في شتى الميادين السياسية والإدارية والعلمية ، والقضائية نذكر من هؤلاء لسان الدين بن الخطيب السلماني ، والقاضي أبا الحسن النباهي ومحمد بن يوسف الصريحي المعروف بابن زمرك .

ولقد دب بين هؤلاء الثلاثة وكلهم مقربون من سلطان غرناطة ـ الغني با لله ـ الخلاف والشقاق ، كما أن الوزير ابن الخطيب الذي كان يدير السياسة النصرية أخذ يسير السياسة الخارجية والداخلية خدمة لأهدافه الشخصية ربما لشعوره بالخطر مستبقاً للأحداث ، ومن جملة ذلك الإيعاز إلى السلطان محمد الخامس (الغني با لله) بإلقاء القبض على شيخ الغزاة عبدالرحمن بن يفلوسن مرضاة للسلطان المريني عبدالعزيز [٤] كما عقد معاهدة سلام مع

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٣٣٤ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) ولمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث الداخلية في دولة بني نصر انظر ابن الخطيب : أعمال الأعلام جـ ٢ ص ٣٠٩ ونفاضة الجراب جـ ١ ص ١٠٣ وما بعدها .

(٤) انظر ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٣٣٧ .

مملكة قشتالة لعدة سنين [١] . وحرص على تقوية العلاقة مع بني مرين على حساب العلاقة مع بني زيان ؛ ولتحقيق ذلك الهدف الشخصي فإن ابن الخطيب كان يتطلع على الاستقرار في بلاد المغرب طلباً للسلامة ونزوعاً إلى الاستقرار وخوف عاقبة الصراع والفتن التي كان يضطرم بها البلاط النصري [٢] . ولما تأكد ابن الخطيب أن الوقت قد حان طلب من السلطان السماح له بتفقد الثغور والموانئ الغرناطية كما جرت العادة بذلك فاستجاب السلطان لطلبه [٣] ، عندئذ غادر ابن الخطيب العاصمة غرناطة ولما وصل إلى جبل طارق كان الأسطول المريني بانتظاره فأبحر به إلى بر العدوة حيث وصل إلى سبتة ومنها توجه إلى تلمسان التي كان قد استولى عليها السلطان المريني عبدالعزيز [٤] . فرحب السلطان المريني بعودته وغادر بصحبته إلى فاس ولم يكتف ابن الخطيب بالهرب فحسب بل أوعز إلى السلطان المريني عبدالعزيز بغزو غرناطة [٥] فأثار عليه سخط سلطانها الغني با لله .

ولم يكن هرب الوزير ابن الخطيب مثار قلق لسلطان غرناطة فحسب ولكن سقوط تلمسان في يد السلطان المريني وضم المغرب الأوسط إلى الأقصى قد أثار مخاوف سلطان غرناطة محمد الخامس الذي بادر لتهدئة الأوضاع مع فاس وأرسل رسله محملين بالهدايا وعدد من السبي والجواري مرفقاً ذلك برسالة يطلب فيها من السلطان المريني تسليم الوزير ابن الخطيب لما اتهم به من الزندقة والخروج عن الدين وقد صادق قاضي الجماعة في غرناطة أبو الحسن النباهي على تلك التهم [٦] ومهما يكن من أمر فقد رفض السلطان المريني تسليمه

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، جـ ٢ ص ٣١٧ .

(٢) انظر نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٣٣٥ .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٣٨ .

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٦) انظر نص تلك الرسالة في ، عنان : محمد عبدا لله ، لسان الدين بن الخطيب حياته ، وتراثه الفكري ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٨٨هـ ، ص ١٣٤ .

ورد بقوله ((هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه !!)) [١] .

ولم تسر الأمور كما قدّر لها ابن الخطيب إذ إن الأقدار وتصريف الأمور بيد ا لله سبحانه وتعالى إذ توفي السلطان المريني عبدالعزيز سنة ٧٧٤هـ /١٣٧٢م مخلفاً وراءه ابنه أبا زيان الذي لم يتجاوز عمره سبع سنوات وأدار دفة الحكم الوزير الوصي عليه أبو بكر بن غازي [٢] وكرر سلطان غرناطة مطالبته بتسليم ابن الخطيب ولكن قوبل هذا الطلب بالرفض .

وهنا استغل محمد الخامس الوضع السياسي للمغرب المريني وألغى منصب شيخ الغزاة وتولى قيادة الجيش الغرناطي بنفسه تارة وأخرى تحت قيادة أحد أبنائه مستغلاً أهمية الوضع المشار إليه وأخذ يناهض سياسة بني مرين محاولاً زعزعة استقرارهم ، وأرسل إلى المغرب أحد الطامعين في الوصول إلى السلطة المرينية وأول الطامعين كان عبدالرحمن بن يفلوسن والذي كان ابن الخطيب سبباً في سجنه أيام كان وزيراً في غرناطة وذلك سنة ٧٧٢هـ /١٣٧٠م [٣] . وانتقل السلطان محمد الخامس من غرناطة إلى جبل طارق وضرب حوله الحصار لكي يكون على مقربة من الأحداث،كان ذلك دأب سلاطين بني نصر كلما ساءت علاقاتهم مع بني مرين يستولون على القواعد العسكرية المرينية الموجودة داخل مملكتهم .

ولما علم الوصي على السلطان المريني بخبر تحركات محمد الخامس أرسل ابن عمه محمد بن عثمان إلى مدينة سبتة بقوات مرينية لحمايتها ضد أي هجوم غرناطي محتمل [٤] ، ومن مضيق جبل طارق أخذ السلطان محمد الخامس يتصل بحاكم سبتة محمد بن عثمان ، ووجد محمد الخامس من محمد بن عثمان حاكم سبتة أذناً صاغية وتوصلا إلى اتفاق بينهما يقضي بترشيح الأمير المريني أبي العباس أحمد بن أبي سالم الذي كان سجيناً في طنجة سلطاناً على المغرب ، وتنفيذاً لتلك الاتفاقية سافر محمد بن عثمان من سبتة إلى طنجة وأطلق سراح

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٣٣٥ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٣٨ .

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٣٨

الأمير أبي العباس من السجن في الوقت نفسه أمر السلطان محمد الخامس سبعمائة من الرماة الغرناطيين بمساعدة أبي العباس ، كما انضم إليه عدد من البربر اتجه بهم نحو فاس فخرج لحربهم الوزير أبو بكر بن غازي على رأس جيشه وجرت بين الطرفين معركة هزم فيها ابن غازي ووجه محمد الخامس نداء إلى عبدالرحمن بن يفلوسن بالانضمام إلى أبي العباس في الاستيلاء على فاس نظير إقطاعه أملاك أقربائه في مراكش وهاجما مدينة فاس من جهتين وسقطت في أيديهم بعد حصار دام شهرين وذلك في السابع من محرم سنة ٧٧٦هـ /١٣٧٤م ودخلها الأمير أبو العباس ونودي به سلطاناً على بني مرين [١] .

وبذلك تمكن سلطان غرناطة من الهيمنة على الأمور السياسية داخل مملكة بني مرين وأصبح المغرب الأقصى كولاية من ولايات الأندلس مع كثرة تحكمه فيهم [٢] .

وعندما وصل أبو العباس إلى الحكم قبض على الوزير ابن الخطيب وأودعه السجن تمهيداً لمحاكمته بحضور الادعاء الغرناطي إذ وصل الوزير ابن زمرك موفداً من قبل السلطان الغني با لله لحضور محاكمة ابن الخطيب وعرض ابن زمرك أدلة الاتهام التي من بينها اتهام ابن الخطيب بالزندقة والكفر ، وبعد تلك المحاكمة أعيد إلى السجن وامتحن بالعذاب والتنكيل ثم قتل في السجن خنقاً [٣] .

وبعد نجاح ابن زمرك في سفارته غادر المغرب الأقصى متوجهاً إلى غرناطة وبرفقته عدد من أمراء بني مرين الذين يخشى السلطان أبو العباس ثورتهم تحقيقاً لاتفاق مسبق مع سلطان غرناطة .

ولكن لم يسر السلطان أبو العباس في سياسته حسب ما أملاه عليه سلطان غرناطة محمد الخامس فقد خرج عن أرادته السياسية وقتل عبدالرحمن بن يفلوسن سنة ٧٨٤هـ /١٣٨٢م وهاجم مملكة بني زيان واستولى على عاصمتهم تلمسان [٤] ، مع العلم أن السلطان الزياني

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ حيث يورد تفاصيل تلك الأحداث .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٣٥٠ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

أبا حمو الثاني على علاقة طيبة مع سلطان غرناطة من أجل ذلك واصل السلطان محمد الخامس سياسته تجاه بني مرين وأطلق أحد الطامعين في الحكم المريني ويدعى موسى بن أبي عثمان وعين وزيراً له مسعود بن مسعد وأمده بأسطول بحري اتجه به نحو سبتة معلناً ولاءها لبني نصر ، ودخل مدينة فاس على حين غفلة من سلطانها أبي العباس وتمكن من الاستيلاء عليها ويقبض على أبي العباس ويرسله أسيراً إلى غرناطة (١) .

ولكن لم تستمر الأمور في الدولة المرينية حسب ما خطط لها السلطان إذ توفي السلطان المريني موسى مخلفاً وراءه ابنه المستنصر الذي كان عمره خمس سنوات ، ويرسل إلى غرناطة ويستبد بالحكم الوزير مسعود بن مسعود عندئذ يطلق السلطان محمد الخامس الأمير المريني الواثق مع فرقة من الجند تحت إمرة اثنين من مماليكه هما محمد ونصر الله ، وتمكن الوزير ابن مسعود من أسر تلك الفرقة وقائديها وزاد على ذلك بأن طلب من محمد الخامس التخلي عن مدينة سبتة مقابل إطلاق سراح جنوده ، ويرفض محمد الخامس ذلك ويستعيد مسعود بن مسعود مدينة سبتة بالقوة (٢) .

ويواصل سلطان غرناطة محمد الخامس نفس النهج الذي انتهجه إزاء تدمير الكيان السياسي لدولة بني مرين ويطلق سراح الأسير أبي العباس ويجهزه بجيش غرناطي بقيادة فرج بن رضوان أحد القادة المشهورين في حروبهم ضد النصارى ويستولي على سبتة ثم يحاصر فاس لمدة ثلاثة شهور ويقبض على الوزير ابن مسعود ويخنق بأمره (٣) .

ويتولى الحكم في دولة بني مرين أبو العباس الذي لم يخرج عن سياسة السلطان الغرناطي محمد الخامس وذلك نتيجة لخبرته وتجربته وظلت العلاقات الودية قائمة بين الطرفين حتى وفاته .

ومما لا شك فيه أن إضعاف دولة بني مرين بهذا الأسلوب المأساوي كان له نتائج سلبية على

(١) ابن خلدون : العبر جـ٧ ، ص ٣٥٠ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) انظر تفاصيل هذه الأحداث في نفس المصدر والجزء ، ص ٣٥٢ وما بعدها .

مملكة غرناطة نفسها إذ ضعفت هذه الدولة بعد ذلك ولم تستطع التضامن مع بني نصر ضد النصارى في أحلك الظروف .

وفي مطلع القرن التاسع الهجري فقد أثار استيلاء السلطان محمد الخامس على مضيق جبل طارق الخلاف بين دولة بني نصر وبني مرين بعد وفاته علماً بأن هذا الجبل كان يخضع تارة لبني نصر وتارة لبني مرين وذلك ضمن القواعد العسكرية المرينية التي كانت تنطلق منها كتائب الجهاد في أوقات التضامن الإسلامي بين الدولتين .

وعندما تولى الحكم في مراكش أبو سعيد عثمان بن أحمد بن أبي سالم (٨٠٠ ـ ٨٢٣هـ /١٣٩٧ ـ ١٤٢٠م) واستقرت الأوضاع نوعاً ما في الدولة المرينية حرض أهالي مضيق جبل طارق على الثورة ضد الحكم النصري فثاروا عندما وصل إليهم الأمير المريني أحمد[1]. عند ذلك لم يقف سلطان غرناطة عند حد معين من الخلاف مع بني مرين فأرسل جيشاً غرناطياً بقيادة أخيه الأمير النصري أحمد الذي حاصر الجبل وتمكن من اقتحامه واستسلمت الحامية المرينية وقُبض على الأمير المريني وأُرسل أسيراً إلى غرناطة [2] .

ويواصل السلطان الغرناطي يوسف الثالث نفس النهج التي انتهجه جده ويطلق الأمير المريني ويمده بجيش غرناطي أبحر به إلى المغرب الأقصى وتمكن من هزيمة سلطانها . وألقى بأخيه السلطان المريني أبي عثمان في السجن ، وبهذه الطريقة ضمن سلطان غرناطة ولاء دولة بني مرين التي لم تعد تقوم لها قائمة بعد ذلك مما أدى إلى تدهور مملكة غرناطة أمام أعدائها النصارى وهزيمتها في مواطن عديدة .

---

(1) M. Alcantura, Historia de Granada p. 8 .

(2) Ipid .

وانظر هجاء السلطان يوسف الثالث للسلطان المريني في ديوانه المعروف بديوان يوسف الثالث ص ٥٢ .

٤ـ السفارات المتبادلة بين بني نصر وبني مرين

حرص سلاطين بني نصر على إقامة علاقات وصلات وثيقة مع الدول الإسلامية تدرجت هذه العلاقات على أساس مدى القرب المكاني والمصيري من مملكة غرناطة . فكان طبيعياً أن يكون بنو مرين هم أقرب الناس إلى بني نصر وكان من نتائج ذلك أن أكثر المراسلات والسفارات المتبادلة بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية كانت مع دولة بني مرين وذلك في مناسبات وأغراض متعددة ولن أستطيع الحديث عن كل هذه السفارات وذلك لضيق المجال وسأختصر الحديث على المهم منها .

ولاهتمام بني نصر بهذا الجانب الأساسي من التواصل السياسي بين الدول الإسلامية بصفة عامة وبني مرين بصفة خاصة فقد أنشأوا بقصر الحمراء قاعة خصصت لاستقبال السفراء سميت هذه القاعة بقاعة السفراء (١) .

وفي سنة ٦٧٣هـ /١٢٧٤م بعث السلطان محمد الفقيه برسالة إلى السلطان المريني أبي يوسف يعقوب وصف في رسالته الأوضاع المأساوية لمسلمي الأندلس وما هم فيه من الضعف ومكاثرة العدو وشدة الخوف (٢) مشدداً في هذه الرسالة على الدور الذي يمكن أن يضطلع به بنو مرين في سبيل نصرة الإسلام في بلاد الأندلس والتضامن مع بني نصر وجاء في هذه الرسالة ما نصه :

((أما بعد فإن ا لله تعالى أيد دينه بالاتفاق والائتلاف وحرّم مسالك الشتات والاختلاف ، وأنعم على عباده بدولتكم السنية وإظهار جنودكم المرينية الذين هم في حرب الأعادي أولو بأس شديد :

مرين جنود ا لله أكبر عصبة … فهم في بني أعصارهم كالمواسم
مشنفة أسماعهم بمدائح … مسورة أيمانهم بالصوارم (٣)

---

(١) حسين مؤنس : رحلة الأندلس ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ ، ص ١٨٨ .
(٢) ابن أبي زرع : الذخيرة ، ص ١٤١ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .

كما تلقى السلطان محمد الفقيه رسالة جوابية من السلطان المريني أبي يعقوب تضمنت عزم بني مرين على نصرة مسلمي غرناطة والتضامن مع بني نصر جاء فيها ((ولتفرحوا بفضل ا لله وعونه ، ونحن قادمون عليكم في إثر هذا إن شاء ا لله ووعدنا بوفاء يقين على أعداء ا لله وتفد عليكم بأنصار الدين أدوائه ، وصحبنا قوم باعوا أنفسهم من العزيز الوهاب بجزيل الواعد .... يركبون إليكم ثبج هذا البحر الأخضر عازمين على الجهاد))[١] .

ولقد كان لهذه الرسالة والسفارة نتائجها الطيبة إذ بعثت السرور في نفس السلطان الغرناطي وبعث بنسخ من هذا الخطاب إلى مدن مملكة غرناطة الساحلية لاتخاذ الترتيبات اللازمة لاستقبال السلطان المريني وجيشه[٢] ، وقد توالت المراسلات والسفارات بين السلطان محمد الثاني والسلطان المريني أبي يوسف يعقوب ومعظم هذه السفارات كانت تدور حول موضوع طلب بني نصر من بني مرين التضامن مع مسلمي مملكة غرناطة لمواجهة العدوان النصراني على أراضيهم .

وبعد وفاة السلطان محمد الثاني خلفه ولي عهده محمد الثالث الذي سارع بعد توليه حكم غرناطة إلى إرسال سفيرين إلى دولة بني مرين هما الوزير أبو سلطان بن عزيز الداني والوزير أبو عبدا لله بن الحكيم فاستقبلهما السلطان المريني أبو يعقوب وأكرم وفادتهما ودارت بين السفيرين والسلطان المريني مباحثات تركزت على تدعيم العلاقات بين الدولتين النصرية والمرينية وأسفرت هذه المباحثات عن طلب السلطان يعقوب من بني نصر أن يمدوه بفرقة مدربة من جنود مملكة غرناطة على اقتحام الحصون فأجيب إلى طلبه[٣] .

وفي عهد السلطان نصر توثقت عُرى الصداقة بين غرناطة وفاس إذ ارتبط السلطان النصري نصر مع السلطان المريني أبي الربيع برباط المصاهرة[٤] فأرسل السلطان المريني

---

(١) ابن أبي زرع : الذخيرة ، ص ١٤٣ .

(٢) انظر نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ، ص ٢٢٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٤٠ .

سفيره عثمان بن عيسى وبرفقته أموال وخيول جنائب [١] .
وبالمقابل فإن رسل السلطان النصري نصر كانت تختلف إلى باب السلطان المريني وذلك بصورة مكثفة كان لها نتائج اجتماعية على الدولة المرينية نفسها كما أشار إلى ذلك ابن خلدون [٢] .
وبعد أن تقلد الوزارة في مملكة غرناطة لسان الدين بن الخطيب تولى كتابة المراسلات - والسفارة في بعض الأحيان - إلى دولة بني مرين وقد حفظ لنا هذا الوزير العالم الكثير من هذه المراسلات وسجلها في كتابيه " كناسة الدكان بعد انتقال السكان " و "ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب " مما كان له أكبر الأثر في إثراء هذه الفترة التي عاصرها الوزير ابن الخطيب ودونها بالكثير من المعلومات المتعلقة بالمراسلات والسفارات بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين .
ولقد حرص حكام غرناطة على اطلاع بني مرين على مجريات الأمور في شبه جزيرة إيبيريا وتحركات النصارى فيها أولاً بأول في مراسلات وسفارات عديدة حملها سفراء من كلا الجانبين وذلك من منطلق الأخوة الإسلامية التي تربط بين الشعبين المسلمين . فمن جملة ذلك عندما أخذ الملك النصراني ألفونسو الحادي عشر في حشد الجيوش لمهاجمة القواعد العسكرية المرينية النصرية في مملكة غرناطة بادر السلطان أبو الحجاج يوسف بإرسال رسالة عاجلة إلى السلطان المريني أبي الحسن يخبره فيها بتحركات النصارى وأنهم قد استهدفوا جبل طارق ومدينة روندة ، وأن الاحتياطات الدفاعية اللازمة فيها لم تعد كافية وأنه يخشى من مباغتة النصارى لها فإنه يجب أخذ الحيطة والحذر من كلا الجانبين المريني والغرناطي [٣] .
وبالفعل فقد هاجم الملك ألفونسو الحادي عشر مضيق جبل طارق سنة ٧٥١هـ /١٣٥٠م في الوقت الذي كانت فيه الهدنة سارية المفعول بين الجانبين وقد نصر ا الله المسلمين بأن

---

(١) انظر : ابن خلدون ، العبر ، جـ ٧ ، ص ٢٤٠ .
(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٣) انظر نص الرسالة : ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ، جـ ١ ، ص ٣٥٩ وما بعدها .

تفشى مرض الطاعون بين النصارى وتوفي الملك ألفونسو الحادي عشر متأثراً بمرضه مما اضطر الجيش النصراني إلى الانسحاب (١) .

وبهذه المناسبة بعث السلطان أبو الحجاج يوسف الأول سفيره القائد أبا الحسن عباد إلى السلطان المريني أبي عنان لكي يشرح له كيفية رفع النصارى حصارهم عن مضيق جبل طارق وانسحابهم إلى داخل حدودهم وذلك سنة ٧٥١هـ /١٣٥١م (٢) .

من جهة ثانية فإنه عندما تولى الحكم في مملكة بني مرين السلطان أبو عنان بعث سفيره القائد أبا مهدي بن الزرقا برسالة إلى السلطان النصري يوسف أبي الحجاج أكد له فيها استمرار دولة بني مرين الوقوف بقوة إلى جانب مسلمي غرناطة في مواجهة العدوان النصراني عليهم ، ولقد كان لتلك الرسالة أبلغ الأثر في نفس السلطان النصري وحكومته إذ أمر بقراءة ما جاء في تلك الرسالة على جموع الشعب في مملكة غرناطة وفي ذلك يقول ابن الخطيب في رسالة بعث بها السلطان يوسف إلى أبي عنان ((فصدعنا بذلك الكتاب في الحفل المجموع وأشدنا بفضله المرئي والمسموع)) (٣) .

وقد أشاد ابن الخطيب بالسفير المريني القائد أبي مهدي بن الزرقا بما أبداه من حنكة ودراية بالأمور التي كلف بنقلها مشافهة إلى السلطان النصري يوسف الأول (٤) .

ومن قبيل المصادفة فلقد شاهد السفير المريني أبو مهدي بن الزرقا عودة الجيش الغرناطي من غزوة ناجحة شنها على الأراضي النصرانية (٥) ، وقد حمل السلطان الغرناطي أبو الحجاج يوسف ، السفير المريني أبا مهدي بن الزرقا رسالة جوابية إلى السلطان أبي عنان ضمنها شرحاً مفصلاً لما قام به الجيش الغرناطي من جهاد ضد النصارى (٦) .

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٩٥ .

(٢) ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ، جـ ١ ص ١٤٥ .

(٣) نفس المصدر والجزء ص ١٣٠ .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٦) انظر نفس المصدر والجزء ص ١٢٧ وما بعدها .

وكان ذلك من حرص بني مرين على سماع أخبار إخوتهم في مملكة غرناطة والاطلاع على أحوالهم والتأهب لنصرتهم كلما دعت الحاجة إلى ذلك والرسائل والسفارات المتبادلة بهذا الخصوص كثيرة لا نستطيع حصرها في هذه الفقرة . وشملت السفارات والرسائل المتبادلة مواضيع أخرى ذات صلة بالعلاقات بين الدولتين النصرية والمرينية منها الرسائل والسفارات المتعلقة بالهدايا المتبادلة ، فعلى سبيل المثال فقد تلقى السلطان النصري هدية قيّمة بعث بها إليه السلطان المريني أبو عنان أشاد بها السلطان النصري وبعث برسالة إلى صديقه السلطان المريني يشكره وجاء في هذه الرسالة :

((فإننا وصلنا كتابكم الكريم الوفادة ، العظيم الإفادة مصحباً بالهدية التي صحبها الكمال ، وصدقت في احتفائها واحتفالها الآمال ، واشتملت على نكايتي العدو ، وهما الخيل والمال ، فكأنه لواء نصر خفق أمام كتيبة ونسيم زهر عبق عن روحة عجيبة ويا لها من هدية اتخذ الناس يومها عيداً وموسماً سعيداً وعزماً رآه العدو قريبا)) [١] .

ولقد حرص بنو مرين على أن تكون هداياهم مما يتقوى به مسلمو مملكة غرناطة على الصمود في مواجهة الأعداء وكانت كثيراً ما تشمل هذه الهدايا على الخيل والسيوف المهندات والذهب العين [٢] .

كذلك فقد بعث سلطان غرناطة يوسف الأول إلى السلطان المريني أبي يوسف بهدية تشتمل على مجموعة من البغال وغير ذلك [٣] . وهذه من الثروة الحيوانية التي كانت تشتهر بها مملكة غرناطة في ذلك الوقت وقد توالت الهدايا من السلطان أبي عنان إلى السلطان يوسف الأول ، وكانت هذه الهدايا في إطار دعم مملكة غرناطة الدعم المادي المعنوي وهو عبارة عن خيول ومهندات محلاه ومهماميز محكمة ودنانير من الذهب العين [٤] .

---

(١) ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ، جـ ١ ، ص ٤٠٥ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٤٠٣ .

(٣) نفس المصدر والجزء ص ٣٩٢ .

(٤) نفس المصدر والجزء ص ٣٨٨ وعن توالي الهدايا بين الطرفين ، انظر ابن الخطيب كناسة الدكان ، ص٥٧ ، ٧٥ ، ص ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٩ .

وبعد وصول كل هدية مرينية يبعث السلطان الغرناطي برسالة جوابية يشكر فيها أخاه سلطان فاس على ما تضمنته رسالته من نخوة إسلامية وحماسة بالغة للدفاع عن الإسلام بالأندلس ، كما تعددت أغراض السفارات والمراسلات في عهد السلطان يوسف الأول منها ما يتعلق بنواحي التعزية أو التهنئة أو فيما يختص بالسفراء أنفسهم أو بالشفاعة في أشخاص ذوي مكانة اجتماعية ودينية مرموقة أو مكانة سياسية .

ومن جملة ذلك رسالة عزاء ومواساة بعث بها السلطان أبو الحجاج يوسف الأول إلى السلطان المريني أبي عنان يعزيه فيها بوفاة والده [١] ، وأرسل السلطان النصري إلى السلطان المريني رسالة يشفع فيها بشأن الفقيه الحاج أبي عبدا الله بن مرزوق وقد تكلل هذا المسعى بالنجاح وسُمح لعائلة الفقيه أبي عبدا الله بن مرزوق بمغادرة المغرب والانتقال إلى الأندلس برفقة والدهم [٢] .

كما تعلقت المخاطبات بين البلاطين بشأن السفراء الذين تطيب لهم الاقامة في الأندلس وعدم العودة إلى المغرب أو العكس مثال ذلك ما دار من سفارة ومخاطبات في جمادى الآخرة ٧٥٥هـ /١٣٥٤م بشأن السفير المريني أبي عبدا الله المقري الذي بعثه السلطان أبو عنان سفيراً عنه إلى غرناطة والذي فضل الإقامة فيها وعدم العودة إلى بلاده فأرسل السلطان يوسف الأول رسالة يشفع فيها لديه في منح السفير المذكور حق الإقامة الدائمة في مالقة [٣] . وقد تولى السفارة بين الدولتين شخصيات مغربية وغرناطية ذات مكانة علمية واجتماعية ؛ ومن بين هذه الشخصيات نذكر سفارة الوزير ابن الخطيب إلى السلطان أبي عنان سنة ٧٥٥هـ /١٣٥٤م والذي ألقى بين يدي السلطان المريني قصيدة شعرية نالت استحسانه وإعجابه [٤] . وكذا القاضي المغربي أبو عبدا الله المقري الذي أشرت إليه آنفاً

---

(١) ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ، جـ ١ ص ٣٤٣ وما بعدها وكناسة الدكان ص ١٢٢ وما بعدها .

(٢) انظر ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ، جـ ١ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٣) نفس المصدر والجزء ص ٣٥٣ ، ٣٥٥ .

(٤) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ، ص ٣٣٣ .

وكلا السفيرين قد لجأ إلى البلد الذي ذهب في السفارة إليه وإن لم تكن عملية اللجوء متقاربة في الزمن ، وغيرهما من الشخصيات الغرناطية والمغربية والتي سوف نتعرض لها أثناء حديثنا عن السفارات المتبادلة بين مملكة غرناطة وبقية الدول الإسلامية ، ولم تقتصر الاتصالات بين البلدين على المراسلات والسفارات فحسب بل كان كثيراً ما يسافر سلاطين غرناطة في زيارة إلى المغرب الأقصى ، فالسلطان النصري محمد الفقيه (الثاني) وصل إلى طنجة سنة ٦٩٣هـ /١٢٩٣م [١] للإلتقاء بالسلطان المريني أبي يوسف يعقوب . كما وصل إلى المغرب الأقصى السلطان النصري محمد الرابع سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م للتشاور مع السلطان المريني [٢] .

وغني عن التعريف بزيارات سلاطين المغرب إلى الأندلس بغرض الجهاد إذ فصلنا ذلك في الحديث عن التضامن بين بني مرين وبني نصر .

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٢١٧ .

(٢) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٨١ والاحاطة جـ ١ ، ص ٥٣٧ وابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٧٤ .

د - مع بني زيان

- تضامن بني زيان مع بني نصر لمواجهة التحديات النصرانية

عند قيام مملكة غرناطة في عهد مؤسسها محمد بن يوسف بن نصر كان يعاصره في دولة بني زيان يغمرآسن ((أول من أثل الملك وحاز الذكر واستحق الشهرة)) (١) في بلاده ؛ وبالرغم من وصول شهرته إلى الأندلس فإنه ليس بيدي ما يدل على قيام صلات وثيقة بين السلطان محمد الأول والسلطان الزياني يغمرآسن اللذين وصفهما ابن الخطيب بأنهما متشابهين (٢) في كونهما مؤسسين لدولتين متزامنتين .

ولكن عندما توفي السلطان محمد الأول وخلفه ولي عهده محمد الفقيه فإن العلاقات والتواصل السياسي بين السلطان الزياني يغمرآسن والنصري محمد الثاني (الفقيه) قد توطدت في عهديهما وأسند فيما بينهما الإتحاف والمهاداة وأهدى السلطان الزياني يغمرآسن إلى السلطان الغرناطي محمد الثاني ثلاثين من عتاق الخيل مع ثياب من الصوف ؛ وفي المقابل فإن السلطان النصري قد بعث إلى السلطان يغمرآسن نظير ذلك مبلغ عشرة آلاف دينار فلم يرض بالمال في هديته وردها (٣) .

وفي سنة ٧٦٣هـ /١٣٦١م أرسل السلطان الغرناطي محمد الخامس سفارة إلى تلمسان برئاسة الفقيه الكاتب إبراهيم بن الحاج النميري لكي يطلب من السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني التضامن مع مسلمي مملكة غرناطة ((وإعانتهم على مجاورتهم عدو ا الله ورسوله حسبما جرت عادته بذلك)) (٤) .

وقد نجحت تلك السفارة في أداء مهمتها واستجاب لها السلطان الزياني من منطلق روح

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ص ٩٧ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ص ٢٠٢ .

(٤) يحيى بن خلدون : أبي زكريا يحيى بن محمد بن الحسين : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد ، جـ٢ طبعة بمطبعة بو نطانة الأخوين في الجزائر سنة ١٣٢٨هـ ، ص ١١٤ .

الأخوة الإسلامية فوجّه مع السفير إبراهيم بن الحاج ((خمسين ألف قدح من الزرع وثلاثة آلاف دينار من الذهب للكراء عليه في البحر)) (١) .

ولقد أكرم السلطان الزياني تلك السفارة وأحسن استقبالها وحملها إلى سلطان غرناطة ما أشرت إليه آنفاً وأجزل العطاء لأعضاء السفارة التي كان من بينها الفقيه أبو محمد عبدالعزيز بن علي بن يشت الذي رفع قصيدة بهذه المناسبة إلى السلطان الزياني مطلعها :

عرج على الدار من سلْمى تحيّيها ... واستوقف العيس في أطلال ناديها

وناد يا دارها بالجزع من كثب ... حيِّيتِ من دمنة راقت مغانيها (٢)

فأحسن إليه أمير المسلمين بحصان من عتاق الخيل أشهب وثلاثين من الذهب العين وكسوة حسنة (٣) .

ولقد توالى الدعم الزياني لمملكة غرناطة مما كان له أكبر الأثر في دعم صمود مملكة غرناطة في مواجهتها للتحديات النصرانية في مواطن كثيرة منها :

في سنة ٧٦٧هـ /١٣٦٥م وجّه البابا في روما نداء إلى أهل ملته لمحاربة الملك بيدرو ملك قشتالة الذي كان على علاقة طيبة مع ـ مسلمي غرناطة ـ ومن ثم استباحة دماء المسلمين في مملكة غرناطة إرادة إطفاء نور الإسلام ﴿ والله متم نوره ولو كره المشركون ﴾ (٤) .

فوجّه السلطان الغرناطي أبو عبدا لله محمد الغني با لله نداءاً إلى إخوته في الإسلام في مملكة بني زيان ليهبوا لنصرة إخوانهم في الأندلس وكان ذلك النداء من نظم الشيخ الفقيه أبي البركات محمد بن إبراهيم البلفيقي جاء فيه :

((هل من مجيب دعوة المستنجد ... أم من مجير للغريب المفرد

هل من ولي ناصر دين الهدى ... أو ذي حمى يحمي حنيفة أحمد (٥)

---

(١) يحيى بن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد ، جـ ٢ ، ص ١١٤ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ١١٤ ، ١٢٢ .

(٤) من الآية رقم ٨ من سورة الصف .

(٥) يحيى بن خلدون : المصدر السابق ، ص ١٦٧ .

وبرفقة تلك القصيدة رسالة من إنشاء الوزير لسان الدين بن الخطيب جاء فيها : ((وبا لله سبحانه نستدفع ما لا نطيق وبا لله ندرأ في نحور هذا العدد الكبير وبا لله نستظهر على هذا الخطب ((ربنا افرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)) (١) ، ولا مفزع بعد ا لله لهذه الأمة في الشدائد إلا المسلمين إخوانهم في الدين)) (٢) ، ولقد كان لهذا النداء أكبر الأثر في تحريك الهمة الإسلامية في قلب السلطان الزياني أبي حمو وعلق على ذلك يحيى بن خلدون بقوله ((وامتعض خليفة ا لله أيده ا لله لدين الإسلام واستفزته أريحية الشجاعة وعطفته على غرباء المسلمين بالعدوة رحم الملة وحجزه البحر الزاخر عن الوصول إليهم بنفسه فأمدهم في سبيل ا لله بالأحمال العديدة من الذهب والفضة والخيل المسومة والمراكب المشحونة زرعاً أجزل ا لله ثوابه ... وجعل الفوز بالحسنى مآبه)) (٣) .

ونتيجة لوصول الدعم الإسلامي الزياني لمسلمي غرناطة اتفق السلطان محمد الخامس وأعضاء دولته في سنة ٧٦٧هـ /١٣٦٥م على البدء في شن الحرب على النصارى وإطلاق الغارات على بلاد الكفرة من جميع الجهات (٤) . وأمر بتحصين الثغور استعداداً لصد هجمات نصارى مملكة قشتالة وأرغون اللتين أصبحتا متحدتين في الهدف بعد طرد الملك القشتالي بيدرو الأول استجابة لنداء البابا .

وفي شعبان سنة ٧٦٧هـ /١٣٦٥م هاجم السلطان الغرناطي محمد الخامس حصن برغة الواقع بين مالقة ورونده والذي كان سقوطه في أيدي النصارى . سبباً في قطع الاتصال بين مسلمي رونده وإخوتهم في بقية المدن الغرناطية ففتحه المسلمون بعد قتال عنيف وطهرت مساجد الحصن من الصلبان وزينت بآيات من القرآن الكريم (٥) .

---

(١) من الآية ٢٥٠ من سورة البقرة ورقم ١٤٧ من سورة آل عمران .

(٢) يحيى بن خلدون : بغية الرواد ، جـ ٢ ص ١٧٢ .

(٣) نفس المصدر والجزء ص ١٧٤ .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة جـ ٢ ص ٧٨ .

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

وفي أوائل شهر رمضان فتح مسلمو مملكة غرناطة حصن آشر بالقوة بعد معركة شديدة قادها سلطان غرناطة أبو عبدا لله محمد الخامس بنفسه ثم توجه إلى سهل قرب جبل طارق فتمكن من السيطرة على قراه واشتركت في هذه المعارك قوات من دولة بني زيان ساهمت في التعجيل بالانتصار [١] .

وفي سنة ٧٦٨هـ /١٣٦٦م هاجم الجيش الغرناطي بقيادة السلطان محمد الخامس (الغني با لله) مدينة أطريرة [٢] القريبة من إشبيلية والتي كان أهلها قد قتلوا أسرى المسلمين الذين أطلق سراحهم الملك بيدرو الأول وحاصرها الجيش الغرناطي والتحموا مع النصارى في معركة ضارية هزم فيها النصارى التجأوا إلى قصبة المدينة ونزلوا قسراً على حكم السلطان الغرناطي وبلغ عدد الأسرى النصارى خمسة آلاف أسير [٣] ثم عقد السلطان محمد الغني با لله العزم على تحرير الجزيرة الخضراء وطرد النصارى منها ودخلها المسلمون بقيادته ولم يلبث أن أمر محمد الخامس بتدميرها خوفاً من عودة النصارى إليها وأصبحت خاوية كأن لم تكن بالأمس [٤] وشن الجيش الغرناطي بقيادته عدة حملات على مملكة قشتالة كان من أهمها الاستيلاء على مدينة قرمونة [٥] القريبة من إشبيلية .

---

(١) يحيى بن خلدون : بغية الرواد ، جـ ٢ ص ١٨٠ ، حيث يورد نص الرسالة التي أرسلها سلطان غرناطة إلى السلطان الزياني أبي حمو يشكره فيها على تضامنه مع مسلمي مملكة غرناطة وقد كانت الرسالة من إنشاء الوزير ابن الخطيب والتي يذكر فيها أن لبني زيان في تلك المعارك النصيب والسهم المصيب .

(٢) أطريرة : مدينة صغيرة في الجنوب الشرقي من إشبيلية وشرق نهر الوادي الكبير (انظر خارطة مملكة غرناطة في الملحق رقم (٣) .

(3) A. M . AlAbbadi , Alcani Billah . p 227 .

(٤) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٣٢٨ .

(٥) نفس المصدر ص ٣٥٣ وقرمونة هي : مدينة أندلسية ازدهرت في عهد بني برزال (انظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ١٥٨) .

ولقد كان من الأسباب المهمة في هذه الانتصارات بعد ا لله والتي أوجزنا الإشارة إليها هنا الدعم والتضامن الإسلامي المقدم من بني زيان لمملكة غرناطة ولا سيما في فتح الجزيرة الخضراء والتي كان لبني زيان اليد الطولى فيها ممثلين في سلطانهم أبي حمو موسى الزياني الذي خاطبه الوزير ابن الخطيب بقصيدة يشكره فيها على تضامنه مع مملكة غرناطة وفي ذلك يقول :

لَقَد زارَ الجزيرةَ مِنْكَ بحرُ
يمدُّ فليس نَعرفُ مِنهُ جزراً
أعَدْتَ لها بِعَهْدِكَ عهد مُوسى
سَميِّك فَهْي تَتْلُو منهُ ذِكْراً
أَقْمتَ جِدَارهَا وأفدَتَ كنزاً
((ولو شئت اتخذت عليه أجرا [(١)]))[(٢)]

ولا أجد أبلغ وصفاً ولا تأثيراً مما دونه ابن الخطيب يصف الدعم الزياني الكبير الذي قدمه السلطان أبو حمو الزياني بقوله :

أنت الذي أفتك السفين وأهله
إذ أوسعت سبل الخلاص طموسا
أنت الذي أمددت ثغر ا لله بالصدقات
تبلس كرة إبليسا

(١) اقتباس من الآية رقم ٧٧ من سورة الكهف .
(٢) ابن الخطيب : الصيب والجهام ص ٥٤٢ ، ٥٤٣ .

وأعنت أندلساً بكل سبيكـــــة
موسومة لا تعرف التدليسـا
وشحنته بالبر في سيــل الرضـى
والبر قارب قاعها القاموسا
إن لم تجر بها الخميس فطالمـــــا
جهزت فيها للنوال خميسـا
وملأت أيديها وقد كادت علـى
حكم القضاء تشافه التفليســـــا (١)

وفي سنة ٧٧٤هـ /١٣٧٢م وصل إلى تلمسان سفير السلطان محمد الخامس حـاملاً رسالة إلى السلطان الزياني أبي حمو وذلك في غرض الهناء والاتحاف بهدية حافلة على العادة المتقدمة بينهما (٢) . وحمل السلطان الزياني السفير الغرناطي رسالة جوابيـة ضمنهـا الشكر والثناء العاطرين (٣) .

وقد استمرت العلاقات الودية بين غرناطـة وتلمسـان طـول حيـاة السـلطان الغـني بـا لله إذ تأشب بين الحاكم الغرناطي والزياني وشيج إخاء (٤) .

وفي نهاية القرن الثامن ومطلع القـرن التاسـع ومـع اشـتداد العـدوان النصرانـي علـى مملكـة غرناطة وكذا الضعف الذي انتاب مملكة بني زيان وعدم توافر المصادر التاريخية التي تحدثـت عن العلاقات بين الطرفين في تلك الفـترة فـإن سـتاراً مـن الظـلام يحيـط بتلـك الفـترة إلى أن أرسل السلطان النصري محمد بن سعد الزغـل سفـيره ابن الأزرق إلى تونس مـاراً في طريقـه

---

(١) ابن الخطيب : ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني ، حققـه د. محمـد مفتـاح ، جـزءان ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ط١٤٠٩هـ ، جـ ١ ص ٦٠ .

(٢) يحيى بن خلدون : بغية الرواد ، جـ ٢ ص ٢٧٦ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

بتلمسان ولم توضح المصادر التاريخية المهمة التي كلف بها ابن الأزرق إلى مملكة تلمسان ومدى نجاح سفارته فيها ، ومن المؤكد أن سفارته لم تسفر عن شيء كما فشلت في تونس والتي غادرها إلى مصر ، واكتفت المصادر بالإشارة إلى توقفه في تلمسان دون توضيح ماهية سفارته فيها [١] .

هذا ولم يقتصر دور بني زيان على الدعم المادي فقط وإنما وجدنا بعض القبائل التي كانت تقيم في الإقليم الذي يقع بين أراضي عبدالواد وبني مرين والذين كانوا تحت قيادة محمد بن عبدالقوي نافسوا بني مرين في الجهاد ونصرة مملكة غرناطة ((فاجتمع أبناء الملوك بالمغرب الأوسط مثل عبدالملك يغمرآسن بن زيان وعامر بن قنديل بن عبدالرحمن وزيان بن محمد بن عبدالقوي فتعاقدوا على الاجازة إلى الأندلس إلى الجهاد وأجازوا فيمن خف معهم من قومهم سنة ست وسبعين وستمائة فامتلأت الأندلس بأقيال زناته وأعياص الملك منهم وكان فيمن أجاز من أعياصهم بنو عيسى بن يحيى وسناف بن عبو بن أبي بكر بن حمامة ومنهم سليمان وإبراهيم وكانت لهما آثار في الجهاد ومقامات محمودة)) [٢] .

ومن الجدير ذكره أن هذه القبائل من زناته ومن بني مرين قد اندمجت في كيان واحد في الأندلس يربطهم هدف واحد وهو الجهاد في سبيل الله يتولى قيادتها زعيم واحد بغض النظر عن انتمائه المريني أو الزياني .

---

(١) المقري : أزهار الرياض ، جـ ٣ ، ص ٣١٨ .

(٢) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ص ٣٦٦ .

هـ - مع بني حفص

- مساندة بني حفص مملكة غرناطة إبان قيامها ودورهم في تدعيم مملكة غرناطة :

كانت أولى الاتصالات بين الأندلس ودولة بني حفص على المستوى السياسي سنة ٦٣٦هـ /١٢٣٨م عندما بايع أهالي بلنسية السلطان الحفصي أبا زكريا وذلك عندما شعر اهلها بازدياد الضغط النصراني عليهم فاضطر صاحبها زيان بن مردنيش إلى مبايعة سلطان تونس أبي زكريا وأرسل إليه بعثة مع رجال من أهل دولته فيهم الكاتب الفقيه الشهير بأبي عبدا الله محمد بن عبدا الله بن أبي بكر بن الأبار القضاعي الذي ما إن وصل إلى تونس حتى ألقى بين يدي السلطان الحفصي قصيدته المشهورة في يوم الثلاثاء منسلخ أواخر شهر رجب عام ستة وثلاثين وستمائة والتي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل ا لله أندلساً ... إن السبيل إلى منجاتها قد درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا (١)

فبادر إلى ذلك أبو زكريا فجمع من الطعام والأنعام ما قيمته مائة ألف دينار ، ولكن تمكن النصارى من دخول بلنسية قبل أن يصلها مدد السلطان أبي زكريا (٢) .

من جهة ثانية أكد ابن خلدون أن السلطان النصري محمد الأول قد أعلن الطاعة والولاء لدولة بني حفص في تونس ممثلين في شخص السلطان أبي زكريا عام ٦٢٩هـ /١٢٣١م (٣) أي قبل أن يتخذ محمد بن يوسف بن نصر من غرناطة عاصمة له .

---

(١) الزركشي : أبو عبدا الله محمد بن إبراهيم ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق وتعليق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة بتونس (د. ت) ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) نفس المصدر والصفحات .

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ١٧٠ وابن أبي زرع : الذخيرة ، ص ١١٠ .

وبعد أن تدهورت سلطة الموحدين وعند وفاة الرشيد وثورة بني مرين في مراكش ازداد نفوذ حاكم تونس أبي زكريا الذي انتصر على الموحدين في تلمسان ، وهنا سارع محمد الأول لكسب رضى حاكم تونس عام ٦٤٣هـ /١٢٤٥م ، ومما يدل على ذلك أنه أمر أن تلقى خطبة الجمعة في غرناطة باسم الحفصي أبي زكريا ولهذا فإن الحاكم النصري قد حصل منهم على مساعدة مالية لم تنقطع حتى أواخر عهده (١) .

وكان لهذا الدعم أثره في تقوية المركز المالي لسلطان غرناطة محمد الأول فبنى قصر الحمراء فوق الهضبة الواقعة على الضفة اليسرى لنهر حدرة إذ بعث إليه السلطان الحفصي أموالاً كثيرة برسم أن يستعين بها المسلمون في غرناطة على الجهاد ، فحلف القاضي محمد ابن عياض أن مال صاحب تونس باق إشارة إلى خطة التوفير التي انتهجها السلطان النصري محمد الأول (٢) .

إلا أنه عندما توفي السلطان أبو زكريا فإن محمد الأول ((نبذ الدعوة الحفصية واستبد لنفسه وتسمى بأمير المسلمين)) (٣) .

وفي سنة إحدى وخمسين وستمائة ثار الأمير أبو إسحاق على أخيه السلطان الحفصي المستنصر فأنقادت له جموع وافرة من الأعراب عبر برفقتهم إلى الأندلس ولجأ إلى سلطان غرناطة أبي عبدا لله محمد الثاني ((فنوه به وأكرم نزله وبوأه بحال عنايته وجعل دار ضيافته لأول نزوله القصر المنسوب إلى السيد خارج حضرته وهو آثر قصوره لديه)) (٤) .

ولم يبق الأمير اللاجئ في غرناطة في حالة سلبية بل شارك أبناء مملكة غرناطة في الجهاد ((وشهد هنالك الوقائع في عدو الدين وأبلى البلاء الحسن واشتهر اسمه وعلا صيته

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٣٤ والإحاطة جـ ٢ ، ص ٩٧ .

(٢) ابن عذاري : البيان ، قسم الموحدين ص ٣٥٨ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ١٩٠ .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

وظهرت منه نكاية في العدو)) [١] .

وكان السلطان الحفصي المستنصر يبعث بالهدايا الضخمة للسلطان الغرناطي محمد الثاني والأموال الكثيرة ليكف عنه أخاه وفي طي ذلك الاطلاع على أحوال أخيه [٢] .

ويدلنا ذلك على عظم المكانة التي تبوأها الأمير أبو إسحاق بمملكة غرناطة استغلها السلطان النصري لصالح بلاده وبلغت العلاقة بينه وبين السلطان الحفصي أبي عبدا الله محمد ابن الواثق با لله يحيى بن المستنصر أبي عبدا الله بن الأمير أبي زكريا بن حفص قمتها ؛ حيث توالت الإمدادات الحفصية لمملكة غرناطة وذلك نتيجة للتواصل السياسي والمراسلات المتبادلة بين سلطان غرناطة ؛ وفي ذلك يقول شاعر السلطان النصري من قصيدة مطولة في المدح :

ولتفخر أندلس بعدلـــه	المشهور دار القـــــــرار
بسعده دانت له تونـس	فاعتمدتها بالهدايا الكبـــار
وأتحفت قولاً وفعـــلا	بما قد ألبس الأعداء ثوب العار
وخلدته أثراً باقيـــــا	مشتهراً في الأرض أي اشتهار [٣]

وقد استمر هذا التواصل والعلاقات الطيبة بين غرناطة وتونس إذ تبادل السلطان محمد الثالث المراسلة والمهاداة مع السلطان الحفصي أبي عبدا الله محمد بن الواثق بن يحيى بن المستنصر إلى أن هلك في ربيع الآخر عام تسعة وسبعمائة [٤] ، وعندما تحالفت الدول النصرانية في شبه جزيرة إيبيريا ضد مسلمي غرناطة وبني مرين في المغرب فإن السلطان

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ وانظر : ابن القنفذ : أبو العباس أحمد بن حسين بن علي ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق ، محمد الشاذلي ، عبدالمجيد التركي ، الدار التونسية للنشر ١٩٦٨م ، ص ١١٨ .

(٢) ابن القنفذ : المصدر السابق ، ص ١١٨ .

(٣) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة جـ ١ ، ص ٥٥١ .

أبا الحسن المريني طلب من دولة بني حفص المساهمة بقطع من أسطولهم البحري إلى جانب الأسطول المريني والنصري فاستجابوا لهذا المطلب وجهزوا ست عشرة سفينة حربية وولوا قيادتها لأحد بحارتهم الذي كان يتولى قيادة أسطول بجاية وتجمعت الأساطيل الإسلامية من شمال إفريقيا واتخذت من مدينة سبتة قاعدة لها وكان فيها من سفن طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية [1] ، حيث انضمت إلى الأسطول المريني وكان يتولى قيادة هذه الأساطيل محمد بن علي العزفي بأمر من السلطان أبي الحسن الذي أمره بأن يتوجه إلى مضيق جبل طارق للانضمام إلى الأسطول النصري حيث يرابط الأسطول النصراني المتحالف ((وزحفوا إلى أسطول النصارى بعد أن قربوا الأساطيل الإسلامية بعضها من بعض وقرنوها للمصاف فلم يمض [قليل] حتى هبت رياح النصر وأظفر الله المسلمين بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هبراً بالسيوف وطعناً بالرماح وألقوا أشلاءهم في اليم وقتلوا قائدهم واستاقوا أساطيلهم مجنوبه إلى مرسى سبتة)) [2] وذلك يوم السبت السادس من شوال سنة ٧٤٠هـ /١٣٣٩م .

ويصف ابن الخطيب تلك المعركة بقوله :

تلك الجواري المنشآت صداقها
مهج العدى وخلوقهن من الدم
وحجالهن من البنود فلا تـــرم
وصلاً بدينار لهن ودرهـــــم

---

(١) هذه المدن تابعة لمملكة بني حفص في ذلك الوقت ، وهي مدن ساحلية تقع على البحر الأبيض المتوسط .

(٢) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٢٦١ .

نصرت عباد ا لله جـل جلاله
وسطت بعباد المسيح ومريم [١]

ولقد كان من نتائج هذا التضامن الإسـلامي الرائـع هـذا الانتصـار البحـري الكبـير على البحرية النصرانية المتحالفة .

وفي عهد سلطان غرناطة محمد الخامس بعث السلطان الحفصي أبو إسـحاق إبراهيـم الثاني (٧٥٠ـ ٧٧٠هـ / ١٣٤٩ ـ ١٣٦٨م) سفيره أبـا الحسـن البنا إلى مملكـة غرناطـة مصحوباً بهدية من الخيل والرقيق [٢] مما كان له الأثر الطيب في نفس سلطان غرناطـة الـذي استقبل السـفير المذكـور وفي ذلـك يقـول ابـن الخطيـب في رسـالة جوابيـة بعث بهـا باسـم السلطان الغني با لله إلى السلطان الحفصي أبي إسحاق ((وحضر بين أيدينـا رسـولكم فقـرر من فضلكم ما لا ينكره من عـرف علـو مقداركـم وأصالـة داركـم وقطـب مداركـم)) [٣] مؤكداً في رسالته أن هذا التواصل بين الأسرتين النصرية والحفصية هو منذ زمن بعيـد فقـال ((وقد كان بين الأسلاف .... وأبرمت من أجل ا لله معاقدة)) [٤] ... ويشكره على تلـك الهدية العظيـمة التي شملت رباط الخيل فيقول ((فنحن الآن لا ندري أي مكارمكم نذكـر أو أي فواضلكم نشرح أو نشكر ، أمفاتحتكم التي هي في الحقيقة عندنا فتح أم هديتكـم ، وفي وصفها للأقلام سبح ولعدد الإسلام بحكمة حكمتها كبح)) [٥] .

---

(١) ابن الخطيب : ديوان ابن الخطيب ، جـ١ ص ٥٥ .

(٢) ابن خلدون : التعريف ص ١٥٥ .

(٣) نفس المصدر ص ١٧٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٧٩ .

(٥) نفس المصدر والصفحة .

كما أطلع السلطان الغرناطي السلطان الحفصي أبا إسحاق على الموقف مع النصارى وما قام به الجيش الغرناطي من جهاد في سبيل الدفاع عن أراضيه وقد أسهب في رسالته بتفاصيل ذلك [١] .

وفي عام ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م عندما بدأت التحالفات النصرانية في الظهور مرة أخرى ضد مملكة غرناطة إذ رسم الملك القشتالي هنري الثالث وشارل الثالث ملك نافاريا ومارتن الأول ملك أرغون مشروعا للهجوم على مملكة غرناطة ، قاد السلطان محمد السابع الجهاد ضد نصارى شبه جزيرة إيبيريا واستمرت هذه الحرب لمدة ثلاث سنوات متواصلة (٨١٠ ـ ٨١٣هـ / ١٤٠٧ ـ ١٤١٠م) شملت البر والبحر بث خلالها محمد السابع الفزع والرعب في مملكة قشتالة [٢] ، وقد كان يعاصر السلطان محمد السابع في دولة بني حفص السلطان الحفصي أبو فارس الذي لم يتأخر عن مساعدة مملكة غرناطة في تلك الظروف العصيبة فقرر لهم مساعدة عينية كل عام وعدّ ذلك المؤرخون ((من فضائله ما وضَّفَ لأهل الأندلس من الطعام وغيره يوجه لهم ذلك في كل عام إعانة لهم على عدو الدين وما هم عليه من ممارستهم مع الكفار)) [٣] .

ومنها ما عينه لأهل الأندلس إعانة لهم على العدو كل عام وذلك ألفا قفيز طعاماً عدا ما يتبعها من أدم وغير ذلك)) [٤] .

ولما تولى الحكم في غرناطة السلطان محمد الأيسر فإن العلاقات بين غرناطة وتونس استمرت على ما هي عليه من الدعم العيني لمملكة غرناطة إذ بعث السلطان الحفصي

---

(١) انظر ابن خلدون : التعريف ص ١٨٣ وما بعدها .

(٢) لمعرفة تفاصيل ذلك : العواجي ، الخلافات السياسية في الدولة النصرية ، ص ٢٠٩ وما بعدها .

(٣) ابن الشماع : أبو عبدا لله محمد بن أحمد ، الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تحقيق وتقديم د. الطاهر بن محمد المعموري ، الدار العربية للكتاب ١٩٨٤م ، ص ١١٤ .

(٤) الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، ص ١١٦ .

(٨٣٧هـ - ٨٣٩هـ /١٤٣٣- ١٤٣٥م) ((مالاً جليلاً لأهل جزيرة الأندلس تصدق به على المجاهدين)) [١] .

وفي الانقلاب الذي حدث سنة ٨٣١هـ /١٤٣٧م والذي أطاح بالسلطان محمد الأيسر فإن السلطان المخلوع فر هارباً إلى شواطئ الأندلس ومنها ركب البحر إلى تونس حيث استقبله السلطان الحفصي أبو فارس وحفظ المؤرخ السخاوي [٢] في كتابه الضوء اللامع تفاصيل ذلك ، إذ عندما وصل السلطان الأيسر إلى مجلس السلطان الحفصي تخطى أبناء السلطان وإخوته وجلس بمجلس أعلى منهم فلما عرفه السلطان بهم أنشد معتذراً :

إن كنتُ أخطأتُ في التخطي — لي من العذر واضح ثَنَاهُ

هيبة مولاي أذهلتـــــــــــني — فلم ترَ العين ما ســـواهُ [٣]

وهذه هي المرة الأولى في تاريخ الدولة النصرية يلجأ أحد سلاطينها إلى دولة بني حفص ؛ ويعزى لجوء السلطان محمد الأيسر إلى تونس إلى كونه متزوجاً من أميرة تونسية هي زهر الرياض بنت أبي السرور مفرج [٤] ، ومن الجدير بالذكر أن السلطان الحفصي قد ساعد السلطان محمد الأيسر في استعادة ملكه في غرناطة [٥] .

وبعد وفاة السلطان الحفصي أبي فارس خلفه أبو عبدا لله محمد المنتصر (٨٣٧هـ - ٨٣٩هـ / ١٤٣٣ - ١٤٣٥م) الذي واصل دعمه لمملكة غرناطة ((فوجّه مالاً جليلاً لأهل جزيرة الأندلس تصدق به على المجاهدين)) [٦] .

---

(١) ابن الشماع : الأدلة البينية ، ص ١٢٠ .

(٢) الضوء اللامع ، جـ ٩ ، ص ٦٨ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) انظر شجرة نسب بني نصر في الملحق رقم (٢) .

(٥) انظر ابن حجر : شهاب الدين أحمد بن علي ، إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ ، دار الكتب العلية بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٦هـ ٩ أجزاء ، جـ ٨ ، ص ٢٩٧ .

(٦) ابن الشماع ، المصدر السابق ، ص ١٢٠ .

ومن مآثره ((صدقته الجارية في كل عام على أهل جزيرة الأندلس إعانة لهم على ما هم بصدده من جهاد عدو الدين واتبع في ذلك سبيل آبائه الكرام)) [١] .

وعندما اشتد ضغط النصارى على مملكة غرناطة خرج قاضي الجماعة في غرناطة ابن الأزرق سفيراً إلى الدولة الحفصية لطلب النجدة والمدد من السلطان الحفصي أبي عمر وعثمان بن محمد بن أبي فارس ، ولكن تلك السفارة لم تسفر عن شيء [٢] ، وذلك لوفاة السلطان المذكور ، ومن ثم غادر ابن الأزرق إلى مصر .

---

(١) ابن الشماع ، الأدلة البنية ، ص ١٢٦ .

(٢) انظر السخاوي : الضوء اللامع ، جـ ٩ ، ص ٢١ .

و - مع المماليك في مصر :

استنجاد بني نصر بالمماليك في مصر للتصدي للخطر النصراني :

ساعدت الحرب الأهلية في الدولة النصرية على اشتداد الحرب الصليبية ضد مسلمي مملكة غرناطة التي اتجه أهلها المحاصرون من كل جانب إلى جيرانهم الأقربين ملوك فاس وتلمسان وتونس قبل أن يتجهوا إلى مصر . وذلك لمساعدتهم في الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الدين والوطن الأندلسي . ولكن السياسة النصرانية لمملكة قشتالة كانت لتلك المحاولة بالمرصاد إذ يعلم الملك فرناندو من خلال الصراع التاريخي مدى الارتباط بين العدوتين ، وهذا ما ركز عليه النصارى جهدهم منذ قرون مضت في سبيل عزل العاصمة غرناطة عن طول الساحل الأندلسي المحاذي لبر العدوة والذي كانت تحتشد فيه وتصل إليه حشود المتطوعين في سبيل العقيدة .... وفي هذه الحقبة من الزمن كان الأمر سهلاً بالنسبة لنصارى شبه جزيرة إيبيريا وذلك للضعف والتدهور الذي أصاب دولة بني مرين وأدى إلى قيام دولة بني وطاس وكذا الضعف الذي هز كيان دولة بني زيان لوقوعها بين ضغط بني حفص وبني مرين الذين تبادلوا الاستيلاء عليها وعلى أراضيها .

لذلك سرعان ما اتخذ الملك فرناندو الذي اتحدت في عهده مملكتا قشتالة وأرغون في دولة واحدة التدابير اللازمة لإحباط أي بارقة أمل في نجدة مسلمي غرناطة من قبل الشمال الإفريقي المسلم ، وقد وافق ذلك أن أرسل الملك الوطاسي سفارة إلى قرطبة عام ٨٩٠هـ /١٤٨٥م وكان مبعوثو ملك فاس محملين بالهدايا من خيول وأسرجة وأقمشة حريرية وروائح عطرية للملك فرناندو وزوجته الملكة إزابيلا اللذين يقتلان المسلمين في مملكة غرناطة بوحشية [1] ، وانتهز الملك فرناندو الفرصة وأكد للبعثة الوطاسية المحافظة على

---

(١) انظر :مجهول نبذة العصر ، ص ٢٥ وما بعدها .

السلام بين الدولتين شريطة امتناع الوطاسين عن تقديم أي عون أو مساعدة لمسلمي مملكة غرناطة [(١)] .

وكذا في أثناء حصار النصارى لمالقة فإن المبعوثين التلمسانيين اتفقوا مع الملك فرناندو على أن تكف الغارات البحرية النصرانية على شواطئهم مقابل عدم تقديم أي مساعدة لمسلمي غرناطة [(٢)] . واكتفت دول شمال إفريقيا باستقبال المهاجرين من مملكة غرناطة وبجمع المعونات من أجل فداء الأسرى [(٣)] .

بعد هذا العرض الموجز كان لا مناص من أن يتجه أهل مملكة غرناطة إلى مصر ، ولم تكن الصلة والتواصل السياسي بين غرناطة والقاهرة وليد ذلك الحدث بل إن هذا التواصل قد بدأ منذ زمن مبكر من قيام دولة بني نصر ومماليك مصر إذ إن أقدم نص وقع في يدي عن هذا التواصل على المستوى السياسي بين غرناطة والقاهرة في عهد السلطان أبي الوليد بن إسماعيل وبالتحديد في سنة ٧٢٤هـ /١٣٢٣م وهو العام الذي وصل فيه السفير أحمد بن عبدالسلام من الإسكندرية إلى غرناطة عبر مملكة أرغون وقد حمل هذا السفير من السلطان المملوكي رسالة إلى السلطان الغرناطي أبي الوليد بن إسماعيل وبرفقة هذه الرسالة خريطة في كنانة ومجموعة من الكتب ، وفيما يبدو لي أن السفير المذكور كان يحمل رسالة إلى ملك أرغون من سلطان مصر الذي تقابل مع الملك الأرغوني . ولكن السفير أحمد بن عبدالسلام عندما نزل في منزل الأرغوني سيدون نسي الخريطة المذكورة وبعض مرفقاتها الخاصة بالسلطان النصري ووصل إلى غرناطة وتفقد أغراضه فلم يجد الخريطة ومرفقاتها فأخبر بذلك السلطان أبا الوليد مما أدى بسلطان غرناطة إلى أن يصدر أوامره إلى شيخ الغزاة عثمان ابن إدريس بن عبدا لله بن عبدالحق أن يوجه إلى ملك أرغون رسالة نيابة عنه يحثه

---

(1) Pulgar. Cronica de los senores reyes catolicos p. 344.

(2) Ipid p. 313.

(٣) انظر الشفشاوني : محمد بن عسكر الحسني : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، تحقيق محمد حجي ط٢ ، الرباط ، ١٣٩٧هـ ، ص ٩٢ .

فيها على البحث وإرسال ما فقده السفير المذكور وكتب تلك الرسالة في التاسع عشر من شعبان من عام أربعة وعشرين وسبعمائة (١) .

ونظراً لأهمية الرسالة المملوكية في نفس السلطان النصري أبي الوليد إسماعيل فإنه قد أرسل رسالة أخرى إلى ملك أرغون تعقيباً على الرسالة السابقة يطلب منه البحث عما فقده السفير أحمد بن عبدالسلام وفي هذه المرة يشير إلى شخص مسلم يقيم بمملكة أرغون اسمه زيدون يعرف المكان الذي نزل فيه السفير أحمد بن عبدالسلام أثناء قدومه من الإسكندرية وهو المكان الذي نسي فيه السفير تلك الرسالة ونورد نصاً من هذه الرسالة إذ جاء فيها :

((الحمد لله وصل ا لله كرامتكم بتقواه كنت عرفت جلالكم المعظم أن ثقتي أحمد بن عبدالسلام لما جاز من إسكندرية مع إرسالكم في العام الفارط نسي بالدار التي نزل بها كنانة فيها كتبٌ من صاحب ديار مصر لهذا المقام العلي السلطاني وفيها أيضاً جملة كتب أخر ورغبت منكم أن تأمروا أحد خدامكم بالبحث عنها عسى أن يقع عليها وتوجهوها إلى هنا وأنا الآن أجدد قصدكم في ذلك ولعل أن نجبر، وزيدون المسلم الذي هنالكم يعرف الموضع الذي نزل به فهو يعرفكم به وهذه من أكبر حوايجي قبلكم وا لله يصل كرامتكم بتقواه والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً)) (٢) .

والسلطان المملوكي الذي كان يحكم مصر في تلك السنة هو " الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة " (٣) .

ولا أعرف هل أرسل ملك أرغون ما فقده السفير القادم من مصر أم لا ؟

ولما تولى السلطان محمد الخامس الغني با لله الحكم في مملكة غرناطة فإن العلاقات السياسية قد توطدت بين غرناطة والقاهرة ، فعندما خلع السلطان المذكور ولجأ إلى المغرب ثم عاد إلى

---

(١) انظر نص تلك الرسالة في الملحق رقم (٤) .

(2) Do cumentos Arabes diplomticos de Archivodla , Corna dearagon , p 41 .

(٣) حسن : علي إبراهيم ، تاريخ المماليك البحرية ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ط ٣ ، ١٩٦٧م ص ١٧ .

حكم بلاده للمرة الثانية فإنه أرسل رسالة من إنشاء الوزير ابن الخطيب إلى السلطان المملوكي المنصور بن قلاوون يخبره فيها بعودته إلى غرناطة واسترجاع ملكه [١] .
وعندما وصلت أنباء غزو النصارى في جزيرة قبرص لمدينة الإسكندرية وسفكهم دماء أبنائها كان لهذا الغزو الأثر الأليم في نفوس أبناء مملكة غرناطة وأرسل السلطان الغني با لله رسالة إلى السلطان المملوكي أبي الفتوح شعبان ضمنها التضامن مع مصر جاء فيها ((فإن الإسلام كالجسد يتداعى كله لتألم بعضه ويتساهم إخوانه في بسطة وقبضة وسماؤه مرتبطة بأرضه)) [٢] ، كما شن الجيش الغرناطي غزوة في أراضي نصارى مملكة قشتالة انتقاماً لأهالي الإسكندرية الذين سقطوا ضحية العدوان النصراني عليها ففي عام ٧٦٩هـ /١٣٦٧م في أواخر شهر المحرم هاجم السلطان محمد الخامس مدينة جيان إحدى المدن المهمة التي كان النصارى قد استولوا عليها منذ فترة طويلة وتمكن المسلمون بقيادة السلطان محمد الخامس من دخولها والاستيلاء عليها ، وكان شعار المسلمين أثناء المعركة يالثارات الإسكندرية وذلك طبقاً لقول ابن الخطيب ((نادى بها لسان الحمية في مرضاة رب البرية بالثارات الإسكندرية)) [٣] .

وفي القرن التاسع الهجري واصل بنو نصر اتجاههم نحو إخوانهم مماليك مصر وكانت الرسائل فيما سبق بين غرناطة والقاهرة عبارة عن تواصل للعلاقات ؛ وعندما اشتدت وطأة النصارى على مملكة غرناطة المحاصرون من كل جانب ، اتجه بنو نصر إلى مماليك مصر لطلب النجدة والمدد وإن أول الرسائل من هذا النوع هي الرسالة الموجهة من السلطان النصري محمد الأيسر [٤] تلك الرسالة التي حملها سفير لا زال مجهول الاسم والتي شرحها

---

(١) انظر نص الرسالة في ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، جـ ٢ ص ١٩٣ .

(٢) ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ، جـ ١ ص ٢٩٥ ، ٣٠١ .

(٣) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٦٦ .

(٤) ولمعرفة هذا السلطان وعهده انظر التمهيد من الرسالة ، ص ٤٤ وما بعدها .

عبدالعزيز الأهواني إذ عثر على تدوين لتلك السفارة بخط ذلك السفير [١] وأخبار رحلته إلى مصر والحجاز إذ وصل السفير الغرناطي إلى القاهرة في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رجب عام ٨٤٤هـ /١٤٤٠م ، وفي يوم الاثنين تقابل السفير الغرناطي ومرافقوه مع السلطان المملوكي جقمق ، ففتح الحاج أبو القاسم الذي كان يرافق السفير الغرناطي جعبته واستخرج منها الرسالة التي أرسلها السلطان الغرناطي فأخذها أمين سر السلطان المملوكي كمال الدين أبو عبدا لله البارزي الحلبي فتصفحه ساعة ثم قال للسلطان المملوكي جقمق يا مولانا نصركم ا لله هذا كتاب من صاحب جزيرة الأندلس يشتكي لك ما أصابه من الإفرنج المجاورين له ويطلب منك نجدة تعينه بها ، فالتفت إلينا وقال سأبعث إلى ابن عثمان يعينكم إن شاء ا لله . فقال له الحاج أبو القاسم الغرناطي يا مولانا السلطان ـ نصركم ا لله ـ أنت كبير الملوك والسلاطين وخديم الحرمين الشريفين ، ولم نجي إلا إلى حضرتكم وحاشا أن تردنا خائبين فقال إن بلادكم بعيدة ولا يمكننا أن نجهز لكم عسكراً فقال : يا مولانا السلطان إذا لم يمكنكم تجهيز العسكر إلينا فلتعنا بالمال والعدة وما كان لله فهو يحفظه . فقال نعم أعينكم إن شاء ا لله بالمال والعدة [٢] .

وقام السفير الغرناطي ومرافقوه بتقديم الهدايا الغرناطية للسلطان المملوكي [٣] .

مما سبق عرضه يتضح أن حكومة بني نصر كانت تؤمل النجدة من مماليك مصر ولا تعرف الكثير عن الدولة العثمانية . من ناحية أخرى كان السلطان المملوكي جقمق قد أرسل رسالة جوابية إلى غرناطة عن طريق مبعوثه المصري الذي وصل إلى غرناطة حاملاً

---

(١) الأهواني : عبدالعزيز ، سفارة سياسة من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ١٦ الجزء الأول مايو ١٩٥٤م ، ص ٩٥ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٠٣ .

(٣) نفس المرجع ، والصفحة .

رسالة إلى سلطان بني نصر وقد وصلت إلينا تلك الرسالة مبتورة وغير كاملة" [١] والتي حملت فيما بقي منها واضحاً عبارات الود والدعاء له بالنصر على الأعداء وإحاطته علماً بوصول سفارته كما أخبره أنه قد كلف سفيره في غرناطة بتبليغ السلطان النصري محمد بن نصر بالرد على رسالته مشافهة [٢] .

وإذا كنت لا أعلم ماذا حمل السفير المملوكي إلى غرناطة لا أستطيع القول أو الجزم بأن السلطان جقمق قد وفى بوعده ولكن مجرد التواصل والتشاور بين الدولتين المملوكية والنصرية كان لا يزال قائماً بدليل أن السلطان محمد بن عثمان الذي أعقب الأيسر وجه رسالة إلى السلطان المملوكي بصحبة السفير التاجر أبي عبدا لله محمد البنيولي [٣] وإنني هنا أستطيع أن أضيف إلى الجهد الكبير الذي بذله عبدالعزيز الأهواني في محاولته معرفة أسماء السفير الغرناطي ومرافقيه الذين حملوا الرسالة إلى السلطان المملوكي من غرناطة إلى القاهرة فأقول إن سفير سلطان غرناطة محمد بن عثمان (أبو عبدا لله محمد البنيولي) ما هو في أغلب الظن إلا الذي أشار إليه السفير الغرناطي بأن صهره أبا القاسم قد استخرج الرسالة من جعبته فلا يستبعد أن يكون هو نفسه التاجر أبو القاسم البنيولي الغرناطي الذي أشار إليه عبدالباسط بن خليل الحنفي في رحلته إلى الأندلس [٤] .

على أية حال فإن هذه الرسالة قد نصت صراحة على طلب المعونة بما تيسر من صدقات المسلمين وخيراتهم وشحنها في المركب الغرناطي المستأجر لذلك الغرض برفقة السفير الغرناطي أبي عبدا لله محمد البنيولي [٥] ، وليس لدي دليل على إرسال مصر لتلك

---

(١) دراج : أحمد ، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦١م ، ص ٧١ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) انظر الملحق رقم (٥) .

(٤) الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم ، نشر منه الفقرات الخاصة بأفريقية والمغرب وترجمها إلى الفرنسية برنشفك ، باريس ١٩٣٦م ، ص ٢٧ .

(٥) انظر الملحق رقم (٧) .

المعونة المطلوبة في المرة الثانية ولو أن توقعاتي بأن ذلك قد تم فعلاً بدليل عدم يأس بني نصر من الاتصالات بإخوانهم في مصر إذ أرسل السلطان النصري سعد المستعين با لله [١] رسالة إلى السلطان المملوكي الظاهر خشقدم (٨٦٥ ـ ٨٧٢هـ / ١٤٦٠ ـ ١٤٦٧م) يستنجد به ويخبره بالهجوم النصراني الكبير على مسلمي مملكة غرناطة وسقوط المدن والقرى في أيديهم وكانت الرسالة على يد الشيخ أبي عبدا لله محمد بن الفقيه [٢] ، ويبدو أن السلطان خشقدم استجاب لطلب السلطان الغرناطي وبادر بتقديم العون المادي ولكن ذلك العون لم يجد نفعا [٣] .

ومع كل ما تقدم لم ييأس بنو نصر من نجدة إخوانهم في مصر فوجّه المسلمون في غرناطة نداءاً أخيراً على لسان السلطان أبي عبدا لله محمد الزغل ، برفقة سفيره أبي عبدا لله محمد ابن علي بن محمد المعروف بابن الأزرق الذي سافر إلى تلمسان [٤] ثم رحل إلى مصر طالباً النجدة من السلطان المملوكي أشرف سيف الدين قيتباي لإخوانه المسلمين في مملكة غرناطة .

ويذكر المؤرخ المصري ابن إياس في أثناء حديثه عن المماليك الشراكسة عام ٨٩٢هـ /١٤٨٦م أن السلطان المملوكي قيتباي استقبل سفيراً من الأندلس حاملاً رسالة من السلطان النصري محمد بن سعد يطلب فيها ارسال تجريده لنجدة مسلمي الأندلس

---

(١) عن السلطان سعد انظر التمهيد من الرسالة ص ٥٠ .

(٢) دراج : المماليك والفرنج ، ص ٩٧ .

(٣) سحر السيد عبدالعزيز سالم : علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب سقوطها ، مقالة منشورة بمناسبة انعقاد أعمال المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسيكية الأندلسية حول الذكرى الخمسمائة لسقوط غرناطة ، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسيكية ، زغوان ، ١٩٩٣م ، جـ ٢ ص ١٠٠ .

(٤) المقري : أزهار الرياض ، جـ ٣ ص ٣١٨ .

والاشتراك في قتال النصارى الذين يحاصرون غرناطة وقد أوشكوا الاستيلاء عليها [١] .
ورأى السلطان قايتباي أن يكتب إلى رئيس قساوسة كنيسة القيامة في بيت المقدس لكي يطلب منه إرسال أحد الرهبان بخطاب إلى ملك نابلي يطلب منه أن يلتمس من ملك قشتالة إيقاف هجماته على مسلمي غرناطة ويتخلى عن حربه لهم . وفي حالة الرفض فإن السلطان قايتباي سوف يضطر إلى اضطهاد أعضاء كنيسة القيامة أو أن يمنع نصارى أوروبا من دخولها وأنه سوف يهدمها إذا اقتضى الأمر [٢] .
وبعد حوالي عام ونصف من استقبال السفير الغرناطي في القاهرة سافر قسيسان من نصارى أسبانيا المقيمين في بيت المقدس إلى اسبانيا حاملين مسعى قيتباي وأثناء وصولهم إلى الأندلس كان الملوك الكاثوليك في طريقهم لحصار مدينة بسطة الغرناطية مواصلين في ذلك عدوانهم على جميع مدن وقرى مملكة غرناطة ، واستقبل الملك فرناندو في معسكره القسيسين اللذين يحملان رسالة من البابا أنسونت الثامن ورسالة أخرى من الملك فرنادو ملك نابلي ناصحين له بالتوقف عن حرب غرناطة ، وأجابهم الملك فرناندو أنه يتبع سياسة واحدة مع جميع رعاياه من النصارى والمسلمين ؟ [٣] .
ثم توجه القسيسان إلى جيان حيث استقبلتهما الملكة إزابيلا وأكدت لهما من جانبها عزم نصارى أسبانيا على حرب مسلمي غرناطة حتى النهاية وطبقاً لقول ابن إياس فإن هذا المسعى المملوكي لم يسفر عن شيء [٤] .

وهكذا تخلى المسلمون في المشرق والمغرب عن إخوتهم المسلمين في مملكة غرناطة وتركوهم يواجهون المصير المؤلم .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، حققها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٤٠٢هـ ، ط٢ ستة مجلدات ، جـ ٣ ، ص ٢٤٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٤٥ .

(3) Pulgar Cronica del les senores Reyg Catolicos, pp 395 - 397 .

(٤) ابن إياس : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٤٥ .

مع العثمانيين :

لم يثبت لدى قيام أي اتصالات بين الدولتين العثمانية والغرناطية على مستوى الحكومتين [١] .

(١) إن ما ورد في الكتابات الحديثة عن إتصالات سياسية قد تمت فعلاً بين حكومة غرناطة بني نصر وبين الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الفاتح أو في عهد السلطان أبي عبدا لله الصغير لا يستند على دليل تاريخي قاطع ، ومن أمثلة ذلك : ما أورده كل من التميمي : عبدالجليل ، رسالة من مسلمي غرناطة للسلطان سليمان ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد ٣ ، تونس ١٩٧٥م ، ص ٣٨ والذي نقله عن مصدر تركي هو :
Aziz Samih ilter, Simali Afrika da Turkler istanbul , 1937 .
وتابعه في ذلك الشناوي : عبدالعزيز ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ ٢ مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٩٠٢ ، ورضوان : نبيل عبد الحي ، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده ، مكتبة الطالب الجامعي مكة المكرمة ، ١٤٠٨هـ ، ص ١٢٦ ، والذين قالوا بقيام سفارة في منتصف سنة ١٤٧٧م ، ٨٨٢هـ بين غرناطة والقسطنطينية والحق أن ذلك لا تسانده المصادر المعاصرة. أما الحميد: عبداللطيف بن محمد ، في كتابه موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس ، ط الأولى ١٤١٤هـ ص ٥٨ ،الذي قال (إن السلطان أبا عبدا لله قد أرسل رسالة في سنة ٨٩١هـ إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني يستنجد به ضد الخطر النصراني دون الإشارة إلى المصدر الذي اقتبس منه تلك المعلومة ، والحق أن الحقيقة التاريخية تفيد أنه في تلك السنة سنة ٨٩١هـ كان السلطان أبو عبدا لله أسيراً لدى النصارى للمرة الثانية ليستأصل به الملك فرناندو بقية الأندلس (انظر مجهول : نبذة العصر ، ص ١٧ ، وانظر المقري نفح الطيب جـ ١ ، ص ٥١٨، وانظر العواجي : الخلافات السياسية ، ص ٣٢٤ وكان أولى به أن يوجه الرسالة إلى أبناء شعبه لانقاذه قبل أن يتجه بأنظاره إلى القسطنطينية وعليه فإنني أستطيع القول أن أولى السفارات من غرناطة إلى القسطنطينية كانت على يد البلوي بعد سقوط غرناطة مباشرة .

لكن الذي أراه أن الاتصالات قد تمت بين فئة من المجتمع الغرناطي والدولة العثمانية وذلك في عهد السلطان العثماني بايزيد الثاني (٨٨٦ - ٩١٨هـ /١٤٨١ - ١٤١٢م) وذلك بدليل تأريخي لما تضمنته قصيدة الاستنجاد بالسلطان العثماني بايزيد والتي أرسلت بعد سقوط غرناطة فتلك القصيدة قد أشارت في إحدى أبياتها بأنه قد وصل مكتوب من السلطان العثماني إلى حكومة أسبانيا النصرانية إذ جاء في تلك القصيدة ما نصّه :

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم
فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا اعتداء وجرأة
علينا وإقداماً بكل مساءة (١)

إذاً متى وكيف تم الاتصال بين غرناطة والقسطنطينية ؟ علماً بأن تلك الرسالة قد تم نظمها سنة ٩٠٧هـ /١٥٠١م (٢) وهي تشرح الأحداث التي حدثت بين عامي (٩٠٥ - ٩٠٧هـ / ١٩٤٤ - ١٥٠١م) (٣) وهي الأحداث التي حدثت بعد سقوط غرناطة إذ كان سقوطها في الثاني من يناير ١٤٩١م /٨٩٧هـ فيحق التساؤل عن المبررات التي دفعت بالسلطان

---

(١) لقد نشر المستشرق مونرو : جميع القصيدة كاملة مع دراسة تحليلية لها في كتيب صغير أسماه : وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة ترجمها وعلق عليها د. محمد عبدا لله الشرقاوي كلية دار العلوم جامعة القاهرة ، دار الهداية ، د. ت ، ص ٣٤ .

(٢) مونرو : المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٣ .

العثماني أن يرسل رسالة إلى الملكين الكاثوليكيين (فرناندو وإزابيلا) وفي أي تاريخ تقريبا ؟.

والحق أنه لم تتحدث المصادر أو المراجع عن اسم سفير غرناطي قد وصل إلى القسطنطينية موفداً من قبل سلاطين بني نصر .

لكنني أستطيع القول مطمئناً أن السلطان العثماني بايزيد الثاني قد استقبل سنة ٨٩٨هـ /١٤٩٣م أسرة من الأسر الغرناطية التي حملت بين أفرادها أحد القضاة الغرناطيين الذين كانوا يدركون الخطر المحدق بالأمة الغرناطية المسلمة والذي كان يرافقه أحد أبنائه المماثل لأبيه في المكانة العلمية .

تلك الأسرة هي أسرة البلوي .

وأسرة البلوي في غرناطة من الأسر المشهورة المنتشرة في عدة بلدان إسلامية كجزيرة العرب والأندلس (١) .

وكان من أعلامها الغرناطيين القاضي خالد بن عيسى البلوي (٢) والقاضي علي بن أحمد بن داود البلوي الغرناطي وولده أبو جعفر (٣) الذي هاجرت أسرة البلوي بزعامته إلى شمال إفريقيا ومن ثم اتجهت إلى القسطنطينية .

وعلي بن أحمد بن داود البلوي ترجم له السخاوي بقوله ((علي بن أحمد بن داود أبو الحسن البلوي الوادي آشي المالكي نزيل تلمسان ممن أخذ عن إبراهيم بن فتوح الغرناطي

---

(١) لقد ترجم الحسن السائح في تحقيقه لكتاب تاج المفرق في تحلية علماء المشرق لهذه القبيلة الأندلسية ، جـ ١ ، ص ١٦ وما بعدها .

(٢) سيأتي الحديث عنه في الرحلات العلمية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية فانظر الفصل الثاني من الرسالة ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٣) ابن غازي : محمد المكناسي : فهرس ابن غازي التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد ، تحقيق محمد الزاهي ، الدار البيضاء ، ١٣٩٩هـ ، ص ٣٢ .

المتقدم في العقليات ونحوها وكذا عن محمد السرقسطي في الفقه وغيره ، وتميز في الفقه والعربية وتصدى للإقراء ، وولي الإمامة والخطابة والتدريس وغيرها بجامع بلده وكذا ولي الإمامة بمسجد غرناطة الأعظم مع القضاء بها وغير ذلك ثم تورع عن القضاء بعد نحو شهر))(١) ، كما هي عادة القضاة الغرناطيين في اعتزال القضاء نتيجة للاضطراب السياسي والصراع بين أبناء السلطة الحاكمة في غرناطة ولما استحكمت الفتنة في مملكة غرناطة واستكملت حلقاتها في الحرب الدائرة بين السلطان أبي عبدا الله مع عمه محمد بن سعد الملقب بالزغل ووقوف الجيوش النصرانية تسدد ضرباتها داخل المملكة الغرناطية ، غادرت أسرة البلوي مملكة غرناطة متوجهة إلى بر العدوة وذلك يوم الأحد الرابع والعشرين لشهر المحرم فاتح عام ٨٩٤هـ /١٤٨٨م(٢) إذ أقلعت أسرة البلوي في سفينة أبحرت بهم إلى شمال إفريقيا تجاه مدينة تلمسان وليس الغريب في الأمر نزولهم تلمسان ولكن الغريب هو خروجهم من تلمسان إلى تونس ومن تونس إلى القسطنطينية أوائل رجب ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م(٣) إذ استقلوا سفينة من تونس أبحرت بهم إلى شواطئ الدولة العثمانية ، وكان يرافق علي بن داود البلوي ولده أبو جعفر الذي كان قد تلقى علومه على يد والده ونجوم من علماء مملكة غرناطة في لحظاتها الأخيرة(٤) . وفي أثناء الرحلة البحرية وقبل الوصول إلى شواطئ الدولة العثمانية توفي الشيخ علي بن أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالرحمن بن داود البلوي يوم الاثنين الخامس من شهر رجب من سنة ٨٩٨هـ /١٤٩٢م على مقربة من شواطئ الدولة العثمانية ودفن يوم السبت الثامن من شهر رجب

---

(١) الضوء اللامع ، جـ ٥ ، ص ١٦٧ .

(٢) أبو جعفر البلوي : أحمد بن علي البلوي الوادي آشي (ت٩٣٨هـ) ، ثبت أبي جعفر أحمد ابن علي البلوي الوادي آشي ، دراسة وتحقيق د . عبدا الله العمراني ، دار الغرب الإسلامي ط الأولى ١٤٠٣هـ ، ص ٢٠٨ وانظر المقري : أزهار الرياض ، جـ ١ ، ص ٧١ حيث يتحدث عن رحيل أسرة البلوي من مملكة غرناطة .

(٣) أبو جعفر البلوي : المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

(٤) انظر ذلك في نفس المصدر ص ١٠٤ وما بعدها .

المذكور بالميناء العثماني مدينة ششمه [١] من بلاد الترك [٢] .

ومن ثم اتجهت بقية الأسرة يتزعمها ابنه أبو جعفر أحمد وحطت رحالها بمدينة القسطنطينية حيث استقبلها السلطان العثماني بايزيد ولقوا من رعاية بايزيد ما شجعهم على الاستقرار والاطمئنان ومواصلة الإنتاج العلمي [٣] إذ صنف أبو جعفر البلوي في أحد كتبه شرحاً للقصيدة المعروفة بالرامزة أو الخزرجية وكان ذلك الشرح والتصنيف بمدينة غلطة العثمانية في ربيع الأول سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م [٤] .

ونعود لما نحن بصدده فما لا شك فيه أن أبا جعفر البلوي وأفراد أسرته قد تحدثوا ورووا بالتفصيل للسلطان العثماني بايزيد ما جرى ويجري على الساحة الأندلسية قبيل السقوط وبعده من أحداث في الحرب الأهلية وحروبهم مع النصارى وسمع منهم السلطان العثماني بايزيد الثاني ، ونظراً لغيرة سلاطين آل عثمان على الإسلام وما عرف عنهم من حماس إسلامي فلربما وجّه السلطان العثماني بايزيد الثاني رسالة مكتوبة إلى الملكين النصرانيين فرناندو وإيزابيلا وهي الرسالة التي أشارت إليها قصيدة الاستنجاد وإن الاستطراد في ذلك يخرجني عن الإطار المرسوم للبحث فإنني أتوقف عند هذه النقطة .

---

(١) ششمه : مدينة أو ميناء يقع على الشاطئ الغربي لشبه جزيرة آسيا الصغرى قبالة جزيرة كيوس (انظر ثبت أبي جعفر ص ١٩٥ حاشية رقم ١) .

(٢) أبي جعفر البلوي : نفس المصدر ، ص ١٩٥ .

(٣) نفس المصدر ، مقدمة المحقق ، ص ٣٧ .

(٤) حاجي خليفة : مصطفى بن عبدا لله ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون أربعة أجزاء ، دار إحياء التراث العربي بدون (د. ت) جـ ٢ ص ١١٣٦ والقصيدة الرامزة هي قصيدة معروفة في العروض والقوافي في البحر الطويل للإمام (عبدا لله محمد المالكي الأندلسي) أولها لك الحمد يا ا لله والشكر والثناء ، انظر نفس المرجع والجزء ، ص ١١٣٥ .

الفصل الثاني

العلاقات العلمية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية

أ ـ مظاهر الحياة العلمية في غرناطة .

ب ـ التـاثيرات العلمية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية .

ـ الرحلات العلمية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية

ـ أثر اشتداد العدوان النصراني على مملكة غرناطة على الساحة العلمية

ـ تأثير العلماء الأندلسيين على الحياة العلمية في البلدان التي هاجروا إليها

أ ـ مظاهر الحياة العلمية في مملكة غرناطة

ـ النهضة العلمية في مملكة غرناطة :

في سنة ٦٣٥هـ /١٢٣٦م أعلن محمد بن يوسف بن نصر غرناطة عاصمة لملكه ، وكان الأديب ابن سعيد معاصراً وشاهد عيان على بدء قيام دعوة محمد بن يوسف بن نصر ورفع إليه قصيدة شعرية هنأه بمناسبة إلتفاف المسلمين حوله (١) .

كما قدم ابن سعيد وصفاً لمدى حرص أبناء الشعب الأندلسي على التعليم والتحصيل العلمي ، فقال ما نصّه ((وأما حال أهل الأندلس في فنون العلم ، فتحقيق الانصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز ، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجتهد أن يتميز بصفة ، ويربأ بنفسه أن يُرى فارغاً عالة على الناس ، لأن هذا عندهم في غاية القبح ، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة يُشار إليه ويحال عليه ويثبت قدره وذكره عند الناس ، ويكرم في جوار واتباع حاجة وما أشبه ذلك)) (٢) ، وإن كانت تلك الصفات التي وسم بها أبناء الأندلس وقد عرفوا بها في تاريخهم كله ، كان حريًّا بهم ، وقد فقدوا الكثير من مدنهم التي كانت تزخر بالعلوم والآداب أن يبذلوا المزيد من الجهد في هذا السبيل ، بعد أن ضاقت بهم الأرض الأندلسية وانحازوا إلى الجزء الجنوبي من أراضيهم ، وبهذا تعمق الشعور لديهم بأن يحافظوا على حياتهم العلمية وحضارتهم الإسلامية حتى يبقوا على صلة بدينهم الذي تشن عليه الدول النصرانية المجاورة حرباً لا هوادة فيها ، وحتى يتبوأوا مكانة علمية مرموقة في بلادهم تعوضهم عن ضآلة أرضهم وصغر ممتلكاتهم ، وهذا ما فعلوه وهو ما يفسر لنا سر بقائهم لمدة قرنين ونصف القرن في حرب تكاد تكون

---

(١) انظر المغرب في حلي المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٠٩ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ نقلاً عن ابن سعيد .

مستمرة إلا من فترات هدنة محددة ، وهذا السر كان وراء تمسكهم بدينهم الإسلامي الذي على أساسه قامت نهضتهم العلمية ، مع أنه لم يكن لأهالي مملكة غرناطة في بادئ الأمر مدارس تعينهم على طلب العلم بل كانوا يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة كحال أسلافهم من أهالي الأندلس (١) .

وإلى جانب ذلك فقد كان من بين الدوافع العلمية لأبناء مملكة غرناطة الدافع الذاتي الذي هو حب العلم في حد ذاته أحد الأسباب الرئيسية في نبوغ العديد من أبناء مملكة غرناطة في شتى العلوم .

وفي ذلك يقول ابن سعيد عن أهل الأندلس وهو ما ينطبق على أهل غرناطة ((فهم يقرأون لأن يعلموا لا أن يأخذوا جارياً ، فالعالم منهم بارع لأنه يطلب العلم بباعث من نفسه على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم)) (٢) .

وبناء على ما ذكرته سلفاً حول عدم وجود المدارس في بادئ قيام الدولة النصرية ، فقد وصلت النهضة العلمية بالمملكة الغرناطية إلى مصاف الدول الإسلامية المعاصرة لها بفضل الدور التعليمي للمساجد حتى أصبح المسجد جامعاً وجامعة يهدف إلى تعليم أبناء مملكة غرناطة القرآن الكريم كلام ا لله المنزل على نبيه المرسل محمد ﷺ وذلك انطلاقاً من كون القرآن الكريم أصل التعليم الإسلامي والإنساني الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات (٣) .

كما كان هذا التعليم في المسجد يهدف أيضاً إلى تعليم الأطفال (الخط الجميل) والكتابة بطريقة جيدة (٤) .

---

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ نقلاً عن ابن سعيد .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، دار الجيل ، بيروت ، ص ٥٩٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٥٩٥ .

ولقد كان لتشجيع سلاطين بني نصر دوره في استقطاب المفكرين والعلماء من العدوتين ، وإسناد مناصب علمية أو إدارية إليهم في المملكة الغرناطية . ثم كان لهذه النهضة أثرها في إنشاء المدارس وتوسيع المساجد ، وعلى سبيل المثال فقد قام السلطان النصري محمد الأول بتوسيع جامع غرناطة (١) ؛ حتى يستوعب عدداً أكبر من المصلين وطلاب العلم ، نظراً للزيادة المضطردة في عدد السكان وبالتالي ازدياد أعداد الطلاب الذين يدرسون في هذا المسجد .

ولقد كان من أعظم أعمال السلطان محمد الثالث بناء المسجد الجامع على ما هو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش من فخامة العمد وإحكام أنوار الفضة وإبداع ثرياتها (٢) .

وقد واصلت المساجد المنتشرة في أنحاء مملكة غرناطة في المرية ومالقة ووادي آش وبسطة وغيرها رسالتها الدينية والعلمية (٣) . إذ درس بها الآلاف من الطلاب الذين تعدت شهرتهم غرناطة إلى دول المغرب والمشرق الإسلامي .

وبما أنني لم أجد أي إشارة أستطيع أن أجزم بها جزماً قاطعاً على بناء المدارس في مملكة غرناطة قبل سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م في عهد السلطان يوسف الأول والتي سوف أتحدث عنها في حينها ؛ فلهذا أجد نفسي مؤيداً للرأي الذي يؤكد أن ملوك غرناطة قد دأبوا على سنة ملوك الأندلس الذين سبقوهم في حماية العلوم والآداب وتشجيع القائمين عليها وتقريبهم إلى بلاط الحمراء سواء في الفترة التي سبقت إنشاء المدارس الرسمية أم في الفترة التي تلتها ، فهذا محمد الأول مؤسس دولة بني نصر يصفه ابن سعيد بقوله : وهو ((يفهم الشعر ويكثر

---

(١) انظر التمهيد من الرسالة .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ص ٥٥٠ .

(٣) يستدل على انتشار المساجد من قول أبي الحسن بن الجياب :

أقمت لدين ا لله شتى المعالم ... وفتحت أبواب العلا والمكارم

وشيدت للإيمان عزاً مخلداً ... رمى الكفر بالذل المقيم اللازم

(ديوان أبي الحسن الجياب نشر ماريه خيسوس روبيرا ، مدريد ، ١٩٧٢م ، ص ٢٢٥).

مطالعة التأريخ)) [١] ، وكان يخصص يوماً من أيام الأسبوع يستقبل فيه أبناء رعيته وينشده الشعراء [٢] ويفتتح مجلسه بقراءة مجموعة من أحاديث رسول الله ﷺ ويختم بأعشار من القرآن الكريم [٣] .

وقرب إليه العلماء وولاهم القضاء ، وابن نصر يخص بالاهتمام منهم من كان لأبيه باع طويل في التأليف العلمي وخدمة الدين ، فولى أبا عبدالله محمد بن عياض بن محمد بن عياض قضاء الجماعة بغرناطة ، وبقي فيها قاضياً إلى أن توفي يوم الخميس الثامن والعشرين لجمادى الآخرة سنة خمس وخمسين وستمائة [٤] .

كما أسند كتابته إلى الكاتب المحدث أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن هيضم الرعيني [٥] والأمثلة على ذلك كثيرة .

كما حرص على تنشئة أبنائه نشأة علمية لكي يكونوا قادرين على تحمل المسئولية في قيادة الأمة الأندلسية التي كان يتربص بها العدو من كل جانب ، وكان من نتيجة ذلك أن قام بالأمر من بعده ابنه محمد الذي لقب بالفقيه لعلمه وتقواه [٦] ، والذي كان من أبرز صفاته العلمية ((براعة الخط وحسن التوقيع وإيثار العلماء من الأطباء ... والحكماء والكتّاب والشعراء وقرض الأبيات من الشعر وكثرة المُلَح وحرارة النادرة)) [٧] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب في حلي المقرب ، جـ ٢ ص ١٠٩ .

(٢) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٣١ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن الزبير : أبي جعفر بن إبراهيم : غرباء الأندلس منشور ضمن كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لأبي عبدالله بن عبدالملك المراكشي القسم الثاني من السفر الثامن ، تحقيق محمد بن شريفة ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ص ٥١٦ ، ٥١٧ .

(٥) ابن الخطيب : المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(٦) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧ .

(٧) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٣٨ .

ويعتبر السلطان محمد الفقيه بحق صانع النهضة العلمية في مملكة غرناطة وبخاصة إنشاؤه لديوان الإنشاء [١] ، الذي كان نقطة تحوّل في تاريخ التعليم بمملكة غرناطة وكان لهذا الديوان الأثر الأكبر في ازدهار العملية التعليمية وإثراء الفكر والأدب .

وقد كان طموح معظم الأدباء والعلماء يتمثل في الحصول على مقاعد في البلاط الملكي النصري ولكن ذلك لم يكن يتأتى لهم إلا بالنبوغ في ميدان العلم والأدب . وجدير بالذكر أن ديوان الإنشاء كان مكلفاً بكتابة المراسلات والوثائق الرسمية ، وقد ترك ابن الخطيب نموذجاً لكليهما في عمله ريحانة الكتاب وكناسة الدكان .

وأعتقد أن من بين أسباب ازدهار الحركة العلمية استقطاب سلاطين بني نصر للمواهب العلمية مثل ما فعل السلطان محمد الفقيه مع محمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم بن فتوح بن الحكيم اللخمي الرندي ذي الوزارتين الذي رحل في سن الشباب إلى بلاد المشرق وزار المغرب وأقام بمكة المكرمة من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم يأخذ من علمائها [٢] ، وبعد عودته إلى مدينة رندة وأثناء زيارة السلطان محمد الثاني لها سنة ٦٨٦هـ /١٢٨٧م ألقى ابن الحكيم الرندي بين يديه قصيدة طويلة مطلعها :

هل إلى رد عشيات الوصال   سبيل أم ذاك من ضرب المحال [٣]

فأعجب به محمد الثاني واستدعاه للحاق به إلى غرناطة فلحق به وجعله من خواصه [٤] .

وبقي في هذا المنصب إلى أن توفي السلطان محمد الثاني وخلفه ابنه محمد الثالث الذي أسند إلى ابن الحكيم الرندي الوزارة والكتابة ولقبه بذي الوزارتين [٥] .

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٣٨ .

(٢) سيأتي الحديث عن رحلة ابن الحكيم في المشرق .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٤٤٧ .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

وكان السلطان محمد الثالث مهتماً بالعلوم يساعده في ذلك وزيره ابن الحكيم الذي قال فيه ابن الخطيب : ((إنه أحيا معالم الأدب وأكرم العلم والعلماء ولم تشغله السياسة عن النظر ، ولا عاقه تدبير الملك عن المطالعة والسماع والإفراط في اقتناء الكتب ، حتى ضاقت قصوره عن خزائنها وأثرت أنديته من ذخائرها)) (١) .

أما سلطانه محمد الثالث فقد فَقَدَ عينيه وكف بصره من كثرة مطالعته وقراءته الكتب على نور ضخام الشمع ، إذ كانت تتخذ له منه جذوع في أجسادها مواقيت تخبره بانقضاء ساعات الليل ومضي الهزيع (٢) ، إن عمى السلطان محمد الثالث كان بمثابة لحظة المجد لوزيره ابن الحكيم الذي تولى حينذاك سلطات السلطان وبالتالي لم يعد الوزير مهتماً بالعلم والأدب كما كان من قبل إذ اختار لمن يقوم بهذا الدور أحد تلاميذه النجباء والنابغين في مجال العلم والأدب والذي حفظ لنا شعره جزءاً مهماً من التاريخ الحضاري لبني نصر لا يقل أهمية عن غيره من المؤلفات المعاصرة له وهو : أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن حسن الأنصاري ويعرف بابن الجياب (٣) . الذي قام بتعليم التلاميذ الجدد والذي وجد من بينهم تلميذاً فذًّا هو ابن الخطيب حيث تواصل هذا التسلسل العلمي ، في اختيار الأذكياء والبارزين من الطلبة ليتخرج على يد الأستاذ ابن الخطيب تلميذا من التلاميذ العباقرة ويصبح خطيباً جديداً واعداً هو ابن زمرك .

وعلى هذا أستطيع القول إن الأسس العلمية للنهضة التعليمية في مملكة غرناطة قد تبلورت ، فلم تحن سنة ٧٥٠هـ /١٣٤٩م في عهد السلطان يوسف الأول إلا وقد أصدر مرسوماً عُرف بقانون يوسف الأول ذكر فيه أنه سيتم بناء مدرسة في غرناطة (٤) .

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٤١ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٨ .

(٣) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ١٨٥ .

(٤) محمد كمال شبانة : يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة ، لجنة البيان العربي ، مطبعة الرسالة ١٩٦٩م ، ص ١١٣ - ١١٥ حيث يورد نص القانون كاملاً .

ويرجع الفضل في تنفيذ وتشييد بناء المدرسة في غرناطة إلى الوزير أبي النعيم رضوان ويتحدث ابن الخطيب عن ذلك فيقول ((أحدث المدرسة بغرناطة ، ولم تكن بها بعد وسبب إليها الفوائد ووقف عليها الرباع المغلة ، وانفرد بمنقبها فجاءت نسيج وحدها بهجةً وصدراً وظرفاً وفخامة ، وجلب الماء الكثير إليها من النهر)) (١) .

وقد شُيِّدَتْ المدرسة المذكورة في مواجهة المسجد الكبير بمدينة غرناطة هذا المسجد الذي هدمه النصارى عند استيلائهم على غرناطة .

ومن خلال قراءة النص أعلاه يؤكد ابن الخطيب عندما تحدث عن السيرة الذاتية للحاجب أبي النعيم رضوان أنه لم تكن هناك مدرسة في غرناطة قبل ذلك ، وعلى الرغم من أن المدرسة الغرناطية دون شك كانت أهم مدرسة خلال قرن ونصف من عمرها إلا أنه لا يمكن أن يقال إنها الأقدم في المملكة الغرناطية لأن ابن الخطيب نفسه عندما جمع في ديوان واحد شعر أستاذه ابن الجياب أشار في تقديمه لواحدة من القصائد التي قالها لتهنئة الصوفي أبي عبدا لله الساحلي لتشييده مدرسة مالقة حيث قال ما نصّه : ((وقال يخاطب الشيخ الخطيب الصوفي العلم أبا عبدا لله الساحلي بعد بنائه مدرسة مالقة وهو عمل لم يسبقه إليه أحد في الأندلس)) (٢) .

كما أشار ابن الخطيب أيضاً صراحة لبناء هذه المدرسة في مالقة في الإحاطة وذلك عند ترجمته للصوفي المذكور أبي عبدا لله محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم الأنصاري الساحلي فقد قال مشيداً بمآثره الخيرة ((فبنى المدرسة غربي المسجد الأعظم ووقف عليها الرباع وابتنى غيرها من المساجد فحصلت الشهرة ونبه الذكر)) (٣) .

إذاً فهل يقصد ابن الخطيب بأن يكون إنشاء وتعمير المدرسة المالقية أو الغرناطية إنشاءً

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٥٠٨ ، ٥٠٩ .

(٢) ابن الجياب : ديوان ابن الجياب ، ص ٢٤٩ .

(٣) ابن الخطيب : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٩١ .

جديداً لم يسبق إليه أحد من قبل وذلك من حيث الإنشاء والتعمير ؟!
أم أن هناك مدارس موجودة كمبان لم تكتمل بغرض أن تكون مدرسة من الأساس ، وإنما هي عبارة عن منازل قد استؤجرت أو حولت إلى مدارس ؟! ولئن كان الرأي الأول قد أيده ابن سعيد كما أشرنا إلى ذلك ، فإن الاحتمال الثاني قد أيده ابن الخطيب نفسه عندما امتدح إنشاء مدرستي مالقة وغرناطة ، مزاوجاً في التعبير عند إنشاء المدرستين بمالقة وغرناطة .

وعلى أية حال فإنه من غير المعقول أن تكون مدرسة غرناطة التي أنشئت سنة ٧٥٠هـ /١٣٤٩م في عهد السلطان يوسف الأول هي أول مدرسة في غرناطة ، وهناك نقش تأسيسي يدل على تأريخ إنشاء هذه المدرسة نصه : ((أمر ببناء هذه الدار للعلم ، جعلها ا لله استقامة ونوراً ، وأدامها في علوم الدين على الأيام ، أمير المسلمين أظله ا لله بعونه ... أبو الحجاج يوسف .... بن أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر كافأ ا لله في الإسلام صنائعه الزاكية ، وتقبل أعماله الجهادية ، وتم ذلك في شهر المحرم عام خمسين وسبعمائة)) (١) .

ومما نقش على باب المدرسة من شعر ابن الجياب :

يا طالب العلم هذا بابه فتحا ... فادخل تشاهد سناه لاح شمس ضحى
واشكر مجيرك من حل ومرتحل ... قد قرب ا لله من مرماك ما نزحا
وشرقت حضرة الإسلام مدرسة ... بها سبيل الهدى والعلم قد وضحا
أعمال يوسف مولانا ونيته ... قد طرزت صحفاً ميزانها رجحا (٢)

وكانت وفاة ابن الجياب قبل افتتاح المدرسة بشهرين وذلك يوم الأربعاء

---

(١) شبانة : يوسف الأول بن الأحمر ، ص ٩٨ .
(٢) أبو الحسن بن الجياب : ديوان أبي الحسن بن الجياب ، ص ٢١٧ وانظر نفح الطيب ، جـ ٥ ، ص ٤٥٧ .

الثالث والعشرين من شهر شوال عام تسعة وأربعين وسبعمائة [١] ، فهذا لا يعني أن تلك الكتابة ليست من شعر ابن الجياب إذ إن فترة البناء قد انتهت سنة ٧٥٠هـ /١٣٤٩م أي قبيل وفاته فليس الفارق الزمني بكبير ، وربما كتبت أثناء حياته ونقشت في المدرسة بعد مماته .

ولم تكن مساهمة ابن الجياب هي الوحيدة في الإشادة بتلك المدرسة فقد ساهم ابن الخطيب في الإشادة بتلك المدرسة التي كانت بلا ريب من المراكز التعليمية في الغرب الإسلامي والتي استمرت في نشر التعليم على مدى قرن ونصف من الزمان حيث لم يُدرس ويدّرسْ بها علماء الأندلس فقط ، ولكن أيضاً تعامل معها طلاب علم من شمال إفريقيا هؤلاء الذين عبروا المضيق بعد أن جذبتهم وبهرتهم هذه البؤرة الثقافية الجديدة .

وقد نقشت مساهمة ابن الخطيب على لوحة بالمدرسة كما نقشت أبيات ابن الجياب أبيات منسوبة إليه جاء فيها :

ألا هكذا تبنى المدارس للعلـــم … وتبقى عهود المجد ثابتة الرســم
ويقصد وجه الله بالعمل الرضـا … وتجنى ثمار العز من شجر العـزم
تفاخر في حضرة الملك كلمــا … تقدم خصم في الفخار إلى الخصم

....

فيا طالباً يبتغي إلى العلم وجهـه … كفيت اعتراض البيد ولجج اليـم

إلى أن يقول :

جزى الله عني يوسفاً حير ما جزى … ملوك بني نصر عن الدين والعلم [٢]

وقد تحدثت عن الأماكن التعليمية ، وألمح الآن إلى أسلوب التعليم وكيفيته في مملكة غرناطة .

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٤ ، ص ١٤٧ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ ٦ ، ص ٤٨٢ .

والحقيقة أنه لم يصل إلينا وحسب علمي نص يدل على المدة الزمنية التي يمكثها طالب العلم في مملكة غرناطة في تلقي تحصيله العلمي ، وهي ما تشكل سلم الدرجات العلمية في عصرنا هذا أو تقاربه .

ولئن كان ابن خلدون في مقدمته قد تحدث عن السنوات الطويلة التي يقضيها الطالب في المدارس في المغرب الأقصى [١] إلا أنه لم يشر إلى شيء من ذلك يدل على عدد سنوات التعليم في الأندلس .

من ناحية أخرى أكد ابن خلدون أن طالبي العلم في الأندلس أكثر تحصيلاً وتلقياً للعلوم في فترة زمنية تقل بكثير عن الشمال الإفريقي لكونهم أكثر مقدرة على المحاورة والمناقشة والمناظرة [٢] . لكنني أستطيع القول إن التعليم في مملكة غرناطة لم يختلف عنه في إطاره العام عن العصور الأندلسية التي سبقت عصر مملكة غرناطة والتي كانت تمر بمراحل ثلاث : -

المرحلة الأولى : تعلم القرآن الكريم لأن القرآن الكريم ((أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات)) [٣] ، مع الأخذ ببعض العلوم في اللغة العربية وتعلم الخط والكتابة بطريقة جيدة .

المرحلة الثانية : يتلقى بها المتعلم دروسه وعلومه بشكل أوسع وأشمل حيث أصبح بمقدوره تلقي تفاسير القرآن وقراءاته ، وشروح الحديث وما يتصل بالفقه ، بالإضافة إلى بعض العلوم الإنسانية والعقلية .

المرحلة الثالثة : يتجه فيها التلميذ إلى التركيز على ما يميل إليه (مرحلة التخصص) في علم من العلوم التي درسها بشكل عام في المرحلة الثانية [٤] .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٧٩ .

(٢) انظر نفس المصدر ، ص ٤٧٨ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٩٤ .

(٤) البشري : سعد بن عبدا لله ، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ط١ ، ١٤١٤هـ ، ص ٢١٣ .

وكما أسلفت فليس لديّ أية معلومات عن المدة التي تستغرقها الدروس في كل مرحلة لكننا نعلم أنه كانت فترات للراحة بين كل فترة تحصيلية وأخرى ، كما أنه كان كل شوط أو مرحلة تعليمية ينتهي بمنح إذن مكتوب أو (إجازة علمية) تخول صاحبها تدريس مادة معينة أو كتاب معروف (١) .

كما أن الاجازة هي ((إباحة المجيز للمجاز له رواية ما يصح عنده أنه حديثه)) (٢) .

وقد تعاقب على مساجد ومدارس مملكة غرناطة عدد كبير من العلماء والمدرسين الذين كان لهم ولمؤلفاتهم أكبر الأثر في ازدهار الحياة العلمية لمملكة غرناطة على مدى قرنين ونصف قرن من الزمان واحتلت العلوم الشرعية مكان الصدارة في غرناطة .

ومن أشهر العلوم التي اهتم بها أهل غرناطة مايلي :

علوم القرآن الكريم :

القرآن الكريم هو كلام الله المنزل على نبيه محمد (ﷺ) قال تعالى : ﴿ الم * تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ (٣) . وقد رواه الصحابة عن طرق مختلفة في كيفيات أداء الحروف ، ومخارجها ، ثم تناقلها الناس واشتهرت إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة . وتواتر نقلها أيضاً بأدائها ، ونسبت إلى من اشتهر بروايتها وأصبحت تلك الطرق السبع أو القراءات السبع أصولاً للقراءة بين المسلمين وذاعت بينهم (٤) ، والقراء

---

(١) شكري فرحات : غرناطة في ظل بني الأحمر ، ط ١ ، بيروت ١٤٠٢هـ ، ص ١٦٠ .

(٢) الخطيب البغدادي : أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت ، الكفاية في علم الرواية تقديم محمد الحافظ التيجاني ، سلسلة ذخائر المكتبة الإسلامية ، نشر دار الكتب الحديثة ، مصر مطبعة السعادة (د. ت) ص ٤٦٦ .

(٣) الآيتان ١ ، ٢ من سورة السجدة .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٨٤ ، ٤٨٥ .

السبعة الذين اشتهرت قراءاتهم بين المسلمين كافة هم : نافع المدني ، وعاصم بن أبي النجود ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعبدا لله بن كثير ، وعبدا لله بن عامر ، وحمزة بن حبيب ، وعلي بن حمزة الكسائي [١] .

واهتم طلاب العلم في مملكة غرناطة بهذا العلم كل الاهتمام ، وقل أن تجد أحداً من علماء مملكة غرناطة وطلابها لم يقرأ القرآن الكريم بالقراءات السبع [٢] ، وشمل ذلك علماءهم في جميع التخصصات العلمية والنظرية ولنضرب على ذلك مثالاً وصلت فيه قضية الاختلاف في القراءات في غرناطة إلى سؤال بعث به إلى شمال إفريقيا إذ قال في ذلك صاحب المعيار :

((وسئل ابن عرفة ـ رحمه ا لله تعالى من غرناطة عن مسألة من القراءات السبع بما نصه : الحمد لله ، سيدي ، حفظ ا لله سيادتكم وأدام نفع الجميع ببقائكم ، جوابكم في مسألة وقع النزاع فيها بين الطلبة في غرناطة ، حتى آل الأمر فيها أن كفر بعضهم بعضا ، وهي أن بعض القراء في الجامع الأعظم قرأ ليلة قول ا لله تعالى في سورة الأنعام (ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجناتٌ) برفع جنات ، فرد عليه الإمام بالمسجد وهو الشيخ الأستاذ أبو سعيد بن لب وكان القارئ ثقيل السمع ، فصار يلقنه مرة بعد أخرى جناتٍ بالكسر والقارئ لا يسمع وتشجع بالأستاذ غيره فلقنه أيضاً مثل ذلك وأكثروا عليه حتى ضج بهم المسجد ، فلما يئسوا من إسماعه فتقدم بعضهم حتى دخل عليه المحراب فأسمعه ، فأصبح الطلبة يتحدثون بذلك فقال لهم قائل لو شاء ا لله لتركتموه وقراءته لأنها وإن لم يقرأ بها أحد من السبعة من هذه الطرق المشهورة التي بأيدي الناس فقد رويت طرق صحيحة لا يطعن فيها لأحد فقد ذكرها ابن مجاهد وغيره من روايات متعددة عند عاصم ، وهي قراءة الأعمش وغيره من كبار الأئمة)) [٣] .

---

(١) الشاطبي : القاسم بن فيره بن أحمد ، متن الشاطبية المسمى حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع ، مكتبة دار الهدى للنشر والتوزيع ، ط٣ ، ١٤١٧هـ ، ص ٩٥ ، وانظر البشري، : الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف ، ص ٢٦٥ .

(٢) المتتبع لتراجم العلماء في مملكة غرناطة يلمس ذلك واضحاً وجلياً .

(٣) الونشريسي : المعيار ، جـ ١٢ ، ص ٦٨ .

وقد أدت هذه الغلطة لأن يؤلف فيها أبو سعيد بن لب مقالة بعنوان ((كتاب فتح الباب ، ورفع الحجاب بتعقيب ما وقع في تواتر القرآن من السؤال والجواب)) (١) .

وهذا يدل على الاهتمام الكبير الذي أولاه أهالي مملكة غرناطة بالقرآن الكريم وعلومه .

ومن بين الذين درسوا القرآن الكريم وعلومه وأعطوا فيه إجازات في مملكة غرناطة :

أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصي الغرناطي (ت ٧٠٨هـ /١٣٠٨م) انتهت إليه الرئاسة بالأندلس في صناعة العربية وتجويد القرآن ورواية الحديث والمشاركة في علمي الفقه والتفسير (٢) ، له مؤلفات كثيرة من بينها كتاب " ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل " (٣) .

ومحمد بن عبدالرحمن بن محمد بن علي بن الفخار الجذامي (ت سنة ٧٢٣هـ /١٣٢٣م) ألف كتباً في التفسير والقراءات منها " تحبير نظم الجمان في تفسير أم القرآن " و " انتفاع الطلبة النبهاء في اجتماع السبعة القراء " (٤) .

وأبو الحسن علي بن عمر بن إبراهيم الكناني القيجاطي (ت ٧٠٣هـ /١٣٠٣م) كان له اليد الطولى في علم القراءات وكان يدرس القرآن بمسجد غرناطة (٥) .

وعبدا لله بن علي بن سلمون الكناني توفي شهيداً في موقعة طريف سنة ٧٤١هـ /١٣٤٠م أقرأ القرآن وكان يتقدم السباق في معرفة القراءات ، ألّف كتابه المسمى " الشافي في تجربة

---

(١) الونشريسي : المعيار ، جـ ١٢ ، ص ٧٦ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٨٩ .

(٣) حققه د. محمود كامل ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٤٠٥هـ جزءان .

(٤) ابن الخطيب : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٩٧ .

(٥) نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٥٨ ، وانظر ابن فرحون : إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري ، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق وتعليق د. محمد الأحمدي أبو النور جزءان ، كلية دار التراث ، القاهرة (د. ت) ، جـ ٢ ص ١١٠ .

ما وقع من الخلاف بين التفسير والتبصرة وصفه ابن الخطيب بأنه لا نظير له [١] .

ومحمد بن أحمد بن عبدا لله بن يحيى بن حربي توفي شهيداً في موقعة طريف سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م ، كان حافظاً ومؤلفاً في التفسير مشاركاً في شتى العلوم بارعاً في القراءات والفقه والأصول [٢] .

ومحمد بن أحمد الأنصاري ، من أهل غرناطة يكنى أبا عبدا لله ويعرف بالمواق توفي بغرناطة قبيل سنة ٧٥٠هـ /١٣٤٩م ، كان معلماً لكتاب ا لله تعالى ، خطيباً بمسجد ربض الفخارين من غرناطة [٣] .

ومحمد بن علي بن محمد العبدري توفي سنة ٧٥٠هـ /١٣٤٩م كان يعلم الناس القرآن والتفسير بالمسجد الأعظم بغرناطة [٤] .

والقاضي أبو بكر محمد بن محمد بن عاصم الأندلسي الغرناطي ت ٨٢٩هـ /١٤٢٥م من بين مؤلفاته الأرجوزة المشهورة بمهيع الوصول إلى علم الأصول ، وإيضاح المعاني في القراءات المثاني [٥] ، وغير هؤلاء من المؤلفين والمؤلفات كثير .

وكان لهؤلاء ومؤلفاتهم وغيرهم من معاصريهم الأثر الكبير في إثراء علوم الشريعة الإسلامية .

ولم تقتصر الدراسة في علوم القرآن في مملكة غرناطة على الكتب المعاصرة فقط وإنما كانت هناك كتب أخرى ألفت في الأندلس وغيرها من البلدان الإسلامية نالت حظاً من الاهتمام مثل " كتاب الحجة في اختلاف القراء " تأليف أبي علي الحسن بن أحمد بن عبدالغفار ،

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٤٠٠ - ٤٠٤ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠ - ٢٣ .

(٣) نفس المصدر والجزء ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٤) نفس المصدر والجزء ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٥) ابن عاصم : أبو يحيى محمد بن أبي بكر ، شرح ابن عاصم على تحفة أبيه مخطوط نسخة أصلية ملك الباحث ورقة ٣أ .

وكتاب " جامع البيان في القراءات السبع من أربعين رواية " للحافظ أبي عمر عثمان ابن سعيد الداني [١] وغيرها كثير ، ولقد رصد المنتوري نحو خمس عشرة صفحة لرصد الكتب المعروفة في علم القراءات والتي كانت تدرس فعلاً في غرناطة وتعطى بها إجازات علمية [٢] .

وكل هذه الكتب كانت تدرس وتؤخذ بها إجازات دالة على التواصل الحضاري وعلى الاهتمام بعلوم القرآن في غرناطة .

وبالإضافة إلى علم القراءات هناك أساتذة وكتب اشتهرت في بقية علوم القرآن من تفسير وفضائل وناسخ ومنسوخ وأسباب نزول وإعجاز قرآني ... وكتب في العقيدة وفي الفقه وفي الأذكار وفي الوعظ والإرشاد وفي السياسة الشرعية وفي علم الأصول .

وليس من عملي هنا أن أتتبع - باستقصاء - أقطاب علوم القرآن الكريم المختلفة ولا أن أتتبع أشهر المؤلفات المتداولة سواء أكانت أندلسية أم مشرقية ، وحسبي تقديم تلك النماذج ليستدل بها على غيرها .

---

(١) المنتوري : أبو عبدا لله محمد بن عبدالملك بن علي ، فهرسة المنتوري مخطوطة نسخة مصورة عن نسخة الخزانة ، الرباط برقم ١٢٦٦٧ .

(٢) نفس المصدر من ص ٢ - ١٥ .

الحديث وعلومه :

يعد المذهب المالكي في غرناطة من مذاهب الأثر وليس من مذاهب الرأي ؛ فالحديث بعد القرآن عمدة الفتوى ولا ياتي القياس إلا كما تأتي الضرورة القصوى .

وقد أدى هذا الاتجاه إلى اهتمام الأندلسيين في غرناطة بعلوم الحديث وبخاصة كتاب الموطأ لإمام دار الهجرة مالك بن أنس الذي يعد عند الأندلسيين بعامة والمالكية بخاصة من أهم كتب الحديث المبوبة على أبواب الفقه .

وبما أن كتب الحديث كان مصدرها المشرق الإسلامي فقد كانت هذه الكتب مصدر دراسة وتدريس لعلماء مملكة غرناطة ، فقد ذكر المجاري أنه درس في غرناطة جميع "الجامع الصحيح " جمع الإمام الحافظ أبي عبدا لله محمد بن إسماعيل البخاري (١) ، وأخذ المجاري يعدد الأسانيد التي أوصلت هذا الكتاب في الأحاديث به من أبي عبدا لله البخاري إلى يوم قراءته بغرناطة إلى أن انتهى إلى قوله وهذا أعلى ما يوجد على وجه الأرض حتى الآن (٢) .

أما السراج فقد أفرد الباب الأول في فهرسته عن فضل الحديث وأهله ووجوب التثبت في حمله ونقله (٣) .

وهذا يدل دلالة واضحة على الاهتمام الكبير الذي أولاه أهالي مملكة غرناطة لأحاديث رسول ا لله ﷺ والتأكد من مصادرها والحفاظ على روايتها من منابعها إلى اليوم

---

(١) المجاري : أبو عبدا لله محمد ، برنامج المجاري ، تحقيق محمد أبو الأجفان ، دار الغرب الإسلامي بيروت ط١ ، ١٩٨٢م ، ص ١٠٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٠٩ .

(٣) السراج : يحيى بن أحمد بن يحيى النفزي الحميري ، فهرسة السراج ، مخطوط ، نسخة مصورة عن نسخة الخزانة العامة رقم ٢٦٤٣ .

الذي تعلموه فيه كما درس المجاري في غرناطة وقرأ على يد شيخه أبي عبدا الله محمد بن علي الحفار كتاب الموطأ لمالك بن أنس (١) ، كما قرأ أيضاً الجامع الكبير للحافظ أبي عيسى الترمذي (٢) وسنن الإمام أبي عبدالرحمن النسائي (٣) .... وغيرها أما القلصادي فقد ذكر أن الشيخ محمد السرقسطي كان في غرناطة من أحفظ الناس لمذهب الإمام مالك (٤) .

ويحكي المنتوري في فهرسته أنه سمع كتاب الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي على القاضي أبي بكر أحمد بن محمد بن جزي ، كما أنه قرأ بعضه وسمع بعضه على الأستاذ أبي عبدا الله بن سعيد وقرأ بعضه على الأستاذ أبي سعيد فرج بن قاسم بن لب وأجاز له جمعه (٥) .

وبالإضافة إلى دراسة الحديث وتدريسه في مملكة غرناطة برز عدد من أهالي مملكة غرناطة في هذا المجال وكان لهم دور بارز فيه أذكر ثلة منهم : أحمد بن عبدا الله الأنصاري ت ٦٥٢هـ /١٢٥٤م أقر ببلدة مملكة غرناطة القرآن ودرس الفقه وكانت له عناية بعلم الحديث (٦) .

وأبو عبدا الله محمد بن صالح الكناني ت ٦٩٩هـ /١٢٩٩م كانت له رواية متسعة في الحديث (٧) .

---

(١) المجاري : برنامج المجاري ، ص ١١٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١١١ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) القلصادي : أبي الحسن علي ، رحلة القلصادي دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان ، الشركة التونسية للتوزيع ، (د.ت) ص ١٦٤ .

(٥) المنتوري : فهرسة المنتوري ، ص ١٧ ، ١٨ .

(٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ ١ ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٧) الغبريني : أحمد بن محمد بن عبدا الله أبو العباس ، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، حققه وعلق عليه عادل نويهض ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩م ، ص ٨٥ ، ٨٦ ، ٩١ .

وأحمد بن الفرج بن أحمد بن شهاب الدين أبو العباس اللخمي الإسبيلي ت ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م كان له اهتمام بالحديث فعني به وأتقن ألفاظه ورحل من مملكة غرناطة إلى المشرق في طلبه [(١)] .

ومحمد بن سليمان الشاطبي ت ٦٧٢هـ /١٢٧٣م ، ألف عدة كتب في فنون مختلفة منها كتاب الأربعين المضيئة في الأحاديث النبوية [(٢)] .

وأبو سلمة البياسي الغرناطي محمد بن علي بن محمد بن يحيى الأنصاري الغرناطي (ت ٧٠٣هـ /١٣٠٣م) كان عارفاً بعلم الحديث روى عن الشيخ أبي جعفر بن الزبير وكان ثقة [(٤)] .

وإبراهيم بن عبدا لله بن إبراهيم بن محمد النميري الغرناطي (ت ٧٦٥هـ /١٣٦٣م) اشتغل بعلم الحديث وبلغ فيه الغاية [(٥)] .

ومحمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن حزب ا لله بن سعد الخير البلفيقي (ت ٧٧١هـ /١٣٦٩م) قعد بمجلس الاقراء بمالقة يدرس صحيح مسلم وكان بارعاً مضطلعاً بذلك [(٦)] .

وأبو الحسن علي بن موسى بن عبدا لله اللخمي (ت ٨٤٤هـ /١٤٤٠م) كان له ببسطه أوفر نصيب في التفسير والحديث [(٧)] .

ومن الملاحظ أن علماء غرناطة المشتغلين بعلم الحديث كانوا كثيراً ما يرحلون إلى المشرق

---

(١) المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر ، كتاب المقفى الكبير ، ثمانية أجزاء ، تحقيق محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي ، ط١ ، بيروت ١٤١١هـ ، جـ ١ ص ٥٦١ .

(٢) الغبريني : عنوان الدراية ، ص ٧٩ ، ٨٢ .

(٣) المقريزي : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٩٦ ، ٦٩٧ .

(٤) نفس المصدر ، ج٦ ، ص ٣٤٧ .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ١ ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٦) القلصادي : رحلة القلصادي ، ص ٨٧ .

(٧) نفس المصدر والصفحة .

الإسلامي في طلب الحديث وتتبع أسانيده (١) .

إلا أنه بقي في غرناطة عدد من الأساتذة الذين درسوا كتب الحديث التي كانت متداولة ومشهورة في العالم الإسلامي ، فقد حظي كتاب البخاري باهتمام في مملكة غرناطة يليق به ، فقد ذكر المنتوري أنه سمع كتاب الجامع الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه تصنيف الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري سمعه على الأستاذ أبي سعيد فرج وعلى الأستاذ أبي عبدالله محمد بن سعيد وعلى الأستاذ أبي عبدالله محمد بن عمر (٢) وهؤلاء الأساتذة كانوا ممن تولوا التدريس لهذا العلم في مملكة غرناطة .

وبعد البخاري حظي كتاب المسند الصحيح المختصر تصنيف الإمام أبي الحسين مسلم بن أبي الحجاج بن مسلم القشيري باهتمام يليق به أيضاً وكان يقرأ ويسمع ويجاز به ويشرح ويلخص (٣) .

ومن الكتب التي تناولت صحيح مسلم بالشرح والتي كانت معروفة في غرناطة كتاب " المعلم بعنوان مسلم " للإمام أبي عبدالله محمد بن علي المازري كان هذا الكتاب أيضاً يسمع ويجاز به (٤) .

ودُرس أيضاً كتاب السند لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني وسمع وأجيز به (٥).

وكان بديهياً أن يكون مشهوراً في غرناطة كتاب الأحكام الكبرى من حديث رسول الله ﷺ للقاضي أبي محمد بن عبدالحق بن عبدالرحمن الإشبيلي وقد قرئ الكتاب وسمع وأجيز به (٦) . كل هذا يعكس اهتماماً كبيراً بالسنة في مملكة غرناطة .

---

(١) لقد ورد عدد من أسماء هؤلاء في النقطة الخاصة بالرحلات العلمية وتأثير العلماء الأندلسيين في البلدان التي هاجر إليها ، انظر ص ٢١٤ من الرسالة .

(٢) المنتوري : فهرسة المنتوري ، ص ١٨ أ .

(٣) نفس المصدر ص ١٩ أ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٢أ ، ٢٣ أ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٤ أ .

(٦) نفس المصدر والصفحة .

العلوم الاجتماعية :

من أوائل المؤرخين والجغرافيين الذين عاصروا قيام مملكة بني نصر ولما يعايشوا رسوخ دعائمها ، ولم يستظلوا بظلالها ، بعد جحيم الحرب التي شنها النصارى على مسلمي الأندلس ، والتي شملت معظم أرجاء الوطن الأندلسي بعد معركة العقاب ، علي بن موسى ابن سعيد الذي أرخ في بضعة أسطر لمحمد بن يوسف بن نصر مؤسس الدولة النصرية [١] ، بل إن ابن سعيد كان من المقربين لابن نصر ، إلا إن علاقته به لم تطل ، إذ قرر موسى بن سعيد والد علي مغادرة الأندلس برفقة ولده إلى شمال إفريقيا سنة ٦٣٦هـ /١٢٣٨م [٢] ، وعلى هذا الأساس لا يمكنني أن أعدّ ابن سعيد من مؤرخي مملكة غرناطة ، مع أن ابن سعيد قد قدم معلومات مهمة عن جغرافية الأندلس ، وترجم لعدد كبير من علمائها ، وقد عدّه محمد بن جابر الأنصاري من العلماء الذين عايشوا الدولة الموحدية ، وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة في الأندلس [٣] .

لقد سجل مؤرخو مملكة غرناطة حوادث التأريخ الأندلسي بشكل عام وتأريخ مملكة نصر بشكل خاص ، بالإضافة إلى تراجم للأشخاص والمدن والوقائع . وعلى الرغم من أن معظم هذه المؤلفات قد فقدت نتيجة لكثرة الحوادث السياسية المهمة والقتال مع النصارى ، كما أدت الحرب المستمرة مع النصارى وعدم الاستقرار السياسي للأسرة الحاكمة في غرناطة أدى كل ذلك إلى التأثير على المؤرخين الغرناطيين وأصبح التأريخ لديهم تأريخاً فلسفياً اجتماعياً ، وأصبحت الأحداث للمؤرخ الغرناطي تُدرس كمجموعة متحدة

---

(١) المغرب في حلي المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٠٩ .

(٢) الأنصاري : محمد جابر ، التفاعل الحضاري بين المشرق والمغرب في آثار ابن سعيد ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ١٩٩٢م ص ٩٠ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٣١ ، ٣٢ .

غير منفصلة ، نلمس ذلك مع ابن الخطيب نفسه في تمهيده للمحة البدرية والإحاطة ، حيث عبّر عن الأهمية الكبرى لعلم التاريخ (١) ، وقد ظهر في مؤلفاته الحديث عن الجغرافيا الاقتصادية والتراجم الاجتماعية مستفيداً حتى من علم الآثار فقد كان ينقل حتى الكتابات الموجودة على شواهد القبور ، وأستطيع القول إن ابن الخطيب قد انتهج فكرة كتابة (التأريخ) الشامل لمملكة غرناطة .

إذ لم يكن ابن الخطيب وحده الذي فكّر في تأليف كتاب شامل عن تأريخ مملكة غرناطة أو بعض مدنها كما فعل في مفاخراته بين مالقة وسلا بل كان هناك مؤرخون معاصرون له أو سبقوه في التأليف قد فكروا مثله وذلك مثل ابن خاتمة من المرية الذي كتب عنها وقد ذكره ابن الخطيب في الإحاطة (٢) واسم كتاب ابن خاتمة هو " مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية " وابن خاتمة هو أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري (ت ٧٧٠هـ /١٣٦٨م) . وكان ابن خاتمة من ذوي المكانة العلمية المرموقة التي جمعته وأقران عصره مثل ابن الخطيب ، وأبي البركات بن الحاج البلفيقي وأبي عبدا الله بن شعيب والي قصبة المرية ، وأبي القاسم رضوان ، وابن خاتمة له مؤلفات عدة منها : ديوان شعره الذي دونه بخطه سنة ٧٣٨هـ /١٣٣٧م (٣) و " تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد " وسأتحدث عن هذا المؤلف والمؤلف الذي سبقه في حينه .

أما كتاب " مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية " والذي اطلع عليه المقري ونقل مقتطفات منه في أزهاره (٤) ، وبعد الاطلاع على ما نقله المقري من كتاب مزية المرية

---

(١) الإحاطة ، جـ ١ ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) جـ ١ ، ص ٢٣٩ وما بعدها .

(٣) حققه محمد رضوان الداية تحت عنوان : ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي ، منشورات دار الحكمة ، ١٣٩٩هـ .

(٤) انظر : المقري : أزهار الرياض في أخبار عياض ، خمسة أجزاء ، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة ، الرباط ، ١٣٩٨هـ ، جـ ٢ ص ٢٥٢ .

تبين أنه كان فهرساً لتراجم الكثير من مشاهير وأعلام المرية ومرتبًا حسب الأحرف الهجائية مثل الإحاطة . كما اطلع أيضاً ابن القاضي على مؤلف مزية المرية وأثنى على مؤلفات ابن خاتمة واصفاً إياها بقوله : ((وأجاد فيها كل الإجادة)) [١] ، وقد تمتع ابن خاتمة بمكانة علمية طيبة في مملكة غرناطة وصفه ابن الخطيب بأنه حسنة من حسنات الأندلس [٢] ، تردد على مدينة غرناطة مرات عدة وذلك في مناسبات عديدة شخصية وبطلب من السلطان أبي الحجاج يوسف الأول وذلك بمناسبة إعذار [٣] الأمراء في الدولة النصرية [٤] إذ كانت توجه الدعوة من قبل السلطان إلى كبار رجال الدولة وعلمائها لحضور تلك المناسبة ، وقد توفي ابن خاتمة حوالي سنة ٧٧٠هـ [٥] /١٣٦٨م .

ومن الذين أرخوا لمملكة غرناطة محمد بن محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (ت ٧٥٨هـ /١٣٦٥م) من أهل غرناطة يكنى أبا عبدا لله نشأ في مدينة غرناطة من بيت العلماء والقضاة والخطباء [٦] ، أبوه عبدا لله محمد بن أبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي خطيب الجامع الأعظم بغرناطة [٧] .

والمؤرخ محمد بن جزي هذا لم تطب له الإقامة في غرناطة بعد أن استشهد والده في معركة طريف سنة ٧٤١هـ /١٣٤٠م فهاجر إلى المغرب واستقر بمدينة فاس وهو الذي كتب

---

(١) درة الحجال ، جـ ١ ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) الإحاطة ، جـ ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٣) إعذار تعني الختان .

(٤) ابن الخطيب : المصدر السابق ، ص ٢٤٤ .

(٥) وذلك حسب ما رجحه محقق ديوان ابن خاتمة ص ١٦ .

(٦) ابن الأحمر : أبي الوليد بن إسماعيل ، نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان حققه وقدم له محمد رضوان الداية وسماه أعلام المغرب والأندلس ط٢ ، بيروت ١٤٠٧هـ ، ص ١٦٥ .

(٧) نفس المصدر والصفحة .

بقلمه رحلة أبي عبدا لله محمد اللواتي الطنجي (١) ، وذلك بناء على طلب السلطان المريني أبي عنان الذي لقي ابن جزي في كنفه من جميل الرعاية ما حبب إليه البقاء في بلاطة متولياً الكتابة لديه أثير الرتبة مطلق الجرايه (٢) .

وخلال اقامته بالمغرب لم ينس وطنه مملكة غرناطة ، فشرع في تأليف كتاب عن تأريخ غرناطة وكتب في ذلك عدة أجزاء وذلك سنة خمس وخمسين وسبعمائة شاهد ذلك الكتاب ابن الخطيب الذي رحل إلى مدينة فاس سفيراً من قبل سلطان غرناطة وذلك في سنة ٧٥٥هـ /١٣٥٤م وتقابل مع ابن جزي عند التقائه بالسلطان المريني وكبار رجال الدولة المرينية وعلمائها ومفكريها فقال عن تلك المقابلة ((أخبرني عند لقائه إياي بمدينة فاس في غرض الرسالة عام خمس وخمسين وسبعمائة ، أنه شرع في تأليف تاريخ غرناطة ذاهباً هذا المذهب الذي انتدبت إليه ، ووقفت على أجزاء منه تشهد باضطلاعه ، وقيد بخطه من الأجراء الحديثة والفوائد والأشعار ما يفوت الوصف ، ويفوق الحد)) (٣) .

ولا أعلم أن ابن الخطيب قد تأثر بمنهج ابن جزي أم أن ابن جزي قد تأثر بمنهج ابن الخطيب ، وفيما يبدو لي أن الفكرة لابن الخطيب قد أصبحت واضحة في مشروع تأليفه عن تأريخ غرناطة . على أية حال تشابهت أعمال المؤرخين في تلك الفترة من كون مؤرخي مملكة غرناطة يمتازون بكتابة التأريخ الشامل مع التركيز على عاصمة الإقليم أو مدينة من مدن المملكة الغرناطية كما هو الحال عن غرناطة أو ما سأذكره عن المرية أو في التفاضل بين مدينة أندلسية ، وأخرى مغربية ، هذا وقد فقد كتاب ابن جزي ولم يعثر عليه حتى الآن ،

---

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار في غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار وقف على تهذيبه أحمد العوامري بك ، ومحمد أحمد جاد المولى ، الجزء الأول ، طبع بالمطبعة الأميرية القاهرة ١٩٣٤م ، ص ٤ ، ٥ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٢٥٧ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

وتوفي محمد ابن أحمد بن جزي بمدينة فاس سنة ٧٥٨هـ [١] /١٣٥٦م .

أما محمد بن إبراهيم بن عبدا لله الأنصاري والذي سبق ابن جزي وابن خاتمة فقد كان طبيباً للسلطان محمد الثاني وألف كتاباً سماه " السّر المذاع في تفضيل غرناطة على كثير من البقاع " ، ولا أعلم هل هذا الكتاب قد تناول غرناطة من الناحية التاريخية أو العلمية ؛ ذكر هذا الكتاب ابن الخطيب في الإحاطة دون أن يورد تفاصيل عنه أو عن محتوياته [٢] .

وايضاً ألف أبو البركات بن الحاج البلفيقي كتاباً في التأريخ عن المرية ، وأبو البركات بن الحاج هو محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن خلف السلمي (أبو البركات ابن الحاج البلفيقي) [٣] . نشأ ببلدة المرية وتقلد عدة مناصب قضائية وإدارية في مملكة غرناطة وألف عدة كتب منها " كتاب عن تأريخ المرية " إلا أن هذا الكتاب غير تام كما أشار ابن الخطيب [٤] .

وغير هذا النوع من التأريخ المحلي لمملكة غرناطة فقد أُلِفَتْ مؤلفات تدور حول التأريخ الإسلامي والأندلس بشكل عام ومن بينها تأريخ مملكة غرناطة .

ويعتبر القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) قرن الموسوعات التأريخية في غرناطة بني نصر تمثل ذلك في شخصية (ابن الخطيب) وهو محمد بن عبدا لله بن سعيد بن عبدا لله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني ، تنقلت أسرته ما بين طليطلة ، ثم لوشة ثم غرناطة ، يُكنى أبا عبدا لله ويلقب بلسان الدين [٥] ، وفي مدينة لوشة عرفت أسرته ببني الخطيب [٦] وشهرة هذه الشخصية العلمية التي تربعت على قمة الحياة العلمية في مملكة

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ص ٢٦٥ .

(٢) نفس المصدر جـ ٣ ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٣) نفس المصدر جـ ٢ ، ص ١٤٣ .

(٤) نفس المصدر جـ ٢ ص ١٤٨ .

(٥) نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ٤٣٩ .

(٦) نفس المصدر والجزء ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

غرناطة غنية عن التعريف .

ففي عام ٧٤١هـ / ١٣٤٠م التحق ابن الخطيب بديوان الإنشاء وخلف أستاذه ابن الجياب بعد وفاته في شوال سنة ٧٤٩هـ [١] /١٣٤٨م فأصبح كاتباً بديوان الإنشاء بالإضافة إلى كونه وزيراً للسلطان النصري يوسف الأول ، وغني عن البيان التحدث عن المناصب الإدارية التي تقلدها ابن الخطيب والأعمال التي أسندت إليه ولم يحفظ التأريخ مؤرخاً لهذه الحقبة من الزمن في مملكة غرناطة بمثل مستواه . ومن التاريخ العام الذي كتبه وألفه ابن الخطيب كتابه " رقم الحلل في نظم الدول " وهو ملخص شعري عن التأريخ الإسلامي أضاف عليه شروحا بالنثر ، بدأه بذكر رسول الله ﷺ ، وأعقب ذلك بالحديث عن تأريخ الخلفاء الراشدين والدولة الأموية بالمشرق ، والدولة العباسية ، وبعض الدويلات الإسلامية في المغرب ، والدولة العُبيدية في إفريقيا ومصر، والدولة الأموية بالأندلس وملوك الطوائف ، ودولة المرابطين والموحدين والدولة الحفصية ، دولة بني زيان ودولة بني مرين ، كما أرخ في نهاية الكتاب لملوك بني نصر ولم أطلع على كتاب في التأريخ كمثل هذا الكتاب جمع فيه ابن الخطيب بين الشعر والنثر مما يصرف عن القارئ الملل المعروف في تتبع الحوادث التأريخية [٢] إلا أنه في المجال التأريخي لم يقدم جديداً .

وعلى نفس النمط ولكن بالنثر كتب ابن الخطيب مؤلفه " أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام والذي يعتبر تأريخاً عاماً للدولة الإسلامية ، والقسم الثاني منه يدور حول تأريخ أسبانيا [٣] منذ الفتح الإسلامي وحتى عهد السلطان محمد الخامس إضافة إلى احتوائه على معلومات تأريخية مهمة وكملحق له أضاف إليه تأريخاً عن

---

(١) ابن الخطيب ، جـ ٤ ، ص ٥٨ ، ٤٥٩ .

(٢) المطبعة العمومية سنة ١٣١٦هـ .

(٣) الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، جـ ٢ نشر ليفي بروفنسال ، الطبعة الثانية ١٩٥٦م ، بيروت ، دار المكشوف .

ملوك النصارى من بلاي وحتى هنري الثالث ، وملحق خاص بالبرتغال يقتصر تقريباً على الأسماء ومثله أيضاً عن ملوك أرغون [١] .

ويكمن العمل الإيجابي في هذا العمل في النظرة الشاملة للتأريخ الأسباني والتي يعرضها ولأول مرة مؤرخ مسلم من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي حيث حدث الاحتكاك الحضاري بين مسلمي مملكة غرناطة والنصارى .

ولقد كان الكتاب الأكثر شمولاً وتخصصاً في تأريخ بني نصر ، لابن الخطيب هو "طرفة العصر في دولة بني نصر " في ثلاثة أسفار [٢] .

ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا ، ولابن الخطيب أيضاً اللمحة البدرية في الدولة النصرية والذي أرّخ فيه لسلاطين بني نصر حسب التسلسل الزمني منذ عهد السلطان محمد الأول إلى عصر محمد الخامس . اعتمد ابن الخطيب في تأريخه في هذا المؤلف على مكانته الإدارية في الاطلاع على الوثائق بقصر الحمراء وشواهد القبور في مقبرة السبيكة .

كما كان هناك مؤلفات أخرى لابن الخطيب حيال تأريخ بني نصر ولكنها عالجته عن بعد مثل الإحاطة وأعمال الأعلام . أما الإحاطة فقد ركز ابن الخطيب على تراجم العلماء وذوي الشهرة من أهالي الأندلس إلى العصر الذي يعيش فيه .

ويأتي بعد ابن الخطيب القاضي أبو الحسن النباهي ، في مؤلفه "نزهة البصائر والأبصار " [٣] فيعرض تأريخ غرناطة ، وينتهي عام ٧٨١هـ / ١٣٧٩م وهي تقريباً لنفس فترة ابن الخطيب وفيه معلومات متطابقة مع ما أورده ابن الخطيب لكن هذا المؤلف يمتاز بإيراد بعض النواحي الاجتماعية حول أبناء سلاطين بني نصر والجواري [٤] .

---

(١) الأعلام في من يويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، ص ٣٢٢ - ٣٣٨ .

(٢) ذكره ابن الخطيب في الإحاطة ، جـ ٤ ، ص ٤٦١ .

(٣) مخطوطة بمكتبة الأسكوريال رقم ١٦٥٣ لدي نسخة مصورة منه .

(٤) نزهة البصائر والأبصار ، ص ١٠٠ .

وإن لمؤلفات القضاء وبدون شك أهمية في التاريخ الإسلامي بعامة والتأريخ الأندلسي بصفة خاصة والنباهي من الذين كتبوا عن قضاة الأندلس في مؤلفه " المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا " (١) .

ولكن منذ مطلع القرن التاسع الهجري لم نجد أي مؤلف تأريخي لهذه الفترة وذلك لعدة أسباب منها اشتداد الحرب النصرانية ضد مسلمي مملكة غرناطة والسبب الرئيسي هو الخلافات السياسية التي نشبت بين أبناء الأسرة النصرية وجعلت ابن عاصم في كتابه جنة الرضا يكتب التأريخ وسط معلومات أدبية متنوعة يكتنفها الغموض (٢) ، وأستطيع القول إنه منذ وفاة السلطان محمد الخامس إلى عصر السلطان أبي الحسن علي بن سعد لم يصل إلينا أي مؤلف تأريخي متخصص في تأريخ مملكة غرناطة إلا ما كتبه مؤلف مجهول الاسم وأسماه نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر (٣) . وهذا المؤلف عاش وعايش الفترة الأخيرة وكان يكتب الأحداث بدقة متناهية فكان في ذلك أفضل مؤلف تأريخي يمكن أن يعتمد عليه في معرفة الأحداث الأخيرة التي أدت إلى سقوط مملكة غرناطة . إلا أنه مما يؤخذ عليه اختصار الأحداث ، والإعراض عن كثير منها لا سيما فيما يختص بأسباب الخلاف بين أبناء الأسرة النصرية .

ومن الملاحظ أن كثيراً من المؤرخين بمملكة غرناطة عرضوا لعلم الجغرافيا ضمن ما كتبوه في التأريخ ، فالذين كتبوا عن المدن الغرناطية بعامة وغرناطة بخاصة تناولوا النواحي الجغرافية المتصلة بالمدن التي كتبوا عنها ، وكتب ابن الخطيب حافلة بالمعلومات الجغرافية المهمة مثل كتابه : معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، وفي هذا الكتاب عرض

---

(١) تحقيق لجنة التراث العربي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط٥ ، ١٤٠٣هـ .

(٢) لقد استطاع د. سعد البشري : كشف ذلك الغموض وذلك فيما كتبه عن الأهمية التأريخية لكتاب جنة الرضا بمجلة عالم الكتب مج ١٧ ، الجماديان ١٤١٧هـ .

(٣) تحقيق الفريد البستاني ، مطبعة الفنون المصورة بوسكا العرائش (المغرب) ١٩٤٠م .

للخصائص الجغرافية لعدد من المدن الغرناطية وما تمتاز به كل مدينة من نواحي زراعية وظروف بيئية ، وكذا مفاخراته بين مالقة وسلا ومشاهداته في بلاد المغرب والأندلس والتي قدم فيها بعض الأوصاف الجغرافية بالإضافة إلى المعلومات القيّمة التي قدمها في نفاضة الجراب وفي المقدمة التي كتبها في إحاطته ولمحته عن جغرافية مملكة غرناطة بالإضافة إلى ما كتبه غيره من المؤرخين والجغرافيين والرحالة أمثال خالد بن عيسى البلوي في كتابه تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، وأبي الحسن علي القلصادي في رحلته إذ عرض لبعض المدن الغرناطية .

اللغة العربية وآدابها :

بالرغم من مجاورة مملكة غرناطة للنصارى من كل جانب فإن علوم اللغة العربية فيها لم تتأثر ، وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى ذلك مؤكداً أن جميع العلوم قد تأثرت بـالغزو النصراني في الأندلس بعد موقعة العِقاب ما عدا علوم اللغة العربيـة لم تتـأثر بـالأحداث الـتي تأثرت بها بقية العلوم [1] ، ومما يدل على مصداقية قولـه المؤلفـات الغرناطيـة في مجـال اللغـة العربيـة وعلومهـا ، ولقـد ظهـر في غرناطـة بـني نصـر أعظـم علمـاء اللغـة العربيـة في العـالم الإسلامي في عصرهما وما بعـده في هـذا الميـدان وليـس أدّل علـى ذلـك مـن نبـوغ العـالمين الغرناطيين اللذين لا زال أثرهما حياً إلى يومنا هذا وهما " أبو مالك " و " وأبـو حيـان " [2] ولقـد استمرت نهضة اللغة العربية وعلومها في مملكة غرناطة حتـى الأيـام الأخـيرة لحكومـة بني نصر ، فهذا ابن الأزرق الذي الذي عـاش في أواخـر عهـد مملكـة غرناطـة [3] قـد ألـف كتابه الضخم في اللغة العربية مبيناً أهميتها ومكانتها ، وهذا الكتاب الذي لا يزال مخطوطـاً أسماه " روضة الأعلام في التعريف بمكانة اللغة العربية في الإسلام " [4] .
ومن بين فروع اللغة العربية المتعددة أذكر :

ـ الشعر :

سار سلاطين بني نصر على نهج من سبقهم من حكام الأندلس في تشجيعهم للشـعر والشعراء ، فهذا ابن سعيد كان من أوائل شـعراء الأندلـس الذيـن امتدحـوا مؤسـس مملكـة غرناطة محمد بن يوسف بن نصر فقال في قصيدة مطلعها :

---

(١) المقدمة ، ص ٤٧٩ .
(٢) ستأتي ترجمته فانظر ص ١٩٣من الرسالة .
(٣) عن ترجمة ابن الأزرق انظر ص ١٣٢من الرسالة .
(٤) يوجد لدي نسخة مصورة من هذا المخطوط .

لمثلك تَنْقَاد الجيوشُ الجحافلُ

وتذخر أبناء القنا والقنابلُ (١)

ورفع أبو إسحاق إبراهيم بن عبديس الأندلسي (٥٦٢ - ٦٥٩هـ / ١١٦٦- ١٢٦٠م) قصيدة إلى السلطان النصري محمد بن يوسف يستنهض فيها الهمم لإنقاذ مدينة جيان جاء فيها :

أمير المسلمين ألا تعـود   لأندلس بها مرض شديد

فجيان تناديك ابن نصر   ألا مال يعود ألا جنـــود (٢)

ويمكن القـول إنـه منـذ عهـد السـلطان النصـري محمـد الأول قـد بـدأت مملكـة غرناطـة في استقطاب الشعراء وتشجيعهم وإدخال الكثير منهم إلى بلاط الحمـراء ، وفي بـلاط الحمـراء عاش العديد من الشعراء الذين تميزت بهم الحقبة الأخيرة مـن الحيـاة الأدبيـة في الأندلـس ، وكان لهؤلاء الشعراء أثر كبير في التأثير على مجريات الأمور السياسية والاجتماعية في مملكـة غرناطة ، كما أن للشعر في مملكة غرناطـة أهميـة تأريخيـة خاصـة ، وذلـك لأنـه كـان يقـوم بإيضاح فترات تأريخية غامضة في وقت غاب فيه المؤرخـون عـن السـاحة الغرناطيـة ، فـأرخ هؤلاء الشعراء لمواقـع حربيـة مـع النصـارى ، كمـا أرّخـوا ضمنـاً عـن طريـق رثـائهم لـمدن غرناطية وقعت ضحية العدوان النصراني ، وفي إشادتهم بمن تولوا الدفاع عن أبنـاء دينهـم الإسلامي كأعمال سلاطين بني نصر التي لم يذكر التاريخ شيئاً عنها ؛ إلا من خـلال مـا ورد في شعر شعراء غرناطة .

كما أن هنـاك عـدة عوامــل ساعـدت على كثـرة الشعراء الذين عاشوا في مملكة غرناطة ،

---

(١) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٠٩ .

(٢) زمامه : عبدالقادر نص أندلسي لم ينشر ، مجلة المناهل ، العدد السادس والعشـرين مـن السـنة العاشرة ، جمادى الأولى ١٤٠٣هـ ، وزارة الشؤون الثقافية ، الرباط المغرب ص ٢٩١ .

وليس أدل على ذلك من إحاطة ابن الخطيب وكتيبته الكامنة [١] والتي من خلالها يبرز الأعداد الكبيرة ممن ترجم لهم مؤلف هذين المصدرين ، وكذا ممن ترجم لهم أبو الوليد بن الأحمر ، في نثير الجمان .

ولو أردنا تتبع كل هؤلاء ، بالإضافة إلى شعراء القرن التاسع الهجري في العصر الغرناطي ، لضاق المجال في هذه الرسالة ، عن تتبع كل هؤلاء [٢] .

ولكني سوف أذكر أبرزهم في هذا الميدان ، ومنهم بعض سلاطين بني نصر ، فلقد سبق أن أشرت في بداية حديثي عن النهضة العلمية في مملكة غرناطة إلى أن السلطان النصري محمداً الثاني ، ومحمداً الثالث كانا من الأدباء وممن يقرضون الشعر ، وتوالى ذلك في سلالة بني نصر ، وقد ألف في ذلك أبو الوليد بن الأحمر كتاباً أسماه " فريد العصر في شعر بني نصر " [٣] ، فمن بين الشعراء من أسرة بني نصر السلطان محمد بن إسماعيل [٤] وكذا السلطان إسماعيل بن فرج بن إسماعيل [٥] ، وكان الأمير محمد بن يوسف أخو الشاعر النصري أبي الوليد إسماعيل يقول الشعر أيضاً ، إلا أن أشهر شعراء أسرة بني نصر في القرن الثامن هو الأمير أبو الوليد إسماعيل بن يوسف والمعروف بأبي الوليد بن الأحمر والذي عاش في المغرب الأقصى ، وألّف كتاباً في الشعر أسماه " نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان " ، أورد فيه عدداً من القصائد لعدد من الشعراء في أغراض متعددة [٦] .

---

(١) الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعر المائة الثامنة ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط ١٩٨٣م .

(٢) للمزيد من معرفة ذلك ، انظر مؤلفات ابن الخطيب ، مثل الإحاطة ، والكتيبة الكامنة حيث ترد أسماء الكثير من الشعراء ونماذج من أشعارهم .

(٣) أبو الوليد بن الأحمر : نثر الجمان ، ص ٧٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٨٠ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٨٢ .

(٦) سبق التعريف بهذا الكتاب .

ومع ذلك فيمكن القول إن الشعراء من بني نصر لم يكن الشعر يمثل هدفاً لهم وإنما ثقافة وأدباً ، إلى أن جاء السلطان النصري يوسف الثالث ، الذي ساهم في معظم أغراض الشعر ، فكان ملكاً وشاعراً أعطى للشعر مكانة خاصة في اهتماماته ونشاطاته ويوسف الثالث هو أبو الحجاج يوسف بن أبي الحجاج يوسف بن أبي عبدا لله محمد الغني با لله [١] .

ويعتبر هذا السلطان من أبرز سلاطين بني نصر بعد محمد الفقيه في العلوم والآداب ، فقد نشأ في ظل جده الغني با لله الذي بلغت في عهده غرناطة قمة الازدهار الحضاري ، وقد تعلم على أيدي نخبة من العلماء الذين كانوا نجوماً في العلم في القرن التاسع الهجري [٢] ، ودأب يوسف الثالث منذ نعومة أظفاره على قراءة الشعر وحفظه ، وكان متأثراً بالشاعر ابن زمرك وهو الذي جمع شعر ابن زمرك في ديوان أسماه "البقية والمدرك من شعر ابن زمرك" نقل منه المقري الكثير من المعلومات التأريخية والقصائد الشعرية [٣] .

وتكمن أهمية شعر السلطان يوسف الثالث بأنه من المصادر المهمة في القرن التاسع التي وصلت كاملة في ديوان عُرف " بديوان يوسف الثالث " [٤] وديوان كاتبه ابن فركون [٥] ، ومظهر النور الباصر [٦] ، وكشفت تلك الدواوين جوانب من الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمملكة غرناطة .

أما الشعراء من عامة الشعب الغرناطي فقد عاش عدد منهم في بلاط بني نصر

---

(١) انظر التمهيد من الرسالة ص ٤٢ .

(٢) أمثال أبي محمد عبدا لله بن جزي ، وأبي عبدا لله الشريشي ، وأبي عبدا لله محمد بن علاق وغيرهم ، انظر المقري : نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ١٦٦ نقلاً عن يوسف الثالث .

(٣) المقري : أزهار الرياض ، جـ ٢ ، ص٢١ .

(٤) سبق التعريف بطبعة هذا الديوان .

(٥) ابن فركون : ديوان ابن فركون ، تقديم وتحقيق محمد بن شريفة ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .

(٦) سبق التعريف بطبعة هذا الديوان .

فمنهم من كان يعمل موظفاً في البلاط النصري ، أو من كان منهم متجولاً في مملكة غرناطة أو بر العدوة ـ أو كان من عامة الناس .

ولقد واكب الشعر والشعراء في مملكة غرناطة الأحداث والوقائع التاريخية السياسية والاجتماعية ، وقد أحسن هذا الشعر تصوير حياة الناس والبيئة التي يعيشون فيها وما أودع الله سبحانه وتعالى مملكة غرناطة من جمال الطبيعة والأنهار والبساتين والأدواح الملتفة والأغصان المتمايلة وجنات الدمع ، مما يسترعي ويستلفت الانتباه إلى التفكير في آيات الله التي تدل على إبداعه في كل شيء في الوجود فترك الشاعر الغرناطي لوحة صادقة ومعبّرة لتلك المظاهر الجمالية ولوحة أخرى تصف الحرب مع النصارى ومحاولة تخريب تلك اللوحة وقتل الإنسان الغرناطي المسلم الذي يعيش في تلك الجنات ، ولقد تجاوز المسلمون في مملكة غرناطة مرحلة الانهزام والفرار من بلادهم ، وظهر في مملكة غرناطة مرحلة جديدة من مراحل الشعر تدعو إلى الثبات والتصدي للعدوان النصراني واستدعاء مسلمي شمال إفريقيا للمشاركة في الجهاد ، ويعبر عن ذلك شعر عمر بن المرابط الذي قال على لسان السلطان محمد الفقيه قصيدة مطلعها :

هل من معين في الهدا أو منجد   من متهم في الأرض أو من منجد (١)

ومن ناحية أخرى أثار الشاعر ابن الحكيم الرندي (ت٧٠٨هـ) قرائح الشعراء عندما نظم قصيدته التي مطلعها :

يا بارقاً بأعلى الرَّقمتين بدا   لقد حَكَيْتَ ولكن فاتك السَّبَبُ (٢)

وبعد مرور حوالي قرن من الزمان كان صدى ذلك البيت من الشعر يتردد في غرناطة ، فقد قال السلطان يوسف الثالث :

يا بارقاً بأعلى الرقمتين بـــــدا   للحظ في سُدفَةِ الظلما له هـــب

كم رُمت باللمع أن تحكي الثغور سناً   (لقد حكيتَ ولكن فاتك السبب) (٣)

---

(١) ابن أبي زرع : الذخيرة ، ص ١٦٣ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٤٤٩ .

(٣) يوسف الثالث : ديوان يوسف الثالث ، ص ٥ .

ومن أبرز شعراء مملكة غرناطة الشاعر ... ابن الجياب كان بارعاً في نظم الشعر فوصف الكثير من مظاهر الحياة في عصره ومن ذلك قوله في إحدى المنشآت المعمارية بغرناطة :

ما مثل هذا المصنع الأعلى نشا   فحديثه في كل صقع فشـــا
لله من برج إلى الأثير ابتهـــى   سام وحام فأحذر أن يبطشـــا
زينت به الحمراء حتى أنهـــا   تزهي بحسن حلاه زهو من انتشى [١]

ولقد تالق الشعر في مملكة غرناطة في عهد السلطان يوسف الأول وابنه محمد الخامس حتى إن القضاة أنفسهم لم يأنفوا من التعبير عن أفكارهم شعراً وذلك مثل قاضي الجماعة أبي البركات بن الحجاج البلفيقي الذي ضم مجلسه مناقشات شعرية في أبيات استنصر بها أهل الأندلس فألف في ذلك مصنفاً صغيراً أسماه " خطرة المجلس في كلمة وقعت في شعر استنصر به أهل الأندلس " [٢] . وإن كان ديوانه الشعري الذي جمع فيه أشعاره التي قالها وأسماه " بالعذب والأجاج في شعر أبي البركات بن الحاج " قد فقد اليوم فإن ابن الخطيب والنباهي قد نقلا العديد من أبيات الشيخ أبي البركات الشعرية [٣] ، واشتهر هذا الديوان في مملكة غرناطة واختصره القاضي الشريف الحسني في حياة أبي البركات وأسماه " اللؤلؤ والمرجان اللذان من العذب والأجاج يستخرجان " [٤] .

وهذا يدل على كثرة الدواوين والشعراء في مملكة غرناطة وحسبي أن أذكر من الدواوين ديوان ابن الخطيب الذي سماه "ديوان الصيب الجهام والماضي والكهام" [٥] ، وكذا

---

(١) انظر ديوان ابن الجياب ، ص ٢١٩ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ص ١٤٨ .

(٣) نفس المصدر والجزء، ص ١٥١ وما بعدها، والنباهي، تأريخ قضاة الأندلس، ص١٦٤-١٦٥.

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٨ .

(٥) وهو ديوان ضخم يقع في أكثر من ستمائة صفحة ، دراسة وتحقيق د. محمد الشريف قاهر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط ١٩٧٣م .

ما جمع ونشـر مـن أشعـار تحـت عنوان " ديوان لسان الدين بن الخطيب " [١] ، وكتابـه " السحر والشعر " وكان كتابه الموسوم باسم " الكتيبة الكامنة في من لقينـاه بـالأندلس مـن شعراء المائة الثامنة " [٢] يحتوي على مائة وثلاث ترجمات من تراجم الشعراء والذين عاشـوا في عهد ابن الخطيب .

ولقد صورت القصائد الشعرية الـتي تمثـل رقـة وعذوبـة مظـاهر الـترف في مملكـة غرناطـة ، ويرجع الفضل في نظمها للشاعر من حي البيازين محمد بن يوسف الصريحي والمعروف بـابن زمرك (ت ٧٩٦هـ /١٣٩٣م) الذي نقشـت أبياتـه في جـدران قصـر الحمـراء ووصفـت روعة البناء وجمال التصميم وفن المعمار ومن ذلك قوله :

أنا الروض قد أصبحتُ بالحسن حاليا
تأمل جمالى تستفد شرح حاليـــــا
أباهي من المولى الإمام محمــــــداً
بأكرم من يأتي ومن كـــان ماضيا
و لله مبناه الجميــــل فإنــــــه
يفوق على حكم السعود المبانيـــا
فكم فيه للأبصار من متنـــــزه
تجد به نفس الحليم الأمانيـــــا
تبيت له خمس الثريا معيـــــذة
ويصبح معتلُ النواسم راقيـــا [٣]

---

(١) حققه وقـدم لـه محمـد مفتـاح ، جزءان ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ، ودار الثقافـة للنشـر والتوزيع ، الدار البيضاء .

(٢) تحقيق إحسان عباس ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ط٣ ، ١٩٨٣م .

(٣) غومس : إميلو غرسيه ، أشعار عربيـة على جـدران ونـافورات الحمـراء ، منشـورات المعهـد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ١٩٨٥م ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

إن هذه المصادر الشعرية تستمد قيمتها ، من أنها لم تكن شعراً خالصاً بعيداً عن البيئة والواقع التأريخي ، وإنما كانت ذات صلة وشيجة ببيئتها وبالفترة التاريخية التي تعالجها ، وبالتالي فإنه لا يمكن إغفالها ، بل أنني اعتبرها من جملة المصادر التي تخدم هذا البحث ، وسوف أعتمد عليها بدرجة ما - في حدود المنهج التأريخي وهناك شاعر لا نستطيع أن نعبر هذا المكان دون أن نشير إليه ، لأنه كان أفضل من صور واقع التدهور - سياسياً واجتماعياً واقتصادياً في غرناطة ، وهو الشاعر عبدالكريم القيسي الذي قدم مئات الصفحات الحافلة بالقصائد التي تعتبر تأريخاً نابضاً بالحياة للمجتمع الغرناطي ، وهو يعاني في القرن التاسع مظاهر الأفول [١] .

---

(١) عبدالكريم القيسي : ديوان عبدالكريم القيسي الأندلسي ، تحقيق جمعه شيخه ، محمد الهادي الطرابلسي ، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ، بيت الحكمة ، قرطاج ، ١٩٨٨م .

النثر الغرناطي :

وبالنسبة للنثر في غرناطة ، فإننا نلاحظ أنه يغلب على أسلوبه التكرار في محاولة التفنن في العبارة ، والكلمات الغريبة التي قد تمليها ضرورات السجع ، تماما كما نجده في أسلوب ابن الخطيب .

وهذا النوع من الأدب في غرناطة تولاه أبرز أدباء الأندلس الذين كانوا يجدون طريقهم سالكاً إلى مقامات رفيعة في الدولة ومنها ديوان الإنشاء الذي تولاه عدد من مشاهير أهل العلم والأدب وفيه دبجوا الكثير من النماذج الأدبية الرفيعة متمثلة في رسائلهم ومكاتباتهم التي تولوا كتابتها بين سلاطين غرناطة وملوك عصرهم مما كان له دوره في إثراء النثر الغرناطي .

وتعد كتب ابن الخطيب وعلى رأسها " كناسة الدكان " و " ريحانة الكتاب " ، وكتاب "ابن عاصم " حدائق الأزاهر " [(١)] ، خُير دليل على النهضة الأدبية النثرية في غرناطة ؛ ولم يكن الأدب شعراً ونثراً وحدهما مناط الاهتمام في نطاق علوم اللغة العربية ، بل كان لعلوم اللغة حظها من الاهتمام وكانت كتب النحو والصرف على رأس هذه الكتب .

ومن الأساتذة الغرناطيين الذين درسوا علوم اللغة العربية :

- الشيخ أبو عمرو بن منظور توفي في حدود سنة ٨٨٧هـ /١٤٨١م كان يدرس في غرناطة كتاب الجمل لأبي القاسم الزجاجي [(٢)] .

---

(١) ابن عاصم الغرناطي : حدائق الأزاهر ، حققه وقدم له أبو همام عبداللطيف ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٤١٣هـ .
أما كتب ابن الخطيب فقد تم توثيقها في الفصل الأول من الرسالة .

(٢) أبو جعفر البلوي : ثبت أبي جعفر ، ص ١٥٧ .

- والشيخ أبو الحسن على بن أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالرحمن بن داود البلوي ت (٨٩٨هـ) كان يدرس كتاب الجمل في النحو لأبي القاسم الزجاجي (١) .
ومحمد بن أحمد بن محمد السلمي الجعداله ت (٨٩٧هـ /١٤٩١م) كان يدرس بالمدرسة النصرية كتاب الإيضاح لأبي علي الفاسي (٢) .

وغير هؤلاء كثير لا يتسع المجال لذكرهم .

---

(١) أبو جعفر البلوي : ثبت أبي جعفر ، ص ١٨١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٩٧ .

العلوم :

ورثت غرناطة تراثاً أندلسياً كثيراً آل إليها بعد أن طوحت بالمدن الأندلسية الطوائح ، وورثت إلى جانبه تراثاً شرقياً إسلامياً ، جلبه إليها علماء ومفكرون رحلوا إليها بتشجيع من أمرائها ، أو طمعاً في مواقع وظيفية أو ظروف مالية أفضل .. وكما ازدهر الأدب شعراً ونثراً وكما ازدهرت العلوم الإسلامية والاجتماعية ، بصفة عامة ، ازدهرت كثير من العلوم التطبيقية ، وعلى رأسها " الطب " الذي احتل مكانة رفيعة في الحياة الغرناطية ولقي تشجيعاً كبيراً من أجهزة الدولة في غرناطة .

ومن المعروف أن كثيراً من علماء الطب والرياضيات وعلوم الأوائل بصفة عامة تألقوا في المغرب والأندلس في عصور المرابطين والموحدين ، فكان لتراث هؤلاء تأثيره على الازدهار العلمي في غرناطة ، فلقيت الرياضيات بفروعها ، من حساب وهندسة وجبر نصيبها من الاهتمام ، كما لقيت علوم الطبيعة والكيمياء والصيدلة والفلك نصيباً من الاهتمام . ولكن تلك العلوم كانت تحت رقابة سلاطين بني نصر وذلك عندما تخرج عن نطاق الشريعة الإسلامية ، فمن جملة ذلك أن السلطان محمد بن يوسف بن نصر مؤسس الدولة النصرية قد وصل إلى سمعه ان ابنه يوسف قد مال إلى تعلّم التنجيم وأفرط في الاستغراق في ذلك ، فأنكر على ابنه ذلك وداهم منزله فجأة ودخل المجلس وإذا فيه مجلدات كثيرة فقال لابنه ما هذه يا يوسف ؟ فقال ((ستراً لغرضه المتوقع فيه نكير أبيه فقال : يا مولاي هي كتب أدب)) (١) ، فقال له السلطان والده وقد رضي منه بذلك القول يا ولدي ما أخذناها (يعني السلطة) ، إلا بقلة الأدب)) (٢) ، فكانت منه توريةً أعجبت ابن الخطيب .

ومن بين هؤلاء العلماء أحمد بن حسن بن باحة الأسلمي (ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) يُكنى أبا جعفر وكان يعمل مشرفاً على التوقيت بالمسجد الأعظم بغرناطة بمعنى أنه يشغل وظيفة

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٤ ، ص ٣٥٤ .

(٢) انظر نفس المصدر والجزء والصفحة .

مؤقت [١] ، وكان مشهوراً في غرناطة بمعرفته لـلآلات الفلكيـة ينحـت منهـا بيـده ذخـائر ، يقف عندها النظر والخبر وبلغ في ذلك شأواً كبيراً ونال غاية بعيدة حتى فاق في ذلك كثـيراً ممن سبقه من الأعلام [٢] في هذا المجال ، وزينت آلاته بالألوان المختلفـة الـتي قـال فيهـا ابـن الخطيب أنها من الحماريات والصفاريات وقـد لقيـت آلاتـه الفلكيـة تلـك رواجـاً في مملكـة غرناطة وارتفعت أسعارها وتغالى الناس في أثمانهـا [٣] ، وقـد تلقـى تلـك العلـوم علـى يـدي والده شيخ الجماعة في هذا حسين بـن محمـد بـن باصـه (٧١٦هـ /١٣١٦م) ، فقـد كـان إماماً في هذا العلم بالإضافة إلى كونه فقيهاً ملتزم بالسنة وكان علماً في علم الحساب والهيئة وكان يعلم الطلاب ذلك العلم فأخذ عنه جملة من العلماء والنبهاء وكـان بارعـاً في اختـراع الآلات الشعاعية [٤] .

ومن العلماء الذين برعوا في هذا المجال وغيره من العلـوم يحيـى بـن أحمـد بـن هذيـل التجيبي يُكنى أبا زكريا وهو شيخ من شيوخ وأساتذة ابـن الخطيـب وصفـه بأنـه آخـر حملـة الفنون العقلية بالأندلس وخاتمة العلماء بها من طب وهندسة وحساب [٥] .

وقد اتصفت محاضرات ابن هذيل العلمية بالسهولة وتسهيل الإلقاء العلمي بمـا يحفـظ المـادة العلميـة دون أن تفقـد المـادة العلميـة أصالتهـا ، وكـان يقـوم بتدريـس العلـوم في المدرسـة اليوسفية بغرناطة [٦] .

وكان قد تلقى بعضا من علم الحساب عن أبي الحسن بن راشد والهندسة والأصول،

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص ٢٠٤ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، والصفحة .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٦٨ .

(٥) نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٣٩٠ .

(٦) نفس المصدر والجزء والصفحة .

وكثيرًا من عمليات الحساب والجبر على الأستاذ أبي عبدا لله بن الرقام ولازمه كثيراً [١] .
ومن علماء الحساب أيضاً أحمد بن محمد بن يوسف الأنصاري من أهل غرناطة ، يُكنى أبا جعفر ويعرف بالحبالي [٢] ، له معرفة بعلم المساحة والحساب والأبراج الفلكية وتدرب في أحكام النجوم ، أخذ تلك العلوم عن الشيخ أبي عبدا لله الفخار المعروف بأبي خزيمة أحد البارعين في هذا المجال وقرأ الطب على يد الشيخ أبي زكريا بن هذيل [٣] .
ولقد كان سلاطين بني نصر بالمرصاد لبعض المشتغلين بعلوم الأوائل إذا ما انحرفوا لدراسة علوم كالتنجيم ، فمن ذلك أن السلطان الغني با لله أوقع بهذا العالم أحمد بن محمد بن يوسف . نكيراً كثيراً ، وضربه بالسياط وأجلاه إلى تونس في أواخر عام ثلاثة وستين وسبعمائة على إثر اشتغاله بالكهانة والتنجيم ، وقد أورد ابن الخطيب تفاصيل ذلك [٤] .
وكان للطب من بين تلك العلوم القدح المعلى ، يسانده في ذلك علم الصيدلة الذي يعتبر أبو محمد عبدا لله بن أحمد بن البيطار ت (٦٤٦هـ /١٢٤٨م) الشهير بالعشاب المالقي من أوائل العلماء في مملكة غرناطة الذين اشتهروا في هذا المجال والذين تلقوا تعليمهم على يد عالم النبات أحمد ابن محمد بن أبي الخليل مفرج الأموي ت ٦٣٧هـ /١٢٣٩م [٥] .
وقد كان من بين مؤلفات ابن البيطار كتابه الشهير "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" [٦] ، وفي هذا الكتاب جمع ابن البيطار المالقي خلاصة مشاهداته وتجاربه عن النباتات الطبية في الأندلس والمغرب بالإضافة إلى الأهمية اللغوية التي ضمت أسماء أعشاب باللغة العربية

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٤ ، ص ٣٩٠ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٠٥ .
(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٤) انظر نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
(٥) ابن الخطيب ، جـ ١ ، ص ٢١٤ .
(٦) حققه ، محمد العربي الخطابي ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، (د.ت) .

والبربرية [١] .

أما عبدا الله بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين الثقفي فإننا نستطيع أن نطلق عليه الطبيب العسكري الذي اتصف بالشجاعة والإقدام يشارك في الحرب ضد النصارى فارساً وراجلاً وله في ذلك مواقف مشهودة [٢] ، فقد كان طبيباً ماهراً توفي بغرناطة سنة ٦٨٣هـ /١٢٨٤م .

ويعتبر أحمد بن محمد الكرني من أهالي غرناطة كبير الأطباء في غرناطة أو شيخ الأطباء في غرناطة [٣] ، كما أطلق عليه ذلك ابن الخطيب [٤] .

وقد كان يعمل طبيباً خاصاً بقصر الحمراء بالإضافة إلى قيامه بتدريس علوم الطب وكان موفقاً في العلاج قال ابن الخطيب إنه كان حيّاً سنة ٦٩٠هـ [٥] / ١٢٩١م .

ومحمد بن محمد بن ميمون الخزرجي كان يكسب رزقه في غرناطة بمزاولة الطب ومعالجة الناس وكان له معرفة بطرق العلاج ، توفي في عام ٧٠٩هـ [٦] / ١٣٠٩م .

ومن الأطباء الذين اشتهروا في مملكة غرناطة وزاولوا مهنة الطب بقصر الحمراء عيسى بن محمد بن عيسى بن عمر بن سعادة الأموي ، يُكنى أبا موسى ، قدم إلى غرناطة من لوشة وعين طبيباً بالدار السلطانية [٧] ، وقام بتدريس الطب في غرناطة وألّف في ذلك كتاباً كبيراً متعدد الأسفار سماه كتاب " القفل والمفتاح في علاج الجسوم والأرواح " ، ذكر ابن الخطيب أن هذا الكتاب تضمن كثيرًا من العلم الطبي وما يتعلق به ، وتوفي

---

(١) ابن البيطار ، تنقيح الجامع ، ص ١٦ .

(٢) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٤٢٠ .

(٣) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠٧ .

(٦) نفس المصدر ، جـ ٣ ، ص ١٩٦ .

(٧) نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ٢٣٦ .

عيسى بن محمد سنة ٧٢٨هـ [١] / ١٣٢٧م .

ومن الأطباء الذين عملوا وزاولوا مهنة الطب أيضاً محمد بن إبراهيم بن عبدا لله بن أحمد بن محمد بن يوسف بن روبيل الأنصاري طبيب الحمراء وجمع ما بين علم الطب والصيدلة ، وقد كان له معرفة بالعشب وتمييز خصائص النباتات [٢] .

أما الطبيب غالب بن علي بن محمد اللخمي الشقوري من أهل غرناطة ، ويُكنى أباتمام فقد زاول الطب على طريقة أهل المشرق إذ رحل في سن الشباب إلى المشرق ودرس الطب بالمارستان في القاهرة ، وحذق العلاج على طريقة المشارقة [٣] مما أكسبه خبرة في الطب جمعت بين الخبرة المشرقية والأندلسية والمغربية وزاول العلاج في مدينة بجاية التونسية ثم انتقل إلى المغرب الأقصى حيث عمل طبيباً لدى سلاطين بني مرين بالإضافة إلى توليه الحسبة بمدينة فاس [٤] .

ومن بين أطباء مملكة غرناطة الذين لم يكونوا متخصصين في الطب فقط يحيى بن أحمد بن هذيل الذي ألمحنا إليه ، اختص يحيى بن هذيل بمعالجة سلاطين بني نصر وتدريس الطب بالمدرسة الغرناطية وألّف كتاباً في الطب سماه بالتذكرة في الطب [٥] توفي ٧٥٣هـ [٦] /١٣٥٢م وكان من تلاميذ يحيى بن هذيل ، أبو عبدا لله محمد بن سعيد السلماني المعروف بلسان الدين بن الخطيب الذي برز في هذا المجال وألف عدة كتب ورسائل في الطب منها مقنعة السائل عن المرض الهائل .

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٤ ص ٢٣٦ .

(٢) نفس المصدر ، جـ ٣ ، ص ١٦٢ .

(٣) نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحات .

(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٩١ .

(٦) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٠١ .

" المسائل الطبية "

" الرجز في عمل التزياق "

" اليوسفي في الطب "

" عمل من طب لمن حب "

" كتاب الوصول لحفظ الصحة في الفصول " (١)

ولقد ساهم بناء المارستان في غرناطة في عهد السلطان محمد الخامس في ازدهار الحياة الطبية في مملكة غرناطة وكذا الأموال (التي كان يقدمها سلاطين بني نصر للأطباء كان لها دور في التقدم الكبير لهذا العلم الذي لا زال يحتاج إلى دراسة وافية أفضل مما قدم حتى الآن) .

(١) لمن أراد الاستزاده عن ذلك فليرجع إلى كتاب الطب والأطباء في الأندلس ، تأليف وتحقيق محمد العربي الخطابي ، جزءان ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م ، وعن ابن الخطيب ، انظر الجزء الثاني من الكتاب المذكور ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

ب ـ التأثيرات العلمية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية :

ـ الرحلات العلمية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية :

يتضح من العرض الذي قدمته عن مظاهر الحياة العلمية في مملكة غرناطة أن الحياة العلمية في مملكة غرناطة قد وصلت إلى درجة عالية في الدراسات الشرعية واللغوية والاجتماعية والتطبيقية على تفاوت بينها .

وقد ذكر ابن خلدون أن من بين أسباب تفوق طلاب العلم في الأندلس ((فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية ، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها)) [١] وهذا ما طبقه والتزم به طلاب العلم في مملكة غرناطة ، فقد كانوا كثيراً ما يرحلون إلى المشرق والمغرب إما للتزود بالعلوم واللقاء بالعلماء هناك ونشر علومهم بهدف صقل مواهبهم وسبر غور العلوم الموجودة عند غيرهم ، والحصول على إجازات من علماء البلدان الإسلامية ، أو يمنحوهم إجازات لطلاب العلم في تلك البلدان .

وقد تكون رحلاتهم هناك لأسباب أخرى تعرضت لشرحها في الفصلين الثالث والرابع من الرسالة .

ولكثرة سفرهم إلى المشرق فقد تركوا مكاناً أصبح معروفاً عند مغادرتهم أراضي غرناطة سمي بحوز الوداع [٢] ، أو " رابطة الوداع " حيث كان الأهالي يودعون أصدقاءهم وأقرباءهم هناك ... وفي ذلك الموقف موقف الوداع يقول البلوي ((وكان لذلك الوداع موقف مشهور مشهود ، نثر منه من جمان الدمع لؤلؤ منظوم منظور وفيه قلت :

موقف للفراق أرخص فيـه   كل در لنا وكل عقيـق
بجموع كوجدتا في اجتماع   ودموع كالشمل في التفريق

---

(١) المقدمة : ص ٤٧٨ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ٣٧٤ ، وانظر ابن الخطيب مشاهداته ص ٩١ حاشية رقم (٢) .

..... ما خلق ا لله عذاباً أشد من وقفة الوداع ، أعالج السياق وأعاين المنايا بين أخفاف النياق :

أقول لصحبي حين ساروا ترفقوا   لعلي أرى من بالجناب الممنع

....

وينظر طرفي أين أترك مهجتي   فقد أقسمت أن لا تسير غداً معي

وما إن خلفتها متأسفاً   عليها وقد حلت بأكرم موضع)) (١)

ويستطرد البلوي في وصف موقف الوداع عندما يولي الأقارب ظهورهم بعد إتمام مراسيم الوداع بالعودة إلى مقر إقامتهم فيذكر أنه في ذلك الموقف أنشد بلسان الارتجال بل بلسان الحال :

ليت شعري أنلتقي بعد هذا   أم أنه وداع يكون هذا اللقاء

فأذكروني وزودوني دعاء   خير زاد تزودوني الدعاء (٢)

وبعد مرور حوالي ١٣٧ عاماً من رحلة البلوي يأتي القلصادي ويصف مشهد الوداع فيقول :

ودعتهم والدموع تجري   لما دعا للوداع داع (٣)

كما أن لحظات الوداع تشمل أيضاً القادمين من المشرق والمغرب لزيارة مملكة غرناطة واللقاء بعلمائها ، ففي أثناء عودتهم إلى بلادهم يتم توديعهم من قبل أقرانهم من علماء مملكة غرناطة ، وفي ذلك يقول ابن خاتمة : أنشدنا عند رابطة الوداع من خارج المرية ، وقد برزنا لتوديعه الشيخ المحدث الطبيب الماهر بهاء الدين محمد أبو القاسم ابن محمود بن عساكر الدمشقي حين ودعته قائلاً :

---

(١) البلوي : خالد بن عيسى ، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، مقدمة وتحقيق الحسن السائح ، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة ، جزءان ، (د. ت) ، جـ ١ ص ١٤٤ .

(٢) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ١٤٥ .

(٣) القلصادي : رحلة القلصادي ، ص ٩٠ .

يا طالباً للفراق مهـــلاً فخيله سبق عتـــــاق
فطبع هذا الزمان غدر وآخر الصحبة الفراق (١)

وهذا المكان هو المكان الذي عرف فيما بعد في بعض الروايـات بأنـه المكـان الأخـير الذي رأى منه أبو عبدا لله الصغير غرناطة بعد طرده منها (٢) .

ولعل هـذا يعبر عـن مشـقة السـفر في ذلـك الوقـت وخطـورة الطريـق في الذهـاب والإياب سـواء الطريـق البحـري عنـد الوصـول إلى الشـمال الإفريقـي أو الطريـق البحـري مباشرة إلى المشرق أو المغرب .

فقد كان المسافرون يصلون إلى وجهتهم إما عن طريق البحر إلى الإسكندرية وسواحل بـلاد الشام أو بطريق البر من شمال إفريقيا إلى مصر (٣) .

وكانت وسائط النقل في تلك الفترة سواء كـانت بـراً أم بحـراً صعبـة وخطـيرة ، وكثـيراً مـا كانت تغرق سفن بأكملها وهي محملة بالعلماء والطلاب الغرناطيين أثناء سفرهم إلى المغرب أو المشرق .

كذلك لم يكن الطريق البري سهلاً لتعرض المســافرين للسـرقة مـن لصـوص الصحــراء .... ومع ذلك فإن هذه الصعاب لم تثنِ عزم أبناء مملكة غرناطة عن الرحلة إلى المغرب أو المشرق الإسلامي لأغراض متعددة .

وقـد سـاعدت عـدة عوامـل علــى تبـادل الرحـلات العلميـة بـين مملكـة غرناطـة والــدول الإسلامية ، غرباً وشرقاً ، وتهمني هنا البواعث العلمية ...

---

(١) ابن القاضي : درة الحجال ، جـ ٢ ، ص ١٠٣ .
(٢) شوقي أبو خليل : مصرع غرناطة ، دار الفكر دمشق ط٢ ، ١٤٠١هـ ، ص ٩٠ .
(٣) لمعرفة تفاصيل ذلك انظر الفصل الثـالث مـن الرسـالة حيـث تنـاولتُ بالشـرح الطـرق البريـة والبحرية .

ولقد كانت الدولة الحفصية في شمال إفريقيا محط أنظار أوائل الراحلين إليها في الفترة موضوع البحث والدراسة وذلك لأسباب عدة منها تشجيع حكام الدولة الحفصية للعلماء الأندلسيين والترحيب بهم منذ الفترة التي سبقت قيام الدولة النصرية ، فهذا ابن الأبار أبو عبدا الله محمد بن عبدا الله بن أبي بكر بن الأبار القضاعي ، الذي نزل في ضيافة السلطان الحفصي أبي زكريا وصار في جملته (١) . ولو لم يكن لابن الأبار سبق في مجال الأدب والتأريخ لما حظي بتلك المكانة لديه .

وهذا أبو عبدا الله محمد بن الحسين بن سعيد أحد أعيان أسرة بني سعيد إحدى الأسر الأندلسية الشهيرة كلف بمهام رسمية في بلاط السلطان الحفصي أبي زكريا ، إذ تولى الوزارة وغير ذلك من المراتب ، وهو في نهاية الكرم والسماحة والفروسية والخط والنظم والنثر (٢) .

وقد أغدق حكام إفريقية على الأدباء الأندلسيين والغرناطيين الذين لحقوا بهم الأموال والهدايا الفاخرة ، مما شجع علماء مملكة غرناطة على الرحلة إلى هناك ، حتى مع تمتعهم بالمكانة العلمية والإدارية في بلادهم ؛ فهذا أبو عبدا الله محمد بن خطاب الهنتاني الحياني الذي اشتهر في غرناطة في عهد السلطان النصري محمد الأول فصيرة كالعلم ، وقلده مهماته ما بين خطتي السيف والقلم (٣) ، إلا أنه رحل إلى تونس ولم يفقد مكانته التي كان عليها في غرناطة بل زادت تلك المكانة في الدولة الحفصية فتولى تارة القضاء ، وتارة السفارة .

ويعلق ابن سعيد على وصول ابي عبدا الله محمد بن خطاب إلى تونس بقوله ((فتقدم

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ٢٨٥ .

(٢) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، جـ ٢ ص ٨٦٨ ، ١٦٩ .

(٣) ابن سعيد : اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الإسلامية ، بيروت ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ ص ٢٢ .

على قبيله وشورك في كثير من الأمر وقليله مرة في الرسالة إلى البلاد وتارة في الحكم بين العباد)) [١] .

وإذا كانت الإغراءات المادية والإدارية عاملاً هاماً من عوامل الجذب ، فقد كان من بين تلك العوامل أيضاً وجود المدارس في الدولة الحفصية التي لم تشهدها مملكة غرناطة رسمياً إلا في سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م .

وكان من أشهر مدارس تونس ثلاث مدارس هي : مدرسة الشماعية ، ومدرسة المعرضية ومدرسة الهواء [٢] .

ولم تكن تلك العوامل خاصة بالدولة الحفصية فقط بل كان لبني مرين فضل السبق على بني نصر في إنشاء المدارس ولو أن هنالك فارقاً علمياً لصالح مملكة غرناطة لفترة من الزمن ، إلا أن بني مرين كانوا قد أخذوا بزمام المبادرة في بناء المدارس ومحاولة استعادة التراث الأندلسي من النصارى ، فهذا السلطان المريني أبو يوسف يعقوب يقوم بعمل لم يقم به معاصره السلطان النصري محمد الفقيه رائد النهضة العلمية في غرناطة .

إذ في إحدى غزوات السلطان أبي يوسف يعقوب ضد نصارى قشتالة يورد ابن خلدون نصاً مهماً إذ يقول ((وكمل عقد السلم وتقبل الطاغية سائر الشروط ورضي بعز الإسلام عنه وانقلب إلى قومه يملأ صدره من الرضا والمسرة وسأل منه أمير المسلمين أن يبعث من كتب العلم التي بأيدي النصارى منذ استيلائهم على مدن الإسلام ، فاستكثر من أصنافها ثلاثة عشر حملاً بعث بها إليه فوقفها السلطان بالمدرسة التي أسسها بفاس لطلب العلم)) [٣] .

وإلى جانب هذه المدرسة وجدت مدارس كثيرة مثل مدرسة العطارين ومدرسة المدينة البيضاء ، ومدرسة الصهريج بعدوة الأندلس من فاس ثم أنشأ السلطان أبو الحسن المدرسة

---

(١) ابن سعيد : اختصار القدح ، ص ٢٢ .

(٢) العمري : مسالك الأبصار ، قسم الأندلس ص ٨٥ .

(٣) العبر ، جـ ٧ ، ص ٢١٠ .

الكبرى ، مدرسة الوادي وهي التي يشق وسطها الوادي الأعظم بالعدوة ، ثم المدرسة الكائنة جوفي جامع القرويين وتعرف بمدرسة مصباح [(١)] .

وكان لوجود الزوايا في بلدان شمال إفريقيا أثره في تسهيل الرحلة العلمية إلى تلك البلدان ، حيث ينزل فيها طلاب العلم مجاناً ، ويلتقون بأقرانهم ، مما زاد في اللقاءات العلمية والتواصل العلمي بين طلاب مملكة غرناطة وطلاب العلم في الشمال الإفريقي المسلم ، وقد عرّف ابن مرزوق الزوايا بقوله : ((والظاهر أن الزاوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين)) [(٢)] .

كذلك دأب حكام بني مرين على استقطاب العديد من الخبرات الكبيرة من أهالي مملكة غرناطة للاستعانة بهم في إدارة شؤون دولتهم .

وقد كان للغرناطيين أدباء وكتاباً حضور قوي في بلاط تلمسان في عهد بني عبدالواد وكانت من عوامل تبادل التأثير والتأثر أن أشهر سلاطين بني عبدالواد أبو حمو موسى الثاني الذي كان ذا ثقافة غرناطية وتضامن مع مسلمي غرناطة [(٣)] .

ولئن كانت البلدان الإسلامية في الشمال الإفريقي قد سبقت مملكة بني نصر في إنشاء المدارس إلا أن أبناء مملكة غرناطة كانوا يتلقون التعليم في المساجد ، وكانوا كما ذكرت قد دأبوا على المحاورة والمناقشة والرحلة العلمية فلذلك كانوا أكثر تفوقاً على أقرانهم من الشمال الإفريقي .

ويعزو ذلك ابن خلدون إلى عزوف طلاب العلم في المغرب الإسلامي عن الدخول في المحاورة والمناظرة في المسائل العلمية فيقول :

((فتجد طالب العلم بينهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة،فلا يحصلون على طائل من ملكة

---

(١) ابن مرزوق : المسند ، ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤١٣ .

(٣) انظر تفاصيل ذلك في الفصل الأول من الرسالة ص١١٣ .

التصرف في العلم والتعليم)) (١) . وقد ألمعت إلى هذا من قبل ..
كما يرى ابن خلدون أن اللقاءات العلمية والتواصل الثقافي بين أبناء العالم الإسلامي أساسي في حفظ السند (٢) . ومن البواعث العلمية تقدير المسلمين الديني والعلمي للسند الذي هو عمود علم حديث رسول ا الله ﷺ ، وقد كان أهل غرناطة يحرصون على السند لأنهم يعدونه عامل التواصل والترابط مع مكة المكرمة والمدينة المنورة مهبطي الوحي الكريم ، ومنبع أحاديث الرسول ذي الخلق العظيم عليه السلام . وكان أبناء الشمال الإفريقي ينافسون مملكة غرناطة في هذا المجال (٣) .
وقد أدى بقاء الإسناد في المشرق الإسلامي رغم تعرض أجزاء منه للزحف المغولي عاملاً هاماً من عوامل الرحلة العلمية من غرناطة إلى المشرق . وأدى الزحف المغولي على إقليم ما وراء النهر وخراسان والعراق والشام إلى هجرة العديد من العلماء وانتقال مراكز العلم والحضارة إلى القاهرة وما إليها من المغرب ، فلم تزل القاهرة موفورة وعمرانها متصلاً وسند التعليم بها قائماً فأهل المشرق من على الجملة أرسخ في صناعة تعلم العلم وفي سائر الصنائع)) (٤) .

ولما كانت مدينة القاهرة على عصر مملكة غرناطة أزهى المدن الإسلامية ازدهاراً في الحركة العلمية والكثافة السكانية فقد كانت محطة هامة من محطات الرحلات الإسلامية بين مملكة غرناطة والمشرق الإسلامي ، هذا بالإضافة إلى عناية المماليك بالنهضة العلمية في

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٧٨ ، ٤٧٩ ولكن هذا لا ينطبق على المغرب في كل عصوره بل إن المغرب بلغ شأواً في العلم والتراث الإسلامي .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٧٧ .
(٣) انظر على سبيل المثال ابن الشاط : القاسم بن عبدا لله : الإشراف على أعلى شرف في التعريف برجال سند البخاري من طريق الشريف أبي علي بن أبي الشرف ن تحقيق إسماعيل الخطيب ، منشورات جمعية البعث الإسلامي ، تطوان المغرب ١٤٠٦هـ .
(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ، ص ٤٧٩ .

بلادهم وإنشاء العديد من المدارس والتي سيرد ذكر بعضها في ثنايا هذا البحث ، بالإضافة إلى العامل الديني وهو الحج الذي لم يكن يخلو من تواصل علمي أيضاً ، إذ كان في كل موسم تقريباً يشارك عدد من أبناء مملكة غرناطة في موكب الحج المتجه من مصر إلى بلاد الحجاز أو المتجه من بلاد الشام إلى مكة و المدينة . وقد أثنى ابن جبير على المرافق العامة بدمشق والخاصة بالغرباء فقال ((ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ... فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد)) (١) .

بالإضافة إلى التشابه الكبير ما بين مملكة غرناطة وبلاد الشام من حيث المناخ والأراضي الزراعية ، إلى جانب عوامل الأمن والاستقرار التي كان يشعر بها الأندلسيون الذين كانوا يحطون رحالهم في بلاد الشام كما كان لوجود المسجد الأقصى ـ أعاده الله للمسلمين ـ الأثر الفعّال في استقطاب أهالي مملكة غرناطة إلى بلاد الشام .

أما بلاد الحجاز التي تردد عليها العلماء من مملكة غرناطة ومجاورة عدد كبير منهم المسجدين الحرام والنبوي فلا حاجة إلى التعريف بمكانتهما في قلوب أهالي مملكة غرناطة .

وكثير من الرحالة الغرناطيين وطالبي العلم عادوا إلى مملكة غرناطة بشكل عام بعد أن حصلوا على تعليم أكثر ، وكان الواحد منهم يرحل إلى عدة بلدان إسلامية ، فمثلاً عندما يغادر الغرناطي وطنه قد يتجه إلى المغرب الأقصى أو الأوسط ثم إفريقية أو قد يتجه إلى المغرب الأوسط أو يغادر مملكة غرناطة مباشرة إلى المغرب الأوسط ثم مصر وبلاد الشام والحجاز أو يغادر عن طريق البحر مباشرة إلى بلاد الشام ولا يكون هدفه في الشواطئ الإفريقية إلا الاستراحة لتغير السفينة بسفينة أخرى أو لأي خلل فني أو لسبب أو لآخر .

ومن الأمثلة على الرحلات العلمية بين مملكة غرناطة والبلدان الإسلامية : رحلة

---

(١) ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد ، رحلة ابن جبير، دار مكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨١م ، ص ٢٣٢ .

القاضي خالد بن عيسى بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي قاصداً الحج وطالباً للعلم [١] .

وكانت لحظة خروجه في ضحوة يوم السبت الموافق الثامن عشر من شهر صفر عام ستة وثلاثين وسبعمائة وخرج مجموعة من أهله وأصدقائه لوداعه ، إذ كان لذلك الوداع موقف مشهور مشهود حسب ما عبّر عنه البلوي [٢] وهو المكان الذي أشرت إليه في بداية الحديث عن الرحلة من مملكة غرناطة .

والحق أن ذلك الموقف الوداعي كان تعبيراً عن مخاطر السفر في ذلك العصر ، وما يكتنف الطريق البري والبحري من مخاطر حتى الوصول إلى بيت الله الحرام ، ولما وصل البلوي من قنتورية إلى المرية كانت قرقورة [٣] تستعد للإقلاع من شواطئ المرية فركبها البلوي يوم الأحد الموافق السابع من جمادى الأولى سنة ٧٣٦هـ /١٣٣٥م فسارت بهم في البحر إلى شواطئ المغرب الأوسط ورست بهم في مرسى هنين [٤] ، وفي المغربين الأدنى والأوسط بدأ البلوي نشاطه العلمي كما سيأتي ذكره في حينه .

ثم غادر البلوي بلاد المغرب الأدنى إلى مصر فوصل إلى الإسكندرية وبعد تجواله في مصر غادرها إلى الحجاز ثم بلاد الشام ثم عاد إلى مصر ومنها إلى شمال إفريقيا ومن ثم

---

(١) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ١٤٤ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ١٤٥ .

(٣) قرقورة : هي السفينة والجمع منها قراقر وهي تتفاوت من حيث الحجم والضخامة وتوسق بالبضائع من أبواب من أجنابها وسطحها فارغاً للركاب وكانت تستخدم لنقل الحجاج والمسافرين إلى مصر والأراضي المقدسة (انظر النخيلي: درويش السفن على حروف المعجم ، ط٢ ، ١٩٧٩م ، ص ١٢٠ وما بعدها) .

(٤) هنين : بلدة ساحلية في المغرب الأوسط من سواحل تلمسان (انظر البغدادي مراصد الاطلاع ، جـ ٣ ص ١٤٦٦) .

إلى غرناطة كما سيأتي الحديث عن لقاءاته العلمية في تأثره العلمي .

ومن الذين هاجروا إلى المشرق من أهل غرناطة ، هجرةً اضطرارية وكان لهم شأن علمي كبير في بلاد المشرق : محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفزي (نسبة إلى قبيلة نفزة) والذي ولد في أخريات شوال من عام أربعة وخمسين وستمائة (بمطخارش) من أحواز غرناطة (١) .

وقد تميز أبو حيان بالإدراك وغزارة التحصيل العلمي ، إذ درس بمدينة غرناطة على يد أساتذة كان لهم دور كبير في النهضة العلمية في مملكة غرناطة وذلك في عهد السلطان محمد الفقيه ومن هؤلاء الأساتذة والمدرسين الذين تتلمذ على أيديهم : الأستاذ أبو جعفر بن الزبير والأستاذ الخطيب أبو جعفر علي بن محمد الرعيني ، ولقد أساء محمد بن يوسف بن حيان التصرف مع أساتذته في غرناطة على النحو الذي وصفه ابن الخطيب بقوله : حملته حدة الشبيبة على التعريض بالأستاذ أبي جعفر الطباع وقد وقعت بينه وبين أستاذه ابن الزبير الوحشة ، فنال منه وتصدى للتأليف في الرد عليه وتكذيب روايته (٢) فرفع الأستاذ أبو جعفر الطباع شكوى ضد تلميذه وسلمها للسلطان النصري محمد الفقيه ، فغضب السلطان محمد الفقيه لذلك وأصدر أمراً بمعاقبته والتنكيل به ، ولكن أبا حيان كان على حذر ، فاختفى ، ثم عبر البحر متنكراً ولحق بالمشرق يلتفت خلفه (٣) . وكان ذلك في سنة تسع وسبعين وستمائة (٤) .

ومن بين أكثر الرحلات الغرناطية إلى المشرق إثارة وتشويقاً تلك الرحلة التي قام بها بغرض الحج والعلم معاً ، الأعمى والبصير .

---

(١) النميري : إبراهيم بن الحاج ، مذكرات إبراهيم بن الحاج النميري ، نشر حواشيه باللغة الفرنسية Alfred Lauis . ١٩٧٨م ، ص ٢٠٤ .

(٢) الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحات نفسها .

(٤) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٥٦٣ .

والأعمى هو محمد بن أحمد بن علي بن جابر المكنى بأبي عبدا لله ويعرف بابن جابر من أهـل المرية (١) .
والبصير هو أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الأندلسي المكنى بأبي جعفر مـن أهـالي مدينـة غرناطة (٢) .
وقد كان رائعاً أن يتفقا ذات يوم على القيام برحلة علمية إلى بلاد المشرق الإسـلامي معاً ، وكان ابن جابر رجلا كفيف البصر لكنه كان شاعراً عظيم الكفاية (٣) .
فصار مع صديقه البصير أبي جعفر الرعيني كأنهما روحان في جسد واحد فوصلا إلى مصـر والشام والتقيا بعلمائها في تلك الفترة وكانا يُعرفان بين الناس (بالأعمى والبصير) .
فابن جابر كان يملي ، وأبو جعفر الرعيني يكتب (٣) . وقد كان خروجهما من مملكة غرناطة على زمن ابن الخطيب الذي علق على ذلك بقوله وانقطع الآن خبرهما (٤) .
إلا أن ابن الأحمر ترجم لابن جابر وجاء بمعلومات عنهما مواصلاً من الحديث ما انقطع مـن أخبارهما عند ابن الخطيب ، فذكر أن ابن جابر حج وغادر الحجـاز إلى بـلاد الشـام حيـث سكن مدينة حلب ودرس بها العلوم وكان مـن أهـل الفتيـا وسـراج الأدب المتوقـد الضيـاء ووصف شعره بأنه أرق وأجزل من شعر الرضى بذي سلم (٥) .
وبالتأكيد فإن خط سير ابن جابر ورفيقه في رحلتهما العلمية كان إلى مصر والحجاز ثم بلاد الشام ، ومما يؤكد ذلك أن علـي بـن الخطيـب قـد تقـابل مـع ابـن جـابر وصديقـه بالقـاهرة وأضاف إلى ما كتبه عنهما أبوه بقوله ((نعم الرجل ورفيقه أبو جعفر أحسن ا لله تعالى بهما فلقد أحسنا الصحبة في الغربة وانفردا بالنزاهة والفضل وعلو الهمـة .. وهما وا لله الشرف

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٣٣٠ .
(٢) ابـن حجـر : الـدرر الكامنـة في أعيـان المائـة الثامنـة ، أربعـة أجـزاء ، دار الجيـد ، بـيروت ١٤١٤هـ ، جـ ١ ، ص ٣٤٠ .
(٣) انظر ابن الخطيب : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٣٠ .
(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .
(٥) نثير الجمان ، ص ٢٠٠ .

الباهر يقطرهما علماً وعملاً .... وهما الآن بألبيرة من حلب تحت إنعام لطف ، تحث إليهما الرواحل وتضرب إليهما آباط النُجب)) (١) ، وفي رحلة ابن جابر وصديقه ما يؤكد شغف أبناء مملكة غرناطة بالرحلات العلمية بينهم وبين إخوتهم في المشرق والمغرب وتخليد ذكراهم في ميدان العلوم على طول امتداد الوطن الإسلامي دون أن تمنعهم الحواجز التي يمكن أن تمنع الكثير من الحركة وتحمل مشاق السفر .

أما عالم الفكر والأدب الأكبر في مملكة غرناطة لسان الدين بن الخطيب ، فقد كانت له رحلتان عموميتان الأولى داخلية والأخرى خارجية .

فالرحلة الداخلية كانت داخل مملكة غرناطة (٢) .

أما الرحلة الخارجية فسأتناولها من منظور الرحلات العلمية مختصراً في ذلك اختصاراً شديداً ، فقد تناول العديد من الكتاب والمؤرخين ابن الخطيب بالدراسة والتحليل (٣) ، ولقد عرف ابن الخطيب المغرب ما بين عامي ٧٤٩هـ / ١٣٤٨هـ ، ٧٥٥ / ١٣٥٤م كسفير لدولة غرناطة لدى المغرب الأقصى وإن كانت هذه السفارة بلا شك قد استفاد منها ابن الخطيب فعلا ، إلا أن الأثر الأكبر للرحلة الإجبارية له لاجئاً سياسياً مع السلطان محمد الخامس والثانية هارباً من سلطانه الذي كان قد استبد بالدولة في عهده وتحكم في

---

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ . ومدينة ألبيرة : قلعة حصينة على حافة الفرات ببلاد الشام لها واد يعرف بواد الزيتون (أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل بن محمد ابن عمر ، تقويم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، د. ت ، ص ٣٣٩ .

(٢) لمعرفة تفاصيل هذه الرحلة انظر مشاهدات ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس تحقيق أحمد مختار العبادي .

(٣) انظر على سبيل المثال ، أبو طالب عبدالهادي ، وزير غرناطة لسان الدين الخطيب السلماني ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م ، وانظر عنان : محمد عبدا لله لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكري ، مكتبة الخانجي القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ ، عبدالعزيز بنعبد ا لله . الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب . معهد مولاي الحسن تطوان ١٩٥٣م .

سائر أحوالها [١] . وسيأتي الحديث عن تأثره وتأثيراته العلمية في حينه إن شاء ا لله .
ومن الذين رحلوا من مملكة غرناطة وكتبوا برنامجاً عن رحلاتهم أبو عبدا لله المجاري الذي غادر مملكة غرناطة في تأريخ غير معلوم واتجه إلى الشمال الإفريقي وبدأ نشاطه العلمي من تلمسان [٢] ... وقد وصل المجاري إلى مصر قادماً من تونس ويبدو لي أنه توجه بالطريق البحري من تونس إلى الإسكندرية حيث بدأ لقاءاته العلمية كما سيأتي ذكره .
ثم تأتي رحلة القلصادي الذي غادر مدينة بسطة سنة ٨٤٠هـ /١٤٣٦م ومن بعده رحلة ابن الأزرق وقد فصلت القول في هاتين الرحلتين في الفقرة الخاصة بأثر اشتداد العدوان النصراني على مملكة غرناطة .

ويبقى في هذا العرض الموجز أن كتب التأريخ والتراجم التي تتبعت رحلات الغرناطيين إلى المشرق والمغرب لم تقدم عدداً من النساء اللاتي هاجرن إلى البلدان الإسلامية لطلب العلم أو الحج لكنني مطمئناً أستطيع القول إن عدداً بالغا منهن كان يصحب الرجال زوجات لهم أو أخوات أو أمهات فذلك من طبيعة الأشياء في مثل تلك العصور التي كانت الرحلة فيها ربما تستغرق سنوات طويلة ، ومع أنني أتمنى لو قدمت المصادر نماذج كافية لتتبعت عدداً منهن إلا أن تلك المصادر التي اطلعت عليها قد قدمت نموذجاً يتمثل في الغرناطية (سيدة) بنت عبدالغني العبدري وتكنى أم العلاء التي نشأت يتيمة وتعلمت القرآن وبرعت وجاد خطها وعملت في منازل بني نصر ، وكانت قد تعلمت القرآن الكريم في غرناطة على يد أبي زكريا الدمشقي[٣] . ثم وصلت إلى فاس وسافرت إلى تونس

---

(١) ابن خلدون : التعريف ، ص ٩١ .

(٢) المجاري : أبو عبدا لله محمد المجاري الأندلسي ، برنامج المجاري ، تحقيق محمد أبو الأجفان ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ط٢ ، ١٩٨٨م ، ص ١٤٧ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، نصوص لم تنشر ، تحقيق عبدالسلام شقور ، كلية الآداب ، تطوان المغرب ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

وعملت في خدمة سلاطين بني حفص وفي أثناء ذلك قامت بنسخ وكتابة كتاب إحياء علوم الدين من أصله (١) ثم غادرت تونس إلى المشرق الإسلامي حيث استقرت في مصر ولم تزل قائمة على أعمال البر من فك الرقاب وغير ذلك إلى أن توفيت بمصر سنة سبع وأربعين وسبعمائة (٢) .

ونلاحظ على تطور الرحلة بين المشرق والمغرب مع نهاية القرن الثامن الهجري وبداية القرن التاسع الهجري ، بما صحب ذلك القرن من أحداث ووقائع وتطورات أن أسلوب الرحلة قد بدأ يتأثر بالظروف السياسية العامة ، فقد بدأت الرحلات ذات الطابع العلمي تنحسر عما كانت عليه قبل القرن التاسع ...

فقد أصبحت الرحلة مع انحسارها ، تجمع بين الرحلة إلى المغرب والشمال الإفريقي والمشرق الإسلامي بمصره وشامه وحجازه معاً ...

وتمثل هذه الظاهرة الجديدة منحى جديداً في الرحلة يدل على أن أسلوب التريث و الإقامة الطويلة لم تعد بالقدر الذي كانت عليه قبل ذلك ، نظراً لظروف التوتر والخوف والحذر ، فإما أن يعود المرتحل من أداء مهمته حجاً أو علماً ، بأكبر ما يستطيع من السرعة ، أو لا يعود وهو الغالب في القرن التاسع فيستوطن بالتالي بلداً مغربياً ومشرقياً ، وجمعت الرحلة العلمية ما بين المشرق والمغرب وأصبح الجمع بينهما أكثر وضوحاً من ذي قبل .

أما عن الرحلة من البلدان الإسلامية إلى مملكة غرناطة فعندما اشتدت وطأة العدوان النصراني على مسلمي مملكة غرناطة وتعالت صيحات الاستغاثة تهيب بمسلمي شمال إفريقيا لكي يهبوا للمشاركة في الجهاد ، وذلك عند وصول رسائل الاستنفار التي كان كثيراً ما يوجهها أهالي مملكة غرناطة إلى إخوانهم في

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة نصوص لم تنشر ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ . وابن القاضي : جذوة الاقتباس ، جـ ٢ ص ٥٢١ ، ٥٢٢ .

(٢) ابن القاضي : نفس المصدر والجزء والصفحات .

بر العدوة فإن ذلك لم يحل دون وصول العديد من علماء وطلاب العلم في البلدان الإسلامية إلى مملكة غرناطة .

فمن بين هؤلاء الذين رحلوا إلى مملكة غرناطة : عيسى بن علي بن واصل من أهل مراكش ، الذي دخل الأندلس واستقر بجيان واستوطنها ويكنى أبا موسى ، وكان يعرف بين سكانها بعيسى المعلم (١) لقيامه بالتدريس والتعليم ، وكان قد تلقى تعليمه بالعدوة وأخذ بها عن أشياخ بلده واشتهر بحفظه للحديث ومعرفته بالفقه وأصوله ، وكان بارعاً في الخط أثنى عليه ابن الزبير ووصفه بالتواضع وحسن الخلق ، إذ قابله في مدينة جيان التي توفي بها سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م وحضر جنازته الجمع الغفير وتأسف أهل جيان لوفاته (٢) . ويدل ذلك على المكانة العلمية التي تبوأها هذا العالم المغربي كما يدل على مدى التقدير الذي يقابل به أهالي مملكة غرناطة إخوانهم الوافدين عليهم من المغرب والمشرق .

ومن مدينة سلا خرج عمران بن موسى بن ميمون الهواري متجهاً إلى بلاد بني نصر ، وحط رحاله بالعاصمة ، غرناطة ، فكان مفسراً للقرآن الكريم أديباً نحوياً ، وقام بتدريس اللغة العربية بالجامع الأعظم من مدينة غرناطة وكان يعرف فيها بالسلاوي ، ولم يكن معلماً فحسب بل كان يحرص على تلقي العلم ، فقد روى عن علماء غرناطة ، وخاصة عن عبدا لله وأبي عبدا لله بن الفخار المالقي وابي الحسن محمد بن جابر بن ذي النون وابي القاسم بن سمجون .

وبعد فترة من الزمن وبعد أن رأى أنه قد أدى دوراً في تعليم أبناء مملكة غرناطة وإلقاء العديد من الدروس والمحاضرات كما استطاع الحصول على مزيد من العلم والمعرفة آثر العودة إلى مدينة سلا ، ولم يلبث أن توفي بعد عودته إليها مباشرة وذلك سنة ٦٤٠هـ / (٣) ١٢٤٢م .

---

(١) ابن الزبير : غرباء القسم الثاني من صلة الصلة ، ص ٥٤٨ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) نفس المصدر ص ٥٥٩ .

ومن مدينة سبتة المحاذية لمملكة بني نصر كانت رحلة علي بن محمد بن علي بن يحيى ابن عبدا لله بن يحيى الغافقي إلى مملكة غرناطة رحلة إجبارية أملتها عليه الظروف السياسية فيها ، إذ صدر قرار بتغريبه عن وطنه سبتة فركب البحر إلى شواطئ مملكة غرناطة وذلك في منتصف سنة ٦٤١هـ /١٢٤٣م فوصل إلى المرية ، ويبدو لي أن علي بن محمد هذا كان ذا سمعة في المرية قبل أن يصل إليها بدليل أن أميرها النصري قد خرج ومعه أعيان المرية وأهل العلم فيها لاستقباله والترحيب به وأقام بها سبع سنوات يدرس القرآن الكريم وتعلّم القراءة على يديه العديد من أبناء مدينة المرية ثم غادر المرية متجهاً إلى مدينة غرناطة ، حيث احتشد طلاب غرناطة جميعهم إلا النادر يستمعون إليه ويروون عنه ، إلا أن إقامته في غرناطة كانت قصيرة ، وبالرغم من ذلك فقد أجاز للذين حضروا دروسه ولكل موجود في تأريخ زيارته لغرناطة وتأريخ هذه الإجازة في شهر محرم سنة ٦٤٨هـ (١) / ١٢٥٠م .

ثم اتجه علي بن محمد إلى مالقة حيث واصل نشاطه العلمي بها ، وأخذ عنه جملة من علمائها الذين اشتهروا بالتدريس فيها فيما بعد ، ومنهم المحدث أبو عبدا لله الطنجالي وأبو بكر القرطبي والقاضي أبو الزهر بن أبي عامر بن ربيع ، وقد اغتنم الأديب ابن الزبير الفرصة ورحل إليه وسمع منه وقرأ عليه القرآن الكريم وتردد إليه من غرناطة مراراً (٢) .

وكان الأستاذ علي بن محمد الغافقي يجلس بمالقة النهار كله يعلم ويدرس طلاب العلم فيها ، وكان شيخاً فاضلاً وراوية ثقة وعدلا توفي بمالقة سنة تسع وأربعين وستمائة (٣) .

ومن دمشق خرج محمد بن عبدالوهاب بن عبدالكافي الأنصاري الدمشقي يُكنى أبا بكر ويعرف بسعد الدين متجهاً إلى مملكة غرناطة يجذبه إليها ما سمع عن جهاد أبنائها وتوحيدها

---

(١) ابن الزبير : غرباء صلة الصلة ، ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) المراكشي : أبو عبدا لله محمد بن عبدالملك الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة السفر الثامن القسم الأول تحقيق محمد بن شريفة ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ١٩٨٤م ، ص ١٩٦ .

تحت قيادة السلطان محمد بن يوسف بن نصر وتصديهم ببسالة للعدوان النصراني عليهم فأراد أن يحفز همم إخوته في الدين ، ويدعوهم إلى الثبات متاثراً في ذلك بالعالم الجليل ابن الجوزي (أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي) ، إذ إن محمد بن عبدالوهاب هذا قد أخذ عن أبي الفرج ابن الجوزي وحفظ عنه الكثير وبرع في علم التفسير كما كان قد أخذ عن أبيه وأبي محمد عبدالغني المقدسي وأبي اليمن زيد الكندي وقرأ القرآن بالقراءات السبع (١) .

وفي سنة ٦٥١هـ /١٢٥٣م وصل محمد بن عبدالوهاب إلى غرناطة فقابله المؤرخ ابن الزبير الغرناطي واستدعاه إلى منزله ودار بينهما حوار علمي استفسر فيه ابن الزبير عن شيوخ محمد بن عبدالوهاب (سعد الدين) فذكر له منهم ما ذكرته أعلاه ، وأضاف أبا عبدا لله بن الخشاب البغدادي وأبا البقاء عبدا لله بن الحسين بن عبدا لله العبكري الحنبلي الضرير النحوي ، قرأ عليه شرحه لمقامات الحريري وأبا الفرج عبدالرحمن بن الجوزي الإمام الواعظ قال : وهو أجلّ من أخذت عنه من هؤلاء (٢) .

وبلا شك فإن مؤلفات ابن الجوزي وأفكاره التي تأثر بها محمد بن عبدالوهاب بن عبدالكافي كانت ذات أثر واضح في غرناطة وفي ذلك يقول ابن الزبير واصفاً النشاط العلمي لمحمد بن عبدالوهاب الدمشقي في مسجد مدينة غرناطة : ((كان حافظاً حاضر الذكر ... يفتتح مجالسه بالتفسير بعد الخطب ، ويوسط بذكر شيء من أخبار الصالحين ، وبعض فصول من كلام ابن الجوزي ويختتم بفصل من السير ، هكذا أبداً لا يخرج عن عادته مع إحراز التناسب والانسجام في الأغراض الثلاثة . ولم يكن عنده كتاب يستعين به على ما كان بسبيله مما اطلعت عليه من حاله سوى خطب من كلام شيخه أبي الفرج بن الجوزي في سفر بخطه مع تأليف سماه مصباح الواعظ)) (٣) .

---

(١) المقريزي : المقفى ، جـ ٦ ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢) ابن الزبير : غرباء القسم الثاني من صلة الصلة ، ص ٥١٤ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

ولم تقف مشاركة هذا العالم الدمشقي على الوعظ في غرناطة والتذكير با لله تعالى ونشر آراء مؤلفات ابن الجوزي بل إنه تعدى ذلك إلى مشاركة أبناء مملكة غرناطة في علم الطب وفي غير ذلك من العلوم (١) وقد روى أيضاً عن طائفة من علماء مملكة غرناطة (٢) .
إلا أن هذا العالم المشرقي لم تطل إقامته في غرناطة أكثر من ثلاث سنوات فقد غادرها إلى شمال إفريقيا وأقام بسبتة فترة من الزمن استوفى خلالها تفسير جملة من القرآن الكريم وكان آخر ما لقيه ابن الزبير في سبتة ، ثم غادرها متوجهاً إلى المشرق الإسلامي حيث توفي يوم رجوعه إلى المشرق سنة أربع وخمسين وستمائة (٣) .

وبلا شك أن الرحلات العلمية من الدول الإسلامية إلى مملكة غرناطة كانت أقل أعدادًا من الرحلات الغرناطية إلى المشرق والمغرب الإسلامي وذلك لعوامل الحرب المستمرة مع النصارى والتي تؤدي إلى الهجرة من غرناطة لا إلى الهجرة إليها ، فكانت رحلة عبدالباسط بن خليل الحنفي من مصر إلى غرناطة في الربع الأخير من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي مغامرة حقيقية ومصدرًا هامًا من مصادر التاريخ الإسلامي الغرناطي ، ورغم الصفحات القليلة التي نشرت من رحلته إلى مملكة غرناطة إلا أنها كانت في غاية من الأهمية وذلك لكشفها جوانب غامضة من الحياة السياسية والاقتصادية بمملكة غرناطة(٤) .
ولقد ذكر عبدالباسط بن خليل الحنفي أنه التقى بعدد من علماء غرناطة في تلك الحقبة من الزمن مثل التقائه بمدينة مالقة بالعلامة أبي العباس أحمد السيد الشريف التلمساني وصفه بأنه شيخ الأندلس وعالمها وقاضي الجماعة بغرناطة (٥) .

---

(١) ابن الزبير : غرباء القسم الثاني من صلة الصلة ، ص ٥١٤ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) نفس المصدر ، ص ٥١٥ .
(٤) لقد أفادت الرسالة كثيراً من رحلة عبدالباسط بن خليل الحنفي والمنشورة في :
AL-Andalus Revista , VOL, I, 1933
(5) Ipid , p. 311 .

والتقى أيضاً بأبي عبدا لله محمد بن القرعه قاضي مالقة وخطيبها والذي سأله عن بعض التراجم المشرقية فأجابه عليها [١] .

والتقى أيضاً بقاضي الجماعة في مملكة غرناطة أبو عبدا لله بن محمد بن منظور [٢] ، وكانت تلك الرحلة آخر الرحلات التي وصلت إلينا مدونة مما يدل على استمرارية الرحلات بين العالم الإسلامي ومملكة غرناطة حتى في أشد الظروف خطراً على المرتحلين .

---

(1) AL-Andalus Revista , Vol . I, p. 311 .
(2) Ibid , p. 311 , 312 .

أثر اشتداد العدوان النصراني على مملكة غرناطة على الساحة العلمية :

عندما اشتد العدوان النصراني على مملكة غرناطة وتضافرت عدة عوامل داخلية ودخل بنو نصر في صراعات ظاهرة أحياناً وخفية أخرى مع بني مرين وعاشوا حياة حرب وخلافات أسرية وسياسية ، كل هذه العوامل أحدثت خللاً في مواجهة النصارى فعجزت الدولة عن المواجهة وشعر الشعب بأنه يواجه قدره وحده ، وفي مثل هذه الأحوال تبددت الطاقات ووجد العالم الغرناطي نفسه مضطراً لأن يضع قلمه ومحبرته وأن يتحول إلى قائد شعبي يحمل السيف ، ويحث الناس على الجهاد ويكتب الكتب في فقه الجهاد وفي فن الأسلحة ، وبذل جهده في تطوير وسائل الدفاع ، ومن هنا وجد العلماء في مملكة غرناطة أنفسهم في مواجهة واقع جديد من الخطأ أن يتجاهلوه وأن يخدعوا أنفسهم بطلب العلم ، فالسيف هنا أصدق إنباء من الكتب .

كان الاستعداد للعدوان النصراني الشغل الشاغل للعلماء في مملكة غرناطة ، فاتجهوا إلى تأليف الكتب الداعية إلى الجهاد والأخذ باسباب النصر وصناعة السلاح وذلك منذ عهد السلطان النصري محمد الأول ، إذ ألّف الأديب والعالم محمد بن رضوان بن محمد بن أحمد ابن إبراهيم بن أرقم النميري من أهل وادي آش يُكنى أبا يحيى كتاباً في علم الخيل ذكر ابن الخطيب أنه أسماه كتاب " الاحتفال في استيفاء ما للخيل من الأحوال " وقال عنه وهو "كتاب ضخم وقفت عليه من قبله وأفدته[1] " وكان محمد بن رضوان مضطلعاً في علم اللغة العربية مشاركاً في علوم الحساب والهيئة والهندسة [2] ، إلا أنه رأى أن من واجبه في الجهاد المشاركة بعلمه فألف ذلك الكتاب لا سيما وأن الظروف المحيطة بدولة بني نصر الناشئة تستوجب ذلك ، ويفيد الداعية عبدا لله بن محمد بن جزي أن محمد بن رضوان قد جمع هذا الكتاب وألفه بناء على رغبة مؤسس الدولة النصرية السلطان الغالب با لله أبي عبدا لله

---

(١) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ص ١٤٢ .

محمد بن يوسف بن نصر [١] ، ونحن نعلم أن الخيل في ذلك الوقت دعامة أساسية من دعائم الحرب والقتال وأن تربيتها والعناية بها وإعدادها الشغل الشاغل للدولة النصرية وما جاورها من الدول النصرانية .

وفي عهد السلطان محمد الخامس والذي في عهده أخذت مملكة غرناطة بزمام المبادرة في الدفاع عن النفس والجهاد ضد النصارى كان ذلك الكتاب مصدراً أساسياً لكل فرسان مملكة غرناطة ، فرغب السلطان المذكور قراءة هذا الكتاب والاطلاع عليه بصفة مستمرة ، إلا أن ضخامته كانت تأخذ وقتاً كبيراً منه بالإضافة إلى أن السلطان المذكور كان له ((اعتناء بالعلوم ، واهتمام بالمنثور منها والمنظوم ، لا سيما ما يرجع منها إلى شأن الجهاد ويتعلق بالتأهب للعداة والاستعداد ، نفذت إشارته الكريمة ، وارتاحت همته العظيمة إلى اختصار كتاب الاحتفال في استيفاء تصنيف ما للخيل من الأحوال)) [٢] . فانتدب للقيام بذلك الأمر الداعية عبدا الله بن محمد بن جزي الكلبي الغرناطي ، الذي كان أبوه المفسر المشهور مؤلف " التسهيل لعلوم التنزيل " وغيرها توفي شهيداً سنة (٧٤١هـ / ١٣٤٠م) [٣] .

وأبو محمد عبدا الله بن أبي القاسم محمد بن أحمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي من بيت علم في غرناطة اشتهر فيها أخوه وأبوه [٤] ، وكان أبو محمد بن عبدا الله بن جزي أهلاً لذلك فيقول ابن جزي في مقدمة اختصاره لذلك الكتاب ((وهذا الكتاب احتفل فيه مؤلفه فيما احتشده وأكثر فيه مما أورده من الألفاظ الغريبة المستغنى عنها ، واللغات الحوشية التي لا يحتاج إليها .... ولم أعتمد في ذلك على نسق الكتاب ، ولا اقتديت به في ترتيب الأبواب ، بل رتبته بحسب ما اقتضاه النظر من الترتيب ، وهذبته على ما يناسبه المقصد من التهذيب ، وضمنته كثيراً من النوافذ العلمية ، والمحاسن الأدبية مما اشتمل على حفظه

---

(١) ابن جزي : كتاب الخيل ، ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ .

(٤) انظر ابن الأحمر : نثير الجمان ، ص ١٦٥ .

صدري ، أو استنبطه فكري أو أخذته عن علماء عصري ..... وسميته (مطلع اليمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال ، واستدراك ما فاته من المقال) [١] ، ولم يقف مختصر الكتاب على ما ذكر من إضافة المستجدات العسكرية المناسبة بل أنه أضاف تأريخاً لبني نصر في مقدمته لهذا الكتاب غاية في الأهمية [٢] ، وهذا الكتاب مشتمل على كل ما يتعلق بحقوق الحيوان في الإسلام وتربية الخيل وإعدادها للحرب والقتال مما يضيق المجال عن ذكره هنا .

وبعد ابن رضوان وابن جزي جاء ابن هذيل علي بن عبدالرحمن بن هذيل ليكتب موسوعة حربية عن فنون الحرب والقتال وعن أهمية الجهاد في مملكة غرناطة وذلك في مطلع القرن التاسع الهجري وإن كان الكتابان اللذان سبقت الإشارة إليهما قد رُفعا إلى السلطانين محمد الأول ومحمد الخامس ، فقد جاءت كتب علي بن هذيل مرفوعة إلى السلطان محمد السابع أحد أشهر سلاطين بني نصر حباً للجهاد في القرن التاسع على الاطلاق [٣] ، وفي مؤلفات ابن هذيل اختلاف واضح مما سبق من التأليف في هذا المجال إذ شملت ميادين أوسع من فنون الحرب والقتال وصناعة السلاح وطريقة الحرب بمختلف أنواع الأسلحة والتفصيل في ذلك أكثر بقدر يتيح لأبناء مملكة غرناطة تعلم الفروسية وصناعة السلاح وطريقة الحروب بكل يسر وسهولة ، ويقول في ذلك علي بن هذيل ((وإن من أعظم الفوائد قدراً ، وأشرف المعاني ذكراً ، وأنجح المساعي أمراً ، أن يرفع فن من العلم نبيل ، إلى مقام ملك جليل ، فذلك هو الذي أوجب على العبد تأليف هذا الكتاب وتلخيصه وتهذيبه وتمحيصه ، يشتمل على جلاد وكفاح وخيل وسلاح ، وما يختار من صفاتها ، ويكره ويذم من صفاتها وجمع ما يختص بأحوال المركوب ، ويتضمن تعليم الركوب وتعميم المطلوب ..... وسميته " حلية

---

(١) ابن جزي : كتاب الخيل ، ص ٢١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢ وما بعدها .

(٣) لمعرفة حياة هذا السلطان ، انظر التمهيد من الرسالة ص ٤١ .

الفرسان وشعار الشجعان ")) [1] . وفي هذا الكتاب شرح ابن هذيل تربية الخيل والعناية بها وكيفية الحروب على ظهورها وكذا شرح ابن هذيل أدوات الحرب والقتال وطريقة استخدامها في المعارك وصناعتها . كذلك ألف ابن هذيل كتاباً آخر سماه " تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس " [2] ، دعا فيه إلى الجهاد مبيناً فضل الجهاد بصفة عامة وفي مملكة غرناطة بصفة خاصة .

وكان سبباً طبيعياً في القرن التاسع الهجري في مملكة غرناطة أن تتوارى جوانب التأليف في بعض العلوم والمعارف التي لا يصلح لها إلا السلم والأمن وهما غير متوفرين في تلك الحقبة من الزمن من تأريخ مملكة غرناطة ، فإن استعداد العدو النصراني قد أدى إلى اضطراب الأسرة النصرية الحاكمة وأدى إلى اضطراب في حفظ الأمن ، وكانت الفرصة سانحة أمام العلوم الشرعية والأدبية التي تدعو لمواجهة العدوان وتحث على الجهاد بالشعر والنثر [3] ، وتبرز أهمية التعاون وتدعو إلى بذل المال والروح والوقوف في وجهه ومواجهة النصارى المعتدين ، وفك أسرى المأسورين من المسلمين والمسلمات وتحث على وقف الأحباس لصالح أعمال الجهاد وصرف الزكاة في الجهاد [4] ، وكان على العلماء أن يبذلوا الكثير من الوقت في إلقاء الخطب والمحاضرات في المساجد والمنتديات وأن يستنهضوا الهمم ويقاوموا صور التخاذل [5] ويمنعوا قدر الاستطاعة تدفق الهجرات من المدن والقرى خارج

---

(١) ابن هذيل : علي بن عبدالرحمن ، حلية الفرسان وشعار الشجعان ، تحقيق وتعليق محمد عبدالغني حسن ، دار المعارف للطباعة والنشر ، (د. ت) ، ص ٢٥ .

(٢) مخطوط نسخة مصورة مهداة إلى الباحث من الأستاذ موسى رزق .

(٣) مثل ديوان عبدالكريم القيسي ، وكتاب جنة الرضا في التسلم لما قدر الله وقضى ، ثلاثة أجزاء ، تحقيق صلاح جرار ، دار البشير للنشر والتوزيع ط ١٤١٠هـ .

(٤) الونشريسي : أحمد بن يحيى ، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، ١٣ جزءً ، دار الغرب الإسلامي ، د. ت ، جـ ٧ ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٥) انظر : ابن الخطيب : جـ ٢ ، ص ٤٦٦ .

مملكة غرناطة لا سيما وبعض هؤلاء المهاجرين كان من العلماء أيضاً ، فكتب ابن الخطيب رسالة في تفضيل الجهاد على الحج [١] وصدرت فتاوى تفضل الجهاد على الحج ، إذ شعر الكثير من العلماء والفقهيين بأن الحج يتخذ مطية للهروب من الميدان [٢] ، وفي مقابل هذه الصورة كانت هناك وجهات نظر أخرى تتوقع الهزيمة والسقوط في أيدي النصارى نتيجة للخلاف والشقاق وتكتب ذلك بأسلوب خفي لا يستجليه إلا باحث مدقق يستطيع أن يستكشف الأسباب التي أدت إلى ذلك الغموض [٣] .

وكان هذا الأسلوب والجدل أيضاً من عوامل الإرهارق النفسي والابتعاد عن الإنتاج العلمي الواضح والتدوين التاريخي دون الخوف من عاقبة ذلك .

وقد أصبحت المدن والقرى المتاخمة للحدود النصرانية فارغة من العلماء في هذه الحقبة من التأريخ [٤] لا سيما أنها كانت تتعرض بين الحين والآخر لتدمير النصارى مما أدى إلى انهيار مقوماتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وبالتالي هاجر منها العلماء والناس جميعاً إلى أقرب المدن الآمنة سواء في مملكة غرناطة أو ما وراء غرناطة ومن الأمثلة على ذلك أنه في سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م كان الملك النصراني فرناندو الثالث قد وجّه كل جهده نحو مدينة جيان ذات الأراضي الخصبة والموقع الاستراتيجي والقلعة الحصينة وجعلها أهم أهدافه فبدأها بالحرب الاقتصادية وذلك باغلاق مداخلها التي تتجه إلى إقليم عتقه [٥] ومنها إلى

---

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ص ١٨٦ حيث أورد نص الرسالة كاملاً .

(٢) الونشريسي : المعيار ، جـ١ ، ص ٤٣٢ .

(٣) مثال ذلك كتاب جنة الرضا لابن عاصم والذي قام د. سعد البشري بإيضاح الجانب الخفي منه في مقالته التي نشرها بمجلة عالم الكتب مج ١٧ ع ٨ الجماديان ١٤١٧هـ ، تحت عنوان كتاب جنة الرضا في التسليم بما قدّر الله وقضى لأبي يحيى محمد بن عاصم مصدر من مصادر التأريخ الأندلسي .

(٤) انظر القلصادي : رحلة القلصادي ، ص ٩٢ .

(٥) هو الإقليم الخصيب في مملكة غرناطة والذي يمد غرناطة بالمؤن الغذائية .

غرناطة فحاصر النصارى مدينة جيان نفسها عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م قاوم المسلمون فيها ببسالة لمدة سبعة شهور ، ولم تفلح جهود السلطان النصري محمد بن يوسف بن نصر في رفع الحصار عنها وإنقاذها وسقطت في أيدي النصارى ، وتم استسلام أهلها شريطة الخروج بأنفسهم [١] ، فخرجوا مهاجرين من ديارهم فمنهم من اتجه إلى بقية مدن مملكة غرناطة ومنهم من خرج خارج تلك المملكة ، وكان من بين سكان مدينة جيان محمد بن عبدا الله بن عبدا الله بن مالك الطائي الأندلسي الجياني الذي كان قد نشأ بها وتلقى تعليمه على عدد من أساتذتها وشيوخها منهم ثابت بن محمد بن يوسف بن خيار [٢] الذي كان ماهراً في تدريس اللغة العربية وإقراء القرآن بجيان ، كما درس على عدد من الشيوخ في مملكة غرناطة قبل رحيله وخروجه منها إلى المشرق الإسلامي . وفي سنة ٨٤٠هـ /١٤٣٦م وصل إلى تلمسان أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي إذ غادر مدينة بسطة وكان من بين أسباب خروجه تدهور الحياة العلمية فيها ، إذ كان الطموح العلمي لدى القلصادي يفوق العصر الذي عاش فيه بمسقط رأسه ، إذ بدأ المنحنى السياسي والعلمي يتجه نحو الأسفل لذلك كان لزاماً على القلصادي ومن هو في شاكلته أن تكون الرحلة العلمية من أولوياته ، ويعلق القلصادي على ذلك بقوله : ((هذا وقت كانت بسطة وسوق العلم فيها قائمة ، وكذلك كانت الحصون التي تلي بسطة ، الغالب على أئمتها أن يكونوا من أهل العلم . وقد كان يقع التنازع بين أهل الموضع فيمن يكون الإمام منهم ، فقد أدركت ذلك وشاهدته في حصن شوجر وقتالش ... وأما الآن :

فقد هَزُلتْ حتى بدا من هُزَالَها　　كلاها وحتى استامها كل مُفلِسِ)) [٣]

ولا شك أن ذلك كان من أسباب العدوان النصراني المستمر على مملكة غرناطة والذي أدى إلى خروج القلصادي ورحلته إلى شمال إفريقيا والمشرق ، وأدى تفاقم ذلك

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ، قسم الموحدين ، ص ٣٦٧ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٢٣١ .

(٣) رحلة القلصادي ، ص ٩١ ، ٩٢ .

العدوان أيضاً إلى خروج ابن الأزرق فكانت رحلة أخيرة اضطرارية لم يكن العلم بها مأربا ، ولا كان فيها مطلبا وإنما دفعت إليها بواعث السياسة والحرب ، وقد كان الحال في غرناطة قد وصل إلى القاع وكانت دولة الإسلام في غرناطة توشك على الوداع ... وظهرت علامات غياب ساعتها قريبة واحتدم الصراع بين أبناء البيت النصري وذهب أكثر أهل الفضل والعلم فكانت هذه الرحلة الأخيرة هي رحلة ابن الأزرق التي خرج فيها بإيعاز من السلطان أبي عبدا لله محمد الزغل للاستعانة بحكام المسلمين لانقاذ سفينة غرناطة الموشكة على الغرق ، ومن العجيب أن ابن الأزرق كان يستشعر وهو يخرج من غرناطة أنه لم يخرج سفيراً يؤدي رسالة ويعود حاملاً معه الرد من الذين وجهت إليهم الرسالة [١] .

وإنما كان يستشعر أنه يودع غرناطة إلى الأبد . يتضح ذلك من قوله حين وصل النصارى إلى مرج غرناطة :

مشوقٌ بخيماتِ الأحبـــةُ مُولَعُ ... تذُكرِّه نَجدُ وتُغْريه لعْلــــــعُ
مواضعكم يالائمين على الهوى ... فلم يبق للسُّلوان في القلب موضعُ
ومن لي بقلب تلتظي فيـه زفرة ... ومن لي بجفن تنهمي منه أدمــعُ [٢]

ولهذا تحولت سفارة ابن الأزرق إلى رحلة علمية عد صاحبها نهاية مرحلة الارتحال من غرناطة بني نصر ، وانتهز ابن الأزرق الفرصة وخرج من مصر سنة ٨٩٥هـ / ١٤٨٩م قاصداً حج بيت ا لله الحرام فأقام بالمدينة المنورة أربعة أشهر وبمكة شهرين ثم عاد إلى مصر عن طريق البحر ، ولما وصل القاهرة قصد المؤرخ شمس الدين عبدالرحمن السخاوي واستشاره في أوامر كانت قد صدرت من السلطان قاتيباي لتوليته قضاء القدس فأثنى عليه السخاوي وربما كان ذلك الثناء قد تم عند السلطان المملوكي وذلك نتيجة للمقابلة التي تمت بين العالمين إذ قال السخاوي ((وقصدني في ذلك ورأيته من رجال الدهر)) [٣] .

---

(١) انظر تفاصيل السفارة السياسية لابن الأزرق في ص ١٣٢ من الرسالة .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٧٠٤ .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، جـ ٩ ، ص ٢١ .

ثم توجه ابن الأزرق إلى بلاد الشام ليتولى قضاء بيت المقدس حسب الأوامر التي حصل عليها .

ولم يمكث ابن الأزرق في القدس بعد توليه القضاء فيها أكثر من شهر إذ توفي سنة ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م قبل سقوط بلاده في يد النصارى بقليل وصلي عليه بالمسجد الأقصى ، وكثر التأسف على فقده ودفن خارج باب خان الظاهر [١] .

ولابن الأزرق عدة مؤلفات في ميادين العلم والمعرفة تم تأليف أكثرها بغرناطة أذكر منها "الإبريز المسبوك في كيفية أدب سير الملوك " و " بدائع السلك في طبائع الملك " و " روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام " [٢] وغيرها من المؤلفات التي ختم بها ابن الأزرق الحياة العلمية .

لم يكن الإحساس بالخطر النصراني مقتصراً على هؤلاء الذين ذكرت وإنما الخطر كان ماثلاً أمام الجميع وما بين هجرة ابن مالك ورحلة القلصادي وهجرة ابن الأزرق رحلات وهجرات أخرى تدفقت على البلدان الإسلامية تعرضت لشرح تفاصيلها في النقطة الخاصة بتأثير العلماء الأندلسيين على البلدان التي هاجروا إليها .

ومع ذلك فإن جمهرةً كبيرة من العلماء كانت ترفض الهزيمة والفرار من المعركة وتشارك بالوقت والعلم والمال والنفس في الجهاد بصوره المختلفة من استخدام للسلاح وبناء للتحصينات كان ذلك يوم كانت حكومة مملكة غرناطة ما تزال متماسكة قوية وأيام أن كان المجتمع متماسكاً متعاوناً مع تلك الحكومة التي تقود سفينته إلى بر الأمان ، فهذا الشيخ أبو البركات الحاج البلفيقي يشارك بنفسه في إقامة التحصينات الدفاعية عن بلاده ويعمل بيديه في بناء الأسوار وحفر الآبار وفي ذلك يقول :

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، جـ ٩ ، ص ٢١ .

(٢) سبق التعريف بهذا الكتاب في الحديث عن اللغة العربية وعلومها .

في احتفارِ الأساسِ والآبـــارِ | وانتقال التراب والجيـــارِ
وقعودي ما بين رمل وأجـــرِ | وجصٍ والطوبِ والأحجارِ
وامتهاني بُرْدَيّ بالطين والماءِ | ورأسي ولحيتي بالغُبـــارِ [١]

إلى آخر القصيدة التي تقدم في الشيخ أبي البركات نموذجاً رائعاً من العلماء المجاهدين في سبيل الله وفي سبيل الذود عن الدين وعن الوطن في ساعة من أشد ساعات عسرته .
وجدير بالذكر أن تأريخ بني نصر وغرناطة كلها في القرن التاسع الهجري الرابع عشر الميلادي كان من جملة المجالات التي أهملت ولم تنل قسطاً من العناية ، ولهذا تكاد تكون المصادر النصرانية تنفرد بتسجيل وقائع كثيرة حول القرن التاسع الهجري لا سيما النصف الثاني منه .

وبالإضافة إلى الظروف العامة التي بسطت القول فيها هناك أمران يتعلقان بالعلم والعلماء مباشرة أما أولها :
فيتصل باستشهاد كثير من العلماء في عمليات الدفاع عن مملكة غرناطة وهذه صفحة شرف يجب أن تسجل لعلماء غرناطة [٢] .

وأما الأمر الثاني فيتمثل في سيطرة النصارى حين دخلوا غرناطة على المكتبات الإسلامية وكل مصادر التراث الإسلامي الغرناطي الذي كان في غرناطة سواء كان مجلوباً من المشرق أم أصيلاً في غرناطة من إبداع الغرناطيين أو من كافة العصور الأندلسية .

---

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ٥ ، ص ٤٧٢ .
(٢) من الأمثلة على ذلك انظر ص ٣٨٤ من الرسالة .

وهكذا تعاونت عوامل كثيرة أثرت على الحياة العلمية في غرناطة خلال القرن التاسع الهجري الذي كان يمضي بمنحى يتجه من الأعلى هابطاً مع مرور السنوات إلى القاع حتى انتهى مع حلول سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩١م إلى النهاية المؤسفة حين ضاعت الأندلس من الإسلام ومع ذلك يمكنني القول إن الحياة العلمية في غرناطة كانت شمعتها تضيء في جوانب علمية كثيرة حتى لحظة دخول النصارى بل استمرت العلوم الشرعية تساير الوضع الجديد الذي وقع فيه المسلمون تحت سيطرة النصارى مما زاد الموسوعة الإسلامية الفقهية شمولاً لمختلف جوانب الحياة .

تأثير علماء مملكة غرناطة على الحياة العلمية في البلدان التي هاجروا إليها :

أ- في المغرب الإسلامي

سبقت الإشارة إلى بواعث الرحلة العلمية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية مشرقاً ومغرباً ، وغني عن البيان أن أعظم علماء مملكة غرناطة قد امتزجت لديهم الثقافة الغرناطية بالمغربية ، وهذا ناتج عن الارتباط الوثيق بين العدوتين أرضاً وتأريخاً وعقيدة وحضارة ، فكان من الطبيعي أن تنشط رحلات الذهاب والإياب بين الطلاب وعلماء مملكة غرناطة وطلاب وعلماء الشمال الإفريقي وكان ذلك أشبه ما يكون بخلية نحل أو نمل لا تهدأ في جمع أرزاقها أو اخراج ما تم استهلاكه من منازلها ، ولهذا تبدوا محاولة الإحاطة بكل من رحل من مملكة غرناطة إلى شمال إفريقيا أو بكل الذين رحلوا من الشمال الإفريقي إلى مملكة غرناطة صعبة ، إن لم تكن مستحيلة ، وحسبي أن أقدم البارزين وتأثيراتهم الذين يمثلون مشاعل ضوء دالة على مستوى التفاعل الحضاري ، من هؤلاء الأفذاذ الذين كان هم تأثير وتأثر من خلال رحلاتهم العلمية ، مفضل بن محمد بن محمد بن إبراهيم العذري الذي كان قد رحل إلى المشرق ، وبعد عودته إلى مملكة غرناطة واستزادته من العلم في رحلته تولى القضاء في مدينة المرية ، وبرجة ووادي آش ومالقة ، ثم عبر البحر إلى بر العدوة لاستكمال الثقافة المغربية والمشرقية والغرناطية ، فولاه السلطان المريني يعقوب بن عبدالحق قضاء الجماعة بمدينة فاس مقدراً مكانته العلمية فكانت له تأثيراته في هذا المجال .

ومن الجدير بالذكر أن السلطان يعقوب قد ولى مفضل بن محمد السلطتين التنفيذية والتشريعية في فاس ، إذ جعل له النظر على صاحب الشرطة ، وصاحب الحسبة ، فكانا لا يقطعان أمراً دونه (١) .

---

(١) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، جـ ١ ، ص ٣٣٩ .

ولم تقتصر مشاركة وتأثيرات مفضل بن محمد على الناحية الإدارية في الدولة المرينية ، بل ساهم أيضاً في النهضة العلمية ، فعلى يديه كانت فكرة إنشاء المدارس بمدينة فاس وفي ذلك يقول ابن القاضي ((وعلى يديه بنيت المدرسة القديمة التي بالحلوفين بقبلة جامع القرويين ، وهو أول من سن سنة بناء المدارس بحضرة فاس)) [١] .

وممن رحل من غرناطة إلى المغرب الأوسط محمد بن عبدا الله بن داود بن خطاب الغافقي الذي كان في مملكة غرناطة شاعراً مجيداً ، مشاركاً في علم الفقه والكلام التحق بديوان الإنشاء بقصر الحمراء ـ إلا أنه غادر مملكة غرناطة متجهاً إلى بر العدوة واستقر بمدينة تلمسان ، وتولى الكتابة للسلطان الزياني أبي يحيى يغمرآسن بن زيان . ونظراً للتنافس القائم بين دول شمال إفريقيا في استقطاب الخبرات الغرناطية للنهوض بالمستوى الإداري فيها . فقد بعث إليه السلطان الحفصي المستنصر أبو عبدا الله بن أبي زكريا يطلب منه القدوم إلى تونس ، وبعد قدومه عليها بعث إليه بمبلغ ألف دينار من الذهب العين ، إلا أن محمد بن عبدا الله بن داود رفض المال ورده على السلطان الحفصي وكان ذلك من أشق ما مر على المستنصر [٢] . وأظهر هذا التصرف من قبل العالم الغرناطي المذكور بعد همته وعلو شأنه [٣] . وعاد محمد بن عبدا الله بن داود الغافقي إلى الخدمة في دولة بني زيان وبقي فيها إلى أن توفي سنة ٦٨٦هـ [٤] /١٢٨٧م .

كما يدل هذا أيضاً على مدى حرص سلاطين بني زيان وسلاطين بني حفص على استقطاب الخبرات العلمية الأندلسية ذات التأثير والفاعلية ورعاية العلماء منهم والاغداق عليهم بالأعطيات والأرزاق بالإضافة إلى تمتع الدولة الحفصية بالأمن والاستقرار النسبي والازدهار

---

(١) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، جـ ١ ، ص ٣٣٩ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٤٢٧ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٣٣ .

الحضاري [١] .

وممن رحل من مملكة غرناطة إلى تونس وساهم في الحركة العلمية بها الشيخ أبو العباس أحمد ابن أبي عبدا لله محمد بن عبدالرحمن بن الفخار البلنسي ، تولى القضاء في مدينة قسنطينة وبجاية وتولى الخطابة بمساجدها ثم تولى قضاء الجماعة في مدينة تونس من تلاميذه محمد بن جابر الوادي آشي الأصل التونسي مولداً و قرارًا وهو يقول في ذلك : ((قرأت عليه وسمعت كثيراً مما يطول ذكره ... وقد أجازني في كل ما تصح روايته بشروطها ، ولازمته إلى أن توفي ليلة يوم الخميس العاشر لمحرم عام ثلاثة وتسعين وستمائة [٢] .

وكان ممن رحلوا من مملكة غرناطة وكانت لهم تأثيراتهم أحمد بن عبدالنور بن أحمد ابن راشد المالقي الذي تلقى تعليمه بمدينة مالقة على يد الأستاذ أبي الحجاج يوسف بن إبراهيم بن يوسف المربلي وغيره ، إلا أن شهرة مدينة سبتة المغربية العلمية ذاعت لأنها كانت ملتقى لعلماء المشرق والمغرب والأندلس ، وكذا جذبته إليها فوصل إليها وتلقى المزيد من التعليم بها والتقى بعدد من علمائها وتحاور معهم مما أهله بعد عودته للتدريس ، وبث ما كان يحسنه من الفنون [٣] .

ثم عاد إلى مملكة غرناطة وكان فيها إماماً في علم العربية بالإضافة إلى علمه بعلوم أخرى مثل علم المنطق وله عدة مؤلفات منها " رصف المباني في شرح حروف المعاني " و "شرح كراسة أبي موسى الجزولي " وغيرها ، وبلا شك فإنه كانت للرحلة العلمية لأحمد بن عبدالنور إلى مدينة سبتة اثر كبير في تكوين ثقافته ، وإن كانت المصادر التي اطلعت عليها

---

(١) أبو مصطفى : كمال السيد ، الأندلسيون وإسهاماتهم الحضارية منذ القرن السابع حتى أوائل القرن الحادي عشر ن مقالة منشورة في مجلة كلية التربية ، جامعة الإسكندرية العدد الأول ١٩٩٢م ، ص ٣٥٥ .

(٢) الوادي آشي : محمد بن جابر ، برنامج الوادي آشي ، تحقيق محمد محفوظ ، ط٢ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨١م ، ص ٣٩ .

(٣) ابن القاضي : درة الحجال ، جـ ١ ص ١٢٣ .

لم تفصح عن نوعية العلوم التي تلقاها هناك ، توفي أحمد بن عبدالنور سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م بمدينة المرية [١] .

وممن رحل إلى سبتة لغرض الاستفادة والتحصيل العلمي وقد تأثر علمياً في رحلته محمد بن محمد بن محارب الصريحي من أهل مالقة قرأ على يد الأستاذ القاضي أبي عبدا الله بن أبي بكر ، رحل إلى سبتة فقرأ بها على يد الأستاذ أبي إسحاق الغافقي ومن عاصره من علماء سبتة ، ثم عاد إلى مالقة ، ونتيجة مباشرة لتحصيله العلمي في سبتة عُين مدرساً بمالقة والتزم التدريس بها إلى حين وفاته بمالقة سنة ٧٥٠هـ /١٣٤٩م بعد أن تصدق بمال كثير وعهد بريع مُجدٍ لطلبة العلم وحبس عليهم كتبه [٢] .

ومن هؤلاء المرتحلين محمد بن علي بن عمر بن يحيى العربي الغساني من أهل الحمة ، تلقى تعليمه بالمرية على يد شيخها أبي الحسن بن أبي العيش ، وبغرناطة على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير ، وأبي الحسن بن مستقور وغيرهم إلا أنه رحل إلى بر العدوة وقرأ بمكناسة [٣] على يد القاضي وارياش .

وبفاس سمع من الحاج الخطيب أبي الربيع سليمان بن مفتاح البجائي والأستاذ أبي الحسن بن سليمان والأستاذ أبي عبدا الله بن أجروم الصنهاجي والحاج أبي القاسم بن رجا ابن محمد علي وغيرهم ، وكل من ذكرته أجازه إجازة عامة إلا قاضي مكناسة أبا عبدا الله محمد بن علي الشهر بوارياش ، ثم انتقل إلى سبتة فدرس بها على يد الأستاذ أبي إسحاق الغافقي والخطيب أبي عبدا الله الغماري [٤] .

---

(١) ابن القاضي : درة الحجال ، جـ ١ ص ١٢٣ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٩٧ .

(٣) مكناسة : مدينة من مدن المغرب الأقصى على مقربة من فاس ، اشتهرت بالحياة الزراعية والعلمية وصناعة الأواني الفخارية (انظر ابن الخطيب ، معيار الاختيار ، ص ١٦٥ ، ١٧٢) .

(٤) ابن الخطيب : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٩٧ .

ونتيجة لذلك اكتسب المزيد من العلم والمعرفة في ميدان علم القراءات مع العناية بعلم العربية والعلوم الشرعية ، وبعد عودته من رحلته العلمية تلك عمل مدرساً ومقرئاً بالحمة المذكورة (١) مما سهل لأهل القرى والحصون الشرقية من مملكة غرناطة الذهاب إلى مدينة الحمة لتلقي العلم على يديه وتخرج على يديه جمع وافر من الطلبة عمرت بهم سائر تلك الحصون (٢) ويعلق ابن الخطيب على ذلك بقوله : ((وقد كانت الحواضر فقيرة لمثله ، غير أنه آثر الوطن واختار الاقتصاد)) (٣) أي أن المدن الرئيسة كانت بحاجة إلى خبراته التعليمية إلا أنه آثر التدريس بمدينة الحمة مما كان له أكبر الأثر في استفادة أهل القرى من تدريسه ، كما تلقى التعليم على يديه المرابطون على الحدود الشرقية في مملكة غرناطة الذين عمرت بهم سائر تلك الحصون (٤) وبقي بها مدرساً إلى أن توفي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة (٥) .

وممن رحل إلى المغرب وكانت له مشاركة وتأثيرات علمية هناك علي بن إبراهيم بن علي الأنصاري المالقي الذي كان في مملكة غرناطة آية في الحفظ والنجابة في الفنون وفصاحة الإلقاء (٦) . قائماً على التفسير وإماماً في اللغة العربية لا يشق فيها غباره (٧) ، فرحل من بلدة مالقة ونزل إلى بر العدوة متجهاً إلى المغرب الأقصى بقصد طلب العلم والاستزادة منه فقرأ على يد علماء المغرب أمثال الرئيس أبي محمد الحضرمي والقاضي

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٩٧ .
(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٩٧ .
(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٩٦ .
(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٩٧ .
(٦) نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ١١٧ .
(٧) نفس المصدر والجزء والصفحة .

أبي عبدا لله المقري وغيرهم (١) . ثم اتجه إلى مدينة أنفا (٢) وعمل بالتدريس والإقراء بها (٣) ، وبعد فترة من الزمن غادر مدينة أنفا إلى مدينة سلا وعمل مديراً لمدرستها ومدرساً للتفسير حيث كان يفسر كتاب ا لله بين العشائين وفي الصباح يُدرس بالمدرسة المذكورة بسلا اللغة العربية والفقه بالإضافة إلى عمله الإداري ، ثم عاد إلى مملكة غرناطة وقال في عودته ابن الخطيب : وهو الآن بحاله الموصوفة قاضياً بشرقي مالقة (٤) .

ومن غرناطة رحل الطبيب غالب بن علي بن محمد اللخمي الشقوري الذي كان من أهل الفضل والديانة ، ومن بيت طب وله خبرة فكانت رحلته أولاً إلى المشرق .

وفي أثناء عودته في طريقه إلى مملكة غرناطة استقر لفترة من الزمن بمدينة بجاية محطة العلماء ما بين المشرق والمغرب ، فزاول بها الطب ثم عاد إلى غرناطة ثم ارتحل من مملكة غرناطة بعد أن عمل طبيباً بالحمراء إلى بر العدوة ولا اعرف أسباب مغادرته غرناطة إلى المغرب الأقصى التي ما إن وصل إليها حتى ولاه السلطان المريني أبو سعيد خطة الحسبة بمدينة فاس (٥) .

ويقول ابن الخطيب إن حال الطبيب الشقوري قد حَسُنتْ في المغرب إذ اكتسب المال وأثرى (٦) وربما كانت تلك هي إحدى المغريات لهذا الطبيب على مغادرة وطنه غرناطة

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٤ ، ص ١١٧ .

(٢) أنفا : مدينة من مدن المغرب الأقصى تقع على ساحل المحيط ، تشتهر بالزراعة ولا سيما زراعة القمح الذي كانت تستورده مملكة غرناطة والذي وصف ابن الخطيب بُرَّها بانه يبادل بالذهب (انظر معيار الاختيار ، ص ١٥٦) .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٤ ، ص ١١٨ .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤١ .

(٦) نفس المصدر والجزء والصفحة .

وقد توفي الطبيب غالب بن علي الشقوري عام ٧٤١هـ(١) / ١٣٤٠م .
ورحل أيضاً من مملكة غرناطة إلى مدينة سبتة الشيخ أبو عبدا لله محمد بن محمد بن بيش العبدري ، وكان نحوياً حافظاً راوية كان جل اهتمامه بكتب الصحاح(٢) . إلا أن رحلة محمد بن بيش العبدري تختلف عن الرحلات الأخرى في كون هذا الشيخ اقتصر على التجارة في الكتب بين غرناطة وسبتة ولا سيما أنه أثرى منها وحسنت حاله(٣) ، وكانت تأثيراته تتمثل في قيامه بالتدريس والإقراء في مسجد زقاق الفضل ، وعليه قرأ الشيخ أبو عبدا لله بن الأصفر النحوي(٤) ، ولما وصل ابن الخطيب إلى مدينة سبتة سنة ٧٥٢هـ /١٣٥١م استدعاه للعودة إلى وطنه فوافق على ذلك وعاد إلى غرناطة وعمل بها مدرساً إلى ان توفي في سنة ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م ودفن في باب ألبيرة(٥) .
وكذلك الطبيب محمد بن قاسم بن بكر القرشي المالكي رحل من مالقة وكان كاتباً بارع الكتابة ونظم الشعر ، عارفاً بالطب فكان من تأثيراته الإشراف على المارستان بفاس وتوفي سنة ٧٥٧هـ /١٣٥٦م وله أربع وخمسون سنة(٦) .

ومن مدينة المرية رحل الشيخ أبو البركات بن الحاج البلفيقي إلى الشمال الإفريقي فركب البحر إلى بجاية ، وهناك أتيحت له فرصة الاحتكاك بعلماء بجاية وطلبتها ، ويصف ابن الخطيب رحلة أستاذه إلى شمال إفريقيا بقوله : ((ثم ترامى إلى رحله فجاس القطر

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٤ ، ص ٢٤١ .
(٢) ابن الخطيب : الكتيبة الكامنة ، ص ٩٠ .
(٣) ابن الخطيب : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٧ .
(٤) مجهول : بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب ، تحقيق عبدالوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٤٠٤هـ ، ص ٣٥ .
(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٢٧ .
(٦) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ٤ ص ١٤٣ .

الغربي إلى بجاية نافضاً إياه من العلماء والصلحاء والأدباء بتقيده وأخذه قيام ذكر وإغفال شهرة ثم صرف عنانه إلى الأندلس)) [١] ، ولم يذكر ابن الخطيب أسماء الشيوخ الذين اخذ عنهم الأستاذ أبو البركات بن الحاج أثناء إقامته ببجاية ، لكن النُباهي تلميذه أيضاً ألقى مزيداً من الأضواء على تلك الرحلة ، وقال إن أبا البركات قد لقي ببجاية المدرس المعمر أبا علي بن منصور بن أحمد بن عبدالحق المشدالي وحضر مجالسه العلمية وأخذ عنه وعن غيره من أهلها [٢] . وواصل تجوله في الشمال الإفريقي متجهاً إلى مراكش وبعد تجواله في المغرب الأقصى اتجه إلى سبتة وقرر الإقامة بها والسكن فيها ، إذ إن جده الأقرب قد استوطنها [٣] . ويعلق ابن الخطيب على التحصيل العلمي لأبي البركات في رحلته المشار إليها بقوله : ((فحصل واستفاد واقتنى من كنوز رحلته ما لا يخاف عليه النفاد)) [٤] . ثم عاد أبو البركات إلى مدينة مالقة فقعد بمجلس الاقراء يعلم الناس (صحيح مسلم) .

ولست هنا بصدد تتبع رحلات أبي البركات المتكررة إلى الشمال الإفريقي ، وكفاه فخراً أن من تلامذته ابن خلدون ، وابن الخطيب والنباهي وغيرهم ، وترك أبو البركات بصمات واضحة على الحياة العلمية في الشمال الإفريقي وكان استقراره النهائي بمدينة المرية قاضياً

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ص ١٤٤ .

(٢) تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ص ١٤٤ .

(٤) أوصاف الناس في التواريخ والصلات ، تحقيق محمد كمال شبانه ، طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة ، (د.ت) ص ٢٨ ، ٢٩ .

وخطيباً بها إلى أن توفي في شهر رمضان عام ٧٧٣هـ [١] / ١٣٧١م .

ومن جمعوا في رحلاتهم بين المشرق والمغرب في طريق ذهابهم وإيابهم خالد بن عيسى البلوي الذي سبق أن أشرت بأنه قد حط رحاله في عام ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م في مرسى هنين ومنها بدأ نشاطه العلمي ، إذ التقى البلوي بغرناطي آخر خرج من بلاده أيضاً لطلب العلم فجبر وحشته بالإيناس كان ذلك الغرناطي هو عبدا الله بن جابر [٢] ، ومن هنين اتجه البلوي إلى تلمسان فالتقى بعدد من العلماء والأدباء منهم أبو عبدا الله محمد بن عمر بن رشيد أنشده بعضاً من الأبيات الشعرية منسوبة إلى أبي بكر بن خطاب مطلعها :

سرى البدر فارتاع الفؤاد لومضه

فبت وجفني لم يذق طعم غمضه [٣]

ولما وصل البلوي إلى بجاية كان أول لقاءاته العلمية فيها بالشيخ أبي عبدا الله محمد بن جعفر الذي استضافه إلى منزله وفي ذلك يقول البلوي : ((فأنزلني بمنزله الكريم وقابلني بالترفيع والتكريم وأقمت معه يفيض عليّ من كرمه بحراً زاخراً ويفاوضني من علمه متصلاً لا أجد له آخرا)) [٤] سمع عليه البلوي مؤلفات كثيرة وأجازه وكتب له إجازة بخط يده وصفه البلوي بأنه كان إمام هدى وعدالة ووحيد معارف [٥] . كما التقى أيضاً بالعديد من الفضلاء والعلماء بقصد رؤيتهم والرواية عنهم [٦] .

---

(١) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١٦٦ .

(٢) سبق الحديث عن رحلة عبدا الله بن جابر إلى المشرق .

(٣) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ص ١٥٠ .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٤ .

(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٥ .

(٦) نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

ثم غادر بجاية نحو مدينة قسنطينة (١) التي ما إن وصلها حتى بادر كعادته في الاتجاه إلى دور العلم ، حيث ملتقى العلماء والطلاب ومناقشتهم ومحاورتهم والأخذ عنهم ، فمن التقى منهم من علماء قسنطينة الإمام الراوية أبو الحسن علي بن عبدا لله الذي أنشده عدداً من الأبيات والقصائد (٢) .

وفي تونس التي وصلها كان أول لقائه بالشيخ أبي الحسين علي المشتهر بالمنتصر الذي غمره بحسن المعاملة وكرم الضيافة ، وقال في ذلك البلوي : ((وخيمت بشوارف ظلاله فألفيتُ فيه ... مأوىً كريماً وأباً براً رحيماً أوسعني إفادة ونصحاً وتعليماً)) (٣) .

كما تقابل مع خطيب الجامع الأعظم بتونس أبي عبدا لله بن عبدالستار الذي كان بارعاً في علم التفسير والأحاديث النبوية ، وتمت الزيارة والمقابلة في مدرسة الكتبين التي كان يدرس فيها الشيخ أبو عبدا لله بن عبدالستار العلوم فسمع عليه كثيراً من التفسير والحديث والفروع (٤) ، كما حصل على إجازة من أبي عبدا لله بن الحباب مدرس العلوم إذ سمع منه وأجازه الإجازة التامة (٥) .

وحضر دروس الأستاذ أبي عبدا لله بن عبدالسلام في منزله وسمع منه موطأ الإمام

---

(١) قُسَنْطِينَه : بالضم ثم الفتح ، ثم نون وطاء مكسورة ، وياء مثناه ، ونون بعدها ياء خفيفة وهاء ، بلدة بالمغرب الأوسط من حدود إفريقية (انظر البغدادي : صفي الدين بن عبدالمؤمن ، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكانة والبقاع وهو مختصر معجم البلدان لياقوت تحقيق علي محمد البجاوي ، ثلاثة أجزاء ، دار المعرفة ، بيروت جـ ٣) ط١ ، ١٣٧٤هـ ، ص١٠٩٢ ، ١٠٩٣ .

(٢) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ١٦١ .

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٧ .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٩ .

(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ١٧٧ .

مالك بن أنس ـ رضي ا الله عنه ـ وأذن له في روايته [(١)] .
وقيد البلوي كثيراً من الآداب والشعر عن عدد من العلماء الذين التقى بهم وبغيرهم وثمة لقاءات علمية للبلوي أثناء عودته من المشرق لا يتسع المجال لتتبعها ، وتمثلت تأثيرات البلوي في لقاءاته واحتكاكاته العلمية فكان يأخذ من العلماء ويعطى لهم ما عنده من معلومات في شتى العلوم .

وبعد حوالي العام من مغادرة البلوي شواطئ غرناطة تجاه الشمال الإفريقي والمشرق غادر إبراهيم بن عبدا الله بن محمد بن إبراهيم يُكنى أبا إسحاق ويعرف بابن الحاج ، وكانت الظروف في غرناطة هيأت لأبي إسحاق النبوغ والتعلم في أسرته المقربة من بني نصر ، ودخل ضمن كتاب ديوان الإنشاء وذلك عام ٧٣٤هـ [(٢)] / ١٣٣٣م .

وفيما يبدو لي أن ابن الحاج كان هدفه في بداية الأمر الحج إلى بيت ا الله الحرام ، وبالرغم من أنه التقى في الإسكندرية بالرحالة البلوي وخبر البلوي نشاط صاحبه في المشرق قائلاً إنه حج وتطوف وقيد واستكثر ودون في رحلته سفره وناهيك بها طرفه [(٣)] .
إلا أن رحلته لم تصل كما وصلت رحلة البلوي ، وعلى أية حال فليس ثمة شك في أن المشرق الإسلامي قد أثر في الحياة العلمية لابن الحاج النميري ، فقد ذكر ابن الخطيب أن لإبن الحاج كتاباً في رجز الفرائض على الطريقة البديعية التي ظهرت ببلاد المشرق [(٤)] .
وفي أثناء عودة ابن الحاج من المشرق إلى غرناطة عن طريق المغرب وهو ما نحن بصدده ، وكما هي عادة الدولة الحفصية في استقطاب المواهب الغرناطية ذات الخبرة والكفاءة العلمية العالية استدعاه السلطان الحفصي وولاه الكتابة والإنشاء في بجاية [(٥)] .

---

(١) البلوي ، تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ١٧٧ .
(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .
(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٤٤ .
(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٤٧ .
(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

وكما هي الحال مع معاصره في الرحلة البلوي لم تطب له تلك الوظيفة ورحل إلى المغرب الأقصى والتحق بخدمة السلطان المريني أبي الحسن ، ومن بعده ابنه أبي عنان ، ومن الجدير بالذكر أنه بعد وفاة السلطان المريني أبي الحسن عاد ابن الحاج النميري إلى غرناطة واحتل مكانة رفيعة لدى سلطانها محمد الخامس وعُين قاضياً قرب العاصمة غرناطة متبوئاً في مجتمعه مكانة مرموقة [١] .

وخلال إقامته في المغرب ألف ابن الحاج عدة مؤلفات منها " مذكرات ابن الحاج النميري " و " فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب " ، وفي هذا الكتاب وصف تأريخي وسياسي واجتماعي هام لجهود السلطان المريني أبي الحسين المتمثلة في محاولة توحيد بلاد المغرب .... ولم أستطع معرفة سنة وفاة ابن الحاج فيما توفر لدي من مصادر ولكنها تقريباً سنة ٧٧٤هـ /١٣٧٢م .

ومن بين علماء غرناطة الذين هاجروا من بلادهم بعد معركة طريف أبو القاسم عبدا الله بن يوسف بن رضوان الذي عاش ونشأ بمدينة مالقة على أحسن حال [٢] .

وقد نشأ أبو القاسم رضوان في أسرة علمية إذ كان والده رضوان قد تولى قيادة الجند كما كان أيضاً فقيهاً مشاركاً في حمل العلوم [٣] ، وبعد أن تلقى أبو القاسم تعليمه ودراسته في مدينة مالقة على يد عدد من العلماء ومنهم النحوي أبو علي الفخار والفقيه أبو البركات ابن الحاج البلفيقي وأبو القاسم بن جزي وغيرهم ((فارتسم ببلده مالقه في العدول فلم يظهر له عن الحق العدول ثم قوضت عن الأندلس للعدوة رحاله)) [٤] ، ويبدو غريباً مع هذه الظروف مغادرة أبي القاسم رضوان لغرناطة ، وعندما وصل ابن رضوان إلى سبتة لقي

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ص ٣٤٥ .

(٢) ابن الأحمر : نثير الجمان ، ص ٢٣٥ .

(٣) ابن الأحمر : مستودع العلامة ، ص ٥٢ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٥١ .

بها السلطان المريني أبا الحسن ومدحه وأجازه [1] وبطبيعة الحال ، فإن حصول ابن رضوان على إجازة السلطان أبي الحسن زاد من مكانته العلمية ، وبالتالي زاد قربة أكثر من القاضي إبراهيم بن عبدالرحمن التسولي الذي كان قد قدمه إلى السلطان المريني ، وكان ينوب عنه في القضاء والخطابة [2] ، وضمه إلى جملة الكتاب بباب السلطان فتولى العلامة [3] التي توضع عن السلطان أسفل المراسيم والمخاطبات . ومنذ ذلك الحين بدأ رضوان يلعب دوراً مؤثراً في الحياة السياسية والإدارية في مملكة بني مرين ، بالإضافة إلى احتكاكه بالعلماء والأدباء في المغرب مما أتاح له الفرصة للأخذ عن الكثير منهم ، وعلى رأسهم الكاتب الشهير أبو محمد عبدالمهيمن بن محمد بن عبدالمهيمن الحضرمي .

وليس مهماً في هذا المقام تتبع حياة ابن رضوان في المغرب بقدر ما يهمني إيضاح الجوانب العلمية في حياته الحافلة بالعطاء ، من المعروف عن السلطان أبي الحسن محاولته الاستيلاء على الشمال الإفريقي إذ غزا تونس بعد أن أخضع المغرب الأوسط وكان ابن رضوان من جملة الحملة العلمية والإدارية المرافقة للسلطان ، وهناك أي في تونس التقى بالعالم ابن خلدون الذي وصف هذا اللقاء بقوله : ((وممن قدم في جملة السلطان أبي الحسن صاحبنا أبو القاسم هذا من مفاخر المغرب في براعة خطه وكثرة علمه وحسن سمعته وإجادته في فقه الوثائق ، والبلاغة في الترسيل عن السلطان ... والخطابة على المنابر ... فلما قدم عليّ بتونس ، صحبته واغتبطت به وإن لم أتخذه شيخاً ، لمقاربة السن ، فقد أخذت منه كما أخذت منهم)) [4] .

وبعد وفاة السلطان أبي الحسن فإن ابن رضوان لم يفقد مكانته في البلاط المريني وتوالت تأثيراته فكان في عهد السلطان أبي فارس كاتب الدولة المرينية ورئيس كتابها والمعظم في

(١) ابن خلدون : التعريف ، ص ٤١ .
(٢) ابن الأحمر : مستودع العلامة ، ص ٥١ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) التعريف ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

وزرائها وحجابها [(١)] .

ومهما يكن من امر إقامة ابن رضوان في المغرب وتردده إلى غرناطة مراراً فإنه خلال إقامته بالمغرب منح الإجازة لعدد من المفكرين والعلماء والأدباء وكان من بين من حصل على إجازته ابن الأحمر الذي قال في ذلك : ((واستجزت علمه فأباح لي الإجازة)) [(٢)] .

وألّف ابن رضوان خلال إقامته في المغرب كتاباً أسماه (الشهب اللامعة في السياسة النافعة) [(٣)] ، أراد فيما يبدو لي من وراء تأليفه أن يرسم إطارًا للحكم وذلك لما شاهده من اضطراب في دولة بني مرين وعدم استقرار سياسي داخلي ، وهذا الكتاب استلهم منه ابن الأزرق محاولته هو الآخر رسم إطار لحكومة دولة بني نصر التي انفرط عقدها بسبب الصراعات والخلافات السياسية بين حكامها في كتابه (بدائع السلك في طبائع الملك) ، توفي أبو القاسم رضوان بمدينة أنفا المغربية سنة ٧٨٣هـ [(٤)] /١٣٨١م .

وإن كان قد سبقت الإشارة إلى رحلة ابن الخطيب إلى المغرب الأقصى إلا أنه من الضروري الإيضاح هنا عن تأثيراته وتأثره خلال تلك الرحلة ، فلما وصل ابن الخطيب إلى المغرب لم يقنع بالإقامة في مدينة فاس عاصمة بني مرين كما كان حال سلطانه وبقية الحاشية اللاجئة معه [(٥)] ، بل قام بجولات علمية داخل المغرب الأقصى ، وقد اتسمت رحلة ابن الخطيب هذه بالوصف الجغرافي وبالملاحظات العفوية للأحوال الاجتماعية الخاصة والعامة . فمن الأحوال الاجتماعية رصده لتقديم بعض المأكولات من قبل الوجهاء والأعيان [(٦)] .

---

(١) ابن الأحمر : نثير الجمان ص ٢٣٥ .

(٢) مستودع العلامة ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) حققه د. علي سامي النشار ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٤٠٤هـ .

(٤) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، جـ ٢ ص ٤٣٧ .

(٥) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، جـ ٢ حيث ترد أسماء اللاجئين ص ١٧٩ .

(٦) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

ومن الأحوال العامة وصفه لصفات أهالي مدينة أغمات ونحوها [١] ، بخلاف رحلة معاصره البلوي التي كان الهدف منها التحصيل العلمي ، والإجازة وإن كانت هناك لقاءات علمية لابن الخطيب إلا أنها ليست على المستوى الذي وجدته في رحلة البلوي إلى المشرق والمغرب ، فرحلة ابن الخطيب كانت رسمية أكثر منها علمية ، نظراً لمكانته كوزير لاجئ يتنقل في أرجاء المغرب بحذر وتحت أعين وحراسة بني مرين ، كما أنه من الملاحظ أن لقاءاته كانت تتركز في رجال الدولة المرينية مثل لقائه بصاحب الأشغال أبي الحسين بن أبي محمد عبدا لله بن أبي مدين [٢] . والذي دارت بينه وبين ابن الخطيب مخاطبات منها ما وجه به أبو مدين إلى لسان الدين بن الخطيب :

أيا سيداً حاز سبق العلا ... بفضل النهى والسجايا الحسان
ويا نخبة الوقت والمقتدى ... به في فنون علوم اللسان [٣]

أما عن لقاءاته بعلماء المغرب فقد تمثل في لقائه في مدينة أسفي [٤] بالشيخ الفقيه القاضي أبي محمد عبدا لله بن محمد بن عبدا لله الهرغي الذي كان قاضياً بمراكش قبل توليه

---

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، جـ ٢ ، ص ٥٤ ، ٥٥ . ومدينة أغمات : هي مدينة مغربية قديمة كانت عامرة مزدهرة تقصدها القوافل التجارية خاصة أيام الأدارسة ، إليها نفي المعتمد بن عباد وبها توفي ولم يبق من هذه المدينة اليوم سوى الأطلال البالية (انظر الصديق العربي : كتاب المغرب ، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، دار الغرب الإسلامي ط٣ ، ١٤٠٤هـ ، ص ٥٨ ، ٥٩) .

(٢) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، جـ ٢ ص ٦١ .

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٦٢ .

(٤) أسفي : بالمد والسين المهملة مفتوحة وفاء مكسورة بلدة على شاطئ البحر المتوسط بأقصى المغرب . انظر (الإدريسي : أبي عبدا لله محمد بن محمد بن عبدا لله بن إدريس الحمودي الحسني : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، عالم الكتب ط١ جزءان ١٤٠٩هـ) جـ ٢ ص ٥٤٩ .

قضاء سبتة وأغمات [١] ، وقد وصف ابن الخطيب مكانته العلمية بأنه : ((جم المشاركة في حديث ورواية وتأريخ وأن له مشاركات في النظم والنثر كما أنه رحل وجمع ولقي كثيرًا من الفضلاء)) [٢] .

ومن الأعلام الذين التقى بهم ابن الخطيب كذلك الأستاذ بالمدرسة العظمى والذي يوصف بأنه من أهل العلم والفضل والمشاركة ، وهو شيخ النحاة في مملكة غرناطة وقد زاول في المغرب الأقصى مهنة تدريس اللغة العربية بمدينة أسفي [٣] ، وفي مدينة أسفي التقى ابن الخطيب بصاحب السوق فيها ومقيم رسم المارستان والمشرف عليه ، وهو من أهالي مملكة غرناطة ويدعى أبا الضياء منير بن أحمد بن محمد بن منير الهاشمي الجزيري [٤] .

وعندما زار ابن الخطيب مدينة دكالة [٥] المغربية طلب على غير عادة منه الإجازة من أحد علمائها . وهو ما لم يطلبه ممن التقى بهم من قبل ، وكان الشيخ الذي طلب منه الإجازة هو قاضي دكالة الحاج أبو عبدا الله محمد بن سعيد بن عثمان بن سعيد الصنهاجي الزموري ، فقال وسألته الإجازة فيما يحمله واكتساب شيء من منظومه الكثير [٦] .

كما تقابل أيضاً مع القاضي والمدرس بمدينة أنفا أبي بكر عثمان بن صالح المسراتي المراكشي ثم عاد إلى مدينة سلا [٧] ، وفي مكناسة الزيتون قال ابن الخطيب : ((لما دخلت

---

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، جـ٢ ، ص ٦٢ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٦٣ .

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٧٣ .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٧٢ .

(٥) دكالة : نسبة لقبيلة من قبائل البربر وهي ملتقى تجاري لقبائل البربر ، أشار ابن الخطيب إلى أن بها سوقاً يحشر إليه الناس ضحى (انظر ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، جـ ٢ ص٧٤) .

(٦) ابن الخطيب : نفس المصدر والجزء ، ص ٧٦ .

(٧) نفس المصدر والجزء ص ٧٩ .

مكناسة الزيتون سنة إحدى وستين وسبعمائة نزلت بدار حافلة وأتت إلي القضاه ، والعدول والأدباء والفضلاء)) [١] ، وهذا يؤكد المكانة العلمية والسمعة الـتي حازهـا ابـن الخطيـب والتي جعلت العلماء والأدباء في المغرب يأتون إلى مقر إقامته وكان من جملـة مـن زاروه أبـو محمد عبدالحق بن سعيد بن محمد ولم يكن ابن الخطيب معلماً فقط بـل متعلمـاً منهـم ، فقـد قرأ على أبي محمد عبدالحق من تقييده على الفتوى المسماه بالحاكمة وسماها " بالجازمة علـى الرسالة الحاكمة " ، ويقول ابن الخطيب في ذلك إنه أجاد وأحسن وقرأت عليه بعضه وأذن لي في تحمله [٢] . وقد زاره أيضاً الفقيه يونس بن عطية الونشريسي له عناية بعلم الفقه وولي القضاء بقصر كتامة ، وكذا الفقيه أبو علي الحسن بن عثمان بن عطية الونشريسي من أهـل الحساب وعلم الفرائض والعناية بفروع الفقه [٣] .

ويتحـدث ابـن الخطيـب نفسـه عـن مؤلفاتـه في المغـرب إبـان إقامتـه المرة الأولى لاجئـاً مـع السلطان محمد الخامس إذ يقول :

((فمن ذلك من التواليف : كناش من منظوم في عروض الرجز... في متن أصول الفقه عدة أبياته ألف بيت ، وآخر سميته" الحلل المرقومة في اللمـع المنظومـة " وأرجـوزة أخـرى في فـن العلاج من صفة الطب عدد أبياتها نحو ألف بيت وستمائة بيت تضمن ذكر جميـع الأمـراض الكليـة والجزئيـة وذكـر أسـبابها وعلاماتهـا وتدبيرهـا وجلـب العـلاج بحسـب أحوالهـا ، واستوفى ، بعد كتاب الرتبة وعلاج السموم سميتها ، وذلك " بالأرجوزة المعلومة " ونظمت أرجوزة ثالثة في فن السياسة - في نحو ستمائة بيـت وسميتهـا " تخصيـص الرياسـة ، بتلخيـص السياسة " ... وصدر عني كناش سميته " مثلـى الطريقـة في ذم الوثيقـة " .. تضمنـت نظمـاً ونثراً وفقهـا وحكايـة ، وصـدر عني مجموع يشتمل على الأناشيـد التي تحصلت لي متلقاة

---

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، جـ ٢ ، ٣٧٤ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٧٦ .

ومتنزع...وتقدمه كلام علمي في الشعر رسمته" السحر والشعر مرتباً على الأغراض))[١].

وهكذا امتزجت الثقافة المغربية والغرناطية في شخص عالم العدوتين الغرناطي ابن الخطيب ولم تكن تلك نهاية مؤلفاته في المغرب بل إنه عاد إليها فراراً من سلطان غرناطة محمد الخامس وألف كتباً عديدة يضيق المجال هنا عن الاستطراد في ذلك وبما دونه أيضاً من مشاهداته في بلاد المغرب حفظ للتاريخ معلومات لا تقدر بثمن عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لبلاد المغرب في تلك الفترة الحرجة من تأريخ المسلمين في الأندلس والمغرب. ولقدتوفي ابن الخطيب في المغرب الأقصىفي السجن خنقاً[٢]سنة٧٧٦هـ/١٣٧٤م رحمه ا لله.

ومن الذين رحلوا إلى المغرب من مملكة غرناطة محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن يوسف بن محمد الصريحي المكنى بأبي عبدا لله ، ويعرف بابن زمرك ، ويقول ابن الخطيب إن أصل ابن زمرك من شرق الأندلس [٣] فقد هاجرت أسرته أثناء الاضطراب السياسي ومحاولة توحيد مسلمي الأندلس تحت قيادة واحدة إلى غرناطة ،واتخذت من حي البيازين وهو الحي الذي آوى إليه معظم المهاجرين هاربين من التعسف والضغط النصراني مأوى لها ، وبهذا الحي ولد ابن زمرك ونشأ وقد عده ابن الخطيب مفخرة من مفاخر هذا الحي وشعلة من شعل الذكاء [٤] . ولم يكتف ابن زمرك بتحصيله العلمي في غرناطة إذ إنه أعمل الرحلة في طلب العلم والازدياد منه إلى فاس ، وفي فاس روى وأخذ عن المحدث أبي الحسين التلمساني ودرس بعضاً من الفنون العقلية على الشريف أبي عبدا لله العلوفي التلمساني اختص به اختصاصاً لم يخل منه من استفادة مران وحنكة في الصنعة [٥] .

وكنتيجة مباشرة لهذا التحصيل العلمي كان تأثيره في ((الترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبي سالم بن أمير المسلمين أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب ، ثم

---

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، جـ ٢ ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٣٥٠ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٣٠١ .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) نفس المصدر والجزء ص ٣٠٣ .

عن السلطان ، وعرف في باب الإجادة)) [1] .

وبعد أن تحقق ابن زمرك من أن رحلته العلمية قد حققت أهدافها إذ إن الرحلة العلمية لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال وكما يقول ذلك ابن خلدون [2] عاد ابن زمرك إلى غرناطة وبعد عودته يذكر المقري أنه قد ((نصب نفسه للناس متكلماً فوق الكرسي المنصوب ، وفوق المحفل المجموع مستظهراً بالفنون التي يعد فيها شأوه من العربية والبيان واللغة وما يقذف به في لج التنقل من الأخبار والتفسير)) [3] . وقد توفي ابن زمرك قتيلاً سنة ٧٩٦هـ [4] /١٣٩٣م .

ومن بين الذين أثروا وتأثروا برحلتهم إلى شمال إفريقيا والمشرق أبو عبدا لله محمد المجاري والذي كان قدومه إلى المشرق عن طريق تونس وأن الغرض من الرحلة هو الالتقاء بالعلماء والمشايخ والاستزادة من العلم ، كما أن الغرض من تأليف برنامجه هو الوفاء لأساتذته وشيوخه الذين تلقى العلم على أيديهم فقال : ((فإنني رسمت هذه الأحرف مسمياً لأشياخي الجلة العلماء الأعلام ، شموس العلوم وبدور الإسلام ، الذين أخذت عنهم . وهم جلة وافرة)) [5] ، وأخذ المجاري يعدد أساتذته وشيوخهم الذين تلقى العلم على أيديهم في مملكة غرناطة إلا أن المجاري لم يقدم في برنامجه تاريخاً محدداً لمغادرته غرناطة كما فعل من سبقه ممن تركوا مؤلفات لرحلاتهم العلمية ويبدأ المجاري بالحديث عن شيوخه في تلمسان مما يدل على أن المجاري قد غادر شواطئ مملكة غرناطة متجهاً إلى المغرب الأوسط ، ففي تلمسان توجه المجاري إلى إحدى المدارس بها والتي لم يوضح اسمها وأخذ يتلقى العلم فيها واختص بملازمة الأستاذ أبي عثمان بن محمد العقباني وصفه المجاري بأنه ((الإمام المحقق

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٣٠٢ .

(٢) المقدمة ، ص ٤٧٨ .

(٣) نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ١٤٦ .

(٤) نفس المصدر والجزء ص ١٧٠ .

(٥) المجاري برنامج المجاري ، ص ٨٤ - ١٢٠ .

وحيد أهل زمانه في المعقول ، وقدوتهم في المنقول)) [١] .
قرأ عليه من " كتاب أبي عمرو بن الحاجب في الأصول " .. وحظاً وافراً من تفسير القرآن الكريم ، ومن مختصر البرادعي ، كل ذلك قراءة تفقه [٢] ، وقد فارق المجاري أستاذه أبا عنان بن محمد العقباني سنة ٧٩٨هـ[٣] / ١٣٩٥م .
ولم يكن الشيخ العقباني هو الوحيد الذي تلقى المجاري العلم على يديه في تلمسان بل كان هناك عدد آخر يضيق المجال عن ذكرهم .

أما في بجاية فقد قرأ المجاري على يد الشيخ أبي القاسم المشدالي حظاً وافراً من بيوع ابن الحاجب بالجامع الأعظم كما سمع عليه بالمدرسة التي يدرس فيها بعض تلخيص ابن البناء [٤] .

وفي تونس وبالمدرسة التوفيقية درس المجاري على يد الحاج أبي عبدا لله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي شيئاً من تفسير القرآن الكريم وسمع عليه بعض كتاب مسلم بن الحجاج وحصل منه على إجازته في جميع ما رواه وقيده من العلوم على شرطها [٥] ، وفي سنة ٧٩٩هـ [٦] / ١٣٩٦م فارق المجاري أستاذه المذكور وربما كانت تلك المفارقة بمغادرة المجاري تونس متوجهاً إلى مصر .
وهكذا تمثلت تأثيرات المجاري وتأثره في المحاورة والمناقشة وحفظ برنامجه الذي ألفه عدداً من تراجم الشيوخ والأساتذة الذين التقى بهم وتتلمذ على أيديهم أو الذين أخذوا منه أو استجازهم وأجازهم .

---

(١) المجاري : برنامج المجاري ، ص ١٢٩ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٢ .
(٤) نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .
(٥) نفس المصدر ، ص ١٣٨ ، ١٤٠ .
(٦) نفس المصدر ، ص ١٤٧ .

وبعد المجاري يأتي القلصادي الذي ركب من ميناء المنكب فكان الوصول إلى وهران [١] ، ومن وهران كما يقول القلصادي توجهنا إلى المقصودة بالذات [٢] ، وكانت المدينة المقصودة بالذات هي مدينة تلمسان التي تتناسب والطموح العلمي للقلصادي فقال فيها : ((أدركت فيها كثيراً من العلماء والصلحاء والعباد والزهاد وسوق العلم حينئذ نافقة وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة ، والهمم إلى تحصيله مشرقة وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقية ، فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان المشهود لهم بالفصاحة والبيان)) [٣] .

ومن هؤلاء الأساتذة والشيوخ الذين تلقى القلصادي العلم على أيديهم وتتلمذ عليهم وتأثر بهم وأثر في زملائه وتلامذته أيضاً : أبو عبدا لله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي قرأ عليه كتابه في الفرائض وأواخر الإيضاح للفارسي وسنناً من شرح التسهيل لابن مالك وصحيح البخاري والشاطبتين ... وكذلك الألفية والكافية والمنهاج للغزالي [٤] .

كما قرأ ودرس على يد الشيخ أبي مهدي عيسي الرتيمي عالم الفرائض في عصره ، كتاب الحوفي بطريقتي الصحيح والكسور [٥] .

وكان من بين الذين تأثر بهم القلصادي أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل الشهير بالزيدوري

---

(١) وهران : من مدن المغرب الأوسط ، وهي مدينة تجارية على ضفاف البحر الأبيض المتوسط ، ارتبطت مع مملكة غرناطة برحلات بحرية تجارية تنقل المسافرين والبضائع ، وتوثقت العلاقات ما بين هذه المدينة ومملكة غرناطة خصوصاً في القرن التاسع الهجري وزادت الرحلات العلمية إلى المغرب الأوسط ، انظر (القلصادي : رحلة القلصادي ، ص ٩٥) .

(٢) القلصادي : رحلة القلصادي ، ص ٩٥ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) نفس المصدر ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

والذي كانت له مشاركات في علم الرياضيات ، قـرأ عليـه تلخيـص البنـا وبعـض الأصـول والمقدمات في الجبر ، المقابلة لابن البنا [١] مما كان له أكبر الأثر في نبوغ القلصـادي في علـم الرياضيات ، هذا بالإضافة إلى لقاءات ومشاركات وحـوارات علميـة دوّنهـا القلصـادي في رحلته إذ أنهى ذلك التدوين عام ٨٧٧هـ [٢] / ١٤٧٢م .

(١) القلصادي : رحلة القلصادي ، ص ١٦٨ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

ب - تأثير علماء مملكة غرناطة على الحياة العلمية في المشرق الإسلامي :

كان الذين غادروا من مملكة غرناطة إلى البلدان الإسلامية يخرجون لظروف مختلفة وبواعث متباينة ، بيد أن طلب العلم كان قاسماً يكاد يكون مشتركاً بين كثير من الخارجين ، للحج أو العمرة أو التجارة أو الاستقرار نظراً لأن المشرق مصدر العلم والنور الذي خرج للناس من مكة والمدينة .

ولقد غادر المدرس بمدينة مالقة أحمد بن عبدا لله بن الحسن الأنصاري والذي كان يقوم بتدريس القرآن الكريم والفقه والحديث وأدب اللغة العربية ، وألّف كتاباً في ستة أجزاء وأسماه " المشرع الردي في منزع كتاب الهروي " ، مملكة غرناطة إلى المشرق قاصداً الحج إلى بيت ا لله الحرام ، ولما وصل إلى مصر انتشر فيها خبر قدومه ، وطلب السلطان المملوكي منه زيارته وتمت المقابلة بينه وبين السلطان ولم يتمكن أحمد بن عبدا لله بن الحسن الأنصاري من مواصلة سيره إلى مكة المكرمة إذ أدركه المرض والوفاة بمصر وذلك في سنة ٦٢٥هـ [(١)] / ١٢٥٤م .

ويعد طلب السلطان المملوكي لقاء الأستاذ المذكور دليلاً على مدى ما كان يتمتع به بعض علماء غرناطة ومشايخها من مكانه في العالم الإسلامي .

ومن الذين كان لهم تأثر وتأثير من المهاجرين إلى مملكة غرناطة الفخر بن الجنان الشاطبي وهو : محمد بن سعيد بن محمد بن هشام بن عبدالحق والمعروف بأبي الوليد الكناني الشاطبي الذي رحل تجاه المشرق ووصل إلى مصر واتجه إلى مدينة قوص [(٢)] ، وهناك تقابل مع أحد علمائها وقضاتها المشهورين لعلمهم وذيوع شهرتهم في العالم الإسلامي وهو القاضي

---

(١) انظر ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ ١ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٢) قوص : من مدن الجنوب في مصر على النيل قريبة من الأقصر اشتهرت بعدد من العلماء وهي قصبة صعيد مصر ، (انظر البغدادي : مراصد الاطلاع ، جـ ٣ ، ص ١٣٣) .

تقي الدين أبو الفتح بن دقيق العيد [١] والحافظ شرف الدين أبو محمد الدمياطي واشتهر محمد بن سعيد الشاطبي الذي كان قد تلقى علومه في مملكة غرناطة ، وتنقل ما بين مصر والشام بأنه صاحب النظم الرائق والنثر الفائق مع العلم بالنحو وفنون الأدب [٢] .

وفي الشام صحب جمال الدين عمر بن العديم وولده وأثرا عليه وتأثر بهما إذ نقلاه من مذهب مالك إلى مذهب أبي حنيفة [٣] مع العلم أن أهالي مملكة غرناطة من أشد الناس محافظة على مذهب الإمام مالك ورغبة منه في الاستزادة من العلم فإنه درس بمدرسة الإقبالية . ومن مدينة وادي آش هاجر محمد بن يوسف بن موسى بن إبراهيم والمعروف بأبي بكر بن مسد الغرناطي الذي تلقى تعليمه في مملكة غرناطة فوصل إلى المشرق ونزل بمدينة الفيوم بمصر وتولى التصدير بها [٤] ، ثم سافر من مصر متجهاً إلى بلاد الحجاز ، وكان معدوداً من الحفاظ وله نظم كثير،وكان يميل إلى الاجتهاد ويؤثر الحديث على الرأي ، ولما وصل إلى مكة المكرمة تولى الخطابة في الحرم وإمامة المقام[٥]، وكان وصوله إلى مكة سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م ، وخلال رحلته إلى مصر وإقامته بمكة روى عن جماعة من علماء مصر والحجاز مثل أبي الحسن علي بن عبدا لله بن أحمد الجويني ، وأبي الحسن بن المعز ، وأبي اليمن الكندي ، وأبي الحسن علي بن محمد المطري . كما ألّف بمكة كتاباً أسماه " البشارة بثواب الحج والزيارة " ولم يزل مجاوراً بمكة إلى أن توفي سنة ٦٧٣هـ [٦] /١٢٧٤م ،

---

(١) هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع المنفلوطي ، أحد الأعلام وقاضي القضاة صاحب التصانيف في جل العلوم ، توفي سنة ٧٠٢هـ /١٣٠٢م (انظر ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٤ ، ص ٩١) .

(٢) المقريزي ، المقفى ، جـ ٢ ص ٦٧٥ ، ٦٧٦ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) نفس المصدر ، جـ٧ ، ص ٥١٦ ، ٥١٧ .

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٦) نفس المصدر والجزء والصفحة ، انظر المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص٢١٧ ، ٢١٨ .

وهكذا كان الغرناطي محمد بن يوسف أينما حل يترك أثراً وتأثيراً من خلال بروزه في النواحي الإدارية والدينية .

أما محمد بن أحمد بن عبدا لله بن سحبان الوائلي ويُكنى أبا بكر الشريشي ، فقد هاجر من مملكة غرناطة ووصل إلى الإسكندرية وتعلم بها وسمع على أبي عبدا لله محمد بن عماد الحراني ، ثم اتجه إلى القاهرة حيث أقام بالمدرسة الفاضلية يدرس طلابها وتخرج على يديه عدد من الطلاب ، ثم رحل إلى بلاد الشام وتنقل ما بين دمشق وحلب والقدس وتقلد فيها عدة مناصب ، إذ ولي مشيخة الصخرة بالقدس ، كما كان خلال إقامته بدمشق يفتي ويدرس الفقه والتفسير والأصول ، وتوفي بدمشق سنة خمس وثمانين وستمائة ودفن بقاسيون [١] .

لقد سبق وأن أشرت إلى أن محمد بن عبدا لله بن مالك الطائي كان ممن هاجر من مملكة غرناطة إلى بلاد الشام وفي الشام حرص ابن مالك على الاستزادة في التحصيل العلمي فجالس بمدينة حلب الشيخ الأستاذ ابن يعيش وتلميذه ابن عمرو ، كما تلقى المزيد من علوم اللغة العربية على يد أبي الحسن السخاوي علي بن عبدالصمد الذي انتقل من مصر إلى دمشق يدرس القرآن بجامع دمشق [٢] .

كما درس علوم النحو في مدينة دمشق وسمع من مكرم وأبي صادق الحسين بن صباح وأبي الحسن السخاوي وغيرهم [٣] ، ولعل اتجاه ابن مالك إلى دمشق يرجع إلى تشابهها الجغرافي الكبير مع مدينة جيان ، مدينة ابن مالك ، كما أن مدينة دمشق في ذلك الوقت تعد المركز الثقافي الثاني في المشرق الإسلامي بعد القاهرة ، وكان للتحصيل العلمي

---

(١) المقريزي : المقفى ، جـ ٥ ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ وقاسيُون : بالفتح وسين مهملة وهو الجبل المطل على مدينة دمشق والذي أضحى في عصرنا الحاضر جزءاً من تلك المدينة ، دفن بمقبرته العديد من علماء الأندلس (انظر البغدادي : مراصد الاطلاع ، جـ ٣ ، ص ١٠٥٧).

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٢٢٢ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

الذي حصل عليه ابن مالك على يد هؤلاء العلماء المشارقة أثر في إثراء الفكر اللغوي المتوقد في ذهن ابن مالك ، وبذلك يكون ابن مالك قد اكتملت ثقافته في النحو وامتزجت لديه الثقافة النحوية الأندلسية والمشرقية ، وذلك الأمر هيأه لأنه يصبح شيخاً للمدرسة العادلية الكبرى بدمشق ، بالإضافة إلى إدارته ومعالجته لشؤون المدرسة المذكورة آنفاً (١) .

إن ابن مالك الذي كان له عظيم الأثر في علوم اللغة العربية ما كان له أن يتبوأ تلك المكانة العلمية في بلاد الشام إلا بما بلغه من العلم والثقافة فقد ((صرف همه إلى اتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية ، وحاز قصب السبق ، وأربى على المتقدمين ، وكان إماماً في القراءات وعلومها ، وأما اللغة فكان إليه المنتهى في الإكثار من نقل غريبها ، والاطلاع على وحشيها وأما النحو والتصريف فكان فيه بحراً لا يجارى ، وحبراً لا يبارى ، وأما أشعار العرب التي يستشهد بها علم اللغة والنحو فكان الأئمة الأعلام يتحيرون منه ويتعجبون من أين ياتي بها ، وكان ينظم الشعر ، سهلاً عليه هذا مع ما هو عليه من الدين المتين وصدق الصحبة)) (٢) .

ويرجع الفضل لابن مالك في تدريس النحو بالاستشهاد بأمثلة من القرآن الكريم وأشعار العرب وأحاديث رسول الله ﷺ . وهذه الطريقة تعتبر من الوسائل المبتكرة (٣) ، فهو إمام في القراءات ألف فيها قصيدة وموسوعة في اللغة ، مع حفظه للعديد من القصائد الشعرية ، كما كان نابغة في الحديث ملماً إلماماً كبيراً بعلم الفقه ، لا تقل مقدرته فيه عن مقدرته في علم النحو ، عالماً بمذهب مالك الذي تعلمه في الأندلس وكذا مذهب الشافعي

---

(١) انظر علي أحمد ، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجري ، ط١ ، ١٩٨٩م ، ص ١٩٢ .

(٢) ابن العماد : أبي الفلاح عبدالحي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، ثمانية أجزاء في أربعة مجلدات ، (د. ت) جـ ٥ ، ص ٣٣٩ .

(٣) علي أحمد : المرجع السابق ، ١٩٣ .

الذي تحول إليه وأصبح شافعي المذهب [١] .
هذا بالإضافة إلى نطمه الشعر وبلاغة أسلوبه في النثر لا يرى إلا وهو يقرئ ويصنف على ما هو عليه من الدين المتين وصدق اللهجة وكثرة النوافل [٢] ، ووصفه ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب بحسن الخلق ورقة القلب وكمال العقل والوقار والتؤدة [٣] .
وكانت تأثيرات ابن مالك الأندلسي من الآثار الخالدة في اللغة العربية إلى يومنا هذا وإلى ما شاء ا لله ، فبعد أن جلس (ابن مالك) على كرسي الأستاذية في بلاد الشام ، وخاصة في حلب وحماه ودمشق ، كان مدرسة في علوم اللغة العربية يُشار إليه بالبنان وشعلة من العلوم والمعرفة في هذا الميدان ، وطارت شهرته في العالم الإسلامي في ذلك الزمان ، وكان بحق عميد النحو واللغة والقراءات ، واستطاعت الأفكار النحوية لابن مالك أن تؤسس أقداماً راسخة في علوم النحو كان لها كبير الأثر في الأجيال التي عاصرتها وخلفتها من طلاب العلم الذين نهلوا من علوم ابن مالك النحوية ، وكان لهم عظيم الأثر فيما بعد في النبوغ في هذا الميدان من ميادين العلم والمعرفة . وعندما كان ابن مالك يجلس بالمدرسة العادلية ولا يجد أحداً من الطلاب في قاعة الدرس ، يذهب إلى النافذة التي تطل على قارعة الطريق ، ويطل برأسه منها وينادي : ((القراءات العربية ، ويقول أنا لا أرى أن ذمتي تبرأ إلا بهذا ، فإنه قد لا يُعلم أني جالس في هذا المكان)) [٤] .
وهذا السلوك إن دل على شيء فإنما يدل على الشعور بالمسئولية والنية الصالحة وغزارة العلم وعظيم المعرفة .

ولقد انتفع بابن مالك خلق كثير ، ولقد ترك ابن مالك مؤلفات كثيرة أذكر منها

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ٥ ص ٣٣٩ .
(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٤) ابن الجزري : محمد بن محمد بن شمس الدين أبو الخير ، غاية النهاية في طبقات القراء ، نشر ، ج برجستراير ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط٣ ، ١٤٠٢هـ ، جـ ٢ ص ١٨١ .

شرح الكافية الشافية ، الألفية (الخلاصة) ، توفي ابن مالك في الثاني عشر من شهر شعبان من سنة ٦٧٢هـ /١٢٧٣م بمدينة دمشق ودفن بسفح قاسيون [١] .

وبالإضافة إلى ابن مالك ومدرسته وتلامذته وصل خالد بن عيسى بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي إلى الإسكندرية في رحلته التي سبق أن أشرت إليها والتقى بالعديد من العلماء أذكر منهم قاضي المالكية أبا زكريا يحيى بن محمد بن يحيى بن عبدا لله زاره بمنزله وقال في ذلك ((سمعت عليه تآليف كثيرة بمنزله من الإسكندرية وأجازني الإجارة التامة المطلقة العامة وكتب لي بخطه)) [٢] .

ثم زار الشيخ شرف الدين أبا العباس أحمد بن أبي الحسن علي الشهير بابن المصفى بمنزله فسمع عليه العديد من المصنفات وأخذ عنه جملة من الآداب [٣] .

كذلك التقى بأحد وجهاء الإسكندرية ، وأعيانها وهو أبو عبدا لله محمد بن عز الدين بن أبي القاسم وذلك بمنزله من الإسكندرية وسمع منه عدداً من أحاديث رسول ا لله ﷺ فخرجه بأسانيدها من كتاب الترمذي ، وحصل منه على اجازة تامة مطلقة عامة [٤] .

وهناك العديد من العلماء الذين التقى بهم البلوي في الإسكندرية وتلقى المزيد من التحصيل العلمي على يد علمائها وأساتذتها مما يضيق المجال هنا عن التفصيل فيه مما أنسى البلوي المعاناة التي عاناها في الجمرك أثناء قدومه .

ثم غادر الإسكندرية متوجهاً إلى القاهرة التي قدم وصفاً لها كعادته في كل مدينة يصل إليها أو يرحل منها . فزار مدارسها وعلى رأسها المدرسة التي بإزاء مسجد الإمام الشافعي والتي وصفها البلوي بأنها من أعظم المدارس اتساعاً وأعلاها سمواً وارتفاعاً [٥] ، وجلس

---

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٢٢٧ .

(٢) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ١٧ .

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠٣ .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠٦ .

(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٢٥ .

بتلك المدرسة لطلب العلم والقراءة على أساتذتها ومدرسيها ومنهم تقي الدين صالح بن مختار بن صالح بن أبي الدراس ، سمع منه كتب الحديث النبوي ، وحصل على إجازته الإجارة التامة [١] .

كما قام البلوي بزيارة إلى أحد علماء غرناطة الذين هاجروا إلى مصر وهو أثير الدين أبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغرناطي [٢] ، وقال واصفا تلك الزيارة : ((دخلت عليه متنزهه الذي دنا له النيل ، فالزمان يخوله فيه يناء وينيل ، والدهر قد شهر له عن محياه ، والزهر قد تبسم له وحياه ، والطير من يديه يخاطب إياها وتخاطب إياه ، فأقبل علي بالبشر والترحيب وجهد إلي أرجاء جانبه ، وأراني بشاشة الحب عند لقاء الحبيب وتتبع أخبار الأندلس وأهلها ، وأعرب عن سيرها الحميدة وفضلها وأنشدني من أبيات له :

وبيننا نسب ترعى وإن بعدت   لكوننا ننتمي فيها لأندلس [٣]

وقرأ عليه بعضاً من القرآن الكريم بالقراءات السبع وقرأ عليه بعضاً من تآليفه وقال ، وصححت بقراءتي عليه بعض تأليفه المسمى بالبحر المحيط في تفسير القرآن العظيم ، وبعض تأليفه المسمى بارتشاف الضرب ، من لسان العرب في النحو [٤] ، وله أيضاً (المقدمة في النحو) التي سماها "الشذرة " ، وتناولت جميع هذه الكتب من يده وقرأت عليه كثيراً من ديوان شعره ، ومن رسائله ونثره ، ونقلت من نظمه جملة فوائد فريدة وصححتها بقراءتي عليه وسمعت عليه مروياته .... وأجازني إجازة تامة وكتب لي بخطه)) [٥] .

كما زار البلوي المدرسة الناصرية بالقاهرة ولقي بها المدرس أبا الأصبع عيسى بن مخلوف

---

(١) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٢٦ .

(٢) سيأتي الحديث عن أثير أثر الدين أبي حيان .

(٣) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٢٨ .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٣٠ .

المقيلي ، وقرأ عليه بعض المؤلفات [١] ، هذا بالإضافة إلى عدد من اللقاءات العلمية والنشاطات التعليمية التي قام بها البلوي في مصر مما يضيق المجال هنا عن تتبعها .

ثم سافر إلى بلاد الشام حيث وصل إلى مدينة غزة وكما هي عادته بادر إلى لقاء العلماء والأخذ عنهم منهم شمس الدين أبو عبدا لله محمد بن كافل الشافعي ، وسمع منه وسمع عليه ، وأجازه الإجازة التامة المطلقة العامة وكتب له ذلك بخط يده [٢] .

ومنهم أبو عبدا لله محمد بن علي بن أحمد بن إبراهيم الأموي الدمشقي لقيه بالحرم الإبراهيمي وسمع عليه كثيراً من أحاديث رسول ا لله ﷺ وغير ذلك في مختلف العلوم وأجازه الإجازة التامة المطلقة [٣] .

ومنهم من أهل وطنه الأندلسي الفقيه أبو عبدا لله محمد بن علي بن محمد بن مثبت الخولاني الذي رحل عن الأندلس وهو في سن مبكرة ، فلقيه بالمسجد الأقصى وسمع منه كتاب عوارف المعارف تأليف شهاب الدين أبي حفص السهروردي [٤] ، ثم غادر البلوي بلاد الشام متجهاً إلى الحجاز برفقة ركب الحجيج يريد حج بيت ا لله الحرام ولما وصل إلى المدينة المنورة وبدأ بزيارة مسجد رسول ا لله ﷺ والتقى بعلماء المدينة المنورة وعلى راسهم أبو محمد بن أسعد بن علي اليافعي ، اليمني الشافعي قال في ذلك ((لقيته بالحرم النبوي الشريف فسمعت منه ورويت عنه وسمعت من لفظه كثيراً من تأليفه الذي سماه كتاب "الإرشاد والتطريز في فضل ذكر ا لله العزيز وتلاوة كتابه العزيز ".... وهو تأليف بديع السلك وأجازه لي وأذن لي في روايته عنه وأجازني إجازة تامة)) [٥] .

كما التقى أيضاً بأبي عبدا لله محمد بن أحمد بن خلف فسمع عليه كثيراً من حديث رسول

---

(١) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٣٦ .
(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٢ .
(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٥ .
(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣.

ا الله ﷺ وحصل على إجازته في ذلك إجازة عامة [١] .

وفي مكة وبعد أداء مناسك الحج التقى البلوي بالعديد من المجاورين والعلماء ومنهم أبو عبدا الله محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن عمر المكي المالكي لقيه بالمسجد الحرام وزاره بمنزله الكائن بغرب الحرم وأجازه إجازة تامة مطلقة عامة [٢] .

ومنهم أيضاً أبو العباس أحمد بن إبراهيم الشافعي لقيه بالحرم المكي فسمع عليه كثيراً من أحاديث رسول ا الله ﷺ وحصل على إجازته [٣] .

ثم غادر مكة عائداً إلى بلاده وفي أثناء عودته أيضاً تقابل مع العديد من العلماء مما لا يتسع المجال لتفصيله مرة أخرى ، إذ إن بعضهم قد التقى به للمرة الثانية ، وكانت عودة البلوي عن طريق المغرب من بوابة طرابلس [٤] ، توفي البلوي قبل سنة ٦٨٠هـ /١٢٨١م تقريباً .

مما سبق عرضه عن الرحلة العلمية للبلوي إلى بلاد المشرق الإسلامي وأجزاء من المغرب يتضح للقارئ مدى التواصل العلمي والتكامل الثقافي بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية بجناحيها المشرقي والمغربي ، ولقد حفظت رحلة خالد بن عيسى أسماء العديد من الأعلام والمشايخ من أهل الحجاز ومصر والشام وبالتالي كانت مصدراً هاماً من مصادر التراجم لهؤلاء العلماء وأماكن إقامتهم والمدارس التي درسوا فيها وعدد من تلامذتهم والكتب التي كانوا يدرسونها أو يؤلفونها .

ولقد هاجر عالم الحديث أحمد بن الفرج والذي سبقت الإشارة إلى رحلته ، إلى المشرق الإسلامي ، فسمع الحديث والفقه على يد الشيخ عز الدين بن عبدالسلام [٥] .

---

(١) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٩٤ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٣١٤ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) ولقد سبق أن أشرت لرحلة البلوي في المغرب في ذهابه وعودته .

(٥) المقريزي : المقفى ، جـ ١ ، ص ٥٦١ .

كما سمع الحديث على الشيخ شرف الدين الأنصاري الحموي وإسماعيل بن عزوز ، وبعد أن رأى أحمد بن الفرج أنه قد قضى وطره من العلم خلال إقامته في مصر اتجه نحو بلاد الشام التي كان يفضلها معظم الغرناطيين على مصر ، فسار إلى دمشق ، وأخذ في تلقي العلوم فسمع على ابن عبدالدايم وغيره فازدادت ثقافته الأندلسية والمشرقية ، ولا سيما علم الحديث الذي أتقن ألفاظه وعرف رواته (١) وكان من بين تأثيراته أن تولى تدريس علم الحديث بالجامع الأموي بدمشق وتتلمذ على يديه عدد من أهالي مدينة دمشق ، ولازمه عدد من علمائها مثل الحافظ شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي صاحب التواريخ المعروفة والمحدث المشهور والذي ظل ملازماً له حتى وفاته واستفاد منه كثيراً وروى عنه (٢) . كما عرضت عليه مشيخة دار الحديث النورية فلم يقبل (٣) .

وهذا إن دل فإنما يدل على مكانته العلمية وزهده وورعه ، ولقد ألّف قصيدة في مصطلح الحديث مبيناً فيها أسباب حبه لهذا العلم وإقباله عليه والتي منها :

غرامي صحيح والرجاء فيك معضل

وحزني ودمعي مرسل مسلسل

وصبري عنكم يشهد العقلُ أنّــــه

ضعيف ومتروك وذلي أجمـــلُ

ولا حسن إلا سماعُ حديثكُــــم

مُشافهةً يُملى عليّ فأنقــــلُ (٤)

ولقد كان صاحب (غرامي صحيح) من أكبر المحدثين الذين شهدتهم بلاد الشام من أهل

---

(١) المقريزي : المقفى ، جـ ١ ص ٥٦١ .
(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

مملكة غرناطة وتوفي سنة ٦٩٩هـ [١] / ١٢٩٩م .

وفي سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م سافر من مملكة غرناطة بغرض الحج محمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم بن محمد بن فتوح والمعروف بابن الحكيم الرندي ، وهو من أهل رندة تلقى تعليمه بها [٢] .

ولئن كان الغرض الأساسي لرحلة ابن الحكيم هو الحج إلى بيت الله الحرام إلا أنه قد شهد منافع أخرى ، فمن ذلك محاورته ومناقشته وتعلمه من الشيخ أبي اليمن جار الله ابن عساكر لقيه بالحرم وانتفع به واستكثر من الرواية عنه [٣] .

وفي المدينة المنورة التقى بإمام الروضة النبوية الشيخ عبدالله بن محمد بن أبي بكر الطبري [٤] .

وبعد مغادرته إلى بلاده عن طريق مصر التقى بعلماء مصر وعلى رأسهم أبو الصفا خليل بن أبي بكر بن محمد المرادي الحنبلي لقيه بالقاهرة .

والشيخ أبو محمد عبدالمؤمن بن خلف الدمياطي إمام الديار المصرية في الحديث ومؤرخها وعبدالمنعم بن محمد بن يوسف بن أحمد شهاب الدين قرأ عليه قصيدته البائية الفريدة التي انتشرت وذاعت في مصر والتي مطلعها :

يا بارقاً بأعلى الرقمتين بدا   لقد حكيت ولكن فاتك السبب

كما أخذ أيضاً عن (زينب بنت الإمام أبي محمد عبداللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي) وتكنى أم الفضل [٥] ، والتقى مع يعقوب بن عبدالملك الناصر صلاح الدين وأخذ عنه ،

---

(١) المقريزي : المقفى ، جـ ١ ، ص ٥٦١ .

(٢) سبقت الإشارة إلى ذلك في هذا الفصل .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٤٤٨ .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) نفس المصدر ، ص ٤٤٩ . وهذا يدل على مكانة المرأة العلمية في عصور الإسلام المختلفة وأن الإسلام قد فتح مجال العلم واسعاً أمام المرأة .

ومع عبدالمنعم بن يحيى بن إبراهيم بن علي بن جعفر القرشي الزهري خطيب القدس ، وهذا يدلنا على أن ابن الحكيم قد زار الشام مع عودة ركب الحاج الشامي من الحجاز والذي عادة ما ينخرط بين صفوفه حجاج الأندلس الراغبون في العودة إلى بلادهم ، وبعد أن قفل راجعاً إلى غرناطة عن طريق بلاد المغرب كان لا يمر بمجلس علم أو تَعَلُّم إلا روى أو روي له [(١)] .

كما رافقه في تلك الرحلة أيضاً أبو الحجاج الساحلي يوسف بن إبراهيم بن محمد بن قاسم ابن علي الفهري الغرناطي الذي توفي سنة ٧٠٢هـ [(٢)] / ١٣٠٢م .

وبعد أن عاد ابن الحكيم إلى مملكة غرناطة أثرت فيه الثقافة المشرقية والذي أرجحه أنه قد جمع العديد من الكتب من المشرق أثناء رحلته ، إذ كان يملك مكتبة عامرة من الكتب حتى ضاقت قصوره عن خزائنها وأثرت أنديته من ذخائرها [(٣)] . وبعد عودته من الرحلة أيضاً تولى الوزارة للسلطان محمد الثاني وأحيا في بلاده معالم الأدب وأكرم العلماء ، وقد استغرقت رحلة ابن الحكيم الرندي إلى المشرق عامين من سنة (٦٨٣ ـ ٦٨٥هـ / ١٢٨٤ ـ ١٢٨٦م) تأريخ وصوله إلى مدينة رندة [(٤)] .

ومن بين من رحلوا من مملكة غرناطة إلى المشرق قاسم بن عبدالكريم بن جابر الأنصاري يُكنى أبا محمد ويعرف بابن جابر وهو غير "محمد بن جابر الأعمى" من أهل غرناطة ، ومن أهل العلم والفضل فيها أثنى عليه ابن الخطيب ، ووصفه بأنه كان على دين والتزام سنة [(٥)] ، فقد رحل إلى المشرق ولا أعرف إلى أين كانت وجهته وهل حج أو لا ، وهل أقام في مصر والشام أو لم يقم ، إذ لم يوضح ابن الخطيب ذلك ، ومهما يكن من أمر ،

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٤٥١ ، ٤٥٢ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٤٤٦ .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ٢٦٢ .

فقد عاد ابن جابر إلى غرناطة وقد تأثر خلال رحلته إلى المشرق بعلم الجدل ، وقام بتدريس ما تعلمه أثناء رحلاته إلى المشرق الإسلامي ، فأقرأ بغرناطة علم الجدل والمنطق إلى أن توفي سنة أربع عشرة وسبعمائة [١] . واستقبلت بلاد الحجاز مكة والمدينة محمد بن علي ابن يحيى بن علي الشافعي أبا عبدا لله الأندلسي الغرناطي ، من أهالي مدينة غرناطة ، إذ قرأ بها القرآن الكريم بالقراءات السبع على أبي جعفر بن الزبير وعلى الفخر التوزري ، وكان غرض رحلته الحج ، ولقد كان أديباً وفقيهاً مشاركا في عدة فنون مما أدى به إلى مناظرة علماء مصر والحجاز في عدة فنون على مذهب مالك والشافعي [٢] . كما كان ملماً بعلوم اللغة العربية ، والفلك وله شعر جيد ، وله شرح الجمل في النحو ومدائح نبوية تزيد على ألفي بيت وكان من صفاته الإيمان والتزام السنة [٣] .

إلا أن محمد بن علي الغرناطي هذا لم يعد إلى مملكة غرناطة وفضل الإقامة في بلاد الحجاز واختار المدينة المنورة سكناً له ، ويعلل أسباب بقائه بها رغم اختلافها عن غرناطة في المناخ الجغرافي ومصادر الرزق قائلاً :

إذا كنتُ جاراً للنبي وصحبه ومكة بيت ا لله مني على قرب

فما ضرني أن فاتني رغد عيشة وحسبي الذي أُتِيتهُ نعمة حسبي [٤]

وبقي مقيماً في المدينة إلى أن توفي بها في شهر صفر سنة خمس عشرة وسبعمائة ٧١٥هـ [٥] / ١٣١٥م .

وهاجرإلى بلاد الشام واستقر بمدينة دمشق محمد بن أحمد بن أبي الوليد محمد بن أبي عمرو أحمد بن قاضي الجماعة أبي الوليد محمد ولد سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م ومات أبوه وجده معاً

---

(١) ابن الخطيب : جـ ٢ ، ص ٢٦٣ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ٢ ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) المقريزي : المقفى ، جـ ٦ ص ٣٨٨ .

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

في سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م وعاش يتيماً وكان له مال كثير ، وفيما يبدو لي أن من أسباب هجرته من غرناطة إلى بلاد الشام وقوع بعض ما له بين أيدي الظلمة في غرناطة إذ أكد ذلك العسقلاني [١] . كما ورث عن أبيه وجده كتباً عديدة ساعدته على التزود بالعلم والمعرفة فكتب بخط يده كثيراً من كتب الفقه واللغة والحديث ، وكان من تأثيراته في بلاد الشام خاصة في دمشق التي ما أن وصلها حتى سرعان ما تولى إمامة المالكية بالزاوية المالكية بالجامع الأموي [٢] . كما عرضت عليه نيابة الحكم في دمشق وامتنع [٣] .

وقد رحل في معية محمد بن أحمد بن أبي الوليد أسرته ونبغ منهم ابنه عبدا لله أبو محمد والملقب بفخر الدين الذي ولد في غرناطة سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٨٦م وكان عمره تسع سنوات عندما وصل في معية والده إلى دمشق ، وخلف والده الذي توفي سنة ٧١٨هـ [٤] /١٣١٨م في إمامة المالكية والتي ظل في منصبها إلى أن توفي سنة ٧٤٣هـ [٥] / ١٣٤٢م .

ومن الجزيرة الخضراء هاجر أبو عبدا لله محمد بن إبراهيم ، الشهير بابن غصن الإشبيلي الذي تلقى تعليمه في مملكة غرناطة في اللغة العربية والفقه وكانت ثقافته تشمل المذاهب الأربعة وكان الغرض من رحلته أداء فريضة الحج ، وخلال إقامته بمكة المكرمة كان يقرئ فيها القرآن بقراءاته وكان من التلاميذ الذي قرأوا على يديه وكان لهم دور بارز

---

(١) الدرر الكامنة ، جـ ٣ ، ص ٣٥١ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) نفس المصدر جـ ٢ ص ٢٨٦ .

في إمامة الحرم خليل إمام المالكية [١] والشهاب الطبري إمام الحنفية [٢] .

ولابن غصن الإشبيلي مؤلفات منها " مختصر الكافي " وكتاب في (معجزات النبي ﷺ) ، وقبل وفاته رحل من بلاد الحجاز وتوجه إلى الشام واستقر في بيت المقدس حتى توفي بها سنة ٧٢٣هـ [٣] / ١٣٢٣م .

ومن أهالي مدينة المرية هاجر محمد بن عبدا لله بن محمد بن الآمي الذي كان قد تعلم العربية على يد الشيخ أبي الحسن القيجاطي في مدينة غرناطة ، ويُعد محمد بن لب الآمي من نبهاء الطلاب فيها وأذكيائهم فقرر الرحلة إلى المشرق الإسلامي واتخذ من القاهرة موطناً له وكانت رحلته لأسباب صحية ، إذ اتفق جو القاهرة مع علة كان يشكوها [٤] ، وفي القاهرة تتلمذ على يد الشيخ أبي حيان ، وقد أكد ابن الخطيب أن أبا عبدا لله هذا قد لقب في مصر بالنحوي وأنه لم يصل لتلك الدرجة العلمية والتي تمثلت في أن أصبح مدرساً للغة العربية بمدرسة الصالحية بالقاهرة إلا بانتفاعه بأخيه في الموطن أبي حيان الذي رشحه لتولي ذلك المنصب المؤثر [٥] وكان أبو عبدا لله في المدرسة الصالحية بالقاهرة ذا مكانة معدودة

---

(١) خليل إمام المالكية هو : أبو عبدا لله محمد المعروف بخليل بن عبدالرحمن بن محمد المالقي المكي فقيه مكة وعالمها وخطيبها بالحرم المكي الشريف ، كان من الأئمة المعروفين بالزهد والورع والصلاح مع الدين المتين ت ٧٦٠هـ (مخلوف : محمد بن محمد ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، دار الفكر للطباعة والنشر د. ت ص ٢٢٢ ترجمة رقم ٧٨٨ .

(٢) الشهاب الطبري إمام الحنفية هو : أبو محمد عبدا لله بن محمد بن عبدا لله بن أبي بكر بن إبراهيم الطبري المكي ثم الشافعي ، توفي في المدينة المنورة سنة ٧٨٧هـ . انظر ابن العنماد (شذرات الذهب مج٣ ، جـ ٦ ، ص ٢٩٧) .

(٣) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٢٠٧ .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ص ٤٣٤ .

(٥) انظر نفس المصدر والجزء والصفحة .

بين أهل العلم والديانة [(١)] ، وكان شاعراً أورد ابن الخطيب نماذج من شعره في موقعة المرج بين النصارى ومسلمي مملكة غرناطة التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً رائعاً [(٢)] ، وتوفي أبو عبدا لله النحوي سنة ٧٢٥هـ [(٣)] / ١٣٢٤م .

وبالرغم من جمال مدينة وادي آش الغرناطية وتوفر أسباب العيش فيها ومنافستها للعاصمة غرناطة إلا أن الرحلة منها إلى المشرق كانت تتدفق ، فهذا أحمد بن عبدا لله بن مهاجر الوادي آشي ، الذي تلقى تعليمه في مملكة غرناطة هاجر إلى المشرق وسكن طرابلس ثم حلب ، وتأثر بالمذهب الحنفي ، وتحول إليه واشتدت بينه وبين قاضي حلب ناصر الدين بن العديم أواصر الصداقة والأخوة وكان ينوب عنه في أحكام القضاء وفي التدريس بمدارس مدينة حلب ، وكان بارعاً في النحو والعروض وبعد حياة حافلة بالعطاء العلمي ، توفي أحمد ابن مهاجر الوادي آشي بمدينة حلب سنة ٧٣٩هـ [(٤)] / ١٣٣٨م .

وبرز من أهل غرناطة في الطب أبو تمام غالب بن علي بن محمد اللخمي الشقوري [(٥)] . رحل إلى المشرق بغرض الحج والاستزادة من طلب العلم ولما وصل إلى مصر وفي القاهرة قرأ الطب بالمارستان [(٦)] ، وبعد انتهائه من الدراسة النظرية عمل طبيباً بالمارستان نفسه وزاول العلاج على طريقة المشارقة [(٧)] ، ولما رأى أنه قد حصل على مراده من العلم آثر العودة إلى بلاده ، ولكن عن طريق بجاية التي مارس فيها مهنة الطب ، ولما وصل إلى غرناطة

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ص ٤٣٤ .

(٢) انظر ص ٣٨ من الرسالة .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص ٤٤٢ حاشية الإحاطة والتي أرجحها على ما ورد في المتن .

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ١٨٢ .

(٥) سبق التعريف به .

(٦) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٤ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٧) نفس المصدر والجزء والصفحة .

قرّبه السلطان النصري إلى بابه فخدم به [1] أي أنه أصبح من خاصة الأطباء بقصر الحمراء ، وكان للثقافة الطبية التي حصل عليها الطبيب أبو تمام أثرها في تكوين أفكاره واطلاعه على ممارسة مهنة الطب لدى المشارقة والمشاركة مع أطبائهم في مزاولة العلاج ، وبالتالي أصبح من كبار الأطباء في قصر الحمراء ، ثم لم يلبث أن تنقل ما بين مملكة غرناطة والشمال الإفريقي ، توفي في أوائل سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م بمدينة سبتة [2] .

ومن بين العلماء الذين هاجروا من مملكة غرناطة إلى المشرق الإسلامي وتركوا أثراً خالداً محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفزي الذي سبقت الإشارة إلى كيفيه وأسباب هجرته . إذ كانت مدينة الإسكندرية أولى محطات مدن المشرق الإسلامي التي نزل بها أبو حيان وفيها قرأ القراءات على عبدالنصير بن علي بن يحيى المريوطي [3] ، ثم توغل إلى مصر واستقر بالقاهرة وتفاعل مع الجو والبيئة العلمية والأدبية فيها فدرس وكتب وألّف ، ويصف أبو حيان نشاطه العلمي والتعليمي في مصر بقوله : ((فكم أودعت علمه صدري ، وصبر أفنيت في فوائده صبري ، وإمام أكثرت به الإلمام وعلام أطلت معه الاستعلام ، اشتق السامع بما تحسد عليه العيون ، وأذيب تطلاب ذلك المال المصون ، وأرتع في رياض وارفة الظلال ، وأكرع في حياض صافية السلسال ، واقتبس بها من أنوارهم ، وأقتطف من أزهارهم ، وأبتلج من صفحاتهم ، وأتأرج من نفحاتهم ، فجعلت العلم بالنهار سحيري ، وبالليل سميري ، زمان يقصر سارية على الصبا ويهب للهو ولا كهبوب الصبا ..... أتوسد أبواب العلماء وأتقصد أماثل الفهماء ، أسهر في حنادس الظلام وأصبر على

---

(١) ابن الخطيب ، جـ ٤ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ . وانظر ابن القاضي : جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس ، جزءان ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، ١٩٧٤م ، جـ ٢ ، ص ٥٠٦ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٥٠٦ .

(٣) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٤٠ .

شظف الأيام ، وأوثر العلم على الأهل والمال والولد)) [١] .
ولقد كانت لإجازات أبي حيان قيمتها في مصر ، حيث كان المصريون يعرفون رحلته الثقافية الطويلة وكيف أنه تلقى العلم على نحو أربعمائة وخمسين شيخاً [٢] .
وأبو حيان نفسه يكشف لنا في إجازته للصفدي المؤرخ هذا العمق الثقافي فيقول : ((أعزك الله .. وقد أجزت لك أيدك الله تعالى جميع ما رويته عن أشياخي بجزيرة الأندلس ، وبلاد إفريقية وديار مصر والحجاز وغير ذلك ... فمن مروياتي الكتاب العزيز قرأته بقراءة السبعة على جماعة ..... والكتب الستة والموطأ ومسند بن حميد ومسند الدارمي ومسند الشافعي ومسند الطيالس والمعجم الكبير للطبراني والمعجم الصغير له وسنن الدار قطني وغير ذلك ... ومن كتب النحو والآداب فأروي بالقراءة كتاب سيبويه ، والإيضاح ، والتكملة والمفصل ، وجمل الزجاجي وغير ذلك والأسفار الستة والحماسة ، وديوان حبيب والمتنبي والمعري ، وأما شيوخي الذين رويت عنهم بالسماع والقراءة منهم كثير ..... ويذكر منهم ثلاثة وثلاثين شيخاً)) [٣] .
أما الوادي آشي فقد ذكر أن أبا حيان قد تجول في شمال إفريقيا أثناء رحلته إلى المشرق [٤] ، كما تجول في مصر ، وفي بلاد الحجاز وقد أجازه ما يزيد على الألف [٥] .
وهكذا كان أبو حيان ذا علم غزير واسع الاطلاع لكثرة مصادر علمه وتنوعها بالإضافة إلى إجادته اللغتين الحبشية والتركية ، ألّف فيها كتابين هما " الإدراك للسان الأتراك "

---

(١) أبو حيان : محمد ين يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي : البحر المحيط ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ، جـ ١ ، ص ٤ ، ٥ .
(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٥٢ .
(٣) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ نقلاً عن الصفدي .
(٤) برنامج الوادي آشي ، ص ٧٧ .
(٥) نفس المصدر والصفحة .

و " نور الغبش في لسان الحبش " (١) ، وتلك الصفات أهلته لتدريس الحديث في المدرسة المنصورية بالقاهرة ، كما أسند إليه الإقراء بالجامع الأقمر (٢) .

وفي القاهرة هيأ لأبي حيان جوها وكرم أهلها أن يجلس مجلس الأستاذ ويقبل عليه الطلاب وينهلون من منهله العذب الصافي . ولقد أسهم أبو حيان في النشاط العلمي ببلاد المشرق وكانت له اليد الطولى في التفسير والحديث وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم خصوصاً في المغاربة ، وأما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق حتى صار لا يذكر أحد في أقطار الأرض فيها غيره (٣) .

ومما زاد في قرب التلاميذ منه تودده إلى الأذكياء منهم يعظمهم وينوه بقدرهم (٤) ، وألْحقَ الصغار بالكبار وصارت تلامذته أئمةً وشيوخاً في حياته (٥) ، وبهذا الأسلوب التربوي استطاع أبو حيان أن يكسب الطلاب ويبث بينهم روح المنافسة والمثابرة على التحصيل العلمي ، وبذلك أحدث في مصر والشام نهضة علمية شارك فيها طلبة أذكياء دفعوا عجلة التقدم العلمي إلى الأمام قدماً بما أحدثوا من آراء وما ألفوا من كتب وما سجلوا من مناقشات وما تولوا من مناصب علمية وقضائية . ومن طلابه النابغين على سبيل المثال :

تقي الدين السبكي (علي بن عبدالكافي) (٦) عُين بعد تلقيه العلم على يد أبي حيان شيخاً لدار الحديث الأشرفية ترك نحواً من مائة وخمسين كتاباً مطولاً ومختصراً (٧)

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ٤ ، ص ٣٠٥ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ٦ ، ص ١٤٦ .

(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٤ ، ص ٣٠٣ .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٦) ابن العماد : المصدر السابق ، جـ ٦ ص ١٤٥ .

(٧) السيوطي : جلال الدين السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات النحويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل همام ، جزءان ، المكتبة العصرية ، بيروت (د. ت) جـ ٢ ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

توفي سنة ٧٥٥هـ [1] /١٣٥٤م .

ومنهم عبدا لله بن عبدالرحمن بن عبدا لله بن عقيل القرشي الهاشمي لازم أبا حيان ، وتفنن في العلوم وهو صاحب (المساعد في شرح التسهيل) ، و " الجامع النفيس في الفقه " وغير ذلك من المؤلفات ، توفي بالقاهرة ليلة الأربعاء ثالث عشر ربيع الأول سنة تسع وستين وسبعمائة [3] .

وبالإضافة إلى تلامذته الذين كان منهم نوابغ كثيرون ومصنفون وأصحاب مراكز ثقافية وإدارية كانت كتب أبي حيان من أكبر ما ترك للحضارة الإسلامية من آثار ... وهو بكتبه هذه يقدم نموذجاً موسوعياً من نماذج حضارتنا الإسلامية في عصور الازدهار .... إنه لم يترك تقريباً فناً من الفنون دون أن يسهم فيه بالتأليف والتصنيف فقد صنف في التفسير وفي الفقه وفي النحو وفي الصرف وفي الأدب واللغة وفي التاريخ ومن مصنفاته على سبيل المثال لا الحصر الكتب التالية :

١ - البحر المحيط في تفسير القرآن الكريم .

٢ - إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب .

٣ - كتاب التذييل والتكميل في شرح التسهيل .

٤ - كتاب الإدراك للسان الأتراك .

٥ - الارتقاء في الفرق بين الضاد والظاء .

ولم يقف دور أبي حيان عند تأليف الكتب وتعليم التلاميذ فحسب بل أوعز إلى بعض طلابه بالتأليف العلمي ، فمن جملة ذلك إيعازه إلى تلميذه الأدفوى بضرورة تأليف كتاب عن (صعيد مصر) فقال الأدفوي في ذلك : ((وكان شيخي الأستاذ الحجة البارع

---

(١) السيوطي : بغية الوعاة في طبقات النحويين والنحاة ، جـ ٢ ، ص ١٧٧ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) نفس المصدر والجزء ص ٤٧ .

جامع المناقب والمآثر والمحامد والمفاخر .... ذو العلوم الجمة الفائقة والآداب المنقحة الرائعة ..... أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي ... أشار علي أن أعمل تأريخاً للصعيد مرة ومرة وراجعني في ذلك كرة بعد كرة فرأيت امتثال إشارته علي متبعاً حتماً)) (١) ، وبالفعل فقد أتم الأدفوي تأليف كتابه المشار إليه وأسماه " الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد " .

ويدل توجيه أبي حيان لتلميذه الأدفوي بكتابه كتاب عن صعيد مصر على عدد من المؤشرات أهمها : اهتمام أبي حيان بالتأريخ والجغرافيا واهتمامه بالبيئة وما يتصل بها ووعيه بأن ابن المكان أقدر على الكتابة عنه لمعايشته ولسهولة الوصول إلى مصادره كما يدل على نزعة كريمة عند أبي حيان نلمسها في إشارته على تلميذه بكتابة كتاب عن بلده الصعيد على أساس أن ذلك وفاء للوطن وقيام بواجب من حق الوطن على أبنائه .

وفي المقابل نلمس عمق أستاذية أبي حيان الغرناطي الوافد على تلامذته المصريين حين اضطر الأدفوي للاستجابة له وليست كتابة الكتب بالأمر اليسير ، ولعلي ألمس في هذا حنيناً لأبي حيان لبلده غرناطة ويدل هذا على أن أبا حيان كان مثلاً رائعاً للحضارة الإسلامية التي تنظر إلى أوطان المسلمين كلها على أنها ذات أهمية واحدة ، كما أن أبا حيان استطاع تكوين مدرسة فكرية تأتمر بأمره وترى في توجيهاته أمراً يجب عليه أن تحترمه .... وفي شهر صفر من سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م توفي بالقاهرة أثير الدين أبو يحيى محمد بن يوسف ابن علي بن حيان (٢) .

وقد هاجر من غرناطة إسماعيل بن محمد بن محمد بن علي بن هاني اللخمي الغرناطي الذي ولد بغرناطة سنة ٧٠٨هـ (٣) / ١٣٠٨م وتعلم بها وكان من شيوخه أبو القاسم بن جزي .

---

(١) الأدفوي : كمال الدين جعفر بن ثعلب ، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، تحقيق سعد محمد حسن ، مراجعة طه الحاجري ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م ، ص ٥ .

(٢) الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، ص ٧٧ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .

ولا أعلم متى كانت رحلة إسماعيل بن محمد إلى المشرق ، غير أنه وصل إلى القاهرة عندما كان أبو حيان حياً فيها ، ويبدو أن شهرة أبي حيان بالقاهرة قد جذبت إسماعيل بن محمد إذ كان إسماعيل نفسه من المهتمين بعلوم اللغة العربية ، ولما وصل إلى القاهرة توجه إلى أبي حيان ، وراجع معه ما تعلمه في غرناطة ، ثم غادر محمد بن إسماعيل مصر متوجهاً إلى الشام ، حيث أقام بمدينة حماة ، وفيها اشتهر بالمهارة في تدريس اللغة العربية ، وكان لمعرفته لكتب الفقه ، وحفظه لكتاب الموطأ ومعرفته بالمذهب المالكي أكبر الأثر في ترشيحه لتولي القضاء بمدينة حماة إذ كان أول مالكي يتولى القضاء فيها [١] .

ولم يكن للمالكية بالشام مثله في سعة علومه [٢] ، توفي سنة ٧٧١هـ [٣] / ١٣٦٩م . ولقد كان لإبن جابر الأعمى محمد بن أحمد بن علي بن جابر تأثيراته ، والذي سبقت الإشارة إلى رحلته لانتشار شعره في كل أرجاء المشرق ، ومن شعره في طيبة مدينة رسول الله ﷺ :

هناؤكم يا اهل طيبة قد حقّا   فالبقرب من خير الورى حُزْتُم السبقا
فلا يتحرك ساكنٌ منكم إلى   سواها وإن جار الزّمانُ وإن شقا [٤]

وقد أورد ابن الخطيب في إحاطته [٥] والمقري في نفحه عدة قصائد من قصائده الرائعة والمشهورة بالمقصورة [٦] .

وكذا البديعة المشهورة والمعروفة ببديعة العميان والتي فيها تورية بسور القرآن ومدح النبي ﷺ .

وقد تأكد المقري من صحة نسبة قصيدة ابن جابر إليه[٧] ، وهي تلك القصيدة التي

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .
(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٤) المقري : نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ٣٠٥ .
(٥) جـ ٢ ، ص ٣٣١ .
(٦) المقري ، المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٣٠٦ .
(٧) أزهار الرياض ، جـ ٤ ، ص ٢٥٤ .

شُرحَتْ من قبل صديق ابن جابر أبي جعفر الرعيني والتي مطلعها :

في كلّ فاتحة للقول معتـــــبرة حق الثناء على المبعوث بالبقـــره

في آل عمران قِدماً شاع مبعثه رجالهم والنساء استوضحوا خبره (١)

ولشهرتها عارضها الكثير من شعراء المشرق ومن بينهم القلقشندي (٢) .

كما عرف عن ابن جابر أنه شرح وعلق على ألفية ابن مالك الجيـاني (٣) ، ويؤكـد الأديـب علي بن الخطيب الذي تعرف على ابن جابر خلال رحلته إلى المشرق أنه قـرأ مـا كتبـه ابـن جابر فاكتشف أن في بعض قصائده تشـابهاً وتـأثراً بالشـاعر المشـرقي المعـري (٤) ، كمـا أن الرحالة ابن بطوطة يقول عن ابن جابـر إنه امتـدح سـلطان مـاردين ابـن الملـك الصـالح بـن الملك المنصور ، فأعطاه عشرين ألف درهم (٥) .

وقد نقل المقري في نفح الطيب عدة قصائد لهذا الشـاعر الأعمى والـتي مـن خلالهـا نلمس أن ابن جابر لم ينس بلـده مملكة غرناطـة ولا مدينتـه المريـة حيـث الديـار الـتي عـاش فيها (٦) .

وأما رفيقه (البصير) أبو جعفر الرعيني فقد نظم بدوره عدة قصائد ولكنها لم تكـن بالجـودة التي وصلـت إليهـا قصائـد صاحبـــه الأعمى ولكـن شـهرة الرعيـني كـانت بصفـة كبـيرة مستمـــدة مــن ارتباطـه بصديقـــه المشهــور ، لأنه كان يكتب لابـن جـابر الضريـر ما يصدر عنه من نظم ونثر وتأليـف (٧) ، وكـان مقتـدراً على النظم والنثـر عارفـاً بالبديـع

---

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ٣٢٤ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٢٨ .

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٠٢ .

(٤) نفس المصدر والجزء ص ٣٠٥ .

(٥) ابن بطوطة : أبو عبدا لله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي : رحلة ابن بطوطة ، دار صـادر ، بيروت ١٤١٢هـ ، ص ٢٣٨ .

(٦) المقري : المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٣٠٨ .

(٧) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٣٣٠ .

حسن الخلق حلو المحاضرة ، شرح بديعية رفيقه ومات سنة ٧٧٩هـ [١] /١٣٧٧م ، وكانت إقامته في بلاد الشام نحواً من ثلاثين سنة .

كما كان ابن الحاج النميري قد التقى مع (ابن جابر) وذكر أن ابن جابر قد ألّف برنامجاً خلال تلك الرحلة العلمية أورد ابن الحاج النميري بعضاً منه في مذكراته تحت عنوان من مختصر برنامج ابن جابر [٢] وقد توفي ابن جابر صديق أبي جعفر سنة ٧٨٠هـ [٣] / ١٣٧٨م بمدينة ألبيرة من بلاد الشام .

أما سليمان بن عبدا لله بن يوسف ألبيري من أهالي مدينة ألبيرة [٤] على مقربة من غرناطة ، فقد كان من أصدقاء ابن جابر وأبي جعفر الغرناطي (الرعيني) المشار إليهما سابقاً ، فقد هاجر إلى بلاد المشرق برفقة أخيه العلاء ولما وصل إلى مصر التحق أخوه العلاء بخدمة السلطان المملوكي (يلبغا) الناصري المتغلب على الديار المصرية .

أما سليمان فقد حظي بمكانة عند الجمال الأستادار (وزير السلطان المذكور) ولما قُبض على الأستادار فر سليمان بن عبدا لله إلى اليمن فأقام ببلاد اليمن من سنة (٨١٢هـ - ٨٢٧هـ /١٤٠٩- ١٤٢٣م) وكان وصوله إلى مدينة تعز سنة ٨١٤هـ /١٤١١م ثم خرج من اليمن إلى بلاد الحجاز وذلك لأداء فريضة الحج ، وبعد أن أدى الحج عاد إلى مصر وسكن في القاهرة بالبيبرسية من أحيائها وبقي مقيماً بها إلى أن توفي سنة ٨٣٣هـ [٥] / ١٤٢٩م وقد كان يشتغل بنسخ الكتب وقد أجاز لعدد من علماء اليمن [٦] .

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ١ ص ٣٤٠ .

(٢) ابن الحاج النميري : مذكرات ابن الحاج النميري ، ص ١٨٣ .

(٣) ابن حجر : المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٣٤٠ .

(٤) ألبيرة : مدينة أندلسية بلغت أوج ازدهارها في عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم الذي بنى مسجدها الجامع سنة ٢٠٥هـ بينها وبين غرناطة ستة أميال (انظر ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، جـ٢ ، ص ٩٢) .

(٥) السخاوي : الضوء اللامع ، جـ ٣ ، ص ٢٦٥ .

(٦) انظر نفس المصدر ، جـ ٣ ص ٢٦٥ .

أما المجاري (أبو عبدا لله محمد) الذي وصل مصر توجه إلى القاهرة والتقى سراج الدين أبا حفص عمر البلفيقي وذلك بمدرسته [١] التي أنشأها سنة ٧٩٥هـ /١٣٩٢م في حارة بهاء الدين بالقاهرة، ويمكن تلخيص تأثره وتأثيراته في محاورته للعلماء واللقاء بهم وتولى التدريس فقد سمع على أبي حفص حظاً وافراً من كتاب مسلم [٢] .

ويصف المجاري عملية التدريس للشيخ المذكور ويقول : ((فكان في حين قراءة الحديث يفسر الحديث بالقرآن والحديث وينقل في معنى الحديث الواحد أحاديث كثيرة بأسانيدها من كثرة حفظه)) [٣] .

ولم يكن المجاري متلقياً للعلوم فحسب بل تجده يقوم بتدريس أبناء الشيخ سراج الدين أبي حفص عمر البلفيقي وأحفاده ، وفي ذلك يقول المجاري : ((وكنت أعلم أولاده واحفاده العربية بمدرسته في الإيوان الصغير المقابل للإيوان الكبير بيت الصلاة حيث يقرئ الشيخ ويفتي)) [٤] ، والتقى بعدد من علماء مصر أذكر منهم على سبيل الإيجاز الشيخ المصنف عبدالرحيم بن الحسين بن أبي بكر بن إبراهيم والمعروف بعز الدين العراقي الذي درس المجاري على يديه في المدرسة الظاهرية وهي المدرسة التي كان قد أنشأها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٠هـ [٥] /١٢٦١م . وغير هؤلاء من الشيوخ الذين استطرد المجاري في ذكرهم ، توفي المجاري يوم الأحد ثاني جمادي الآخرة عام اثنين وستين وثماني مائة [٦] .

وبعد المجاري جاء علي بن محمد بن علي القرشي البسطي أبو الحسن الشهير بالقلصادي

---

(١) المجاري : برنامج المجاري ، ص ١٤٧ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٤٨ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ ق٢ ، نشر ، محمد مصطفى زيادة ، مطلعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ص ٥٠٤ .

(٦) البلوي : ثبت أبي جعفر البلوي ، ص ٢٠١ .

الذي خرج من مدينة بسطة التابعة لغرناطة متجهاً إلى الشمال الإفريقي [١] ، وبعد لقاءاته العلمية هناك سافر علي بن محمد بن علي أبو الحسن القلصادي من طرابلس الغرب إلى الإسكندرية التي غادرها عن طريق النيل إلى القاهرة ، وأخذ في الدراسة والقراءة على يد الشيخ زين الدين طاهر بن محد النويري الذي قرأ عليه بعضاً من المختصر للشيخ خليل ، وبعض التفريع لابن الجلاب وبعض شرح الشاطبية للفاسي . ولازم الشيخ الفقيه أبا العباس علم الدين الحصني وقرأ عليه جميع كتابه المسمى بفوائد العقائد [٢] وغير ذلك ، وفي يوم الأحد السادس والعشرين من شهر رجب عام ٨٥١هـ / ١٤٤٧م بدأ بالسفر إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج وركب البحر إلى ينبع التي وصلها في زوال يوم الجمعة السابع من شهر رمضان عام ٨٥١هـ [٣] / ١٤٤٧م ، ومنها اتجه إلى جدة ومن جدة إلى مكة المكرمة ، وبعد أدائه لمناسك العمرة التقى القلصادي بمجموعة من أهل بسطة فلم يوضح من هم الذين التقى بهم ، والتقى بعدد من اهالي ومواطني شمال إفريقيا أيضاً وفي أثناء تلك اللقاءات انتهز القلصادي الفرصة وشرح فرائض ابن الحاجب [٤] .

وروى عن الشيخ شرف الدين أبي الفتح محمد بن أبي بكر بن الحسن المراغي وكتب أسانيده على كتب الأحاديث وأجازه في ذلك وكتبها له بخطه [٥] .

وبعد أداء مناسك الحج وزيارة المدينة المنورة سافر القلصادي إلى مصر عن طريق البحر من ينبع ، ووصل إلى مصر يوم الخميس السابع عشر من محرم عام اثنين وخمسين وثمانمائة ونزل بحي من أحياء القاهرة وذلك بزاوية أبي الوفاء قرب باب كافور [٦] معاوداً نشاطه العلمي

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في رحلته إلى المغرب ضمن هذا البحث .

(٢) القلصادي : رحلة القلصادي ، ص ١٢٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٠ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٣٥ .

(٥) نفس المصدر والصفحة .

(٦) نفس المصدر ، ص ١٤٨ .

ولقاءاته بالعلماء للمرة الثانية ، وقد أضمر في نفسه العودة إلى وطنه متمثلاً بقول أبي حيان :

يا فرقة أبدلتني بالسرور أسى

وأسهرت ناظراً قد طال ما نعسا

أنى يكون اجتماع بين مفترق

جسم بمصر وقلب حل أندلسا [١]

وفي هذه المرة كان من أبرز شيوخه أحمد بن حجر العسقلاني ، فحضر بعض الدروس التي قرئت عليه من كتاب البخاري ومسلم والنسائي وسنن أبي داود والترمذي والموطأ والشفاء للقاضي عياض ومسند الدارمي ، وأجاز القلصادي في جميع ذلك ، وحضر القلصادي جنازة شيخه ابن حجر وذلك عام ٨٥٣هـ [٢] /١٤٤٩م . وفي مصر أخذت عوامل الغربة تجيش في نفسه فسافر من القاهرة إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية إلى برقة وطرابلس ومن طرابلس إلى تونس ومن تونس إلى وهران وتلمسان ومن تلمسان إلى المرية حيث وصل إلى وطنه غرناطة وتوفي القلصادي سنة ٨٩١هـ [٣] / ١٤٨٦م بعد حياة علمية حافلة بالعطاء العلمي أندلساً ومشرقاً ومغرباً .

ومما سبق عرضه والجدير ذكره في هذا المقام يتضح أن كل عالم ارتحل من غرناطة إلى المشرق الإسلامي أو الشمال الإفريقي المسلم طلباً للعلم ، كان يمثل - بحد ذاته - نقطة توهج تأخذ وتعطي وتؤثر وتتأثر كما تم شرح ذلك التأثير والتأثر ، فبالإضافة إلى ما ذكر إنه يأخذ

---

(١) القلصادي : رحلة القلصادي ، ص ١٤٨ ، وانظر ابن القاضي : درة الحجال ، جـ ٢ ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) القلصادي : المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٣) انظر مقدمة تحقيق رحلة القلصادي ، ص ٥٢ .

من أهل البلاد علمهم ويتعرف على مذهبهم الشافعي أو الحنفي ، وقد يقرر أن يترك مذهبه المالكي إلى هذا المذهب أو ذاك تسامحاً ومسايرة لأهل البلاد ، حيث يشعر بأن المذهب السائد يتفق مع البيئة وأن شذوذه عن الجماعة في هذه الفروع لا لزوم له ، وقد يشكل له عقبة في مجال التكيف مع الجماعة - والعكس كان صحيحاً أيضاً . فقد يمكنه اهل البلاد أنفسهم من أن يكون مدرساً للفقه المالكي أو قاضياً للمالكية أو مفتياً لهم ... وهذا دليل عملي على التسامح السائد بين المسلمين الذين تعاملوا مع أئمة المذهب على أنهم أعلام مجتهدون وأنهم جميعاً مرتشف من كتاب ا لله وسنّة رسوله ﷺ .

وقد رأينا كثيرا من الأعلام النازحين والراحلين يأخذون الاجازات ويعطون الاجازات ، ويروون عن الشيوخ الذين قابلوهم ، ويروي أهل البلاد عنهم ، وقد تُعرَضْ عليهم المناصب وكأنهم أهل البلاد بلا تفرقة ، وينافسون أهل البلاد دون شعور بالدونية والاغتراب ، فقد كانت حضارة الإسلام تسمح بالتنافس في حدود العلم الصالح والعمل الصالح اللذين هما جماع كلمة التقوى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (١) .

ومما سبق عرضه حين ترجمت لعدد من العلماء النازحين والراحلين من مملكة غرناطة إلى الدول الإسلامية مشرقاً ومغرباً تبين لي من خلال تلك النماذج التي قدمتها وغيرها أن هذا التواصل كان حركة دائبة لا تنقطع ، وأنه كاد يكون سنة متبعة يسير عليها أكثر العلماء ، شعوراً منهم بأن هذه المملكة الصغيرة غرناطة جزءاً لا يتجزأ من قارة الإسلام الكبيرة وأن علمهم لن تتوافر له الأصالة والعمق بل والاعتراف العام به ما لم يكن موصولاً بعلم المشرق الإسلامي الذي نشأ فيه الإسلام وازدهرت فيه حضارته ونبغ فيه حملة العلوم الشرعية واللغوية .

وقد كان لهذه الرحلات آثارها على مملكة غرناطة وعلى البلاد التي نزح إليها علماء غرناطة مثل الشمال الإفريقي ومصر والشام والحجاز .

---

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

فهؤلاء العلماء الراحلون - لظروف مختلفة - استقر بعضهم فترات طويلة في هذه البلدان واستقر بعضهم استقراراً كاملاً .

وفي هذه الحالة كان لا بد أن يعطوا بجانب ما يأخذون وأن يعملوا في وظائف معينة تكفل لهم الحياة الكريمة واستمرار طلب العلم . وبالتالي كانت لهم تأثيراتهم في مجالات كثيرة في تلك البلدان ، ولقد ساهم هؤلاء العلماء في إثراء الحياة العلمية في البلاد التي ذهبوا إليها عن طريق مشاركتهم في التدريس ، والحوار ، والمناقشة ونقل معالم الفكر الغرناطي إلى هذه البلدان من خلال التجربة الأندلسية الخاصة ، ومن خلال فقه الثغور على أساس أن غرناطة كانت ثغراً يقف في وجه الأعداء .

وقد كان لهؤلاء العلماء حضورهم في حلقات العلم وفي مجال المناظرات ... وقد أَثْرَوْا الحياة العلمية إلى جانب إخوانهم أبناء البلاد الأصليين ... وقد رأينا أن اغترابهم لم يحل دون صدارتهم ، والتتلمذ عليهم والإقرار لهم بالفضل ... وعرض أكبر المناصب عليهم .

وفي مجال تأليف الكتب فقد ألّف الراحلون والمهاجرون من غرناطة إلى البلدان الإسلامية العديد من الكتب والتراجم التي حفظت أسماء علماء المشرق الإسلامي في مختلف الفنون والعلوم وحفظت أسماء مؤلفاتهم ، وألّفوا هم في هذا الميدان الكثير من الكتب أثناء إقامتهم ، وقد ذكرت نماذج كثيرة من مؤلفاتهم .

وفي مجال التعليم ساهموا بقسط وافر في تعليم المسلمين في تلك البلدان أمور دينهم ولغتهم ، وليس أدل على مدى ذلك التأثير من تأثيرهم اللغوي في المشرق الإسلامي الذي ما زال حياً إلى يومنا هذا .

ويتمثل ذلك في شخصيتي ابن مالك الجياني وأبي حيان الغرناطي فأولهما صاحب الألفية وثانيهما صاحب البحر المحيط ، هذا بالإضافة إلى تأثيرهم على الفتاوى الشرعية مشرقاً ومغرباً وانتشار فتاوى فقهاء غرناطة من أمثال الشاطبي وغيره ، وهي فتاوى ما زال يستضاء بها في المغرب والمشرق حتى اليوم .

أما في ميدان الطب والعلوم ، فقد زاولوا الطب والعلاج بمستشفيات القاهرة ودمشق وفاس وغيرها ، ونقلوا علومهم في الطب والأدوية إلى البلاد التي زاروها واستوطنوها ، وقد تقلدوا مناصب إدارية ودينية ، فتولوا إدارة المستشفيات ، وإدارة المدارس والوزارة والقضاء وإمامة الحرمين في مكة والمدينة وكان لهم من خلال هذه المجالات تأثيرهم الحضاري الفعّال .

فكل عالم منهم كان يدٌ قدمتها مملكة غرناطة ، ومن مجموع هؤلاء العلماء الراحلون والمهاجرون وعطائهم تكون هذا التأثير الذي لا أشك في أنه كان كبيراً وعظيماً وأنه يحتاج إلى استقصاء لا يتحمله المجال هنا وحسبي أني قد أضأت معالم ذلك إضاءةً كافيةً إن شاء الله .

الفصل الثالث

العلاقات الاقتصادية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية

أ ـ مظاهر الحياة الاقتصادية في مملكة غرناطة بين الازدهار والتدهور
(الزراعة ، التجارة ، الصناعة ، السكة)

ب ـ العلاقات الاقتصادية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية
- طرق التجارة البرية والبحرية
- التبادل التجاري مع :
١ ـ المغرب الإسلامي
٢ ـ المشرق الإسلامي

أ- مظاهر الحياة الاقتصادية في مملكة غرناطة بين الازدهار والتدهور :

الزراعة :

اتفق معظم المؤرخين والجغرافيين والرحالة على جمال وخصوبة أراضي مملكة غرناطة ، كما اتفقوا على أن الجزء الذي تبقى في أيدي المسلمين بعد موقعة العِقاب من شبه جزيرة ايبيريا يقع في منطقة خصيبة من شبه الجزيرة الأيبيرية (١) .

وتقع غرناطة على منحدر في الجهة الشمالية الغربية لجبال سيرا نفادا على ارتفاع ٦٠٠ متر فوق سطح البحر ، يتدرج في الانخفاض من لورقة إلى أنتقيرة (٢) .

كما أن لموقعها في الضفة اليمنى لنهر شنيل ، أهمية في استقبال الأمطار الآتية عبر المحيط الأطلنطي مما نتج عنه انتشار مزروعات متنوعة ، ساعد على استمرارها ذوبان ثلوج جبال (سيرانفادا) التي تزود غرناطة بالمياه وتضمن جريان نهر شنيل الذي تغنى به شعراء الأندلس وفضلوه على نهر النيل (٣) .

ولم تكن مملكة غرناطة على الأغلب تعاني من مشكلة المياه ولا من ندرة وسائل الري ، فطبيعة مناخها المعتدل وتوافر مصادر المياه ، وعلى رأسها نهر شنيل يكفل لها توفير كل احتياجاتها من المياه الصالحة للري ، إذ يمر نهر شنيل على غربي غرناطة إلى فحصها يشق

---

(١) انظر : الزهري : أبو عبدا لله محمد بن أبي بكر ، كتاب الجغرافية ، اعتنى بتنقيحه محمد حاج صادق ، نشر مجلة الدراسات الشرقية ، دمشق ١٩٦٨م ، ص ٢١٢ وما بعدها ، الإدريسي : محمد بن محمد بن عبدا لله بن إدريس: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، جزءان ، بيروت ط١ ، ١٤٠٩٨هـ ، جـ ٢ ، ص ٥٦٩ وما بعدها ، ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ص ٩٣ ، ٩٤ ، ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، حققه جعفر إسماعيل العربي ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، د١ ، ١٩٩٧م ، ص ١٦٧ .

(2) J. Bosgue, mourol , geigrafia alarana de granada saragossa 1962 , pp 21 - 29 .

(٣) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ١١٢ .

منها أربعين ميلاً بين بساتين وقرى وضياع كثيرة البيوت والعلالي وأبراج الحمام [١] .

وأما ((نهر حدرة فينحدر من جبل بناحية وادي آش شرقي شلير فيمر بين بساتين ومزارع وكرمات إلى أن ينتهي إلى غرناطة فيدخلها على باب الدقاق بشرقيها يشق المدينة نصفين ... وعليه بداخلها خمس قناطر : قنطرة ابن رشيق ، وقنطرة القاضي وقنطرة حمام جاش والقنطرة الجديدة ، وقنطرة العود ، وعلى القناطر أسواق ومبانٍ محكمة والماء يجري من هذا النهر في جميع البلد في أسواقه وقاعاته ومساجده ويبرز في أماكن على وجه الأرض ... وحيث طلب الماء وجد)) [٢] .

ومن مصادر المياه في غرناطة أيضاً جبل شلير وهو جبل الثلج المشهور بالأندلس [٣] وهو الجبل الذي لا ينقطع منه الثلج صيفاً وشتاء [٤] ، وعند ذوبان المياه منه فإنها تسقي الوادي المجاور له ومما قيل في وصف جبل شلير :

وشيخ جليل القدر قد طال عمره ... وما عنده علم بطول ولا قصر
عليه لباس أبيض باهر السنا ... وليس بثوب أحكمته يد البشر
وطوراً تراه كله كاسيا به ... وكونه فيه لأهل النهي عبر
وطوراً تراه عارياً ليس يشتكي ... لحرّ ولا بردٍ من الشمس والقمر
وكم مرت الأيام وهو كما ترى ... على حاله لم يشكو ضعفاً ولا كبر
فذاك شلير شيخ غرناطة التي ... لبهجتها ذكر في الأرض قد انتشر [٥]

ومن خلال هذا النص والنص الذي سبقه يستطيع القارئ أن يتخيل تلك الجنات والعيون التي أودعها الله سبحانه وتعالى مملكة غرناطة ، وفي هذا العصر كادت هذه الأنهار تنضب

---

(١) العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٥٦ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١٢ .
(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٩٦ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ٣ ، ص ٤٢٥ .

وليس فيها من المياه إلا القليل عما كانت عليه في عهد الإسلام .

وكانت الناعورة من وسائل استخراج الماء وسقي الأرض . وكان لمنظر الناعورة وقع خاص على الأدباء والشعراء إذ يشاهدونها في الأرياف ويتجاوبون مع موسيقاها الريفية ومع منظرها البهي ، وقد وصف ابن الأبار الناعورة بأبيات يقول فيها :

لله دُولابٌ يَدُورُ وكأنّـــهُ فلكٌ ولكنْ ما ارتقاهُ كوكـــبُ

نَصَبَتْهُ فوقَ النهر أيدٍ قدرتْ ترويحة الأرواحَ ساعة يُنصـــبُ

فكأنه وهو الطليقُ مقيـــدُ وكأنهُ وهو الحبيسُ مُسَيّـــبُ

للماء فيه تصعدُ وتحـــدرُ كما لمزن تستسقي البحار وتسكبُ [١]

وكانوا يستخدمون الطواحين (الرحى) الموجودة على حافة الجداول والأنهار [٢] للحصول على الماء فكانت الطواحين تؤدي دورًا كدور النواعير .

وقد كان في غرناطة أكثر من مائة وثلاثين من الأرحاء الطاحنة بالماء [٣] ، وقد عرف الغرناطيون الآلات المتخذة لقياس وزن المياه واستواء الأرض حتى يمكن سقيها وري المزروعات في الأرض بسهولة ويُسر وقد شرح ابن ليون لأهل مملكة غرناطة الطريقة التي يمكن للمزارع الغرناطي اتباعها وذلك بأن يستخدم المرجيقل [٤] فيقول : ((فالوزن بالمرجيقل أن يقام عودان طولهما واحد ، وبينهما في الأرض عشرة أذرع أو نحوها ويمد شريط من رأس أحد العودين لرأس الآخر ويعلق المرجيقل في وسط الشريط وهو مثلث من خشب في وسطه خط وعليه خيط في طرفه ثقاله فإن وقف خيط الثقالة على الخط الذي في

---

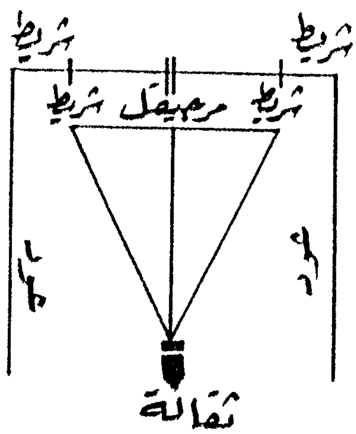
(١) ابن سعيد : رايات المبرزين وغايات المميزين ، حققه محمد رضوان الداية ، دمشق ط١ ، ١٩٨٧م ، ص ٢٠٦ .

(٢) انظر العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٥٦ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ص ١٣٣ واللمحة ص ١٥ .

(٤) المرجيقل : وهو من خلال العرض المذكور في الصفحة التالية أداة تستخدم لمعرفة استواء الأرض من عدمه (انظر الشكل التوضيحي في الصفحة التالية) .

وسط المرجيقل وعلى طرف المرجيقل المحاذي فيما بين العودين من الأرض معتدل ، وإن خرج الخيط عن الخط رفعت العود المنخفض إن أنزلت العود المرتفع حتى يعتدل الوزن ثم تنقل أحد العودين وتزن وتمضي هكذا حتى تتم وهذه صفة ذلك)) [1] .



كما استخدم الغرناطيون أيضاً الأبيار تسقى بساتينهم ومزارعهم . ولا يمكن اغفال المطر كوسيلة من وسائل الري ، الذي كان يهطل في فصول السنة كلها وفي الشتاء بصفة خاصة ، أهل مملكة غرناطة يتضرعون إلى ا لله عندما يشح الماء بسبب قلة نزول المطر ، وكانوا ككل المؤمنين با لله - يرجعون عدم نزول المطر إلى المعاصي والآثام ، التي كان يرتكبها عليه القوم بخاصة وعامة الناس بصفة عامة وفي هذه الحالة كانوا يقيمون صلاة الاستسقاء ويتضرعون إلى ا لله ولهم في ذلك تراث شعري كبير ، يقول الشاعر عبدالكريم القيسي :

يا من يؤمل لطفه	عند الشدائد والكرب
أنزل علينا ربنا مطراً	كأفواه القرب
تجبر به من حالنا	ما اختل محلاً واضطرب

---

(١) ابن ليون : إبداء الملاحة ، ص ٦١ ، ٦٢ .

ويتابع التضرع مرة أخرى فيقول :

يا رب يا رب بالآيات والسور [1] .. إلخ الأبيات التي يبتهل فيها إلى ا لله عـز وجـل منزل الغيث أن ينزل عليهم المطر وأن يمن عليهم برحمته وأن يقبل دعواتهم وتضرعهم .

ومن المعروف أن الأصل في سقي الأرض الاستواء حتى يمكن وصول الماء إلى المزروعات أي كان مصـدر تجمعه بدرجة واحدة ، وقد كان يوجد لدى المزارعين الغرناطيين مقياس يقيسون به استواء الأرض ، لعلاج الأرض غير المستوية ولحساب درجة انسياب المياه فيها ، وتتلخص تلك الطريقة ـ كما بسطها ابن ليون ـ وذلك في شد حبل بين وتدين حسب المسافة التي يراد التأكد من مستوى استواء الأرض فيها ثم يعلق الميزان لمعرفة درجة الاستواء بدقة كافية [2] وفي ذلك يقول ابن ليون شعراً اقتطف منه مايلي :

وأصل الأرض الاستواء فيهـا
حتى يكون الماء يستوفيهـا
فشد بين وتديـن حبـلاً
قدر ما تبغي به المحـلا
وعلق الميزان منـه تـدري
كيف استواء أرض ذاك القدر
وصبب الماء بكل موضـع
بقدر خمس عشر طوله رعـى
وما يصلب على حبل الصبب
زنه بالاعتدال من غير صبب
وترفع التلول في أرض الشجر
والفيض بالماء بذاك يستقـر

---

(١) عبدالكريم القيسي : ديوان عبدالكريم القيسي ، ص ٣٤٦ .

(٢) ابداء الملاحة ، ص ٥٨ .

وبالبلاليط العماق والتبـــون

والحرث مرع الأرض قطعه يهون [١]

ولم يفت ابن ليون أن يعالج كيفية إجراء المياه في الأراضي الزراعية ، بطريقة تضمن وصول الماء إلى كل الأشجار والنباتات دون ترك بعضها من غير سقي عرضة للذبول والموت فيرشد المزارع الغرناطي إلى ما يمكن القيام به وذلك بعد أن يتأكد المزارع أنه قد وزن أرضه بالمرجيقل [٢] .

كما لم يفته أن يعالج كيفية سقي الأرض أو حسب مصطلحه " تحويض الأرض " [٣] أثناء قلة المياه وكيفية تشكيل الأحواض في هذه الحالات ، إنه بين أن الحوض يجب أن تكون سعته ثلث طوله ، وكذلك يجب أن تكون هيئة الحوض العامة ، أما الطول فيكون إثني عشر ذراعاً ، يمكن أن يكون أقل من ذلك [٤] .

ويبدو أن أهل غرناطة قد عرفوا أسلوب القنوات التحتية ولعله أسلوب أقرب إلى الأنابيب المعروفة في عصرنا الحاضر ، وقد كشف ابن ليون عن إحدى طرق الري في كتابه ابداء الملاحة الذي شرح فيه كيفية إجراء المياه تحت الأرض ، حيث تجري المياه ، في قنوات يتحكم فيها ويخرج الماء صافياً ، لا يختلط بشيء يضر العملية الزراعية ويحدث ذلك وفق خطة تم وزنها من قبل [٥] .

ويتصل بهذا قدرة الغرناطيين على معرفة أماكن وجود المياه الجوفية ، وذلك وفق ملاحظات هندسية معينة ، مثل مشاهداتهم للنباتات المتشبعة بالمياه ، فعند ذلك يفطن إلى أن الماء قريب من السطح ، ومن أمثلة تلك النباتات التي يستدل منها الفلاح الغرناطي على

---

(١) ابداء الملاحة ، ص ٥٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٦١ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٠ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٦٥ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٦٠ .

قرب الماء من السطح نباتات الدبس والعليق والبردي ، شريطة أن تكون مروية بالماء ، أو مشاهدة المياه مختلطة بالرمل ، بمعنى أن يكون الرمل كأنه مبتل بالماء (١) .

وهناك طريقة أخرى يستدل بها على مدى عمق الماء وطعمه أي مدى عذوبته أو ملوحته . وهل هو خفيف أو ثقيل .... هذه الطريقة تتلخص في أن يقوم المزارع بحفر حفرة عميقة ، ثم يوضع بداخلها صوفة معلقة في قعر الحفرة ، وبطريقة علمية معينة مثل دفن الصوفة في الحفرة ثم استخراج الصوفة ، فتدل تلك الصوفة بمقاييس خاصة عندهم على قرب الماء في تلك لأرض أو عدم قربه وكذلك فإن طعم الماء في الصوف يدل على نوعيته (٢) .

وكذلك كانت هناك طرق أخرى تمكن بها المزارعون الغرناطيون من معرفة درجة الماء وهل هو خفيف أم ثقيل وقد بسط القول فيها ابن ليون (٣) .

وحتى فضلات الحيوان والإنسان ومدى فائدتها والمدة التي تحتاج إليها لكي تحقق للأرض الخصوبة المطلوبة لم يهملها الغرناطيون ، وقد أشار إليها ابن ليون في شعر طويل مبيناً أنها من أفضل أنواع الأسمدة التي تعالج الأرض علاجاً طبيعياً ولكنها تتفاوت في فائدتها من نبات إلى نبات فقد تكون أكثر فائدة لبعضها ، وقد تكون ضارة لبعضها ، وقد تكون مفيدة إذا اختلطت بعضها بنسب مختلفة (٤) .

ولم تغفل كتب الزراعة الحديث عن تقسيم المياه التي تسقي الأرض بين المزارعين تقسيماً يحقق المصلحة العامة للجميع بما يناسب احتياج المزروعات للمياه ، فهناك مزروعات تحتاج إلى مياه أكثر . ومن هنا كان تقسيم المياه تقسيماً فنياً عملاً مطلوباً ، وعندما كان يقع خلاف بين المزارعين كان علماء الفتوى ورجال القضاء يتدخلون لحسم الأمر معتمدين بالتأكيد على الحاجات الحقيقية لكل نوع من الزراعة .

---

(١) ابن ليون : ابداء الملاحة ، ص ٦٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

وكانت مدن مملكة غرناطة تكمل بعضها بعضا زراعياً ، وتشتهر كل مدينة منها بعدد من المنتجات الزراعية ، بيد أن هذا لا يعني عدم اشتراك أكثر من مدينة في منتجات زراعية مشتركة غير أن بعضها يعرف بشيء لا يعرف به غيره ، إما لكثرته كثرة تجعله أكثر وأرخص ، وإما لوجود أنواع جيدة غير موجودة في مدن أخرى ، وقد فصل المؤرخون والجغرافيون في حديثهم عن ثروة كل مدينة في المنتجات الزراعية ، وبالطبع كان الحديث عن غرناطة يفوق غيرها من المدن وسيكون حديثي عن الزراعة في مملكة غرناطة إجمالياً ، وتعد منطقة عتقة والمقاطعات الواقعة في شمال غرناطة وفي جنوب غربها من المناطق المشهورة المزروعة بالنباتات الموسمية مثل القمح والبر والشعير والذرة البيضاء (١) .

وقد عرف فحص غرناطة بأنه من أطيب البقاع وأكرم الأرضين تربة ويجود منه ما لا يجود إلا بالساحل من اللوز وقصب السكر وما أشبههما (٢) ، ويزرع البر في الحمة (٣) (جنوب غرب غرناطة) وكذلك في قرطمة ويختلف حصاد البر في المرية من سنة إلى أخرى تبعاً لسقوط الأمطار (٤) .

وكانت هذه المناطق عرضة لغارات النصارى المتكررة من أجل ضرب الاقتصاد النصري واضعاف المقاومة الإسلامية الغرناطية ، ونتيجة لذلك ولسد العجز الحاصل في الحصاد ولإعادة الزراعة كان الغرناطيون في بعض الأوقات يستوردون الحنطة من بر العدوة (٥) .

وفي أوقات اشتداد العدوان النصراني على مملكة غرناطة فإن المزارعين في قرى أندرش ووادي آش وقرية شريش وفتيانه كانوا يضعون مخزونهم من البر في حفر تحت الأرض مخصصة لحفظ الغلال والرجوع إليها وقت الأزمات وتمكنوا وقت الحصار النصراني لمدينة

---

(١) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٩٦ .

(٢) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٢٤ .

(٣) ابن الخطيب : معيار الاختبار ، ص ١٢٤ .

(٤) العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٦٠ .

(٥) نفس المصدر والصفحة .

غرناطة من جمع كميات هائلة من القمح والشعير والذرة وطلبوا من أهالي غرناطة الخروج بدوابهم لحملها إلى غرناطة لدعم الصمود الإسلامي فيها فخرج السلطان أبو عبدا لله محمد بن علي على رأس جمع غفير من الدواب في معية أهل غرناطة لحملها فكان ذلك شيء لا يُطاق حمله ولا يأتي على وصفه [١] .

ولقد تناقصت أشجار الزيتون في مملكة غرناطة بعد أن استولى النصارى على مدينة إشبيلية سنة ٦٤٦هـ /١٢٤٨م ، ولكن أشجار الزيتون بقيت مزروعة في أماكن متفرقة من قرى ومدن مملكة غرناطة إذ تحدث ابن الخطيب عن وجود معاصر الزيت في لوشة مما يدل على زراعة الزيتون فيها [٢] .

كما انتشرت أشجار الزيتون بالغوطتين من بجاية [٣] . وفوق المنحدرات المغطاة بأشجار الزيتون تمتد كروم العنب حيث تنتشر الأراضي المزروعة بالكروم وعلى ساحل البحر المتوسط نجد الكرم يغطي السفوح الجنوبية للجبال الأندلسية حيث يزرع الكرم في وادي المرية [٤] .

ومن أشهرها كرم مالقة وقرطمة والمنكب التي يوجد بها زبيب مشهور الاسم [٥] ، ولقد تحدث الشعراء والرحالة عن وفرة الثمار في مملكة غرناطة وتنوعها فيقول عنها ابن بطوطة : ((ثم سافرت ... إلى مدينة غرناطة قاصداً بلاد الأندلس وعروس مدنها ، وخارجها لا نظير له في بلاد الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلاً ، يخترقه نهر شنيل ، المشهور وسواه من الأنهار الكثيرة والبساتين والجنان والرياض والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة ،

---

(١) مجهول : نبذة العصر ، ص ٣٦ .
(٢) معيار الاختيار ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ .
(٣) انظر ابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٤٧ .
(٤) انظر ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ١٠٢ .
(٥) العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

ومن عجيب مواضعها عين الدمع ، وهو جبل فيه الرياض والبساتين لا مثيل له بسواها)) [١] .

ويصف ابن خاتمة عين الدمع التي أشار إليها ابن بطوطة بقوله :

أقولُ وعينُ الدمعِ نصبُ عيوننا
ولاحَ لبستان الوزارة جانـــــبُ
أهذي سماءٌ أم بناءٌ سما بـــه
كواكبُ غضَّت عن سنَاها الكواكبُ
وقد جرت الأمواه فيه مجـــرة
مزايينها شُهْبٌ لهنَّ ذوائـــــبُ [٢]

ولقد أثنى ابن الخطيب على جنة عين الدمع وتزايد أمراء وأعيان ووجهاء مملكة غرناطة في أثمان جنات غرناطة وضواحيها وكانت العملة التي تدفع في أثمانها من الذهب العين [٣] ، وقد بنى ابن الخطيب بجنة عين الدمع له بيتاً وكتب أبياتا نقشت على قبة قصره جاء فيها :

إذا كان عين الدمع عيناً حقيقةً   فإنسانُها ما نحن فيه ولادعُ
فدام لخَيْل الأُنس واللّهو مَلْعَباً   ولا زال مَثواه المُنعم مرتَـعُ
تود الثريا أن تكون له ثـــرىً   وتمدحه الشعري وتحرسه المُع [٤]

وبالإضافة إلى ذلك فقد اهتم الغرناطيون بتشجير المقاطعات الجبلية حتى غدت مكللة بالأعناب غاصة بالأدواح [٥] لا سيما مرتفعات البشرات الواقعة بين غرناطة والبحر ، ففي الأراضي المرتفعة منها نمت أشجار الكمثرى وأشجار الجوز وأشجار البلوط . وفي المنخفضة

(١) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٧٦٠ .
(٢) ديوان ابن خاتمة ، ص ١٨٥ .
(٣) ابن الخطيب : جـ ١ ، ص ١٢٥ ، واللمحة البدرية ، ص ١٤ ، ١٥ .
(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١٢٢ .
(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ١٢٤ .

زرعت أشجار البرتقال والليمون الحامض والأترج والتفاح والقراصيا البعلبيكية التي لا تكاد توجد في الدنيا أحسن منها منظراً وحلاوة (١) .
ولقد أثنى ابن فضل الله العمري على التفاح والكرز في غرناطة (٢) والتين المجفف في مالقة وبلش مالقة (٣) .
واشتهرت مالقة بما استدار بها من جميع جهاتها من شجر التين المنسوب إليها والذي يضرب المثل بحسنه (٤) وهو من أحسن التين طيبة وعذوبة (٥) ، وبالإضافة إلى التين واللوز والعنب بمالقة أعجب ابن بطوطة برمان مالقة ووصفه بأنه لا نظير له في الدنيا (٦) .

وعندما زار عبدالباسط بن خليل الحنفي مملكة غرناطة وجد أهالي بلش يشحنون اللوز والتين والزبيب لتصديره إلى الأماكن النائية (٧) ، وكانت الساحة المحيطة بالجامع الكبير في غرناطة مزروعة نارنج ونخيل ، كذا كانت ساحات مساجد المرية مزروعة بأشجار الزيتون والأعناب ومساحة مسجد مالقة مزروعة نخيل ونارنج (٨) .
وكانت مدينة بلش (٩) في ضواحي مالقة كثيرة التين والعنب والفواكه (١٠) . ومدينة لوشة

---

(١) العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٥٦ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٦١ .
(٤) انظر : نفس المصدر والصفحة .
(٥) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .
(٦) رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٦٩ .
(٧) انظر ما نشر من رحلة عبدالباسط بن خليل الحنفي في
ALANDALUS REVESTA DE LAS ESCuELAS DE ESTUDIOS ARABES DE MADRID Y GRANADA VOL . I Fase I, 1933 P. 313 . .
(٨) انظر ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٧٠ .
(٩) بلش : غرب مدينة مالقة وكذلك يوجد فيما يبدو أصغر منها مثل بليش الخضراء وبليش البيضاء ، (انظر ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ٩٢ ، ١٠٧) .
(١٠) العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٦١ .

منظر يروق وبهيج ، ونهر سيال ، وغصن مياد وجنات وعيون وجداول [١] .
وعلى السواحل في جنوب سيرا نفادا عند مقاطعة متريل أراض قابلة للزراعة جنوب غرب غرناطة حيث يكثر قصب السكر والذي اشتهرت به مدينة المنكب ، وكذا الموز كما يزرع الموز بكثرة وقصب السكر في شلوبانية [٢] .
ويكثر في وادي آش الجداول والفواكه الكثيرة والكروم الأثيرة [٣] ، أما السهل الأقيح الذي ينافس عين الدمع فتكثر فيه ثمار الزيتون واللوز والكمثرى وسائر الفواكه [٤] . وتحتل زراعة النباتات العطرية والطبية مركزاً مهماً في أرياض غرناطة ، إذ نجدها فوق الجبال تلك النباتات التي كانت تعالج بها الأمراض ومدار بحث علماء النبات والطب في مملكة غرناطة ، ومن تلك النباتات العطرية والطبية بناحية دلاية من أعمال غرناطة ينبت عود اليلنجوج [٥] الذي لا يفوقه العود الهندي ذكاء وعطر رائحة [٦] .
وفي جبل شلير سنبل فائق الطيب وبه الجنطيان [٧] الذي قال ابن الخطيب أنه يحمل منه إلى جميع الآفاق [٨] مما يدل على كثافته الزراعية ، وعرف جبل شلير - جبل الثلج - بأصناف

---

(١) ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ .
(٢) العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٦٠ .
(٣) ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ١١٢ ، ١١٣ .
(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ص ١٢٠ .
(٥) عود اليلنجوج : فيما يبدو من المتن أعلاه أنه عود طيب الرائحة .
(٦) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٩٨ .
(٧) الجنطيانا : نوع من النبات اشتق اسمه من اسم ملك الروم جنطيان ، من خواصه أنه مفيد بمرض الكبد والطحال (انظر الغساني : أبو القاسم بن محمد بن إبراهيم الشهير بالوزير ، حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار، حققه محمد العربي الخطابي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٤٠٥هـ ، ص ١٧٥) .
(٨) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٩٨ .

الفواكه العجيبة وفي قراه المتصلة به يكون أفضل أنواع الحرير والكتان الذي يفضل كتان الفيوم (١) .

كما اشتهر فحص ألبيرة بزراعة شجر التوت وبالحرير والكتان الذي فضله الحميري في جودته على كتان النيل (٢) .

ويصف ابن خاتمة حقول الكتان في غرناطة بقوله :

انظر إلى الكتّان طوعَ الصّبا يَخْتالُ في خُضْرِ بُرُودِ الشّبابْ
كأنه بحرٌ طما موجُـــهُ نوّارهُ من فوقِهِ كالحَبَـــابْ (٣)

ويصف ابن الخطيب أندرش بأنها ((عنصر جباية - حريرها ذهب وتربها تبر تنتهب وماؤها سلسل وهواؤها لا يلقى معه كسل)) (٤) ، وتكثر أشجار التوت في غرناطة وخاصة في جبال البشرات وبالتحديد في قشبالش عند أطراف جبل شلير (٥) ، أما مسقط رأس الرحالة البلوي مدينة قنتورية جنوب برشانة وشمال المرية قرب المنظور فكانت تشتهر بوفرة انتاجها من النحل وتوفر العسل (٦) ، وكذا مدينة القلصادي بسطة اشتهرت بزراعة الزعفران في مساحات شاسعة منها ، وقدر العمري أن ما بها من زعفران يكفي اهل الملة الإسلامية بالأندلس على كثرة ما يستعملونه (٧) .

أما أشجار الدوراء والصفصاف والحور والسرو المزروعة على حافة الجداول والقنوات ، فقد كست الأراضي الغرناطية باللون الأخضر على امتداد البصر وشملت الأشجار والجبال

(١) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١٢ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٤ .
(٣) ديوان ابن خاتمة ، ص ١٠٣ .
(٤) معيار الاختيار ، ص ١١١ .
(٥) نفس المصدر والصفحة .
(٦) نفس المصدر ص ١٠٥ .
(٧) مسالك الأبصار ص ١٦٣ .

التي غطتها أشجار الصنوبر والطقس والبجس وفيها ثمار ونباتات يدخل تحتها ألف فارس فلا يظهرون [(١)] . والتي قال عنها ابن الخطيب أن اشجار الصنوبر منها تفوح بشذاها المعتبر [(٢)] ، ومن تلك الأشجار تكونت غابات مملكة غرناطة وكانت مناطق مالقة ورندة مغطاة بالأشجار ، أما أشجار الغابات التي كانت تحيط باسوار مدينة بسطة فقد قطعها النصارى عندما حاصر الملك فرناندو تلك المدينة سنة ٨٩٥هـ [(٣)] /١٤٨٩م .

وكانت أعمال الحقول مقسمة على مدار السنة في يناير يجمع قصب السكر وفي فبراير تُلقَح أشجار التفاح والكمثرى [(٤)] ، وفي مارس يزرع قصب السكر والقطن ، وتخرج دودة القز وفي اكتوبر تتفتح الورود والبنفسج [(٥)] ، ويزرع البطيخ الأحمر ، والحناء وينتظر الفلاح الغرناطي سقوط مطر كاف لنمو نبات القمح والشعير في شهر أكتوبر ويزرع في الشهر نفسه الفول والترمس والعدس والحمص ، وهذه النباتات تزرع في مملكة غرناطة في فصل الصيف [(٦)] .

أما شهر سبتمبر فَيُجْنَى فيه الرمان والسفرجل ، ويتم قطف الزيتون في شهر يناير [(٧)] .

وفي شهر اكتوبر ينمو الورد الأبيض ، وتحضر مربى السفرجل والتفاح ، وفي نوفمبر يجنى الزعفران ، وفي ديسمير تتساقط الأمطار بغزارة ويظهر النرجس وما في حكمه من الرياحين

---

(١) الزهري : كتاب الجغرافية ، ص ٢٢٧ .

(٢) مشاهداته ص ٣٣ .

(٣) مجهول : نبذة العصر ، ص ٩٦ .

(٤) انظر أبو الخير الإشبيلي : كتاب الفلاحة ، مدريد ١٩٩١م ، ص ١١١ .

(٥) ابن بصال : كتاب الفلاحة ، نشره وعلق عليه خوسي ماريه ، ومحمد غز يمان ، تطوان ١٩٥٥م ، ص ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٦) انظر ابن ليون : ابداء الفلاحة ، ص ١٤٥ .

(٧) نفس المصدر ص ١٣٧ .

والياسمين والسوسن والنيلوفر والتي انتقلت أسماؤها فيما بعد إلى اللغة الأسبانية [١] .
وفي الحدائق البقلية يزرع القرع والثوم كما يزرع الخشخاش [٢] والباذنجان [٣] والفول والعدس [٤] .
ونتيجة لانتشار الجنات التي منها الجنة المعروفة بفدان الميسة والجنة المعروفة بفدان عصام والجنة المعروفة بالمعروى والجنة المنسوبة إلى قداح بن سحنون والجنة المنسوبة لابن المؤذن ، والجنة المنسوبة لابن كامل ، وجنة النخلة العليا ، وجنة النخلة السفلى ، وجنة ابن عمران ومدرج نجد ومدرج السبيكة وجنة العريف كلها لا نظير لها في الحسن وطيب التربة وغرقد السقيا ، فقد غطت الدكاكين في مملكة غرناطة بالخضر الناعمة والفواكه الطيبة [٥] ، مما حقق لهذه المملكة الاكتفاء الذاتي في مجال زراعة الفواكه والخضروات .
كما عرف الغرناطيون تركيب الأشجار في بعضها وملاءمة كل نوع للآخر وشروط ذلك التركيب [٦] .
وإذا كانت الثروة الحيوانية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالثروة الزراعية ، فقد اهتم الغرناطيون بالثروة الحيوانية وتربيتها ، إذ أشار العمري وابن الخطيب إلى أن تربة المواشي تمارس في المناطق الجبلية في رندة غرب مالقة [٧] ، وفي المناطق السهلية شرق المملكة النصرية حيث القرى التي تربى فيها الفحول من حيوانات الحرث التي تثير الأرض [٨] .

---

(١) العبادي : أحمد مختار ، الزراعة في الأندلس وتراثها العلمي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ندوة الأندلس الدرس والتاريخ ، ص ١٤ .
(٢) انظر ابن بصال : كتاب الفلاحة ، ص ١١٧ .
(٣) ابن سعيد : رايات المبرزين وغايات المميزين ، ص ١٠٧ .
(٤) ابن بصال : المصدر السابق ، ص ١١٠ ، ١١٢ .
(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ص ١١٥ ، ١١٦ .
(٦) ابن ليون : ابداء الملاحة ، ص ١٠٤ .
(٧) انظر العمري : مسالك الأبصار ، ص ١٦٣ .
(٨) ابن الخطيب : المصدر السابق ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

كما أشارت الوثائق الغرناطية إلى قيام النصارى بعمليات سلب ونهب للأغنام والأبقار في مملكة غرناطة كما كان العكس أيضاً في قيام مسلمي غرناطة بالاستيلاء على قطعان الماشية النصرانية [١] . ولقد كان البغل في مملكة غرناطة وسيلة رئيسة من وسائل المواصلات بل وتأتي في الدرجة الثانية بعد الخيل لدرجة أن سلاطين بني نصر ووجهائهم يستوردون البغال من مملكة أرغون ويرسلون سفنهم إلى الشواطئ الأرغونية من أجل احضارها إلى غرناطة [٢] .

أما الأبقار والثيران فكانت مخصصة لأعمال الحقول ، وقد كانت هذه الأنواع ذات أهمية خاصة في شبه جزيرة أيبيريا وكان مسلمو مملكة غرناطة يستولون على قطيع الأبقار بعد شن هجماتهم الحدودية على الأراضي النصرانية ، وكذا يفعل نصارى قشتالة وأرغون، واشار ابن الخطيب إلى أنه يوجد في مملكة غرناطة الفحول من حيوانات الحرث [٣] ، بالإضافة إلى الأغنام والخرفان التي كانت تتواجد بكثرة في مناطق الرعي . وفي أسواق غرناطة كان يباع لحم الضأن ويباع الجبن الذي كان يفضله سكان مملكة غرناطة ويصنعون منه حلوى المجبنات [٤] . وكانوا يستهلكون أيضاً الطيور والأرانب البرية وخاصة في لوشة التي تحسب الأرانب فيها ايقاظاً وهم رقود [٥] .

ويربى الحمام في اكارات (جمع كارة) في جزء من أرض مستأجرة بطريقة المزارعة تقسم بين المستأجر والمالك وهي في الغالب خاصة بالأملاك السلطانية التي تقدر مساحتها بمائتين وثمانية وتسعين ألف مرجع [٦] ، أما تربية النحل فكانت تمارس في مناطق مختلفة من

---

(1) Documentos Arabes Diplomaticos de la Corona De Aragin p. 20 , 22 .
(2) Ibid , p 49 .

(٣) الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٢٥ .

(٤) انظر النباهي : تأريخ قضاة الأندلس ص ١٦٦ حيث يصف القاضي أبو البركات الجبن الغرناطي .

(٥) ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٦) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ص ١٣٣ .

مملكة غرناطة خاصة في قنتورية [١] ، وكان شيئاً طبيعياً أن يهتم الغرناطيون بالصناعات الغذائية التي تقوم على الثروة النباتية والحيوانية ، وتحكي كتب الفتاوى والنوازل صوراً لعدد من القضايا التي نتجت عن الشراكة في إنتاج نباتي أو حيواني [٢] .

وحسب تطور الظروف المناخية والسياسية في غرناطة تطورت الزراعة فيها صعوداً أو هبوطاً ، فلا يمكن الفصل بين مستوى الأمن الاجتماعي ومستوى الإنتاج الزراعي والصناعي ، وبما أن العمليات الصناعية والزراعية ليست مجرد عمليات اقتصادية مجردة بل هي تقوم على الناس ومرتبطة بهم فكذلك هي عمليات اجتماعية .

وبالتالي كان طبيعياً أن تحفل كتب الفتاوى والنوازل بكثير من الأقضية المتصلة بالنواحي الزراعية وبشركات المضاربة الحيوانية .

وفي الوثائق العربية الغرناطية وفتاوى الشاطبي والحديقة النضرة وما جمعه الونشريسي في المعيار ، وغيرها في كل ذلك توجد قضايا تتصل بالبيوع وكراء الأراضي والأحباس (الأوقاف) والميراث وتقسيم الأراضي والشراكة في العمليات الزراعية ،أو يزود المالك للأرض بنصف البذور المزروعة ويتولى المزارع تموين النصف الآخر ويتكفل المزارع بجمع الخضر والبقول في موسم الحصاد وبيع المحصول في أقرب سوق إليه ، ويقسم الدخل بعد ذلك على المتعاقدين (الشريكين) [٣] . وبفضل الاجتهاد الشرعي ، وجدت صور كثيرة من المشاركات الزراعية في مملكة غرناطة ، فمثلاً حين يأتي موسم جني ثمار الزيتون يشترط أن يكون أجر العامل عبارة عن كمية من الزيتون وكمية من الزيت المستخلص منها [٤] .

---

(١) ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ١٠٥ .

(٢) انظر الشاطبي : أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الأندلسي : فتاوى الإمام الشاطبي حققها وقدم لها محمد أبو الأجفان ، ط٣ ، تونس ، ١٤٠٨هـ ، ص ١٥٦ .

(٣) مجهول : مجموع فتاوى علماء غرناطة ، المعروفة بالحديقة المستقلة النضرة في الفتاوى الصادرة من علماء الحضرة ، مخطوط الأسكوريال ١٠٩٦ ورقة ٤٩أ .

(٤) انظر الشاطبي : المصدر السابق ، ص ١٥١ .

ولقد تعود بعض صغار الملاك على المشاركة في رعي الأغنام ثم يجمعون الألبان ويصنعون الجبن ويقسم الدخل على المشتركين (١) .

وكان سكان السواحل في مملكة غرناطة يمارسون صيد الأسماك على الشواطئ الأندلسية خاصة في المرية والجزيرة الخضراء (جنوب شرق قادش) ، ولقد اشتهر المنكب شرق مالقة وشلوبانية جنوب غرناطة بأجود أنواع الأسماك (٢) كما اشتهرت مربلة بصيد السردين (٣) .

وهكذا تبوأت الزراعة مكانة طيبة ، واحتلت مكان الصدارة في الاقتصاد الغرناطي ، وكان الفقه الإسلامي في غرناطة يحرس هذا النشاط بالفتاوى التي تحث الناس على العمل والإنتاج وتمنعهم من صور الحرام في الانتاج والمعاملات مما ساعد على احداث نهضة زراعية راقية في مملكة غرناطة ساهمت في توفير سبل العيش ووفرة المنتوجات الزراعية التي غصت بها أسواق غرناطة . وكانت سبباً في توفير المؤن الغذائية وقت الأزمات إذ يقول ابن القاضي أن من بين أسباب انتصار أهل المرية على ملك أرغون وجيشه أثناء حصاره لهم ما توافر لديهم من الشعير الكثير حتى صاروا يفرقون ذلك بحساب رطل لكل نفس بسعر قيراط للرطل من غير تفرقة بين قوي وضعيف (٤) .

---

(١) انظر الشاطبي : الفتاوى ، ص ١٥٦ .

(٢) ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ٩٤ ، ٩٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٨٥ وانظر العمري : مسالك الأبصار ، قسم الأندلس ص ١٦١ .

(٤) درة الحجال ، جـ ١ ، ص ١٤٧ .

(التجارة الداخلية في مملكة غرناطة) :

تعد الحركة التجارية الداخلية في كل بلد ضرورة من ضرورات الحياة ، فلا يستطيع أهل كل قرية ومدينة أن يكتفوا بما عندهم وأن يستغنوا عن الآخرين في كل ما يحتاجون إليه من مأكولات وملبوسات ومركوبات وأثاث وأشياء أخرى كثيرة ، كما أن بعض القرى أو المدن تكون متخصصة في أشياء معينة وبالتالي يفيض انتاجها عن حاجتها فيما يحتاج إليه الآخرون وبالتالي فإن التبادل التجاري بين أهل مملكة واحدة لا بد منه ، كما أن التجارة مهنة معروفة في التأريخ كله تقوم عليها الصناعة والزراعة ، فهي تتولى تسويق المنتوجات الزراعية والصناعية وهي من أوسع أبواب الرزق في كل العصور ، ولأهميتها يحددها ابن خلدون مبيناً أهميتها قائلاً : ((اعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية الأموال وشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أياً كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش وذلك القدر النامي يسمى ربحاً ، فالمحاول لذلك الربح أن يختزن السلعة ويتحين بها حوالة الأسواق من الرخص إلى الغلاء قد عظم ربحه وإما أن ينقله إلى بلدٍ آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده التي اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك قال بعض التجار لطلب الكشف عن حقيقة التجارة أنا أجملها في كلمتين اشتراء الرخيص وبيع الغالي)) (١) .

كانت العمليات التجارية الكبرى في عهد بني نصر تتركز في المدن ، حيث كانت المدن هي الأكثر قدرة على توفير الحاجيات للسكان والتأكد من تزويدهم بالمنتجات الصناعية .

أما أهل الريف والقرى فكانوا يتوافدون على المدن لبيع منتجات الحقول ومنتجات الماشية من ألبان وأجبان فضلاً عن التجارة في الماشية نفسها .

ولربما أقيم سوق في غرناطة خارج باب ألبيرة مرة كل أسبوع عرف بسوق

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٣٧ .

الخميس [١] . أما التجارة داخل المدن ، فكانت تتم في الأسواق المعروفة مثل سوق القيسرية الذي سيأتي الحديث عنه ، أو أسواق خاصة في بعض الأمكنة من غرناطة مختصة بنوع معين من البضاعة مثل سوق البز ، الذي كان فيه بعض الباعة في حوانيتهم وآخرون ينادون على البز خارج الدكاكين بسعر أقل ، ولا سيما في أوقات القيلولة مما دعا بعض أهالي غرناطة لتوجيه سؤال للشيخ أبي القاسم بن سراج في شأن هؤلاء الباعة المتجولين والذين يبيعون بسعر أقل في صدر النهار ووسطه ومبايعتهم للنساء في مثل هذه الأوقات أو الذهاب إلى المنازل ، فأصدر الشيخ المذكور فتوى بعدم جواز فعلهم ذلك ، أما بالنسبة للنساء فلا مانع للمرأة أن تشتري من الرجال شريطة عدم الخلوة [٢] .

ومن ذلك نرى أن التجارة داخل المدن كانت تتم في الأسواق المعروفة وفي الشوارع الخاصة بتجارة التجزئة ، بينما كانت الفنادق مخصصة لتجار الجملة حيث يعقدون فيها صفقاتهم ويعرضون نماذج من منتجاتهم [٣] .

وأعتقد أن تنظيم المهن المختلفة في مملكة غرناطة انتهج فيه منهج الأمويين في الأندلس ومن جاء بعدهم ، فعلى رأس كل مهنة يوجد أمين يعرف الحرفيون حدود سلطته وهو يمثلهم أمام المحتسب ، كما يقوم أمين كل مهنة بتعريف أهلها بالأصول التي يريدها المحتسب [٤] .

وكان كل جماعة من الحرفيين في غرناطة أماكن محددة ومخصصة للتصنيع والبيع في بعض

---

(١) وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ، حققه وقدم له لويس سيكو دي لوثينا ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٣٨٠ ، ص ٢٤ .

(٢) الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ ٥ ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) انظر تفاصيل ذلك فيما سيأتي الحديث عن التجارة الخارجية في التبادل التجاري مع المغرب والمشرق .

(٤) انظر : ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، نشر ليفي بروفنسال ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م ، ص ٩٣ .

الأحياء ، إما في وسط المدينة أو في أرباضها [١] . كما كانت توجد مراكز تجارية ثانوية مهمتها تسهيل عملية الشراء دون تنقل السكان ، إذ كان يوجد سوق في قلب البيازين [٢] بجوار الباب المعروف بباب البنود [٣] .

ومن خلال استعراض المهن (الحرف المدنية) في مقالات الحسبة التي تنطبق بالتأكيد على ما كان الحال عليه في غرناطة . يبدو الفارق واضحاً وجلياً بين التجارات التي يزاولها العلية والتجارات المتواضعة ، فتجارة مثل تجارة الذهب ، وتجار الأسلحة وتجار الروائح (بالقرب من الجامع الكبير) [٤] تعد تجارات ذات مستوى رفيع يزاولها كبار التجار ، فلقد تجمعوا في قلب غرناطة في أحياء راقية ، وعندما تحدث العسقلاني في الدرر الكامنة (نقلاً عن ابن الخطيب) عن واحد من كبار أدباء غرناطة وهو محمد بن علي بن محمد العرادي القيسي الغرناطي ذكر أن من أدلة رفعته ، أن أباه كان تاجراً من تجار الروائح والعطور [٥] . أما تجار الأقمشة فلقد تجمعوا في قلب المدينة ، كما احتلت تجارة المواد الغذائية مكاناً كبيراً في كل حي : حيث نجد الجزارين والسماكين وبائعي الألبان وبائعي الزيت والعسل وهم من " سائر أرباب الصنائع " [٦] ، وكذلك تجار الخضار والفاكهة التي غصت بها مدينة غرناطة حيث كانت توجد دكاكين خاصة بالخضار والفاكهة [٧] ، وكانت الأطعمة الجاهزة تباع في

---

(١) انظر : العمري ، مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٥٨ .

(2) M' de lcarmen Villanue Rico, cosas Mezguitas ytientes de los hulicies de ras isbesius de granda, Madrid , 1466, p 60 .

(٣) العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٥٧ .

(٤) العمري : نفس المصدر ، ص ١٥٨ .

(٥) الدرر الكامنة ، جـ ٤ ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٦) عبدالباسط بن خليل الحنفي ،
Alandalus , Revista , vol I p. 313 .

(٧) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١١٥ ، ١١٦ ، ٣٨٨ .

الطريق ومنها على سبيل المثال الحلوى وفطائر الجبن التي أثارت الشاعر أبا بركات بن الحاج البلفيقي [١] ومن بعده ابن الأزرق [٢] ، ومن قبلهما محمد بن القاسم الأنصاري الذي دعا المجتمع الغرناطي إلى الزهد في المجبنات الغرناطية [٣] .

وأذكر من بين تلك الحرف ما يتعلق بالأثاث أو بالاستخدامات المنزلية ، وكان الحدادون والنحاسون وصانعو الأسرجة والبرادع وصانعو الفرش والسجاد يقومون بأعمالهم أمام زبائنهم تساعدهم طبقة اخرى من المهنيين يمارسون أعمالاً مساعدة مثل السقائين والعتالين والنحاسين ، والخفافين والأحداث من صانعي الخفاف والأحذية الذين كانوا يرفعون أصواتهم بالغناء داخل الدكاكين [٤] .

أما الفخاريون والدباغون فكانوا يتخذون من الأسواق البعيدة عن مركز مدينة غرناطة مقراً لهم (في الأرباض)[٥] وذلك لما كان ينتج من مهنتهم من روائح كريهة تعافها النفس ، ولقد

---

(١) وفي ذلك يقول أبو البركات :

ومصفرة الخدين مطوية الحشا
على الجبن والمصفر يؤذن بالخوف
لها بهجة كالشمس عند طلوعها
ولكنها في الحين تغرب في الجوف

(انظر ابن الخطيب : الإحاطة جـ ٢ ص ١٥٨) .

(٢) حيث يقول ابن الأزرق :

ورب محبوبة تبدت ... كأنها الشمس في حلاها
فأعجب لحال الأنام من قد ... أحبها منهم قلاها

(المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٧٠٢) .

(٣) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ص ١٩٧ .

(٤) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٣٧ .

(٥) انظر العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٥٧ ، ١٥٨ وانظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ص ٢٣١ حينما يذكر أن محمد بن أحمد الأنصاري كان إماماً بمسجد ربض الفخارين .

تطورت في مملكة غرناطة صناعة الجلود عن ذي قبل تبعاً لظروف الحاجة إليها والتي من بين استخدامها في الحرب والقتال (١) ، واختصت بها مالقة مصانع الجلد كالأغشية والحزم والمدورات (٢) .

وكانت الحركة التجارية نشطة بين المدن في مملكة غرناطة ، وكان شيئاً طبيعياً أن تكون (غرناطة) على رأس هذه المدن ، وبينما كانت كل مدينة تكاد تشتهر بسوق واحدة ، كان في غرناطة عدد من الأسواق ، بعضها أخذ شهرة كبيرة ، ربما تجاوزت حدود المكان والزمان ، وكان أهل المدن والقرى يفدون إلى غرناطة العاصمة التجارية ـ يتبادلون البيع والشراء مع شتى الوافدين من كل حدب وصوب في داخل المملكة ومع أهل غرناطة أنفسهم ـ ومن متابعة بعض الفتاوى والنوازل تستطيع التعرف على كثير من النشاطات التي كانت تقع وقد ((سئل ابن منظور عن أهل قرية شدالية فإن المعالج يقدم إليهم بالحوت فإذا نزل في الموقع يجيء البعض من الناس بأوعيتهم بالشعير والعصير يأخذون من وعاء الحوات ويتنحوا (كذا) ناحية من الموضع حتى يشتري الأولاد والبنات وسائر الناس ويتم الحوت للمعالج ، فإذا تم يجيء حينئذ المنحازون بالحوت الذي أخذوه من وعاء الحوات وبأوعيتهم بالشعير والعصير فيكتال الشعير ويزن العصير ثم يزن الحوت)) (٣) .

وهذه الصورة واحدة من الصور التي تدل على أن أهل القرى كانوا يأتون شبه جماعات يحملون بضائع محددة . يعرف الناس اشتهارهم بها فيقصدونهم لأجلها .

أما محلات بيع الدجاج والطيور والصقور وغيرها فلربما اختصت بها السوق الموجودة بحي البيازين حيث كانت تربى وتباع طيور الباز (٤) .

وقد كانت مدينة غرناطة تحتل مركز الصدارة في إنتاج الحرير ، فقد أنشأ أهالي مملكة

---

(١) انظر ابن هذيل : حلية الفرسان ، ص ٢٣١ .

(٢) العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٦١ .

(٣) الونشريسي : المعيار ، جـ ٥ ، ص ٣٦ .

(٤) فرحات : غرناطة في ظل بني الأحمر ، ص ٢٠٨ .

غرناطة في البشرات محلاً لبيع الحرير وبغرناطة محلاً عاماً لبيع الحرير المنتج بها حتى عرف في التجارة الدولية باسم غرناطي أو جريناديز Grenadinez (١) ، وبكافة أرجاء المملكة الغرناطية تباع أنواع الحرير المنسوجة وكذلك تباع الأقمشة الكتانية وغير الكتانية خاصة في مالقة (٢) .

وتكاد تجارة الحرير والأقمشة الكتانية ، ومحلات بيع الذهب تكون محصورة في سوق القيسرية الذي ما تزال تطلق على السوق الأثرية في غرناطة إلى يومنا هذا (٣) ، ذلك السوق الذي ورد ذكره في الوثائق وعقود البيع الغرناطية (٤) .

إن أقرب وصف للقيسرية في عهد مملكة غرناطة الوصف الذي قدمه الكاتب النصراني (لونيو مارينو سيكولر) في أوائل القرن السادس عشر الميلادي فقال : ((يوجد بها مائتا محل تقريباً حيث تباع فيها الأقمشة الحريرية والحرير الخام وسلع أخرى ، وبهذا السوق كثير من الأزقة وعشرة أبواب بكل منها سلاسل من الحديد تمنع من دخول الأشخاص ممتطين لصهوة جيادهم ولظهور بغالهم ... ولها حراس بعد إغلاق أبوابها يقوم على حراستها الخفراء أو الحراس ليلاً)) (٥) .

وكانت القيسرية أشبه ما تكون بمدينة صغيرة محاطة بالأسوار وبها عشرة أبواب مزودة بالسلاسل لمنع دخول الأشخاص ، ولهذه المدينة الصغيرة شوارع كثيرة ضيقة وأزقة ، وكان من الضروري ربط حبل في البوابة لكي يتمكن الناس من الدخول والخروج حسب نظام السوق فالمحلات كثيرة حيث تباع كافة أنواع البضائع (٦) .

---

(١) فهمي : نعيم زكي ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣م ، ص ٢٤٥ .

(٢) انظر ابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٣) لمست ذلك من خلال رحلتي العلمية إلى هناك .

(٤) وثائق عربية غرناطية ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(5) Manuel : Garzon Pareja , unadependencia de la Alhambra, la Alcaiceria, Cudernos Dela Alhambra, 8, 1965, pp 66, 67 .

(6) Ibid , p. 67 .

وكانت القيسرية تغلق أبوابها في أوقات الصلاة ، وكان صاحب السوق هو المكلف بالإشراف على فتح أبوابها وإغلاقها ؛ تلك الأبواب التي كان من بينها بوابة قريبة من المسجد كان يطلق عليها اسم بوابة أمناء الحرير تؤدي عبر حارة ضيقة إلى مبنى الجمارك (١) .

وكان يطلق على أحد الأبواب باب الدباغين (٢) ، وكان زقاق الصباغين يصل إلى نهر شنيل وباب آخر يطلق عليه باب (تجار وصناع الفضة والصاغة) (٣) ، وإلى جانب القيسرية يوجد بعض المخازن للبضائع وكان لكل محل باب واحد يفتح على الشارع الذي يظله سقف أو مظلة لحماية المشترين من المطر والشمس وأبواب الدكاكين عند فتحها زمن مملكة غرناطة كانت تشد على ألواح من الخشب (٤) ، وبعض المحلات نظرا لضيق الشارع لا تستطيع فتح أبوابها إلا بشكل جزئي ، وكانت المحلات يفصلها عن بعضها جدار من الآجر والأسقف محمولة على ألواح من الخشب ويحمل هذه الألواح جذر كبير وسميك من خشب الصنوبر يستخدم هذا الجذع في تسمير وتثبيت حديد الأمان لكلا البابين المتجاورين ، تلك الأبواب كانت مطلية في عهد بني نصر بأكسيد الحديد الأحمر وبلاط الشوارع داخل القيسرية كان بالأحجار (٥) .

وللقيسرية محتسب يقوم بتعيينه ديوان الإنشاء بغرناطة ويسهر على حراستها ليلاً كما يفتحها ويغلقها بالنهار فضلاً عن الإشراف والاعتناء بنظافتها وكان من أشهر من تولوا الحسبة في غرناطة محمد بن أحمد بن إبراهيم التلمساني (٦) ومحمد بن محمد البلنسي الذي تولى خطة السوق بغرناطة (٧) .

---

(1) Manuel : unadependencia de la, Alhambra, p 73 .

(٢) العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٥٧ .

(٣) مجهول : نبذة العصر ، ص ٥ .

(4) Manuel , Opcit . p 73 .

(5) Ibid , p 74 .

(٦) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٢٠٠ .

(٧) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٩ .

وبعد سقوط غرناطة في أيدي النصارى أمر الملوك الكاثوليك باستمرار الصناعة والحرف والتجارة داخل سوق القيسرية في أيدي المسلمين لبرهة وجيزة من الزمن [١] حتى يكتسب المستوطنون الجدد خبرة ودراية في هذا النوع من التجارة .

ومن ناحية أخرى اشتهرت مدينة مالقة بتجارة الحلي والطيب ، بالإضافة إلى أنها كانت مدينة سياحية ، تكسب بعض رزقها من هذه الناحية ، ولهذا قال فيها ابن الخطيب واصفاً حالها : ((ولنقل في الحضارة بمقتضى الشواهد المختارة ، ولا كالحلي والطيب والحلل والديباجة والجلابيب ، والبساتين ذات المرأى العجيب والقصور المبتناه بسفوح الجبال والجنات الوارفة الظلال ، والبرك الناطقة بالعذب الزلال والملابس المختالة في أفنان الجمال ، والأعراس الدالة على سعة الأحوال والشورات المقدرات بالآلاف من الأموال)) [٢] ، وكان فيها سوق يدعى سوق الغزل [٣] .

أما مدينة بسطة فكانت ذات مكانة تجارية متميزة ، وقد ذكر الحميري في وصفها بأنها ((حسنة الموضع عامرة آهلة ، حصينة ذات أسواق وبها تجارات ... وبها طرز الوطاء البسطي من الديباج الذي لا يعلم له نظير .... وبها جبل الكحل لا يزال ينقر منه كحل أسود ... ولم يزل على ذلك من قديم الدهر)) [٤] . ففي هذا النص نجد عدداً من الصناعات التي تشتهر بها بسطة . ويكاد النص على إيجازه يكفي في الدلالة على مدى ما تمور به الحركة من حركة تجارية ، لكنني مع ذلك أضيف نصاً آخر لابن الخطيب يقول عن بسطة : ((ناهيك من بلد اختص أهله بمعالجة الزعفران وامتازوا به عن غيرهم من الجيران)) [٥] .

---

(1) Ju Anantonio Grimace Rvantes Cobiernoyad Minstra cionde Granada Traslacono uista. Laso rden Del Alhambra Ade hg2 , uAdernos Dela Alhambra Vol , 20 Granada 1990 , p17 .

(٢) ابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٦١ ، ٦٢ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٢٩ .

(٤) صفة جزيرة الأندلس ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٥) معيار الاختيار ، ص ١٠٩ ، ١١٠ .

وكانت مدينة برشانة متخصصة في زراعة الليمون وتسويقه داخل مملكة غرناطة [١] .
أما مدينة المرية فكانت تجارتها ذات شهرة في العالم الإسلامي كما سيأتي ذكره في حينه ، ومدينة المرية هي قيسارية الأندلس ودار صنعتها [٢] ، اشتهرت بصناعة السفن [٣] وبالحركة البحرية التجارية [٤] ، ويعتبر مرفأ مدينة المرية من أهم الموانئ الغرناطية إذ ترسو به السفن الكبار ، وقد اشتهرت المرية بتجارتها الداخلية وتسويقها للمنتوجات الصناعية في داخل مملكة غرناطة إذ كان بها من طراز الحرير ثمانمائة طراز ويعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والأصفهاني والجرجاني والستور الملكية والثياب المعنية والعنابي الفاخر وتصنع بها آلات النحاس والحديد [٥] .
كما جرت عادة أهالي غرناطة على شرائهم الحصى من مدينة المرية لوضعه في كيزان الماء [٦] .

وكانت شبكة الطرق الغرناطية عاملاً مساعداً كبيراً على تسيير أمور التجارة داخل غرناطة ، وقد كانت الطرق مناط اهتمام الدول الأندلسية التي تعاقبت على حكم غرناطة حتى جاء عصر بني نصر فأولوها كل اهتمامهم .
وكانت تخرج من غرناطة شبكات مختلفة من الطرق تصلها بالقرى والمدن الغرناطية الكبرى . وأستطيع التعرف على تلك الشبكة من خلال رحلة السلطان أبي الحجاج يوسف الأول ووزيره المرافق ابن الخطيب ، إذ خرج الركب السلطاني من غرناطة واتجه إلى

---

(١) انظر معيار الاختيار ، ص ١٠٦ .
(٢) الزهري : كتاب الجغرافية ، ص ١٠١ .
(٣) العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٦٠ .
(٤) ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٥) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٨٤ .
(٦) المقري : الأندلس من نفح الطيب ، ص ٦١ .

وادي آش على بعد أربعين ميلاً (١) واخترق الركب وادي الحمة (٢) ، وبعد استراحة في مدينة وادي آش سلك الموكب السلطاني طريقا يمر بحصن البنيول حتى وصل الموكب إلى منابت الزعفران مدينة بسطة (٣) ، وبعد تفقد أحوال مدينة بسطة خرج الموكب السلطاني وسلك طريق قنالش ثم إلى فحص الأنصار مروراً بحصن شيرون ووادي المنصورة حيث الوصول إلى مدينة برشانة ومن برشانة اتجه الوفد السلطاني وسلك طريقاً إلى مدينة قنتورية الذي خرج قاضيها ابن أبي خالد (٤) بلباس أهل الحجاز لاستقبال السلطان النصري يوسف ابن أبي الحجاج (٥) .

وهناك طريق يربط مدينة قنتورية بأقصى الحدود الشرقية لمملكة غرناطة مع النصارى وذلك عن طريق وادي المنصورة إلى بيرة (٦) التي وصل إليها السلطان أبي الحجاج يوسف الأول ومن بيرة طلب السلطان والوفد المرافق له حضور بعض الأدلاء الذين لهم معرفة وخبرة بالطرق فوقع اختيارهم على أن يسلكوا طريقا يدعى بطريق قيشر تحت خبرة ودراية الدليل المدعو بابن هلال (٧) ، ومن مدينة بيرة كانت الطريق وعرة حيث تسلق الجبال وتستخدم الحبال في النزول منها وفي ذلك يقول ابن الخطيب :

بطريق بيرة أجبل وعقاب　　　لا يرتجى فيها النجاة عقاب

---

(١) الإدريسي : نزهة المشتاق ، جـ ٢ ، ص ٥٦٩ .

(٢) ابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٢٨ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣١ .

(٤) هو خالد بن عيسى البلوي سبق التعريف به في الفصل الخاص بالعلاقات العلمية ، (وانظر ابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٣٦) .

(٥) نفس المصدر والصفحة .

(٦) بيرة : بلدة جبلية تقع في أعالي الجبال المشرقية لمملكة غرناطة وتطل على ساحل البحر الأبيض المتوسط على مقربة من الحدود القشتالية (انظر الخارطة في الملحق رقم ٣) .

(٧) ابن الخطيب : المصدر السابق ، ص ٤٠ .

فكأنما الماشي عليها مذنب وكأنما تلك العقاب عقاب [١]

وبعد الهبوط من جبال بيرة الوعرة سلك السلطان يوسف بن أبي الحجاج ومرافقيه وادي العبران الذي ينتهي حيث الفحص الأقيح ، وفي هذا السهل كانت فرصة سانحة للسلطان النصري والحاشية المرافقة له لممارسة هواية الصيد والقنص [٢] .

وكانت مغادرة السهل الأقيح إلى حصن أشكوذر حيث طريق يؤدي إلى مدينة المرية . ومن المرية طريق إلى بجانه [٣] عبر وادي بجانة ثم يستمر السير في هذا الوادي حيث النهر السيال والغصن المياد الميال والأفياء والظلال [٤] ، حيث ينتهي إلى مرشانة [٥] ومن مرشانة طريق إلى قيانه [٦] حيث الطريق السهلي الواضح الذي يضرب به المثل بساط ممدود ينتهي إلى مدينة وادي آش [٧] . حيث وصل الركب السلطاني على مقربة من غرناطة العاصمة ثم غادر المدينة عائداً من حيث أتى والمسافة بين المرية وغرناطة في ذلك الوقت تقدر بسير ثلاثة أيام [٨] والطرق المتبقية واضحة كذلك بين مالقة وغرناطة وبين بقية الطرق الغرناطية ، فمن مالقة إلى غرناطة ثمانون ميلاً ومن مالقة إلى الجزيرة الخضراء مائة ميل ومن مالقة إلى مربلة

---

(١) ابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٤١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٢ .

(٣) بَجَانَة : بفتح الياء بعدها جيم مفتوحة كانت تعرف بأرش اليمن لأن بني أمية وهبوها بني سراج القضاعين الذين تولوا حراسة الشاطئ المحاذي لها وهي مشهورة بالبساتين والينابيع (انظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٣٧ - ٣٩) .

(٤) ابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٤٧ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٤٨ .

(٦) فتيانة : قرية قرب وادي آش كثيرة الكروم والتوت والبساتين (انظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٤٣ ، ١٤٤) .

(٧) ابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٤٩ .

(٨) العمري : مسالك الأبصار ، ص ١٦٠ واليوم يعادل ٢٤ ميل (٤٤,٣٥٢) كلم .

في طريق الجزيرة أربعون ميلاً [١] . ومن مدينة المنكب في البر إلى غرناطة أربعون ميلاً ، ومن المنكب على البحر إلى قرية شاط إثنا عشر ميلاً ، ومن قرية شاط إلى قرية طرش ، على ضفة البحر اثنا عشر ميلاً ومنها إلى قرية مرية بلش اثنا عشر ميلاً ، ومن قرية بلش إلى قرية الصيرة ، ولها طريق يدخل في البحر سبعة أميال [٢] .

ومن شواطئ جبل الفتح طريق إلى رندة التي هي من أمنع المعاقل الإسلامية في مملكة غرناطة وأجملها وضعاً [٣] . ومن رندة إلى مريلة طريق صعب شديد الوعورة [٤] ومنها طريق إلى مالقة يمر في حوز سهيل [٥] وهو طريق ساحلي يؤدي إلى مدينة مالقة ومنها طريق إلى بلش وبينهما أربعة وعشرون ميلاً ، ومن مدينة بلش إلى غرناطة طريق تبلغ مسافته مسيرة أربعين ميلاً يخترقه نهر شنيل المشهور [٦] .

وهذه المسافات الواضحة والطرق المنتظمة بجانب الأسواق والخدمات العامة المساعدة تمثل معلماً إضافياً من العوامل التي هيأت مملكة غرناطة أن تتوافر لها حركة اقتصادية نشطة بين مدنها وقراها وأقاليمها المختلفة .

كما أنه من خلال هذا العرض الذي قدمته للنشاط التجاري خلال عدد من المدن الغرناطية ، ولا سيما نشاط العاصمة غرناطة نفسها ، وسوقها الكبير سوق القيسرية وما تحفل به هذه الحركة التجارية من مختلف المزروعات والصناعات والثروة الحيوانية ، يتضح أن هذه المملكة الغرناطية الصغيرة كانت عامرة مكتفية بذاتها إلى حد ما .

---

(١) الإدريسي : نزهة المشتاق ، جـ ٢ ، ص ٥٧٠ ، ٥٧١ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٥٦٤ ، ٥٦٥ .

(٣) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٦٨ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) نفس المصدر ص ٦٧٠ .

(٦) نفس المصدر والصفحة والميل يعادل ١,٦٠٠كم تقريباً .

بيد أن هذا النشاط بالتأكيد كان يتأثر على امتداد القرن التاسع بمستوى الأمن المتاح ، ومستوى الاشتباكات مع العدو ، وكانت المدن والقرى المتاخمة للعدو أكثر تأثراً من المدن الداخلية ، وكان على المدن الداخلية أن تقوم بعملية تعويض لما تخسره القرى والمدن التي تتعرض لغارات العدو وتخريبه العمراني والاقتصادي ، وقد ورد في الوثائق العربية الغرناطية بعض الوقائع الوثائقية التي تدل على انخفاض أسعار الأراضي الزراعية في غرناطة وكذلك العقارات أثناء الحصار النصراني وبعد توقيع معاهدة الاستسلام مع النصارى :

فقد ((باع أبو القاسم بن أحمد أطرفة من النصراني (بذر ذي البلاطة) جميع الفدان باللطاخ مرج غرناطة ... بحقوقه وحرمه وكافة منافعها ومراتعها بيعاً تاماً عرف قدره بثمن عدته عشرة ريالات فضة قشتالية بحكم الحلول وبذلك خلص للمبتاع المبيع المذكور أكمل خلوص وأتمه على السنة بذلك ... في عاشر المحرم عام ثمانية وتسعين وثماني مائة)) (١) ، وقبل ذلك وفي عام ٨٥٦هـ /١٤٥٢م فقد بيعت دار بداخل غرناطة بمبلغ سبعمائة دينار من الذهب (٢) . ويعد هذا السعر منخفضاً جداً عما ذكره ابن الخطيب في القرن الثامن للهجرة بأن أسعار العقارات في أرباض مدينة غرناطة كانت مرتفعة إذ كان يصل سعر المرجع إلى خمسة وعشرين ديناراً من الذهب العين (٣) ، تلك الأسعار التي انخفضت إبان اشتداد العدوان النصراني ووجد النصارى الفرصة سانحة للشراء ممن أراد الفرار بنفسه وبدينه إلى أرض الإسلام أو البيع ممن أراد البقاء والعيش إلى جانب العدو .

ومن الوثائق ذات الدلالة على ارتباط الأسعار بالحالة الأمنية أيضاً ما ورد أن السيدة ((المصونة عائشة بنت إبراهيم الحكيم أشهدت على نفسها من يضع اسمه عقب تأريخه أنها أنفقت على بنتيها في ما يحتاج من المعيشة لها ، فمن ذلك سقية الزرع بفدان ابن عامر ستين درهماً وفي ثمانية أرطال كتان وربع كتان باثنين وعشرين مثقالاً وست أواق

---

(١) وثائق عربية غرناطية ، ص ١٣٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١١ ، ١٢ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ص ١٢٥ .

إبزار بثلاثين درهماً، ونصف رطل سمن وخمسة أرطل من عسل بخمس وثلاثين درهماً واشترت المذكورة عشرين قدحاً من شعير من أخيها علي الحكيم بثمانية عشر درهماً القدح واشترت المذكورة من الحنيف ثلاث أمداد قمح وأربع أكيال ونصف كيل) (١) .

بينما كان القمح والشعير متوفراً في غرناطة وبسعر معقول في القرن الثامن إذ يستورد مسلمو مملكة غرناطة ما نقصهم من القمح من إخوتهم في الشمال الإفريقي ، بينما سجل ابن بطوطة بعض ملاحظاته بأن الفاكهة متوفرة في مالقة وكان ثمانية أرطال من العنب تباع في السوق بدرهم (٢) ، وكذا قال ابن الخطيب أن أسعار الخضروات والفاكهة وغيرها كانت متدنية إذ غصت بها الأسواق (٣) .

وفي مجال الكماليات ومجالات أخرى شكا القاضي أبو البركات في القرن الثامن الهجري غلاء الحياة المعيشية في مملكة غرناطة (٤) .

وربما كان السبب في ذلك تدفق اللاجئين المسلمين على مملكة غرناطة وأيام كان النماء الاقتصادي والرخاء الاجتماعي سائداً في ظل حكومة غرناطة القوية وبمقارنة ذلك في القرن التاسع الهجري وإبان اشتداد العدوان النصراني على مسلمي مملكة غرناطة فكل شيء في الحقيقة قد تعرض للتأثر وانخفضت أسعار الكماليات من أثاث منزلي وغيره . فقد بيعت مضربة مالقية بستة دنانير من الفضة ، وبيع مهراس صيني بدينارين من الفضة ، وتابوت خشب بستة عشر درهماً ومنشار بدينار واحد من الفضة ومخاده بذلات ولحية خلعه بثمانية عشر درهما ، ومقلاة نحاس باثني عشر درهماً ، ومطرح جلد باثني عشر ديناراً فضة ، ومنشق غزل باثني عشر درهما ، وقطعة صوف بثمانية دنانير .... إلخ (٥) .

---

(١) وثائق عربية غرناطية ، ص ٩٨ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٦٩ .

(٣) الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١١٥ ، ١١٦ ، ٣٨٨ .

(٤) انظر النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٥) وثائق عربية غرناطية ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

من ناحية أخرى في بعض المواقف حاول المسلمون داخل غرناطة التخفيف من التدهور الذي طرأ على الأسعار إما بالارتفاع أو الانخفاض نتيجة لحالة الحرب والعدوان النصراني عليهم ، فبعد غزوة شنها الغرناطيون على الجيوش النصرانية التي تضرب الحصار على مسلمي غرناطة تمكنوا خلالها من الاستيلاء على عدد كبير من الخيول والبغال والغنم والبقر حتى صار اللحم لكثرته رطل بدرهم (١) .

ولقد كان واضحاً لدى الشعب الغرناطي أنه يواجه عدواً شرساً يسعى إلى استئصاله ، وبالتالي فإنه كان من خلال فقهائه وعسكره ومجاهديه يمنع أي نشاط تجاري يفيد منه العدو . ولما كانت الأسلحة من أهم هذه النشاطات فقد صدرت الفتاوى تحرم بيع الأسلحة لمن يشك في أنه سيوصلها للعدو ، سواء عن طريق البيع المباشر أو غير المباشر .

فقد صدرت فتوى شرعية بمنع بيع السلاح للعدو إذ سئل الشاطبي هل يباح لأهل الأندلس بيع الأشياء التي منع العلماء بيعها من أهل الحرب كالسلاح وغيره لكونهم محتاجين إلى النصارى في أشياء أخرى من المأكول والملبوس وغير ذلك ؟ (٢) ..... فأجاب بالمنع (٣) .

ولم يقتصر التأثير ارتفاعاً وهبوطاً على الاقتصاد في مملكة غرناطة على الأمور التجارية المباشرة بل كان له علاقة بالاقتصاد التجاري حتى إن الأحباس بدورها قد تعرضت للاهمال أثناء الحرب والغزوات ، كما تعرضت للتدهور بعد تمكن النصارى من البلاد ، فقد حكى القيسي أنه قد وقع اهمال للأحباس في القرن التاسع الهجري تبعاً للتدهور الاقتصادي وقد بسط ذلك شعراً ، اقتطف منه هذه الأبيات :

يا نخبة الأعيان من أهل التقى   من مغرب لأقصى الصين

---

(١) انظر : مجهول ، نبذة العصر ، ص ٣٩ .

(٢) الشاطبي : الفتاوى ، ص ١٤٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٤٦ وانظر : الحديقة النضرة ، ورقة ٦٦ أ .

أحباسنا تشكو البلا بحالهــا		من نحسها وكرائها المغبــون
وتقول إن كراءها لم ينعقــد		إلا بالدرهم السبعيـــــني [١]
ومن العظائم عندها تعويضه		بالدرهم الجاري بهذا الحين [٢]

بيد أن عدداً من الأسباب يتحمل حكام غرناطة مسئوليتها جعلت جـزءاً كبـيراً مـن النشاط التجاري يتركز في يد النصارى ....

فالحق أن ظروف غرناطة التي تتعرض للكوارث بين الحين والحين من الأعداء الذيـن لم يخفـوا أهدافهم في الاستيلاء عليها ، لم تكن تسمح بمثل هــذا التخـاذل ، ولا سـيما وأن مـن بـين النشاطات التي سيطر عليها النصارى وسائل النقل البحري الـتي كـان لهـا دور سـلبي علـى مسلمي غرناطة عندما حاول كثير منهم السفر والانتقال إلى الشـمال الإفريقـي أو المشـرق الإسلامي ، فكثيراً ما تعرضوا لخيانـة أصحـاب هـذه السـفن ، وكثـيراً مـا ضـاعت ثـروات المسلمين المهاجرين ، فضلاً عن الشروط الصعبة والأجور الباهظة التي كان يفرضهـا هـؤلاء النصارى أصحاب السفن التجارية على المسـلمين ، ممـا كـان مـن شـأنه أن يكبـد المسـلمين الغرناطيين خسائر فادحة .

ومن الجدير بالذكر أيضاً أننا لا نتوقع - في ظـل ظـروف مملكـة غرناطـة - ازدهـاراً اقتصادياً يفـوق العصـر الـذي كـانت تعيشـه ، فممـا لا شـك فيـه أن المســاحة الضيقـة والامكانات المحدودة والشعور بالخطر كانت تحول دون المزيد من الإبـداع الحضـاري الـذي يحتاج إلى إمكانات تسمح بالتفوق على العصر .

وحسب مملكة غرناطة بمدنها المختلفة في مثل هـذه الظـروف أن تكـون في مستوى عصرهـا وأن يكون لديها ما يكفيها حتى في أشد حالات الحصار .... وهذا ما نجحت فيه غرناطة إلى حد كبير ، لدرجة أنها في بعض مراحلها قد ازدهرت ازدهاراً كبـيراً أتـاح لبعـض حكامهـا

---

(١) عن الدرهم السبعيني انظر : الحديث عن السكة كما سيأتي ذلك إن شاء ا لله .

(٢) عبدالكريم القيسي : ديوان عبدالكريم القيسي ، ص ٣٩٢ .

ولا سيما قبل نصف القرن الأخير من سقوطها أن يتفننوا في بناء القصور والمساجد والمستشفيات وأن يجعلوا من مملكة غرناطة مملكة رائعة صالحة لكي تكون بلداً سياحياً على النحو الذي لا زالت آثاره باقية حتى اليوم ، مما يدل على حركة تجارية داخلية كانت قوية في بعض عصور غرناطة ، وقد سمحت لسلاطين بني نصر بمثل هذا الإسراف .

الصناعة :

كان المجتمع الغرناطي يتكون من عدد من الفئات أهمها العنصر العربي ويليه العنصر البربري ثم الأندلسي (المولدي) [١] .

ومن الملاحظ أنه في عصر مملكة غرناطة فإن المهن والحرف قد انتشرت بين مختلف فئات المجتمع الغرناطي ، وليس أدل على ذلك من انخراط الأشراف في مهن وحرف تعد فيما سبق غير مستحبة لمن هم في منزلتهم ومكانتهم الاجتماعية [٢] ، وبمرور الزمن وتتابع الأجيال فإن كثيراً ممن ينتمون إلى الطبقة الأقل شأناً في المجتمع أو عامة الناس استطاعوا التدرج في المناصب فكان من بينهم العالم والوزير [٣] ، وهذه ظاهرة صحيحة في المجتمع الغرناطي المسلم .

وإلى جانب هذا الاهتمام العام بالمهن والحرف من سائر الطبقات فضلاً عن أسلوب توارث المهن ووجود أجناس بأكملها تشتغل في المهن ووجود أسواق تجارية ثابتة ، يرتادها الناس ، وتقوم بالتسويق بقدر من التخصص بالإضافة إلى أعداد من الناس تتولى توزيع منتجاتها على الناس والبيوت ، كانت هناك عوامل أخرى مساعدة على ازدهار الصناعة في إطار مستوى عصر غرناطة ، ومن هذه العوامل وجود ازدهار زراعي تحدثت عنه ، فضلاً عن وجود المواد الخام المطلوبة للصناعة ، وعلى رأسها المعادن المختلفة ، حيث كان الذهب والفضة والرصاص والحديد موجودة في أراضي مملكة غرناطة [٤] .

---

(١) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٢) انظر نفس المصدر والجزء ص ٣٨٨ .

(٣) والمثال على ذلك ابن زمرك الذي نبغ من حي البيازين وقد سبق التعريف به في الفصل الثاني من الرسالة .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، ص ٩٨ ، اللمحة البدرية ، ص ١٣ .

كما كان الذهب موجوداً بالنهر المعروف بنهر شنيل الذي يخترق مدينة غرناطة ، ومن هذا النهر يلتقط الذهب الخالص [١] .

ويوجد المرجان بساحل بيرة من عمل المرية ، يلتقط منه في أقل من شهر ثمانين ربعاً [٢] .

ويستخرج الياقوت الأحمر بناحية حصن منت ميور من كورة مالقة إلا أنه دقيق جداً لا يصلح إلا للاستعمالات الصغيرة [٣] .

ويوجد في مملكة غرناطة حجر المغناطيس الجاذب للحديد [٤] ، أما حجر اللازورد فيوجد بناحية لورقة وقد يوجد في غيرها [٥] ، وبباغة من مملكة غرناطة مقاطع الرخام الكثيرة الغريبة ، موشاة في حمرة وصفرة وغير ذلك من المقاطع التي بالأندلس من الرخام الحالك (المجزع) [٦] .

وبوجد معدن الفضة بمدينة لوشة وفي جبل آبده يوجد حجر المرقيشيثا ومن الأندلس تحمل إلى جميع الآفاق لفضلها [٧] .

وبصفة عامة فإن معادن الفضة كانت موجودة بكثرة في كورة تدمير وجبال بجانة ومعادن الشبوب (جمع شبة) والحديد والنحاس والزئبق كانت بالأندلس أكثر

---

(١) أبو محمد الرشاطي ، وابن الخراط الإشبيلي : الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار ، تقديم وتحقيق وتعليق إيميليو مولينا وخاشيو يوسك بلا ، نشر المجلس الأعلى للأبحاث العلمية معهد التعاون مع العالم العربي ، مدريد ، ١٩٩٠م ، ص ١١٤ .

(٢) المقري : الأندلس من نفح الطيب : قدمت له نجاح العطار وأعده للنشر عدنان درويش ، محمد المصري ، منشورات دار الثقافة في الجمهورية السورية ، دمشق ١٩٩٠م ، ص ٥٨ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٧ .

(٤) انظر نفس المصدر والصفحة .

(٥) نفس المصدر والصفحة .

(٦) نفس المصدر ، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٧) نفس المصدر ، ص ٥٨ .

من أن تحصى [(١)] .

وأكد ابن الخطيب أن المعادن الأساسية من ذهب وفضة ورصاص وحديد متوفرة في مملكة غرناطة [(٢)] .

ونتيجة لتوفر المواد الخام من ثروات معدنية وزراعية وحيوانية وتوفر الأيدي العاملة نهضت الصناعة في مملكة غرناطة . وكانت أعمال نسج الصوف والقطن والحرير تجتذب أعداداً كبيرة من الحرفيين في مملكة غرناطة .

أما الخياطون وتجار الأقمشة فكانت تجارتهم مزدهرة في القيسرية وبلغت شهرة النسيج الغرناطي بأن تولى صانعو النسيج في غرناطة نسيج الحصير الخاص بسلاطين بني نصر [(٣)] .

ومن خلال فتاوى فقهاء وعلماء غرناطة تبين لي أن صناعة النسيج انطلقت انطلاقة واسعة في عهد بني نصر [(٤)] كما اشتهرت مالقة بصناعة الديباج والجلابيب [(٥)] .

وفي المرية كان يوجد مائة حرفة لصناعة نسيج مقصب بخيوط الحرير والذهب وثمانمائة أخرى لنسيج الحرير [(٦)] .

وقد امتدح ابن الخطيب نسيج الحرير الغرناطي في قوله أن هذا الحرير لم يكن له مثيل ، ولم يكن ينافسه سوى حرير العراق [(٧)] .

---

(١) المقري : الأندلس من نفح الطيب ، ص ٥٩ .

(٢) الإحاطة : جـ ١ ، ص ٩٨ .

(٣) انظر ابن الجياب : ديوان ابن الجياب ، ص ٢٢١ .

(٤) الحديقة النظرة ، ص ١٤ أ .

(٥) ابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٦١ .

(٦) المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ص ١٦٣ .

(٧) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٩٩ .

ولقد تخصصت جبال البشرات وبعض المناطق في مالقة وبلش مالقة وقمارش في زراعة التوت وتربية دودة القز والمحافظة عليها [١] ، واشتهرت مالقة أيضاً بثياب الحرير الموشاة بالذهب [٢] .

ونظراً لأن صناعة الحرير كانت مورداً مشهوراً للرزق لدى أهل غرناطة ، وقد أصاب هذا بعض الناس بشيء من الحرج فوجهوا أسئلة للعلماء حول الحلال والحرام في تربية دودة القز وعن الوجه الجائز في الشركة في تربية دود الحرير التي تكون مورداً للرزق وقد أجاب أحدهم : ((بأنها لا تجوز إذا كانت الإجارة مما يخرج منه ، وتجوز على أوجه أخرى منها وجه يشبه ما يفعله الناس في ذلك العهد : وهو أن يخرج صاحب التوت جزءاً من الزريعة كالنصف مثلاً والعامل النصف الآخر ، ويستأجر صاحب التوت العامل بنصف ورقه بعد نظره وتقبيله على جميع الورق والقيام على علف الدود وإعداد الآلات التي يحتاج إليها حتى ينتهي العمل ويقسمان لوز الحرير على نسبة الزريعة إذ تساوت قيمة العمل مع قيمة نصف الورق أو تقاربت)) [٣] .

ولشيوع تربية دودة القز ووقوع قضايا حولها فقد أصدر القضاة من امثال ابن سراج ، والشاطبي والحفار فتاوى حول وجه الشركة في علوفة الحرير ، إذ سئل الحفار عن الوجه الجائز في علوفة الحرير وشركتها .

كما سئل أبو إسحاق الشاطبي عن حكم تربية دود الحرير بالأجرة مما يخرج منها .

كما سئل أبو القاسم بن سراج عن هذه المسألة أيضاً .

---

(١) انظر ابن الخطيب : ديوان الصيب والجهام ، ص ٣٣١ .

(٢) ابن سعيد : كتاب الجغرافيا حققه إسماعيل العربي ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ط١ ، ١٩٧٠م ، ص ١٤٠ .

(٣) الشاطبي : الإفادات والإنشاءات، تحقيق محمد أبو الأجفان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط ٣ ، ١٤٠٨هـ ، ص ٤٩ .

فأجاب أولئك الفقهاء عن استفسارات وتساؤلات أهالي غرناطة فيما ذكر أعلاه (١) .

وعندما تغطي الثلوج المنحدرات في جبال البشرات يقل إنتاج الحرير بينما يصل ثلثي الإنتاج في فصل الصيف ، وفي القيسرية كان الحرير يعهد به إلى الملاحظين الذين كانت مهمتهم معرفة التأكد من النوعية والعيار قبل البيع بالمزاد (٢) .

وكان صانعو الحرير يخلطون الذهب بمنسوجاتهم من الحرير فكان ذلك مثار تساؤل من خشي الله من أهالي مملكة غرناطة في جواز ذلك ، فقد سئل العلماء ممن ادعى أنه اشترى ستر حرير معششاً بالذهب وفي جواز ستر الجنازة بقماش مخلوط بالذهب (٣) .

ولقد عمل كثير من سكان مملكة غرناطة في صناعة الحرير وتألقوا في ذلك كباراً وصغاراً فكان أطفالهم يستخدمون أصابعهم الصغيرة لتعمل أفضل ما يمكن لفك خيوط الحرير الرقيقة وكذا النساء كن يعملن في مجال نسج وغزل منسوجات الحرير والكتان (٤) .

ومما ساعد على ازدهار صناعة الحرير في مملكة غرناطة وجود مزارع التوت فيها منذ القدم فاشتهرت المرية بصناعة الحرير حيث كان يوجد بها ثمانمائة نول تخصصت في إنتاج الحرير وصناعة أقمشة مزينة ومطرزة مثل المعاجر المدهشة والستور الملكية (٥) .

ولم تكن كل المدن الغرناطية في الصناعة على قدم سواء ، بل تميز بعضها عن بعض ، كما أن بعضها ربما اشتهر بالتجارة أكثر من شهرته بالصناعة وربما اشتهرت بعضها بصناعات محددة ، فقد اختصت المرية ومالقة بالموشي المذهب التي يتعجب من حسن صنعها

---

(١) انظر : الونشريسي، المعيار جـ ٥ ، ص ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ وانظر الحديقة النضرة ٤٠ورقة أ ، ٤١ ب .

(٢) انظر المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ نقلاً عن ابن سعيد .

(٣) الحديقة النصرة ، ١٩٠ورقة أ .

(٤) نفس المصدر ، ورقة ١٤ أ .

(٥) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٨٤ والمقري : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٦٣ .

أهل المشرق إذ رأوا منها شيئا [١] .

كما كانت الصناعات في المرية أشد رسوخاً وأكثر تخصصاً وتألقاً منذ قبل عصر مملكة غرناطة ، فقد كانت توجد بها صناعة الديباج المحكم الصنعة ، بخاصة مثل المرنجات المعروفة بالعداديات وثياب السندس الأبيض ، وهو ديباج أبيض كله وفيها تصنع الثياب المعروفة بالخُلدي ليس في ثياب الحرير كلها أتم منها مجالاً وجمالاً لذلك سميت بهذا الاسم وهو مشتق من الخلد وأهلها رجالاً ونساء صناع بأيديهم صناعة ونسائهم الغزل وأكثر صناعة رجالهم الحياكة [٢] .

أما في غرناطة فتصنع الثياب المحررة الصنف المعروفة بالملبد والمختم ذات الألوان العجيبة [٣] .

ولم تقتصر الصناعة على الصناعة المحلية بل شملت تقليد صناعة المنسوجات الشرقية الجرجانية والأصفهانية ((وبها دار للصناعة ... وكان بها لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول والحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول ، وللأسقلاطون كذلك وللثياب الجرجانية كذلك ، وللأصفهانية مثل ذلك وللعنابي والمعاجر المدهشة والستور الملكية)) [٤] .

ونتيجة لذلك ولتنوع الملبوسات والمنسوجات سواء ما كان منها من الصناعات المحلية أو المستوردة من الشمال الإفريقي فقد وصف ابن الخطيب أهالي مملكة غرناطة بقوله : ((فتبصرهم في المساجد أيام الجمع ، كأنهم الأزهار المتفتحة في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة)) [٥] .

---

(١) المقري : الأندلس من نفح الطيب ٣٧٣ نقلاً عن ابن سعيد وانظر ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، ص ١٤٠ .

(٢) الزهري : كتاب الجغرافية ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٣) المقري : الأندلس من نفح الطيب ص ٣٧٣ نقلاً عن ابن سعيد .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢١٣ .

(٥) الإحاطة ، جـ ١ ص ١٣٥ .

ولقد كانت هناك ثلاثة عناصر ضرورية ساعدت على نجاح صناعة الحرير في مملكة غرناطة :

أولاً : كثرة أشجار التوت التي تتغذى عليها دودة القز .

ثانياً : المهارة الفنية البشرية المطلوبة لمعالجة الحرير والمتوفرة في مملكة غرناطة .

ثالثاً : رواج هذه الصناعة وإقبال الناس عليها وقد يكون فيها ما يشير إلى المستوى المعيشي الطيب للناس آنذاك .

ومن الشواهد على تلك الصناعة فقد تم العثور على قطعة من النسيج المنسوج من الحرير النصري يرجع تأريخها إلى القرن التاسع الهجري مزخرفة بعناصر زخرفية حيوانية حيث يوجد أسدان يتشاجران حول ثمرة أناناس [١] .

ومن بين الصناعات التي تعتمد على الإنتاج الزراعي صناعة الأخشاب في مملكة غرناطة ، والجدير بالذكر أن الخشب يدخل في صناعات كثيرة إما بطريقة أساسية وإما بطريقة تكميلية ، ولهذا كانت صناعته وتجارته رائجتين في غرناطة ، وكانت حركة بناء القصور والمساجد والمساكن والحمامات تحتاج دائماً إلى الأخشاب [٢] . ولقد أشار ابن الخطيب صراحة إلى غلاء الأخشاب في مملكة غرناطة [٣] .

وقد رصد الشعر في غرناطة حركة بناء القصور والمساجد وسجل كثيراً منها تسجيلاً دقيقاً ، وسجل صلتها بالأخشاب والزليج والجص وغيرها من أدوات البناء والتجميل ، مما تحتاج إليه المساكن وخدماتها كالمطابخ والحمامات .

ومما قيل من الشعر في ذلك :

---

(١) انظر الصورة في الملحق رقم (٦) .

(٢) انظر : أبو الحسن الجياب : ديوان أبي الحسن الجياب ، ص ٢٢٠ ، وانظر الصورة التي التقطها لفن تجارة الخشب الغرناطي أثناء رحلتي العلمية في الملحق رقم (٧) وانظر ابن الخطيب : الصيب والجهام ، ص ٣٩٨ .

(٣) معيار الاختيار ، ص ١٢١ .

قد زين الحمراء هذا المصنــــع   هو للمسالم للمحارب مربع
قلهرة قد أورعت قصراً فقــل   هي معقل أو للمسرة مجمع
قصر تقسّمت البهاء سمــاؤه   والأرض والجهات الأربــع
في الجص والزليج منه بدائــع   لكن نجارة سقفه هي أبـدع
جمعت وبعد الجمع أحكم رفعها   للنصب حيث لها المحل الأرفع (١)

ومما قيل من الشعر في هذا المجال :

حمام دار الملك وهو الــذي
تأنقت فيه العقول الكبــار
للنار حر فيه مستعـــذب
وفيه للماء المعين انهمــار
ففيه أشتات المنى ألفــت
كفاك بالضدين ماء ونــار (٢)

وهناك صناعتان كبيرتان أساسيتان تقومان علـى الأخشـاب وهمـا صناعـة السـفن والأثـاث المنزلي .

فأما صناعة السفن فقد كانت هناك دور للصناعة في مملكة غرناطة أهمها دار صناعة السفن في مالقة وهي دار كبيرة لفتت أنظار الشعراء فوصفوها بشعرهم وصفاً يمتد إلى ما تزخـر بـه الدار وما تهدف إليه من إنشائها لهذه السفن (٣) .

وكانت المرية من أهم المدن التي تشتغل أيضاً بصناعة السـفن وبهـا أيضـاً دار كبـيرة لهذه الصناعة (٤) .

---

(١) أبو الحسن الجياب ، ص ٢٢٠ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ .
(٣) انظر عبدالكريم القيسي : ديوان عبدالكريم القيسي ، ص ٣٨٨ .
(٤) مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٦١ .

وكان طبيعياً أن تكون الجزيرة الخضراء الساحلية من بين تلك المدن التي تشتغل بصناعة السفن ولهذا كانت كما يقول العمري بها دار لإنشاء الحراريق وهي آخر البلاد البحرية الإسلامية في الأندلس (١) .

ونظراً لكثرة صناعة السفن وتطورها نبغ كثير من الغرناطيين في فن صناعة السفن لدرجة أنهم قد أستعين بهم من قبل بني مرين فعندما اهتم السلطان يعقوب بن عبدالحق ببناء دار لصناعة السفن بسلا استجلب لها المهندس الغرناطي محمد بن علي بن عبدا لله بن محمد بن الحاج والمتوفى بفاس الجديدة سنة ٧١٤هـ (٢) /١٣١٤م .

ولما كانت صناعة السفن قد شاعت وكثر العاملون فيها فقد نتج عن ذلك أقضية فقهية سجلتها كتب الفتاوى والنوازل ، ومما سجله الشاطبي أنه قد سئل رحمه ا لله ((في صانع يحتاج في صناعته إلى دراهم يشتري بها ما يعمل به صناعته كالخشب للنجار ، والجلد للخراز ، فيعود إلى بلده من ذلك بما تجب فيه الزكاة من أجرة على صناعته ، ومن ربح الخشب ويضيق عليه حصر ما كان بيده منها لكثرة تقلب ذلك في يده ، ولأنه ينفق من ذلك فيبقى في يده ما تجب فيه الزكاة بعد ذلك كله)) (٣) .

وهي مسألة - كما ترى - تكشف عن تشابك العمل في الأخشاب بين تجارة وصناعة وتكشف عن الحس الإسلامي الذي يريد أن يؤدي حق ا لله في التجارة والصناعة .

أما صناعة الأثاث ، وهي الشق الثاني البارز من الصناعات القائمة على الخشب ، فقد كانت رائجة أيضاً في مملكة غرناطة ، فكما أن غرناطة تعتبر من الثغور تفرض عليها

---

(١) مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ٦٢ .
والحراريق : مفردها حراقة وهي نوع من السفن الحربية التي تستخدم لحمل الأسلحة النارية وكان منها مرام تلقى النيران على العدو . (انظر العبادي : أحمد مختار ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة (د.ت) ص ٣٩٣ حاشية رقم (١)) .

(٢) المنوني : ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط (د.ت) ، ص ٧٦ .

(٣) الشاطبي : فتاوى الشاطبي ، ص ١٣٢ .

ظروفها الاهتمام بصناعة السفن ، فكذلك اقتضت طبيعة الغرناطيين المترفة ، ولا سيما أعيان المجتمع في مملكة غرناطة الاهتمام بصناعة الأثاث .

وهناك أنواع من الأثاث تدخل في باب الاحتياجات المقبولة أو الضرورية ، فيما توجد أنواع أخرى مبالغ فيها تدل على ظاهرة الترف .

والمتأمل للمنزل الغرناطي للأسرة ذات الدخل المحدود خاصة في حي البيازين نجد أن المنزل لا يتسع إلا لأثاث محدود نظراً لضيق المنزل بخلاف علية القوم الذين يسكنون القصور والمنازل الفخمة والمتسعة سواء داخل غرناطة أو في الجنات بضواحيها ومن بين الأثاث المحدود في المنزل الغرناطي ، تابوت خشب مرمة خشب ، مضربة مالقية ، ومنشار ذو مقبض من خشب [١] ، والمدفأة أو المبخرة والأخيرتان يكون اقتناء نوعياتها على حسب مكانة الفرد الاقتصادية . كما يرجع اهتمام الغرناطيين لصناعة المبخرة إلى شغف الأندلسيين بأنواع البخورات [٢] .

ومن خلال ما أشرت إليه نجد أنه حتى في المدافي والمباخر التي يدخل في أجزاء منها صناعة الخشب والتي يمكن أن ينظر إليها أنها من الاحتياجات البسيطة لم يستطع الغرناطي بصفة إجمالية أن ينسى طبيعته في حب الأشكال الجمالية والتي منها المدفئة والمبخرة وكلاهما تتحول على يديه إلى تحف فنية وأدوات جمالية يشعر الناظر إليها أنه أمام تحفة أكثر منه أمام حاجة مطلوبة لمنفعة ما تحمل الشعار النصري [٣] .

كما أن خصيصة الاهتمام بالجمال والزخرفة انسحبت على الأسرة المصنوعة من الخشب وعلى غيرها من أنواع الأثاث كالمقاعد الصغيرة والكبيرة والطويلة والقصيرة ولم يكن هذا وقفاً على الأعيان وذوي الثراء بل ربما شارك فيه أفراد من الطبقة المتوسطة وغيرها بدرجات متفاوتة .

---

(١) وثائق عربية غرناطية ، ص ١٤٣ .

(٢) البشري : سعد بن عبدا لله ، الطيب عند الأندلسيين حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، مطابع الصفا بمكة المكرمة ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ، ص ٤ .

(٣) انظر :

Antonio Fernandez Puertas, Brase Roshispano musulmanes Cuadernos Dela Alhambra 8 Deposisto legal: 1975 Granada. p. 83, 86.

على أن الأثاث الذي كان في قصور الحكام ولا سيما الأسِرَّة الخشبية كان حافلاً بأنواع الزخرفة والكتابة .

وقد ذكر ابن الخطيب أن سريراً كتب عليه أحد عشر بيتاً من الشعر مما يدل على ضخامة السرير ورفاهية بعض فئات المجتمع الغرناطي ، وهذه بعض الأبيات التي كتبها ابن الخطيب على سرير الخشب :

أنا مَلعبُ الوصل الذي يشرحُ الصدْرا
وبرج سماء يجمع الشمس والبدرا
حفيظٌ على الأسرارِ حتى كأنني
دُعيتُ سريراً أنني أحفظ السِّرَّا [١]

ويضم متحف الحمراء بغرناطة حتى اليوم مقعداً متوسطاً في حجمه لكنه في غاية الجمال ودقة وروعة التصميم وعليه زخارف من الفضة كان هذا المقعد خاصاً بالسلطان النصري [٢] .

والأمثلة على الصناعات الخشبية كثيرة تحتاج إلى استقصاء لا يتحمله المجال هنا ، ونظراً لحالة الحرب بين مملكة غرناطة والدولة النصرانية المجاورة لها فقد اهتم الغرناطيون بصناعة السلاح داخل بلادهم ، فصنعت السيوف والرماح والخناجر ، والسكاكين [٣] في مملكة غرناطة ، وكانت تلك السيوف ذات مقبض قصير تسمح بإحكام القبض على مقبضها باليد جيداً كي يحسن من يمسكها توجيه الضربة ، وفي بعض الأحيان كانت قبضة السيف مستوية وفي البعض الآخر مستديرة إلا انها كانت تتميز بالاعتدال والاستقامة فإذا أراد الفارس الغرناطي العمل به طَرَّفَ رجله في ركابه حتى لا يظهر منها شيء عن مقدم الركاب ،

---

(١) ابن الخطيب : الصيب والجهام ، ص ٥٤٤ .

(٢) انظر الصورة ، بالملحق رقم (٨) .

(٣) انظر العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٦١ .

بحسب ما يمكن اعتماده عليه ويضرب بالسيف نفحاً وشزراً [١] .

كذلك صنعت الخناجر وتوارث المسلمون صناعتها في مملكة غرناطة حتى بعد سقوطها في أيدي النصارى وذلك خفية في منازلهم [٢] لكي يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم وأرواحهم المضطهدة . واشتهر بين أهالي مملكة غرناطة صناعة الترس السلاح الدفاعي المميز لأهالي مملكة غرناطة ، وهو على شكل دائري ومصنوع من الخشب والجلود مثل جلود البقر وجلود الوحش وجلود اللاما والتروس المصنوعة من جلود اللاما (اللمط) من أفضل أنواع التروس وخاصيتها أنها إذا أصيبت بضربة سيف أو رمح انفلقت الضربة والتحمت من وقتها واختفت فلا تظهر [٣] .

كما كانت الدروع أيضاً تصنع من الجلود المشار إليها آنفاً ولكن الدروع والتروس الأكثر طلباً ورغبة بين أهالي مملكة غرناطة كانت تلك التي تصنع من جلود (اللمط) لأنها

---

(١) ابن هذيل : حلية الفرسان ، ص ١٩٨ .

(٢) انظر : لي : هنري تشارلس ، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة ، ترجمة حسن سعيد الكرمي ، دار لبنان للطباعة والنشر ، ط١ ١٤٠٩هـ ، بيروت ، ص ١٥٧ .

(٣) ابن هذيل : حلية الفرسان ، ص ٢٣٢ . وعن حيوان اللاما يقول ابن هذيل أنه حيوان من إحدى غرائب المغرب (نفس المصدر والصفحة) واللمط حيوان يعيش في لمطة من مراكز الصحراء التي عاش فيها المرابطون ، حركات : إبراهيم ، الجيش المغربي في عهد بني مرين مقالة منشورة في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس ، الرباط ، العدد الثامن ، ص ٢٢ .

هذا وقد أشار الحسن الوزان إلى بقاء تلك الصناعة حتى عهده وقدم وصفاً لحيوان اللمط فقال إنه حيوان يشبه الثور في شكله لكنه أصغر منه ، وحوافره وقرونه أدق ، يميل لون جلده إلى البياض إلا أن أظلافه شديدة السواد .... وتصنع من جلد اللمط تروس صلبة جداً بحيث لا يخترقها شيء باستثناء القذائف النارية ، لكن هذه التروس تباع بأثمان باهظة (الوزان : الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي ، وصف افريقيا جزءان ، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ، محمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، ط ٢ بيروت ١٩٨٣م ، جـ ٢ ص ٦٣) .

كانت أكثر مقاومة لطعنات السيوف والرماح والسهام ، وقد أدخلها الجنود الزناتية إلى مملكة غرناطة وسارع المحاربون الغرناطيون إلى استخدامها وعدلوا عن تقليدهم لأسلحة النصارى [١] ، وذلك عندما أدركوا تفوق تلك الدروع على دروع النصارى بسبب مرونتها وسهولتها ، كذلك كان التأثير الزناتي في مجال الترس التي اقتبس سكان غرناطة صناعتها من إخوانهم المغاربة وطوروها وبالغوا في تزيينها بالنقوش المعدنية والمذهبة وبشرائط مصنوعة من الحرير ، ولطالما سطر الشعراء لأبطال غرناطة أبياتاً شعرية على عدد من التروس استخدمت في مقارعة النصارى المعتدين [٢] .

ولقد كانت الدروع والتروس سلاحاً أساسياً لأهالي مملكة غرناطة ضرورياً لهم لا سيما الذين يسكنون منهم في المناطق الحدودية .

والأسلحة بصفة عامة صنعت في مملكة غرناطة من أنواع الحديد والنحاس والخشب ، وقد حصر ابن هذيل لأهالي غرناطة الحديد الذي يصنع منه السلاح في سبعة عشر صنفاً فقال : ((وأعلم أن الحديد سبعة عشر صنفاً ، أربعة منها للصيد وذلك : الزج والشلياط ، والمرجفلي ، والمجنح ، وثلاثة للدروع وذلك السبط والمربع والطويل والمثلث ، وأربعة للترس وذلك المربع القصير والقطرال ، والبلوطة ، والشبري ، وأربعة للدرق وذلك الشلياط وهو أصغر من الصيد ، والطموح والمجواف والملحاني ، واثنان آخران وهما البجوق وهو لقطع البشت وسهم الحمى وهو لخرق السفن وأبراج العدو)) [٣] .

كما حدد ابن هذيل - أيضاً - مواصفات القوس القوي ، وحذر من العيوب الشائعة في الأقواس فقال : ((اعلم أن القوس لا يستوي طرفاها حتى تكمل عليها الصفه فاحذر ست خصال ، فإنها رأس الخطايا في هذه الصنعة : الوتر الخشن ، فإنه ينقص الرمي ويكسر

---

(١) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٦ وانظر اللمحة البدرية ص ٢٨ .

(٢) انظر عبدالكريم القيسي : ديوان عبدالكريم القيسي ، ص ٣٨٤ .

(٣) حلية الفرسان ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

القضيب وفي القضيب الفراغ والامتلاء والوقوف والخشب الذي يكون تحت الصدر رقيق الأطراف)) [١] ، وكما هو الشأن في تنافس مدن مملكة غرناطة صناعياً وتجارياً فقد ازدهرت صناعة السلاح في المرية وفي مالقة وفي غرناطة التي ظهرت فيها صناعة مدافع البارود كسلاح ناري يستخدمه المسلمون لأول مرة [٢] ، كان لها أكبر الأثر في بعض المعارك يقول ابن الخطيب في استخدام ذلك المدفع أن القذيفة منه إذا أطلقت رمت بشآبيب من الشرر ثم تسقط وسط المحاصرين محدثة من عظيم التخريب ما تحدثه الصاعقة السماوية [٣] .

ومن صناعة الأسلحة ننتقل إلى صناعات أخرى . فقد كشفت الحفريات الأثرية في جنوب غرناطة عن بعض المصنوعات التي تم انتاجها في عصر بني نصر ، وألقت الضوء على كيفية صناعة الفخار [٤] في مملكة غرناطة تلك الصناعة المهمة التي اكتفت المصادر الإسلامية بالإشارة إليها إشارات عابرة دون إبداء تفاصيل أكثر عنها ، لذلك أجد نفسي مضطراً للحديث عن تلك الصناعة وذلك من خلال دراسات علماء الحضارة والآثار الأسبان الذين بذلوا جهوداً طيبة في دراسة تلك الآثار واهتموا بها كل الاهتمام وبالتالي أصبحت معلماً حضارياً بارزاً من معالم الحضارة الإسلامية داخل قصر الحمراء الذي يضم متحف الحمراء والذي أصبح قبلة الزوار من مختلف أرجاء العالم لمشاهدة الآثار الإسلامية الغرناطية ، ومن حسن الحظ أنه خلال زيارتي ورحلتي العلمية أقامت الحكومة الأسبانية معرضا خصص لمشاهدة هذا الفن وتقديم بعض النشرات العلمية المكتوبة والمطبوعة والمسموعة عن هذا الفن والآثار الإسلامية الغرناطية التي حوت العديد من المنتوجات الصناعية ، مما ساعد على

---

(١) ابن هذيل : حلية الفرسان ، ص ٢١٧ .

(٢) كولان : البارود عند المسلمين ، كتب دائرة المعارف الإسلامية ، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية ، إبراهيم خورشيد ، د. عبدالحميد يونس ، حسن عثمان ، ط١ الأولى ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ص ٨٦ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٩٠ ، ٣٩١ واللمحة البدرية ص ٧٢ .

(٤) والفخار هو كل ما كان مصنوعاً من الطين فقط ، انظر مرزوق : محمد عبدالعزيز ، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس ، دار الثقافة ، بيروت ، د. ت ، ص١٠٠.

معرفة الكثير والكثير من الصناعات الفخارية والخزفية [١] الغرناطية ولقد كان للمشاهدة أثر كبير في النفس وفي الفكر ساعد على فهم الصناعة الغرناطية وخصائصها . ومن أمثلة تلك المكتشفات : الجرار والخابيات الملائمة لتخزين الحبوب وحفظ السوائل .

ويلاحظ أن بعضها ذو حجم كبير ، وقاعدة مستوية ، تصلح كمخازن منزلية لتلك المواد ، وبعضها الآخر متحرك وقاعدته مدببة حتى تتكيف مع الزنابيل الطويلة التي توضع على ظهر الراحلة [٢] ، أو الدابة كوسيلة من الوسائل لتعبئة الأغراض وحملها .

ومن هذه النماذج الفخارية اشتقت الخزفيات النصرية الخابيات والتي كان لها بيوت مخصصة لصنعها عرفت ببيت الخابية [٣] والتي أطلق عليها الأسبان لفظ خارون [٤] . وكانت أكبر نسبة من صناعة الخزف واستأثرت بما يُصنع الأواني المنزلية لطهي الطعام مثل الموقد ، والكانون [٥] المتحرك الملائم للطهي وكالمدفأة ، والسلسلة المتنوعة من المراجل والطناجر متعددة الاستخدامات ليس فقط لطهي الأطعمة بل أيضاً كأدوات للخدمة وأواني وأوعية للأكل الجماعي الذي كان سائداً بين أهالي مملكة غرناطة حتى في المنتزهات [٦] .

ومن ذلك نستنتج أن عملية صقل الصواني كانت مألوفة ومعروفة في مملكة غرناطة وخاصة الصواني ذات اللون الأخضر [٧] .

وقد استمر انتاج الصواني والأطباق والفناجين وأواني شرب السوائل مثل الأباريق [٨] طيلة

---

(١) والخزف : هو القطع الفخارية المغطاة بالزجاج (مرزوق : الفنون الزخرفية الإسلامية ،ص ١٠٠) .

(2) **Guillermo Ross Ellobo rdoy : Obser vaciones sobr la ceromicacomun nazari conten t contennido, Art Islamico en Granada, Propuesta paraun meso de la Alhambra, Granada, 1995 , p . 135**

(٣) أبو الحسن بن الجياب : ديوانه ، ص ٢٢٠ .

(4) **(1) Guillermo Ross Elobordoy : Opcit . p. 136 .**

(٥) انظر : ابن الخطيب : الكتيبة الكامنة ، ص ١٩٠ ، حيث يرد اسم الكانون .

(٦) انظر ابن الخطيب : الكتيبة الكامنة ، ص ٢٤٥ .

(٧) انظر :

G uillermoRoss Ello Brodi Observaciones p.p 136 ‘ 137 .

(٨) انظر ابن الخطيب : ديوان الصيب والجهام ، ص ٣١٣ .

العصر الغرناطي سواء المزجج منها أو غير المزجج . وقد أدخلت صناعة الخزف النصري عنصراً جديداً لم يكن معروفاً من قبل وهو الكأس ودولاب الصيدلية [١] الذي واكب تطور الطب والصيدلة في مملكة غرناطة ، كذلك كان لنوعية الأطعمة في مملكة غرناطة تأثيرها على صناعة الأواني وذلك نظراً للارتباط الوثيق بالعدوتين ومن خلال أثاث المطبخ الغرناطي تميز حلة الكسكسي المثقبة من أسفل [٢] يتضح ذلك من النماذج التي عثر عليها في ألبيرة والمرية [٣] .

وقد شملت صناعة الفخار الطناجر والصواني والأطباق وطسوت العسل منها المزجج وغير المزجج ، كما صنعت ألعاب اللهو من الفخار أيضاً مثل الجياد الصغيرة والقطط والأسماك [٤] .

وشملت الصناعات الخزفية الغرناطية أوعية الشرب مثل الأباريق الصغيرة ذات الفوهة الواسعة والتي أطلق عليها ابن الخطيب لفظ ابريق [٥] أو الكيزان كما صرح بذلك عبدالباسط بن خليل الحنفي [٦] .

ويمكن القول إن هذه الصناعات كانت تضاهي في ازدهارها صناعة الطوب (اللبن الآجر) والتي صنعت منها القرميدة التي زخرفت بها جدران قصر الحمراء وحماماته وقاعاته مما أضفى على القصر جمالاً رائعاً [٧] . كما استخدمت في بناء الأسطح والمنازل في

---

(1) G uillermoRosse Ello Brodi Observaciones p.p 136 .

(٢) ابن زريق : التجيبي : فضالة الخوان في طيبات الطعام والأوان ، تقديم وتحقيق محمد بن سفزون ، مطبعة الرسالة ١٩٨١م ، الرباط ، ص ٤٩ .

(3) Opcit , p. 136 .

(٤) انظر الصورة المأخوذة من المتحف بقصر الحمراء في الملحق رقم (٩) .

(٥) ديوان الصيب والجهام ، ص ٣١٣ .

(٦) انظر ما نشر من رحلة عبدالباسط في Alandalus Revista, Vol . p. 315

(٧) مرزوق : محمد عبدالعزيز ، الفنون الزخرفية ، ص ٩٥ ، وانظر فرحات : غرناطة في ظل بني الأحمر ، ص ١٨٥ .

غرناطة على شكل هرمي يسمح بنزول مياه الأمطار وعدم تراكمها وهذا ماكان يتميز به حي البيازين في غرناطة إلى يومنا هذا [١] ذلك الحي الذي يقع أسفل قصر الحمراء والذي كان بطبيعه موقعه عرضة لزخات المطر .

وبالإضافة إلى ما ذكر عرفت صناعة التنور وما يتعلق به من مستلزمات أخرى مثل صناعة الحواجز التي توضع بين أرضية الفرن والقطعة الخزفية ، ومثل صناعة البكر الأسطواني والحلقات الخزفية الضرورية لوضع القطع في الفرن ولكل قطعة عند صانعي الفخار وظيفتها المميزة ، فالحاجز يصنع لفصل الأطباق المزججة عند دفعها بالفرن [٢] .

أما البكرات فتعزل بدورها القطع الخزفية المرصوصة وقت تصنيعها حين تكون في الفرن ، كما أن البكرات تصنع كذلك لدفعها بأحد جدران الفرن لتكوين عدة طوابق حتى يمكن ملء الفرن الغرناطي تماماً [٣] .

أما بالنسبة لصناعة الخزفيات التي تستخدم في تخزين مياه الشرب فقد صممت على أيدي صانعي الفخار الغرناطيين المهرة ، ولا سيما الأزيار منها في مالقة والتي أدهشت صناعتها الرحالة المصري عبدالباسط بن خليل الحنفي ، فقال : ((ثم إنني رأيت بهذه القصبة مكاناً معداً للماء به ثلاثة من الأزيار المالقي ما رأيت ولا سمعت بمثلها ولا بجنسها قد صفت ثلاثة منها إلى جانب بعضها البعض بهذا المكان المعد لشرب الماء بدهليز هذه القصبة كل زير منها كالتيغار أو الخابئة الكبيرة بهذه البلاد لكنها ليست كالتواغير واسعة الأفواه بل ضيقها بأعناق كالأزيار لا الخوابي وهي بديعة الصنعة غريبة النقوش من العجائب والنوادر)) [٤] .

ويعقد عبدالباسط مقارنة بين الأزيار في القاهرة بجانب بركة الناصرية بالقرب من زاوية أبو شامة ، وكذلك بدارة زويلة سبيل جلود إلى جانب باداره ، فيقول أنه شتان ما بين الصنعتين واصفاً هذه الصناعة الغرناطية بأنها من عمل السلاطين [٥] .

---

(١) لاحظت ذلك أثناء رحلتي العلمية إلى هناك .

(2) G uillermo . Bordoy, Observaciones, p. 138 .

(3) Ibid , p . 138 .

(4) AL- Andalus Revista Vol .I , p. 312 .

(5) Ibid .

ومن الأمثلة على الصناعة الفخارية الجرة الفخارية المزخرفة بصور الغزلان ، ورغم انكسارها فقد أثبتت مدى متانة صناعتها الفخارية العجيبة (١) .

ولقد تعددت أيضاً صناعة الخزف في مملكة غرناطة تعدداً كبيراً وشملت مصابيح الاضاءة وحامل الشمعدان ويوضح ذلك الفانوس النصري الذي تم العثور عليه مؤخراً (٢) .

كذلك من بين المصنوعات الخزفية الحبارات وهي حافظات الحبر التي واكبت النهضة العلمية في غرناطة ، وهي مصنوعة بشكل تكون معه بحيث إذا وقعت الحبارة لا ينسكب الحبر منها (٣) ، وهي فكرة متقدمة تدل على تفوق إبداعي كبير !! أثار شعراء غرناطة فقال الكاتب أبو عمر يحيى بن إبراهيم بن زكريا الأنصاري في محبره :

أنا منهلٌ حامت على وردي النهى ... محل سواد العين والعين في وسطي
أمدّ مدادي من سواديهما السنا ... فتخليد نور ا لله في الأرض من سقطي
فدار على الإيضاح شكل مقبضتي ... حوت كل ما ضم الوجود إلى ربط (٤)

ومن الجدير بالذكر في الصناعات الخزفية أنه بعد الاهتداء إلى التزجيج أصبح الفخار والخزف متعاصرين ، وسارا معاً في موكب الحياة جنباً إلى جنب (٥) .

---

(1) Mateorevill Uceda, Propuesta Parara un museo de la Alhambra Arte Islamico en para un museodela Al Hambra 1995 , p. 26 .

(٢) انظر : فرحات : غرناطة في ظل بني الأحمر ، ص ١٩٨ .

(3) G uillermo . Bordoy, Observaciones , p. 140 .

(٤) ابن الخطيب : الكتيبة الكامنة ، ص ٢٧٧ .

(٥) مرزوق : الفنون الزخرفية الإسلامية ، ص ١٠٠ .

فمثلاً عندما تكون الآنية الفخارية المزججة تكون منها الطبقة الملونة لها درجات اللون العسلي وتطلى بها فخاراً أو طين أصفر فإن لون الطبقة الزجاجية حينئذ يتحول إلى أخضر (١) .

وكان الأسلوب الزخرفي الغرناطي القائم على تطبيق فرشاة من أكسيد النحاس لاخفاء اللون الطبيعي للطين والذي يطلى بعد اتمام صناعته بطبقة شفافة من أكسيد الرصاص هو أسلوب يعود إلى أصول شرقية (٢) .

وقد تنافست المدن الغرناطية في الصناعات الفخارية والزجاجية واشتهرت كل مدينة ببعض الخصائص التي تميز صناعتها .

فأما المرية فقد كانت شهرتها في صناعة الأدوات الكبيرة وبالتالي فصناعتها تتميز بالضخامة والسعة وزودت قصور الحمراء والمنشآت النصرية بغرناطة بالفورات الرخامية والأحواض التي زينت بها حدائق الحمراء لأبهائها ((كما لا يستعبد أن يكون الحوض الذي يتوسط قاعة بني سراج والتماثيل الاثنا عشر التي تزين بهو السباع من صناعة المرية)) (٣) ، فصناعة المرية كما ترى متميزة بالضخامة بينما تميزت تارة باللطف والدقة .

أما الصناعات الفخارية بمالقة فيبدو أنها تميزت بالدقة والإبداع الجمالي والتذهيب الرائع ، فهي قادرة على الصناعة الكبيرة والصغيرة لكن تميزها يتركز في اضفاء الشكل الجمالي الرائع ومما قاله في ذلك ابن بطوطة : ((وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها إلى أقاصي البلاد)) (٤) .

---

(1) Cal Rlos canopiedra : Estudio sis tamotico de la Cermica de madinat ilbira, cuadernos Dela Alhambra Vol 26 Granada 1990 p. 33 .

(2) Ibid .

(٣) السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٤م ، ص ١٦٥ .

(٤) رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٧٠ ، وانظر ابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٥٩ .

ويوضح ذلك بشيء من التفصيل العمري فيذكر أن مالقة تشتهر بصناعة الفخار المذهب الذي لا يوجد مثله في بلد من البلاد (١) ، ولشهرة الخزف المالقي كان هو المقدم في الإهداء للعلية من الملوك وهذا يؤكد ما يتميز به من إبداع وفي السفارة الغرناطية التي توجهت إلى سلطان القاهرة كان (الفخار المالقي) على رأس الهدايا وكان له وقع طيب على سلطان مصر وحاشيته كما كان الانجبار الغرناطي أيضاً من ضمن الهدايا الموجهة إلى السلطان المملوكي الذي استحسنها وأخذ يردد النظر إليها (٢) ، مما أثار الخيال الجمالي للسفير الغرناطي الذي أنشد واصفاً الإنجبار الغرناطي قائلاً :

انظر إلى حسن إنشائي وإتقاني
وما كسيت من لوني القاني
من بعد ما كنت بين الثرى ممتهناً
أرضى بحكم الذي في الهون ألقاني
فأحكمت صنعتي أيدي الورى
أثنى على كل من بالحسن وشاني
حتى غدوت عظيم القدر ذا خطر
أهدى لكل عظيم القدر والشان (٣)

ومن خلال هذا العرض الوجيز الذي قدمته تبين أن الصناعة الخزفية في مملكة غرناطة كانت صفحة من صفحات التطور الصناعي الخطير الذي لا أشك أنه جمع في إبداعه بين الأصول المشرقية ، والجماليات والإضافات الأندلسية بعامة والغرناطية بخاصة .

ويدل بقاء هذه الصناعة إلى نهاية الدولة النصرية على أن هناك بواعث كانت تقف وراءها وعلى رأسها شغف الحكام والأثرياء بالقصور والتحف والأواني الجميلة ، وفي ذلك يقول

---

(١) العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٦١ .

(٢) الأهواني : سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة ، ص ١٠٥ .

(٣) نفس المرجع والصفحة . وللدليل على جمال تلك الصناعة وإتقانها انظر الملحق رقم (١٠) .

ابن زمرك عن جمال الأباريق التي توضع في نوافذ أبواب الحمراء :

أنا تاج كهــــلال   أنا كرسي جمــــال
يَتجلي الإبريق فيــه   كعروس ذي اختيال
جود مولانا ابن نصر   قد حباني بالكمــال [١]

ومما يؤكد صور الرفاهية المختلفة التي عرفت بها غرناطـة في أكـثر فتراتهـا مـا رواه الرحالـة عبدالباسط بن خليل الحنفي خلال زيارته لمملكة غرناطة في عهد سلطانها أبي الحسـن علـي ابن سعد وما رآه من جمال تلك الصناعة التي لا تزال نماذج منها معروضة بقصر الحمراء إلى يومنا هذا بالإضافة إلى ما لاحظه من وجود التربة الحمـراء الصالحـة لصناعـة الكـيزان الـتي يشرب بها الماء وفي ذلك يقول عند وصفه لقصر الحمراء :

((وهذه القلعة التي بنيت عليها هذه الدار العظيمة بل الحصن الأعظـم ذو الأبـراج العجيبة والسور الغريب طرف جبل أحمر اللون بحضيضه من جهة المرج مكان يستخرج منـه تراب أحمر اللون جداً يشبه في لونه الطين الأرميني يعرف بالأندلس بـتراب الانجبـار المعدنـى ومنه يصنع الكيزان التي يشرب بها الماء في تلك البـلاد وهـي كـيزان رقيقـة غايـة في جـودة الصناعة مبردة للماء بطبعها بل ولها منافع فيقال إنها تنفع الإسهال الدموي شرباً)) [٢] .

إذاً فقد كان لتوافر هذه التربة عاملاً رئيساً في ازدهار الخزف الغرناطي بل والفـن الغرنـاطي أيضاً مما استوجب أن تخصص لهذه الكيزان مواضع (حنايا) في قصر الحمـراء لكـي توضـع فيها الأباريق أو الكيزان [٣] .

وسطّر ابن زمرك عدة أبيات تصف هذه الحنايا الجميلة وما تحويـه مـن أوانـي فخاريـة جميلـة فقال :

رقمت أنامل صانعي ديباجي   من بعد ما نظمت جواهر تاج

---

(١) المقري : أزهار الرياض ، جـ ٢ ، ص ١٤٠ .

(2) Alandalus , Revista Vol I p. 315 .

(٣) مرزوق : الفنون الزخرفية ، ص ١٩٥ .

وحكيت كرسي العروس وزدتـــه إني ضمنت سعـــــادة الأزواج
من جاءني يشكو الظمأ فمواردي صرف الزلال العذب دون مزاج (١)

ويقول في ذلك أيضاً :

أنا محراب صـــلاة سمته سمت السعـــاده
تحسب الإبريق فيها قائماً يقضي عبـــاده

....

أنا مجلاة عـــروس ذات حسن وكمـال
فانظر الإبريق تعرف قصد صدقي في المقال (٢) .

ومن بين تلك الأباريق تم العثور في الآثار الغرناطية على إبريق الغزلان والذي يتميز بصفة القوة والمتن وثانيهما الخاصية الزجاجية المصنوع منها (٣) .

ومن خلال ما تم عرضه يتضح أن مملكة غرناطة بعد قيامها على يد محمد بن يوسف ابن نصر اندفعت تستلهم كل التراث الأندلسي الزراعي والاجتماعي والصناعي وتحاول أن تكون أندلساً صغيرة يتوافر فيها كل ما كان موجوداً في عصر الازدهار الأندلسي ، ومن هنا قدمت غرناطة خلال القرن الثامن وبعده بقليل صوراً من الازدهار الاقتصادي أصبحت بها مملكة متحضرة تسبق كل أوروبا في ذلك الوقت .

وفي تلك الأحقاب كانت الصناعة من الكثرة بحيث يصعب حصرها وما ذكرته إنما هو على سبيل المثال لا الحصر ، فقد ازدهرت صناعات الخزف والفخار والنسيج ، والأسلحة والثريات والشموع والسجاد والحصير ، والسفن ومواد البناء مثل أعمدة

(١) غومس : إميليو غرسيه : أشعار عربية على جدران ونافورات الحمراء ، ص ١٠٥ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٩٨ .
(3) Mateo Revill uceda , Propuesta un mueso de Alhambra, p. 27 .

الرخام التي تبرهن على المدى الذي وصلت إليه الهندسة المعمارية النصرية [١] ، وتماثيل الأسود التي كانت موجودة بالمارستان النصري ، وحوض الغسل الكبير المصنوع من الحجر الأزرق والمذهب المزخرف بشجرة [٢] . ومواد البناء بكافة أنواعها ، وكل الصناعات القائمة على الثروة الحيوانية والزراعية والمعدنية .

وفي هذه العصور كان الفقه الإسلامي في غرناطة وأهل الاحتساب يراقبون المعاملات ويراقبون جودة الأصناف وحركة الأسواق وقد احتشدت كتب الفتاوى والنوازل بصور كثيرة استشهدت ببعضها فيما سبق ـ ولم يكن عمل المحتسب في غرناطة مجرد وعظ وإرشاد وإصدار أحكام فقهية بل كانت خطة الاحتساب تشمل ما يعرف في عصرنا بهيئات الرقابة على التموين وهيئات المواصفات والمقاييس ومراقبة الغش وسلامة الأغذية .

وكان من بين مهام المحتسب الإشراف على أصحاب الحرف وخاصة في مجال التجارة والغذاء والصناعة إلى غير ذلك من مهام المحتسب ومسئولياته كما وصف ذلك ابن الخطيب مهام المحتسب بمدينة مالقة أبو عبدا لله محمد بن قاسم بن أحمد ابن إبراهيم الأنصاري [٣] .

وكان المحتسب يعين مباشرة من قبل السلطان الغرناطي ويقدم أبو الحسين التلمساني الذي قدم على مملكة غرناطة نموذجاً للمحتسب في مملكة غرناطة فيقول ابن الخطيب في ذلك ((فتقلد الخطة الشرعية والولاية وبسط أعوانه ومساعديه واتصلت ولايته وناب في

(1) Mateo Revill uceda propuesta Museo de la Alhambra , p. 28, 29 .
(2) Ibid , p. 28 .

(٣) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ١٩٦- ١٩٨ .

العرض والجواب بمجلس السلطان وكان في ذلك حميد التأني تقوم أحكامه على كتاب ا لله وسنة رسوله)) [1] ، فحقق بذلك نجاحاً طيباً في هذه المهمة والمسئولية الكبيرة .

ولما انتهى عصر الازدهار ، وبدأت صور الاضمحلال تظهر في غرناطة بتدهور الأمن ، وبالتالي فقدت الرقابة الشرعية دورها واختلط الحلال بالحرام وبدأ الاقتصاد كله يدخل عصر الانهيار وانشغل السلطان النصري بهمومه وبالحرائق الناشبة في قصوره وبالخارجين عليه في الحكم وبالنصارى الذين تكالبوا على بلاده ففسدت الجبهة الداخلية وانكمش دور الحسبة ، وانهارت العملة النصرية ، كان هذا من أعظم النذر على بداية الانهيار الاقتصادي للاقتصاد الغرناطي .

---

(١) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٢٠٠ .

السكــة :

والحديث عن الأحوال الاقتصادية تجارة ، وزراعة وصناعة يرتبط دوماً بالحديث عن النقود ارتباطاً عضوياً حيث لم تعد النقود مجرد وسيط بل أصبحت وسيلة فعّالة يعتمد عليها النشاط الاقتصادي ، وفي مملكة غرناطة كانت النقود وحدة التعامل ذهباً كانت أم فضة .

ففي عصر مملكة غرناطة كانت الطريقة المتبعة في سك النقود عند قيام الدولة النصرية مشتقة من طريقة الموحدين (١) ، فكان الدرهم النصري مربع الشكل ((من وزن المهدي القائم بدولة الموحدين ، في الأوقية فيه سبعون درهماً)) (٢) .

وكانت النقوش التي على السكة عند قيام الدولة النصرية تختلف الكتابة فيه باختلاف الولاء السياسي لمؤسس الدولة النصرية محمد بن يوسف بن نصر (٣) (محمد الأول) ، ففي الفترة التي دان فيها السلطان محمد الأول بالولاء للعباسيين (٤) نجد أنه في أحد الدراهم نقش في نصفه (أمير المسلمين محمد بن يوسف بن نصر) خليفه العباسي وكلمة التوحيد (لا إله إلا ا لله محمد رسول ا لله) وكلمة لا غالب إلا ا لله شعار بني نصر (٥) .

ولما زال شأن العباسيين ووالى الموحدين نلاحظ أنه قد نقش في أحد الدراهم كتابة بسم ا لله الرحمن الرحيم صلى ا لله على محمد وآله ، ولا غالب إلا ا لله " لا إله إلا ا لله محمد رسول ا لله " ، " المهدي إمام الأمة " غرناطة (٦) .

---

(١) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٧ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ١٣٨ ، واللمحة البدرية ، ص ٢٩ .

(٣) الاحاطة نفس الجزء والصفحة .

(٤) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٩٥ .

(5) Antonio Vives Yescudero monedas, Dinastias Arabico Espanolas, Madrid , 1893, p. 371 .

(6) Ibid , p. 372 .

كان ذلك أيام أن ادعى محمد بن يوسف بن نصر أنه تابع لدولة الموحدين (١) ، ونلاحظ أيضاً أن بعض هذه الدراهم كان مضروباً بمدينة جيان (٢) ، قبل أن يتخذ محمد بن يوسف ابن نصر من غرناطة عاصمة لملكه (٣) .

وفي القرن الثامن الهجري فإن الدرهم النصري كان لا يزال متأثراً بما كان عليه في عهد السلطان محمد الأول وإن اختلفت الكتابة المنقوشة فيه (٤) ، إلا إنه كان لا يزال مربع الشكل من وزن المهدي القائم بدولة الموحدين (٥) .

ولقد أورد ابن الخطيب نصاً فيه بعض التفاصيل الدقيقة الخاصة بالمعيار وقيمة النقد النصري في عهد بني نصر فقال إنه ((في الأوقية منه سبعون درهماً تختلف الكتابة فيه كتب في شق منه لا إله إلا ا لله محمد رسول ا لله ، وفي شق آخر " لا غالب إلا ا لله ، غرناطة " ونصفه وهو القيراط في شق " الحمد لله رب العالمين " وفي شق "ما النصر إلا من عند ا لله " ونصفه وهو الربع في شق " هدى ا لله هو الهدى " وفي شق العاقبة للتقوى)) (٦) ، ومن خلال تأمل النص نلاحظ أن الدرهم في عهد يوسف الأول وابنه الغني با لله كان له محتويان نصف الدرهم أو القيراط أو ربع الدرهم .

وطبقاً لما أوضحه ابن الخطيب فإن الدرهم النصري كان يساوي في الأوقية منه ، ستة دنانير وثلثا دينار (٧) ، وفي الدينار الواحد ثمن أوقية ، وكما أن قيمة الدرهم النصري

---

(١) انظر تفاصيل ذلك الولاء السياسي في الفصل الأول من الرسالة ص ٥٥ .

(2) Antonio Vives, Monedas p. 372.

(3) Ibid.

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحات .

(٦) نفس المصدر والجزء والصفحات .

(٧) نفس المصدر والجزء ص ١٣٨ .

تعرضت للارتفاع والانخفاض ، كذلك كـان شـكل الدرهـم والكتابـة المنقوشـة فيـه عرضـة للتغير ، وبالإضافة إلى ما سبق ذكره فقد كان شكل الدرهم في عهد ابن الخطيب منقوشاً في شق منه " قل اللهم مالك الملك بيدك الخير " ويستدير به قوله تعالى " إلهكم إلـه واحـد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم " ، وفي شق " الأمير عبدا لله يوسف بن أمير المسلمين أبي الحجـاج ابن أمير المسلمـين أبـي الوليـد إسماعيـل بن نصر أيد ا لله أمره " ويستدير به شعار بني نصـر " ولا غالب إلا ا لله " وفي تاريخ انتهاء ابن الخطيب من تأليف كتابه الإحاطـة كـان منقوشـاً في الدرهم النصري " يا أيهـا الذيـن آمنـوا اصـبروا وصـابروا ورابطـو ، واتقـوا ا لله لعلكـم تفلحون " ويستدير به " لا غالب إلا ا لله " ، وفي وجه منه " الأمير عبدا لله الغني با لله محمـد ابن يوسف بن إسماعيل بن نصر أيده ا لله وأعانه " ، ويستدير في الربع منه " بمدينـة غرناطـة حرسها ا لله " (١) .

وفي القرن التاسع الهجري ظهرت ثلاثة أنواع من الدراهم الدينار الذهـبي والدرهـم الفضي ، والدرهـم العيني ، والدرهـم السبعيني (٢) . ولقد ظهرت تسميات جديدة على مدى القرن التاسع الهجري منها دينار فضي عشرية ، دينار ذهـبي ، دينـار برونـزي ، صـادر عـن السلطان سعد حتى إنه سمي سعدي نسبة إلى السلطان سعد المضروب في عهده (٣) .

ونتيجة للاضطراب السياسي في الدولة النصرية وكـثرة الانقلابـات والثـورات الـتي أطاحت بالعديد من سلاطين بني نصر وكذا الضغط النصراني المستمر أدى ذلك إلى ضعـف قيمة النقد النصري في العقد الأخير من القرن التاسع الهجري ، ممـا أدى إلى تدخـل القضـاه لمعالجة الأوضاع الاقتصاديـة المتدهـورة في البـلاد ، فلقـد صـرح الحفـار بأنـه يجـوز التعـامل بالعملة الضعيفة القيمة على أن يكون المتعاملان حسنى النية (٤) .

---

(١) ابن الخطيب : الأحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٨ .

(٢) انظر الحديقة النضرة ، ورقة ٣٨ أ .

(٣) انظر وثائق عربية غرناطية ، ص ٤٧ .

(٤) الحديقة النضرة ، ورقة ١٨٣ ب .

وكان الهدف من هذا الحل هو عدم تحطيم قيمة العملة وكان هذا للصالح العام ، كذلك طبعت على النقد النصري كلمات غير مفهومة المعنى يراد من ورائها حفظ النقود من التزوير وخلافه مما يدل على ضعف الوازع الديني وانعدام الأمن ، فمن جملة ذلك في عهد السلطان النصري علي بن سعد كتب على أحد واجهات الدينار " بسم ا لله الرحمن الرحيم لا إلا لا إلا ود " .
يا ا لله محيط به تعسهلون وبالحق أنزلناه وبالحق نزل " [(١)] .
ونتيجة لذلك تزايد الشك في مصداقية العملة النصرية وقيمة النقد النصري ، وتصدى الفقهاء في غرناطة لمعالجة الأوضاع المتردية للنقد النصري في مملكة غرناطة ، فمن جملة ذلك صدور فتوى عن مفتٍ غرناطي ظل مجهول الاسم عندما ذهب أحد الفكاكين إلى الأراضي النصرانية لدفع فدية في بعض الأسرى المسلمين وكانت قيمة العملة النصرية منخفضة في ذلك الوقت فطالب النصارى القشتاليون بضعف المبلغ المطلوب ، ولما عاد الفكاك إلى غرناطة بالأسرى طلب من أسر الأسرى تعويضاً ، ولقد أفتى القاضي بأنه كان يجب على الفكاك الالتزام بالمبلغ المتفق عليه مسبقاً دون أي زيادة وعلى الفكاك وحده تحمل نتائج خفض قيمة النقد [(٢)] .

ولقد حدد القاضي أبو عبدا لله الحفار وزن الدينار الذهبي وهو الدينار الشرعي الخالي من التزييف والغش في مقابل ما تجب فيه الزكاة من الدراهم السبعينية ومن العين الجاري والأوقية المتداول بها في غرناطة فقال :
((تجب الزكاة من دراهمنا في سبعة عشر ديناراً ذهبية وذلك مائة وسبعة وعشرون ديناراً ونصف دينار فأكثر ، والأوقية الشرعية من أواقينا ثلاث أواق وأربعة أسداس أوقية بتقريب يسير ، ونصاب الذهب عشرون ديناراً من الذهب ، ووزن الدينار الشرعي اثنان وسبعون حبة من حبوب الشعير المتوسط ، يتضاعف هذا العدد من حبوب الشعير

---

(١) انظر : . Antonio , Vives , mone Das , p. 389 رقم القطعة ٢٣٧ .
(٢) الحديقة النضرة ، ورقة ١٨٤ أ .

عشرون مرة ويوزن ذلك بدنانير فيكون ذلك مقدار النصاب من دنانير وقتنا)) [١] ومن خلال ذلك النص يتضح مدى التدهور الاقتصادي الذي أصاب العملة النصرية مما أدى إلى ظهور الدراهم السبعينية وهي السكة السبعينية الجارية في غرناطة من فئة سبعين درهماً [٢] . وهذه الفئة السبعينية كانت فئة جديدة صدرت بها الأوامر بعد التعرض لظروف اقتصادية خطيرة تقتضي فيما يبدو تخفيض قيمة العملة .

وكان في العاصمة غرناطة دار لسك العملة من الذهب الخالص الذهب العين نسب إليها [٣] . إلا أن ذلك الذهب الخالص قد شابه الغش نتيجة لما طرأ على الأحوال الاقتصادية من تدهور جراء الحرب مع النصارى ، وقد عده الفقهاء في مملكة غرناطة من أنواع الابتلاء اللاحق بالمال والمتاع [٤] ، ويضرب صاحب " كتاب جنة الرضا " مثالاً على ذلك بقوله ((كقضية هذا الربا الداخل على كل أحد في مكسوبه ، من أجل الدراهم المغشوشة الجارية ... ومن أجل هذا الذهب الأبيض المغشوش الجاري إلى الآن فإن هذه نازلة كبيرة وفادحة عظيمة لم يسلم من شرها أحد ، ولا أظنه نجا منها في هذا الوطن بشر)) [٥] . وما ذلك إلا نتيجة مباشرة من نتائج الحرب مع النصارى التي أدت إلى تدهور الأحوال الاقتصادية بصفة عامة وإلى ضعف قيمة النقد النصري بصفة خاصة .

---

(١) الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ ١ ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

(٢) الحديقة النضرة ، ورقة ١٨٢ أ .

(٣) انظر وثائق عربية غرناطية ص ٤٢ .

(٤) البشري : سعد بن عبدا لله : كتاب جنة الرضا في التسليم لما قدر ا لله وقضى لأبي يحيى محمد ابن عاصم ، مصدر من مصادر التاريخ الأندلسي ، مقالة منشورة بمجلة عالم الكتب ، مجلد ١٧ (الجماديان ١٤١٧هـ ، ص ٤٨٧) .

(٥) جـ ١ ، ص ٢١٧ - ٢١٨ .

ب ـ العلاقات الاقتصادية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية :

ـ طرق التجارة البرية والبحرية :

تستطيع أن نتخيل أهمية الطرق ، وأن نتعرف على ضرورتها حين تتخيل انعدام الطرق الصالحة لسير الناس جماعات وأفرادا .

وبالتالي سيدرك القارئ أن انعدام الطرق أو وعورتها سيكون حاجزاً كبيراً امام التبادل التجاري بين الناس في داخل البلد الواحد أم خارجها . وكل دولة تضع في حسابها هذه المعادلة ، وتسعى قدر استطاعتها في تعبيد الطرق ووضع الشارات والعلامات الموضحة وبناء النزل وأماكن الراحة والتموين للدواب والإنسان ، وتأمين ما تستطيع من وسائل الحماية . والطرق الخارجية أحوج من الطرق الداخلية إلى مثل هذا الاهتمام ، ذلك لأنها غالباً ما تكون طويلة كما أن التجارة التي تمر بها ذات قيمة كبيرة لضخامتها ولهذا تكون أكثر عرضة للمخاطر .

وكانت التجارة الغرناطية تتجه في الأعم الأغلب إلى الشمال الإفريقي منه إلى داخل إفريقيا أو إلى بلاد المشرق الإسلامي ، كما أنها كانت تتجه في بعض الأحيان شمالاً صوب الممالك النصرانية وبالنسبة لتجارتها المتجهة جنوباً صوب إفريقيا والمشرق والتي تشكل النسبة الغالبة براً وبحراً .

كان لا بد أن تعبر التجارة المدن الساحلية وأن تنطلق منها وأن تتعامل مع موانيها فلا يوجد طريق بري مباشر يربط غرناطة بالمشرق أو المغرب ، وهذا يؤكد أهمية الموانئ البحرية لمملكة غرناطة كمحطات للتجارة الخارجية ، ومن هنا كان لزاماً على مملكة غرناطة أن تهتم باقامة دور لصناعة السفن للتجارة أو الحرب وأن تهتم بتجهيز الموانئ كي تكون معدة لإرسال المواد التجارية أو لاستقبالها . وبما أن التجارة الخارجية لمملكة غرناطة مع الدول الإسلامية لا بد أن تعبر البحر إلى البر (فقد استوجب الحديث عن الطرق البحرية والبرية معاً نظراً لعدم وجود طريق بري مباشر يربط مملكة غرناطة بالدول الإسلامية) .

وبالإضافة إلى ذلك كان عليها أن تؤمن وصول المواد التجارية من مصادرها عن طريق البر إلى الموانئ فسعت إلى تأمين الطرق البرية الرئيسية التي ترتبط بشبكة الموانئ الغرناطية ، والتي سبق توضيحها في الحديث عن التجارة الداخلية، ويفصل بين مملكة غرناطة والعالم الإسلامي حاجز من البحار ، وبما أن صلة غرناطة بالعالم الإسلامي صلة حضارية ومصيرية فقد كان من مصلحة غرناطة أن يكون لديها أسطول قوي وموانئ جيدة وخبراء في قيادة السفن واصلاحها . وكان على البحرية الغرناطية التي تقوم بنقل المسافرين والبضائع من شواطئ غرناطة وإليها أن تكون قادرة ـ في الوقت نفسه ـ على التصدي لغارات النصارى وقراصنتهم على شواطئ مملكة غرناطة ، وفي البحار نفسها بالإضافة إلى حماية الصيادين الغرناطيين ولقد مثلت المرية منذ الفتح الإسلامي للأندلس القاعدة البحرية الهامة التي ينطلق منها المسافرون والحجاج والتجار إلى البلدان الإسلامية . وكانت في عهد بني نصر بمثابة مركزٍ للقيادة العليا لأمراء البحر في الأسطول الإسلامي (١) .

ولقد أشار العمري إلى أن ميناء المرية أول ميناء إسلامي في أوروبا يقع على البحر الشامي (٢) ، كما أشار إلى أنه يوجد بها حوض لبناء السفن الحربية (٣) ، إذ في عهد مملكة غرناطة ازدهرت صناعة السفن وأنشئت بها العديد من دور الصناعة وكانت الأحواض الموجودة بها تستطيع أن تتحمل عدداً كبيراً من السفن الراسية على حافة البحر ، إذ يوجد في غرب المرية مرفأ المنكب الذي يشكل ملجأً وقائياً طبيعيا آمناً حسب رأي ابن الخطيب (٤) ، وبالرغم من أن المنكب أقل أهميّة من المرية من الناحية البحرية إلا أن مدينة المنكب كانت تمتلك هي أيضاً حوضاً لبناء السفن (٥) .

---

(١) انظر : ابن القاضي : درة الحجال ، جـ ١ ، ص ١٣٨ وما بعدها .

(٢) مسالك الأبصار ، القسم الأندلسي ، ص ١٦٠ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) معيار الاختيار ، ص ٩٤ .

(٥) العمري : مسالك الأبصار ، القسم الأندلسي ، ص ١٦١ .

وإلى جانب ميناءي المرية والمنكب ، يوجد ميناء مالقة من أقوى الموانئ الغرناطية البحرية والتجارية وقد أثبتت قوته واستعداده حين هوجم من قبل الملوك الكاثوليك في عام ٨٩٢هـ (١) /١٤٨٦م لولا الانشقاق الذي حدث في الحكومة النصرية إذ كانت الترسانة البحرية بمدينة مالقة قوية عامرة بها برجان عظيمان تشيد السفن أسفل منها وذلك المبنى وتلك القصبة أدهشت الرحالة المصري عبدالباسط بن خليل الحنفي (٢) ، ولقد قدم الشاعر عبدالكريم القيسي وصفاً لدار الصناعة بمدينة مالقة وما تم صناعته فيها من أساطيل لصد الهجمات النصرانية عن شواطئ مملكة غرناطة (٣) .

وإلى جانب المرية ومالقة والمنكب ، يوجد ميناء الجزيرة الخضراء الذي يعد أيسر المراسي للجواز إلى الشمال الإفريقي وأقربها من بر العدوة ويحاذيه مرسى مدينة سبتة من الناحية الأخرى (٤) .

وإلى الشرق من مالقة يوجد ميناء مربلة ولكنه كان ميناء غير آمن (٥) ، أما ميناء جبل طارق فكان أبعد من تلك الموانئ وتبادل بنو نصر وبنو مرين السيطرة عليه وكان ملكاً لبني مرين في عام ٧٣٤هـ الموافق ١٣٣٣م بتنازل من بني نصر لتسهيل عبور الجيوش المرينية ، وقام السلطان أبو الحسن بتحصينه وتقوية دفاعاته ، واتخذه نقطة انطلاق لتجمع قواته عندما أبحر إلى الأندلس لمحاربة العدو (٦) ، وعندما أبحر ابن بطوطة إلى جبل طارق عام ٧٥١هـ / ١٣٥٠م لم يفته الذهاب لزيارة التحصينات المقامة في هذا الميناء الحربي التجاري

---

(١) انظر : مجهول : نبذة العصر ص ٢٤ ، ٢٥ .

(2) AL-Andalus , Revista , Vol . I p. 312 .

(٣) انظر : ديوان عبدالكريم القيسي ، ص ٣٨٨ .

(٤) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٧٤ .

(٥) ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ٨٥ .

(٦) انظر الفصل الأول من الرسالة ص ٧٩ .

الهام الذي اعتنى به السلطان أبو الحسن المريني [1] لكي يحل محل الجزيرة الخضراء التي استولى عليها النصارى عام ٧٤٢هـ / ١٣٤١م .

ومن خلال ما تم عرضه تتأكد أهمية الموانئ البحرية لمملكة غرناطة التي كانت تنطلق منها الطرق التجارية عبر البحر المتوسط إذ غدت الموانئ الغرناطية من أهم مراكز التحرك إلى الدول الإسلامية وإلى أوروبا .

وأما عن الطرق التي كان يسلكها التجار الأندلسيون مع بلاد المغرب والسودان الغربي فيجدر بنا أن نشير إلى أن الأندلسيين عرفوا طريق الذهب قبيل قيام مملكة غرناطة إذ أن مدينة تمبكتو قد شارك في تخطيط بنائها مهندس من أهالي الأندلس سنة ٦١٠هـ [2] /١٢١٣م .

وفي عهد مملكة بني نصر زادت الرغبة لدى أهالي مملكة غرناطة في القيام برحلات بحرية استكشافية إذ تحدث الوزير : أبو عبدا لله محمد بن زاغنون من أهل مدينة المرية عن رحلة بحرية له في بحر الظلمات عبر المحيط الأطلسي ، فلا يزال يتغلغل في المحيط حتى وصل إلى منطقة مظلمة إذا أخرج الإنسان يده لم يكد يراها إلى أن رسى به المركب وبمن معه إلى شاطئ البر فوصل إلى مدينة يسكنها أمة من السودان فقال يصف مشاعر أهل تلك البلاد ((لما رأونا بيضاً عجبوا منا واعتقدوا أننا صبغنا جسومنا بالبياض فحكوا جلودنا بالليف فلما ظهر لهم أنها خلقه بقي كل واحد منهم يتعجب ويتحدثون بذلك بعضهم مع بعض فأقمنا عندهم فوجدنا غالب أكلهم لحوم الثعابين والحيات... فأقمنا عندهم مدة حتى خرج منهم أناس إلى بلاد مجاورة لهم في بعض أسفارهم فخرجنا معهم ثم تنقلنا من مكان إلى مكان إلى أن وصلنا إلىبر العدوة)) [3] . وهكذا سبقت غرناطة أوروبا في الرحلات الاستكشافية

---

(١) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٦٥ .

(٢) الوزان : وصف إفريقيا ، جـ ٢ ، ص ١٦٥ .

(٣) العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

في المحيط ، وبالنسبة إلى الطريق البري الذي كان ينطلق من شمال إفريقيا فقد أشار ابن الخطيب إلى دخول أحد أبناء الأسرة الصحراوية إلى غرناطة ، تلك الأسر التي كان لها شأن في تجارة الذهب ، مع بلاد السودان (غرب إفريقيا) والذين مهدوا الطرق الصحراوية بحفر الآبار وتأمين التجار ... [وكانو يتاجرون] بالجلد والعاج والجوز والتبر)) [١] ، ذلك كان قاضي الجماعة بفاس وتلمسان ، محمد بن محمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبدالرحمن بن أبي بكر القرشي المقري وكان دخوله إلى غرناطة عام ست وخمسين وسبعمائة [٢] .

وقد كان للذهب طريق شرقي جاوا إلى أورجلا إلى القيروان ، بينما الطريق الغربي كان خلال أودغست لسجلماسة إلى تاهرت وتلمسان ثم إلى مملكة غرناطة عن طريق البحر ، ذلك الطريق عرفه الغرناطي إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الطويجن الأنصاري الساحلي الذي وصل إلى مدينة تمبكتو والتحق بخدمة سلطانها منسى موسى فبلغ خلال اقامته بها أرفع منزلة ونال هناك الحظوة والشهرة واقتنى مالا دثرا [٣] ، وقيل إن ما أعطاه السلطان منسى موسى في يوم واحد أربعة آلاف مثقال من الذهب [٤] وتوجه رسولاً إلى سلطان المغرب ومن مراكش بعث برسالة إلى أهل بلدته غرناطة ضمنها شوقه إلى لقائهم ، ثم عاد إلى تمبكتو وعاش فيها واتخذ منها زوجات وإماء رزق منهن بأولاد وصفهم ابن الخطيب بأنهم كالخنافسة [٥] .

وطريق ثالث من الناحية الغربية من جبل طارق إلى طنجة ثم فاس وتفازة وإلى ولاته

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ١٩٢ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ١٩٦ .

(٣) نفس المصدر والجزء ص ٣٢٩ ، ٣٤١ وانظر المقريزي : المقفى ، جـ ١ ص ٢٧٧ . وانظر ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٥٤ ، وانظر زاهر رياض : الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨م ، ص ١١٨ .

(٤) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٨٩ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٤١ .

ويسلك في العودة نفس الخط حتى يصل إلى طنجة ومنها إلى شواطئ مملكة غرناطة [١] .

وهذه الطرق الثلاث المشار إليها ، كانت تتحكم فيها القبائل المختلفة في العصور المختلفة لأن مداخل البحر المتوسط للذهب اعتمدت على شبكات التحالف المتغيرة بين القبائل البربرية والولايات الشمالية في إفريقيا [٢] .

ولهذا لم يكن من المستغرب قيام طريق جديد غربي يربط الذهب بغرب المغرب ومملكة غرناطة ، وقد تطور هذا الطريق منذ بداية عصر المرابطين والموحدين [٣] ، ولما جاء عصر مملكة غرناطة سلك التجار إلى داخل إفريقيا الطرق نفسها التي كانوا يسلكونها في عصر الموحدين [٤] .

ولقد استخدم بنو نصر ما توافر لديهم من الذهب الإفريقي والذهب المحلي في سك العملة والنقود في بلادهم [٥] .

وقد غيرت بعض الانتصارات النصرانية في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) في طرق التجارة البحرية لمملكة غرناطة والدول الإسلامية المجاورة لها إذ استولى النصارى على مضيق جبل طارق بعد حروب مع بني نصر وبني مرين ((فاشتد ضررهم وكثر أذاهم في الأندلس وصاروا عيوناً على المسلمين لا تتحرك لهم راسية ولا تسير لهم سائرة إلا وقد عرفوها فإن استقبلوها وثبوا عليها ، على هذا كان عملهم مستمراً في زمن السلم والحرب)) [٦] .

---

(١) انظر : ناعمي : مصطفى ، الصحراء من خلال بلاد تكنه تاريخ العلاقات التجارية والسياسية ، د. ت ، منشورات عكاظ ، ص ٩٧ .

(٢) انظر ابن الخطيب : جـ ٢ ، ص ١٩٢ .

(٣) انظر عزالدين موسى : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي ، ص ٣١٩ .

(٤) انظر ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٧٣ ، ٦٧٤ وما بعدهما .

(٥) انظر : Antonio Vives; Monedas, p , 389 .

(٦) ابن مرزوق : المسند الحسن ، ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

وبالتالي فتح مضيق جبل طارق لحركة السفن النصرانية آفاقاً تجارية ، وغير وظيفة شبه الجزيرة الأسبانية داخل المجالات التجارية ، فبعد أن اختفى محور التجارة الشرقي الغربي (المسلم) تطور النظام الشمالي الجنوبي (النصراني) يربط الأسواق في البحر المتوسط بأوروبا بل وتعدى ذلك ليربط الأسواق الإسلامية بعضها ببعض عن طريق السفن النصرانية (١) . ومن السهل أن نرى ظهور التجارة في عالم المحيط الأطلنطي كحافز لاتفاقيات تجارية في شبه جزيرة أسبانيا . فلقد تعززت موانئ البرتغال وشمال قشتالة بالفرص التجارية الجديدة في أوروبا الشمالية ، وفي النهاية أصبحت قشتالة تتحكم في مداخل المحيط الأطلنطي الذي سيطرت نشاطاته على كل حياتها الاقتصادية وتفوقت على النشاطات الإسلامية في البحر المتوسط .

وفي المقابل حدث تغير في الموانئ الجنوبية في الأندلس وغرناطة لتؤكد دورها الجديد كمحطات على الطريق للنقل البحري من جنوب وشمال أوروبا إلى العالم الإسلامي ، إذ اتخذ النصارى من الموانئ الغرناطية قواعد تجارية لهم (٢) .

وقد غيرت الطرق عبر البحر المتوسط اتجاهها لأن البحر أصبح جزءاً من محور التجارة الأوروبي ، ففي القرنين السادس والسابع الهجريين (الحادي عشر الميلادي ، والثاني عشر الميلادي) أصبحت أهم الطرق للتجارة البحرية تعتمد على الساحل الغربي الذي يربط الأندلس بمصر ماراً خلال المحور الفاصل بين تونس وصقلية (٣) .

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في الحديث عن التبادل التجاري بين مملكة غرناطة ودول المغرب والمشرق الإسلامي .

(٢) انظر ابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٣) مثل جزيرة مالطة ، وجزيرة اقريطش وجزيرة اسقرباطة وجزيرة قبرص وجزيرة رودس ، انظر البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

وبحلول القرن السابع الهجري وقيام مملكة غرناطة وقع هذا الطريق الجنوبي فريسة لسوء الاستخدام لمصلحة طرق شمالية ساحلية أخرى متضمنة الطرق على طول الساحل الغرناطي والأرغوني .

وبالتالي استفاد التجار النصارى من جزر البحر المتوسط الواقعة في الأيدي النصرانية (١) ، ونشطت حركة التجارة النصرانية للتجار من جنوة ومرسليا وكتالونيا مع الموانئ الإسلامية وتولوا نقل البضائع بين مالقة وسبتة وبجاية وتونس والإسكندرية وذلك حين ازدادت رغبة التجار الأروغونيين في شراء ونقل البضائع الشرقية من توابل وكارم وفلفل وعطور وبخور (٢) .

وقد بدأت التوابل وسلع شرقية أخرى تسافر مباشرة من الشرق الأدنى لإيطاليا من جنوب فرنسا وكتالونيا في سفن نصرانية ، مع إعادة توجيه النقل في البحر المتوسط في الموانئ النصرانية ومن ثم إعادة توزيع الفلفل والقرفة والزنجبيل وصادرات من المدن الإسلامية لأسواق مدن مملكة غرناطة وقد سجلت الوثائق الجنوية عملية شحن التوابل مباشرة من الإسكندرية إلى شمال أوروبا ومملكة غرناطة (٣) .

ومسايرة لهذه التغيرات والتحولات التي وقعت نتيجة الصراعات على طرق التجارة في البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي انقسمت المدن الأسبانية والموانئ إلى أربع مجموعات رئيسة وهي طرق مملكة غرناطة وطرق قشتالة الشمالية، والبرتغال ومملكة أرغون ، وبالرغم

---

(١) مثل جزيرة مالطة ، وجزيرة اقريطش وجزيرة اسقرباطة وجزيرة رودس وقبرص وقد لاحظ ذلك السفير الغرناطي سنة ٨٤٤هـ، انظر سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة ، ص٩٨ ، ٩٩ .

(٢) انظر حياة ناصر الحجي : العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ، ط١ الكويت ١٩٨٠م ، ص ٣٤٩ .

(3) J. H. Prgor Business Contratracts of medieval provence, selectecl Notulue from the cartulary of Grade Amatricof marsilles To rout (1981), p. 77 .

من أن التجارة والشحن النصراني قد تحكم في هذه المناطق الأربع ، فكل منها له اهتماماته التجارية الخاصة ولكل منها كذلك حدوده السكانية والجغرافية ، وهذا على العكس مما كان عليه الحال قبل قيام مملكة غرناطة عندما تركزت إدارة الموانئ الأندلسية كلها تحت النظام السياسي الواحد الذي كان يجمع في عصري المرابطين والموحدين بين المغرب والأندلس (١) ، وحين كان الموحدون وسطاء للتجارة بين المشرق الإسلامي والمغرب لم يكن التجار الأجانب بالقوة والكثرة التي أصبحت لهم في عصر مملكة غرناطة بعد أن سيطر النصارى على حركة النقل البحري .

ولسيطرة النصارى على مدينة إشبيلية أثره الكبير على التجارة وطرقاتها في مملكة غرناطة إذ أصبحت مدينة إشبيلية ذات التأريخ الإسلامي العريق وذات الاقتصاد الإسلامي الشهير في الأسواق الإسلامية في المشرق والمغرب جزءاً من الشبكة التجارية البحرية النصرانية الكبيرة التي تربط بين الموانئ الأسبانية وتونس والإسكندرية ، مما مكن الأساطيل النصرانية من السفر ذهاباً وإياباً خلال المضايق في أمان نسبي بسبب سيطرتهم على إشبيلية والخط الساحلي غرب مضيق جبل طارق (٢) .

بالإضافة إلى محاولة النصارى الاستيلاء على الموانئ الإسلامية في شمال إفريقيا مثل مهاجمة طرابلس وسلا وسبتة وهنين وجربة والمهدية وغيرها .

ونتيجة لذلك أصبحت الموانئ الغرناطية الطرف الجنوبي لنظام التجارة الأوروبي ، وقد تكثف تواجد التجار الأجانب في الموانئ الغرناطية مستخدمين إياها كمواقع للبيع (٣) وطلب

---

(١) حسن : علي حسن ، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين ط الأولى ١٩٨٠م ، مكتبة الخانجي القاهرة ، ص ٢٦٦ .

(٢) وهذا يفسر محاولة بني نصر وبني مرين انتزاع المضيق من النصارى وخوض معارك عدة مع النصارى تبادلوا خلالها في فترات من الزمن مع النصارى الاستيلاء على المضيق ، .

(٣) انظر ابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

البضائع على الطريق ، وكان التجار القطالونيون المتجهون تجاه المغرب يتوقفون في موانئ على طول الساحل الغرناطي ليشتروا زيت الزيتون والفواكه المجففه [١] وهم في طريقهم إلى المدن الإسلامية في بر العدوة أو المشرق الإسلامي .
ولمواجهة هذا الواقع الجديد تم توجيه اقتصاد غرناطة إلى تجارة التصدير والقيام بعملية نقل الشحنات التجارية ومسايرة تحكم التجار الأجانب في التجارة وبالذات تجار جنوة وذلك بأقل قدر من الخسائر وبمرونة تكفل تسيير تجارة غرناطة البحرية لدرجة ان التاجر المصري أو الغرناطي كان يصل إلى غرناطة عن طريق مملكة أرغون [٢] . وبالتالي أصبحت غرناطة طرفاً متلقياً ووضحت الحالة الاقتصادية الجديدة لمملكة غرناطة .

وقد شكلت الهيمنة الاقتصادية النصرانية واقعاً جديداً دفع إلى أنماط متغيرة في طرق التجارة وبخاصة الأهمية التي ظهرت للنقل خلال مضيق جبل طارق والتي تأثرت بها باقي المدن الغرناطية مثل مالقة والمرية فكانت المرية في يوم ما ميناء الأندلس الأول ، لكن ميناء مالقة أخذ مع التطور الذي ألمعت إليه بزمام المبادرة بحلول القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) وقد وصف المؤرخ النصري ابن الخطيب مالقة بأنها قبلة التجار [٣] .
واستمرت مالقة قاعدة للسفن التي تستعد للإبحار تجاه الغرب من خلال المضيق أو الاتجاه إلى الموانئ في الشمال الإفريقي مباشرة وبقيت نقطة توقف للسفن العائدة وتظهر أهمية ضخامة وجود التجار الأجانب فيها من خلال وجودهم الكثيف في مجتمع هذه المدينة المسلمة ذلك المجتمع الذي كفل لهم كل أنواع الأمن والتسامح الإسلامي والتيسير [٤] .

ولئن كنت قد تحدثت فيما سبق عن المتغيرات الجديدة التي طرأت على طرق

---

(١) انظر ما نشر من رحلة عبدالباسط في : . AL-Andlus Revista , Vol ,1, p 313

(٢) انظر :
Documentos Arabes Diplomaticos Archivo del Corona Argon , p1 , No 5 .

(٣) مشاهداته ، ص ٥٩ .

(٤) انظر الوثيقة في الملحق رقم (١١) .

التجارة في عصر مملكة غرناطة ، فهذا لا يمنع أنه كان هناك العديد من السفن النصرانية تسير في تلك الطرق إذ ركب البلوي مركباً غرناطياً من صنع دار الصناعة الغرناطية والمركب الذي ركبه البلوي عبارة عن قرقورة أبحرت به من شواطئ المرية إلى هنين (١) .

كما ركب القلصادي مركباً من المنكب أبحر به إلى وهران (٢) ، وكان سير السفن الإسلامية النصرية في هذا الطريق يعرضها لمخاطر كثيرة منها الغرق وعوامل معاكسة الرياح بالإضافة إلى القرصنة النصرانية المستمرة في البحر ، وغالباً ما يتوقف المسافر من مملكة غرناطة في السواحل المغربية في طريقهم إلى المشرق الإسلامي ، ويسلكوا طريقاً برياً في بعض الأحيان خوفاً من القرصنة الغرناطية وأهوال البحر ، فإذا ما سلك المسافرون الغرناطيون الطريق الداخلي داخل شمال إفريقيا أو انضموا إلى ركب الحاج المغربي والذي غالباً ما يسير في الطريق البري من شمال إفريقيا إلى مصر ، فقد كان عليهم أن يسيروا في خط بري يمتد عبر الصحراء بدءاً من المغرب الأقصى مروراً بالأوسط ثم تونس وطرابلس ومصر ، ومع ذلك فإن التجار والحجاج والمسافرين يتعرضون في الطريق البري إلى عمليات سطو ونهب من البدو في هذه المناطق (٣) ، بالإضافة إلى سوء المعاملة من قبل موظفي بعض البلدان الإسلامية في المشرق ، ويتحدث ابن سعيد عما يلقاه التجار والحجاج أثناء وصولهم إلى ميناء الاسكندرية لا سيما القادمين منهم عن طريق البحر فيقول : ((وسائر الفقراء لا يتعرضون إليهم بالقبض للإسطول إلا المغاربة وذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة البحر وقد عم ذلك من يعرف منهم معاناة البحر ومن لا يعرف وهم في القدوم عليها بين حالين إن

---

(١) انظر البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٢) القلصادي : رحلة القلصادي ، ص ٩٥ .ومن الجدير بالذكر أنني قد أوضحت في أثناء حديثي عن العلاقات العلمية والاجتماعية قيام رحلات بحرية عديدة أقلت العديد من أبناء مملكة غرناطة والدول الإسلامية مما لا يستوجب الحديث عنها ثانية .

(٣) انظر البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ١٥٢ .

كان المغربي غنياً طولب بالزكاة وضيقت عليه السعاة وإن كان مجرداً فقيراً حمل إلى السجن حتى يحين وقت الأسطول)) [(١)] ، فيُعيدونه قهراً إلى بلاده عن طريق سفن نصرانية غالباً ما يتكفل أهلها بالقضاء عليه أما إلقاء في البحر أو بيعا كرقيق في قبرص ، وقد كانت المسافات معروفة بين المدن الأندلسية والمدن الساحلية المغربية فيقابل مدينة مالقة من الضفة الأخرى بادس وبينهما عرض البحر مجرى يوم بالريح الطيبة المعتدلة [(٢)] .

وكذلك المرية يوازيها في الضفة الأخرى هنين وعرض البحر بينهما مجريان [(٣)] ، ومدينة دانية يقابلها من العدوة الأخرى مدينة تتس وبينهما ثلاث مجار [(٤)] وأما جزيرة يابسة فأقرب الأندلس إليها مدينة دانية وبينهما مجرى [(٥)] .

وهذا التتبع من الإدريسي يدل على عمق ذاكرته الجغرافية وعلى أن حركة السفن كانت تمشي وفق خطة معروفة تقوم على أساسها بتوفير ما تحتاج إليه من تموينات غذائية لركاب السفن وإصلاحات هندسية للسفن المقلة للركاب وتفريغ بضائع وشحن أخرى ، وهذه المسافات كانت معروفة لدى التجار وربان السفن ، فقد سلكتها السفن الغرناطية .

كما أن الطريق البحري ما بين مملكة غرناطة والمغرب الأقصى كان معروفاً ومطروقاً من قبل عدد من وزراء وسلاطين بني مرين سبقت الإشارة إلى إقلاعهم من شواطئ بلادهم في الفصل الأول من الرسالة بالإضافة إلى الجنود الذين كانوا يعبرون البحر برسم الجهاد وكذلك المغادرون من عامة الشعب الغرناطي والمريني والزياني والحفصي بسطت القول فيها أثناء حديثي عن الرحلات العلمية والعلاقات الاجتماعية في الفصلين الثاني والرابع من الرسالة .

---

(١) المقري : نفح الطيب : جـ ٢ ص ٣٤٨ نقلاً عن ابن سعيد .

(٢) الإدريسي : نزهة المشتاق ، جـ ٢ ص ٥٨١ ، ٥٨٢ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

وثمة طريق بحري كانت تسلكه السفن بحيث لا تصل فيه مباشرة إلى الاسكندرية بل تتجه مباشرة إلى شواطي بلاد الشام عن طريق جزيرة كريت متجهة إلى ساحل عكا وإلى بقية المواني الشامية (١) .

وتتراوح عوامل خطورة الطرق المذكورة من عوامل طبيعية وعوامل بشرية منها تقصير المسلمين في حماية الشواطئ وفي إعداد سفن تكون متأهبة للردع والانتقام ، بيد أن أخطر العوامل هي قرصنة الفرنجة التي كانت لا تفرق بين مسلم غرناطي ولا مغربي ولا مشرقي وترى استباحة دماء المسلمين جميعاً وسرقتهم وتدمير ما يمكن تدميره من أمتعتهم وسفنهم وشواطئهم متوغلين في مرات عديدة إلى داخل البلاد الإسلامية ويقتلون كل من يلاقونه في طريقهم (٢) .

من ناحية أخرى نجد العوامل الطبيعية والتقصير البشري بعد إرادة ا الله تكمن في تلك السفن التي كانت تغرق في الشواطئ الإسلامية نفسها ، فمثلاً السفينة التي كانت تقل أسرة العلامة المؤرخ ابن خلدون غرقت في ميناء الإسكندرية ومات فيها بناته الخمس ونجا ولداه محمد وعلي (٣) .

وقد غرقت سفينة حجاج غرناطيين ومغاربة بأحواز الإسكندرية وأورد عنها الونشريسي نبذة فيما يتصل ببعض الأحكام الفقهية التي سئل عنها الأستاذ أبو سعيد بن لب (٤) .

كما أن العسقلاني ـ ذكر في ترجمته لمحمد بن محمد بن عبدا الله بن مقاتل أبي بكر المالقي أنه

---

(١) علي أحمد : الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ، ص ١٢٠ .

(٢) انظر ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ص ٦٦٩ حيث يذكر أن القراصنة النصارى هاجموا شواطئ مالقة وقد توغلوا داخل الأراضي الغرناطية وقتلوا رجلاً من الصيادين يحمل على عاتقه زنبيل مملوء بالأسماك ظلماً وعدواناً . ولمعرفة المزيد من الأمثلة على ذلك ، انظر العلاقات التجارية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية في هذه الرسالة .

(٣) ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ١٦٣ .

(٤) المعيار ، جـ ٤ ص ٤٩٠ ـ ٤٩١ .

كان نابغة بلده وكان أديباً بليغاً رحل إلى المشرق فغرق هو وجماعة معه وذلك في نحو سنة ٧٥٨هـ [١] / ١٣٥٤م .

وقد ذاع عدم أمان الطرق البحرية لدرجة أنها أصبحت ظاهرة مخيفة فكان الخارج إليها مفقودا والعائد منها مولودا سواء كانت رحلات حج أو تجارة أو استكشاف .

ولقد لعبت جزيرة قبرص دوراً خطيراً في ترويع السفن الإسلامية والهجوم على الموانئ الإسلامية بل إنها أُعتبرتْ زعيمة المشروعات الصليبية العدوانية بحكم طبيعة موقعها الجغرافي بين شواطئ المسلمين في مصر والشام وآسيا الصغرى [٢] .

وتعتبر رحلة البلوي صورة أخرى من صور المعاناة التي عاناها العلماء والحجاج في رحلاتهم وهي تقدم ملامح أخرى تضاف إلى الصورة التي نقلها العسقلاني وابن بطوطة [٣] . فقد تعرض البلوي وأخوه لغدر صاحب السفينة النصرانية حين تركهما ينزلان إلى الأرض ومن كان بصحبتهما على ظهر السفينة فأقلع بسفينته هارباً بأمتعتهم تاركاً المسافرين الغرناطيين والمغاربة في العراء [٤] ، مما اضطر البلوي وأخيه أن يقطعا الطريق مشياً من طرابلس فبرقة عائدين إلى الإسكندرية ووصف البلوي معاناته وخطورة ذلك الطريق في رحلته [٥] مفضلين السفر بالبحر من الإسكندرية مرة أخرى على أن لا يتوغلوا في الطريق الصحراوي ثم يبحرون بعد ذلك إلى شواطئ غرناطة ، وقد شاع في غرناطة أن الطريق البري مخيف [٦] نظراً لخروج أبناء الصحراء في إفريقيا عن تعاليم الدين الإسلامي وإفسادهم في الأرض .

---

(١) الدرر الكامنة ، جـ ٤ ، ص ١٩٣ .
(٢) السيد عبدالعزيز سالم ، العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ص ٣٠٣ .
(٣) لقد سبق ذكر ذلك في الصفحة السابقة .
(٤) البلوي : تاج المفرق ، جـ ٢ ، ص ٢٩ .
(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٠ ، ٣١ .
(٦) انظر الونشريسي : المعيار ، جـ ١ ص ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

وفي مواجهة هذا الوضع وأمام ضعف مملكة غرناطة عن السيطرة على حركة السفن والبحار ، حاولت دولة بني مرين القيام بجهد في سبيل تأمين طرق المواصلات البرية في بلادها بعد أن تفاقمت الأمور وأصبح السفر بحراً وبراً - بالنسبة للمسلمين بخاصة - رحلة عذاب ومغامرة غير مأمونة العواقب ، فأمر السلطان أبو الحسن المريني بإحداث تنظيمات جديدة على طول الطرق الرابطة بين فاس إلى مراكش وإلى تلمسان وإلى سبتة ، وأمر بأن يضرب على مقدار كل اثني عشر ميلاً خياماً يسكنها أهل الناحية المعنية بالأمر ويكلفون بحراسة المسافرين وحياطة أمتعتهم وبيع ما يحتاجون إليه من التموين لهم ولدوابهم ، وفي حال ما إذا ضاع منهم شيء فإنهم يضمونه ، وحتى تكون هذه التنظيمات دائمة أقطع السلطان أبو الحسن لسكان هذه الخيام بكل ناحية أرضاً ينتفعون بها مكافأة لهم على سكنى المواضع المذكوره [(١)] .

كما أنشأ السلطان أبو الحسن المحارس والمناظر البحرية التي تضيء بالنيران وفي كل محرس منها رجال مرتبون ، نظار وطلاع يكشفون البحر فلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين إلا وتعطي الإشارة النارية تحذيراً لأهل كل ساحل معني بالأمر [(٢)] . كما أنشأ الأبراج البحرية فجاءت على أتم الوجوه من الإحسان [(٣)] منها برج الماء الذي أنشأه وسط الأمواج وبرج يسول من ساحل سبتة وغيرها من الأبراج [(٤)] .

وقد نجح هذا الاصلاح في تأمين الطرق البرية والبحرية إلى حد ما ، ولكن تلك الإصلاحات تعرضت بين الحين والآخر للاهمال والتدهور إما بسبب ضعف الدولة المرينية

---

(١) انظر المسند الصحيح الحسن ، ص ٤٢٩ ، وانظر : محمد المنوني : ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين ص ٦٧ .

(٢) انظر ابن مرزوق : المسند الحسن ، ص ٣٩٨ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) نفس المصدر ص ٣٩٩ .

أو الحروب التي كانت تنشب بين دول المغرب أو القبائل الصحراوية التي تغير على السواحل والمدن الداخلية .

ومن رحلة البلوي والقلصادي والمجاري يتبين لي أن أكثر الطريق ملاءمة لأهالي مملكة غرناطة في الوصول إلى المشرق الإسلامي كالتالي : المرية ، هنين ، الجزائر ، بجاية ، قسنطينة ، بلد العناب ، تونس ، إقريطش ، قبرص ، الإسكندرية ، القاهرة ، غزة ، مدينة الخليل ، الكرك ، تبوك ، المدينة المنورة ، مكة المكرمة ثم مكة المكرمة ، رابغ ، المدينة ، ينبع ، عقبة إيليا ، القاهرة ، الإسكندرية ، برقة ، طرابلس ، جربة ، تونس ، وهران ، المرية [1] . وبطبيعة الحال ليست هذه المحطات إلزامية لكل من كان يسافر من غرناطة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة مهبطي الوحي المنزل على نبي الإسلام المرسل محمد ﷺ .

---

(١) انظر الخرائط الموضحة للطرق التجارية وطريق الحج من غرناطة إلى مكة المكرمة في الملحق رقم : (١٢) .

ـ التبادل التجاري مع المغرب :

في البداية لا بد من الإشارة إلى قلة المعلومات الموجودة في المصادر الإسلامية والأسباب التي أدت إلى ضعف التجارة بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية ، إذ اكتفت المصادر بذكر منتوجات كل بلد من البلدان ولكن لا توجد أي إشارة صراحة إلى أي سلعة نُقلتْ من مملكة غرناطة إلى الشمال الإفريقي أو من الشمال الإفريقي أو المشرق إلى داخل مملكة غرناطة اللهم إلا الشيء اليسير من ذلك تمكنت من رصده ، ولعل هذا يرجع إلى أسباب عدة منها :

أولاً : سيطرة النصارى في عصر مملكة غرناطة على الحركة التجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط .

ثانياً : المتغيرات التي حدثت في طرق التجارة البحرية والتي سبق شرحها .

ثالثاً : الامتيازات التي منحتها مملكة غرناطة للتجار النصارى مما سهل لهم إمكانية أن يقوموا بدور الوسيط ما بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية والأوروبية سواء في وسائل النقل أم في عملية التبادل التجاري .

رابعاً : القرصنة النصرانية المستمرة في حوض البحر الأبيض المتوسط ومهاجمتها للسفن الغرناطية ونظيراتها من السفن الإسلامية الأخرى .

تلك العوامل اضطرتني إلى البحث عن الوثائق والمعاهدات التجارية في الأرشيف النصراني لملكة قشتالة وأرغون لعلي أهتدي إلى ما يدلني على قيام رحلات تجارية حملت سلعًا تجارية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية ، فكان أن عثرت على وثائق سياسية تجارية تضمنت معلومات قيمة عن التجارة الخارجية لمملكة غرناطة مع الدول الإسلامية مغرباً ومشرقاً مما ساعدني على إلقاء الضوء على التبادل التجاري بين مملكة غرناطة ودول المغرب . وتعد العدوة المغربية المتنفس المباشر لمملكة غرناطة ، فإذا كان حكام غرناطة قد أدركوا أن ارتباطهم ببني مرين وغيرهم من دول المغرب سياسياً وعسكرياً يمثل ضرورة مصيرية فإن

النواحي الحضارية اقتصاداً واجتماعاً لا تنفصل عن النواحي السياسية والعسكرية بل هي ضرورة لها ولا سيما أن الشمال النصراني كان من وسائله في القضاء على مملكة غرناطة السيطرة على البحار وطرق النقل وتخريب القرى والمدن الساحلية والداخلية وقتل الاقتصاد الغرناطي .

فلم يكن أمام مملكة غرناطة إلا أن تتجه إلى إخوتها في العقيدة وشركائها في الحضارة فكان المغرب أكبر جار وأكبر شريك ، فكان التضامن مع بني مرين من أجل جعل مضيق جبل طارق مضيقاً إسلامياً يسهل من خلاله التواصل العسكري والاجتماعي والاقتصادي .

ومن هنا كانت بلاد المغرب على اختلافها سوقاً للتجارة الغرناطية وكانت حركة السفن والعبور بين العدوتين مستمرة لا تهدأ إما بالتعامل مع بلاد المغرب مباشرة ، وإما عبوراً منها إلى بلاد المشرق في كلا الحالين كانت بلاد المغرب أقرب البلاد في التعامل .

وقد استطاعت مملكة غرناطة توثيق علاقاتها الاقتصادية بالبلاد المغربية وأن تقيم شبكة من التعامل التجاري الخارجية بواسطة هذه العلاقة سواء في التعامل المباشر كما ذكرت في جعل التجار النصارى أو المغاربة وسطاء حين يكون السفر الطويل خطيراً أو مستحيلاً وحين تكون إمكانات التجار الغرناطيين تسمح بتحمل المخاطر البحرية الكثيرة التي يواجهها من يسافرون إلى مصر والشام والحجاز . ونظراً لحدة الصراع والعداء مع النصارى فقد منح بنو نصر التجار النصارى ولا سيما التجار من جنوة وأرغون امتيازات تجارية داخل مملكة غرناطة ، والمصلحة التي رآها بنو نصر من وراء ذلك أوجزها في الآتي :

أولاً : لأن الحرب كانت مستمرة ما بين مسلمي مملكة غرناطة والنصارى المحيطين بهم فقد كانت هناك خروقات لوقف الحرب ومعاهدات السلم وشن هجمات مستمرة على الحدود بين الطرفين . ونظراً لحالة الحرب فقد كانت هناك قطيعة بين الطرفين فكان هؤلاء التجار يقومون بدور الوسطاء لصالح الطرفين بل ويعملون في أوقات كثيرة على تهدئة الأوضاع ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة .

ثانياً : كان لا بد من الاحتكاك الاقتصادي التجاري نظراً للجوار بين الطرفين ومن ثم كانت كثيراً ما تعقد المعاهدات التجارية وتجديد سريان مفعولها أو الاحتجاج على خرقها وكان هذا الخرق كثيراً ما ياتي من طرف النصارى كما أثبتت الوثائق ذلك .

ثالثاً : كان كثيراً ما يقوم هؤلاء التجار وذوو الوجاهة منهم بدور الفكاكين الذين يعملون على فك الأسارى من كلا الطرفين أو يقومون بدور السفراء في الأوقات التي تكون فيها القطيعة قائمة بين الطرفين .

رابعاً : ساعدت الاتفاقيات التجارية التي عقدت ما بين الدول الإسلامية في شمال إفريقيا وفي مصر على عقد بني نصر اتفاقيات تجارية مما ثلة مع النصارى .

خامساً : سماحة الدين الإسلامي الذي من تعاليمه منع الاعتداء على المعاهد أو الذي يحمل أماناً من الحاكم المسلم ، مما كفل للمجتمع النصراني الذي يعيش بين الأغلبية المسلمة في العيش بحرية وأمن واطمئنان .

ولقد بدأ منح النصارى تسهيلات تجارية في مملكة غرناطة منذ زمن مبكر من قيامها وذلك منذ عهد السلطان النصري محمد الثاني الذي عقد معاهدة سياسية ومعاهدة تجارية مع الملك الأرغوني خايمي الثاني جاء فيها : ((وعليكم أيها السلطان المعظم أن تحرزوا لنا هذا الصلح المذكور بطول حياتنا وحياتكم ولا تفسدوه علينا ولا تجعلوا من يفسده ولا تحتملوا فيه لأحد أن يعمل لنا فساداً في أرضنا ولا في رعيتنا ولا في أموالهم ولا في تجارتهم لا في البر ولا في البحر وأن لا تعينوا علينا عدواً يضرنا لا في البر ولا في البحر بوجه من الوجوه وكذلك ننعم لكم أيها السلطان المعظم ذون جيمش أن يدخل ناسكم وتجاركم واهل أرضكم إلى أرضنا ورئاستنا كلها على البر والبحر للبيع والشراء وسوق كل شيء وحمله دون اعتراض عليهم في أجسامهم ولا في أموالهم ولا في تجارتهم ولا في كل ما يخرجونه من أرضنا بوجه من الوجوه وعلى أن يعرفوا الحقوق الواجبة عليهم في كل ما يسوقونه إليها ويحملون منها على حسب ما جرت به العادة في الدواوين وكذلك أنعمنا لهم

بفنادقهم وأن يقدموا قمصولاً في كل موضع ديوان ويمشي لهم عوايدهم كلها ولا يحدث عليهم شيء خلاف ما جرت به العادة وعليكم أيها السلطان المعظم ذون جيمش أن تنعموا لنا بمثل ذلك ....)) (١) .

ومنذ ذلك الحين ازداد النشاط التجاري النصراني في مملكة غرناطة وأصبح لهم مراكز تجارية في مالقة والمرية والمنكب وغرناطة ، ويقدم ابن الخطيب وصفاً لمدى وجود النصارى في مملكة غرناطة لا سيما في مدينة المرية التي زارها السلطان أبو الحجاج يوسف الأول إذ خرج المواطنون بمدينة المرية لاستقبال السلطان النصري والترحيب به واظهار مشاعر الولاء لولي الأمر (٢) فكانت الجالية النصرانية التجارية قد أظهرت الفرحة ومشاركة الأهالي احتفالهم بقدوم السلطان النصري أبي الحجاج يوسف الأول ، بل وبلغ بهم الأمر بأن بنوا منصة ومظلة وأروقة على شاطئ البحر أعدت لاستقبال السلطان النصري وللتعبير عن فرحتهم بقدومه (٣) ، وفيمايلي نص ابن الخطيب : ((وتأنق من تجار الروم من استخلص العدل هواه وتساوى سره ونجواه ، في طرق من البر ابتدعوها ، وأبواب من الاحتفاء شرعوها ، فرفعوا فوق الركاب المولوي على عمد الساج مظلة من الديباج ، كانت على قمر العليا غمامة ، وعلى زهر المجد كمامة ، فراقتنا بحسن المعاني ... إلى غير ذلك من أروقة عقدوها وكرامة أعدوها)) (٤) .

كما لعب قادة الأسطول النصري دوراً هاماً على شاطئ البحر إذ برزوا في أحسن صورة بين أيديهم الطبول والأبواق تروع أصواتها وتهول (٥) ، وقدموا استعراضاً للقطع البحرية والأسطول النصري ووصف ذلك ابن الخطيب بقوله : ((وطلعت في سماء البحر

---

(١) انظر : Archivo De la Corona De Aragona , p. I

(٢) مشاهداته ، ص ٣٤ ، ٤٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٣ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٤٤ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٤٣ .

أهلة الشواني [١] ، كأنها حجب الغواني ، حالكة الأديم ، متسربلة بالليل البهيم ، فتزاحم وفودها على الشط كما تدخل النونات في الخط)) [٢] .

هذا وقد توالى تجديد تلك المعاهدات والاتفاقات التجارية طول عصر مملكة غرناطة ولما كانت الأنظمة التجارية الغرناطية تقتضي أن يمنع التجار من الاقامة إلا مع وكيل أو شخص مرتبط بالعمل التجاري خاصة النصارى وبالتالي تطورت الخدمات في المدن الساحلية ونشطت من خلالها التجارة الخارجية واقتضت الاقامة العابرة للتجار من البلدان الإسلامية وغيرها إقامة فنادق في المدن الساحلية والمدن الداخلية ومعظم الفنادق الغرناطية بصفة عامة كانت من الحجم المتواضع تقريباً تتألف من طابق أو طابقين ارتفاعاً ، وتصميم طابق بسيط للغرف الصغيرة حول الحوش المركزي .

ويمكن أن يمكث التجار في حجرات فوق مبنى بضائعهم وأما حيواناتهم أو بضائعهم فكانت توضع في حجرات وفناء في الدور الأول ، وما زال أحد الفنادق الغرناطية قائماً على حاله تلك إلى يومنا هذا ، وقد دخلت هذا الفندق وتجولت بداخل غرفه [٣] وهو يسمى اليوم Cusadel Carbon دار الفحم [٤] ويتسع على الأقل لخمسين تاجراً يمكنهم السكن في هذا الفندق .

والفنادق في المدن الساحلية على غرار كل الفنادق الغرناطية وهذا ما يفسره قول المقري بأن مدينة المرية بها ألف فندق [٥] ، وكان لوجود الفنادق في مملكة غرناطة أثراً هاماً في نمو

---

(١) الشواني : هي السفينة الحربية الكبيرة ، وكانت من أهم القطع الكبيرة التي يتكون منها الأسطول في الدول الإسلامية (انظر النخيلي ، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، ص ٨٣) .

(٢) ابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٤٤ .

(٣) انظر الصورة في الملحق رقم : (١٣) .

(٤) فرحات : غرناطة في ظل بني الأحمر ، ص ٢١٥ .

(٥) نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٦٣ .

التجارة الداخلية والخارجية مع البلدان الإسلامية خاصة مع بر العدوة إذ يجد التاجر المغربي (الشمال الإفريقي) المأوى الملائم لنزوله ومغادرته إلى الشاطئ الآخر بسهولة ويُسر ، وكذا كان الحال أيضاً على الضفة المقابلة بالنسبة للتجار الغرناطيين .

وكثيراً ما لجأ الغرناطيون إلى استئجار السفن من النصارى تحقيقاً لشيء من الأمن نظراً لنشاط القرصنة النصرانية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وكان عقد التأجير يفرض لقائد السفينة المستأجرة حقوقاً مختلفة ومسئوليات تبعاً لوجهة ونوع الطريق المتبع (١) . سواء كانت تلك السفينة إسلامية أو مستأجرة من النصارى ، وعليه حقوق وواجبات تجاه الركاب الذين تقلهم سفينته أو مركبته . وقد اختلفت أهمية بعض الموانئ على مر العصور وذلك تبعاً للأحوال والحكومات السياسية .

ولكن شواطئ المغرب كانت أكثر انفتاحاً على شواطئ الأندلس في العهد الغرناطي ، وذلك للصلات الودية الحميمة بين الدولة المرينية والزيانية والحفصية وبين مملكة غرناطة ، فكان التبادل التجاري قائماً بين تلك البلدان ونتيجة لذلك فإن مملكة غرناطة كانت تعتمد اعتماداً كلياً على الحنطة المجلوبة من بر العدوة (٢) . وبما أن القمح سلعة استراتيجية تقوم عليها حياة الشعوب فقد كان معرضاً للشد والجذب بين غرناطة وخصومها ، فبينما حرصت غرناطة على توفير القمح وحماية انتاجه وتأمين طرق استيراده من شواطئ المغرب ، في الوقت نفسه حرص أعداؤها على فرض الحصار الاقتصادي عليها في القمح بخاصة كما عملوا على مهاجمة طرق استيراده من مصادر انتاجه المرينية والتي كانت أبرزها منطقة أنفا المغربية والتي كانت مملكة غرناطة تستورد القمح منها ، فقد كان قراصنة النصارى يتربصون بالسفن المتجهة إلى شواطئ غرناطة من المغرب الأقصى أو الأوسط أو الأدنى الحاملة للقمح أو أي سلعة أخرى وينقضون عليها ، وبالتالي استطعت التعرف على عدة رحلات بحرية تجارية ما بين مملكة غرناطة وبلدان المغرب في شمال إفريقيا .

---

(١) انظر الونشريسي : المعيار ، جـ ٨ ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٢) العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٦٠ .

فعلى ضوء خطاب الاحتجاج من السلطان النصري يوسف الأول في العاشر من شهر شعبان سنة ٧٤٥هـ /١٣٤٤م استأجر مجموعة من تجار مالقة سفينة (جفناً) من النصراني [بون ناط شك] من أهل مدينة بلنسية وذلك في شهر ربيع الأول من عام التأريخ المذكور ، وقد اشترطوا على صاحب السفينة النصرانية أن يوصل بضاعتهم من القمح من أنفا إلى مالقة ضمن مجموعة من التجار المغاربة الذين يبحرون على نفس السفينة وكان عدد التجار النصريين من مالقة خمسة اشتروا من مدينة أنفا كميات من القمح (١) ، وأقلعت بهم السفينة المذكورة من ميناء أنفا تجاه شواطئ مملكة غرناطة متجهة إلى ميناء مالقة ؛ إلا أن هذه السفينة قبيل أن تصل إلى ميناء مالقة اعتدت عليها ثلاث سفن نصرانية من برشلونة وتمكنت من الاستيلاء على السفينة المذكورة بمن فيها من التجار النصريين والمغاربة وما تحمله من بضائع (٢) .

وإذا علمنا أن هذه السفينة التي كانت تحمل القمح مستأجرة من النصارى أدركنا أن هناك غارة شرسة على القمح من جانب النصارى وعلى سائر التجارة النصرية والمغربية بصفة عامة ، فهم لم يحترموا الملكية النصرانية للسفينة ، وربما كان هناك نوع من التآمر بين أصحاب السفينة وإخوانهم المهاجمين ؟!! .

ونظراً لخطورة مادة القمح وحاجة كل الشعوب إليها كانت حكومة بني مرين المتضامنة مع حكومة غرناطة في مواجهة الحصار الاقتصادي النصراني تعمل على إرخاص أسعار القمح أو ثباتها على الأقل مع أن هذا ليس في مصلحتها التجارية لكنه في مصلحتها الإسلامية العُليا فضلاً عن أن ذلك يعد دعماً لمملكة غرناطة في مواجهة الظروف الصعبة للحصار الاقتصادي النصراني المفروض على المدن النصرية ، يقول ابن مرزوق :
((أن السلطان أبو الحسن أمر بأن يُباع لأهل الجزيرة الزرع الذي اختزنه فيها بطول مدة

---

(١) انظر نص الوثيقة في الملحق رقم :(١٤) .
(٢) انظر نفس الملحق .

الحصر بسعره قبل أن تحصر ، حتى لا يكابدوا غلاءه بطول حصرها)) [١] .

وقد أوضحت الرسالة الموجهة من السلطان النصري إلى الملك الأرغوني مجموع ما سرقته السفن النصرانية من القمح اغتصاباً منها للسفن الإسلامية ولأصحابها التجار ، فعلي بن إبراهيم بن قاسم من أهل مالقة أخذ له من ذلك الطعام قفيزان من أقفزة أنفا كل قفيز منهما مائة قدح وواحد وعشرون قدحاً من أقداح الأندلس . وقاسم بن عبدا لله السقا من أهل مالقة أخذ له في ذلك الطعام ستماية واحد عشر قدحاً من القمح .
وموسى بن محمد الكواب من أهل مالقة أخذ له من ذلك الطعام ثلاثمائة قدح وأحد وستون قدحاً من القمح ، ومحمد بن محمد الغرطشي أخذ له من ذلك القمح ثلاثمائة قدح وأربعة وخمسون قدحاً ..... وهكذا [٢] .

وفي رسالة احتجاج من السلطان يوسف الأول ملك غرناطة إلى ملك مملكة أرغون مؤرخة في الأول من شهر شعبان ٧٤٥هـ الموافق ٧ ديسمبر ١٣٣٤م أن جفناً غادر مدينة مالقة وبه بعض تجار مملكة غرناطة والتجار المغاربة ، وكان هذا الجفن في طريقه إلى العدوة وكان على رأس هؤلاء التجار المبحرين في هذا الجفن التاجر محمد السنادي ومحمد السواحي من رعايا بني نصر ، وكانت هذه السفينة محملة بشحنة من التين والزبيب بالإضافة إلى عدد من الخزف المالقي [٣] ، وكانت هذه السفينة أو الجفن في طريقها إلى مدينة سبتة ويملك هذه السفينة النصراني أنطونيو جانوفي ، ولكن قبل وصول هذه السفينة إلى

---

(١) ابن مرزوق : المسند ، ص ٣٩٥ .

(٢) انظر الوثيقة في الملحق رقم : (١٥)

(٣) انظر الوثيقة التي نشرها باللغة الأسبانية : Manuel Sanches Martines
Comercio nazriy pirateria Catalona - aragones (1344 - 1345)

Relacionesde LapeninsuLa iBe Rica coneLmagreb (Siglos XIIIXVI) .
Institou Hispano - Prabf de Cultura , Madrid , 1988 , p. 82 .

وجهتها تعرضت لهجوم من شيطي [1] نصراني بالقرب من أسطبونة بقيادة القرصان البلنسي " جبل باو " واستولوا على الجفن المذكور بما فيه من التجار والبضائع الغرناطية المتجهة إلى مدينة سبتة [2] .

وهناك رحلة تجارية أخرى لمجموعة من تجار مملكة غرناطة من أهالي مدينة غرناطة والمرية ومالقة أبحرت من شواطئ المغرب في السفينةالنصرانية (برانكيل لادون) [3] ، وكان على متن هذه السفينة كم هائل من الأموال والبضائع في طريقها إلى مدينة المرية ، وعندما كانت على مقربة من ميناء المرية تعرضت لنوء بحري مما عرض السفينة لغرق وشيك وتصادف ذلك وجود ثلاث سفن قطالونية نصرانية كانت تجوب المنطقة وسارعت السفن النصرانية الثلاث بالاتجاه إلى السفينة المنكوبة متظاهرة بنجدتها وبعد تفاهم مع التجار الغرناطيين الذي لا زالوا على قيد الحياة في السفينة ولم يتعرضوا للغرق بعد مع قائد السفن النصرانية الثلاث طلب منهم أن يسلموه ما يمتلكون من أموال نقدية وبضائع على متن السفينة وأن ذلك كاجراء وقائي في صالحهم حتى لا تتعرض أموالهم للسلب وأنفسهم للأسر وانقاذ ما يمكن انقاذه فوافق التجار الغرناطيين على ذلك وسلموه جميع ما يمتلكون من نقود وبضائع وأموال وبعد أن تم له ذلك خلص نجياً مع أتباعه ، وبعد ذلك قام وأتباعه بأسر المسلمين وأبحروا بهم إلى السواحل النصرانية [4] وفيمايلي أسماء بعض التجار الذين تعرضوا للأسر والنهب لأموالهم وبضائعهم :

محمد بن حسن الوهراني من أهل المرية أسر وأخذ منه أربعون ديناراً من الذهب .

---

(١) الشيطي : وشيطية : والجمع شياطي ، وشيطات ، نوع من المراكب الحربية الصغيرة التي تمتاز بالخفة والسرعة والتي كانت تستعمل في البحر الأبيض المتوسط . انظر (النخيلي : السفن الإسلامية على حروف المعجم ، ص ٨٢) .

(2) Manule Sanchches Martines co mer cionazrixpirateria catalona - aragones p. 82 .

(3) Op.cit . p, 63 , 64 .

انظر :

(4) Documentos Arabes Diplomaticis Del Archivo de la corona de Argon . p. 105, 106 .

محمد بن سعد المعروف بخريصة ، من اهل المرية ، أسر وأخذ منه خمسة وأربعون ديناراً من الذهب .

الحاج السقا من أهل مالقة أخذ ماله وأسر .

إبراهيم الوادي آشي ، اخذ ماله وأسر .

محمد المريني . أخذ ماله وأسر (١) .

ولم يكن الحال في التجارة مع بقية البلدان المغربية بأفضل مما كانت عليه مع المغرب الأقصى وذلك من حيث تعرض السفن التجارية الغرناطية المستأجرة من النصارى أو المملوكة للغرناطيين من أعمال السلب والنهب من قبل القراصنة النصارى أو السفن النصرانية الحربية التي تجوب البحر المتوسط ، إذ توجه جفنٌ غرناطي من مترايل (متريل) إلى مملكة بني زيان باتجاه مدينة هنين وكان على متن الجفن ثمانية أشخاص من أهالي مملكة غرناطة أحدهم ولد البقيق الحجام من أهالي غرناطة والآخر يُعرف بأحمد الأعرج الدلري من وادي آش والآخر أحمد البحري من المنكب فاعترضهم جفن من أجفان بلنسية بقيادة القرصان برنقير قلفاط واستولى القرصان النصارى على الجفن الغرناطي ومن فيه من التجار وبضائعهم المتجهة إلى هنين (٢) .

وفي شهر أغسطس من عام ١٣٤٤م /٧٤٥هـ هوجمت السفينة تورا Zara الخاصة بأحد رعايا مملكة غرناطة ويدعى القاسم ابن هيلي في مياه باديس وكانت محملة بالقمح والشعير والأغنام والأخشاب ، وقد استولى المفسدون النصارى على السفينة وحمولتها والتي تتكون بالتفصيل من الآتي (١٨) قدحاً من القمح ، (٨) أقداح من الشعير ، (٣٢٠) قطعة من الخشب (٢٠٠) مجدافاً صغيراً (٣٠) مجدافاً كبيراً ، وحوالي (٦٣٦) طناً من القمح ، وثلاثة أطنان من الدقيق واربعة أكياس وبقرة واحدة ، ومن المؤكد أن وجهة السفينة تجاه

---

(١) شبانه : يوسف الأول ، ص ٥٦٥ .

(٢) انظر الوثيقة في الملحق رقم : (١٦) .

المرية بما تحمله من بضائع موطن مالك السفينة (١) ، كما أن السفير الغرناطي ابن كماشة قد قدم بلاغاً إلى الملك الأرغوني وذلك عندما حمل رسالة من السلطان النصري يوسف الأول إلى الملك الأرغوني بدرو الرابع (٢) شرحتها الوثيقة النصرانية التي أوردت تفاصيل عن البضاعة التي كانت تحملها السفينة .

وفي العشرين من فبراير ١٣٤٥م /٧٤٦هـ كتب الملك الأرغوني بدرو الرابع إلى حاكم ميورقة وذلك بناء على رسائل الاحتجاج التي بعث بها السلطان النصري أبو الحجاج يوسف الأول سلطان غرناطة إلى الملك الأرغوني بدرو الرابع والتي شَرَحتْ تفاصيلها رسائل الملك الأرغوني بدرو الرابع إلى حاكم ميورقة والتي من خلالها تبين أن التاجر الغرناطي محمد اللورقي قام بشحن بضاعة في سفينة المايورقي بير يوريلPere Bural في ميناء هنين بما قدره ١٨ قدحاً ونصف من القمح و (٣١) قطعة آنية فخارية مملوءة بالزبد ، ١٤ وزناً من المكرونة و (٤) أجولة من الدقيق و (٥) أجولة من دقيق السميط و (٢) وكمية من الحمص وجوالين من القمح المجروش ، ٢٠ آنية فخارية من القطران ، (٤) عباءات و (٢) قلنسوة من القماش البرشلوني وأربعة مفارش وبطاطين كل هذه البضائع كانت في طريقها من هنين إلى المرية ولكن العواصف أجبرتها على الاتجاه نحو جزيرة ميورقة حيث قام حاكم المدينة بعرض هذه البضائع للبيع دون تفويض من صاحبها (٣) .

ومن خلال رسالة بعث بها بدرو الرابع إلى نائب قائد بلنسيبة وبناء على رسائل الاحتجاج

انظر :

(1) Manuel Sanches Martines Comer Cinazriy Pirateria Catalona - Aragones p. 64 .

(٢) انظر نص الرسالة في شبانه : يوسف الأول ص ٥٧٧ .

(3) Manuel Sanches Martines :Comercio nazari I Pirateria Catalono - Aragonesa (1344 - 1345) p. 65 .

الموجهة من سلطان غرناطة ، كان التاجر الغرناطي عمر القفال من أهالي مدينة غرناطة قام بشحن مركب في جبل طارق بالبضاعة التي بلغت قيمتها ٤٢ ـ ٤٧ مثقالاً من الذهب وذلك للسفر إلى مدينة سبتة ، وأثناء مغادرة المركب المضيق اعترضتها سفينة أو مركب البالنسي بيرنات تيخار واستولى على المركب وما به من بضائع وأسر من بداخله من المسلمين وهم ثلاثة أفراد من طاقم المركب (١) .

كما أن هناك رحلة تجارية خرجت من المرية إذ أقلعت من المرية قرقورة متوجهة إلى العدوة ولكنها تعرضت للغرق وتصادف وجود جفنين حربيين للنصارى فانطلقا إثر السفينة الغرناطية واستولوا على ما بداخلها من البضائع وساقوا التجار الغرناطيين أسرى (٢) .

وكان من بين التجار الغرناطيين الذين كانوا يعملون في التجارة ما بين مملكة غرناطة والمغرب وسقطوا في أسر النصارى بالإضافة إلى ما سبق ذكرهم سعد بن محمد الفخار من أهل المرية .

ومحمد بن عبدا لله بن عمريش الشكاز الترجمان من أهل المرية

وعبدا لله بن أحمد بن خريصة المعروف ببشر بن العكريشي من أهل المرية

وأحمد بن محمد بن عمر من أهل المرية (٣) .

مع العلم أن كل تلك الاعتداءات قد حدثت أيام المعاهدة والصلح وهي خروقات لتلك المعاهدات . وقد كانت الحرب المستمرة مع النصارى عاملاً هاماً في استيراد مملكة غرناطة المزيد من القمح من الدول المسلمة في شمال إفريقيا وذلك لتخزينه وليس بالضرورة للاستهلاك المحلي في حينه تحسباً لغارات النصارى ولسد العجز من المحصول المحلي وللدفاع

---

(1) Manuel Sanches Martines Comercio nazriaY rateina Catalono. p. 64.

(٢) انظر رسالة الاحتجاج التي بعث بها السلطان يوسف . أبي الحجاج في شبانه : يوسف الأول ، ص ٥٦٠ ، ٥٦١ .

(٣) انظر رسالة الاحتجاج في نفس المرجع ، ص ٥٦٤ . والجدير بالذكر أن محمد كمال شبانه نشر بعضاً من رسائل الاحتجاج في كتابه كملاحق للمراسلات السياسية فقط دون أن يتعرض لشرح التجارة بين دول المغرب ومملكة غرناطة .

عن الدين والوطن [١] .

وإن كانت مدن أنفا وهنين تصدر القمح إلى مملكة غرناطة وغيرها من المنتوجات المغربية فقد كان لأهل سلا سفن ومراكب يحملون فيها تجاراتهم ويسافرون إلى مملكة غرناطة ومدنها مثل مالقة والجزيرة الخضراء [٢] ، ولشدة ارتباط سلا بمدينة مالقة فقد كان بين المدينتين مناظرات ومفاخرات دوّنها ابن الخطيب في مقالته مفاخرات بين مالقة وسلا [٣] أثبت خلالها ابن الخطيب أن مدينة مالقة تعقد في التجارة لواء خافقاً [٤] .
وبلا شك فإن هذا اللواء يقصد في بعض رحلاته مدينة سلا التي تباع فيها الأواني المالقية كالفخار المذهب والمزجج مما لا وجود له بمدينة سلا [٥] وكان هذا اللواء يحمل العلم الأحمر وفي ذلك يقول ابن زمرك :

أعلامك الحُمْرُ فوقَ السُفْن خافقةٌ
وريحُ سَعدِك تُجريها على قَدَرِ
ما إن رَفَعْتَ قسي السُفن في وَطنٍ
إلا ونلت قَصيِ السؤْلِ والوطَرِ [٦]

ومما يدل أن السفن كانت تقصد مدينة سلا أنه عندما هاجم نصارى قشتالة مدينة

---

(١) المثال على ذلك ما قام به السلطان محمد الأول مؤسس دولة بني نصر ، انظر الفصل الأول من الرسالة ص ٣٤ .

(٢) الدكالي : محمد بن علي ، الاتحاف الوجيز ، تحقيق مصطفى بوشقرك ، من منشورات الخزانة العلمية الصبيحة بسلا ، المغرب ١٤٠٦هـ ، ص ٣٩ .

(٣) ابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٥٧ وما بعدها .

(٤) نفس المصدر ، ص ٦١ .

(٥) الدكالي : المرجع السابق ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٦) المقري : أزهار الرياض ، جـ ٢ ص ١٣٨ .

سلا سنة ٦٥٨هـ / ١٢٨٦م ظن أهلها أن هذه السفن جاءت كعادتها للتجارة [١] ، ويفهم من كلام ابن الخطيب أن مدينة غساسة المغربية كانت أيضاً من المدن المطروقة من قبل الغرناطيين [٢] .

ولمدينة سبتة أيضاً صلات تجارية واقتصادية مهمة مع مملكة غرناطة يتضح ذلك من السفن التي توجهت من شواطئ غرناطة إلى سبتة والتي سبق الإشارة إليها ، إذ كانت سبتة من المحطات التجارية الهامة المطروقة من قبل التجار الغرناطيين ، ففي مدينة سبتة من الأسواق مائة وسبعون سوقاً من بينها أسواق متخصصة في بعض البضائع وأسواق عامة لكل البضائع [٣] .

ونظراً لأهميتها التجارية والبحرية استولى عليها بنو نصر في عهد السلطان محمد الثالث وذلك إبان ازدهار البحرية الغرناطية [٤] ، وكانت سبتة عامرة بالفنادق التي تحتاج إليها حركتها التجارية وقيل إن فيها ثلاثمائة وستين فندقاً أعظمها الفندق المعروف بفندق ابن غانم [٥] ، بل إن تجار النصارى لكثرتهم بنوا لأنفسهم فنادق خاصة بهم بلغت سبعة فنادق أربعة منها على صف واحد وثلاثة متفرقة [٦] .

ونظراً لموقع سبتة فإنها كانت محطة تجارية وملتقى للسفن القادمة من المشرق إلى المغرب الإسلامي أو القادمة من مملكة غرناطة ومن المغرب الأقصى تجاه المشرق ، وبالتالي فإن مدينة

---

(١) انظر ابن عذاري : البيان ، ص ٤١٨ .

(٢) معيار الاختيار ، ص ١٨٣ ومدينة غساسة هي : إحدى مدن المغرب الأقصى المندثرة ، نزل بها أبو عبدا الله الصغير آخر ملوك غرناطة ومن ثم اتجه إلى فاس (انظر : الصديق بن العربي كتاب المغرب ، ص ٢٠٦) .

(٣) السبتي : اختصار الأخبار ، ص ٣٦ .

(٤) انظر الفصل الأول من الرسالة ص ٩٠ .

(٥) السبتي : اختصار الأخبار ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٤٢ .

سبتة تعد همزة وصل بين مملكة غرناطة والشمال الإفريقي أو المشرق الإسلامي .
ومن المدن المغربية التي تعاملت معها غرناطة والتي كانت تمثل أسواقاً تجارية هامة مدينة أصيلا [١] والتي كانت كثيرة المرافق رافعة في الخصب اللواء الخافق ، والعصير الأثير والحوت الكبير والسفن المترددة فيها الملف والأبازير [٢] .

ومن المدن التجارية المغربية سلجماسة " بوابة الصحراء " لأنها تجاور حدود السودان الكبير الذي ينفتح على مداخل إفريقيا المغربية والجنوبية [٣] ومنها مدينة بادس المغربية وحصن سهيل ، وأسفي المشهورة بثياب الصوف [٤] ، وكانت فاس مشهورة مثل سبتة بكثرة فنادقها والتي بلغت مائتي فندق وتتألف كلها من ثلاث طبقات منها ما يشتمل على مائة وعشرين غرفة ومنها ما يشتمل على أكثر من ذلك [٥] .

وقد اشتهرت فاس بأسواق كثيرة تحدث عنها ابن أبي زرع حين تحدث عن الحريق الذي دب في أسواقها فكان من نتائجه احتراق سوق الصباغين [٦] ، وكانت مدينة فاس من المدن المغربية التي ارتادها الغرناطيون بكثرة ، وكان الغرناطيون يشترون الملابس من إفريقية حتى عرفت لديهم بالأردية الإفريقية والمقاطع التونسية [٧] .
وأصبح ذلك اللباس جزءاً لا يتجزأ من اللباس الغرناطي في كل منزل ، وكانت غرناطة

---

(١) أصيلا : مدينة من مدن المغرب الأقصى على ساحل المحيط الأطلنطي ، تشتهر بصناعة الثياب المعروفة بالمثلث وكانت السفن تتردد إليها بقصد التجارة (انظر ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ١٥٠) .

(٢) انظر ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ١٥٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٨١ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٦١ .

(٥) الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، جـ ١ ص ٢٣١ .

(٦) الذخيرة ، ص ٧٣ .

(٧) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٥ واللمحة البدرية ، ص ٢٧ .

تصدر الإثمد والكحل إلى المغرب [١] . أما مدينة تنس فإنها صدرت القمح والطعام إلى غرناطة [٢] .

وفي مقابل المدن المغربية هناك مدن غرناطية بادلتها الحركة والنشاط التجاري فكانت غرناطة العاصمة ، ومالقة ، والمرية والجزيرة الخضراء والمنكب ومربلة ومتريل وغيرها حافلة بالنشاط التجاري الذي بسطت القول فيه حين تحدثت عن التجارة الداخلية والخارجية . وكان وجود رجال برزوا في التجارة الداخلية على الساحتين المغربية والغرناطية ، وجد كذلك رجال برزوا بالتجارة الخارجية بالإضافة إلى ما سبق ذكرهم نجد على رأس هؤلاء أحمد بن علي بن محمد الخولاني الغرناطي الذي كان تاجراً ورحل إلى المغرب حيث طلب فيه العلم والتجارة ثم سكن تونس يداوي الناس بالطب إلى أن مات في الطاعون سنة ٧٥٠هـ [٣] /١٣٤٩م .

ومنهم محمد بن علي المؤذن المعروف بأبي خرشة والذي كان عمله في التجارة وكانت هجرته إلى المغرب ، ومما قاله فيه ابن الخطيب أنه كان آية في عبارة الرؤيا قليل التصنع وكان يشتغل بالتجارة [٤] .

ويذكر ابن الزبير أنه دخل إلى الأندلس تاجراً محمد بن محمد بن عبدا لله الكناني من أهل تلمسان يُكنى أبا عبدا لله ويعرف بابن الحفار توفي عام سبعة وتسعين وستمائة [٥] .

ومما لا شك فيه أن هناك الكثير ممن مارسوا التجارة ولكن لم ترد أسماؤهم في كتب التراجم والتاريخ .

---

(١) الزهري : كتاب الجغرافية ، ص ٩٦ .

(٢) ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، ص ١٤٢ ومدينة تنس هي : بلدة في آخر إفريقية مما يلي المغرب وهي مدينة حصينة ذات قلعة صعبة المرتقى ، انظر : البغدادي : مراصد الاطلاع ، جـ١ ص ٢٧٧ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ١ ص ٢١٩ .

(٤) نفس المصدر ، جـ ٤ ص ١٠١ نقلاً عن ابن الخطيب .

(٥) ابن الزبير : غرباء القسم الثاني ، صلة الصلة ، ص ٥٢١ .

- التبادل التجاري مع المشرق الإسلامي :

أشرت عند حديثي عن طرق التجارة الخارجية وجود قدر كبير من التحكم التجاري النصراني في وسائل النقل الخارجية ووجود عقبات كثيرة في الطرق البرية والبحرية لعوامل كثيرة .

وجدير بالذكر أن معظم التجار النصارى الذين يديرون حركة التجارة الغرناطية الخارجية كانوا من الكتالونيين وقد حصل تجار جنوة على مميزات تجارية في موانئ مملكة غرناطة بعد مفاوضات مع بني نصر [١] ، وكانت لتجار جنوة أماكن خاصة بهم داخل موانئ مالقة والمرية والمنكب وعلى مدى القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي توسع تجار جنوة في سيطرتهم التجارية على المملكة النصرية ، واصبحت غرناطة بالنسبة لهم مستعمرة استغلها التجار لنشاطهم التجاري ، ولقد سمح لتجار جنوة بتشييد فندق لهم بالمملكة النصرية ، وكذا كنيسة وفرن وحمامات عامة ، وكذلك سمح لهم بممارسة الصيد [٢] .

وكانت تجارة الحرير الغرناطي مع المشرق الإسلامي من أزهى أنواع التجارة إلا أنه في عهد بني نصر تراجعت الوثائق والمصادر التي تتناول تجارته وذلك بعد أوائل القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي [٣] ؛ وبالرغم من أن الحرير ما زال ينتج في غرناطة بكميات تجارية إلا أنه لم يعد الحرير الأندلسي الذي يسيطر على أسواق البحر المتوسط كما كان في القرن الخامس والسادس الهجري الحادي عشر والثاني عشر الميلادي ، وبالرغم من ذلك فإن الحرير الغرناطي ما زال يتاجر فيه في دار الإسلام ، فقد ذكر ابن سعيد أن مالقة والمرية كانت تنتج كلها أقمشة مطرزة بقصب الذهب الذي أدهش الناس في المشرق بجمال

(1) Archivo Coronica de Aragon p, 1, 2 .
(2) Ibid , p 7 .
(٣) المثال على ذلك وثائق الجنيزة بالقاهرة والتي حفلت بمعلومات كثيرة عن التجارة بين الأندلس والمشرق الإسلامي في الفترة التي سبقت قيام مملكة غرناطة .

صناعتها عندما يرون منه شيئاً [١] .

ومما تميزت به التجارة الغرناطية شهرتها الذائعة الصيت في انتاج الخزف ، وقد نوه بذلك علماء الآثار الذين لم يخفوا إعجابهم بذلك اللون من الصناعة وأن الخزف أنتج بصورة واسعة في مملكة غرناطة ، فمؤرخو الحضارة والفن تتبعوا أثر التطور والأدوار التأريخية لهذه الصناعة معاً مع علماء الآثار .

إن انتقال عدد من قطع الخزف الغرناطي من مملكة غرناطة إلى المشرق الإسلامي قد يكون عن طريق الهدايا أو أي وسيلة أخرى مثل التجارة فانتشار الخزف الغرناطي في الدول الإسلامية بالمشرق أشار بالتأكيد إلى حركة النقل التجاري فالأطباق والكؤوس والجرار والخابيات الجميلة والتي أشاد بجمالها الرحالة المصري عبدالباسط بن خليل الحنفي [٢] كانت رخيصة الثمن ولكنها مفيدة جداً في الاستعمال اليومي في الحياة العامة ، وكانت ذات أهمية في الغنيمة أو أية مدفوعات أخرى لأي سبب من الأسباب ، وانتقلت إلى المشرق الإسلامي أساساً عن طريق التجارة إذ انتجت مملكة غرناطة الخزف وصدرته وأهدته إلى سلاطين مصر [٣] والذي قلدته صناعة الخزف المصرية [٤] ، ومع كثرة إنتاج مملكة غرناطة من الخزف لا يمنع أن يكون الخزف المستورد من مصر والشام قد وصل إلى مملكة غرناطة مع المسافرين من المشرق الإسلامي إلى غرناطة كما كان قد اكتشف ذلك في مدينة المرية وألبيرة [٥] . ونقل التجار الأجانب من مملكة غرناطة أنواعاً أخرى من السلع شاملة

---

(١) انظر المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ص ٢٠١ .

(٢) انظر : Al- Andalus Revista vol . p. 312

(٣) انظر الأهواني : سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة ص ١٠٥ وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في نفس الفصل .

(٤) حسين محمود إبراهيم، الخزف الإسلامي في مصر ، مكتبة نهضة الشرق ١٩٨٤م ، ص ٩٠ .

(5) Calrlos canopiedra : Estudiosis tamotico de la cermica de madinat ilbira, p, 33 .

الفراء والجلد والصوف والزعفران الذي كانت مصر وقبرص تستوردانه [١] .

وقد راجت تجارة الأسرى في غرناطة والدول النصرانية المجاورة لها وساعد على رواج تلك التجارة داخل شبه الجزيرة حالة الحرب المستمرة بين المسلمين في مملكة غرناطة والنصارى في قشتالة وأرغون والبرتغال ، وظهرت تجارة جديدة لبيع الأسرى المسلمين من قبل النصارى وبيع النصارى الأسرى من قبل مسلمي غرناطة في الدول الإسلامية بما فيها بلدان المشرق الإسلامي خاصة في القاهرة كما وقع في المعركة التي خاضها أبو الوليد إسماعيل إذ تعد حادثة موقعة المرج التي انتصر فيها المسلمون الغرناطيون على النصارى دليلاً من الأدلة على انتشار تجارة رقيق الحرب ، ففي سنة ٧١٨هـ /١٣١٨م ((كانت الملحمة العظمى بالأندلس بظاهر غرناطة ، فقتل فيها من الفرنج أزيد من ستين ألفاً ، ولم يقتل من عسكر المسلمين سوى ثلاثة عشر نفساً ، إن في ذلك لآية . فلله الحمد على ذلك النصر المبين)) [٢] .

وكان التاجر من أهل المشرق الإسلامي أبو عبدا لله بن ربيع موجودا في غرناطة وشاهد عيان على تلك المعركة والتي كان من نتائجها قيام عبدا لله بن ربيع على بيع الغنيمة وهي عبارة عن الأسرى والأمتعة الأخرى وعاد إلى مصر بأنباء تلك المعركة وفي صحبته ما اشتراه من مملكة غرناطة [٣] .

أما بالنسبة لصادرات غرناطة من الفواكه المجففة إلى المشرق الإسلامي فقد أعطى بنو نصر لتجار جنوة وغيرهم من التجار النصارى حق تصدير الفواكه المجففة الغرناطية [٤] .

---

(١) انظر فهمي : نعيم زكي ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ ، ص ٢١٩ ، ص ١٦٥ .

(٢) الذهبي: شمس الدين أبي عبدا لله محمد بن أحمد بن عثمان : ذيول العبر في خبر من غبر ، جـ ٤ ط١ ، ١٤٠٥هـ ، بيروت ، ص ٥٢ ، ٥٣ ، وانظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٨٩ وابن خلدون ، العبر ، جـ ٧ ، ص ٢٥٠ .

(٣) الذهبي : المصدر السابق ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

(4) Archivo Dela Corona . De Aragon p. 33 .

كما سمح لهم باستخدام الموانئ في مالقة والمرية في أثناء سفر السفن النصرانية إلى موانئ أخرى عبر رحلتها في البحر البيض المتوسط ، إلا أن ذلك لم يحل دون أن يشارك التجار الغرناطيون في التجارة إلى المشرق ولكن عدد هؤلاء التجار وتأثيرهم الاقتصادي كان يقل مع استفحال السيطرة النصرانية سواءً في سواحل المغرب والأندلس أو في شواطئ وموانئ الدول الإسلامية في المشرق .

ولقد كان للعقود والمعاهدات التجارية التي أبرمتها دولة المماليك مع الممالك النصرانية والأسبانية والأوروبية [١] أثرها البالغ في تدني مستوى التجارة مع مملكة غرناطة . إذ أصبح النصارى في كلا الحالين النصري والمملوكي وسطاء في نقل البضائع أو السلع من شواطئ مصر والشام إلى مملكة غرناطة بل إن التجار لا يصلون إلى مملكة غرناطة مباشرة إلا عن طريق مملكة أرغون نظراً للتسهيلات التجارية بين الدولتين المملوكية والأرغونية وليس أدل على ذلك من مغادرة التاجر والسفير أحمد بن عبدالسلام الإسكندرية إلى مملكة غرناطة عن طريق مملكة أرغون [٢] .. بالإضافة إلى الرسوم الجمركية المرتفعة التي فرضتها دولة المماليك على مسلمي غرناطة والمغرب من الحجاج أو التجار أكثر مما تفرضه على رعايا الدول النصرانية مما كان له تأثير سلبي على التجارة مع مملكة غرناطة وسيأتي ذكر ذلك ، وإذا كانت القرصنة النصرانية قد عرقلت التجارة ما بين بلدان المغرب وغرناطة فقد كان لهذه القرصنة دورها في عرقلة التجارة بين مملكة غرناطة ومصر والشام بل ركزت تلك القرصنة على المسافرين من مملكة غرناطة إلى مصر والشام وتتبعتهم حتى أثناء نزولهم إلى داخل الموانئ ، وعلى ضوء تلك العوامل سيكون حديثي عن التبادل التجاري بين مملكة غرناطة والمشرق الإسلامي .

فلقد أدرك ابن سعيد المتغيرات السياسية والاقتصادية التي بدأت في الظهور في

---

(١) للمزيد حيال تلك المعلومات انظر : الحجي ، حياة ناصر ، العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجري ١٩٨٠م ، وانظر : فهمي ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب .

(٢) انظر الملحق رقم (٤) .

العلاقات ما بين دولة المماليك ومملكتي غرناطة والمغرب والتي انعكست على طريقة التعامل مع القادمين من غرناطة والمغرب أثناء وصولهم إلى ميناء الإسكندرية [١] .

من ناحية أخرى لم تفلح العلاقات الودية بين غرناطة والقاهرة في معالجة هذا الأمر إذ استمر الحال على ما هو عليه ، فلما وصل خالد بن عيسى البلوي عام ٧٣٧هـ /١٣٣٦م إلى الإسكندرية قال : ((حملنا بأجمعنا إلى الديوان هناك شاهدنا الحساب ورأينا العذاب ، وملأوا منا البيوت والرحاب ثم أتت اليد على القليل والكثير، والحفير، والنقير ، والقطمير ، والرفيع والوضيع والغني والفقير ، وفتشت الأوساط ، وعم الزحام والاختلاط وكثر الهياط والمياط ، حتى خرج المخزون والموزون ، وبرز المعكوم والمختوم وعند الله تجتمع الخصوم ، فأخذوا من كل عشرة دنانير دينارين ومن كل عشرة دراهم درهمين ظلماً وعدوانا وجوراً وطغياناً)) [٢] .

وهذا الجشع من قبل ديوان الإسكندرية (جمرك الإسكندرية) كان محط سخط من الرحالة الذين سبقوا البلوي الغرناطي [٣] ، وإن الضريبة الجمركية المفروضة على القادمين من مملكة غرناطة من التجار والحجاج والعلماء كانت أكثر من الضريبة المفروضة على التجار النصارى والقادمين منهم إلى مصر ، وربما كان البلوي وابن سعيد في شكواهما من جور موظفي الديوان ينطقان بلسان عموم الغرناطيين والمغاربة ، وتضرر هؤلاء من ظلم المكوس حتى ابن حجر العسقلاني قال أنه في سنة ٨١٤هـ/١٤١١م عندما وصل السلطان المملوكي الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق إلى الإسكندرية ((شكا إليه المغاربة أنه يؤخذ منهم ثلث أموالهم في المكس ويؤخذ من الفرنج العشر ، فغضب من ذلك وأمر ألا يؤخذ من

---

(١) انظر ص ٣٤٠ ، ٣٤١ من الرسالة حيث ورد نص ابن سعيد .

(٢) تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ١٩٧ .

(٣) مثال ذلك ابن جبير : أبي الحسن ، محمد بن أحمد ، رحلة ابن جبير ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨١م ص ١٢ ، ١٣ والمقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٣٤٨ نقلاً عن ابن سعيد .

المغاربة إلا العشر فشكر المسلمون له ذلك فكانت من حسناته النادرة)) [١] .
ولفظ المغاربة هنا لفظ عام وشامل للأندلسيين وكل قادم من المغرب [٢] ، ونتيجة لتلك المظالم التي شعر بها التجار الأندلسيون والمغاربة فإن التاجر المسلم من تلك البلاد يجعل بضاعته باسم نصراني [٣] خوفاً من دفع الضريبة الزائدة عما يدفعه النصارى ، إن هذا لدليل من الأدلة قوي وسبب من أسباب عدم وضوح التبادل التجاري بين مملكة غرناطة بني نصر ومماليك مصر وكانت أعمال القرصنة النصرانية قد اتخذت بعداً آخر وذلك لتصديها للمسلمين الغرناطيين القادمين إلى الحج أو التجارة ((إذ سئل اللخمي لمن أراد الحركة إلى الحج ، وطريق البر في هذا الوقت متعذر فأراد ركوب البحر فخوف أيضاً من ركوبه وقيل إن الغالب عليه الغزو والخوف من الروم والتغرير بما يتبقى على المراكب فأجاب الطريق اليوم من إسكندرية إلى مكة على صفة لا يلزم فيها فرض الحج ولا يأثم من تأخر بهذه الأحوال)) [٤] .

---

(١) العسقلاني: إنباء الغمر ، جـ ٧ ، ص ١٧ وانظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، مجلد ١ ، جـ ٢ ، ص ٨١٥ .

(٢) ولقد تذمر ابن سعيد الأندلسي من هذا الوضع وذلك لعدم تفريق أهل المشرق بين الأندلسي والمغربي فقال :

وأنادى مغربياً ، ليتـــني
لم أكن للمغرب يوماً أنســب
نسب يشرك فيه خامــل
ونبيه ، أين منه المهـــرب ؟

انظر : الأنصاري : التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق في آثار ابن سعيد ، ص ٢٦٥ .

(٣) ابن حجر : نفس المصدر ، جـ ٨ ، ص ١٤٦ .

(٤) الونشريسي : المعيار ، جـ ١ ، ص ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

ولقد لعبت الجزر النصرانية في البحر الأبيض المتوسط دوراً هاماً في قطع الطريق البحري بين مسلمي مملكة غرناطة والمشرق الإسلامي ولا سيما جزيرة قبرص وذلك بحكم موقعها الجغرافي بين شواطئ المسلمين في مصر والشام وآسيا الصغرى (١) .

ويصف ابن سعيد نجاة المركب الذي كان يستقله إلى الإسكندرية من القرصنة النصرانية بقوله :

انظر إلى مركبنا منقذا   من العدا من بعد إحراز
افلت منهم فغدا طائراً   كطائر أفلت من بازي (٢)

ولست هنا بصدد إيضاح الغارات المتكررة لنصارى جزر قبرص وردوس على ميناء الإسكندرية الإسلامي التي كان من أكثرها وحشية الهجوم النصراني على مدينة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ (٣) /١٣٦٥م ذلك الميناء الذي كان محطة هامة للقادمين من غرناطة والمغرب بالإضافة إلى سواحل بلاد الشام التي كانت تتعرض إلى حملات صليبية متكررة (٤) .

مما اضطر المماليك إلى فتح جزيرة قبرص سنة ٨٢٩هـ /١٤٢٦م (٥) . وإن كانت القرصنة النصرانية على سواحل بلاد الشام قد استمرت طوال عصر مملكة غرناطة إلا أنها مع اشتداد العدوان النصراني على مملكة غرناطة أصبحت أكثر حدة ونشاطاً في تتبع السفن والمراكب القادمة من شواطئ غرناطة والمغرب والمتجهة إلى مصر والشام والتي قام ابن حجر

---

(١) السيد عبدالعزيز سالم ، والعبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، ص ٣١٩ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٣٢٧ .

(٣) لمعرفة تفاصيل هذا الهجوم ، انظر : النويري : محمد بن قاسم ، كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية ، جـ ٢ تحقيق انتين كومب ، عزيز سوريال عطية ، د دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ١٣٨٩هـ ، ص ١٣٦ وما بعدها .

(٤) انظر دراج : أحمد ، المماليك والفرنج ، ص ٢١ ، ٢٢ .

(٥) انظر ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ ٨ ص ٩٧ وما بعدها حيث يورد تفاصيل فتح جزيرة قبرص .

العسقلاني بملاحظتها ورصدها ففي الثاني عشر من ربيع الآخر سنة ٨١٩هـ /١٤١٦م في ميناء الإسكندرية ((وثب النصارى على مركب وصلت للمغاربة فأخذوها بما فيها فما نجا منها غير خمسة عشر رجلاً سبحوا في الماء)) (١) .

وفي السنة نفسها في السادس عشر من جمادى الآخرة وصل مركب من المغاربة ببضاعة فمال الفرنج عليهم فقاتلوهم فدافعوا عن أنفسهم حتى أخذوه عنوة وضربوا أعناقهم وأهل الإسكندرية يرونهم من فوق الأسوار ما فيهم منعه .... وقد أخذوا ما أخذوا وساروا مقلعين في مراكبهم وكان ما كان)) (٢) . وفي سنة ٨٣٧هـ /١٤٦٨م هجم القراصنة النصارى على سبعة مراكب (سفن) للمغاربة فأسروا من فيها ونهبوا الأموال والبضائع وأحرقوا ثلاثة منها وساروا بأربعة (٣) .

ويصف السفير الغرناطي لا يزال اسمه مجهولاً أثناء سفره من غرناطة إلى القاهرة جزيرة رودس بأنها شديدة الأذى للمسلمين وذلك أن بها نحو ستة عشر جفناً غزوانياً كلها معدة للقرصنة لا يفترون عن الاغارة في غالب أمرهم شتاء ولا صيفاً . وجميع قراصين النصارى ـ دمرهم الله ـ ممن يواليها بتلك الجزر ... وكان فيها إذ كنا بها أزيد من مائتي أسير من المسلمين رمنا أن نفتدي منهم شيئاً فلم نقدر)) (٤) ، كما أنه ذكر أن سفينة محملة بالمسلمين الأندلسيين شهدت الحرب بين مركب مسلم وآخر نصراني (٥) .

وبالرغم من الاعتداءات النصرانية المتكررة على الشواطئ الإسلامية في مصر والشام وعلى السفن المتجهة إليها فإن ذلك لم يحل دون وصول الآلاف من أبناء مملكة غرناطة والمغرب إلى مصر والشام والحجاز ففريضة الحج قد ساهمت في خروج أبناء مملكة

---

(١) انظر ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ ٧ ، ص ٢١٤ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٣) نفس المصدر ، جـ ٨ ، ص ٢٩٩ .

(٤) الأهواني : سفارة سياسية ٩٨ ، ٩٩ .

(٥) نفس المصدر والصفحات .

غرناطة إلى المشرق والمغامرة بأرواحهم في سبيل قضاء فريضة الحج الركن الخامس من أركان الإسلام ، ولقد كان ارتباط غرناطة بمكة المكرمة والمدينة المنورة ارتباطا عظيماً ووثيقاً ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء الراحلين بقصد الحج أو العلم كانوا يحملون معهم الكثير من منتوجات بلادهم ونقودها ، وليس أدل على ذلك من إشارة النويري أنه في سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م عندما هاجم النصارى مدينة الاسكندرية نهبوا أسواقها وكان ((من بين ما نهبوه الحرير الذي قدم به تجار الأعاجم وغيرهم)) (١) .

وعلى امتداد تاريخ غرناطة حاولت مملكة غرناطة أن تقف في وجه المنافسة الخارجية ، وكانت تنتج الحرير وتصدر الفواكه المجففة التي كانت تناسب مناخها حتى ولو كان هذا التصدير عن طريق التجار النصارى (٢) ، وكذلك صدرت مملكة غرناطة الجلد المدبوغ من جلود الحيوانات ، إذ أشار ابن الخطيب أن مالقة معدن صنائع الجلد المنتخب ومحج التجار (٣) وأن صنعاء تلح في طلب منتجاتها (٤) ، وبالرجوع إلى صادرات مملكة غرناطة من الفواكه فقد كانت تجارتها في هذا النوع هي الأكثر رواجاً في الأسواق الإسلامية والأكثر دعماً لاقتصاد غرناطة بني نصر ، ولقد عبر الشعراء عن ذلك فقال أبو محمد عبدالوهاب بن علي المالقي :

مالقة حُييت ياتينها ... فالفلك من أجلك يأتينها
فهي طبيبي عنك في علة ... ما لطبيبي عن حياتي نها (٥)

---

(١) الإلمام ، جـ ٢ ، ص ١٧١ .

(2) Archivo de la Coronica de Aragon p. 33

(٣) مشاهداته ، ص ، ٥٩ .

(٤) ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ٨٩ .

(٥) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٦٩ وانظر العمري : مسالك الأبصار ، ص ١٦١ ، وانظر المقري : الأندلس من نفح الطيب ، ص ٧٠ ، ٧١ .

وكانت الأرباح من هذه التجارة قيمة وذات أهمية وذلك عندما اضطربت تجارة الحرير الغرناطي وكتب الحميري أن التين المالقي ينتقل إلى البلاد المجاورة لمملكة غرناطة وأضاف أنه يصل إلى مصر وسوريا والعراق (١) ، وكذلك ذكر بالمثل ابن بطوطة بأن صادرات التين واللوز من مالقة تصدر إلى بلاد المغرب والمشرق (٢) .

أما عبدالباسط خليل الحنفي فقد قال : ((إن المراكب الكبار تأتي إلى بعض السواحل القريبة من بلش وتوسق من التين واللوز ما شاء الله أن توسق وتحمل ذلك منها إلى غالب البلدان النائية عنها ومع ذلك فلا يظهر نفس ذلك ببلدنا)) (٣) مما يدل على انحسار التبادل التجاري بين البلدان الإسلامية ومملكة غرناطة خاصة في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي .

وكذلك اشتهر عنب مربلة وكان التين والفواكه المجففة الأخرى ضمن الصادرات القليلة المستمرة والمنتظمة من غرناطة ، وكان التجار النصارى يقومون بنقل الفواكه الغرناطية وتجارتها وذلك عندما سجلت شحنات التين التي حملتها السفن النصرانية على متنها من مملكة غرناطة (٤) .

وحصل النصارى على حق استغلال هذه الصادرات من الفواكه المجففة من موانئ غرناطة (٥) .

وقد ظهرت آثار التنافس التجاري الداخلي بين المدن الغرناطية واضحة جلية في التجارة الخارجية فالتين واللوز الطويل الذي يوجد في مالقة والذي لا يوجد في الأرض مثله حسب

---

(١) صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٦٩ .

(3) Al - Andalus , Revista , vol , p. 313 .

(4) Ibid .

(5) Archevo De La Coronica de Aragon p. 1, 2 ,7 : الوثيقة رقم ١ ، ٢

تعبير المعاصرين من الجغرافيين والرحالة [١] كان يجلب منهـا إلى أقطار الأرض وبلاد الروم وإفريقيا وربما وصل إلى مصر [٢] .

ومن مالقة أيضاً كانت تجلب صنائع الحرير المختلفة وأجناسها وصنائع الفخار الظريف وصنائع الخوص والجلد إلى غيرها من البلاد [٣] ، وكانت هذه الصناعات ثابتة ومستمرة طول عصور المسلمين المختلفة حتى سقوط غرناطة .

وكانت غرناطة مصدراً لتصدير الفواكه المجففة والكتان الجيد الذي يربو جيده على كتان النيل [٤] ويكثر حتى يصل إلى أقاصي بلاد المسلمين [٥] .

ويبدو أن التين المالقي أفضل أنواع الفواكه الغرناطية المصدرة ، وقد ذكر الإدريسي أن تين مالقة كان يحمل إلى بلاد مصر والشام والعراق وربما وصل إلى الهند وأنه من أحسن التين طيباً وعذوبة [٦] وقد أكد ذلك الحميري أيضاً بألفاظ متقاربة [٧] .

وكانت المرية تقصدها مراكب التجار من الإسكندرية والشام [٨] ، وإذا كان التجار المسلمون الغرناطيون أقلية تكافح الهيمنة النصرانية على التجارة الخارجية فقد برز بين

---

(١) مثل ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٦٩ . وابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٦٣ — والحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٢) الحميري : نفس المصدر والصفحات .

(٣) انظر ابن الخطيب : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(٤) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٥) نفس المصدر والصفحة .

(٦) نزهة المشتاق ، جـ ٢ ص ٥٦٥ .

(٧) صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٨) الحميري : نفس المصدر ، ص ١٨٤ .

هؤلاء التجار عدد قليل يمكن أن نسميهم شيوخ التجار وكان على رأس هؤلاء التاجر : إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن الطويحن الأنصاري الساحلي (الغرناطي) الذي ((ولد ونشأ بها وتأدب ورحل فجال ببلاد المغرب ثم قدم القاهرة ودخل الشام والعراق ودخل اليمن وعاد إلى مصر ودخل بلاد السودان واتصل بملوكها وأقام بها عدة سنين ، ثم كر راجعاً إلى بلاد السودان .... مات سنة ٧٣٩هـ (١) /١٣٣٨م)) .

ومن كبار التجار الذين برزوا أيضاً محمد بن علي الدهان الغرناطي فقد رحل إلى الحج وجال في بلاد المشرق وشملت جولته الشام ومصر والحجاز وكان مشتغلاً بالتجارة في مملكة غرناطة توفي بمدينة قوص سنة ٦٥٢هـ /١٢٥٤م بعد أن وصلها قادماً من مكة المكرمة (٢) ، وأحمد بن عبدالكريم بن محمد بن جابر بن علي بن فتح الأنصاري الغرناطي من كبار التجار المعروفين بمملكة غرناطة رحل لأداء فريضة الحج سنة ٦٩٥هـ /١٢٨٥م وقد وصفه ابن الخطيب ونقل ذلك عنه العسقلاني بأنه كان حسن الخلق يتكسب من التجارة في القطن ، توفي في ربيع الآخر ٧٣٩هـ (٣) /١٣٣٨م .

ومن تجار مملكة غرناطة الذين وصلوا إلى بلاد الشام كان منهم محمد بن أحمد بن أبي الوليد التجيبي الأندلسي الذي ورث عن أبيه أموالاً طائلة لكن تلك الأموال تعرضت للنهب في غرناطة من قبل الظلمة ، قال العسقلاني أن ابن الأحمر قد أخذ منه في دفعة واحدة عشرين ألف دينار (٤) ولم يحدد الشخصية بالضبط من أسرة بني الأحمر التي أقدمت على ذلك ، المهم أن التاجر المذكور غادر بما تبقى من أمواله إلى المشرق الإسلامي وسكن دمشق وساهم بقسط من أمواله في الجهاد والدفاع عن بلاد الشام إذ كان له عدة كاملة

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٥٤ . وانظر المقريزي : المقفى ، جـ ١ ص ٢٧٧ .

(٢) المقريزي : المقفى ، جـ ٦ ، ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٣) الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ١٧٨ .

(٤) نفس المصدر ، جـ ٣ ، ٣٥١ .

من السلاح والخيل أعدها للغزاة (١) ، توفي في الثامن عشر من شهر رجب سنة ٧١٨هـ / ١٣١٨م (٢) .

ومن خلال هذا التتبع للنشاطين الداخلي والخارجي ، ومن تتبع النشاط الخارجي صوب المغرب والمشرق نرى أن غرناطة مع كل ما تعاني منه كانت لها مقومات الدولة ، وانها استنفرت كل قواها الاقتصادية في الداخل والخارج من أجل أن تحافظ على وجودها وكانت واعية بأنها لا تملك بمفردها مؤهلات البقاء وسط هذا المحيط من الأعداء ووسط هذه العداوات الصليبية التي لم تهدأ قط والتي ظلت تتجمع من ورائها كل أوروبا في البر والبحر ، وأنها حاولت مجاراة الظروف البحرية فأستأجرت المراكب النصرانية بأجور باهظة لإيصال أصوات المسلمين في مملكة غرناطة واستغاثاتهم الاقتصادية والسياسية ، وليس أدل على ذلك من استئجار التاجر أبي عبدا لله محمد البنيولي الذي كان له معرفة ببلاد المشرق الإسلامي في سفارته من قبل سلطان غرناطة (٣) أحد المراكب ليقله إلى شواطئ الإسكندرية من أجل شحنه بما يسره ا لله تعالى من صدقات المسلمين ونوافل خيراتهم التي يعتمدون بها ما عند ا لله من الثواب الجزيل الذي يخلد في دار النعيم (٤) .

وأن مبلغ كراء هذا المركب في سفره وعودته ثلاثةعشر ألف وخمسمائة ديناراً من الذهب(٥) وهي إشارة بليغة لبيان مدى المشقة التي تكلفها المسلمون في غرناطة لارسال هذا المركب إلى الإسكندرية (٦) مما يدل دلالة واضحة أيضاً أن ذلك كان عقبة من العقبات في

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ٣ ، ص ٣٥١ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) انظر الملحق رقم (٥) .

(٤) نفس الملحق .

(٥) نفس الملحق .

(٦) دراج : المماليك والفرنج ، ص ٧٣ .

طريق التبادل التجاري بين غرناطة والمشرق الإسلامي .

ومن خلال ما تم عرضه من العوامل التي أدت إلى قلة التبادل التجاري بين مملكة غرناطة والمشرق الإسلامي بالإضافة إلى ندرة المصادر الإسلامية التي تشير صراحة إلى المنتوجات والسلع المتبادلة بين الطرفين تبين لنا مدى صعوبة البحث في هذا الجانب من تاريخ المسلمين في الأندلس وخاصة في الفترة التي يعالجها البحث ، وقد بذلت أقصى الجهد والطاقة لرسم صورة أقرب ما تكون إلى الوضوح وعسى أن أكون قد فعلت .

الفصل الرابع

العلاقات الاجتماعية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية

(أ) ـ تأثر الأحوال الاجتماعية بحركة الجهاد الإسلامي في مملكة غرناطة

(ب) ـ التأثيرات الاجتماعية المتبادلة بين المجتمع الغرناطي والمجتمعات الإسلامية :

ـ في دول المغرب الإسلامي .

ـ في المشرق الإسلامـــــي .

(أ) ـ تأثر الأحوال الاجتماعية بحركة الجهاد الإسلامي في مملكة غرناطة :

لم يكن العدو النصراني المجاور لمملكة غرناطة يخفي أطماعه فقد عاش المسلمون في غرناطة في حروب مستمرة مع نصارى قشتالة وأرغون لا تهدأ إلا في فترات معاهدات تتخللها خروقات كثيرة ـ وكان هذا يفرض على غرناطة حكومة وشعباً جواً من الحذر والترقب والقلق وقد رأت طائفة من المجتمع الغرناطي أن تنسى أو تتناسى دورها الجهادي بالانغماس في الملذات واللهو وبناء القصور واقتناء الحرائر والجواري في حين أن الأغلب رأوا أن يسلكوا طريق الجهاد والدفاع عن الدين والوطن والشعور بالمسئولية وبضرورة أخذ العدة للجهاد بأشكاله المختلفة ومراقبة العدو مراقبة جيدة والتعامل مع الأشياء على أن أهل الأندلس في رباط وعلى ثغر من ثغور الإسلام وبالتالي يأخذون بأسباب النصر والثبات ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ويصبح المجتمع الغرناطي صدى لروح جهادية تتوقع غدر النصارى وهجومهم في كل وقت وحين ، وهذا ما أدركه ابن الخطيب الوزير والعالم والأديب الذي وصى بها بنيه من بعده قائلاً :

((ا لله ا لله ... من رزق منكم مالاً بهذا الوطن القلق المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد فلا يستهلكه أجمع في العقار ، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار وساعياً لنفسه ان تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار ومعوقاً عن الانتقال)) (١) .

وإن كانت بعض فئات المجتمع الغرناطي قد خدعتهم المظاهر وانغمسوا في الملذات وفي تبديد الطاقات في المباني المزخرفة وفي صور الترف المختلفة فإن جمهرة كثيرة من الشعب الغرناطي كانت تميل إلى الرأي الثاني .

وفي ديوان عبدالكريم القيسي نجد بيتين لهما دلالة خاصة كتبت على ترس خشبي وهما :

---

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ٤٠٤ .

ليس لمن يخشى الوغى دائماً شيء يصون النفس كالترس
ما مثله فيما به يتقـــــى وقاية أصون للنفـــــس [١]

وكتابة هذين البيتين على الترس توحيان بالإضافة إلى وصية ابن الخطيب السالفة الذكر بالتأثر الاجتماعي بحركة الجهاد الإسلامي .

ونتيجة للضغط النصراني المستمر على أهالي مملكة غرناطة نجد جانباً مشرقاً ساد في فترات القوة وتمثل في تدريب أهالي مملكة غرناطة على حمل السلاح لصد العدوان عن أرض الوطن واستخدام أسلحة جديدة وتعلم بعض فنون الحروب بالأسلحة التي كان يحارب بها الفرنجة وحدهم ولم يكن الأمر محصوراً في فئات الجند التي كانت تتكون أساساً من صنفين أحدهما أندلسي والآخر بربري [٢] .

بل كان التدريب والتسليح عاماً لكافة طوائف المجتمع في مملكة غرناطة نتيجة للشعور الذي ألمعت إليه في صدر هذا الحديث ، ويقدم ابن الخطيب وصفاً دقيقاً لتشبع المجتمع الغرناطي وتأثرهم بحركة الجهاد الإسلامي بقوله : ((والثقة في ا لله في هذا الثغر القريب قد كثرت العدد المنزور والحق الصالح قد كافح الزور ، والتوطين على الشهادة قد شرح الصدور ، واقتطع في الجنة المنازل والدور ، والمعرفة بمقام تلك الأبواب الشريفة ، عقائد لا تبدل .... والحال ما علمتم بحر زاخر الأمواج وعدو وافر الأفواج وجياد ضمرتها مصابرة الهياج ، وداء على الأيام متوقع الاهتياج وعدد إلى الإمداد والاصراخ عظيم الاحتياج ، فالنفوس إلى ا لله تجهر وتسلم ، والصبيان في المكاتب تدرب على مواقف الشهادة وتعلم والألسنة بغير شعار الإسلام لا تنبس غالباً ولا تتكلم ، إلا أن عادة الخبير اللطيف تخفيض الذعر المطيف ونصر النزر الضعيف على عدد التضعيف)) [٣] .

وفي مساجد غرناطة كان الدعاة والوعاظ يحرضون المجتمع الغرناطي على ضرورة إتمام

---

(١) ديوان عبدالكريم القيسي : ص ٣٨٤ .
(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٦ ، واللمحة البدرية ، ص ٢٧ .
(٣) ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ، جـ ١ ، ص ٢٩٩ .

واجبهم في المشاركة والجهاد وترك الأبناء والأموال [١] ، ويحثونهم على بذل الأعطيات للجند والمجاهدين والمتطوعين [٢] ، وكتب ابن هذيل الغرناطي فصولاً في الجهاد والرباط ، ذلك الجهاد الهادف إلى ردع البغاة والطغاة وعرف الجهاد بأنه ((مأخوذ من الجهد ومن ذلك قولهم بلغ جهد ومجهود وجهد الأمر إذ استنفذ سعته وطاقته قال الله العظيم وجاهدوا في الله حق جهاده ، أي دافعوا عن دينه وقاتلوا في سبيله بغاية القدرة ومنتهى القوة والمأمور به من ذلك شرعاً هو الصبر على حرب العداة وردع البغاة وقتال الطغاة وحبس النفس على مكارهها الدنيوية في العاجل لتنال بذلك درء مسارها ودفع مضارها في الآجل)) [٣] ، ومؤرخ كابن هذيل لا ينسى أن يربط كل هذه الأجزاء والفروع وعمليات التدريب والتسليح للشعب الغرناطي بأصول الجهاد في الإسلام ، ولهذا فهو يقدم للمجتمع الغرناطي في كتابه تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس وحلية الفرسان وشعار الشجعان الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتصل بالجهاد والتي تضع كلمة الجهاد في موضعها الصحيح [٤] والتي رأى علماء غرناطة أن الجهاد في بلادهم [٥] مقدم عن الحج لأن عدد من الذين يستطيعون القتال يتخذون من الحج مطية للفرار من جحيم الحرب مع النصارى . وكان المهتمون بأمر الجهاد يعطون الدروس والنصائح بطريقة اعتلاء الخيل والاهتمام بها وتجهيز وإعداد السهام قبل رشقها ، من جملة ذلك نصائح ودروس ابن هذيل الذي يعد من أكثر المصادر الغرناطية رصداً لحركة الجهاد الإسلامي في مملكة غرناطة والذي شرح وبين

---

(١) ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ، جـ ٢ ، ص ٤٢ - ٥٧ .

(٢) ابن لب : أبو سعيد فرج بن قاسم كتاب نبوع العين الثره في تقريع مسألة الإمامة بالأجرة ، مخطوط نسخة خاصة بالباحث ، ورقة ٨ ب .

(٣) تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس مخطوط ، ورقة ٥ أ .

(٤) انظر : مخطوط تحفة الأنفس ص ٥ أ .

(٥) انظر نص رسالة لسان الدين في تفصيل الجهاد في غرناطة على الحج في المقري : نفح الطيب جـ ١ ، ص ١٨٦ وما بعدها .

لأهالي غرناطة كيفية ركوب الخيل والفروسية حتى يصبح كل مسلم في مملكة غرناطة صالحًا للجهاد يحسن الركوب على العري وعلى السرج وإمساك العنان ويتعلم أصولاً من أعمال الفروسية فيستعين بها على ركوب الخيل والثبات عليها (١) .

وحث ابن هذيل سكان مملكة غرناطة على اقتناء جميع أنواع الأسلحة موضحاً لهم أن اتخاذ السلاح لصد العدوان من فرض الجهاد لقول الله عز وجل : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ (٢) ، ((والعدة من أسباب القدر وأعوان الظفر مما انقسمت المدة نفعت العدة)) (٣) .

كما حذر ابن هذيل المتعلمين من فئات المجتمع الغرناطي لفنون الحرب والقتال من أهم الأخطاء الشائعة والعيوب المشهورة في سبع خصال (٤) ، وحث على سباق الخيل في مملكة غرناطة واتخاذ حلبة لذلك ، وأثنى على هواة ركوب الخيل من أبناء مملكة غرناطة وساعدهم بأن وصف لهم الفرس الذي يمكن أن يجاري الحلبة على غير تضمير ولا تحمل ولا تشمير (٥) .

وكان للشعر دوره في رصد عملية سباق الخيل في مملكة غرناطة وذلك حين كتب ابن زمرك شعراً في حفلة لسباق الخيل حضرها الغني با لله سلطان غرناطة (٦) .

ويبين ابن هذيل أنواع الأسلحة المستعملة سواء كانت محلية أم مقتبسة من الفرنجة وهي تلك الأسلحة التي لم تعد وقفاً على الجنود وحدهم بل أصبحت مشاعة بين كافة أفراد المجتمع الغرناطي حتى عندما يخرج أبناء وأهالي مملكة غرناطة إلى المنتزهات فإنهم كانوا

---

(١) ابن هذيل :حلية الفرسان ، ص ١٣١ .

(٢) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

(٣) ابن هذيل ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .

(٤) انظر تفاصيل ذلك في نفس المصدر ، ص ٢١٣ .

(٥) ابن هذيل : نفس المصدر ، ص ١٤٨ .

(٦) انظر الحمصي : ابن زمرك ، ص ١٥٩ ، حيث يورد نص تلك القصيدة .

يحملون أسلحتهم معهم [١] .

وكان لشيوع هذه الروح الجهادية وانتشار الأسلحة والتدريبات بين الناس في مملكة غرناطة آثار إيجابية وكذلك كان لها آثار سلبية وبخاصة في الأوقات التي لا توجد فيها مناوشات مع النصارى . وقد تحدث ابن هذيل عن بعض الناس الذين يؤذون أنفسهم في غرناطة بالأسلحة وربما يؤذون غيرهم سواء كان ذلك عن كبر وخيلاء أو عن جهل وغفلة [٢] ، أو إفساداً في الأرض أو الاعتداء على النصارى المسالمين والمعاهدين مما استوجب إقامة حدود ا لله على بعض فئات المجتمع الغرناطي التي استخدمت السلاح في غير محله وتم ضرب أعناقهم في ساحات غرناطة [٣] .

ونظراً لحالة الترقب والحذر والاستنفار الدائم الذي ساد في المجتمع الغرناطي وانتظار العدو في كل ساعات الليل والنهار فقد شاع بين بعض الناس رباطات خاصة للجهاد وذلك مثل الرباط الذي بناه محمد بن محمد بن عبدا لله المحروق [٤] ، ولشيوع هذه الظاهرة واتخاذها مساراً قد يختلط ببعض الأذكار يفيد صاحب الحديقة النضرة أنه سئل أحد العلماء عن جماعة من المسلمين يجتمعون في رباط على ضفة البحر في الليالي (الفاصلة) يقرأون جزءاً من القرآن ويستمعون من كتب الوعظ .... ويذكرون ا لله عز اسمه بأنواع من التهليل والتسبيح والتقديس فأجاب بجواز ذلك ما لم يخرج ذلك الاجتماع عن ذكر ا لله [٥] .

وهذا يدفعنا إلى أن نقول إن مسار الروح الجهادية قد ظل إيجابياً وفعالاً لفترة طويلة منذ قيام مملكة غرناطة سنة٦٣٥هـ/١٢٣٧م كما ظل كذلك في بعض فترات يقظة الضمير وكثافة

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٨ .

(٢) حيلة الفرسان ، ص ١٩٨ ، ٢٣٩ .

(3) Los Documentos Arabs Diplomaticos De ARCCHivo de Aragon, p. 16 .

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ٤ ، ص ١٩٤ نقلاً عن ابن الخطيب .

(٥) الحديقة النضرة ، ورقة ٢٠١ ، ٢٠٢ أ .

التحديات ، ولكنه في فترات أخرى اختلطت به بعض الطرق فانحرفت به عن أهدافه فأصبح كل جاهل يدعي أنه لا حاجة لتعلم مذهب ما دامت العناية الإلهية تنير كل قلب طاهر بمعرفة الحقيقة (١) .

مما أدى إلى ظهور بعض البدع في فئات المجتمع الغرناطي ، ومن هذا ما أشار إليه الونشريسي حين أورد سؤالاً عرض للقاضي أبي عمر بن منظور عن إمام قرية يؤم الناس وهو يحب طريقة الفقراء وفي القرية زاوية يجتمع فيها بعض من أصحاب القرية ليلة الجمعة وليلة الاثنين والإمام المذكور معهم ... فإذا فرغوا من [الذكر] يستفتح المداح وأصحابه دائرون عليه يضربون الكف ويقولون معه والإمام المذكور يمدح مع المداحين ، فأجاب بأن ((الرقص لا يجوز وهو تلاعب بالدين وليس من أفعال عباد الله المهتدين .....)) (٢) .

كما ورد سؤال ذكره الونشريسي حول رقص الفقراء في غرناطة بالمسجد وصلة هذا بلعب الحبشة في المسجد النبوي بالحراب فأجاب القاضي المسئول بأن رقص الفقراء في المسجد يجب أن تنزه المساجد عنه لأنها بيوت الله في أرضه (٣) .

أما ما جاء في الحديث من لعب الحبشة في المسجد بالحراب فقد قال العلماء في ذلك إنما أبيح لما فيه من المثاقفة وتدريب الجوارح على معاني الحروب وهو من باب الإرماء والأخذ في الاستعداد ، مع ما كان في ذلك من استئلافهم وتأنيسهم وترك تنفيرهم (٤) .

فالفرق كبير بين الدلالة الحربية بما فعله الحبش في مسجد رسول الله ﷺ في ذلك الوقت ومن الدلالة العبثية لهذا الرقص الذي يراد له أن يكون عبادة من العبادات (٥) .

وكان من نتائج هذا الاتجاه أن كثرت في عصور الضعف هذه الرباطات التي خالطتها تلك

---

(١) الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، جـ ١ ، ص ٢٦٩ .

(٢) المعيار المعرب ، جـ ١ ، ص ١٦٠ .

(٣) نفس المصدر ، جـ٣ ، ص ٢٥٢ والشيخ المسئول هو ابن لب .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

الصفات ووردت فيها أوصاف لصالحين كما وردت أوصاف لفاسدين أيضاً ربما زاد عددهم على عدد الصالحين في المجتمع ، ومن أوصاف الصالحين فقد حكى ابن بطوطة مادحاً لقاءه بالشيخ الفقيه أبي علي عمران بن الشيخ الصالح الولي بن عبدا لله المحروق وحكى أنه أقام بزاويته أياماً خارج غرناطة وأنه أكرمه أشد الإكرام (١) ، وأشاد كثير من المؤرخين في بداية الأمر برباط ابن المحروق (٢) الذي كان يسهر المرابطون بداخله على حماية غرناطة وصد العدوان النصراني وأخذ الحيطة والحذر والمشاركة في الجهاد والحث عليه .

لكن في القرن التاسع الهجري اشتكى السلطان يوسف الثالث من التغير الذي طرأ على الرباطات وتهاون المرابطين في أداء واجباتهم بل والتسامح مع النصارى في هتكهم لحرمات المسلمين فقال :

لهف نفسي على الثغور تخلت ... فهي صفر من الكماة الحماةِ
وأناسٌ على المعاصي جهاراً ... قد أباحوا حريمنا للعداةِ
لستُ للصِّيد من خلائف نصر ... يوم أهنأ بسلم تلك العتاةِ (٣)

من ناحية أخرى انتشرت بين المرابطين في تلك الرباطات بعض العادات التي انتشرت بين بعض فئات المجتمع الغرناطي وسمت نفسها فئة الفقراء ، وقد أورد الشاطبي في فتواه معلومات كثيرة عن هؤلاء ، ومما ورد في ذلك السؤال الذي تعلق بطائفة الفقراء والذي قاله فيه الشاطبي ((سألت وفقني ا لله وإياك عن قوم يتسمون بالفقر يجتمعون في بعض الليالي ويأخذون في الذكر ثم في الغناء والضرب بالأكف والشطح إلى آخر الليل ..... (٤) .

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٧٢ .

(٢) انظر ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ ٤ ص ٢٠٢ وانظر ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٤ ص ١٩٤ .

(٣) ديوان يوسف الثالث ، ص ١٨ .

(٤) فتاوى الإمام الشاطبي ، ص ١٩٣ .

فالجواب وا لله الموفق للصواب أن اجتماعهم للذكر على صوت واحد إحدى البدع المحدثات التي لم تكن في زمان رسول ا لله (ﷺ) ولازمان الصحابة ولا من بعدهم ولا عرف ذلك قط من شريعة محمد ﷺ بل هو من البدع التي سماها رسول ا لله (ﷺ) ضلالة وهي مردوده)) [١] .

وتقدم عملية الجهاد في مملكة غرناطة في تأثر المجتمع بها لفتة طيبة كريمة حيث قدم الشعب الغرناطي نماذج لعلماء كانوا حفظة ومفسرين لكتاب ا لله وفقهاء بسنة رسول ا لله ﷺ في طليعة المجاهدين أمثال : محمد بن أحمد بن محمد بن عبدا لله بن يحيى بن عبدالرحمن ابن يوسف بن جزي الكلبي الذي استشهد وهو يحث الناس ويحرضهم ويثبت بصائرهم يوم الكائنة بطريف ضحوة يوم الاثنين السابع لجمادى الأولى عام أحد وأربعين وسبعمائة [٢] .

ومحمد بن علي بن هاني اللخمي الشهيد في الدفاع عن جبل الفتح سنة ٧٣٣هـ [٣] /١٣٣٢م إذ هب إلى لقاء العدو من سبتة وانضم إلى المجاهدين الغرناطيين فأصيب بحجر منجنيق في رأسه وكتفه [٤] .

ومحمد بن محمد بن عبدالملك بن سعد الأوسي توفي شهيداً في ذي القعدة سنة ٧٤٣هـ [٥] /١٣٤٢م .

وأبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن عاصم شهيد معركة أنتقيرة سنة ٨١٣هـ [٦] /١٤١٠م وغيرهم كثير .

---

(١) الشاطبي : فتاوى الإمام الشاطبي ، ص ١٩٣ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٢٣ .

(٣) مجهول : الأمنية ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ٤ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٦) مخلوف : محمد بن محمد ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، دار الفكر للطباعة والنشر (د. ت) ص ٢٤٧ .

وبذلك برزت نماذج جهادية جمعت بين العمق في الدين والإخلاص لله سبحانه وتعالى في ساحات الحرب .

كما أن مختلف طوائف المجتمع الغرناطي كانت تشارك في الجهاد وصد العدوان مثل الأطباء والعمال وصانعي الأسلحة والشعراء والخطباء كانوا جميعاً في خدمة الفرق النصرية النظامية في أرض المعركة .

ويقدم الونشريسي لوناً من الاجتهاد الرائع المعبر عن الحاجة الاجتماعية المباشرة والموصولة بالجهاد وذلك حين نقل عن أحد المفتين الغرناطيين ويدعى المواق أنه سئل بما نصه : -

((هل يعطى الذين يبنون الأسوار أو يهدمونها لمصلحة حربية من الزكاة ؟ فأجاب رحمه الله قائلاً : لا شك أن هؤلاء الفضلاء الذين يتدربون لعمل هذا النفط برسم هدم سور الحمة أعظم منفعة وأعود مكرمة لمصلحة الأندلس والتوزيع على المسلمين كلهم في هذا أوجب من صرف الزكاة لهم))(١) .

وكان ذلك عاملاً مساعداً للمجتمع الغرناطي في المشاركة في إقامة التحصينات الدفاعية لصد العدوان النصراني إذ قام أهالي مملكة غرناطة بتشييد خط دفاعي من الحصون المنيعة المزودة بالمؤن والتي تقع على هضاب صخرية شديدة الوعورة تمكن الحامية المرابطة فيها من كشف تحركات الأعداء وذلك من البيرة حتى الجزيرة (٢) .

ومن الأعمال الخيرة للشيخ القاضي أبي البركات البلفيقي أنه بنى ثمانية عشر جباً في مواضع متفرقة ونحو عشرين مسجداً وبنى أكثر من سور حصن بلفيق كل ذلك من ماله))(٣) مشاركة منه وإسهاماً مع المجتمع الغرناطي الذي يتعرض للعدوان النصراني بل إن أفراد المجتمع الغرناطي كانوا يرون ذلك واجباً من واجباتهم أملته عليهم ظروف حركة الجهاد الإسلامي فيقول في ذلك أبو البركات :

---

(١) المعيار المعرب ، جـ ٧ ص ١٤٨ .

(٢) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٥٠٨ .

(٣) المقري : نفح الطيب ، جـ ٥ ، ص ٤٧٧ .

في إحتفار الأساس والآبـــار وانتقال التراب والجيـــار
وقعودي ما بين رمل وآجـر وجص والطوب والأحجار
وامتهاني بردي بالطين والماء ورأسي ولحيتي بالغبـــار [١]

ويرى أن ذلك ليس بالغريب على أحد من اهالي مملكة غرناطة حتى ولو كان في مثل مكانته العلمية والوظيفية [٢] .

وهكذا نجد الأحوال الاجتماعية الغرناطية موصولـة بالحركـة الفقهيـة ونجدهمـا معاً موصولتين بحركة الجهاد الإسلامي ضد المعتدين ، سواء ما كان منها في الحياة اليومية العادية أم الحياة الحربية التي كانت شبه مستمرة مع النصارى طول قرنين ونصف من الزمـن والـتي أصبحت أمراً مالوفاً أثّر وتَأثرَ الطرفان المتحاربان في بعضهما .

ففي بداية عهد الدولة النصرية اتخذ بعض أهالي مملكة غرناطة دثار الكتفين الأرغوني كما ذكر ذلك ابن سعيد [٣] .

وبعد ذلك بحوالي قرن من الزمان كتب ابن الخطيـب أنـه في أوائـل عصـر بـني نصـر اقتنى أهالي مملكـة غرناطـة لمعـدات وأمتعـة متشـابهة مـع معـدات وأمتعـة وألبسـة جـيرانهم ومنافسيهم من النصارى [٤] .

أما الآن في عصره ونتيجة لدخول المسلمين من أبناء شمال إفريقيا لمناصرة إخوتهم في العقيدة فإن المؤثرات النصرانية قد تلاشت وأصبحت المؤثرات المغربية أكبر تأثيراً في المجال الحربي في مملكة غرناطة [٥] . كما أدى دخول الجنود المحاربين من بني مرين وبـني عبدالـواد إلى مملكـة غرناطة إلى ازدياد عدد سكانهـا وكثافـة العمـران فيهـا ، إذ أغـدق بنو نصـر الأمـوال علـى

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ٥ ، ص ٤٧٢ .
(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٣) انظر نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ نقلاً عن ابن سعد .
(٤) الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٦ واللمحة البدرية ، ص ٢٨ .
(٥) انظر ابن الخطيب : الإحاطة نفس الجزء والصفحة واللمحة البدرية ، نفس الصفحة .

الجنود المقاتلين سواء كانوا من سكان مملكة غرناطة أو من الدول الإسلامية من شمال إفريقيا وكانت أرزاقهم من الذهب حسب مراتبهم [١] ، كما أسكن سلاطين بني نصر هؤلاء الجنود القصور المرتفعة [٢] مما أدى في بعض الأوقات إلى الاحتكاك بين هؤلاء الجنود وأصحاب المنازل المنخفضة المجاورة لهم فرفعت الشكايات إلى سلطان غرناطة محمد الفقيه بهذا الخصوص ، إذ كثيراً ما يتطلع هؤلاء الجنود إلى عورات تلك المنازل ، فاتخذ السلطان محمد الفقيه إجراءات صارمة تقضي بأن يخرج كل من يحدث منه مثل ذلك التصرف من قصره دون تعويضه بشيء آخر من المنازل [٣] . كذلك أدى ذلك إلى ازدياد العناصر الإسلامية من البربر والعرب في مملكة غرناطة وأدى ذلك بالتالي إلى كثافة السكان .

ولم يكن دخول الجنود من شمال إفريقيا لنصرة إخوانهم في المملكة الغرناطية عاملاً وحيداً من عوامل ازدياد سكان مملكة غرناطة إذ كانت ظاهرة الهجرة أو اللاجئين إلى مملكة غرناطة عند قيامها تتدفق على المدن والقرى الغرناطية بكثافة وخاصة بعد سقوط المدن الاستراتيجية ذات الكثافة السكانية مثل إشبيلية وجيان ، ويؤكد ذلك قول المقري ((فلما أخذت قواعد الأندلس مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية وغيرها انحاز أهل الإسلام إلى غرناطة والمرية ومالقة وغيرها وضاق الملك بعد اتساعه [٤] ، ومما يدل على ذلك قيام حي بأكمله هو حي البيازين على يد هؤلاء المهاجرين [٥] .

إن ظاهرة الهجرة واللجوء إلى مملكة غرناطة لم تُشكل في بادئ الأمر عبئاً ثقيلاً على مملكة غرناطة من الناحية الاجتماعية نظراً لروابط الأخوة الإسلامية التي صهرت تلك المجتمعات المتجانسة في مملكة واحدة متماسكة ـ مملكة غرناطة ـ إذ شعرت تلك المجتمعات

---

(١) العمري : مسالك الأبصار ، القسم الأندلسي ، ص ١٥٩ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص٥٥٨ واللمحة البدرية ، ص ٣٩ .

(٤) نفح الطيب ، جـ ٤ ص ٥١٠ .

(٥) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

أن تنافرها سيعيدها إلى النصارى أو يوقعها فريسة سهلة للعدو الـذي طردهـا مـن ديارهـا ، لذلك نرى حي البيازين الذي نشأ نتيجة لتلك الموجات المتلاحقة من الهجرات تلاصق المنازل بعضها ببعض ولا يتسع المنزل لأكثر من حجرات ثلاث في الدور الواحد حتى يتيح صاحب المنزل لأخيه بناء منزل مجاور له [١] .

لكن بمرور الزمن وعندما إنهالت الخيرات على مملكة غرناطة وخاصة على أسرة بني نصر وبدأ الناس ذوو الحال الميسور والأمراء والوزراء والسلاطين في بناء القصور شعر أصحاب تلك المنازل في الحي الشعبي حي البيازين بأنهم أقل حظاً من أولئك الذين يتطلعون إليهم من قصور الحمراء مما أدى إلى انطلاق الثورات على سلاطين بني نصر من حي البيازين الذي في كل انقلاب من الانقلابات يقوم أهاليه بالصعود إلى الحمراء وجناتها ونهب ما يمكن نهبه من الأثاث والتحف الثمينة [٢] ويجدون في ذلك ترويحاً للنفس من جراء تربية الحيوانات والماشية حتى انقسم أهالي العاصمة غرناطة إلى قسمين متحاربين[٣] : أهالي حي البيازين وأهالي بقية غرناطة ويمثلهم أهالي الحمراء وقصورها .

من ناحية أخرى قامت العائلات المهاجرة الفقيرة بزراعة الأرض التي كانت بوراً وسكنوا في مناطق كانت غير مأهولة بالسكان حتى قال ابن الخطيب إنك لا تكاد تجد أرضاً واحدة غير مزروعة [٤] ، وبالتالي استطاع المهاجرون إلى مملكة غرناطة أن يحصلوا على بعض ما كانوا يحتاجون إليه ويحسنوا من وضعهم الاجتماعي والمعيشي .

---

(١) لمست ذلك من خلال تجولي في هذا الحي ومنازله الذي لا يزال على هيئته القديمة إلى يومنا هذا ، وقد لعب هذا الحي دوراً أساسياً في تاريخ مملكة غرناطة ، انظر النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) كما حدث ذلك في الانقلابات التي أطاحت بعدد من سلاطين بني نصر ، (انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ص ٥٥٣ ، اللمحة البدرية ص ٥٤ وأعمال الأعلام ، جـ ٢ ، ص ٣٠٨ ، ٣٠٩) .

(٣) انظر مجهول : نبذة العصر ، ص ١٦ - ٢١ .

(٤) الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١١٥ .

ويؤكد ابن الخطيب أن معظم سكان مملكة غرناطة كانوا من العرب والبربر [١] ، وأضيف إلى هؤلاء العنصر المولدي والنصراني واليهودي وهم قلة وكل هؤلاء كانت تحكمهم تقاليد عائلية تتفق كثيراً وتختلف أحياناً عن الإطار الإسلامي والطابع العربي ، لكنني مع ذلك أستطيع القول إن الطابع العربي الإسلامي كان هو الغالب على الجميع في مملكة غرناطة [٢] . وكانت النساء الغرناطيات تعرف الواحدة منهن بالحرة إذا كُن عربيات [٣] . ومن خلال ملاحظات السلطان النصري يوسف الأول على المجتمع الغرناطي [٤] ، ومن خلال ملاحظات ابن الخطيب [٥] يمكن الاستنتاج أنه ربما يوجد بعض النساء قد تخلين عن النقاب والحجاب متأثرات بأعداد من النساء النصرانيات من الأسيرات اللاتي وقعن في الأسر نتيجة لحركة الجهاد الإسلامي واللاتي سئمن من عادات النساء العربيات المسلمات ، فمن جملة ذلك أن الشيخ محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن الفخار الجذامي كان متزوجاً جارية رومية مملوكة ، لا يشتمل منزله على سواها لما رأى تمادي الضجر بها من الحجاب طلقها وأصحبها إلى أرضها [٦] .

وكما حدث للشاعر الغرناطي أبي الحسن علي العبدري حين راى وجه خليلته بدون نقاب وضجرها من الحجاب فقال :

أسافرة النقاب سحرت لما أماطت الخز عن بدر التمام

لعمر أبيك ما بالنوم بعـد عن الجفن المكحل بالظلام [٧]

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٢ ، ١٣٥ .

(٢) انظر : نفس المصدر والصفحات .

(٣) المقري : نفح الطيب : جـ ٥ ، ص ٤٧٩ .

(٤) انظر : قانون يوسف الأول في شبانه : يوسف الأول ، ص ١١٦ .

(٥) مشاهدات ابن الخطيب ، ص ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٩ ، ٥٠ .

(٦) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٩١ ، ٩٢ .

(٧) نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ١٧١ .

ولقد تفشت تلك التاثيرات داخل المجتمع الغرناطي ، ففي الشوارع العامة في الاحتفالات كان الرجال والنساء يتراشقون بماء الزهر والليمون والبرتقال والفواكه الطيبة بينما كانت الراقصات في الشوارع وهواة الطرب يصخبون وينغصون حياة الناس بغنائهم ومزاميرهم وصياحهم (١) .

وهذا كله يدل على الآثار الفكرية والاجتماعية والنصرانية بعامة سواء كانت وافدة عن طريق التجارة أم عن طريق النصارى المجاورين لمملكة غرناطة أم عن طريق الأسرى الذين يؤتى بهم إلى غرناطة كما حدث مع زوجة محمد بن الفخار الجذامي ، وجدير بالذكر أن كثيراً من الأسرى النصارى حتى مع إسلامهم لم يكن باستطاعتهم التخلي عن بعض عاداتهم الاجتماعية التي تتساهل كثيراً في قضايا الغناء والرقص والاختلاط وعدم الحجاب ، ولكن مع هذا كله لم تختف تماماً من غرناطة تلك العادات الإسلامية التي تفصل المرأة عن الاختلاط بالرجال بل إن بعضاً من سلاطين بني نصر كانوا يحاولون تقويتها والإبقاء عليها ، ففي عهد السلطان النصري أبي الوليد إسماعيل أصدر حظراً على ((تجلي الفتيات للرجال في الولائم وقصر طربهن على أجناسهن)) (٢) .

وكذا في عهد السلطان يوسف الأول أصدر أمراً ينص على ذلك (٣) ، وكانت هناك عائلات كثيرة في غرناطة غاية في الورع تفرض على نسائها وضع النقاب وإجبارهن على الالتزام بالحياة الاجتماعية الإسلامية وعدم تفككها رغم تأثرها بحالة الحرب مع النصارى ، وكانت تلك العائلات محط احترام المجتمع الغرناطي وتقديره لنسائهن وفي ذلك يقول الشيخ أبو البركات بن الحاج البلفيقي مخاطباً ابن الخطيب الذي عقد لابنه عبدا لله على ابنة الوزير أبي الحسن بن الوزير بن القاسم بن سهل : ((فسبحان الذي أرشدك لبيت الستر والعافية

---

(١) انظر شبانه : يوسف الأول ص ١١٦ ، ١٢٠ حيث يورد نص قانون يوسف الأول .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٨٨ .

(٣) انظر قانون يوسف الأول في المرجع السابق .

والأصالة وشحوب الأبرار قاتلك ا لله ما أجل اختيارك)) [١] .

وكان الزواج في غرناطة يتم حسب الشريعة الإسلامية بيد أن المهور تأثرت بحالة الحرب مع النصارى فقد كانت مرتفعة في أول الأمر حين كان الناس يتنافسون على الحرائر وحين كانت أعداد الجواري قليلة ، وقد كان صداق مسعودة بنت الشيخ أبي سرحان مسعود مبالغاً فيه ، وكان بين مقدم ومتأخر (كاليه) يشتمل على خدم وعروض من الأثواب الرفيعة وحلي النضار بحسب حسبها الرفيع وذلك أربعة من خلاخل الذهب قيمتها أربعمائة دنير من الذهب العين وتاج من الذهب إلى غير ذلك [٢] .

أما صداق (أخت السلطان) أبي الحجاج بن نصر عند زواجها من أبي الحسن علي ابن نصر فكان ((مبلغه ما بين نقد حاضر وكالي مستأخر ألفا دنير اثنان من دنانير الذهب العين ، وكذا كذا إنعقد النكاح)) [٣] .

وقد استمرت هذه المبالغة في المهور خلال القرن الثامن الهجري ، أما حين كثرت الحروب بين مملكة غرناطة والنصارى وكثرت أعداد الجواري المعروضات في الأسواق وحين كثر الموتى والشهداء من الرجال وترملت النساء وأصبحن أكثر من الرجال فقد انخفضت المهور في مملكة غرناطة في أقل ما يمكن تصوره وأصبح يقدم نقداً بمبلغ بسيط أو ببعض آنية المنزل وتقدم بعض الوثائق الغرناطية صوراً من هذه الزيجات التي كان الصداق فيها قليلاً بل كان بالتقسيط أحياناً ، ونجد في بعض الوثائق أن علي بن موسى بن إبراهيم بن عبدا لله اللخمي زوج الشاب أبا إسحاق إبراهيم بنته فاطمة البكر نظير ستمائة دينار عشرية قبض أبو الزوجة علي من العدد المذكور ثلاث مائة وخمسة وسبعين ديناراً فبرئ الزوج ابن إبراهيم منها وباقي العدد المذكور وقدره مائتان وخمسة وعشرون ديناراً إلى تمام عامين من

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ص ٣٢١ .

(٢) ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ، جـ ١ ، ص ١٠٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٩ ، وكناسة الدكان ص ٥٢ ، ٥٣ .

تاريخ هذا العقد يوم السبت الثامن عشر لجمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة ٨٤٢هـ [1] /١٤٣٨م .

هذا ويلاحظ الانخفاض الشديد للمهر عما كان عليه في القرن الثامن الهجري وعدم وجود حلي من الذهب وعدم لجوء العامة من الناس أو الخاصة إلى كبار الكتاب كما كان ذلك في عهد ابن الخطيب .

وتتكرر الصورة نفسها في كتاب النكاح الذي تم بين الوزير أبي جعفر أحمد بن محمد الفخار وبين البكر أم الفتح بنت الشيخ أبي القاسم الحناط على صداق نقداً قدره ستمائة دينار من الذهب وصفة فرحة شرب من ست أوان بأوقيتين اثنتين من الذهب على طرفيها لانقضاء ستة أشهر من تأريخه ، كما شمل ذلك الصداق بعض الملابس والأواني المنزلية ، كان ذلك في الثامن عشر لذي القعدة من عام ثلاثة وتسعين وثماني مائة ٢٥ أكتوبر ١٤٨٨م [2] .

وهكذا خضعت المهور لعوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية وكان ذلك نتيجة مباشرة من نتائج تأثرها بحركة الجهاد الإسلامي ، والحقيقة أن المجتمع الغرناطي مدين للعلماء والفقهاء بصفة عامة ولابن هذيل بصفة خاصة في المعلومات العديدة التي دونها في كتابيه حلية الفرسان وشعار الشجعان ، وتحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس لما بثه هذان الكتابان بين أهالي مملكة غرناطة من روح جهادية وما سهل بينهم معرفة وسائل الدفاع عن النفس ، مع عدم ترك التزاماتهم الاجتماعية والوظيفية والاقتصادية مما ساعد على استمرار عجلة التقدم والحضارة في مملكة غرناطة والمحافظة على النماء الاقتصادي والتطور العمراني بقدر الإمكان. هذا بالإضافة إلى الأحباس التي كثرت في عهد بني نصر بسبب ازدياد خطر النصارى الأسبان على مملكة غرناطة [3] .

---

(١) وثائق عربية غرناطية ، ص ٨ ، ٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٣) أبو مصطفى ، كمال : الأحباس فيما بين القرنين الرابع والتاسع للهجرة ، دار نشر الثقافة ، شارع حسبو منشا ـ محرم بك ١٩٨٩م ، ص ٤٩ .

تلك الأحباس التي كان يخصص ريعها ودخلها لصالح أعمال الرباط والجهاد وكانت الأحباس تتنوع ما بين أراضي زراعية وعقار وما بين خيل ودروع وسلاح وزكاة أفتى العلماء بجواز صرفها لصالح الجهاد والرباط وعمل التحصينات الدفاعية اللازمة لصد العدوان (١) .

فمن جملة ذلك أنه سئل ابن سراج عن قرية كبيرة بحصن بسطة حبست لصالح المرابطين في حصن قشتال وعين ربع ريعها للضعفاء من أهالي الفرسان بمدينة بسطة ... فأجاب بجواز ذلك (٢) . وتحفل كتب الفتاوى المعاصرة لبني نصر بكثير من الأمثلة على ذلك (٣) . وكان من نتيجة هذه الروح أن أصبح المجتمع الغرناطي مجتمعاً متكاملاً ومتعاوناً وبخاصة في حالات الحرب إذ وقفت المدن الغرناطية مع بعضها في هذه الأزمات ، فيذهب القضاة مثلاً من مالقة إلى وادي آش يطلبون من أهلها ما يتيسر من المال والطعام لما صح عندهم من خروج طاغية قشتالة لحصارها (٤) . وكذا ما قدمه أهالي مدينة سند وادي آش من مساعدات ومؤن غذائية لإخوانهم في غرناطة (٥) . والأمثلة على ذلك كثيرة في كتب الفتاوى الغرناطية (٦) .

---

(١) انظر الونشريسي : المعيار ، جـ ٧ ، ص ١٤٨ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ١٢٣ .

(٣) انظر : الحديقة النضرة حيث ترد العديد من الفتاوى .

(٤) القيسي : ديوان عبدالكريم القيسي ، ص ١٥٤ .

(٥) انظر : مجهول ، نبذة العصر ، ص ٣٦ .

(٦) انظر الحديقة النضرة ، وانظر ابن باق : علي بن محمد ، كتاب زهرة الروض في تلخيص تقدير الفرض ، مخطوط ، نسخة مصورة مهداة للباحث من الدكتور حسن الوراكلي .

وكانت ظاهرة الأسرى ظاهرة واضحة في مجتمع كالمجتمع الغرناطي تقوم الاشتباكات بينه وبين أعدائه على فترات متقطعة وغير ثابتة حتى في الأوقات التي يسود فيها السلام بين الطرفين كان العديد من أبناء غرناطة عرضة للأسر لعدم التزام النصارى التزاماً تاماً بالعهود والمواثيق (١) .

وإذا كانت هذه الظاهرة تتصل بروح التكافل والتعاون التي ألمعت إليها فإنها كذلك تتصل بالأسرة والحياة الاجتماعية .

وكان الأمر يقتضي أن يتعاون القادرون على فك الأسرى وهنا تظهر أصالة الشعور الإسلامي حيث تعجز بعض الأسر عن دفع فدية أسراها ونتيجة لذلك ظهرت بعض الجماعات التي أصبحت متخصصة في فك الأسرى وتسمى جماعة الفكاكين .

ففي رسالة موجهة من غرناطة إلى مملكة أرغون ترد بعض أسماء هؤلاء الفكاكين الذين وجدوا الصعوبات والعراقيل في فك الأسرى حيث قامت حكومة مملكة أرغون بترك بعض التجار فيها يبيعون الأسرى المسلمين فيها خارج مملكة أرغون ، ولهذا تشير الرسالة إلى هذه الناحية شاكية من هذا الأسلوب مطالبة حكام أرغون أن يامروا بخلاص الشكايات على الوجه المطلوب منوهة إلى أن الذين يحملون هذه الشكاية هم من الفكاك من امثال القائد بشيرا ومعه لقين ولد التاجر بشقلين شريحه (٢) ، ومن الفكاكين الذي عملوا في هذا المجال سعد بن يحيى الجناق ومحمد بن حسين الفقيه (٣) وغيرهم .

---

(١) انظر العديد من رسائل الاحتجاج الصادرة من سلاطين غرناطة إلى ملوك قشتالة وأرغون لنقضهم العهود والمواثيق في :

(Los Documentos Arabs Diplomaticos p. 49, 50, 54 .

(2) Ibid , p.101 .

(٣) وثائق عربية غرناطية ، ص ١٠٠ .

وكان الفقه الإسلامي يقوم بدوره في هذه الناحية الاجتماعية التي تأثرت بها الأسر الغرناطية تأثراً بليغاً فحث على التعاون على فك أسر المأسورين ، فقد سئل الشيخ أبو صالح عمن بعث بزكاة ماله إلى الأسارى من المسلمين بدار الحرب لما هم فيه من الجوع والعري والحاجة ، فأجاب هو حسن وزكاته مجزية عنه (١) .

بل إن الموتى كانوا يوصون بجزء من ثرواتهم لصالح إخوانهم الأسرى المحبوسين في سجون النصارى (٢) حتى أن عبدالرحمن بن عبدا لله بن سليمان بن داود الأنصاري الحارثي فدى بكل عضو من أعضائه أسيراً من دار الحرب (٣) وكذا النساء في غرناطة بعضهن بعن حليهن من الذهب لصالح فك الأسارى المسلمين من أبناء وطنهن (٤) .

إن هذه الروح الاجتماعية المتجاوبة كانت تدرك الضغوط التي يتعرض لها الأسرى المسلمون لدى النصارى ، وهي ضغوط مهينة لهم إنسانياً ودينياً واجتماعياً فقد كان النصارى يتبارون في إذلال المسلمين وصرفهم عن دينهم . وأرجح أن شعر عبدالكريم القيسي ونداءاته واستغاثاته وهو أسير وكذا غيره ممن سبقه وجاء بعده قد وصلت إلى أسماع أهالي مملكة غرناطة فأحدثت فيهم تأثيراً عظيماً .

فالقيسي يصف حالته وهو العالم والشاعر الذي لم يحفل النصارى بمكانته ولم يأبهوا بعلمه بل عمدوا إلى إذلاله فيقول :

((واحَسْرتِي بَعْدَ اشتغالي بالعُلُومِ ... وذرسِها وتلاوة القُـــرآن
أُمسي وأصبحُ خادماً متصرفـــاً ... بعبادة الأصنام والصُّلبـــانِ
إن لم أكن بالحفر مشتغلاً أكـــن ... بالهدم مشتغلاً مع البنيـــانِ
والكنس في يوم الجلوس صناعتي ... والرش يتبعه مدى الأحيانِ

---

(١) الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ ١ ص ٣٩٧ .
(٢) وثائق عربية غرناطية ، ص ١٤ .
(٣) ابن الزبير : كتاب صلة الصلة ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ .
(٤) انظر الونشريسي : المعيار ، جـ ٩ ، ص ٢٥٣ .

وبغسلِ أقذار الكلاب تحرُّفي ... في أكثر الأوقات والأزمـــــان
فثيابهم أدرانها مغسولـــــةٌ ... بيدي وثوبي الدهر بالأدران)) [١]

ويقدم القيسي صورة لمساومة الرجل النصراني الذي هو عنده ومبالغته في طلب ثمن فدائه له وعجزه عن الوفاء بطلبه لكي يطلق سراح نفسه وكأنه يستصرخ إخوانــه المسـلمين في مملكة غرناطة القادرين ويحثهم على التعاون على فك أسره هو وإخوانه يقول القيسي :

((ويهزأ حتى إنه ليقول لــــــي ... بكم تفتدي من خدمتي وولائــي؟
فأسكت عنه والجوانح تنطـــوي ... على اعظم الأشجان والبُرَحـــاءِ
فيسألني حتى أقول له بكــــــم ... تريد؟ ولا تسلكْ سبيلَ جفائــــي
فيطلب مني ألفاً من الصفر دائماً ... وعشرين علجاً في أقلّ فـــــداءِ
وأقسم أني لست أملك عشرهـا ... وبعد غطائي دائماً ووطائــــــي
فخطبي عظيم لو حبيتُ بفديـــة ... لصرت يسير الخطبِ في الإسراءِ
وأعظم ما أخشى وأحذر خطبـه ... دوامي أسيراً عنده وبقائــــي)) [٢]

ومع ذلك يرينا القيسي الوجه الآخر لصمود المسلم ففي إيمانه في هـذا الامتحـان الصعب يقدم صورة استعلائه على هذا الواقـع المريـر وكيـف أنـه في هـذه الظـروف النكـداء كتب قصيـدة عصمـاء مادحـاً فيهـا رسـول ا لله ﷺ بينمـا هـو رهـن الاعتقـال عنـد النصـارى ومطلعها :

وصالكُ مقصودي فهل أنت واصلُ؟ ... فليس بقلبي غيرُ حبّك حاصلُ [٣]

ومن الأسرى الذين تأثرت أسرهم وتأثروا اجتماعياً من جراء أسرهم لدى النصارى،

---

(١) القيسي : ديوان عبدالكريم القيسي ، ص ١٩٨ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١١١ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢ وما بعدها .

عبدالرحمن بن عبدا لله بن موسى الأزدي الذي عرف بابن برطلة [١] .

ومنهم إبراهيم القصار من أهل المرية الذي أرسل بشأنه السلطان الغرناطي رسالة إلى ملك أرغون لكي يأمر بالإرشاد إليه وبإعانته على الوصول إلى بلده بعد أن توجه إلى طلبه بعض أهله [٢] .

ومنهم من أهل غرناطة ولد البقين الحجام ، وأحمد الأعرج من أهل وادي آش ومن أهل المنكب أحمد البحيري [٣] .

وأبكر بن حسن الأزرق المأسور بلقنت [٤] ، والرايس أحمد الفرس وسعد الأفطس الشهير بالوقاد ومحمد بن سعيد النغلتي وعبدا لله العربي ومحمد بن أحمد البصلي وقاسم الشرقي [٥] والأسير أحمد بن أحمد البسطي [٦] .

هذا بالإضافة إلى مئات الآلاف من مسلمي غرناطة الذين أسروا لدى النصارى وتأثروا وأُسرهم من جراء ذلك الأسر . إن معرفة عدد هؤلاء الأسرى وتتبعهم وتتبع ما آل إليه مصيرهم يعد عملاً في غاية الصعوبة نظراً للمصير المجهول الذي لقيه عدد كبير منهم ونظرا لعمليات تبادل الأسرى التي كانت تتم أيام أن كانت الدولة النصرية قوية متماسكة ، ولكن لما ضعفت هذه الدولة وانشغلت بالصراعات والنزاعات بين أبناء أسرتها الحاكمة وغرقت في الحرب الأهلية لم يعد ثمة صوت لدى النصارى مسموع يخفف من آلام هؤلاء الأسرى الذين بلغ ببعضهم المكوث في الأسر طول العمر أو أكثر من ربع قرن من الزمن [٧] .

وقد أشار ابن الخطيب في مقالته مقنعة السائل عن المرض الهائل إلى نجاة الأسرى المسلمين

---

(١) ابن الزبير ، صلة الصلة ، القسم الثالث ، ص ١٤٤ .

(2) Documentos , Arabes Diplomomaticos Del Archivo De la corona De Aragon , p. 6 .

(3) Ibid , p.12 .

(4) Ibid , p. 40 .

(5) Ibid , p, 111 .

(٦) وثائق عربية غرناطية ص ١٠٠ .

(٧) انظر الونشريسي : المعيار ، جـ ٣ ، ص ١٦٨ .

في إشبيلية من مرض الطاعون بقوله : ((وتواترت الأخبار بسلامة أماكن لا تطاها الطرق منقطعة عن الناس ولا أعجب في هذا العهد من سجن الأسرى المسلمين - أنقذهم ا لله - بدار صناعة إشبيلية وهم ألوف لم يصبهم الطاعون وقد كاد يستأصل المدينة)) (١) .

وفي هذا النص إشارة بأن أعداد المسلمين الأسرى في سجن واحد بدار إشبيلية "ألوف " فما بالك بالسجون الأخرى ؟! وفيه دلالة أيضاً على أن تلك السجون كانت بحالة سيئة لا يصل إليها أحد ومنقطعة عن العمران والتواصل الاجتماعي .

وفي المقابل كانت هناك نسبة من أسرى النصارى عاشت في المجتمع الغرناطي تنتظر من يتقدم لفك أسرها وكان هؤلاء المأسورون في مملكة غرناطة ينتمون إلى مختلف الطوائف والطبقات الاجتماعية للمجتمع النصراني الأسباني من نبلاء وفلاحين ورجال دين .

وكان يعامل هؤلاء الأسرى معاملة حسنة وفق شريعة الإسلام وهذا ما أدى بعدد كبير منهم اعتناق الإسلام يتضح ذلك من بنود المعاهدة السرية التي أناب فيها الملك القشتالي القائد العسكري ديجو جومت ريبرا لابرامها مع يوسف بن المول نظير توصيله إلى سدة الحكم في غرناطة والتي كان في أحد بنودها أن يتعهد يوسف بن المول بمنع الأسرى النصارى من اعتناق الإسلام إن أرادوا ذلك (٢) .

وبعض هؤلاء الأسرى الذين اعتنقوا الإسلام وصلوا إلى مملكة غرناطة إلى مراكز اجتماعية ذات تأثير وفعالية مثل الحاجب أبي النعيم رضوان الذي كان من أصل قشتالي وقطالوني والذي أسر والده في إحدى المعارك ونشأ وتربى أبو النعيم رضوان في كنف رعاية السلطان إسماعيل الأول وكان مخلصاً في إسلامه وفياً لمملكة غرناطة وشعبها حتى إن ابن الخطيب لم يطلق على أحد في تراجمه لفظ المعظم إلا على الحاجب الوزير أبي النعيم رضوان

---

(١) مقنعة السائل عن المرض الهائل ، من كتاب الطب والأطباء في الأندلس ، جـ ٢ ص ١٨٨ .

(٢) انظر عنان : محمد عبدا لله ، وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجري ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الثاني مدريد ١٣٧٣هـ ، ص ٢٨ - ٤٥ . وانظر :
AG. Spotronto fabio 124 texte G astillan Pubbiepar, L. Syare2 Fernandez , Juan II La truntra de Granada , pp. 39 - 42 .

ووصفه بأنه حسنة الدولة النصرية وفخر مواليها (١) .

أما مكانته الدينية وحبه للإسلام والتأثر به فإنه ((قد اتفق على أنه لم يعاقر سكراً قط ولا زُن بهناة ولا لطخ بريبة ولا وصم بخلة تقدح في منصب ولا باشر عقاب جاز ، ولا أظهر شفاء من غائظ ولا اكتسب من غير التجر والفلاحة مالا)) (٢) ، وهو الذي بنى مدرسة غرناطة التي أشرت إليها (٣) وأنشأ وأقام التحصينات الدفاعية لغرناطة ((فأدار السور الأعظم على الربض الكبير المنسوب للبيازين فانتظم فيه النجد والغور ... وبنى من الأبراج المنيعة في معالم الثغور وروابي مطالعها المنذرة ، ما ينيف على أربعين برجاً فهي ماثلة كالنجوم ما بين البحر الشرقي من ثغر وبيره إلى الأحواز القريبة وأجرى الماء بجبل مورو مهتدياً إلى ما خفى على من تقدمه ، وأفذاذ أمثال هذه الأنقاب يشق تعداده)) (٤) .

أما بالنسبة لجهاده فقد كان يتولى قيادة الجيش النصري وله مواقف جهادية عظيمة منها فتحه لمدينة باغه وحصن المدور وغيرها (٥) .

كل ذلك كان نتيجة لاقتناعه وإيمانه بعقيدة التوحيد وأن الدين عند ا لله الإسلام وعندما رأى ممن حوله من الناس والسلاطين مثل السلطان أبي الوليد ما يمثل الالتزام بالدين الحق والأخلاق الاجتماعية الإسلامية كان أبو النعيم وأبوه متأثرين بذلك وأصبح أبو النعيم قائداً من القواد الذين حملوا لواء الجهاد ضد قشتالة وأرغون .

أما الأسرى من النساء النصرانيات فقد كن محل تقدير وكان سلاطين غرناطة يختارون نساءهم في أغلب الأوقات منهن ، إذ تزوج السلطان محمد الثاني من إمرأتين إحداهن عربية الأصل وهي نزهة بنت خالد فولدت له محمداً وفاطمة والأخرى نصرانية

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٥٠٨ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) انظر الفصل الثاني من الرسالة ، ص ١٤٦ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٥٠٩ .

(٥) نفس المصدر السابق ونفس الجزء ، ص ٥٠٩ ، ٥١٠ .

الأصل (رومية) وتدعى شمس الضحى فولدت له نصراً أبا الجيوش وفرج ومؤمنه [١] .

كما تزوج السلطان أبو الوليد إسماعيل من مملوكته " علوة " التي ولدت له محمدا وفرجا وفاطمة ومريم ، ومن مملوكته أيضاً وتدعى " بهار " فولدت له يوسف وتزوج من مملوكته المدعوة بـ " قمر " والتي ولدت له إسماعيل [٢] .

كما تزوج السلطان أبو الحجاج يوسف من جاريتين له مملوكته " بثينة " التي ولدت له محمداً وعائشة [٣] .ومن أمته "مريم " التي أنجبت له إسماعيل وقيساً وفاطمة ومؤمنة وخديجة وشمساً وزينب [٤] .

وكان انتشار الزوجات النصرانيات اللاتي أسلمن شائعاً بين الناس في مملكة غرناطة وبين الأسرة الحاكمة أسرة بني نصر فكان منهن السلاطين العظام من بني نصر مثل السلطان نصر أبي الجيوش ، والسلطان محمد بن إسماعيل (محمد الرابع) والسلطان محمد الخامس [٥] .

وبالإضافة إلى الأسرى النصارى في الحروب المنظمة مع مملكة غرناطة كان الغرناطيون رداً على هجمات النصارى يشنون هجمات على الحدود النصرانية تسفر عن قتل وأسر عدد من النصارى [٦] .

كما كان النصارى يسقطون في أيدي المسلمين أسرى أيضاً ضحايا الأكمنة للمجاهدين

---

(١) النباهي : نزهة البصائر والأبصار ، ص ٨٤ أ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٩٥ أ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٠٠ أ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) لمعرفة نبذة عن حياة هؤلاء السلاطين انظر التمهيد من الرسالة .

(٦) على سبيل المثال لا الحصر ، انظر : ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ، جـ ١ ص ١٣٤ وما بعدها ، ص ١٤٦ وما بعدها ، ص ١٦٠ وما بعدها ، وص ١٧٩ وما بعدها .

المسلمين وفي بعض المواقع بلغ عدد الأسرى النصارى ما يزيد على ألفي أسير [١] . كذلك كان الأمر في البحر إذ يفيد العمري أن لبني نصر ((أسطول حراريق للغزو في البحر الشامي يركبها الأنجاد من الرماة والمغاورين والرؤساء المهرة فيقاتلون العدو على ظهر البحر . وهم الظافرون في الغالب ويغيرون على بلاد النصارى بالساحل أو بقرب الساحل فيستأصلون أهلها ذكورهم وإناثهم ويأتون بهم بلاد المسلمين فيبرزون لهم ويحملونهم إلى غرناطة إلى السلطان فيأخذ منهم ما يشاء ويهدي ويبيع ما يشاء)) [٢] .

ولقد أتاح المسلمون في غرناطة للنصارى الأسرى كسب لقمة العيش بحرية حين شارك هؤلاء الأسرى في زراعة الأرض وحراسة الماشية وتشغيل الطواحين والمشاركة في بناء المساكن والقصور [٣] .

وكان الأسرى النصارى وكرد فعل لمعاملة النصارى للأسرى المسلمين يباعون داخل المملكة الغرناطية أو خارجها فقد أشهدت فاطمة بنت عطية على نفسها بأن محمد بن علي البريطي والد زوجها إبراهيم باع نصرانياً من أحمد الشويخ بأربعة عشر دينارا ذهبية عينية جديدة فقبضها منه وصارت بيده [٤] .

والحقيقة أن وجود النصارى وخاصة الأسرى منهم في المجتمع الغرناطي المسلم ، الذي يقبل التنوع والتعايش كانت آثاره إيجابية يوم كان المسلمون في غرناطة قوة سياسية واقتصادية مرهوبة ، وقد كان كثير من هؤلاء يخلصون في تقديم خدماتهم للدولة يوم كانت قادرة على السيطرة على الأمور .وكان لسماحة الإسلام ولمعايشة النصارى للمسلمين أثره البالغ في هؤلاء النصارى عبادة وأخلاقاً فتعرفوا عن كثب على الكثير من حقائق

---

(١) مجهول : نبذة العصر ، ص ١١ .

(٢) مسالك الأبصار القسم الأندلسي ص ١٥٩ .

(٣) انظر : أبو الحسن الجياب : ديوان أبي الحسن الجياب ، ص ٢١٧ .

(٤) وثائق عربية غرناطية ، ص ٤١ .

الإسلام التي يشوهها ملوك النصارى ورهبانهم ، وكان أبو النعيم رضوان الذي سبقت الإشارة إليه نموذجاً من تلك النماذج .

لكن لما بدأت عوامل الضعف والخلافات تدب في الحكومة الغرناطية تحول بعض هؤلاء إلى عامل تخريب في المجتمع ، وقد نجحوا في اختراق أسرة بني نصر الحاكمة عن طريق النساء والوزراء ومستشاري السوء من النصارى واليهود وعملائهم الواقعين تحت تأثيرهم والحريصين على مكاسبهم من المسلمين الغرناطيين فكانوا عاملاً هاماً من عوامل تدمير أسرة بني نصر ومن ثم تدمير مملكة غرناطة كلها .

ولقد اتفقت المصادر الإسلامية المعاصرة وكذا النصرانية على اعتبار المرحلة الثانية من حكم السلطان أبي الحسن والتي تبدأ بالفيضان الخطير الذي أغرق مدينة غرناطة في الثاني والعشرين من المحرم ٨٨٣هـ / إبريل ١٤٧٨م بداية تسرب التفكك الاجتماعي والانحلال الخلقي في أسرة بني نصر ، إذ غرق السلطان أبو الحسن في المتع والانهماك في الشهوات ، واللهو بالنساء المطربات (١) ، ووقع تحت تأثير الوزير أبي القاسم رضوان بن يعيش سليل الأسرة النصرانية الذي كان يزين له الأعمال السيئة وإهمال الرعية ((ويظهر للناس الصلاح والعفاف وهو بعكس ذلك)) (٢) مما دفع السلطان أبا الحسن إلى الوقوع في كثير من الأخطاء عندما اتبع هواه ، فأهمل الجيش ، وأثقل على شعبه بفرض الضرائب ، ووجد الجنود والفرسان أنفسهم بدون رواتب ومنعوا كذلك من العطايا المعروفة ، والتي كانت من نصيبهم ووصلت بهم الحاجة والفاقة إلى أن اضطرتهم إلى بيع ملابسهم وخيولهم ووصلت به القسوة والرعونة للأمر باعدام العديد من أهل الرأي والتدبير والرؤساء والشجعان من أهل الأندلس وحصونها (٣) .

---

(١) مجهول : نبذة العصر ، ص ٥ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) نفس المصدر ، ص ٦ .

وكان السلطان أبو الحسن علي بن سعد متزوجاً من فاطمة بنت محمد الأيسر (١) ، من أشهر سلاطين غرناطة في القرن التاسع الهجري تلك المرأة التي كان السلطان سعد قد زوج ابنه منها من أجل لم شمل الأسرة النصرية ومحافظة على كيانها الاجتماعي ، فهي ابنة للسلطان محمد الأيسر من أشهر سلاطين غرناطة وزوجة للسلطان القتيل محمد الحادي عشر وأم لأطفاله المخنوقين على يد أبي الحسن ووالده سعد (٢) ، وقد رزق منها أبو الحسن بولدين هما محمد أبو عبدا لله ويوسف (٣) .

وكانت فاطمة بنت محمد الأيسر زوجة أبي الحسن تلقب بالحرة (٤) وكانت ألقاب العربية الحرة شائعة بين النساء في غرناطة وذلك في مواجهة النساء والجواري النصرانيات ، وهذا ابن بطوطة الذي زار غرناطة ذكر أن والدة السلطان أبي الحجاج يوسف كانت تُلقب بالحرة الصالحة (٥) وأكد ابن الخطيب أن أم السلطان أبي الوليد إسماعيل كانت تلقب بالحرة (٦) .

وهذه الألقاب كان الهدف منها الصمود في وجه الغزو الاجتماعي النسائي النصراني الزاحف على مملكة غرناطة وتمييزاً للنساء العربيات المسلمات عن غيرهن من النساء الأسبانيات وتأكيداً على المعاني الإسلامية والعربية (٧) . وكان من نتائج تأثير الوزير رضوان ابن يعيش السالف الذكر أن تزوج السلطان أبو الحسن من إحدى الأسيرات

---

(١) انظر مجهول : نبذة العصر ، ص ٥ .

(٢) انظر تفاصيل ذلك في : العواجي : الخلافات السياسية ، ص ٢٦٣ .

(٣) مجهول : المصدر السابق ، ص ٦ .

(٤) عنان : محمد عبدا لله ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، ط٤ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٤٠٨هـ ، ص ١٩٨ .

(٥) رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٧١ .

(٦) الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٧٨ .

(٧) المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص ٢٨٩ .

النصرانيات الجميلات وتدعى إيزابيل دي سوليس (Isibl de Solis) والتي اتخذت اسم ثريا بعد اعتناقها الإسلام [١] .

مما أدى إلى استحكام العداء الاجتماعي داخل الأسرة النصرية ، إذ أصبحت ثريا ذات تأثير على أبي الحسن حتى إنه هجر زوجته فاطمة العربية الأصل [٢] التي كان قد رزق منها بولدين هما محمد أبو عبدا لله ويوسف وازداد هذا العداء بين سلطان غرناطة وحاشيته عند ميله الكبير " لثريا " والتي رزق منها بولدين أيضاً هما " سعد " و "نصر " .

ومن خلال الخلاف الاجتماعي الذي نشب داخل الأسرة النصرية وفرار أبي عبدا لله وصراعه مع أبيه وعمه الذي تحول إلى هدم سياسي كانت مملكة قشتالة قد حددت هدفها بالاتحاد مع مملكة أرغون في القضاء على مملكة غرناطة وإجلاء المسلمين نهائياً عن شبه جزيرة إيبيريا .

وإن كنت قد تحدثت عن الآثار الاجتماعية للأسرى النصارى داخل مملكة غرناطة فجدير بالذكر أنه في مواجهة هذه الصورة الكريمة لمعاملة المسلمين للأسرى النصارى والتي بلغت إلى حد تمكين بعضهم من أكبر المناصب السياسية والاجتماعية ، كان الأسرى المسلمون يعاملون في مملكتي قشتالة وأرغون أسوأ معاملة على النحو الذي ذكره الأسير عبدالكريم القيسي والذي ألمعت إليه سابقاً ، بل كان الأمر يبلغ إلى ما هو أكثر من ذلك ، فقد كانوا يعملون على تعذيبهم وإذلالهم بل واستئصال طائفة منهم بعد ((أن أنهكهم الاعتقال والقيود الثقال وأضرعهم الإسار وجللهم الانكسار فجدلوهم في مصرع واحد وتركوهم عبرة للرائي والمشاهد)) [٣] ، وهذا النص لابن الخطيب يقصد به الأسرى المسلمين الغرناطيين من أهل مدينة أطريرة الذين قتلهم النصارى وكان عددهم كثيراً فبعث السلطان

---

(١) مجهول : نبذة العصر ، ص ٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ، جـ ١ ، ص ١٩١ ، ١٩٢ .

النصري بهذا الخبر المؤلم إلى السلطان الحفصي في تونس (١) .

حتى أن نصارى قشتالة لم يتورعوا عن انتهاز الكوارث والزلازل في مهاجمة مسلمي مملكة غرناطة والضغط عليهم في أشد الظروف ، ومن جملة ذلك أنه في يوم الثلاثاء التاسع من جمادى الآخرة وصلت رسالة من إبراهيم بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عز الدين بن التونسي إلى صديقه الشيخ أبي عبدا لله بن محمد الشهير بالراعي المغربي المقيم بالقاهرة تتضمن معلومات عن مسلمي مملكة غرناطة - المنقطعة بين بحر زاخر وعدو كافر - مفادها ((أنه في يوم الحادي عشر من شعبان عام أربعة وثلاثين وثمانمائة بعد صلاة الظهر وقعت زلزلة عظيمة ، خُربت بها أبنية الأقليم كلها وسقطت حيطانها كلها على الناس ، وخسفت بلاد كثيرة منها من مرج غرناطة بلد همدان وبلد أوطريره وبلد دلر (٢) ، وانخسف البعض وسلم بعضها ولكن خسفت بلاد كثيرة ، وأما غرناطة فتهرست كلها ... واستمرت الأرض تهتز بعد ذلك نحو خمسة وأربعين يوماً قال ذلك كله بعد الفتن ووصول السلطان المخلوع في تونس إلى الأندلس ... فوصل الخبر بذلك الشر والزلازل إلى صاحب قشتالة سلطان الفرنج الفنشي (٣) ، فجمع جموعه وهيأ مراكبه وخرج إلى قرطبة ليأخذ غرناطة وجمع بلاد الأندلس فوصل الخبر لغرناطة بأن الافرنج قد علموا بما جرى على المسلمين من الفتن والزلازل والخسف وكان الناس قد خرجوا إلى البراري خوفاً من الزلازل وسكنوا في الخيام والأخبية فلما سمعوا بذلك خرج سلطان الإفرنج لغرناطة في عدد كثير لا يحصى يريد أخذ غرناطة وجميع البلاد الأندلسية ، فخاف المسلمون واشتد عليهم الخوف من كل وجه . وأن أكثر الجيش قد هلك في الفتن والزلازل ، فإن الذين ماتوا فيها أكثر من ستة آلاف نفس فلذلك تجرأ عليهم النصارى والتقوا مع المسلمين يوم الجمعة والسبت متواليين وقتل

---

(١) ابن الخطيب ، جـ ١ ، ص ١٧٩ -٢٠٢ .

(٢) عن مواقع همدان واطريرة ودلر انظر الخارطة في الملحق رقم : (٣) .

(٣) هو الملك القشتالي خوان الثاني .

من المسلمين نحو خمسة عشر ألفاً .....)) (١) ، بالإضافة إلى أسر عدد كبير من المسلمين الذين خرجوا إلى البادية خوفاً من الزلازل واستطاع عدد من هؤلاء الأسرى الهرب والعودة إلى غرناطة (٢) ، كان ذلك في عهد السلطان محمد الأيسر (٣) . وكانت كل هذه الصور تضفي على الحياة الاجتماعية في مملكة غرناطة لوناً من القلق والتوتر خاصة في النصف الأخير من حياة غرناطة . ففي الثامن عشر من شهر المحرم ٨٨٧هـ / ٢٨ فبراير١٤٨٢م تسللت فرقة من النصارى إلى داخل مدينة الحمة ((والناس نيام مطمئنون فلم يشعر أحد إلا والنصارى قد هبطوا من القصبة على البلد بالسيف والقتل والسبي حتى قتل من نفد أجله وفر من قدر على الفرار)) (٤) ، وعندما استرد المسلمون وعيهم من الذهول قاوموا بشراسة وعنف وعناد في الحظائر والشوارع والمساجد وخاصة المسجد الكبير ، وبعد استسلام وأسر من تبقى من سكان الحمة أحرق النصارى مدينة الحمة بمن فيها من الأسرى من الصبيان والنساء والشيوخ فغرقت المدينة في الدم والنار وأعمل النصارى في اهلها القتل والسلب والنهب ، كما تؤكد ذلك المصادر النصرانية المعاصرة بكل تبجح وفخر (٥) .

وعندما هاجم الملك فرناندو مدينة مالقة سنة ٨٩٢هـ /١٤٨٦م وضرب حولها الحصار بجيش كبير وأشعلت المدفعية النصرانية النيران في جميع أحيائها وقف المسلمون يدافعون عن أنفسهم بشجاعة منقطعة النظير لمدة شهرين ، وفي الشهر الثالث حدث نقص في المواد الغذائية بين المسلمين حتى أكلوا ما عندهم من لحوم الخيول والحمير والكلاب

---

(١) العيني : بدر الدين ، عقد الجمان في تأريخ أهل الزمان ، تحقيق وتعليق عبدالرزاق الصفطاوي القرموط ، الزهروالإعلام العربي ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٩هـ ، ص ٤١٥ - ٤١٧ .

(٢) نفس المصدر والصفحات .

(٣) لمعرفة هذا السلطان انظر التمهيد من الرسالة ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٤) مجهول : نبذة العصر ، ص ٧ .

(5) **Peres del Pulgar (Herrana) coronica de Los Senores Rey Catolicos don Fernando Ydona isabl de Castilla de Aragon [B. A. E.] Madrid 1935 , p. 16 .**

وأوراق الشجر [١] ، لم يستسلم أهالي مالقة إلا بعد مفاوضات مع الملك فرناندو منحهم فيها العهود والمواثيق في الخروج بأمان وعندما تم الاتفاق على ذلك دخل الجيش النصراني مدينة مالقة ونقضوا العهد والميثاق وأعملوا في أهلها القتل والسبي وسيق من بقي منهم حياً أسرى وتم بيعهم في أسواق النصارى بمبلغ٦٥ مليون مارفيدا أودعت الخزانة القشتالية [٢] ، ويعلق على ذلك مؤلف نبذة العصر المعاصر للحدث بقوله : ((وكان مصابهم عظيماً تحزن له القلوب وتذهل له النفوس وتبكي مصابهم العيون بالدماء فإنا لله وإنا إليه راجعون))[٣] .

وهذا الأمر قد أدى إلى خلل كبير في المجتمع الغرناطي واهتزاز كيانه إذ أدى إلى تشريد آلاف الأسر من منازلها وإلى التفريق بين الآباء وابنائهم والأمهات وأبنائهن وإلى تفكك سائر الروابط الأسرية وإلى انتشار الفقر والمرض والمجاعة ووجود الأيتام والأرامل والمهملين في المجتمع الغرناطي .

وليس ما حدث في الحمة ومالقة الأحداث الوحيدة فقد كانت آلاف الأحداث منذ قيام مملكة غرناطة إلى سقوطها الخوض في تفاصيلها لا يستطاع في هذا المقام بالإضافة إلى المعارك الحربية المنظمة ((إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من ا لله ما لا يرجون)) [٤] . حتى أن المجتمع المغربي في عصر الضعف قد شعر بتلك الأحداث ففي سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م هب الشيخ عبدا لله بن محمد العنابي الدرعي لجمع المعونات لفداء أسرى مملكة غرناطة فرحل إلى فاس ولقي الشيخ أبا زكريا الوطاسي فتفاوض معه في ذلك فأخذ السلطان بيده وأدخله داره ونادى نساءه وجواريه فأمرهم بالسلام عليه ثم قال لهن الشيخ يريد فداء أسارى المسلمين فمن كان عندها صدقة فلتدفعها إليه فطرحن الثياب والحلي والذهب والأحجار الثمينة فسافر الشيخ أبو عبدا لله بأموال لا تحصى ، ثم ركب البحر

---

(١) مجهول : نبذة العصر ، ص ٢٤ .

(2) Pulgar, Coronica de los senores cutolicos, p. 332.

(٣) مجهول : المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٤) الآية : ١٠٤ من سورة النساء .

يريد جزيرة الأندلس فمال البحر وعطب المركب وتوفي الشيخ غريقاً شهيداً وذهبت تلك الأموال [(١)] وا لله غالب على أمره [(٢)] .

ومن بين التأثيرات التي تأثر بها المجتمع في مملكة غرناطة نتيجة لحركة الجهاد الإسلامي وجود الأعداد الكبيرة في المجتمع الغرناطي من اليتامى المهملين من النساء والولدان والأرامل والمفقودين ، فمن بين هؤلاء على سبيل المثال أسرة الوزير أبي عثمان سعيد بن سعد السلمي وهم الإخوة الأشقاء الخمسة محمد وإبراهيم ومريم وفاطمة وعائشة نشأوا يتامى مهملين لا وصي عليهم من أب ولا مقدم من قاض [(٣)] ، وكثيراً ما ورد في كتب الفتاوى الغرناطية أسئلة واستفسارات عن الزواج من اليتيمات والمهملات وعن الفاقدات لأزواجهن بسبب الحرب مع النصارى ، إذ سئل بعض العلماء عمن فقد في هزيمة المسلمين بالأرض الغربية من مملكة غرناطة منذ عام كامل وفقد فيها أناس كثيرون ولم تحقق حياتهم من وفاتهم ونساؤهم يطلبن من القاضي رفع الأمر ، فما يكون العمل في هذه القضية ؟! [(٤)] .

فأجاب الذي جرى به عمل أهل الأندلس في المسألة أن يثبت عند القاضي حضور المفقود في صف القتال ، فإذا ثبت ذلك عنده أجله سنة من أجل يوم يثبت ذلك عنده فإذا تمت السنة ولم يسمع له خبرا اعتدت زوجته وقسم ماله بين ورثته الموجودين يوم الوقفة ، وإن لم يثبت حضوره في المعترك فحكمه المفقود في أرض الشرك في غير قتال يعمر في زوجته وماله وقيل يعمر في المال فقط ، ويضرب له أجل أربع سنين في الزوجة كمفقود في أرض الإسلام [(٥)] .

---

(١) الشفشاوني : دوحة الناشر ، ص ٩٢ .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وا لله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ آية ٢١ من سورة يوسف .

(٣) وثائق عربية غرناطية ، ص ٤ .

(٤) الونشريسي : المعيار ، جـ ٣ ، ص ٣٣٨ .

(٥) نفس المصدر والجزء ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

وتأثر نظام الأسرة الغرناطية إذ إن الأسير يبقى في السجن لمدة طويلة ولا يجد من يفك أسره فيضطر إلى الزواج من نصرانية أو يتزوج من أسيرة مسلمة ، أويتنصر ويتزوج من نصرانية ثم يهرب بها إلى غرناطة ويعود إلى الإسلام .

فقد سئل أبو عبدا لله المواق عن رجل أسره العدو وبقي في الأسر خمسة وعشرين عاماً فتزوج بأرض الحرب امرأة أسيرة من أسرى شمينة وأولدها نحو خمسة من الأولاد فماتوا ، وبقي منهم بنت بعثها لأرض الإسلام بعد أن فداها من أيدي النصارى الذين كان هو في قبضتهم فأخذت في الطريق وأسرت ، فخرج هو لأرض الإسلام وفداها مرة ثانية ، وأخرجها إلى أرض الإسلام ويقول بنتي ، فزوجها ونحلها نحلة ثم مات قبل بناء الزوج بها فوافق أخوها على ما ادعاه أبوه ، وقال بعض الفضوليين هذا النكاح لا يصح وهذه النحلة لا تصح ، فإن هذه البنت عملت بأرض الحرب فهي بنت زنى وأبوها لم يدع قط ذلك ولافاه به فهل يصح هذا النكاح الذي أنكحها والدها وهل تصح هذه النحلة بينوا لنا ذلك ؟! [1] .

فأجاب : للأسير أن يتزوج نصرانية لأنه قد تعذر خروجه وكذلك للأسير أن يطأ زوجته الأسيرة ، فتزوج الأسير المذكور في المكتوب هذا بالأسيرة المذكورة جائز ، والأمر في ذلك محمول على الصحة ، فمن قال في البنت المذكورة بنت زنى ، يجب أن يضرب ثمانين سوطاً والنحلة لها صحيحة ونسبها ثابت [2] .

وهكذا نجد الفقه الإسلامي في غرناطة يتصدى لمشاكل اجتماعية كثيرة تعرض لها المجتمع الغرناطي المسلم ويعمل الفقهاء دائماً على تماسكه وحل مشكلاته الأسرية الناتجة عن التأثر بحركة الجهاد الإسلامي ، فقد سئل ابن سراج عن رجل تنصر وتزوج في أرض العدو نصرانية وأقام معها سنين ثم عاد إلى الإسلام وأسلم وأسلمت هي معه في زمان

---

(١) الونشريسي : المعيار ، جـ ٣ ص ١٦٨ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٩ .

واحد ، وخرجا إلى بلاد المسلمين ، هل يقران على نكاحهما أم يفسخ بطلاق ، وبعد ذلك ينشئان عقداً آخر ، وعلى أنه يفسخ فما يكون الحكم فيهما اليوم إذ هما باقيان على ما كانا عليه لم يفرق بينهما وهل يؤدب كل منهما أم لا ؟ (١) .

فأجاب : تصفحت السؤال أعلاه والجواب أن المرتد لا يقر على نكاحه في حال ردته على المشهور .... فيفسخ النكاح المسئول عنه بطلاق ، وتتربص المرأة حتى يمضي لها ثلاثة أطهار ويردها الزوج إن أحب ولا يلحق واحد منهما أدب في إبقاء الزوجة معه في الأيام التي أبقاها مراعاة للخلاف ، والولد لاحق (٢) .

وما أوردته إلا نماذج من كثير من تلك المشكلات المترتبة على التأثر بحركة الجهاد الإسلامي والتي كان الفقه الإسلامي الغرناطي يرصدها وينير للمسلمين فيها سبل الرشاد . ويلاحظ في مملكة غرناطة النقص الذي حدث في الأعداد البشرية في المجتمع بصفة عامة وبين صفوف المقاتلين بصفة خاصة نتيجة لعمليات القتل والأسر وما ترتب على ذلك من انتشار الأوبئة والفقر ، والهجرة إلى شمال إفريقيا والمشرق ، فقد أشارت المصادر الإسلامية إلى كثافة السكان في غرناطة ووفقاً لما ذكره العمري أن حي البيازين بغرناطة كان يخرج منه خمسة عشر ألف مقاتل كلهم شجعان مقاتلون معتادون بالحروب (٣) .

وبعد مرور حوالي قرن من الزمان قال عبدالباسط بن خليل الحنفي أنه يوجد في غرناطة ثمانون ألف رام بقوس الجرح (٤) .

وفي دراسة قام بها أحد الأساتذة الأسبان (L. Torres Balbas) حول جغرافية مملكة غرناطة يذكر أن عدد السكان في عاصمة بني نصر " غرناطة " في القرن الرابع عشر

---

(١) الونشريسي : المعيار ، جـ ٣ ص ٢٥٠ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) مسالك الأبصار قسم الأندلس ، ص ١٥٨ .

(4) Al- Andalus , Revista, p. 314 .

والخامس عشر قد ارتفع إلى ٥٠٠٠٠ نسمه موزعين على مائة وسبعين هكتار [١] . إلا أنني ألاحظ أن عدد سكان مملكة غرناطة كانوا يمثلون رسماً بيانياً يرتفع تارة وينخفض أخرى متأثراً أكثر من أي مجتمع إسلامي آخر بحركة الجهاد الإسلامي .

فبعد انهيار دولة الموحدين واضطراب الأندلس وتردد صيحات الهزيمة وشد الرواحل وقبيل انتظام عقد دولة بني نصر نلاحظ نقصاً واضحاً في عدد المقاتلين وسكان الإقليم الجنوبي من شبه جزيرة إيبريا وليس أدل على ذلك من استيلاء النصارى على مدينة إشبيلية ومدينة جيان مما أدى إلى رحيل السكان منها إلى شمال إفريقيا والمشرق الإسلامي ومن تبقى منهم انحاز إلى غرناطة حيث السلطان محمد بن يوسف بن نصر الذي لم يستطع جيشه التصدي للجيش النصراني مما إدى إلى سقوط هاتين المدينتين واضطر السلطان إلى توقيع معاهدة سلام نصت إحدى بنودها على أن يسود السلام بين الطرفين لمدة عشرين عاماً [٢] .

وخلال هذه الفترة حدث نوع من الاطمئنان والدعوة إلى الصمود والعودة إلى أرض الوطن ، كما أن السلطان محمد بن يوسف بن نصر قد استدعى المقاتلين المسلمين من شمال إفريقيا إلى الدخول إلى الأراضي الأندلسية لمناصرة إخوانهم من سكان مملكة بني نصر [٣] مما أدى إلى ارتفاع الروح المعنوية لدى المدجنين [٤] ، وكذا سكان مملكة غرناطة وأدى ذلك أيضاً إلى عودة الكثير ممن غادروا ديارهم فارتفع عدد السكان في مملكة غرناطة خاصة في عهد السلطان الثاني محمد الفقيه والذي في عهده عبر بنو مرين البحر لنصرة إخوانهم في مملكة بني نصر كما سبق شرح ذلك وبيانه [٥] . إلا أن الممالك النصرانية

---

(1) L. Torro Balbas E Squeme de mograltca de Garnada, dans Al Andalus, vol. XXI 1965 fasc, I, p 142.

(٢) ابن عذاري : البيان ، جـ ٢ ص ٣٦٧ ، ابن الخطيب : الإحاطة جـ ٢ ص ٩٨ .

(٣) انظر ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ، ص ٩٨ .

(٤) من فعل دجن وهم الذين بقوا تحت الاحتلال النصراني لأراضيهم ومدنهم .

(٥) انظر الفصل الأول من الرسالة .

الأسبانية وأوروبا كلها كانت ترقب تلك التطورات وإن كان التضامن بين بني نصر وبني مرين قد أدى إلى ارتفاع عدد سكان مملكة غرناطة خاصة المقاتلين منهم ، فإن الخلاف والصراع أيضاً بين الدولتين قد أدى إلى انخفاض عدد سكان مملكة بني نصر بعد أن ارتفع في فترة ما إلى درجة كبيرة نتيجة للتضامن الإسلامي بين الدولتين أصبحت خلالها غرناطة القلب النابض في أوروبا [١] . وليس أدل على ذلك من أنه في عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل كان عدد سكان مملكة غرناطة قد تناقص نظراً للفتن والاضطرابات والخلاف مع بني مرين والذي حدث في عهد السلطان محمد الثالث عندما استولت مملكة غرناطة على جزيرة سبتة المرينية وحدث النقص في عدد المقاتلين الغرناطيين نظراً للقطيعة بين الطرفين ، فأدرك النصارى في مملكة قشتالى قلة عدد المقاتلين الغرناطيين سنة ٧١٦هـ /١٣١٦م فذهب الأمير النصراني (دون خوان بسكي) إلى البابا ((وسجد له وتضرع وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس)) [٢] ، عندئذ قدم له البابا الأموال اللازمة لاتمام تلك الحملة الصليبية مما ساعد الأميرين (دون بدرو ، دون خوان) على تجهيز جيش تحت قيادتهما ودعوا النصارى في جميع أنحاء أوروبا بالانخراط في هذا الجيش ، عندئذ لجأ سلطان غرناطة أبي الوليد إسماعيل وجيشه القليل إلى ((أعظم الأدوية وهو اللجوء إلى ا الله تعالى)) [٣] عملاً واعتقاداً في قوله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ [٤] .

وأكدت المصادر الإسلامية على كثرة الجيش النصراني وأن جيش مملكة غرناطة لم يتجاوز

---

(١) انظر ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٣٨ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٤٤٩ .

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٥٠ .

(٤) الآيتان ١٧٣ ، ١٧٤ من سورة آل عمران .

ألفي فارس استشهد منهم ثلاثة عشر رجلاً فقط وهزم الجيش الصليبي وقتل قائده ، وكان النصر من عند الله للفئة القليلة [1] .

ولكن بعد أن استقرت الأوضاع في مملكة غرناطة وازدهرت الحياة الاجتماعية فيها وتطور النمو العمراني والسكاني مما يضيق المجال عن سرد تفاصيله ، وقويت العلاقات بين مملكة غرناطة والشمال الإفريقي بصفة خاصة مع بني مرين أشاد العمري بكثافة السكان في مملكة بني نصر ووصفها بقوله : ((طول مسافتها عشرة أيام وعرضها ثلاثة أيام وسلطانها الآن على عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة هو يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر مستقرة غرناطة وهي الآن دار هذه المملكة وأضخم بلادها ... وربض البيازين الذي بناحية باب الدفاف هو كثير العمارة يخرج منه نحو خمسة عشر ألف مقاتل)) [2] .

وإذا علمنا أنه في سنة ٧١٦هـ /١٣١٦م كان عدد المقاتلين الغرناطيين الذين خرجوا للتصدي للجيش الصليبي لا يتجاوز ألفي مقاتل أستقرئ أن فترة السلام والاستقرار التي نعمت به مملكة غرناطة في عهد السلطان يوسف أبي الحجاج قد ساهمت في ازدياد عدد السكان في مملكة غرناطة بصفة عامة والعاصمة بصفة خاصة رافده في ذلك التضامن الإسلامي بين الدولتين النصرية والمرينية مما أدى إلى استعداد الدولتين النصرية والمرينية لخوض الحرب مع الممالك النصرية الأسبانية بل مع الجيوش النصرانية المتحالفة وتفجرت الأوضاع في معركة طريف المشهورة ، تلك المعركة التي انتصرت فيها الجيوش النصرانية الغازية على الجيش النصري والمريني وبالتالي تناقص عدد السكان في مملكة غرناطة نتيجة لاستشهاد عدد أكبر من المسلمين الغرناطيين والمغاربة ، ولم يبق منزل في غرناطة تقريباً إلا وفقد من أسرته شهيداً [3] ، وعلى سبيل المثال فقد الوزير ابن الخطيب في تلك المعركة

---

(١) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٨٩ وانظر ابن خلدون : العبر ، جـ ١ ، ص ٢٥٠ .

(٢) مسالك الأبصار ، القسم الأندلسي ، ص ١٥٨ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٤ ، ص ٣١٩ ، ٣٢٢ .

أخاه وأباه [1] .

وبالإضافة إلى الشهداء فقد أسر عدد كبير من أهالي مملكة غرناطة وفقد آخرون [2] ، وبعد معركة طريف بفترة من الزمن وفي عهد السلطان محمد الخامس شكا ابن الخطيب من قلة عدد المقاتلين الغرناطيين في رسائل عديدة إلى ملوك وسلاطين الدول الإسلامية [3] .

وليس ثمة شك في أن أموراً أخرى قد ترتبت على حركة الجهاد الإسلامي في مملكة غرناطة وتأثر بها المجتمع الغرناطي مثل تفشي الأوبئة والأمراض والهجرة إلى شمال إفريقيا وبلدان المشرق الإسلامي ، كما انتشرت المجاعات والفقر .

ففي أثناء حصار النصارى لمضيق جبل طارق سنة ٧١٥هـ /١٣١٥م تفشى مرض الطاعون بين النصارى وتوفي الملك ألفونسو الحادي عشر في معسكره ونقلت جثته إلى إشبيلية [4] .

وفي أثناء ذلك أمر السلطان النصري يوسف الأول المقاتلين المسلمين على الجبهة بعدم التعرض للنصارى بالرغم من وجود الفرصة سانحة لهزيمتهم مما يدل على تسامح إسلامي غرناطي رفيع !! [5] .

ومن ثم لم يلبث ذلك المرض أن تفشى بين مسلمي مملكة غرناطة ، ويرى الطبيب ابن خاتمه المعاصر لانتشار ذلك الوباء في مقالته عنه والتي سماها غرض القاصد في المرض الوافد أن من بين أسباب تفشي هذا المرض ((تغير الهواء من جهة المكان والموضع وما يتصل به ، وذلك بأن ترتفع أبخرة فاسدة متعفنة من السباخ والبطائح المتغيرة المياه والخنادق والآجام الريّه

---

(١) ابن الخطيب : جـ ٤ ، ص ٤٤٢ .

(٢) انظر ص ٧٦ من الرسالة حيث تفاصيل تلك المعركة .

(٣) انظر ريحانة الكتاب ، جـ ١ ص ٢٩٩ .

(٤) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٩٥ ، والإحاطة جـ ٤ ، ص ٣٣١ .

(٥) انظر شبانه : يوسف الأول بن الأحمر ، ص ١٤٢ .

الراكدة الهواء والنبات والبقول المتعفنة وأقذار الناس وفضلاتهم وجيف القتلى في الملاحم)) [١] .

ومن المعروف أن هذا الوباء قد اجتاح العالم الإسلامي مشرقا ومغرباً [٢] ، لكن تعرضت لذلك لأن الأطباء في غرناطة المعاصرين لذلك الوباء قد أجمعوا على أن من أسبابه الحروب [٣] وكذا ذكرت المصادر أن انتشاره في الأندلس كان في وقت الحرب [٤] ، وكما هو معلوم حتى يومنا هذا ان الحروب تؤدي إلى الأمراض والمجاعة فرأيت لزاماً عليّ إيضاح ذلك فيما سيأتي من الحديث عن الوباء والمجاعات والكوارث الناتجة عن الحرب .

وبعد قدر ا لله فإن بعض فئات المجتمع الغرناطي من المعوقين أو المصابين عقلياً والمكتئبين نفسياً قد ملأوا شوارع غرناطة ، إذ تركوا أحراراً عدا الخطيرين منهم ، وتعتبر حادثة اغتيال السلطان النصري يوسف الأول على يد أحد أولئك المعتوهين خير دليل على ذلك [٥] . ولمواجهة حالات الأمراض وشئون القتلى والجرحى فقد أنشأ السلطان محمد الخامس (البيمارستان) في غرناطة في أثناء فترة حكمه الثانية ، وقد تم انجاز هذا المستشفى خلال عشرين شهراً من بداية مشروع بنائه أي أنه انتهى بناؤه عام ٧٦٨هـ [٦] /١٣٦٦م

---

(١) الطب والأطباء في الأندلس ، جـ ٢ ص ١٧١ .

(٢) انظر البزاز : محمد الأمين الطاعون الأسود في المغرب في القرن ١٤م ، مقالة منشورة بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، العدد السادس عشر ص ١٠٩ .

(٣) ابن الخطيب في مقالته مقنعة السائل عن المرض الهائل والمنشورة ضمن كتاب الطب والأطباء جـ ٢ ، ص ١٨٧ ، ١٨٩ . ، وابن خاتمة غرض القاصد في المرض الوافد ، جـ ٢ من كتاب الطب والأطباء ، ص ١٧١ .

(٤) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ص ٦٦٥ .

(٥) انظر ابن الخطيب : أعمال الإعلام جـ ٢ ، ص ٣٠٦ والإحاطة جـ ٤ ص ٣٣٣ .

(٦) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٥٠ .

ولقد وصف ابن الخطيب بناء ذلك المستشفى على يد السلطان محمد الخامس بقوله : ((ومن مواقف الصدق والإحسان من خارق جهاد النفس بناء المارستان الأعظم حسنة هذه التخوم القصوى ، ومزية المدينة الفضلى لم يهتد إليه غيره من الفتح الأول ، مع توفر الضرورة ، وظهور الحاجة فأغرى به همة الدين ، ونفس التقوى ، فأبرزه موقف الأخدان ورحلة الأندلس وفذلكة الحسنات ، فخامة بيت وتعدد مساكن ، ورحب ساحة ودور مياه وصحة هواء وتعدد خزائن ومتوضآت ، وانطلاق جراية وحسن ترتيب أبر على مارستان مصر بالساحة العريضة والأهوية الطيبة وتدفق المياه من فورات الرحل وأسود الصخر وتموج البحر وإنسدال الأشجار))(١) .

وإذا كان تفشي هذا المرض بين كلّ من المتحاربين النصارى والمسلمين في شبه جزيرة أيبيريا كان في أثناء الحرب كما أشرت ، فإن من بين أسباب انتشار هذا الوباء بعد قدر ا لله هو تلك الحرب التي كانت تدور رحاها بين الجانبين .

وسرعان ما انتقل هذا المرض إلى مدينة المرية لقربها من مواقع الحرب والقتال كان ذلك في أول شهر ربيع الأول من عام تسعة وأربعين وسبعمائة بموافقة أول شهر يونيو من عام ١٣٤٨م(٢) ، وكان تفشيه وانتشاره في الركن الشرقي الشمالي من مدينة المرية في الأحياء الفقيرة في حي هناك يعرف ببني ذلة(٣) ثم تفشى المرض في سائر مدينة المرية وبلغ عدد الموتى في كل يوم سبعين نسمه(٤) ، وانتقل إلى سائر مملكة غرناطة ، ففي مالقة بلغ عدد

---

(١) ابن الخطيب : جـ ٢ ص ٥٠ ، ٥١ ، ويشير ابن الخطيب إلى المارستان المنصوري الكبير الذي أنشأه السلطان المنصوري المنصور بن قلاوون سنة ٦٨٣هـ وزاره البلوي في رحلته إلى المشرق ، انظر : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢١٩ .

(٢) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد ، ص ١٧٢ من كتاب الطب والأطباء ، جـ ٢ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

الموتى بها ما يزيد على الألف [١] نسمه .

ولقد عددت كتب التراجم الأندلسية والمغربية أسماء المثقفين والعلماء الذين ماتوا من هذا المرض في المرية وغرناطة ومالقة وبلش مالقة وأنتقيرة وغيرها من المدن النصرية [٢] .

وأشار ابن خاتمة إلى انتشار المجاعة والوباء الذي حدث في مدينة المرية قبل انتشار وباء الطاعون الذي أشار إليه بتسعة عشر عاماً فقال : ((وقد حدث مثل هذا ببلدتنا المرية منذ نحو تسع عشر سنة لمجاعة شديدة وغلاء في السعر واضطر الناس بسببها إلى أكل حبوب متعفنة من القمح والشعير قديمة الاختزان ، لكن عامة من ماتوا في ذلك كانوا الضعفاء والمقلين من الناس لاختصاص السبب بهم)) [٣] .

وإذا علمنا أن تلك المجاعة وقعت سنة ٧٣٠هـ /١٣٢٩م . وأن الصراع كان على أشده على السواحل الغرناطية لأن أوروبا كانت تنوي شن حملة صليبية على مملكة غرناطة وكانت مدينة المرية أحد أهدافها [٤] أدركنا مدى تأثر أحوال الناس بالحرب وما ينجم عنها من مجاعات وكوارث .

وكذا عندما حاصر النصارى مدينة مالقة حتى أكل أهلها الجيف من الحمير والكلاب وأوراق الشجر [٥] لم نجد أحداً في المصادر مثل ابن خاتمة يبين نتائج ذلك الوضع المأساوي الذي فرضه النصارى على مسلمي مالقة وما ترتب على ذلك من نتائج .

إن عمليات الحرب أدت إلى انتشار الفقر بين الناس في مملكة غرناطة حتى أنه في مدينة

---

(١) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١٥٦ .

(٢) انظر ابن الخطيب : في إحاطته أربعة أجزاء ، وابن القاضي : درة الحجال ، ثلاثة أجزاء .

(٣) الطب والأطباء في الأندلس ، جـ ٢ ، ص ١٧١ .

(٤) انظر الفصل الأول من الرسالة ص ٩٤ إذ حاصر النصارى مدينة المرية .

(٥) مجهول : نبذة العصر ، ص ٢٤ .

المرية كان يوجد بها سوق خاص لبيع ثياب الموتى [١] ، ووجد حي بأكمله في المرية يطلق عليه حي بني ذله [٢] .

ومن نتائج حركة الجهاد الإسلامي أن باع المسلمون الغرناطيون عقاراتهم من النصارى بأبخس الأثمان حتى يتمكنوا من الهجرة وإخلاء ديارهم والتي رأى فيها المستوطنون الجدد فرصة سانحة لاثبات هويتهم والاستيطان في الأراضي الإسلامية الغرناطية ، وهذا ما حذر منه ابن الخطيب أبناءه قبل حوالي أكثر من قرن ونصف من الزمن ، فعندما تمكن الملك فرناندو من الاستيلاء على مملكة غرناطة ساعد في بادئ الأمر ورغب المسلمون في الهجرة من ديارهم وبيع ممتلكاتهم ، وقد سارع الأمير النصري محمد بن سعد الزغل في بيع ممتلكاته من الملك فرناندو [٣] انتقاماً من ابن أخيه [٤] .

كذلك كان الحال مع سكان العاصمة غرناطة بعد سقوطها مباشرة وفي ذلك يقول مؤلف نبذة العصر مبيناً السياسة الاجتماعية الماكرة للملك فرناندو : ((فلما اطمأن في البلد سرح لهم الجواز وأتاهم بالمراكب إلى الساحل فصار كل من اراد الجواز يبيع ماله ورياعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل وكذلك يبيع جناته وأرض حرثه وكرمه وفدانه بأقل من ثمن الغلة التي كانت فيه فمنهم من اشتراه من المسلمين الذين عزموا على الدجن ومنهم من اشتراه من النصارى)) [٥] .

وعلى الرغم من أن الأحوال الاجتماعية كانت في مجملها في مملكة غرناطة على امتداد القرنين الثامن والتاسع الهجريين مشوبة بالقلق والتوتر والخوف والحذر والأخذ بأسباب الجهاد وكثيراً ما ارتفعت فيها نسبة الخطر إلى مستوى صعب يصعب تحمله إلى درجة

---

(١) ابن خاتمه : تحصيل الغرض القاصد ، جـ ٢ ص ١٧١ من كتاب الطب والأطباء .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ١٧٢ .

(٣) مجهول : المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٨ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٤٣ .

جسدت فيها أبيات شعرية لعبدالكريم القيسي قال فيها :

مصابٌ عظيمٌ دُهمنا بـــه بهذي الدّيار وخَطْبٌ طـــرَقْ
هجرنا المضاجع من أجلـه وأجفاننا إكتحلـــت بالأرقْ
ولم يبق فيها امرؤٌ قد تـراهُ بذا القطر إلا اعتراه الفـــرقْ
لهذا العدو الذي أمنـــا حرق الزّرع في أرضنا فاحترقْ
وجاز من السبي فوق المنى وكم مسلمٍ دمه قد هـــرقْ
وما خرق اليوم في بسطـةٍ بغرناطة مثله ما خــــرقْ (١)

وبالرغم من هذا فقد كانت هناك بطبيعة الحـال فـترات مناسـبات للـترويح وفـترات تأريخية سمحت بنوع مـن الدعـة والهـدوء والخـروج والمنتزهـات ولهـذا نجـد شـاعراً غرناطيـاً كعبدالكريـم القيسـي نفسـه يكتـب شـعراً أقـرب إلى الدعابـة والمـرح مشـيراً في شـعره إلى الخروف الذي أعده أضحية لعيد الأضحى والذي وافتـه المنيـة قبـل يـوم العيـد بأيـام قلائـل فكتب القيسي شعراً يرثيه مما يدل على تدني مستوى المعيشة وتأثرها من جـراء الحـرب مـع النصارى فيقول :

أي أنس بل أي صبر ألـوف يرتجى مثلي بعد موت الخـــروفِ
ولقد كان لي ضحية عيـــدٍ ذات قرنين رائقين وصـــــوفِ
كم شعيرٍ أطعمته مع فـــولٍ كله محكم وكم من رغيـــــف
مات غماً كان صاحب لحـمٍ وعلى ذي الشحم إعتدادُ شفُوفِ (٢)

وكـانت مدينـة أنـدرش الصغـيرة تعـد منتزهـاً لأهـالي مدينـة غرناطـة يقصدونهـا للترويح عن أنفسهم وصفها الحميري بأنها مـن أنـزه البلـدان (٣) وفيهـا يقـول أبـو الحجـاج الإشبيلي :

---

(١) ديوان عبدالكريم القيسي : ص ٢٨٣ .

(٢) نفس المصدر ص ١٦٤ .

(٣) صفة جزيرة الأندلس ، ص ٣١ .

لله أندرشٌ لقد حازتْ علَـــى

حسن تتيه به علـــى البلدان

النّهرُ منساب سَرتْ خلجانـــه

في الروض بين أزاهر الكتــان [١]

ومن أماكن النزهة والترفيه أيضاً وادي شنيل متنزهاً آخر إلى جانب أنـدرش يرتـاده أهل غرناطة أيضاً قد وصفه ابن الخطيب بأن لأهل الحضرة بجناته كلف ولذوي البطالة فـوق نهره أريك من دمث الرمل وحجال من ملتف الدوح [٢] .

ولأهل غرناطة في أفراح العيد أماكن يجتمعون فيها أشبه مـا تكـون بـالملاعب الكبـيرة تحفـل بكل أصناف اللهو والترويح [٣] واستعراض الجند وعقد لذلك فيها منصات خاصـة يشـارك الحضور فيها السلطان النصري [٤] ، وفي الخريف يحتفـل الغرنـاطيون الميسـورو الحـال بعيـد قطاف العنب أو يوم عصير العنب ، فيغادرون منازلهم في المـدن ويقضـون أيامـاً في الفيـلات المحاطة بأشجار العنب الـتي يمتلكونهـا عنـد سـفوح وسـهول الجبـال ، وبهـذه المناسـبة كـان الرجال والنساء والأطفال يرتدون أجمل الثياب ويقضون أوقاتهم في الموسيقى والرقـص [٥] ، وفي الوقت نفسه كانوا يأخذون حذرهم ولم ينسوا الخطر النصراني المجـاور فكانـوا يحملـون

---

(١) صفة جزيرة الأندلس ، ص ٣١، ٣٢ .

(٢) الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١١٧ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١١٨ ، ١١٩ .

(٥) في بداية القرن السابع عشر عندما صدر الأمر الخاص بطرد المورسيكين ٩ ديسـمبر ١٦-٩م) قام أحد رجال بلاط فيليب الثالث ويدعى Geregorio Lopos Maclere بعمـل تحقيـق مـع المورسيكين أثبت من خلاله أن المورسيكين في غرناطـة ومرسـية وجيـان كـانوا يحتفلـون بنفـس العيد الموسمي مثل أجدادهم بنو نصر انظر :

Capas cuade los alaceresouderces p. longas, Vidarbigiosa de los maricos, p. 60 .

وللمزيد من المعلومات عن " حياة التسلية والترفيه في المجتمـع الأندلسـي " انظـر : البشـري ، سعد بن عبدا لله ، مجلة المؤرخ العربي ، عدد ٥ م١ ، مارس ١٩٩٧م ، ص ٢٩٣ - ٣٣٣ .

معهم أسلحتهم للتصدي لأي هجمة قشتالية متوقعة [١] .

وعندما اشتدت الحرب مع النصارى تدهورت الأوضاع الاجتماعية وتأثرت المتنزهات الطبيعية وأصبحت ميداناً للحرب والملاحم البطولية وبالتالي تدهورت الأحباس والمرافق التي كانت تعد مورداً هاماً من موارد مقاومة العدوان النصراني ، وفي ذلك يقوم عبدالكريم القيسي : -

يا خَيرَ من يُرْجى على التّعيين　　　لصلاحِ دنيانا وحفظ الديـــن
يا نُخبة الأعيان من اهل التّقى　　　من مغربٍ حتّى لأقصى الصينِ
أحباسُنا تشكو إليك بحالهـــا　　　من بَخْسِها وكرائها المغبـــونِ [٢]

وبتدهور الأحباس الموقوفة لصالح الجهاد وانهيار الاقتصاد الغرناطي ، وعجز الطاقة المالية بسبب ما كان يتطلبه الاستعداد للحرب ومواجهة العدو المتربص [٣] وما نتج عن ذلك من تأثيرات اجتماعية قد فصلت القول فيه أخذت مملكة غرناطة تسير إلى حافة الهاوية للسقوط والانهيار متضافرة على سقوطها عدة عوامل كان من أهمها تأثر الأحوال الاجتماعية بحركة الجهاد الإسلامي في مملكة غرناطة ، تلك الحركة التي استمرت زهاء قرنين ونصف من الزمن .

---

(١) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٨ .

(٢) ديوان عبدالكريم القيسي ، ص ٣٩٢ .

(٣) العافيه : عبدالقادر ، إبراهيم أبو إسحاق الشاطبي ، الفقيه الأصولي المفتي ، مقالة منشورة بمجلة دعوة الحق ، العدد ٢٩٧ السنة ٣٤ شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة ١٤١٣هـ ، أبريل ، مايو ، يونيه ١٩٩٣م ، وزارة الأوقاف ، الرباط ، ص ٤٤ .

ب ـ التأثيرات الاجتماعية المتبادلة بين المجتمع الغرناطي والمجتمعات الإسلامية

ـ في دول المغرب الإسلامي

توطئة : ـ

كان الاحتكاك الشديد الذي أملته ظروف سياسية وحضارية بصفة عامة بين مملكة غرناطة والمغرب العربي بدوله المختلفة يفرض تبادل التأثير والتأثر بين هؤلاء وأولئك ولا سيما وأن الجميع تجمعهم عقيدة واحدة وشريعة واحدة وأكثرهم من أصول عرقية واحدة عربية كانت أو بربرية وبالتالي فلا توجد رغبة حقيقية في مقاومة التأثير المتبادل .

وكان وضع الغرناطيين يفرض عليهم أن يلتحموا بالمغرب وأن يجدوا فيه ملاذهم الحضاري وأن يتواصلوا مع أبنائه فكراً وثقافة واقتصاداً واجتماعاً . وليس من المجازفة القول أن كثيراً من العلماء والمفكرين والتجار الكبار الغرناطيين أو المغاربة لا بد أن يكونوا قد عاشوا هنا أو هناك ورحلوا بين العدوتين وتبادلوا الفكر والثقافة والتجارة أو الضيافة وكان كل منهم يشعر بأن الآخر ردف له ومسئول منه فالغرناطيون يشعرون بأن المغاربة ضرورة حضارية ومصيرية لهم .

والمغاربة يشعرون بأنهم لا بد أن يرعوا حقوق إخوانهم وفتحوا لهم الجسر الذي يربطهم بأوروبا وهم في الوقت نفسه السور الكبير الذي يحميهم من أوروبا ويحول دون انسياح الأوروبيين مستعمرين في بلادهم . وهذا هو ما أثبته التاريخ بعد ذلك حين سقطت غرناطة ٨٩٧هـ /١٤٩١م فكان المغرب أكبر ملاجئ الغرناطيين وبدأت أيضاً أوروبا تزحف على المغرب وتحتل مدنه الساحلية وكادت تلتهمه لولا لطف الله وظهور خيرالدين بربرسا وعروج والعثمانيين بعامة .

كان ـ إذاً ـ الوعي الحضاري والإحساس بوحدة المصير لدى هؤلاء وأولئك ومن هنا كان

لا بد من أن يظهر التقارب الاجتماعي وتظهر تأثيراته هنا وهناك على كلا الجانبين .
فإذا علمنا أن مدناً كانت غرناطية وتحولت إلى مدن مغربية مثل الجزيرة الخضراء ورندة وجبل طارق ـ عن رضى وطواعية وللمصلحة العامة وأن مدناً كانت مغربية وأصبحت غرناطية مثل جبل طارق الذي تبادلته السيادتان في أوقاف مختلفة ـ أدركنا مدى الوحدة الحضارية بين الجانبين .
وإذا ما أضيف إلى ذلك أن عائلات مغربية وأفراداً استطاعوا أن يتبوأوا مكانة اجتماعية وسياسية ـ بدون حساسية في غرناطة وأن عائلات غرناطية تبوأت مكانة سياسية وثقافية واجتماعية لدى بني مرين وبني زيان وبني حفص ـ أدركنا أيضاً ـ مدى تقبل كل من المجتمع الغرناطي والمغربي بكافة دوله للطرف الآخر كأنه مواطن أصيل حل هنا أو هناك .

ولا نستطيع أن ننكر حجم التأثير المشرقي في المغاربة أكثر منه في الغرناطيين للتقارب المكاني بينهم ، كما لا يمكن أن ننكر حجم التأثير النصراني والذي كان أكثر منه في الغرناطيين من المغاربة .

لكن هذا التنوع في التأثيرات لم يحل دون ان تبقى معالم الوحدة الحضارية موجودة بين الغرناطيين والمغاربة وأن هذا التقارب الحضاري كان أكبر من كل التأثيرات على كلا الجانبين ، وقد تجد تأثيرات مشرقية في غرناطة يمكن أن تكون قد وجدت بتأثير رحلات الحج أو طلب العلم أو التجارة مع المشارقة مباشرة ، لكن قدراً كبيراً من التأثيرات المشرقية قد جاء بدرجات أكبر عن طريق الغرناطيين المرتحلين أو المغاربة المختلطين بالغرناطيين والمقيمين بغرناطة والمغرب أو المتنقلين كما ينتقل الناس بين إمارتين في بلد واحد .
وقد تجد تأثيرات نصرانية موجودة في دول المغرب المختلفة يمكن أن تكون قد وفدت عن طريق احتكاك المغاربة بالنصارى في الجزيرة الأيبيرية أو التجارة ويمكن القول إن بعضها يمكن أن يكون قد انتقل إلى المغرب عن طريق الغرناطيين الذين يمكن أن يكونوا قد تأثروا ببعض العادات النصرانية .
وجدير بالذكر أن تتبع المؤثرات الاجتماعية إيجاباً وسلباً عملية معقدة ، ذلك لأنني لا أتتبع وقائع محددة تستطيع أن نضع الأيدي عليها وإنما أتتبع ظواهر اجتماعية تحتاج إلى رصد

موضوعي وإلى إعمال فكر ، وتعتمد على الترجيح والبحث عن التشابهات في الكليات والجزئيات ، ومن هنا فإن الفكر فيها والتحليل ضروري مثل أهمية المادة العلمية ، ولا سيما وإن المادة التاريخية في هذا السياق ، وفي نطاق المنهج التأريخي التقليدي في التاريخ الإسلامي والذي يركز على السياسة والحروب ، تبدو قليلة ونادرة ، ويحتاج الوصول إليها إلى جهد شاق . حيث أن المصادر لا تذكر صراحة أن ذلك قد انتقل فعلاً - وكان اللباس — وهو الشكل الخارجي بالإنسان الغرناطي والمغربي من بين أهم مجالات التأثير والتأثر الاجتماعي سواء على مستوى المرأة أم على مستوى الرجل أو على مستوى الحكام أو الشعب ، وكان لباس أهل غرناطة جميعاً لباساً حسناً ، وقد كانوا يهتمون بنظافتهم ، فصاحب نفح الطيب يعترف بهذه الحقيقة وينقل عن ابن سعيد قوله : ((وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه ، فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها)) (١) .

وإذا كان حسن المنظر خصيصَة عامة للغرناطيين فقد كان أولى به النساء ؛ وابن الخطيب يخصص ما أجمله المقري فيتحدث عن الحسن والجمال والنظافة في نساء غرناطة قائلاً ((وحريمهم ، حريم جميل ، موصوف بالسحر وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ونقاء الثغور ، وطيب النشر ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام وحسن المحاورة إلا أن الطول يندر فيهن . وقد بلغن في التفنن في الزينة لهذا العهد ، والمظاهرة بين المصبغات ، والتفنن في المذهبات والديباجات والتماجن في أشكال الحلي إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها ، عين الدهر ، ويكفكف الخطب ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميع من بها بستره ، ولا يسلبهم خفي لطفه بعزته وقدرته)) (٢) .

---

(١) المقري : نفح الطيب : نقلاً عن ابن سعيد ، جـ ١ ص ٢٢٣ .وللمزيد من المعلومات حيال ذلك انظر البشري : سعد بن عبدا لله : النظافة وسلامة البيئة في المجتمع الأندلسي ، مقالة منشورة في مجلة المؤرخ العربي، العدد الرابع المجلد الأول مارس ١٩٩٦م ، ص ٧٥ - ١٠٤ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٩ ، اللمحة البدرية ، ص ٢٩ .

في لباس المرأة :

ومن الراجح أن يكون هذا المظهر النسائي الغرناطي الآنف الذكر قد أثر في النساء المغربيات ولا سيما في نساء الطبقة العليا ، حيث تعمل غريزة حب التشبه والتقليد والغيرة النسائية عملها في تقليد النساء بعضهن ببعض .

والناس في المغرب رجالاً ونساءً يعمدون إلى نوع من التجمل والتزين وأعتقد ان ذلك له صلة بالتأثيرات الغرناطية بصفة عامة كما أن النساء في المغرب الأقصى عند بني مرين يتعمدن أن يلبسن لباساً جميلاً يلفت النظر ويثير الانتباه إليهن كما قال ذلك ابن الخطيب [(١)] ، وكما قال الحسن الوزان عنهن : ((ولباس النساء جميل جداً إلا أنهن لا يرتدين في أيام الحر سوى قميص يحزمنه بنطاق لا يخلو من قبح ويلبسن في الشتاء ثياب عريضة الأكمام ومخيطة من امام كثياب الرجال ، وعندما يخرجن يلبسن سراويل طويلة تستر سيقانهن)) [(٢)] .

وهذه السراويل الطويلة التي تغطي سيقان نساء المغرب في ذلك العصر كانت موجودة ومنتشرة بين النساء في مملكة غرناطة ويؤكد لبس تلك السراويل بين النساء في مملكة غرناطة أبو البركات بن الحاج البلفيقي الذي رأى زوجته خارجة من الحمام العام دون أن تلبس سروالها الطويل الذي يغطي ساقيها إذ حكي عنه : ((أنه كان جالساً في دهليز بيته فدخلت زوجته من الحمام وهي بغير سراويل لقرب الحمام من البيت فانكشف ساقها فدخل مسرعاً ، وغاب ساعة ثم خرج وأنشد :

كشفت عن ساق لها فرأيته ... متلألئاً كالجوهر البراقِ
لا تعجبوا إن قامت منه قيامتي ... إن القيامة يوم كشف الساقِ)) [(٣)]

---

(١) معيار الاختيار ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) وصف إفريقيا ، جـ ١ ، ص ٢٥٢ .

(٣) المقري : نفح الطيب ، جـ ٥ ، ص ٨٧ .

مع العلم أن أبا البركات بن الحاج البلفيقي كان يتردد إلى المغرب الأقصى في معية أسرته وعاش فيها زماناً متنقلاً بين غرناطة والمغرب ، تلك السراويل التي أشار إليها الشيخ أبو البركات كانت مصنوعة من الكتان على أيدي بعض النساء في غرناطة (١) .

وقد ورد ذكر سروال نسائي غرناطي في الوثائق العربية الغرناطية إذ بيع سروال نسائي في الحادي عشر لجمادى الأولى من عام تسعمائة هجرية (٧ فبراير ١٤٩٥م) بعشرة دراهم (٢) .

وكانت تلك السراويل واسعة ومتموجة تجمع عند الحزام قريباً من السرة (٣) ، وكانت نساء غرناطة يرتدين قميصاً طويلاً من الكتان فوق السراويل ثم جلباباً من الصوف أو الحرير (٤) .

أما زي الخروج فكان عبارة عن قماش أبيض من الكتان أو القطن أو الحرير يغطي الرأس والوجه ولا يظهر سوى العينين (٥) .

أما النساء في فاس فكن يتشابهن مع نساء غرناطة فيما ذكر (٦) وكن يسدلن على الرأس والجسم ملاءة تغطيهما (٧) .

---

(١) الحديقة النضرة ، ورقة ١٤ أ .

(٢) وثائق عربية غرناطية ، ص ١٤٤ .

(3) Viuje Por Espana Yportugal ترجمه إلى الأسبانية Jose Lopez Madrid , 1951 , p51 .

(4) Ibid , p. 53 .

(5) Ibid .

(٦) وعن لباس المرأة في المغرب الأقصى انظر : الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، جـ ١ ص ٢٥٢ وانظر الماحي : علي حامد ، المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني ١٩٨٦م ، بحوث جامعية ، ص ٢٦٠ . وانظر روجيه : لوتورنو ، فاس في عصر بني مرين ، نشر مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ، بيروت ، نيويورك ، ترجمة نيقولا زياده ، مكتبة لبنان ١٩٦٧م ، ص ٩٩ . وانظر : حركات : إبراهيم ، المغرب عبر التاريخ ، جـ ٢ نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة . الدار البيضاء ، ط٣ ، ١٤١٤هـ ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٧) روجيه : فاس في عصر بني مرين ، ص ٩٩ .

ولقد لفت غطاء رأس المرأة الغرناطية نظر الشاعر الغرناطي ابن خاتمه الذي أشار صراحة إلى لبس المرأة الغرناطية الخاص بوجهها ، إذ كانت نساء مملكة غرناطة يلبسن على رؤوسهن المقانع الحمر وفي ذلك يقول :

قد كان في حُمرِ المقانعِ مَقَنَعُ   لظلال شَأْني وانهمال شُؤوني [١]

ولا يبدو الفارق واضحاً بين نساء المغرب الأقصى وغرناطة في لبس المقانع إلا فيما يتعلق باللون الأحمر ، فالمقانع الحمر اللاتي لبسنها نساء غرناطة تتفق مع شعار اللون الأحمر الذي اتخذه بنو الأحمر في غرناطة شعاراً لهم [٢] .

وكانت النساء في فاس يلبسن المقانع دون تركيز على لون معين تلك المقانع التي هي من تاثيرات شرقية على أهل غرناطة كما سيأتي ذكره والتي هي أيضاً تأثيرات شرقية على أهل المغرب الأقصى كما تفعل ذلك نساء بلاد الشام [٣] .

وإذا كانت أغطية الرأس للرجال والنساء في فاس تصنع على أيدي الصناع القادمين من الأندلس فقد أنشأوا فيها صناعة جديدة لصنع غطاء خاص للرأس [٤] .

أستطيع القول إن ذلك التأثير كان غرناطياً نظراً لتقبل الغرناطيين للتأثيرات الحضارية في إطارها العلمي والمهني ومن ثم نقله إلى بر العدوة سواء كانت تلك المؤثرات في أصلها شرقية أم أوروبية .

من جهة ثانية كانت عادة النساء في تونس لبس الأثواب ذات الأكمام العريضة [٥]،

---

(١) ديوان ابن خاتمه ، ص ٤٧ .

(٢) ابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٥٠ .

(٣) الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، جـ ١ ص ٢٥٢ .

(٤) روجيه : فاس في عصر بني مرين ، ص ١٣٥ .

(٥) برنشفك : روبار ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥ م نقله إلى العربية حمادي الساحلي ، جزءان ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، لبنان ١٩٨٨م ، جـ ٢ ، ص ٢٩٣ .

كما كان الحال بين نساء المغرب الأقصى ونساء غرناطة . وأكد الحسن الوزان أن النساء ((التونسيات يرتدين لباساً حسناً ويتأنقن في زينتهن ويسترن وجوههن عندما يخرجن مثلما تفعل الفاسيات يغطين الوجوه بوضع خمار يدعى سفساري على عصابة عريضة جداً يعصبن بها جباهن ، بحيث تبدو رؤسهن وكأنها رؤوس عماليق)) (١) ، وأن ذلك الخمار هو المقنع أو المقانع في غرناطة والتي سبق أن أشرت إليها .

وابن الخطيب قد أكد بما لا يدع مجالاً للشك بأن أهالي مملكة غرناطة يلبسون الأردية الإفريقية ، والمقاطع التونسية (٢) ، وبما أن دولة بني حفص كانت من أولى الدول الإسلامية في المغرب العربي قد ورثت دولة الموحدين وبالتالي كانت المملكة الحفصية من أولى الدول الإسلامية في المغرب قد أقامت علاقات وطيدة مع مملكة غرناطة قبل قيام دولة بني مرين وأصبح التأثير الحفصي واضحاً في مجال الاقتصاد استنتج عمق التاثر الغرناطي باللباس الإفريقي التونسي ، وكذا لتشابهها الكبير في مجال لباس المرأة بين الدول الحفصية والمرينية والغرناطية .

أما بالنسبة للحلي فقد شغفت نساء غرناطة بها أكثر من أي بلد إسلامي آخر ويقول في ذلك ابن الخطيب إنهن ((قد بلغن في التفنن في الزينة لهذا العهد والمظاهرة بين المصبغات والتفنن في المذهبات والديباجات والتماجن في أشكال الحلي إلى غاية نسأل ا لله أن يغض عنهن فيها عين الدهر ويكفكف الخطب ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة وأن يعامل جميع من بها بستره ولا يسلبهم خفي لطفه بعزته وقدرته)) (٣) .

---

(١) وصف إفريقيا ، جـ ٢ ص ٧٨ .

(٢) الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٥ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٩ واللمحة البدرية ، ص ٢٩ .

وكدليل على ذلك توجد قطعتان من حلي نساء مملكة غرناطة في متحف في مدريد تؤكدان مدى رقة ورفاهية حسن الصاغة الغرناطية [1] ، والحلي هذه عبارة عن دملج من الذهب (ذهب ممتلئ متماسك لا جوف له) ومسبحات من الأحجار الكريمة وشقوق ذهبية وقلادة من الخيوط الذهبية المفتولة أو المبرومة وقطع ذهبية أسطوانية الشكل وبيضاويي خاصة بالصدر [2] .

ويضم متحف Lozaro Coldiceno في مدريد قلادة ذهبية رائعة الجمال يرجع تأريخها إلى القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي وهي مكونة من كرات صغيرة من الخيوط الذهبية ومن أنواط هرمية الشكل . ومما لا شك فيه أن خزانات العديد من العائلات في مملكة غرناطة خاصة في الأرياف امتلأت بحلي من الفضة يدل على ذلك العثور على عقود زواج أبرمت في أوائل عهد الدولة النصرية [3] وفي أواخر حياتها [4] ، هذا بالإضافة إلى ما اشتملت عليه خزائن بني نصر من الحلي والمجوهرات ذات الأوصاف العجيبة ، كما اورد ذلك ابن الخطيب عند وصفه للحلي والمجوهرات التي نهبها السلطان النصري أبو سعيد " البرميخو " وفر بها لاجئاً إلى مملكة قشتالة [5] .

وإذا كان ابن الخطيب يرى أن نساء بني نصر قد تفوقن على نساء بني مرين اللاتي كن يستأجرن بعض الحلي والمجوهرات لحضور حفلات الزواج والأعياد [6] ، وإذا كان المهاجرون الغرناطيون إلى شمال إفريقيا حملوا معهم حليهم الذهبية والفضية ضمن أغراضهم

---

(1) Elce Mentenio real de los nazraies dans AlAndalus, Vol17, 1942, p . 281 .
(2) Ibid , p 280 .

(٣) انظر ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ، جـ ١ ص ٨١ وما بعدها ، كناسة الدكان ، ص ٤٧ – ٥٣ .

(٤) وثائق عربية غرناطية ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٥) انظر ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، جـ ٣ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٦) ابن الخطيب : الإحاطة ، مخطوط نسخة الأسكوريال رقم ١٧٥٥ ورقة ٢٦٠ .

وأمتعتهم المهمة (١) قبل المنع النصراني لهم بـاخراج الممتلكـات (٢) ، وكمـا وصـف الحسـن الوزان زينة المرأة في المغرب الأقصى فقال إنهن كن ((يضعن في آذانهـن أقراطـاً كبـيرة مـن ذهب مرصع بحجارة كريمة بديعة وفي معاصمهن أساور مـن ذهـب ، كذلـك سـوار في كـل ساعد ، قد تبلغ زنته مائة مثقال (٣) نحو ٣٥٠غم (٤) وتتحلى نساء غير الأعيان بأساور مـن فضة ويضعن خلاخل مثلها في أرجلهن (٥) .

أدرك بما لا يدع مجالاً للشك التأثير الغرناطي على نساء شمـال إفريقيـا ذلـك التأثـير الذي استمر في مجال صناعة الجوهرات في تونس إلى عهـد قريـب (٦) والـذي ضربـت عليـه أمثلة بالشواهد السابقة .

من ناحية أخرى لاحظ الحسن الوزان أن النساء في تونس من كثرة شـغفهن بالزينـة أنهن كن ((لا يشتغلن بغير زينتهن وعطرهن حتى أن العطارين هم دائماً آخـر مـن يقفلـون دكـاكينهم)) (٧) ، كـان ذلـك نتيجـة لكـثرة الطلـب مـن قبـل التونسـيات والمهـاجرات الغرناطيات اللاتي هاجرن إلى هناك واللاتي أيام اقامتهن في بلادهـن كـن يجملـن الحواجـب والأهـداب بالكحل ووجوههن بأنواع المصبغات (٨) ، وهذه الأوصاف التي نجدهـا في نسـاء شمال إفريقيا ما هي إلا رشح معدل لأوصاف نساء مملكة غرناطـة حسـب البيئـة والظـروف والعكس أيضاً يُعد صحيحاً .

---

(1) M. Caspar Romiro , Emifragro de los moros Granadinos ollen de el Esbrecho . dans Revista del centro de Estudios Historicos de Granada , t2 1912 , p. 1, 13 .

(٢) مجهول : نبذة العصر ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٣) وصف إفريقيا ، جـ ١ ، ص ٢٥٢ .

(٤) حركات : المغرب عبر التاريخ ، جـ ٢ ص ٢٠٨ .

(٥) الوزان : المصدر السابق .

(6) C. Suger , Les bijousc de la mariee a roknine , dans cohiers des Arts et Traditions poruraires, Tunis 1968 no'l , p153 - 154 .

(٧) وصف إفريقيا ، جـ ٢ ، ص ٧٨ .

(٨) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٩ ، واللمحة البدرية ، ص ٢٩ .

- لباس الرجال :

في سنة ٦٣٥هـ /١٢٣٧م كـان السلطـان النصـري محمـد بن يوسـف بـن نصـر ((يلبس شاسيـة مضلعة أكتافها مقطعة وما كان زيـه بفـاخر)) (١) ، ذلـك الـزي تشـابه إلى حد كبير مـع زي عامـة السكـان في الدولة الحفصية والذين كانوا يرتدون ملابس على حالة يرثى لها (٢) ، وهذه الشاسية المتواضعة قد استمر لبسـها بـين الفئـات المتوسـطة والفقـيرة في مملكة غرناطة طيلة عصرها وفي ذلك يقول ابن الأزرق في بيت من أبيات من قصيدة له :

وإن في شاسية الفقير أنساً للغني (٣)

وأكد ابن الخطيب أيضاً أن السلطان محمد بن يوسف بن نصـر أول سـلاطين مملكـة غرناطـة مـن بـني نصـر كـان يخصـف النعـل ويلبـس الخشـن (٤) ، إلا أنـه نتيجـة للتطـور الحضـاري والازدهار الاقتصادي الذي شهدته مملكة بني نصر أدخل الغرناطيون على الشاسـية لمسات جمالية مثل ترصيعها بالذهب وصبغها باللون الأحمر شعار بلادهم وكـان لبسـها منتشـراً بـين عامة الناس في مملكـة غرناطـة ولقـد روى ابـن الخطيـب علـى أن أحـد الشـيوخ أولي المجانـة والدعابة أنه كان يلبس على رأسه شاسية ملف حمراء (٥) .

والشاسية عبارة عن ((قلنسوة حمراء كان يلبسها رجال المخـزن والعلمـاء والتجـار والطلبة في المغرب المريني نقلها المهاجـرون الأندلسيـون إلى شمال إفريقيـا)) (٦) ، إلا أنه من

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ، قسم الموحدين ، ص ٣٢٢ .

(٢) برنشفك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، جـ ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٣) المقري : نفح الطيب ، جـ ٣ ، ص ٣٠٢ .

(٤) اللمحة البدرية ، ص ٣٠ .

(٥) الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٨٨ .

(٦) رزوق : محمد ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، خلال القـرن ١٦ ، ١٧ ، كليـة الآداب والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء ١٩٩١م ، ص ٢٩٦ .

الملاحظ أن انتقال الشاسية الغرناطية إلى المغرب كان قبل سقوط مملكة غرناطة أي أيام بني نصر وبني مرين خاصة أثناء الاحتكاك العسكري بين الدولتين النصرية والمرينية وذلك في إطار تبادل المعونات العسكرية ويوضح ذلك ابن الحاج النميري الذي ذكر ادخال الجنود الغرناطيين القلنسوة والشاسية إلى المغرب الأقصى والتزيي بها واصفاً ذلك المنظر الجمالي لهؤلاء الجنود الغرناطيين المشاركين في حملة السلطان أبي عنان لتوحيد بلاد المغرب فقال في ذلك : ((وأما القلانس والشواسي المذهبة والمفضضة فتلك التي باهت الشموس الباهرة الأنوار والبدور الواضحة الأسفار وزهيت أطواقها المرجحة على نواظر الأزهار ومختلفات مطولات النوار)) (١) . تلك الشاسية التي كانت أكتافها متواضعة أيام مؤسس الدولة النصرية غدت في أوج تطورها مطرزة بالذهب والفضة .

وكان التشابه في اللباس في الطبقة العليا أقوى وأوضح ، فإذا كان حكام غرناطة قد ألفوا تطريز الملابس السلطانية وورد في ذلك شعر يقول فيه مؤلفه :

أنا فوق عِطفْ الملك أسعدُ ملبسٍ — فمن اكتساني فالسَّلامة قد كُسى
حاكتني الأيدي سماء زواهــــرٍ — ورياش أزهارٍ وخلفــــه سُنْدِسِ
عزاً لسلطانٍ لعزة ملكــــــهِ — قد دانت الدنيا برغم المغطسِ (٢)

فإن الملابس المرينية الفاخرة سواء ما كان منها يلبس أو يزين المجالس كان يتم صنعه في غرناطة .

يقول أبو الحسن الجياب مما كتب على حصير حائك نسج بالحمراء لصاحب المغرب :

---

(١) النميري : فيض العباب وافاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب دراسة وإعداد محمد بن شقرون ، الرباط ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٠م ص ٢٢٥ .

(٢) ابن زرقالة : أبو جعفر أحمد ، رائق التحلية في فائق التورية ، حقق وقدم له محمد رضوان الداية ، منشورات دار الحكمة ، دمشق د. ت ، ص ٣٩ .

بمثل حسني الأطرف الأظرف   يخدم بيت الملك الأشـــرف
فاعجب لما أحكمه الصنع من   بدائع شتى ومن زخـــرف
كأنها الروض النضير الـــذي   أزهاره الغضة لم تقطـــــف
وحسبها في الفخر أن طرزت   باسم الإمام الأعطف الأرأف
ملك العلى نجل الإمام الرضا   أبي سعيد بن أبي يوســـف
فأبد الرحمن دين الهـــوى   منه بعزم متلف مخلـــــف [1]

ولقد تغنى ابن زمرك وشكر السلطان محمد الخامس على معطف صنهاجي أحمر اللون مزركش برسومات العصافير أهداه إياه [2] اقتبس من ذلك قوله :

ومعرَوشَةُ الأرجاءِ مفروشة بهـــــا   صنوف من النعماء منها وطاؤها
ترى الطير في أجوافها قد تصفَفَـتْ   على أنْعم عند الإله كفاؤهُـــــا
ونسبتُهُ صنهاجـــة غـير أنـــه   تُقَصّر عما قد حوى خُلفاؤهـا [3]

كما أن سلاطين بني نصر يهدون الثياب الغرناطية لسلاطين بني مرين وقال بتلك المناسبة ابن زمرك ((برسم ما يرسم على ثوب في بعض هدايا [السلطان النصري الغني با لله] للسلطان المريني أبي العباس)) [4] .

أُهْدي أبا العبـــاسِ   ملك الندى والبَاسِ
ثوب السماءَ لأنَّـــهُ   بدر بدا للنـــــاس
فَلَقُ الصبح بوجههِ   عوذته بالنّـــــاسِ
يكسو إماماً لم يـزلْ   بحِلِي المحامد كـاس
فيا له من مُرْتَـــدِ   ثوب التقى لبـــاس

---

(١) ديوان أبي الحسن الجياب ، ص ٢٢١ .
(٢) المقري : أزهار الرياض ، جـ ٢ ، ص ١٤١ .
(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١٣٣ .

أذياله من حمـــــده — مسكية الأنْفَـــاس
وبطرزه مـــدحٌ زَرَي — بالمدح في القرطـــاس
إن كُنْتُ في لون السَّمَا — ءِ بنسبةٍ وقيـــاس
فلأنت يا بَدْرَ العـــلا — شرفتني بلبَـــاس
أنا مُنْشِدُ ((ما في وُقُو — فِكَ ساعةً من باسَ)) (١)

وفي مثل تلك المناسبة يقول أيضاً :

إن الإمام محمـــدا — أهدى الخليفة أَحْمَدَا
للباسه ثوباً وقـــدْ — لَبِسَ المحامِدَ وارْتَـدَى (٢)

مما سبق يتضح تبادل التأثير والتأثر بين بني نصر وبـني مريـن في مجـال أزيـاء الرجـال سواء كان ذلك التاثير على مستوى الحكام أم على كافة أفـراد الشـعب الغرنـاطي والمغربـي الذين تنقلوا وعاشوا في العدوتين أو اشتروا ملابسهم من تلك العدوة أو الأخرى .

من جهـة ثانيـة ارتـدى الغرناطيـون الطيلسـان يلفونـه علـى الكتفـين مطويـاً طيا ظريفاً (٣) ، كذا الحال عند الحفصيين خاصة من سلاطين وأمراء بني حفص إذ كان للسلطان الحفصي طيلسان من صوف في غاية اللطافة يتردى به ولا يضعه على رأسه (٤) .

علماً بأن عدداً من أمراء بني حفص قد نشأوا أو عاش بعضاً منهم لفترة ما في مملكة غرناطـة بالإضافة إلى الجنود الأندلسيين الذين خدموا في بلاد بني حفص قد نقلوا عادة لبس الأقبيـة

---

(١) المقري : أزهار الرياض ، جـ ٢ ، ص ١٣٣ وأصل البيت لأبي النواس .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٣) العمري : مسالك الأبصار ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١١٠ .و ((الطيلسان ضرب من الأوشـحة يلبـس علـى الكتـف أو يحيـط باليدين خال من التفصيل والخياطة)) ، انظر (الجبـوري : يحيـى ، الملابـس العربيـة في الشـعر الجاهلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٩م ، ص ١٨٦) .

والطيلسان إلى الدولة الحفصية ، إذ تأثر سلاطين بني حفص بالطريقة الأندلسية في الحرب والتي منها شد النطاق ولبس الأقبية [١] .

كما أن القماش المصنوع في مدينة الجزيرة الخضراء يلبسه بنو حفص في تونس إذ كان من ضمن ما يلبس أشياخهم قماش يسمى السفساري يعمل عندهم من حرير وقطن أو حرير وصوف إما أبيض أو أحمر أو أخضر وقماش يعرف بالجزيري وهو صوف رفيع جداً [٢] .

وكان الغرناطيون يرتدون الملف المصبوغ شتاءً والملف نسيج كان يرد من بلاد الروم إلى المغرب والأندلس [٣] ، ذلك الملف الذي كان يرتديه أبناء المغرب الأقصى أيضاً [٤] ، والذي تسرب إلى بني مرين عن طريق غرناطة التي كانت همزة وصل لأوروبا مع المغرب الأقصى وشمال إفريقيا وكان ذلك الملف يرتديه الغرناطيون [٥] مع الطيلسان [٦] .

---

(١) انظر النميري : فيض العباب ، ص ٢٢٤ والعمري مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ٩٩ ، ١٠٠ (والأقبية الجمع من قبا وسمي قباء لجمع أطرافه وقبوت الشيء جمعته.ابن سيدة : أبي الحسن علي بن إسماعيل كتاب المخصص د. ت ، جـ ٤ ، ص ٨٦) ويتمنطق على الأقبية وتلبس في السفر والحرب لأنها أعون على الحركة ، (انظر الجبوري : يحيى ، الملابس العربية، ص ٢٦٢ .

(٢) العمري : المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٣) انظر أبو مصطفى : كمال ، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار للونشريسي ، دار الثقافة ١٩٩١م ، ص٤٧ ، ٤٣.

(٤) انظر : الونشريسي : المعيار ، جـ ١٠ ، ص ٢٥٨ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ص ١٣٤ .

(٦) العمري : المصدر السابق ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

وارتدى الغرناطيون الدراعة وهي عبارة عن قميص يصنع من الكتان أو القطن وتلبس في الصيف (١) ، وكانت غير مشقوقة وبها أكمام واسعة وكانت ذات ألوان زاهية الأحمر والأخضر (٢) ، وكان أهل المغرب الأقصى يلبسون الدراعة (٣) لكن الغرناطيين أدخلوا عليها بعض التعديلات سواء كان ذلك من ناحية اللون أم أنهم لبسوها بفتحة من الأمام أبو بغير فتحة (٤) .

ومن التأثيرات المرينية على أهالي مملكة غرناطة في مجال اللباس أن لبس بعض الغرناطيين البرنس (٥) من الصوف الأبيض الناعم والذي يشبه البرنس الذي يلبسه السلطان المريني ويعتبر من اللباس الخاص لأسرة وسلاطين بني مرين إلا أنهم سمحوا لأهل الصلاح والعلماء بلبسه (٦) ، وبلا شك أن عدداً من هؤلاء العلماء كان من بينهم علماء من مملكة غرناطة .

---

(١) كمال أبو مصطفى : جوانب من الحياة الاجتماعية ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) حسب ما ظهر ذلك من خلال الرسومات على جدران البرطل والتي شاهدتها أثناء زيارتي لقصر الحمراء ، وكما أشار إلى ذلك ابن الخطيب فيقول ((فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المتفتحة في البطاح الكرية تحت الأهوبة المعتدلة)) ، الإحاطة ، جـ ١ ص ١٣٥ .

(٣) كمال أبو مصطفى : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(٤) مثل ما ظهر ذلك في رسومات جدران البرطل بقصر الحمراء .

(٥) ولقد ظهر الغرناطي محمد بن سهل بن محمد بن سهل في المشاعر المقدسة بمكة وفي معيته البرنس والسيف (انظر ابن فرحون : محمد بن فرحون اليعمري : كتاب نصيحة المشاور وتسلية المجاور مخطوط نسخة مهداة للباحث من د. عبدالعزيز العبيدي، ورقة ٥٢ . والبرنس: ((القلنسوة الواسعة التي يغطي بها العمامة ويستتر بها من الشمس والمطر)) ، الجبوري : الملابس العربية ، ص ٨٩ .

(٦) العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٤١ .

كما ارتدى الغرناطيون أيضاً معطفاً قصيراً ذا أكمام واسعة وهي التي أشار إليها الحسن الوزان عند أهل فاس بنصف أكمام (١) والتي ذكرها العمري عند أهل تونس بأن لها كمين طويلين (٢) من غير كثرة طول مما يستنتج أنها نصف أكمام أيضاً وأنها مؤثرات إفريقية على اهل مملكة غرناطة .

وإن كانت مملكة تلمسان تصنع القماش المعروف فيها بالملبد والمختم والمعروف بالتلمساني (٣) . فإن مدينتي غرناطة وبسطة قد اشتهرتا بالملبد والمختم ذي الألوان العجيبة (٤) .

ومن خلال ما أكده ابن الخطيب من أن أهالي مملكة غرناطة كان من بين لباسهم الأردية الإفريقية والمقاطع التونسية والمآزر المشفوعة صيفاً فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المتفتحة في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة (٥) ، ومن خلال ما تم عرضه اتضح تأثر المجتمع الغرناطي باللباس في مجتمع الدولة الحفصية ، في الوقت نفسه يتضح تأثير اللباس الغرناطي في المجتمع المريني ، وكذا تأثير اللباس المريني في المجتمع الغرناطي كما يتضح أيضاً بعد عرض هذه التأثيرات المتبادلة في اللباس والأزياء بين المجتمع الغرناطي والمجتمعات الإسلامية في المغرب مدى متانة العلاقات وسهولة الاتصال وقوة التأثر والتأثير بين تلك المجتمعات وهو أمر يدل دلالة واضحة على عمق التفاعل

---

(١) وصف إفريقيا ، جـ ١ ، ص ٢٥١ .

(٢) مسالك الأبصار ، القسم الأندلسي ، ص ٩٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٩٨ .

(٤) المقري : الأندلس من نفح الطيب ، ص ٣٧٣ نقلاً عن ابن سعيد .

(٥) الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٤ .

الحضاري وتطور أحوال المجتمعات من حال إلى حـال ، فالمجتمع الـذي كـان بـالأمس يتـأثر بغيره أصبح اليوم مؤثراً وله انتاجه النفيس الذي يباري بـه الآخريـن وقـد يتفـوق عليهـم في ضروب التطور المختلفة فمثلاً كانت الملابس الغرناطية تصنـع في تونـس مثـل الشواسـي [١] والملابـس المرينيـة تصنـع في غرناطـة والملابـس الزيانيـة تصنـع في غرناطـة أيضـاً والملابـس الغرناطية تصنع في فاس [٢] ونجد في الوقت نفسـه نوعـاً مـن التمـايز بحيـث تبقـى لكـل بلـد خصائصه في اللباس متـأثرة بظـروف البيئـة والمنـاخ وعوامـل التطـور الحضـاري والازدهـار الاقتصادي .

---

(١) انظر : ابن عامر أحمد ، الدولة الحفصيـة ، صفحـات خـالدة مـن تأريخنـا المجيـد ، دار الكتـب الشرقية ، د. ت ، ص ٩٧ .

(٢) وذلك استنتاجاً مما تم عرضه وتوثيقه .

الأعياد والحفلات :

كانت الأعياد معبراً آخر من المعابر التي تبودلت فيها التأثيرات بين دول المغرب وغرناطة وسواء كانت تلك الأعياد سنية كعيدي الفطر والأضحى أم بدعية كالمولد النبوي والاحتفال بميلاد الصالحين أو ميلاد الأنبياء أو أعياد الفصول السنوية سواء كان هذا أو ذاك فإن مظاهر الاحتفالات كانت تتشابه في غرناطة ودول المغرب .

ولقد أكدت المصادر بأن المولد النبوي ظهرت الاحتفالات به في شمال إفريقيا أول ما ظهرت في مدينة سبتة عندما دعا حاكم سبتة الشريف العباس أحمد العزفي للاحتفال به (١) والف كتاباً دعا فيه إلى الاحتفال بالمولد النبوي أسماه ((الدر المنظم في المولد المعظم)) (٢) .

ومن مدينة سبتة انتقلت عادة الاحتفال بالمولد إلى مملكة غرناطة وإلى دول شمال إفريقيا في أول المائة الثامنة (٣) لدرجة أن هذا العيد أصبح أكبر الأعياد في غرناطة بعد عيدي الفطر والأضحى ، فقد بالغ الغرناطيون في الاحتفال به حتى في ثغورهم وكان الشعراء والمنشدون يلقون القصائد في مدح رسول الله ﷺ وفي آخر الليالي كانت تقام المآدب الفاخرة ويستمر الاحتفال حتى مطلع الفجر (٤) .

ولقد كان أول ما احتفل بالمولد النبوي في مملكة غرناطة في عهد السلطان النصري أبي الحجاج يوسف الأول حيث تلقى في هذه المناسبة قصيدة من الوزير

---

(١) انظر ابن عذاري : البيان المغرب قسم الموحدين ، ص ٣٩٨ .

(٢) ابن خلدون : التعريف ، ص ٣٠٩ .

(٣) ابن أبي دينار : محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس دار السيرة ، لبنان ، مؤسسة سعيدان ، تونس ط٣ ، بيروت ١٩٩٣م ص ٣٣٤ .

(٤) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، جـ ٣ ، تحقيق د. السعدية فاغية ط١ ، ١٤٠٩هـ ص ٢٨٥ .

ابن الخطيب [١] غير أن هذا الاحتفال قد بلغ أوجه على الطريقة المغربية عندما عاد السلطان الغني با لله من المغرب الأقصى واستعاد ملكه ، ولقد تأثر بما شاهده هناك فأعد لذلك مكاناً فسيحاً ونصب فيه منصة بدأ البناء فيها في شهر ربيع الأول من عام أربعة وستين وسبعمائة وقد قدم ابن الخطيب وصفاً لذلك المكان الذي اتخذه السلطان محمد الخامس من أجل إقامة الاحتفال بالمولد النبوي [٢] ذلك الوصف للهندسة المعمارية ، لم يقدم ابن الخطيب وصفاً لمثله مفصلاً في أي من كتبه ذلك المكان المنقطع النظير في معمور الأرض لإحكام بنائه [٣] .

وعندما دعا السلطان محمد الخامس إلى إقامة الاحتفال بالمولد النبوي وبعد أن توالى الحضور واجتمع جمع غفير من الناس ((برز السلطان في خاصته فاقتعد أريكة الملك مغرياً بتلك الأوضاع حسن نظره ومتخير ترتيبه ، ثم أذن للناس على طبقاتهم ، فاستقروا عن تزاحم وتدافع وعلاج أنساهم مضضة التعجب من هول ما أفضوا إليه ، يغشون كرسي الملك مطربين ومجيبين ، فيسعهم بشره ، ويشملهم بالجميل وحسن المقارضة .... [ثم] أحكم الخدمة والعرفاء ونبهاء المماليك ترتيب الناس فكان بمحمل الغرفه من مجلس السلطان شيوخ القبائل ، والأشراف بنو الفواطم ونسباء الملوك ، وأهل العلم ، وبين يديه الصوفية والفقراء فيما انخفض بين يدي جلسته من المشور الخاص ... وغص المشهد الرحب بسائر الطبقات وعيون الرعية قد ألبسوا أثواب الزينة واختالوا في فاخر الكسوة)) [٤] ، ثم يقدم ابن الخطيب وصفاً لما يتم بعد ذلك من قراءة أعشار القرآن والمواعظ ، ثم يتلو ذلك اندفاع الأغاني وزفير اليراع الأجوف [٥] والغناء المعروف بالحميني مما تلبيه الصوفية والفقراء بين واجد ومتواجد والمستمع يواصل القصائد المنظومة في مدح رسول ا لله ﷺ

---

(١) انظر ديوان ابن الخطيب ، جـ ١ ، ص ٣٥٣ .

(٢) نفاضة الجراب ، جـ ٣ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٩ .

(٣) نفس المصدر والجزء ص ٢٧٦ .

(٤) نفس المصدر والجزء ص ٢٧٨ .

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

والإشادة بميلاده وبمعجزاته ، ثم مدح السلطان وكلما مرت ساعة اسقطت الساعة المعروفة بالمنكانه والتي تمت صناعتها لهذا الغرض حصاة في طنجر شهرتها إلى انقضاء الليل وما يتخلل ذلك من تقديم أصناف الأطعمة والحلوى الفاخرة ويستمر ذلك الاحتفال إلى انقضاء الليل لمدة أسبوع [١] .

كان هذا المشهد الصاخب الذي وصف وصفاً دقيقاً ومفصلاً من قبل ابن الخطيب والذي كان اختراعه من قبل حاكم سبتة محاكاة للمشرق رد فعل على العادات والتقاليد النصرانية الزاحفة عبر مملكة غرناطة إلى بلاده [٢] وذلك المشهد (الاحتفال بالمولد النبوي) كان يُقام في كل من تونس وتلمسان وفاس مما لا يستوجب تكرار وصفه [٣] .

تلك العادات التي قال الحسن الوزان عنها في المغرب أنها قد تراجعت بسبب انحطاط الدولة المرينية [٤] كما أقول انها قد تراجعت أيضاً في مملكة غرناطة بسبب التفكك السياسي والتدهور الاقتصادي ، ولقد عارض الفقهاء في غرناطة اقامة المولد واستنكر الشاطبي إقامته على الوصف المعهود به في غرناطة وقال بأن ذلك بدعة محدثة وكل بدعة ضلالة فالإنفاق على اقامة البدع لا يجوز والوصية به غير نافذة [٥] .

---

(١) انظر ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، جـ ٣ ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(٢) انظر رزوق : الأندلسيون وهجراتهم إلى الغرب خلال القرنين ١٦ ، ١٧ ، ص ٢٩٣ .

(٣) انظر المقري : أزهار الرياض ، جـ ١ ، ص ٢٤٣ ، وانظر : التنسي : محمد بن عبدا لله ، تاريخ ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرر والعقبان في بيان شرف بني زيان ، حققه محمود بو عياد ، الجزائر ١٤٠٥هـ ، ١٦٢ - ١٧٨ ، وانظر ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ١٦٤ ، وانظر ابن مرزوق : المسند ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٤) وصف إفريقيا ، جـ ١ ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

(٥) الشاطبي : فتاوى الإمام الشاطبي ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

الغنـــــاء :

وكانت الأغاني في إطار غير فاضح من وسائل الترفيه في الأعياد والأفراح والولائـم في مملكة غرناطة إذ سئل ابن لب ((عن إجابة الداعي إلى وليمة النكاح بما تشتمل عليه مـن الملاهي والطرب المزنج وأصـوات النسـاء وغـير ذلـك)) (١) ، وقـد أشـار ابـن الخطيـب أن الأحداث في غرناطة كانوا يغنون وهم يعملون في دكاكينهم (٢) ، تلك العادات قـد انتقلـت من مملكة غرناطـة إلى شمـال إفريقيـا (٣) وقـد تعمقـت في مملكـة بـني عبدالـواد بـالرغم مـن معارضة الفقهاء المعاصرين لاجتماع النساء على احتفال أو تزين فيحلقن دائـرة علـى رجـل غير مـحرم يغنيهن ويطربهـن ومثـل اجتمـاعهن للملاهـي والرقـص والـذي ليـس مـن طـور العقلاء (٤) ، وفي منع استعمال العود والبوق (٥) تلك العادات التي من دون أدنى شك أنهـا قد انتقلت من مملكة غر ناطة إلى مملكة بني زيان والتي نتـج عنهـا مـا يعـرف ((بـالحوفي)) وهو نوع من الغناء خاص بالفتيات وبالشابات من النساء يتغنين به وهـن يلعبن بالأرجوحـة في الحدائـق وعلى ضفاف الأنهار وعلى جانب العيون في تلمسان(٦) والتي عرفت في الجزائر

---

(١) الحديقة النضرة ، ص ١٧٠ أ فأجاب بجواز التخلف عن حضور هـذه الوليمـة وكراهـة سمـاع الطرب والملاهي ، انظر نفس المصدر والصفحة .

(٢) الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٧ .

(٣) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٧٤ .

(٤) العقباني : أبو عبدا لله محمد بن قاسـم ، تحفـة النـاظر وغنيـة الذاكـر في حفـظ الشـعائر وتغـير المناكر ، تحقيـق علـي شـنوفي ، دمشـق نشـر في نشـرة الدراسـات الشـرقية للمعهـد الفرنسـي بدمشق ، ١٩٦٧م ، ص ٢٦٩ .

(٥) نفس المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .

(٦) بوعياد ، محمود ، جوانب من الحياة الاجتماعية في المغرب الأوسط ، في القرن التاسع الهجـري (١٥م) ، الجزائر ١٩٨٢م ، ص ٨٢ .

صراحة باسم غرناطي [1] .

وفي المغرب الأقصى ترك الغرناطيون بصمات وآثارا واضحة بموشحاتهم تلك الموشحات التي كان لها وضع موسيقي خاص مع سمو لغتها بالنسبة للزجل [2] ، وبالتالي كان لها تأثيرها على المجتمع المغربي مروراً بالعصر المريني والوطاسي والسعدي [3] ، ففي عهد بني نصر كان الغرناطيون الميسوري الحال يغادرون منازلهم في المدن ويقضون أياماً في البساتين وفي دورهم المحاطة باشجار العنب التي يمتلكونها عند سفوح الجبال [4] .

وبهذه المناسبة كان الرجال والنساء والأطفال يرتدون أجمل الثياب ويقضون أوقاتهم في التسلية بألوان الغناء [5] في عدد من جنات غرناطة التي عدد ابن الخطيب عدداً كثيراً منها [6] وعندما غادروا أوطانهم سواء قبل السقوط أو بعده حملوا معهم تلك العادات وخرجوا إلى جنات الرباط وتأثر بهم المجتمع خاصة في وادي أبي الرقراق [7] ، إذ كثيراً

---

(١) السائح : الحسن بن محمد : الحضارة الإسلامية في المغرب ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، جـ٢ ، ١٤٠٦هـ ، ص ٢٦٤ وانظر : ا لجراري :عباس، أهمية الموسيقى والغناء في حضارة الأندلس ، مقالة منشورة في مجلة التراث الحضاري المشترك بين أسبانيا والمغرب ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة الدوريات ١٧ ـ ١٩ شوال ١٤١٢هـ ، غرناطة ص ١٤٩ .

(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ، جـ ٢ ، ط٣ ، ١٤١٤هـ ، ص ١٢٧ .

(٣) انظر السائح : منوعات ابن الخطيب ، تاليف وتحقيق ، ونشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ١٣٩٨هـ ، ص ٩٠ـ ٩٦ .

(٤) انظر ص ٤٢٠ من الرسالة .

(٥) انظر نفس الصفحة من الرسالة .

(٦) الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٢٥ ـ ١٣٤ .

(٧) وادي أبي الرقراق : يجري فيه نهر أبي الرقراق الذي تطل عليه مدينتي الرباط وسلا (انظر عبدالعزيز بن عبدا لله ، التطور الحضاري في مصب أبي رقراق مقالة منشورة بمجلة المناهل العدد ١٠ ، ١٩٧٧م ص ٨٥ وما بعدها .

ما يخرج أهالي الرباط بما فيهم من الأندلسيين إلى الهواء الطلق أيام الربيع وفي العطل والأعياد إلى وادي القيط وبستان السويس وبستان أرماس وكلها على الشاطئ وكانت تلك الجماعات مصحوبة بالأجواق الأندلسية (١) .تلك العادات التي امتد بها الزمن في المغرب الأقصى إلى الحرب العالمية الثانية (٢) .

ومن العادات التي نقلها الغرناطيون أيضاً اجتماع النسوة على شاطئ النهر إذ ينظمن جلسات سمر واستمتاع ولهو (٣) والتي عرفت في الرباط " بلالا كسابه " وهي عبارة عن تجمعات نسوية تلقائية بساحة الأودية يحضرهن البنات برفقة أمهاتهن لابسات البرانس ومتزينات بأفخر الثياب والمجوهرات (٤) .

ومن مجالات الغناء ترددت في أرجاء المغرب قصيدة ابن الخطيب والتي مطلعها :

يا حادي الجمال   عرِّج على سلا
قد هام بالجمال   قلبي وما سلا (٥)

تلك المدينة التي شغف بها ابن الخطيب وقد كانت له أراء متناقضة فيها (٦) .

ولقد كان الأثر الغرناطي واضحاً في مجتمع مدينة بجاية ذلك المجتمع الذي يتكون في جزء كبير منه مجموعة من أهالي مملكة غرناطة لا سيما الأغنياء منهم والذين بعد سقوط مملكتهم

---

(١) السويسي : عبدا لله ، تاريخ رباط الفتح ، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ، سلسلة التاريخ ، الرباط ١٣٩٩هـ ، ص ١٦١ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(3) Arcot Molina , Noblezia de Andalucia, Sevilla 1588, p. 68 .

(٤) السويسي : المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

(٥) عناني : محمد زكريا من أعلام فن التوشيح في الأندلس لسان الدين بن الخطيب ، دراسة وتوثيق ، مقالة منشورة بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، "ندوة الأندلس الدرس والتاريخ " ١٤١٤هـ ، ص ١٩ .

(٦) انظر : أشماعو : محمد بن أحمد : مدينة سلا وابن الخطيب ، مقالة منشورة بمجلة دعوة الحق ، العدد الخامس ١٤ مايو ١٩٧١م ، ص ١٣٧ .

حنوا إلى شواطئ بلادهم ونصرة إخوانهم الذين كـانوا لا يزالـون تحت الاحتـلال الأسـباني يقول الحسن الوزان في أهل بجايه ((وكان أهل بجاية على قـدر عظيـم مـن الغنـى يسـلحون العديد من السـفن المختلفـة ويرسـلونها لغـزو شـواطئ أسـبانيا)) [١] ، وبـالرغم مـن ذلـك فالبجائون كأسلافهم من الغرناطيين أناس طيبون ميـالون إلى المـرح والموسـيقى والرقـص [٢] والتي عرفت اليوم في تونس " بالمألوف " [٣] .

---

(١) وصف إفريقيا ، جـ ٢ ص ٥٠ .

(٢) انظر : نفس المصدر ، ص ٥١ .

(٣) الطالبي : محمد ، الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين ، مقال بمجلـة الأصالـة ، الجزائـر عدد ٢٦ سنة ١٩٧٥م ، ص ٧٣ .

الألعاب :

ومن الألعاب والاحتفالات التي عرفت في مملكة غرناطة والمغرب الأقصى وينكرها الإسلام وكان لها احتفالاتها عند الغرناطيين والمغاربة مشاهدة المصارعة بين الأسد والثور بحضور السلطان في كلا البلدين كل في بلده ، ففي غرناطة كانت ألعاب الفروسية ومصارعة الوحوش تُقام في ساحات متعددة في مدينة غرناطة مثل ساحة باب الرملة وساحة باب الطوابين وفي قلعة الحمراء نفسها أمام برج الغدير (١) .

وفي الملعب العيدي والذي وصفه ابن الخطيب بأنه من أماكن تجمع أهالي مملكة غرناطة في أفراح العيدين الفطر والأضحى ((إذ يستقبل الملعب العيدي ما بين ذنابي الجسر إلى جدار الرابطة ، [وهو] ملعب بديع الشكل عن يمينه جناح بديع ، وعن ميدانه عدوات النهر وعن يساره الجنات)) (٢) .

وقد حضر ابن الخطيب في سفارته إلى السلطان المريني أبي عنان بن أبي الحسن سنة ٧٥٦هـ /١٣٥٥م مشهداً من مشاهد تلك المصارعة فيقول ابن الخطيب واصفاً ذلك المشهد أن السلطان المريني وكافة الحضور كانوا في موضع يطل على مكان رحب فاحضر خدام السلطان أسداً مسجوناً في تابوت خشب وكان هذا الأسد أرود اللون شثين الكفين مشعذ اللبدة فأثاره الخدام حتى خرج من كوه بعد أن استشاط بأساً في الوقت نفسه جلب إلى داخل الحلبة ثور يقول عنه ابن الخطيب أنه عبل الشوى منصب المروى يقدمه طور من الجواميس واقترب الأسد من الثور وبلغ زئير الأسد وخوار الثور ما شاء ولكن الأسد خار عن مبارزة الثور وتخطى الثور إلى مجموعة من الرجال داخل الحلبة كانوا ذوي عدة وأولي

---

(١) العبادي : أحمد مختار ، الأعياد في مملكة غرناطة ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد Vol XV ، ١٩٧٠م ، ص ١٤١ .

(٢) الإحاطة : جـ ١ ، ص ١١٨ ، ١١٩ .

دربة فتناوشته رماحهم بعد أن أردى بعضهم وجدل بين يدي السلطان متخبطاً في دمه [١] .

أهاج ذلك المنظر ابن الخطيب الذي ارتجل أمام السلطان المريني منشداً :

أنعامُ أرضِك تقهر الآســادا ... طبعاً كسا الأرواح والأجســادا
وخصايصُ لله بث ضروجها ... في الخلق ساد من أجلها من سادا
إن الفضائل في حماك بضايع ... لم تَخْشَ من بعد النِّفاق كســادا
كان الهزبر محارباً فجزيتــه ... بجزاء من في الأرض رام فســادا [٢]

ولم يكن ابن الخطيب الوحيد الذي وصف تلك المصارعة في المغرب الأقصى ، إذ أورد أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر وصفاً لذلك ، وأضاف معلومات لم يوردها ابن الخطيب وذلك في حديثه عن الشاعر الكاتب الفقيه أبي العباس أحمد بن يحيى بن أحمد بن عبدالمنان الأنصاري الخزرجي ، فقال ((وأنشدني أيضاً لنفسه يمدحه ويصف قتل الأسد بين يديه .... وأنا إذ ذاك جالس في ذلك الموضع أتنزه في قتل الأسد في جملة من حضر ذلك الموطن مع السلطان)) . ووصف فيها أيضاً أكرة الأسد وهي أكرة مستدارة من خشب معدة ، ويدخل فيها رجل يحركها بها فيرى الأسد الرجل فيهم به ويدور بها ويضرب الأكرة بيده فلا يكسرها لشدتها . ووصف فيها أيضاً شبكة صيد الأسد في الفلاة نصبت في ذلك اليوم بالقصر ، وأصطادوا بها الأسد بين يديه . ووصف فيها الثور الذي كان من عادته قتل الأسود في ذلك الموطن [٣] .

ولقد قدم الشاعر المذكور وصفاً ضافياً لذلك المشهد [٤] والذي منه نستنتج أن السلطان أبا عنان فارس لربما شارك بنفسه في تلك المصارعة وذلك حسب تعبير الشاعر أبي العباس إذ يقول :

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ١٩ ، ٢٠ .

(٢) نفس المصدر والصفحات .

(٣) نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان ، ص ٣٤٣ .

(٤) انظر : نفس المصدر ، ص ٣٤٦ وما بعدها .

ولكم يرى يوم الوغى من فارس

وكـ " فارس " يوم الوغى ما إن يرى

ذلت لبطشه الأسود وإنهـــــا

لتـــذل لــولا عـــز بطشتـــه الطلا (١)

وبعد مرور حوالي قرن ونصف من الزمن يتفق الحسن الوزان الذي شاهد تلك المصارعـة في الوصف مع أبي الوليد بن الأحمر ويضيف أنه بداخل الحلبة إثنا عشر رجلاً يحملون بأيديهم حراباً في طرف كل حربة نصل حديد طوله ذراع ونصف ذراع ، وإذا أظهر الرجـال تفوقـاً على الأسد الذي قتل الثور ينقص عددهم وإذا تفوق الأسد على الرجال سـدد ابـن الملـك وأفراد حاشيته قاذفاتهم ورموه من أعلى الشرفات التي يشاهدون منها ذلك المنظر (٢) .

أما في مملكة غرناطة وفي الساحات التي أشـرت إليهـا حيـث تقـام ألعـاب الفروسـية بالإضافة إلى مشاهدة حرب بين الثور والأسد (٣) تلك الطريقة كانت شبيهةً بما سبق شـرحه في المغرب وما أورده ابن الخطيب في الاحاطة إنما هو وصف لها عند بني مرين ولم يـورد ابـن الخطيب نصاً واضحاً في ذلك عند بني نصر ، ولكن مما جاء على لسان ابن الخطيب في ذلك المصارعـة بـين الثـور والكـلاب الروميـة وتـدرب الفرسـان في الحلبـة وفي ذلـك يقـول ابـن الخطيب : ((ولما احتفل السلطان لإعذار ولده نظمت هذه القصيدة مساعدة لمـن نظـم مـن الأصحاب وتشتمل على أوصاف من ذكر الحلبة التي أرسلها والطبلة التي نصبهـا في الهـواء للفرسان يرسلون العصي إليهـا ، والثيران الـتي أرسـل عليهـا الأكلـب الروميـة تمسكها في صورة القرط من آذانها)) (٤) .

تلك المصارعة التي أشار إليها ابن الخطيب والتي حضرها السلطان الغني با لله والتي أقيمـت

---

(١) انظر : أبو الوليد بن الأحمر : نثير الجمان ، ص ٣٤٦ وما بعدها .

(٢) الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، جـ ١ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٣) انظر العبادي : الأعياد في مملكة غرناطة ، ص ١٤١ .

(٤) المقري : نفح الطيب ، جـ ٦ ، ص ٤٥٩ ، ٤٦٠ .

بمناسبة إعذار ولده (١) وهي أن يطلق الثور أو البقر الوحشي ثم تطلق عليه الكلاب الرومية المتوحشة فتنهش جسمه وأذنيه وتتعلق بها في صورة القرط من آذانها (٢) . وكان الهدف من اطلاق الكلاب على الثور الحد من قوته وتهذيب حركته (٣) تمهيداً للقاء المصارع الغرناطي الذي عادة ما يكون فارساً مغواراً يصارع الثور على فرسه المدرب ثم يقتله في النهاية برمحه (٤) .

تلك المصارعة التي لا تزال قائمة في أسبانيا إلى اليوم ولربما انتقلت عادة مصارعة الأسد إلى مملكة غرناطة من مملكة بني مرين وذلك نظراً لتوفر الأسود في غابات المغرب خاصة في إقليم غابات زرهون والتي كان رجالها أولي بأس وقوة وجرأة عادة ما يعهد إليهم باقتناص الأسود في الغابات وإهدائها إلى ملوك فاس لتنظيم مشهد صيد الأسود في ساحة واسعة (٥) .

وأقول أيضاً إنه لربما انتقلت مصارعة الثيران من مملكة غرناطة إلى المغرب الأقصى نظراً لتوفر الثيران الوحشية في غابات مملكة غرناطة فحدث بلا شك تبادل بين الفكرتين الغرناطية والمغربية فاستبدلت الأسود في المغرب بدلاً من كلاب اللان في غرناطة وبالإضافة إلى الثور . وعليه أستطيع القول إن مصارعة واحدة في غرناطة كانت هي الأكثر انتشاراً وهي التي ذكرها ابن الخطيب صراحة بقوله : ((وقولي في امتداح سلطاني لاعذار ولده ، واستركب الفرسان لمزاملة الهدف الخشبي المتخذ في الجو المسمى بالطبلة ، وأرسل جوارح الأكلب الضخام المجتلبة من أرض ألان خلف فحول البقر الطاغية الشرس تمسكها من

---

(١) إعذاره ولده أي ختان ولده .

(٢) انظر المقري : نفح الطيب ، جـ ٦ ، ص ٤٥٩ ، ٤٦٠ .

(٣) العبادي : الأعياد في مملكة غرناطة ، ص ١٤٢ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

(٥) الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، جـ١ ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

آذانها واجنابها حتى تتمكن منها الرجال)) [١] .

ولقد وصف ابن الخطيب مدينة فاس بأنها ملاعب الليث المفترس [٢] ، ولو أن ذلك قد اشتهرت به غرناطة لما تأخر ابن الخطيب عن ذكر ذلك لكن رسوم الحمراء التي تبدو فيها أسود وثيران توحي بأنها ربما وجدت [٣] .

وبالإضافة إلى ما ذكر فقد كانت تتم بهذه المناسبة بعض ألعاب الفروسية مثل سباق الخيل وكان عدد من سلاطين بني نصر من هواة الفروسية وركوب الخيل وفرسان في ميدان الحرب مثل السلطان محمد الرابع الذي كان فارساً ماهراً على الطريقة الزناتية خبيراً بأجود أنواع الخيل فكان مثالاً في الفروسية [٤] وكذا كان السلطان محمد الخامس مصارعاً وصائد وحوش وفي ذلك يقول ابن زمرك :

أَثْبَتَ فِيهِ الرُّمحَ ثم تَرَكتَــهُ   خَضِبَ الجوانح بالدم الموار
حامت عليه الذابلاتُ كأنّها   طير أوتْ منه إلى أوكـــار

إلخ القصيدة التي يصف فيها ابن زمرك فروسية السلطان محمد الخامس [٥] ، وكذا كانت توجد بعض العادات المتشابهة في الشوارع المغربية والغرناطية وهي نتيجة للتأثيرات الغرناطية في المجتمع المغربي مثل لعبة " العصا " .

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٤ ، ص ٤٧٩ .

(٢) معيار الاختبار ، ص ١٧٦ .

(3) A. Mujtar AlAbbad , Alcuni Billah rey de Granada , Revista de Instituo de estuode estudios Islamicos en Madrid , Madrid, 1963 , 1964 Vols, II, 12 p. 73 .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ٢٩٧ .

(٥) المقري : أزهار الرياض ، جـ ٢ ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

لعبة العصا :

ومن مملكة غرناطة انتقلت إلى المغرب الأقصى لعبة العصا والتي كان الأهالي في مملكة غرناطة يمارسونها بل كانوا يبدعون فيها لدرجة تَعَجب نصارى مملكة قشتالة من براعة الغرناطيين فيها فيطلبون من الغرناطيين الذين يصلون إلى بلادهم عمل استعراض بها فعندما وصل عبدا لله الأمين سفير غرناطة إلى بلاط الملك خوان الثاني اشترك في هذه اللعبة التي كان النصارى يحاولون تقليد مسلمي مملكة غرناطة فاحرز السفير الغرناطي تفوقاً بحضور ملك قشتالة [١] .

وفي عهد السلطان النصري محمد الثامن وجهت رسالة من البلاط النصري بتاريخ ٣٠ مايو ١٤١٨م / ٨٢٠هـ إلى الملك ألفونسو الخامس كان من ضمن الهدايا التي ذكرت فيها تجهيزات (أدوات) خاصة بلعبة العصا [٢] .

وهي اللعبة التي دعا النصارى لمشاهدتها الحاكم النصراني لغرناطة يحيى النجار [٣] الذي تنصر قبيل سقوط غرناطة وخان دينه وأمته وحكومة بني نصر وتسمى باسم بيدرو[٤] والتي قدم لها وصفاً حيا الكاتب النصراني Jerone Munz في الاحتفال المشار إليه والذي شهده في ٢٦ أكتوبر ١٤٩٤م في إحدى ساحات الحمراء وتتكون اللعبة من فريقين كل منهما يتألف من أربعة فرسان البعض يهاجم خصومه بعصي طويلة مدببة تماماً مثل الرمح والبعض الآخر يتظاهر أو يتصنع الهرب ويحمي الأكتاف بواسطة الدرقة ثم يحين دورهم في متابعة الخصوم والجميع كانوا على ظهور خيولهم ثم يقذفون عصي قصيرة تشبه السهام بمهارة وذكاء وهم بذلك يظهرون وكأنهم قد مارسوا الرمي بالقذافة من قبل وكل هذا يتم

(1) Cronica de D. Juan II PP. 309 - 313 .
(2) H. Liver more : Els gundery chico Muhammad XI p. 340 .
(3) Viaje por Espana yportugal dans B.R. A. H. Art 84 , Madrid , 1924 . p. 1- 8 .

انظر :

(4) JuanAntonio ; GRiMACER VANTES Gom BieronoxAdaministracionde Granada Tras Laconau ista : Las oraden ANZADELA ALHAMBRA DE 1492 Cu ADERNOS DELA ALHAMBRA vol 26 GRANADA, 1990 , p 109 .

وهم ما زالوا يمتطون جيادهم [١] ، وهذه اللعبة هي التي أشار إليها ابـن الخطيـب والـتي تتـم فيها أيضاً مزاملة الهدف الخشبي [٢] .

وهذه اللعبة التي جاءت كنتيجة مباشرة لتأثر المجتمع الغرناطي بحركة الجهاد الإسلامي والتي انتشرت بين عامة الشعب الغرناطي ، إذ كان يجتمع شباب إحدى الشوارع في غرناطـة مـع شباب شارع مجاور حاملين معهم عصياً وهروات وغالباً ما تحول هذه اللعبـة إلى مشـاجرات استنكرها المحتسب في غرناطة ودعا إلى تجنب اللعب بالمقارع والعصي في الشوارع [٣] .

انتقلت هذه اللعبة إلى المغرب الأقصى خاصة في فاس وساهم الجنـود الغرنـاطيون في نقلها [٤] كما ساهم المهاجرون الغرناطيون في ترسيخها هناك ، فقد ذكر الحسن الـوزان أنـه كان يجتمع في فاس شـباب في أوقـات معينـة مـن السـنة فيحمـل أهـل زقـاق منهـم العصـي ليبارزوا أهل زقاق آخر ، وقد يشتد الخصام بيهم فيأخذون السلاح ويمـوت عـدد مـن كـل فئة خاصة أيام الأعياد حيث يجتمع الشبان في ظاهر المدينة ، وبعد انتهاء الاشـتباك يـأخذون في التراشق بالأحجار حتى ليعجز رئيس الشرطة عن تفريقهم والحجز بينهم [٥] .

---

(1) Cronica de D Juan II, p. 310 .

(٢) الإحاطة ، جـ ٤ ، ص ٤٨٢ .

(٣) ثلاث رسائل في آداب الحسبة ، ص ١٢٤ .

(٤) انظر النميري : فيض العباب ، ص ٢٢٥ .

(٥) وصف إفريقيا ، جـ ١ ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

التأثير والتأثر في مستوى العيش (الطعام ، التغذية)

إن عدداً من أهالي مملكة غرناطة قد زار الشمال الإفريقي وعدداً من أبناء الشمال الإفريقي قد زار مملكة غرناطة وآخرون قد أقاموا هنا أو هناك ، فأما الذي انتقل ما بين العدوتين فقد اطلع على مستوى الحياة هناك وقد قدمت له الضيافة بما فيها المسكن والمأكل والمشرب ، وقد تأثر وأثر في بعضهما المجتمع الغرناطي والمغربي بصفة خاصة والشمال الإفريقي بصفة عامة نتيجة لتبادل الاستقرار والرحله بين الطرفين لعوامل وأسباب متباينة ، ولقد امتدح ابن الخطيب الحسن بن يحيى بن حسون من أهالي مدينة أزمور (١) في ايثاره على الخصاصة واتصافه بحسن الخلق وذلك عندما نزل ابن الخطيب في منزله ضيفاً عليه فقال :

إحسانكم يا بني يحيى بن حسّون أزرى على كل منثور وموزون
قد جددت زينة الدنيا برامكة منكم مكارمها لم ترض بالدون (٢)

وفي مناسبة أخرى قدم ابن الخطيب وصفاً لأصناف الطعام الذي قدمه إليه عبدالعزيز بن محمد الهنتاني أحد أعيان جبل هنتانة بالمغرب ، كما قدم أيضاً وصفاً للمنزل الذي نزله وهو منزل بديع النقش والصفة ظاهرة الجدة قد فرشت فيه لحف الحرير والمساند الموشية والجلد المزعفر (٣) وما هي إلا لحظات حتى قدمت إليه سفرة طعام ما بين قصاع الشيزي أفعمها الثرد وهيل بها السمن ووضعت عليها الحملان غاصة بالآنية المذهبة مليئة بلذيذ الطعم من الأسماك واللحوم والدجاج وأصناف الطيور ، أما الصحون النحاسية فقد احتوت على طعام خاص من الطير والكباب واللقالق (٤) ، ثم تلا ذلك أصناف الحلوى بين مُسْتَبْطِنٍ للباب البر ومعالج بالقلو وأطباق من الفاكهة واوعية من العود المحكم مليئة

---

(١) أزمور : سبق التعريف بها .
(٢) نفاضة الجراب ، جـ ٢ ، ص ٧٨ .
(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٦ .
(٤) نفس المصدر والجزء ص ٤٦ ، ٤٧ .

بالشهد (العسل) [١] .

ولقد تشابهت المأكولات الغرناطية مع المأكولات في شمال إفريقيا وتأثر الطرفان بعضهما في تقديم الأطعمة نظراً للاحتكاك والتواصل الاجتماعي بين الطرفين وإن كان ابن الخطيب قد قدم وصفاً لمائدة مغربية فإنه قدم وصفاً لمائدة غرناطية قدم فيها من الطعام في الأواني المذهبة من الذهب الخالص التي امتلأت بأنواع اللحوم والدواجن [٢] ، وبالرغم من الخطوط العريضة أو الإطار العام يكاد يكون متشابهاً في كلا البلدين إلا أنه يمكن ملاحظة التأثير والتأثر بعد التأمل والتدبر من جمله ذلك وجبة الكسكو وقد بين ابن رزين التجيبي كيفية طبخها وإعدادها [٣] والتي هي أساساً من الوجبات الرئيسية في شمال إفريقيا بصفة عامة والمغرب الأقصى بصفة خاصة انتقلت إلى مملكة غرناطة وتأثر بها الغرناطيون وكان دخولها إلى مملكة غرناطة وانتشارها على نطاق واسع عن طريق المقاتلين من بني مرين والمتطوعين في سبيل العقيدة وعن طريق الرحلات الاجتماعية والعلمية والاقتصادية التي تبودلت بين أبناء مملكة غرناطة والشمال الإفريقي وسايرها المجتمع الغرناطي بأن وفر لها مستلزمات الطبخ وتجهيزها وإعدادها وغدت وجبة رئيسية من الوجبات الغرناطية والدليل على ذلك مرور تلك الوجبة بذاكرة ابن الأزرق [٤] الذي تذكر الوجبات الغرناطية والتي من بينها وجبة الكسكسي المشهورة بالنسبة إلى إفريقيا الشمالية [٥] والمغرب الأقصى الذي تعتبر فيه تلك الوجبة من معيشة عامة الناس [٦] والتي استمر ت طوال عصر مملكة غرناطة

---

(١) نفاضة الجراب ، جـ ٢ ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، جـ ٣ ، ص ٢٧٨ .

(٣) فن الطبخ في الأندلس والمغرب ، ص ٤٨ - ٥٠ .

(٤) عن ابن الأزرق ، انظر ترجمته في ص ١٣٣من الرسالة .

(٥) برنشفك : تأريخ إفريقية في العهد الحفصي ، جـ ٢ ص ٢٨٣ .

(٦) الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، جـ ١ ، ص ٢٥٣ .

لا غنى لكافة طبقات المجتمع عنها وفي ذلك يقول ابن الأزرق :

وهات ذكـر الكسكسو　　　فهو شريف وســـني
لا سيّما إن كان مصنوعاً　　　بفَتْلٍ حســـــن
أرفـــعُ منـــه كُـــوَراً　　　بهنَّ تدوي أُذنـــي (١)

ومن بين الأغذية التي تكاد تكون متطابقة في كيفية الإعداد والتقديم والطهي ما أشار إليه ابن الخطيب أثناء نزوله ضيفاً على المغربي عبدالعزيز بن محمد الهنتاني الذي قدم إليه سفرة طعام سبقت الإشارة إليها والتي كان من بينها " قصاع الشيزي " والتي هي أيضاً من الوجبات الرئيسية لأهالي مملكة غرناطة والتي تكون في غالبيتها من الدقيق والقمح المطبوخ المضاف إليه السمن فقد أهدى السلطان محمد الخامس لابن زمرك جفنة ثريد فقال :

طَعَامُكَ من دار النعيم بَعَثْتَهُ　　　فشَرفتني من حَيْث أدري ولا أدْرِي (٢)

فنجد عند ابن الأزرق في شعره تشوقاً إلى الثريد والعصيدة الغرناطية حيث يقول :

هل للثريدِ عـــودةٌ　　　إليَّ قَدْ شوقـــني
تغوص فيه أنملـــي　　　غوْصَ الأكول المحسنِ
وثن بالعصيدةِ التي　　　بها تطربـــني
لا سيّما ان صُنعتْ　　　على يَدي ممركـــن (٣)

وهي التي تعرف في المغرب الأقصى بـ قصاع الشيزي والتي تعود أصلاً إلى تقليد قديم جاء بعضه من الأندلس أصلاً (٤) والتي كانت تقدم في مملكة بني حفص في الاحتفالات العائلية البارزة (٥) .

---

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ٣ ، ص ٣٠١ .
(٢) المقري : أزهار الرياض ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ .
(٣) المقري : نفح الطيب ، جـ ٣ ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .
(٤) لوترنو : فاس في عصر بني مرين ، ص ٩٨ .
(٥) برنشفك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، جـ ٢ ، ص ٢٨٥ .

كما اشتهرت مدينة فاس بطعام الاسفنج بل كان للسفاجين بها دكاكين خاصة بهم كما سجل ذلك صاحب زهرة الآس [(١)] وقد تشوق ابن الأزرق لذلك الطعام فقال :

ولي إلى الاسفنجِ شو ق دائمُ يُطْربني [(٢)]

أما بالنسبة لأشهر المأكولات الحفصية خاصة في تونس مثل " المقروض " الذي يتفاخرون به وهو مشهور بينهم [(٣)] وكذلك اللحم الذي سموه " بالمروزيه " نسبة إلى مروز مدينة ببلاد العجم يطبخونه بأبازير تفوح لها قيمة [(٤)] لم أجدها في القصيدة المطبخية لابن الأزرق والتي ذكر فيها المجبنة الغرناطية والتي أشار عبدالباسط بن خليل الحنفي إلى وجودها في تونس والتي نقلتها الجالية الأندلسية إلى هناك إذ كانت تعمل على أيدي غرناطيين بمرأى من الضيوف الحاضرين ، فقال في ذلك عبدالباسط بن خليل الحنفي واصفاً الضيافة الغرناطية التي قوبل بها في تونس ما نصه : ((وفي يوم الأحد السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٨٦٧هـ [١٦٤٢م] جمع التاجر المعظم المكرم أبو القاسم البنيولي الغرناطي الأندلسي ، نزيل تونس وكبير التجار بها جماعة من أعيان التجار من أصحابه ، والحجاج منهم من أهالي الأندلس وغيرهم ، وعمل لهم ضيافة حافلة ، بمكان من أجنة تونس يُقال له : رأس الطابية من منتزهات أمراء تونس وأمكنة فرجهم ثم هيأ من جملة هذه الضيافة مأكولاً يُقال له " المجبنة " من مآكيل الأندلس وصفته جبن طري يدعك بالأيدي حتى يصير كالعجين ، ثم يعجن السمن عجناً محكماً جيداً حتى يصير في قوام عجين الزلابية بهذه البلاد وأغلظ قواماً منه بيسير ثم يؤخذ منه قطعه تبسط بالكف بلطافة، ثم يجعل عليها قطعة من الجبن المدعوك ، ويجمع حتى يصير الجبن حشواً لها ثم يبسط قليلاً ثم يلقى في الطاجن وهو على النار بالدهن فيقلى ثم يرفع ، ويرش عليه السكر المدقوق ناعماً ، ومعه اليسير من

---

(١) الجرنائي : علي ، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، ط ١٣٨٧هـ ، ص ٤٤ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ ٣ ، ص ٣٠١ .

(٣) ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ٣٣٢ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

الكمون وقد عمل ذلك بين أيدي الحاضرين)) [١] .

وإن كانت تلك المجنة قد عملت بمرأى من الضيوف الحاضرين فإنني أيضاً أرى في ذلك مدى تأثير الغرناطيين على اهل تونس ونقل فكرة المجنة الغرناطية إليهم [٢] والتي قال فيها ابن الأزرق :

وأسكت عن الجبن فإنّ   بنتــه تُذهلـــــني
ظاهرهـــا كالوردِ أو   باطنها كالسوسنِ [٣]

أما بالنسبة للمأكولات العامة من اللحوم والدجاج والطيور فقد أعرضت عن التعرض لها نظراً لأنها وجبات مشتركة في جميع البلدان الإسلامية وغيرها .

---

(١) الروض الباسم ، تحقيق برنشفك ، باريس ١٩٣٦م ، ص ٢٧ ترجمة إلى اللغة الفرنسية برنشفك .

(٢) الطالبي : الهجرة الأندلسية إلى إفريقيا أيام الحفصيين ، ص ٧٩ - ٨١ .

(٣) المقري : نفح الطيب ، جـ ٣ ، ص ٣٠١ .

بعض القيم الاجتماعية :

ومن جملة العادات التي نقلها الغرناطيون في المغرب الأقصى عادات الاحتياط والتدبير في المعاش والحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال (١) . والتأهب لفصل الشتاء لما هم في حاجة إليه من حبوب وزيت وسمن وعسل وفحم (٢) ويرى صاحب كتاب " رباط الفتح " أن ذلك عائد إلى الأزمات التي قاساها الأندلسيون أيام إقامتهم في إقليم أبي الرقراق (٣) ، إلا أنني أرى ان تلك العادات لم تكن وليدة البيئة المغربية التي سكنوها بل أنها كانت متأصلة في نفوس الأندلسيين بصفة عامة والغرناطيين بصفة خاصة من قبل هجرتهم إلى الرباط والمثال على ذلك قول محمد بن يوسف بن حيان : ((أوصيك إحفظ دراهمك ويقال عنك بخيل ولا تحتاج إلى السفل)) (٤) والدليل أيضاً على ادخارهم لفصل الشتاء وتدبيرهم ما رواه ابن سعيد فقال ((ولقد اجتزت مع والدي على قرية من قراها وقد نال منا البرد والمطر أشد ا لنيل فأوينا إليها ، وكنا على حال ترقب من السلطان وخلو من الرفاهية ، فنزلنا في بيت شيخ من أهلها من غير معرفة متقدمة ، فقال لنا إن كان عندكم ما اشتري لكم فحماً تتقدون به فإنني أمضي في حوائجكم ، واجعل عيالي يقومون بشأنكم فأعطيناه ما اشترى به فحماً فأضرم ناراً فجاء ابن له صغير ليصطلي فضربه ، فقال له والدي لم ضربته ؟ فقال يتعلم استغنام مال الناس والضجر للبرد من الصغر ؟! ثم لما جاء النوم قال لابنه أعط هذا الشاب كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه فدفع كساءه إلي ولما قمنا عند الصباح وجدت الصبي منتبهاً ويده في الكساء فقلت ذلك لوالدي ، فقال هذه مروءات أهل الأندلس وهذا احتياطهم أعطاك الكساء وفضلك على نفسه ، ثم أذكر

---

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ .

(٢) السويسي : تاريخ رباط الفتح ، ص ١٦٠ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٦١ .

(٤) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٤٣ .

في أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه خوفاً من انفصالك بها وهو نائم ، وعلى هذا الشيء الحقير فقس الشيء الجليل)) (١) . وبتلك الصفات تأثر المجتمع المغربي في إقليم أبي الرقراق بينما يرى محمد رزوق أنه قد حدثت مواجهة بين تلك العادات وعادات المغاربة (٢) .

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ .

(٢) الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، ص ٥٩٢ .

نظام الأسرة (الحياة الخاصة)

لم تكن احتفالات الزواج في مملكة غرناطة والإعداد له تختلف كثيراً عن تلك التي في المغرب ؛ وفي كل طبقات المجتمع الغرناطي نجد أن الخطبة يصحبها دائماً مناقشات حول المهر المقدم للعروس وفي تلك المناقشات كان يتم الاتفاق على مكونات جهاز العروس المقدم من أسرة العريس ، إذ كان يشتمل على فرش وملابس للعروس إضافة إلى المجوهرات والسجاد والحرير والخادم ، ذلك في الطبقات الميسورة الحال (١) ، وينقسم المهر إلى قسمين مقدم ومتأخر والمتأخر يدعى كالي (٢) وما يتبع ذلك من إجراءات الزواج نجدها متشابهة مع البلدان الإسلامية في شمال إفريقيا مع بعض الفوارق خاصة في القبائل الريفية والبدوية في بلدان المغرب الأقصى (٣) ، أما بالنسبة للحواضر مثل فاس ، تلمسان ، تونس ، غرناطة فإنها تكاد تكون متطابقة (٤) .

لكن الجدير بالذكر في ظاهرة الزواج بين أهالي غرناطة وشمال إفريقيا أن أواصر الأخوة الإسلامية والشعور بالمصير المشترك بين الأسرتين الحاكمتين النصرية والمرينية قد دفعتها إلى تقوية الروابط الاجتماعية بينهما في احلك الظروف السياسية فقد تم زواج السلطان النصري نصر أبي الجيوش من أخت السلطان المريني أبي الربيع (٥) .

ونتيجة لتلك الرابطة الاجتماعية يوضح ابن خلدون أثر ذلك في التأثيرالغرناطي على الأسرة

---

(١) انظر ابن الخطيب : ريحانة الكتاب، جـ ١ ، ص ١٠٠ وانظر كناسة الدكان، ص ٥٢ ،٥٣ .

(٢) انظر ابن الخطيب : نفس المصدر والصفحات في الريحانة والكناسة .

(٣) العافيه : عبدالقادر ، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها خلال القرنين العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، ١٤٠٢هـ ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٤) انظر : ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ، جـ ١ ، ص ٢٥٤ ـــ ٢٥٦ ، روجيه : فاس في عصر بني مرين ، ص ١٠٠ ، ١٠١ وحركات : المغرب عبر التاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٠٩ .

(٥) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٢٤٠ .

المرينية فيقول بهذه المناسبة : ((كانت رسل ابن الأحمر تختلف إلى باب السلطان ووصل منهم في بعض أحيانها خلف من مترفيهم فجاهر بالكبائر فكشف صفحة وجهه في معاقرة الخمر والإدمان عليه)) (١) .

وللأسف إن هذا التأثير الغرناطي في بعض جوانبه كان سلبياً من نقل عادات النصارى إلى مملكة بني مرين تسببت في إثارة الفتنة والخلاف في الأسرة المرينية (٢) ، كذلك استمرت تلك العادات في التأثير حتى أواخر القرن التاسع الهجري والذي تدفقت فيه أفواج المهاجرين الأندلسيين الذين اصطحبوا معهم كثيراً من عاداتهم التي ألفوها في شبه جزيرة أيبيريا والتي من بينها انتشار ظاهرة شرب الخمر (٣) والتي كان يتعاطاها الغرناطيون حتى في الشوارع والسكك الغاصة بالناس (٤) .

وفي الوقت الذي ضعفت فيه العلاقات المرينية النصرية قويت العلاقات النصرية الحفصية وذلك في العقد الأول من القرن التاسع الهجري عندما تزوج السلطان النصري محمد الأيسر من إحدى التونسيات هي الأميرة زهر الرياض بنت الجنرال أبي السرور مفرج (٥) ، وأدت تلك العلاقات الاجتماعية إلى تقوية الروابط السياسية بين غرناطة وتونس وأدى ذلك إلى دخول عدد من الجنود الحفصيين إلى غرناطة سواء في عهد الأيسر أو في عهد السلطان أبي الحسن ، لكن المصادر لم تكشف عن التأثيرات الاجتماعية الناتجة عن دخول هؤلاء المقاتلين في القرن التاسع الهجري إلى غرناطة .

ولم تقتصر العلاقات الاجتماعية على السلاطين فقد شملت الوزراء والعلماء والمثقفين

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص ٢٤٠ .

(٢) انظر تفاصيل ذلك إذ تحول الخلاف الاجتماعي إلى خلاف سياسي ، في نفس المصدر والجزء ، ص٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٣) العافية : الحياة السياسية والاجتماعية ص ١٧١ .

(٤) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، جـ ٢ ، ص ١٠٨ .

(٥) انظر شجرة نسب بني نصر في الملحق رقم (٢) .

والأفراد من كافة الطبقات الاجتماعية فمن جملة ذلك لما قدم ابن خلدون على مملكة غرناطة وخاطبه ابن الخطيب بقصيدة مرحباً فيها بقدومه (١) وقوبل بالحفاوة والتكريم أيضاً من قبل سلطان غرناطة الغني بالله وزاد على ذلك بأن خصه بمنزل من قصوره بفرشه وماعونه (٢) وأقطعه قرية ألبيرة من أرض السقي بمرج غرناطة وكتب له بها منشوراً (٣) ، وعندما توافرت لابن خلدون أسباب العيش والحياة الكريمة في غرناطة تزوج من جارية من جواري مدينة غرناطة اسمها هند (٤) .

وقد قال بعض الكتاب المحدثين أن الأسر الأندلسية أسرٌ نادراً ما تتزوج المرأة الأندلسية من غير أندلسي أو نادراً ما يتزوج أندلسي من غير أندلسية ومذهبهم في ذلك لما يراه هؤلاء الأندلسيون من التميز على غيرهم (٥) ، إلا أنني أقول أن ذلك يتنافى مع الحقيقة إذ إن قلة النصوص ربما تكون هي إحدى الأسباب التي حالت بينهم وبين معرفة المزيد من العلاقات الاجتماعية وخير دليل على ما أقول كثرة الهجرة والرحلات ما بين المملكة الغرناطية والدول الإسلامية مغرباً ومشرقاً إضافة إلى وجود إشارات متفرقة تثبت صحة ما ذهبت إليه ، فبالإضافة إلى ما سبق أن ذكرته فالنساء الغرناطيات كن لا يمانعن من الزواج برجال من شمال إفريقيا ، فهذا محمد بن علي بن إبراهيم المكليش من أهل إفريقية أيام

---

(١) الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٤٩٩ ، ٥٠٠ وانظر الإحاطة نصوص جديدة لم تنشر ص ١٩٢ ، ١٩٣ وانظر التعريف بابن خلدون ، ص ٨٢ .

(٢) ابن خلدون : التعريف ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٣) نفس المصدر والصفحات .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٥٠٢ .

(٥) الطالبي : الهجرة الأندلسية إلى إفريقيا ، ص ٨٠ ، رزوق : الأندلسيون وهجراتهم ، ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ، وانظر : السعدني : ناصر الدين : الجالية الأندلسية بالجزائر ومساهماتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي : مقالة منشورة بمجلة أوراق ثقافية يصدرها المعهد الأسباني العربي للثقافة ٤/١٩٨١م ، ص ١٢١ .

مقامه بمالقة واستقراره ، أنه ((لقي ليلة بباب الملعب في أبوابها ظبية من ظبيات الأنس وفتنة من فتن هذا الجنس فخطب وصالها وأتقى بفؤاده نصالها ، حتى همت بالانقياد ، وانعطفت إنعطاف الغصن المياد)) [١] .

وقول ابن الخطيب نفسه متشوقاً للزواج من امرأة مغربية :

عسى خَطْرة بالرَّكب يا حادي العيس
على الهضْبة الشَّماءِ من قصر بادِيس
لنظفر من ذاك الزلال بعلة
وننعم في تلك الظلال بتعريس [٢]

وإبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأنصاري الساحلي الغرناطي تزوج من نساء في تنبكتو رزق منهن بأولاد كالخنافسة [٣] .

كذلك فإن العائلات المهاجرة التي رافقت السلطان أبي عبدا لله أثناء مغادرته الوطن الأندلسي والذين تمكنوا من بناء مدينة تطوان [٤] بقيادة القائد الغرناطي أبي الحسن على المنظري [٥] تصاهرت وامتزجت مع العائلات المغربية وتلاشت الفوارق التي بين العناصر

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٥٦٤ .

(٢) نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ٤٨٦ .

(٣) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٣٤١ .

(٤) تطوان : هي مدينة تطوان الحديثة التي أجمع المؤرخون على أن رئيس الأندلسيين الذين بنوا تطوان الحديثة هو القائد المجاهد أبو الحسن علي المنظري الغرناطي الذي أشرف على بنائها وتولى الحكم فيها (داود : محمد التطواني : تاريخ تطوان، جـ ١ ط٢ تطوان ١٣٧٩هـ ، ص ٩٠) .

(٥) أبو الحسن علي المنظري : كان من جنود السلطان ابو عبدا لله واحد قواده وينسب إلى حصن المنظر قرب غرناطة هاجر إلى المغرب وتولى زعامة الأندلسيين المهاجرين الذين بنوا تطوان الحديثة كما أشرت أعلاه (انظر الحسن الوزان) ، وصف إفريقيا ، جـ ١ ص ٣١٨ ، ٣١٩ ، وانظر داود ، تاريخ تطوان جـ ١ ، ص ٩٠ ، ١٠٧ ، وانظر حركات : المغرب عبر التاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٠٠ ، وانظر العافية : الحياة السياسية والاجتماعية ، ص ١٢٧ .

وإن بقيت الزعامة الروحية والاجتماعية بين العائلات الأندلسية العريقة في الحضارة والثروة والوجاهة (١) ، فكان ذلك من بين الأسباب التي أدت إلى زواج القائد أبي الحسن علي المنظري من ابنة الشيخ المغربي علي بن موسى بن راشد بن علي بن سعيد بن عبدالوهاب ابن علال بن عبدالسلام بن مشيش وتدعى بالسيدة " عائشة الحرة " (٢) والتي اتخذت من لقب أم السلطان أبي عبدا لله لقباً لها ذلك اللقب الذي لم تعرفه المغرب من قبل (٣) .

ولقد سبق أن بينت أن لقب الحرة من الألقاب المنتشرة في مملكة غرناطة خاصة بين نساء السلاطين والأعيان (٤) ، وأن ذلك في المغرب الأقصى ما هو إلا نتيجة للتأثيرات الغرناطية لدرجة أنه تنوسي معها الاسم الحقيقي لأم السلطان ابي عبدا لله الذي هو فاطمة (٥) ، فهذه الحرة المغربية وزوجها القائد الغرناطي اللذان حملا راية الدفاع عن مدينة تطوان ضد العدوان الأسباني والبرتغالي قد ذاع صيتهما في المصادر الأسبانية والبرتغالية في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي .

---

(١) داود : تاريخ تطوان ، جـ ١ ، ص ٩٨ .

(٢) انظر : حركات : المغرب عبر التاريخ ، جـ ٢ ص ٢٠٠ ، وانظر العافية : الحياة السياسية والاجتماعية ، ص ١٢٧ .

(٣) انظر نفس المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(٤) انظر ص ٤٠٣ من الرسالة .

(٥) انظر نفس الصفحة من الرسالة .

عادات التبرج

من الجدير بالذكر أن أشير إلى عادة نقلها الغرناطيون إلى المغرب الأقصى وهي عادة دخول الحمامات العامة من قبل النساء وهن غير متسترات وإن كانت تلك العادات والمخالفات موجودة إلا أن الغرناطيات والغرناطيين قد ساهموا في انتشارها وكذا اجتماع المراهقين من الرجال ودخولهم الحمامات العامة من غير حياء ذلك الحياء الذي يعد من كمال الإيمان ، ولقد كان للمهاجر الغرناطي من الأسر المولدية ويدعى يحيى بن غنصاله (جونزاليز) والمعروف بابن الفنش في العشر الثانية من القرن السابع الهجري دور ((في انتشار تلك العادات والرذيلة ، إذ بنى في مكناس حماماً كبيراً حفيلاً محكماً فجاء في غاية من الإتقان)) [١] ، فأدى هذا الحمام دوره في انتشار بعض العادات التي كانت موجودة في مملكة غرناطة والتي كان القضاة في مملكة غرناطة لها بالمرصاد ، إذ أمر القاضي أبو البركات ابن الحاج البلفيقي بسجن إمرأة في غرناطة بسبب دخولها الحمام غير متسترة وفي ذلك قال ابن زرقالة الذي جاء إلى القاضي أبي البركات ليشفع في تلك المرأة :

يا قاضياً أصبَحَ ذا سيرةٍ بكل عدلٍ ... في الـــورى ساريــــةْ
سمحك في جاريـــةٍ ثُقِفَـــتْ ... لَيسَتْ على حكْم الهدى جارية
وأعجب لما جـــاء بـــه وقْتنـــا ... " مُؤْتَزرٌ يَشفعُ في عَارَيْـــةْ " [٢]

ولقد وقعت زوجة القاضي أبي البركات في الخطأ نفسه [٣] ، ولا أعلم بماذا عاقبها القاضي أبي البركات علماً بأنه قد طلق إحدى زوجاته [٤] فهل هي التي كان منها ذلك ؟! مما يدل

---

(١) العثماني : محمد بن غازي : الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون ، تحقيق عبدالوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ط٢ ، ١٤٠٨هـ ، ص ٢٩ .

(٢) ابن زرقاله : رائق التحلية في فائق التورية ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) انظر : المقري ، نفح الطيب ، جـ ٥ ، ص ٤٨٧ .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٧٩ .

على انتشار تلك العادات في مملكة غرناطة المجاورة للنصارى الذين لا يرون بأساً في مثل تلك العادات على أية حال ، فلقد هاجم أحد الشعراء المغاربة ما قام به المهاجر المولدي الغرناطي فقال الغقجيمي في وصف حمام مكناسة الزيتون المشار إليه :

هناك حمام بناه الفنـــــش
وهو الذي قد كان فيه الفحش
من الرجال ومن النســـوان
بكشف أعضاء لهم حســـان
لأجل هذا نابه الخـــراب
فلم يكن بعد به طيــــاب [1]

(١) العثماني : محمد بن غازي ، الروض الهتون ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

التأثيرات الاجتماعية المتبادلة بين المجتمع الغرناطي والمجتمعات الإسلامية :

- في المشرق الإسلامي .

توطئة :

لئن كانت العلاقات بين غرناطة والمغرب علاقة عضوية ، وعلاقة تعاون ضد عدو مشترك ، وعلاقة انتماء لحضارة واحدة ، فإن العلاقة بين غرناطة والمشرق تقف عند حدود علاقة العقيدة والحضارة المشتركة ، خاصة في ظروف التجزئة والتمزق التي يمر بها العالم الإسلامي .

وفي ظل إعلام ووسائل مواصلات مثل اعلام ومواصلات القرنين الثامن والتاسع للهجرة ، كان الاتصال صعباً ، وكان التعاون بالتالي يحتاج إلى وقت طويل .
فالسفارة قد تمكث شهوراً حتى تصل وتعود ، ورحلة الحج تستغرق ستة أشهر - على أقل تقدير - وثمة مظالم هنا أو هناك من رجال المكوس ، وبصفة عامة لم ينجح المشرق الإسلامي في أن يفرض وجوده وأجنحته على النحو الذي كان في أيام الأمويين ومطلع عصر العباسيين .. وهذا ما مكّن النصارى من الانفراد بالالتهام المتدرج للأندلس ، دون وقفة مشرقية موضوعية .
وكان الغرناطيون كثيراً ما ينظرون نتيجة للبعد المكاني وللتأثيرات النصرانية إلى بعض العادات المشرقية على أنها عادات مستغربة ومستظرفة في المجالات الاجتماعية على أنهم أكثر تمدناً من المشارقة ومن بعض المغاربة ، وفي ضوء هذا قل في الغرناطيين اللباس المشرقي ((فهذه العمائم التي في المشرق لا يعرفها أهل الأندلس وإن رأوا في رأس مشرقي داخل إلى بلادهم شكلاً منها أظهروا التعجب والاستظراف ولا يأخذون انفسهم بفعلها لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم وكذلك في تفصيل الثياب)) [1] .

---

(١) المقري : نفح الطيب ، ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ نقلاً عن ابن سعيد .

ومع ذلك فقد كانت رحلات الحج ، ورحلات التجارة والرحلات العلمية ، والفردية بقصد الاقامة في المشرق أو العكس أحياناً هي السبل المتاحة للتواصل الحضاري بين غرناطة والمشرق ، ومن بين تلك الأسماء التي لا نشك أنها كثيرة وجدت شخصيات زارت المشرق إذ استوطنته أو عادت إلى بلادها بتأثيرات اجتماعية أو أسماء أخرى زارت غرناطة أو استوطنتها وخضعت لمؤثراتها الاجتماعية ، وكان من جراء ذلك وقوع نوع من التفاعل الاجتماعي والثقافي والحضاري وبالتالي كانت التأثيرات الاجتماعية على مستوى الأفراد أكثر وضوحاً من الجماعات التي يتكون منها أساساً المجتمع . وذلك عن طريق المهاجرين إلى مصر والشام والحجاز قبيل سقوط غرناطة ، وكذا المرتحلين ، وتختلف الحال عما كانت عليه التأثيرات المتبادلة مع المغرب نظراً لأن القرب المكاني بين مملكة غرناطة والمغرب يؤدي إلى التنقل بكثرة ما بين الطرفين ذهاباً وإياباً . أما في المشرق فكان المتنقلون ما بين غرناطة والمشرق غالبيتهم من اهالي مملكة غرناطة والعدد القليل جداً من أهالي المشرق من يتجه إلى غرناطة ، وفي المشرق حيث أقام عددٌ من أهالي مملكة غرناطة كان لهم دور في الحياة اليومية الاجتماعية العادية ، ومنهم من تأثر بالمجتمع الذي أقام فيه أو نقل بعض التأثيرات عندما عاد إلى وطنه ومن جملة ما أتناوله في هذا الجانب :

- في اللباس :

لقد لاحظ ابن الخطيب أثناء قيامه بجولة في مملكة غرناطة بصحبة السلطان النصري يوسف الأول بعض التأثيرات المشرقية في مدينة مرشانة [١] الغرناطية التي خرج أهلها لاستقبال السلطان النصري يتقدمهم قاضيها ابن أبي خالد فقال في ذلك ابن الخطيب : ((ركب قاضيها ابن أبي خالد وقد شهرته النزعة الحجازية ولبس من حسن الحجي زيه وأرمى من البياض طيلساناً وصبغ لحيته بالحناء والكتم ولات عمامته واختتم)) [٢] .

(١) مدينة مرشانة : أو برشانة حصن منيع يقع على نهر المنصور قرب ولاية مرسيه ، انظر ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ١٠٦ المتن وحاشية المحقق ١٤٩ .

(٢) مشاهداته ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

إذاً تطالعنا المؤثرات المشرقية وهي من الحجاز في المدن الغرناطية فقد لبس خالد بن عيسى البلوي زي أهل الحجاز . ولم تكن المؤثرات المشرقية بصفة عامة والحجازية بصفة خاصة على القاضي الغرناطي خالد بن عيسى البلوي مكتسبة من داخل مملكة غرناطة بل للبلوي رحلة علمية إلى المشرق أدى خلالها فريضة الحج ، قد تم مناقشتها في الفصل الثاني من الرسالة فهل أحضر البلوي معه واشترى لباساً من هناك عائداً به إلى غرناطة ؟ الجواب نعم لأن البلوي دخل سوق مكة ووصف مشاعرها وأحياءها وتجارتها [١] . وإن لم يفصح عما اشتراه في رحلته سوى إشارته للكتب التي ابتاعها من المشرق [٢] ، فإن ابن الخطيب كشف الستار عن تأثر القاضي البلوي الغرناطي بأزياء اهل الحجاز وذلك بعد أن لبس القاضي البلوي العمامة [٣] التي اشتراها مع بعض الملابس الحجازية من مكة والمدينة والتي لبسها بمناسبة خروجه لاستقبال السلطان النصري أبي الحجاج يوسف في زيارته لبلده قنتورية [٤] مفتخراً بها وحق له ذلك لما عاناه في رحلته إلى الحج من صعاب حتى عاد إلى بلاده وما كان لتلك الثياب أن ترى النور إلا في مثل تلك المناسبة ، وقد كان التأثير الحجازي واضحاً على خالد بن عيسى فقد شمل بعض العادات والتقاليد في المظهر العام كما سيأتي ذكره في حينه .

وكذا محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم الأنصاري الساحلي الذي عرف ببلدة مالقة بالمعمم [٥] كان قد رحل إلى المشرق وحج وعاد يلبس العمامة .

وليس بالضرورة أن يكون كل من لبس العمامة من أهالي غرناطة قد زار المشرق فهذا ابن الخطيب لم يزر المشرق ولبس العمامة كعامة علماء عصره وتلقب من الألقاب

---

(١) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣٠٨ .

(٢) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٣٠ .

(٣) ابن الخطيب : مشاهداته ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٤) نفس المصدر ونفس الصفحات وهي تقع جنوب برشانة على نهر المنصورة ، حاشية المحقق ٤ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ١٩١ ، ١٩٣ .

المشرقية بلسان الدين [١] .

فهل جلب العمامة إليه إبنه علي من المشرق ؟ علماً بأنه أرسل معه كتبه إلى القاهرة وهل عاد علي بن الخطيب وفي معيته لأبيه العمامة واللقب ؟! أم أنها من صنع محلي ؟ على أية حال فلبس العمامة في غرناطة كان قليلاً ونادراً مثل ما صرح بذلك بن الخطيب نفسه فقال : ((والعمائم تقل في زي أهل هذه الحضرة إلا ما شاذ في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم)) [٢] .

من ناحية أخرى لقد ذكر ابن الخطيب في إشارة تعد منه نادرة عن أزياء سلاطين بني نصر عن السلطان النصري أبا الوليد إسماعيل أنه كان يلبس العمامة وذلك عند اغتياله في الوقت الذي كان يستقبل فيه رعاياه بمناسبة الاحتفال بالنصر على النصارى ((فلزقت العمامة بشريانه المبتور فعندما انتزعت العمامة فاضت روحه لحين زوال العمامة)) [٣] .

من ذلك استنتج أن بعضا من سلاطين بني نصر قد لبس العمامة خاصة في الفترة التي قويت فيها العلاقات مع المشرق الإسلامي وزادت الروابط السياسية والاجتماعية ما بين غرناطة والقاهرة وذلك منذ عصر السلطان أبي الوليد إسماعيل إلى نهاية عصر السلطان محمد الخامس . وكان من نتيجة ذلك أن صُنِعت العمامة في مصانع النسيج الخاصة بتطريز ملابس سلاطين بني نصر والدليل على صحة ذلك أن السلطان الغني با لله محمد الخامس أهدى إلى السلطان المريني أبي العباس ثياباً مطرزة من انتاج مصانع غرناطة ومن بين تلك الثياب عمامة مطرزة وفي ذلك يقول ابن زمرك من بين أبيات عدة بهذه المناسبة :

للباسِهِ ثوباً وقـــدْ ... لَبِس المحامِدَ وارْتـدَى

وعمامَةَ التقوى الـتي ... من فوقِها شَمْسُ الهُدىَ

يا حُسنَها إذْ أرْسلت ... من كفه غيث النـدى

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٤ ، ص ٤٣٩ .

(٢) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ١٣٦ وانظر القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، جـ ٥ المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، د. ت ، ص ٢٧١ .

(٣) الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٩٢ .

وكأنَّ وَشْيَ رقومها　　　بالبْرقِ طُرِّزَ عسْجــــدا
وبطرزِه لونُ السَّماء　　　وَوَجْهُهُ قمرٌ بـــــــدَا
لله منهُ نــــــير　　　حل المنازل أسْعــــدا
مستنصر أعلى لــه　　　فوق الكَواكِب مَصْعدَا [١]

إن تلك الفكرة في صنع العمامة وتطريزها قد جاءت من المشرق خاصة وأن العمامة كـانت هناك لباساً عاماً اتخذته معظم طبقات المجتمع [٢] تلك العمائم التي اختلفت باختلاف مراتبهم [٣] والتي تصل في مصر إلى حد العجب كما قال ابن بطوطة عن قاضي الإسكندرية عماد الدين الكندي أنه ((كان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أر في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها رأيته يوماً قاعداً في صدر محراب وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب)) [٤] .

كما لاحظ ابن زمرك في الاحتفال الذي أقامه السلطان النصري محمد الخامس في غرناطة مجموعة من أصحاب العمائم تحت منصة الاحتفال فقدم ابن زمرك قصيدة طويلة وصفاً لذلك الاحتفال والتقط صورة وصفية لمجموعة من أصحاب العمائم والذين كان من بينهم رجال من غرناطة والمغرب والمشرق بلا شك فقال :

ولك القباب الحمر تُرْفَع للنَّدى
فترى العمائمُ تحتها كالأنجم [٥]

---

(١) المقري : أزهار الرياض ، جـ ٢ ص ١٣٤ .
(٢) رمضان : أحمد : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، ط ١٣٩٧هـ ، ص ٢٦ .
(٣) عاشور : سعيد عبدالفتاح ، المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، د . ت ص ٢١٣ .
(٤) رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٣ .
(٥) المقري : أزهار الرياض ، جـ ٢ ص ٦٢ .

ومن الجدير بالذكر أنه ليس كل من زار المشرق أو أقام في المشرق قد تأثر بالضرورة بالعادات المشرقية في لبس العمامة فقد يتأثر بجزء من اللباس وقد يؤثر هو أيضاً في المجتمع الذي عاش فيه .

فهذا محمد بن محمد بن سهل الأندلسي الغرناطي ت ٧٣٠هـ (١) / ١٣٢٩م من بيت في غرناطة كبير معروف بالجلالة والفضل والرئاسة والثروة قدم مصر ووصل إلى الحجاز حاجاً سنة ٦٧٨هـ / ١٢٨٨م ثم عاد إلى غرناطة ثم سافر مرة أخرى إلى المشرق سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م وجاور بمكة سنتين ووصل إلى دمشق ثم القاهرة متنقلاً بينها وبين الحجاز وكان شيخاً وقوراً لا يتعمم بل يتطيلس على طاقية (٢) .

فلم يكن رفض لبس العمامة من قبل هذا الشيخ الذي عاش في المجتمع المشرقي مستغرباً علماً بأن هذا الشيخ لم يكن في عزلة عن المجتمع بل اختلط بالمجتمع المشرقي وشعر بهمومه فكان يتصدق من ماله الذي يحمل إليه من غرناطة فعرفه الناس في مصر وصاروا يقصدونه ((فإذا طلب منه أحد شيئاً أنكر ذلك وقال له : ليس ما قيل لك صحيحاً ، ثم يتركه ويأتي إليه بعد يوم أو أكثر وهو غافل ويلقى في حجره كاغداً فيه ذهب وتمر ، ولا يقف له ويتصدق من الستين ديناراً فما دونها)) (٣) .

ومن الملاحظ أن الوزير الشيخ محمد بن سهل وإن كان قد رفض العمامة إلا أنه قد لبس الطاقية تحت الطيلسان تلك الطواقي التي انتشر لبسها في مصر بغير عمائم وكانت ألوان الطواقي متعددة ما بين أخضر وأحمر وأزرق (٤) ، وصاروا يلبسون الطاقية على

---

(١) المقريزي : المقفى ، جـ ٧ ص ٢٣ - ٢٥ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحات .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحات .

(٤) المقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، جـ ٢ ، دار صادر بيروت ، طبعة جديدة بالأوفست ، د. ت ، ص ١٠٤ .

رؤوسهم بغير عمامة ويمرون كذلك في الشوارع والأسواق والجوامع والمواكب ولا يرون بذلك بأساً بعد ما كان نزع العمامة عن الرأس أمراً غير مألوف (١) .
فتأثر الغرناطي محمد بن سهل بذلك ولبس الطاقية بغير عمامة تحت الطيلسان الأندلسي وجمع في ذلك ما بين الزي الغرناطي والمشرقي وبلبسه الطاقية تحت الطيلسان وتركه العمامة بالرغم من منزلته فإنه قد تجنب النقد اللاذع الذي وجهه أبو عبدا لله محمد بن محمد العبدري الشهير بابن الحاج الذي كان يقيم في القاهرة من التزام بعض العلماء بعادات وتقاليد في اللباس لا يحيدون عنها مثل توسيع أكمام الثياب ولبس العمامة فوق الطيلسان إذ قال ما نصه : ((وإن كان من يحتاج مع العمامة إلى طيلسان فنجد بعضهم قد خنق نفسه به ويتفقد في كل وقت وحين من جوانب خديه أن يكون مال إلى أحد الجانبين فيظهر وجهه للناس كأنه امرأة تحتجب تخاف أن تبين وجهها للرجال حتى إن بعضهم ليغرز الإبر في الطيلسان مع العمامة حتى لا يكشف الهواء عن رأسه ووجهه وكذا تفعل المرأة بالقناعة والخمار ....)) (٢) .

وإن اختيار الغرناطي محمد بن سهل للبس الطاقية تحت الطيلسان لدليل على اناقته في الملبس والتأثر بما يتفق لمزاجه لا بما يتفق مع من رآه من عامة الناس بالإضافة إلى مسايرته المتغيرات الاجتماعية ، وجمع في ذلك ما بين الزي الغرناطي والمشرقي وهذا لا يعني أن

---

(١) المقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار ، ، جـ ٢ ، ص ١٠٤ . وانظر حسن علي إبراهيم : تاريخ المماليك البحرية ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ط٣ ، ١٩٦٧م ، ص ٤٧٤ . وانظر ماير : ل ـ أ . الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتي ، مراجعة وتقديم د. عبدالرحمن فهمي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ، جنيف ١٩٥٢م ، ص ٥٨ .

(٢) المدخل : المسمى مدخل الشرع الشريف على المذاهب ، أربعة أجزاء ، دار الفكر للطباعة والنشر وةالتوزيع ، د. ت ، جـ ١ ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

المشارقة لا يتيطلسون بل إن بعضاً منهم مـن يلبـس الطيلسـان [١] ذلـك الـذي كـان يلبسـه الأندلسـيون بصفـة عامـة [٢] ، وأهـالي مملكـة غرناطـة بصفـة خاصـة [٣] ، إلا أن لبسـه بـين الغرناطيين في المشرق أشمل من غيرهم حتى عرف ابن مالك في المشرق بـابن الطيلسـان [٤] ، ولقد تأثر الغرناطيون باللون الأبيض للطيلسان المشرقي ، وقد لاحظ ذلك ابن الخطيب على القاضي خالد بن عيسى البلوي الذي قال عنه أنه ((لبس من الحجازي وأرخى من البيـاض طيلساناً)) [٥] ، ذلك البياض الذي كان لا يلبس عندهم إلا في أوقات المـآتم والجنـائز [٦] ، بينما كان أمير مكة لابساً البياض معمم [٧] .

ومن هذا المنطلق لي مع الغرناطِيِّين ابن جابر الأعمى ورفيقه البصير [٨] وقفة في التأثر بلبـاس أهل المشرق إذ قابلهمـا ابـن فرحـون : أبـو عبـدا لله محمـد بـن أبـي محمـد وترجـم لهمـا في مخطوطته ((كتاب نصيحة المشاور وتسلية المجاور)) فقـال عنهمـا أثنـاء اقامتهمـا في المدينـة المنورة أنهما ((لا يلبس أحدهما غـير ملبـس الآخـر كـل واحـد منهمـا مثـل ، لصاحبـه إن فصلا ثياباً من نوع واحد ولون واحد وكذلك في العمائم والفوط والدلوق وثياب الجمالـة

---

(١) العمري : مسالك الأبصـار في ممـالك الأبصـار ، دولـة الممـاليك الأولى ، دراسـة وتحقيـق دور بتاكر فولسكي ، نشـر المركـز الإسـلامي للبحـوث ، بـيروت ، ١٩٨٦م ، ط ١٤٠٧هـ ص ١١٢ .

(٢) العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٣) نفس المصدر والصفحات .

(٤) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ .

(٥) الإحاطة ، جـ ١ ص ٥٠١ .

(٦) سحر سالم : ملابس الرجال في الأندلس ، ص ١٢ .

(٧) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص ١٦٢ .

(٨) سبق ترجمتها في الرحلات العلمية انظر هناك .

وكذلك لباس الشتاء والصيف وكذلك الفرش والأوطية والأنطاع والوسائد والنعال وغير ذلك)) [١] .

إن هذا النص في غاية الأهمية فقد كشف فيه ابن فرحون عن لبس الغرناطِيَّين " الأعمى والبصير" أثناء إقامتها في المدينة المنورة فقد لبسا العمامة [٢] وقد لبسا "ا لفوط" . و " الفوط " من ألبسة البدن الداخلية للرجال ومصغرها فويطة وهي ضرب من الثياب قصار غلاظ تكون مآزر واحدتها فوطة [٣] ، وهذا الضرب من الملابس يُلبس في الهند عوضاً عن السروال [٤] وهو لباس لم يكن معروفاً في غرناطة وإنما لبسه ابن ابن جابر ورفيقه أثناء إقامتهما في المدينة المنورة كما لبسا الدلق والدلق رداء كالعباءة كان يرتديه الفقهاء والمتصوفة [٥] ويقول القلقشندي إن من القضاة من ((يجعل عوض الذؤابة الطيلسان الفائق ويلبس فوقه دلقاً متسع الأكمام طويلها ، مفتوحاً فوق كتفيه بغير تفريج سابلاً على قدميه)) [٦] ، وبذلك أستطيع القول إن الغرناطيين الذين وصلوا إلى المشرق قد امتزجوا مع البيئة المصرية والشامية والحجازية فلبسوا ثياب الجمالة وثياب المهنة أو الخدمة أثناء كسبهم لقمة العيش ، ويعلق ابن الخطيب على اندماج محمد بن عمر العبدري بالمجتمع في المشرق بقوله : ((إنه رحل فامتزج بسكانه وقطانه ونال من اللذات ما لم ينله في أوطانه فكان

---

(١) ابن فرحون : نصيحة المشاور ، وتسلية المجاور ، ورقة ٧٦ ب .

(٢) لقد سبق مناقشة التاثر والتأثير بلبس العمامة مما لا يستوجب تكراره .

(٣) ابن سيده : كتاب المخصص ، جـ ٤ ، ص ٧٢ .

(4) R.P.A. Dozay Nomsdes Vete ments Arabes Librairie du Liban raid solh Birut. p. 342.

(٥) عاشور ، المجتمع المصري ، ص ٢١٣ ، حاشية ٤ .

(٦) صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٤٣ ، وانظر : علي حسن : إبراهيم ، تاريخ المماليك البحرية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٣ ، ١٩٦٧م ، ص ٤٧٣ ، وانظر عاشور ، المجتمع المصري ، ص ٢١٦ .

كابن الجهم بُعث إلى الرصافة لِيَرِقَّ فذاب)) [١] .

وكانت الجالية الغرناطية في المشرق تلاحظ وترصد بعض المتغيرات الاجتماعية في الأزياء المشرقية لأن تلك الجالية كانت أقرب إلى الإحساس بذلك فقد لاحظ ابن جابر الغرناطي ما حدث في سنة ٧٧٣هـ /١٣٧١م إذ أمر السلطان المملوكي (الأشرف زين الدين أبو المعالي شعبان) الأشراف أن يمتازوا عن الناس بعصائب خضر على العمائم ففعلوا ذلك في مصر والشام وغيرها [٢] فأثار ذلك انتقاد الغرناطي ابن جابر الأعمى نزيل حلب فقال :

جعلوا لأبناء الرسول علامة　　　إن العلامة شأن من لم يشتهـر
نور النبوة في كريم وجوههم　　　يغني الشريف عن الطراز الأخضر [٣]

ذلك الانتقاد من قبل ابن جابر الأعمى يدل دلالة واضحة أنه لربما شاركه في الرأي بقية الجالية الأندلسية ، تلك العلامة التي أشاد بها الأديب المشرقي شمس الدين محمد بن إبراهيم ابن بركة الدمشقي خلافاً لرأي ابن جابر فقال :

أطراف تيجان أتت من سندس　　　خضر بأعلام الأشـراف
والأشرف السلطان خصهم بها　　　شرفاً ليفرقهم من الأطراف [٤]

وكثيراً ما يتحدث الغرناطيون العائدون من رحلة الحج إلى غرناطة عن جمال أزياء أهل الحجاز خاصة زي بني شيبة سدنة بيت الله الحرام والذي وصفوه بأحسن زي [٥] عندما قدموا وصفاً لكيفية غسيل الكعبة المشرفة [٦] .

---

(١) الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٥٧٨ .

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ ١ ص ٨ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٥٦٦ .

(٦) نفس المصدر والجزء والصفحة .

ونجد للأزياء الغرناطية بصفة خاصة والأندلسية بصفة عامة أصولاً شرقية منذ عهد زرياب أبي الحسن علي بن نافع الملقب زرياب (ت ٢٣٨هـ) الذي رأى لأهل الأندلس أن يلبسوا في الفصل الذي بين الحر والبرد والمسمى عندهم الربيع من مصبغهم جباب الخز والملحم والمحرر والدررايع التي لا بطائن لها)) [١] ، تلك الجبة والدراعة كانت تعتبر في بلاد الشام لباساً عاماً لبسه أعاظم الناس وأصاغرهم [٢] كان أهل الأندلس يستظرفون الجباب منها فيلبسها الفقهاء والقضاة وكبار رجال الدولة من الوزراء وأصحاب الخطط وأرباب الخدمات)) [٣] .

كما انتقلت إلى مملكة غرناطة عن طريق المشرق طريقة الاقتصاد في الملبس نقلتها الطائفة التي عرفت في المشرق بطائفة الفقراء أو الصوفية فكان ملبسهم الاقتصاد [٤] .

ولقد تأثرت بتلك الطريقة طائفة من المجتمع الغرناطي والتي عرفت بذلك في غرناطة والتي كانت طرقها وآراؤها منتشرة في المشرق والتي ساهمت في نقلها طائفة من أهل المشرق سكنوا غرناطة وعرفوا فيها باسم طائفة الفقراء [٥] ، كذلك طائفة من اهالي مملكة غرناطة قد زاروا المشرق وتأثروا بذلك وعادوا بتلك العادات إلى بلادهم [٦] .

وقد وردت إشارات عديدة عن عدد من هؤلاء الذين كان ملبسهم في غرناطة الاقتصاد [٧] دون توضيح ماهية ذلك الملبس إلا أنه في إحدى المرات ذكر ابن الخطيب أن

---

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ٣ ، ص ١٢٨ .

(٢) رمضان : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام ، ص ٢١٣ ، ٢٧٠ .

(٣) انظر سحر سالم : ملابس الرجال في الأندلس ، ص ١٨ .

(٤) النويري : الإلمام بالأعلام ، جـ ٢ ، ص ٢١٧ .

(٥) انظر ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ص ٦٧٢ وانظر ابن الخطيب الإحاطة، جـ ٣ ص ٤٦١ .

(٦) سيأتي الحديث عن عينات منهم .

(٧) ابن الخطيب : المصدر السابق جـ ٣ ، ص ٢٢٩ ، ٤٠٢ ، ٤٦١ .

عبدا لله بن علي بن سلمون الكناني من أهل غرناطة قد لبس خرقة التصوف [1] ، وهذه الخرقة كانت مصنوعة من الصوف لما فيها من التقشف والبعد عن التنعم [2] ، ومما يؤكد ذلك أن ابن الخطيب قد أسماهم أيضاً بالمخشوشنين [3] . والذين تكاثر عددهم في غرناطة بشكل ملحوظ حتى أن ابن الخطيب قال إن المتصوف الغرناطي محمد بن إبراهيم الأنصاري قد أتبعه عدد كبير منهم استخدمهم في فلاحة أرض كانت له بما يعود عليه بوفر وإعانة [4] .

ولقد قويت المؤثرات الاجتماعية بين غرناطة والمشرق حتى شملت الأقليات غير المسلمة ، ومن الملاحظ أنه في عهد السلطان النصري أبي الوليد إسماعيل (٧١٣ – ٧٢٤هـ /١٣١٣ – ١٣٢٣م) والسلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م ازدهرت الروابط السياسية والاجتماعية بين غرناطة والقاهرة ، ففي سنة ٧٠٠هـ /١٣٠٠م أصدر السلطان المملوكي أمراً بأن يلبس جالية اليهود عمائم صفر [5] .

ثم صدرت الأوامر في غرناطة بعد ذلك التاريخ بأن تلبس الجالية اليهودية في غرناطة (شواشي صفر) ويقول ابن الخطيب عن ذلك الأمر أن السلطان أبا الوليد إسماعيل قد ((أخذ يهود الذمة بالتزام سمة تشهرهم وشارة تميزهم وليوفي حقهم من المعاملة التي أمر بها الشارع في الخطاب والطرق وهي شواشي صفر)) [6] .

ويروي ابن الخطيب أيضاً بهذه المناسبة قصة اجتماعية طريفة فيقول : ((ولقد حدَّث من يخف حديثه ، من الشيوخ أولى المجانه والدعابة قال: كنا عاكفين على راح ، وبراسي شاشيه

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٤٠٢ .

(٢) زكي مبارك : التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق ، جزءان ، القاهرة ١٩٣٨م ، جـ ١ ص ٣٤٤ .

(٣) ابن الخطيب : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٣٠ .

(٤) الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ، مج١ ، جـ ١ ، ص ٤٠٨ .

(٦) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٣٨٨ .

ملف حمراء ، فحاول أصحابي إنامتي ، حتى أمكن ذلك ، وبادروا إلى رقاع من ثوب أصفر ، فصنعوا منها شاشية ، ووضعوها في رأسي ، مكان شاشيتي ، وايقظوني فقمت لشأني ، وقد هيأوا ثمناً لشراء بقل وفاكهة ، وجهزوني لشرائه ، فخرجت حتى أتيت دكان السوق ، فساومته ، فلما نظر إلي قال لصاحبه : جزى ا لله هذا السلطان خيراً ، وا لله لقد كنت أبادر هذا اللعين بالسلام عند لقائه أظنه مسلماً ، وبصق عليّ ، فهممت أن أوقع به ثم فطنت للحيلة ، فانتزعتها فبادرت فأوسعتهم ذماً . وعظم خجلي ، وسبقني إليهم عين لهم علي ، فكاد الضحك يهلكهم عند دخولي)) (١) .

وليس ثمة شك أن ذلك تأثر بما صدر في القاهرة وإن كان الأمر قد صدر على الشاشية بدلاً من العمامة فقد تطابق اللون الأصفر لليهود في القاهرة وغرناطة ، وتلك القصة أيضاً تدل على أن لبس الشواشي الصفراء من قبل الجالية اليهودية لم يكن معمولاً بها في مملكة غرناطة وإن كانت في الأندلس موجودة من ذي قبل (٢) ، وأنه قد مرت عليها فترة من الزمن في ظل الاهمال حتى صدر أمر السلطان النصري أبي الوليد إسماعيل ، كما أن الفترة الزمنية لصدور الأمرين المملوكي والنصري متقاربة ، كما لبست الجالية اليهودية في المشرق الشاشية الصفراء أيضاً كما هو الحال في غرناطة فقال الوداعي في ذلك :

لقد ألبسوا الكفار شاشات ذلـة
تزيدهم من لعنة ا لله تشويشا
فقلت لهم ما ألبسوكم عمائمـا
ولكنهم ألبسوكم براطيشـا (٣)

من ناحية أخرى كان المشارقة أيضاً يتأملون ويرقبون عادات القادمين عليهم من

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ص ٣٨٨ .
(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ نقلاً عن ابن سعيد .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، مج ١ ، جـ ١ ، ص ٤٠٩ .

مملكة غرناطة خاصة من كان له زيٌّ شاذٌّ عن أزياء المجتمع المشرقي مثل الحسن بن علي بن يوسف بن هود (ت ٦٩٩هـ /١٢٩٩م) (١) الذي هاجر من مملكة غرناطة إلى المشرق وقدم إلى مصر وحج عدة مرات وجاور ودخل اليمن ثم عاد إلى الحجاز ومنها وصل إلى دمشق واستقر بها إلى أن توفي كان يلبس نوعاً من الثياب مما لم يعهد بمثله في تلك البلاد (٢) ، فهل كان يلبس لباساً غرناطياً ؟! المصادر لم تقدم وصفاً تفصيلياً لذلك إنما هناك إشارات وردت في ذلك أفادت بأنه ((كان يلبس قُبع لباد ينزل على عينه ويغطي به حاجبيه ولم يزل على حاله حتى برق بصره)) (٣) ، وبلا شك أن ذلك كان أيضاً مخالفاً للباس عامة الناس في مملكة غرناطة ذلك أن لباس عامتهم كان من الجوخ (٤) ، والذي قلما نجد في مصر من يلبس الجوخ وإنما يكون من جملة ثياب الأكابر جوخ لا يلبس إلا في يوم المطر (٥) وإنما يلبس الجوخ من يرد من بلاد المغرب (٦) وبعض من أهل الإسكندرية والفرنج وبعض من عوام مصر (٧) .

ولقد كان ذلك اللباس الغرناطي والمغربي من الجوخ مستهجناً في مصر ، يقول المقريزي : ((أخبرني القاضي الرئيس تاج الدين أبو الفداء إسماعيل بن أحمد بن عبدالوهاب ابن الخطبا المخزومي .. قال كنت أنوب في حسبة القاهرة عن القاضي ضياء الدين المحتسب فدخلت عليه يوماً وأنا لابس جوخة لها وجه صوف مربع فقال لي وكيف ترضى أن تلبس الجوخ وهل الجوخ إلا لأجل البغلة ثم أقسم علي أن أخلعها وما زال بي حتى عرفته أني

---

(١) المقريزي : المقفى ، جـ ٣ ، ص ٤٣١ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٢٩ .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ٥ ، ص ٤٤٦ .

(٤) العمري : مسالك الأبصار القسم الأندلسي ، ص ١٥٩ .

(٥) المقريزي : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٨ .

(٦) نفس المصدر والجزء والصفحة والمغرب هنا لفظ شامل للغرناطيين والمغاربة وتم شرح ذلك وبيانه .

(٧) نفس المصدر والجزء والصفحة .

اشتريتها من بعض تجار قيسارية الفاضل فاستدعاه في الحال ودفعها إليه وأمره باحضار ثمنها ثم قال لي لا تعد إلى لبس الجوخ استهجاناً له)) [١] ، ولما كثر التواصل الاجتماعي والاحتكاك الحضاري بين الغرناطيين والمغاربة من جهة وأهل المشرق الإسلامي من جهة أخرى وظهر الغرناطيون بملابسهم في شوارع القاهرة ومكة والمدينة ودمشق وغيرها من القرى والمدن وأصبح عددهم في تزايد مستمر فلم يمض زهاء قرنين من الزمن إلا والمؤثرات الغرناطية قد تبوأت مكانتها الاجتماعية وتغيرت الأحوال الاقتصادية في مصر وغلت الملابس ظهرت الأزياء الغرناطية وأصبحت أكثر وضوحاً في أواخر القرن التاسع الهجري وصار معظم الناس يلبسون الجوخ فتجد الأمير والوزير والقاضي ومن دونهم لباسهم الجوخ [٢] .

وشمل هذا التأثير الخاصة والعامة حتى أن السلطان المملوكي الملك الناصر فرج ينزل أحياناً إلى الاسطبل وعليه قمجون من جوخ وهو ثوب قصير الكمين والبدن يُخاط من الجوخ بغير بطانة ولا غشاء من فوقه فتداول الناس لبسه [٣] .

وفي عام ٨٨١هـ /١٤٧٦م ((أشيع بين الناس بأن السلطان " قايتباي " يتزيا بزي المغاربة وينزل إلى جامع الأزهر ويصلي به)) [٤] ، وليس بخاف علاقة السلطان قايتباي بغرناطة [٥] ، وإن هذا الدليل قاطع بالإضافة إلى ما ذكر على أن الجالية الغرناطية والمغربية لها تأثير اجتماعي على أهل المشرق في الوقت الذي تكاثر فيه عددها وأصبحت الهجرة من مملكة غرناطة إلى مصر أكثر وضوحاً في الطرقات وفي مجالات الحياة العامة .

---

(١) المقريزي : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٨ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) نفس المصدر ، والجزء والصفحة .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ص ١٢١ .

(٥) انظر الفصل الأول من الرسالة ، ص ١٣٢ .

في لباس المرأة :

وإن كانت نساء مملكة غرناطة قد اشتهرن بلبس المقانع [١] فهن مثل أخواتهن في المشرق اللاتي لبسنها فوق رؤسهن [٢] والقناع ثوب تغطي به المرأة رأسها ومحاسنها [٣] ، وحرصت النساء في مملكة غرناطة شأن أخواتهن في المشرق على اخفاء وجوههن بقماش لا يظهر منه سوى العينين وإن كان في مصر قد اتخذ اللون الأسود [٤] ، ففي غرناطة قد اتخذته النساء من اللون الأحمر [٥] والقناع أيضاً ما اتخذته المرأة في بلاد الشام للرأس والوجه معاً [٦] وهي في أشكالها عرفت بـ (المقنعة والقناع ، والنقاب) [٧] .

ومما سبق عرضه تبين أن الأزياء في المجتمعات رجالاً ونساءً تختلف في المجتمع الواحد نفسه وكما يقول العمري : ((فأما التجار وأخلاط عامة الناس فتختلف أحوالهم في الملابس والزي حتى أن الفقراء وإن جمعهم الفقر وزيه ، وضمهم لباس التصوف فإنهم بتباين حالاتهم في الملابس وأطوارهم في التشكلات)) [٨] وحسبي في هذا المقام رصد بعض الجزئيات فقط الخاصة بالتأثير والتأثر .

---

(١) انظر تتفاصيل ذلك ص ٤٢٧ من الرسالة .

(٢) عاشور : المجتمع المصري ، ص ٢١٨ .

(٣) انظر ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص١٤٤ .

(٤) عاشور : المرجع السابق .

(٥) ابن خاتمة : ديوان ابن خاتمة ، ص ٤٧ .

(٦) رمضان : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام ، ص ٢٨٠ .

(٧) ماير : الملابس المملوكية ، ص ١٣٠ .

(٨) مسالك الأبصار ، دولة المماليك الأولى ، ص ١١٤ .

المظهر العام للأفراد :

سبقت الإشارة إلى اعتناء أهالي مملكة غرناطة بمظهرهم (١) ، وكانوا يصبغون شعرهم بالحناء ما لم يغلب الشيب (٢) ، ولقد أطلق المؤرخون النصارى في قشتالة لفظ " البرميخو " على السلطان النصري محمد السادس وذلك للون شعره ولحيته (٣) ، ولقد أطلق بنو نصر وعامة الشعب الغرناطي في مملكة غرناطة لحاهم (٤) كإخوانهم في المشرق والمغرب ، وورد من ابن الخطيب إشارة في ترجمته للسلطان إسماعيل بن فرج بن نصر بأنه كان أبيض اللون كثير اللحية بين السواد والصهوبة (٥) ، وكان المظهر العام لأهالي مملكة غرناطة متشابها إلى حد كبير مع المظهر العام لأهالي الحجاز ، ولقد أشار ابن الخطيب صراحة إلى ذلك التأثير الحجازي في المظهر العام لأهالي غرناطة فقال في وصفه لخالد بن عيسى البلوي قاضي مدينة قنتورية بأنه قد ((شهرته النزعة الحجازية وقد لبس من الحجازي وأرخى من البياض طيلساناً وتشبه بالمشارقة شكلاً ولساناً وصبغ لحيته بالحناء والكتم ولات عمامته واختتم والبدواة تسمه على الخرطوم)) (٦) ، ولقد سبق بيان التأثير والتأثر في الملابس ونتصدى لما نحن بصدده من المظهر العام في تشبه الغرناطي خالد بن عيسى بأهل الحجاز في الشكل واللسان وصبغ اللحية وإرخاء ذوائب الشعر تلك الذوائب التي اعتاد المماليك ارخاءها في أول الأمر تشبهاً "بعرب الحجاز" (٧) مما يدل دلالة واضحة على الأثر الكبير لرحلة الحج في

---

(١) انظر ص ٤٢٤ من الرسالة .

(٢) العمري : مسالك الأبصار ، القسم الخاص بافريقيا والأندلس ، ص ١٥٨ .

(٣) انظر التمهيد من الرسالة ص ٤٠ .

(٤) انظر : المقري : نفح الطيب جـ ٥ ، ص ٤٧٢ .

(٥) الإحاطة ، جـ ١ ص ٣٧٨ .

(٦) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٥٠١ .

(٧) عاشور : المجتمع المصري ، ص ٢٢٤ .

تعرّف أبناء الإسلام بعضهم على بعض بالإضافة إلى ما جمع بين أهالي غرناطة ومكة والمدينة من رباط الدين والجذور العريقة التي تعود بهم إلى أصول حجازية ، فمعروف أن بني نصر يعود نسبهم إلى سعد بن عبادة أحد كبار صحابة رسول ا لله ﷺ .

ولقد وصف ابن حجر العسقلاني نقلاً عن الصفدي الشيخ أبا حيان الغرناطي بأنه كان شيخاً طوالاً حسن النغمة مليح الوجه ظاهر اللون مشرباً بحمرة منور الشيبة كبير اللحية مسترسل الشعر وعباراته فصيحة بلغة الأندلس يعقد القاف قريباً من الكاف لكنه لا ينطق بها في القرآن إلا فصيحة متقنة [١] .

ومن تلك الأوصاف الخلقية والخُلقيّة وباطلاع ابن الخطيب على الوثائق والصكوك والمبيعات السلطانية والاجازات تظهر الأنساب المشرقية لأهالي مملكة غرناطة ، إذ يؤكد ابن الخطيب أنه يكثر في أنسابهم القرشي ، والفهري ، والأموي ، والأنصاري ، والأوسي والخزرجي والقحطاني ، والحميري ، والمخزومي ، والغساني والأزدي ، والقيسي ، والمعافري واليعمري ، والطائي والبلوي .... [٢] .

من ناحية أخرى انتقلت من المشرق إلى غرناطة بعض العادات التي تتعلق بالمظهر العام تلك التي لم تكن تلاحظ عند قيام مملكة غرناطة ، فلقد أوضح ابن سعيد الذي غادر مملكة غرناطة عند قيامها أن بعض العادات التي رآها بالمشرق لم تكن موجودة في الأندلس ، فقال ((وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدروزة التي تكسل الكد وتحوج الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحه عندهم إلى نهاية)) [٣] ، إلا أننا نلاحظ انتشار تلك الطريقة التي عرفت بطريقة الفقراء أو طائفة الفقراء ، ولقد كان لقدوم تلك الطائفة من المشرق أثرها في المجتمع الغرناطي وسأتعرض لها من الناحية الاجتماعية

---

(١) الدرر الكامنة ، جـ ٤ ، ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٥ .

(٣) المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ص ٢٢٠ نقلاً عن ابن سعيد .

الخاصة بالمظهر دون الخوض في معتقداتها ، ولقد لاحظ ابن بطوطة عددا من الجاليات المشرقية بغرناطة فقال : ((وبغرناطة جملة من فقراء العجم استوطنوها لشبهها ببلادهم منهم الحاج أبو عبدا الله السمرقندي ، والحاج أحمد التبريزي والحاج إبراهيم القونوسي والحاج حسين الخراساني والحاجان علي ورشيد الهنديان وسواهم)) (١) ، وكان يقيم هؤلاء في الزوايا والأربطة التي كانت تستقبل الوافدين من المهاجرين والزائرين أصحاب الرحلات العلمية القادمين من المشرق والمغرب أو القادمين بغرض الجهاد ، ومن الجدير بالذكر أنه كانت تقيم جالية مشرقية في غرناطة لا بأس بعددها وإن كانت الإشارات إليها في المصادر تعد نادرة ، فمن جملة ذلك أنه لما أقيم ربض البيازين أهم أرباض غرناطة بعد الحمراء أشار القاضي النباهي أن طائفة من أهل المشرق قد انضمت إلى أهل البيازين وسكنت معهم في هذا الحي (٢) .

ومن الذين قدموا من أهالي المشرق إلى مملكة غرناطة من أهالي الإسكندرية محمد بن محمد ابن عبدالرحمن بن محارب وسكن غرناطة وتوفي بها سنة ٦٤١هـ (٣) /١٢٤٣م .

وفي سنة ٦٥١هـ /١٢٥٣م وصل إلى مملكة غرناطة محمد بن عبدالوهاب الأنصاري الدمشقي قادماً من بلاد الشام شارك أهالي مملكة غرناطة في ميدان الطب وأقام في غرناطة حوالي أربع سنوات ثم غادرها عائداً إلى المشرق إذ توفي بالمشرق بعد عودته مباشرة وذلك في سنة أربع أو خمس وخمسين وستمائة (٤) .

ومن أهالي مكة المكرمة وصل إلى غرناطة محمد بن إبراهيم بن محمد المكي الحسيني وعند وصوله إلى غرناطة أكرمه السلطان النصري وقربه من مجلسه ، ولقد كان وصول محمد بن إبراهيم بن محمد المكي الحسني إلى غرناطة بغرض المشاركة في الجهاد ولم يلبث أن

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٧٢ .

(٢) تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٣) ابن الزبير : الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة ، ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

(٤) نفس المصدر ، القسم الثاني ، ص ٥١٤ ، ٥١٥ .

تأثر بأحوال المجتمع الغرناطي ، فأكثر محمد بن إبراهيم المكي من التسري بالجواري إلى حد نسب إلى التهور [(١)] وأقام في غرناطة لكنه لم يكن من الفقراء بل كان يمتلك مالاً عظيماً بلغ حد نواب الملوك [(٢)] ، وكان قد اشترى عدد من المماليك النصارى ، فقتله أحدهم سنة ٧٣١هـ /١٣٣٠م وخلف ولداً حظي بمجالسة السلطان النصري مدة وتوفي شاباً سنة ٧٥١هـ [(٣)] /١٣٥٠م متأثراً بوباء الطاعون الذي اجتاح مملكة غرناطة في ذلك الوقت [(٤)] .

وإن كان ابن جابر الضرير قد رحل من مملكة غرناطة إلى المشرق وتجشم صعاب السفر والمشقة والمعاناة في المواصلات في ذلك الوقت فقد وصل إلى غرناطة أعمى من المشرق هو أحمد بن الحسن الحسني البغدادي الذي لم يكن شاعراً مثل ابن جابر الغرناطي إلا أنه تميز في غرناطة بمذهبه الشافعي وكثرة الملاحة وشكس الأخلاق وأقام في غرناطة في ظل سلطانها حتى ارتحل عنها سنة ٧٥٣هـ [(٥)] /١٣٥٢م .

ذلك التواصل بين المشرق ومملكة غرناطة وإن كان من جانب أهالي المشرق محدوداً إلا أنه كان من جانب أهالي مملكة غرناطة أكثر وجوداً نظراً لرابطة الحج التي جعلت من مكة والمدينة عامل جذب رئيسي فكان من نتائج ذلك التواصل الاجتماعي ازدياد بعض العادات المشرقية في الأندلس وجعلت منها أكثر رسوخاً ووضوحاً ، فمن جملة ذلك أن الشيخ أبا عبدا الله محمد بن المحروق قد انشأ رباطاً في غرناطة بعد عودته من المشرق وقد نسب هذا الرباط إليه وعرف برباط ابن المحروق وهو الذي جدد رسوم التصوف [(٦)]

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ٣ ، ص ٢٩٦ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة نقلاً عن ابن الخطيب .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة نقلاً عن ابن الخطيب .

(٤) عن وباء الطاعون انظر ص ٤٠٧ من الرسالة .

(٥) ابن حجر : الدرر ، جـ ١ ص ١٢٣ .

(٦) نفس المصدر والجزء ص ١٩٤ .

بغرناطة وهو شيخ المتسببين من الفقراء [١] .

وكذا فعل ابن أخيه الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد بزاويته المنسوبة للحاج باعلى ربض نجد من خارج غرناطة المتصل بجبل السبيكة [٢] تلك الطرق سرعان ما انتشرت في مملكة غرناطة وأصبحت ذات أثر واضح في المجتمع الغرناطي ، يقول علي بن أحمد بن محمد الأشعري في ترجمته عن نفسه ((ولدت في اليوم الحادي والعشرين لرجب عام تسعة وسبعمائة ، ولبست الخرقة من يد الشيخ الفقيه الخطيب ... أبي علي عمر بن محمد بن الهاشمي القرشي في أوائل ذي القعدة من عام خمسة وثلاثين وسبعمائة [٣] .

---

(١) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٧٦٢ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن الخطيب : الأحاطة ، جـ ٤ ، ص ٢٠٢ .

في مجال الألعاب والاحتفالات والتسلية :

ومن اللافت للنظر أن بعض الألعاب التي كانت تُقام في كل من غرناطة والقاهرة متشابهة مما يدل على انتقال المؤثرات الاجتماعية بين الطرفين ، فمن جملة ذلك لعبة "الطبلة" التي كانت تقام بمناسبة ختان أبناء سلاطين ووجهاء مملكة غرناطة [١] والتي كان يدعى إليها عدد من الشخصيات ذات الوجاهة والمكانة من داخل مملكة غرناطة ومن خارجها ، وفي ذلك يقول ابن زمرك : ((واحتفاله المناسب لعز ملكه ، من تعميم الخلق بالجفلى في دعواهم واستدعاء أشراف الأمم من أهل المغرب وسواهم تفنناً في مكارم متعددة ، أيامها عن أصالة المجد معربة ، واغراء لهم الملك بما يتم الآن من أوضاع مغرية ومباهاة يعرض الجيوش والكتائب للعدو الكافر ومكاثراً من مماليك دولته بالعدد الوافر)) [٢] ، وهذه اللعبة كانت تتم في الهواء الطلق أمام عدد من المشاهدين وهي عبارة عن لوحة تصويب خشبية يصوب الفرسان عليها عصيهم ببراعة تسمى بالطبلة [٣] ، ويصف ابن زمرك ذلك المشهد وصفاً تفصيليا فيقول :

وصاعدة في الجو ملْءَ عِنانهـــا	تُسَامِتُ أعنان السَّماء وتُطَـــاوِلُ
طلعت تُحييَّ البدر مِنْها بصعـــدة	عليها لواءُ الصُبح في الأفق ماثـــل
وقد أعَربَت بالرَّفعِ عن طيب فخرها	متى نَصَبتَها في الفضاء العوامِـــل
يمدُ لها الكف الخصيب بساعـــد	ويشكى السماك الاعزل الرمح عامل
وَتَنْتابُها هِيفُ العصِيِّ كأنَّهـــا	سهامٌ وعَاهَا للرمّيـــة نابـــل [٤]

(١) انظر ابن الخطيب: الإحاطة ، جـ ٤ ، ص ٤٧٩ ، والمقري : نفح الطيب جـ ٦ ، ص ٤٥٩ ، ٤٦٠ .

(٢) المقري : أزهار الرياض ، جـ ٢ ، ص ٥٦ .

(٣) ابن الخطيب : المصدر السابق .

(٤) المقري : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٧٧ .

وفي مناسبة أخرى يقول أيضاً :

وقد قَذَفتها للعصيّ حواصِبُ   قد انْتَشَرتْ في الجوّ منْها ذوائِبُ
تَزاوَر مِنها في الفضاءِ حَبائِب   فَبَيْنَهمُا من قبلِ ذَاكَ مَناسِبُ (١)

وإن كان في غرناطة قد أطلق على اللعبة اسم الطبلة إلا أنه في القاهرة قد أطلق عليها اسم "القبق " (٢) ، وقد كانت تقام بتلك المناسبة أيضاً ، ووصف هذه اللعبة في مصر أن تنصب خشبة عالية في ميدان اللعب ويعمل بأعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسميها وترمي بالسهام جوف الدائرة لكي تمر من داخلها إلى هدف معين وذلك تمريناً لهم على احكام الرمي (٣) ، ذلك التمرين الذي كان واجباً على جميع القادرين في مملكة غرناطة قد تشابه إلى حد كبير مع التمرين المقام في مصر لتعرض كلا البلدين المسلمين للحملات الصليبية أندلساً ومشرقاً ومغرباً ، ومما لا شك فيه أن تلك الفكرة في اللعبة قد انتقلت من المشرق إلى غرناطة عن طريق المرتحلين إلى هناك لأغراض مختلفة أو الذين عادوا إلى غرناطة ونقلوا بعضاً مما شاهدوه من عادات وتقاليد ومشاريع حضارية وإن اتخذت في غرناطة شكلاً معدلاً فإن الفكرة في اللعبة تكاد تكون متطابقة .

---

(١) المقري : أزهار الرياض ، جـ ٢ ص ٨٩ .

(٢) علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ، ص ٤٧٦ .

(٣) المقريزي : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٨٠ .

صور من التكافل الاجتماعي بين الأندلسيين والمشارقة :

ولم تحدثنا المصادر بأكثر مما أوردته من معلومات عن تأثيرات اجتماعية للغرناطيين في المشرق ، ولكن هناك بعض الإشارات والإفادات نتيجة للاحتكاك الاجتماعي بين الطرفين ، فمن جملة ذلك أن محمد بن أحمد بن حسن وقيل محمد بن عيسى أبو بكر الخزرجي المالقي ت ٦٥١هـ /١٢٥٣م الذي قدم إلى مصر وسكن القاهرة ، وكان ورعاً زاهداً كان يخيط الثياب فازدحم الناس على الشراء منه ولما ضاق بهم ترك ذلك وصار يدق القصدير ويبيع ويأكل من ثمنه(١) ، وكان يشعر بحاجة المجتمع فيتصدق بما فضل عنه ، وجاء إليه شخص وقد زيد عليه في أجرة سكنه ليشفع له عند صاحب الدار أن لا يزيد عليه الإيجار فذهب إلى صاحب الدار وأعطاه الزائد مدة أشهر ، فعلم بذلك المستأجر بعد مدة فقال له يا سيدي ما سألت إلا شفاعة وأنت تدفع عني نقداً فقال له وا لله ما يدفع هذا إلا أنا فلم يزل يدفع الزائد إلى أن انتقل المستأجر إلى سكن بدار أخرى(٢) . وهذا النموذج من العلاقات الاجتماعية بين الغرناطيين وإخوتهم في المشرق لدليل صادق على مدى تأثر وتأثير هؤلاء بالمجتمعات التي عاشوا بها .

ولم يكن أبو بكر المالقي هو الوحيد ممن كانت لهم تلك الهمم الإسلامية العالية من الغرناطيين الذين سكنوا المشرق فقد شمل ذلك بعض فئات المجتمع الغرناطي ذات المكانة وعلى رأس هؤلاء يأتي : الوزير ابن سهل الغرناطي محمد بن محمد بن مالك ت ٧٣٠هـ(٣) /١٣٢٩م الذي قدم إلى مصر وحج سنة ٧٠٨هـ /١٣٠٨م ثم عاد إلى بلده ثم توجه مرة ثانية سنة ٧٢٠هـ /١٣٢٠م ، وجاور بمكة والمدينة سنتين ثم غادرها إلى مصر حيث استقر بمدينة القاهرة ، كان يشعر بحاجة المجتمع الذي يعيش فيه وكان من أغنياء مملكة غرناطة يحمل إليه

---

(١) المقريزي : المقفى ، جـ ٥ ، ص ١٥٦ ، ١٥٧٨ .

(٢) نفس المصدر والصفحات .

(٣) انظر ترجمته في ص ٤٧٢من الرسالة .

المال من بلده فكان يتصدق من ماله الذي يصل إليه من غرناطة فعرفه الناس بالقاهرة وصاروا يقصدونه فإذا طلب منه أحد شيئاً أنكر ذلك وقال له ((ليس ما قيل لك صحيحاً ، ثم يتركه ويأتي إليه بعد يوم أو أكثر وهو غافل ويلقى في حجره كاغداً فيه ذهب وتمر ولا يقف له ويتصدق من الستين ديناراً فما دونها)) [١] .

كما يذكر أن أبا عبدا لله محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري الذي رحل من مملكة غرناطة لأداء فريضة الحج ولما تم له ذلك عاد إلى بلاده غرناطة إلا أنه لم يلبث أن رحل نهائياً إلى بلاد الحجاز فأقام بمدينة رسول ا لله (ﷺ) حيث التقى وعاش مع عدد من المجاورين واختلط بمجتمع المدينة ، ولقد تحدثت المصادر بشيء من التفصيل عن حياته الاجتماعية في المدينة منها أنه كان يعمل خديماً عند شيخ من أهل المدينة يدعى عبدالحميد العجمي ، فروى ابن بطوطة [٢] وأشار ابن الخطيب [٣] وروى ابن فرحون قصة اجتماعية حدثت لأبي عبدا لله محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري [٤] كان من نتائجها أن عين أميناً على أحباس مسجد رسول ا لله (ﷺ) [٥] وذلك لما اتصف به من الأمانة وحسن الخلق وكان مقر اقامته في المدينة المنورة بالمدرسة الشهابية ، كما عمل مؤذناً بمسجد رسول ا لله ـ ﷺ ـ [٦] . وكان من علاقاته الاجتماعية في المدينة العطف على المساكين والأرقاء والفقراء ولقد أعتق في المدينة عدداً من العبيد والإماء [٧] .

ومن باب التكافل الاجتماعي وارتباطه بوطنه فإنه كان يرسل بما فضل عنه إلى

---

(١) المقريزي : المقفى ، جـ ٧ ، ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٣) الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٢٣٣ .

(٤) كتاب نصيحة المشاور وتسلية المجاور مخطوط ، ورقة ٩٢أ .

(٥) ابن الخطيب : المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .

(٦) ابن فرحون : كتاب نصيحة المشاور وتسلية المجاور ، ورقة ٩٢أ .

(٧) نفس المصدر ، ورقة ٩٣ ب .

إخوته في بلادهم [١] ، إذ إنه كان قد اكتسب مالاً خلال إقامته ومجاورته بالمدينة ، وهذا يعطي صورة واضحة عن مدى العلاقات بين الغرناطيين المهاجرين وبين إخوانهم في موطنهم .

وأيضاً كان له نشاط متعدد في المدينة فقد كان نقاشاً ودهاناً أسهم في تزيين المسجد النبوي وأثر في تزيينه تأثيراً حسناً [٢] ، توفي سنة ٧٥٤هـ /١٣٥٣م عن عمر يناهز واحدا وثمانين عاماً [٣] .

ومن شواهد التأثير الغرناطي أن الأندلسيين والمغاربة المقيمين في مملكة غرناطة كانوا حريصين جداً على مبدأ البر والتعاون وعلى ترسيخ قيم التعاون والتكافل الاجتماعي فيما بينهم وبين إخوتهم في مجتمع المشرق الإسلامي ، فيذكر المؤرخون أن محمد بن محمد بن سهل الغرناطي قد وصل إلى المدينة المنورة في سنة ٧٢٣هـ /١٣٢٣م بوصية بمبلغ من المال من غرناطة وأحدثت تلك الوصية في المدينة بعض الأحداث يقول ابن فرحون : ((فلما وصلت الوصية على يد ولد بن سهل وزير الأندلس جرى فيه أحوال وقصة طويلة [٤] وتلك الوصية كانت مقدمة من الشيخ أبي عبدا الله بن سليمان الذي كان مجاوراً بالمدينة من أهل تونس ثم رحل إلى المغرب الأقصى فاجتمع بالسلطان المريني أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبدالحق فأكرمه وخوله مالاً كثيراً انتقل به إلى مملكة غرناطة رغبة في الشهادة ، ولما وصل إلى غرناطة كثر خيره وخيله وعبيده وجواريه فلما أتاه أجله أوصى بوصية أخرج منها خمسمائة دينار لوقف يشترى بالمدينة يصرف ريعه على من في المدرسة الشهابية لأنها كانت مستقرة أيام إقامته في المدينة وجاء بتلك الوصية محمد بن سهل الغرناطي [٥] .

---

(١) ابن فرحون : كتاب نصيحة المشاور ، ورقة ٩٣ ب .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) نفس المصدر ، ورقة ٥٣ أ ، ٥٤ ب .

(٥) نفس المصدر والصفحات .

وفي بعث الأموال من المدينة إلى غرناطة وبعث الأموال أيضاً من غرناطة إلى المدينة لدليل على التواصل الاجتماعي والذي كان نتيجة من نتائج الارتباط الديني المتمثل في الحب لله ولرسوله ذلك الرباط الذي حرص أهالي المدينة وأهالي مملكة غرناطة على تقويته رغم بعد المسافة وصعوبة المواصلات ، ومن الدلائل أيضاً على التواصل الاجتماعي بين أهالي المدينة وغرناطة أنه بعد سقوط الجزيرة الخضراء سنة ٦٧٧هـ /١٢٧٨م هاجر الشيخ أبو الحسن الخراز والشيخ عمر بن عباد الخراز الأنصاري والشيخ عبدا لله الخراز (١) ، فكان هؤلاء من أهالي الجزيرة الخضراء وكان للشيخ عمر بن عباد الخراز وقائع ومواطن جهادية ضد النصارى ، وكان والده عباد شيخ بلده فلما سقطت الجزيرة الخضراء في يد النصارى هاجروا من تلك البلاد وتوجه الشيخ عمر وأخوه إلى الحجاز فمات أخوه في نواحي الشام ووصل الشيخ عمر والشيخ أبو الحسن الخراز إلى المدينة (٢) ، فأقام الشيخ عمر والشيخ أبو الحسن الخراز في بيت واحد في المدينة فوق الثلاثين سنة (٣) مجتمعين على صناعة واحدة يخرزون في بيتهم هم وأتباعهم لأنفسهم النعل وغيرها (٤) .

وكانوا أثناء عملهم بالخرازة يذكرون للناس في المدينة الوقائع الجهادية لأهالي مملكة غرناطة مع النصارى ، إذ كان للشيخ أبو الحسن مواقف في مجاهدة النصارى بالأندلس (٥) فكان لا يزال يعد الوقائع والحروب وما جرى لهم من النصر على أعدائهم ويذكر من أهالي غرناطة من كانت له شجاعة وفروسية وفتك في النصارى ، وكان حسن التصوير في كلامه يستلذ السامع بحديثه ولذلك كان بيتهم بالأخبار مغموراً (٦) . وهذا بلا شك يؤدي إلى

---

(١) لا أعرف أنسابهم كاملة ذكرهم ابن فرحون هكذا .

(٢) ابن فرحون : نصيحة المشاور وتسلية المجاور ورقة ٦٧أ .

(٣) نفس المصدر ، ورقة ٦٦ ب .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) نفس المصدر والصفحة .

(٦) نفس المصدر والصفحة .

تنبيه الأذهان في مجتمع أهل المشرق عامة وفي الحجاز خاصة لما يلاقيه المسلمون في غرناطة من حروب وأهوال ، ينتج عنها المشاركة في النفس والمال لمؤازرة المسلمين هناك على مستوى الأفراد .

وكان للشيخ عمر بن عباد الخراز وأبي الحسن الخراز مشاركة فعّالة في مجتمع المدينة فكانوا يتفقدون المساجد المشهورة فيعمرونها بأنفسهم وخدمهم (١) .

وكان لهم تأثيرهم في مجتمع المدينة من حيث العطف على المساكين والفقراء والشعور بحاجة المجتمع فقد عرف الشيخان علي وأخيه محمد الخراز في المدينة بشيوخ الفقراء فقد كانوا يحملون معهم القرب يظن الناس أنها ماءً وهي ملأى من طبيخ الرز والبسلا يعدونه للفقراء اللذين يتبعونهم ويخرجون معهم (٢) فكان لهم في جبل أحد مقامات يجلسون فيها فمنها موضع للطعام ومنها موضع بعده يمدون فيه أنواعاً من المحمصات والحريفات حتى أن الطعام الذي يقدمونه ليبقى ليس له آكل ويرجعون إلى المدينة على خير رجعة بقلوب صافية وأخوة متزايدة وشوق إلى مثل ذلك الاجتماع (٣) .

وفي مصر والشام والحجاز حيث سكن الغرناطيون الديار وشاركوا في الإنشاءات المعمارية وسكنوا أربطة وأحياء عرفت بأسمائهم ودفنوا في مقابر نسبت إليهم أيضاً ، ومن عاد منهم إلى وطنه تذكر الديار التي أقام فيها أو جيرانه الذين احتك بهم أو الأربطة التي سكن بها أثناء مجاورته . فيقول أبو عبدا لله محمد بن علي بن يحيى الغرناطي ت ٧١٥هـ /١٣٥٠م معبراً عن أصالة الشعور الديني فوق الناحية الاجتماعية إذا ما قورنت غرناطة بالمدينة في ذلك الوقت . فبلا شك أن غرناطة من ناحية رخاء العيش في ذلك الوقت أفضل من المدينة وتصدى لمن دعاه للعودة إلى وطنه فقال :

إذا كنت جاراً للنبي وصحبه

ومكة بيت ا لله مني على قرب

---

(١) ابن فرحون : نصيحة المشاور وتسلية المجاور ، ورقة ٦٦ أ .

(٢) نفس المصدر ، ورقة ٦٧ ب .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

فما ضرني أن فاتني رغد عيشة

وحسبي الذي أوتيته نعمة حسبي (١)

وكذا محمد بن علي بن عمر العبدري الذي سكن غرناطة بعد عودته تذكر أصحابه في مصر فقال :

لكل أناسٍ مذهُب وسَجِيـــــة

ومذهب أولاد العظام المكـــــارمُ

إذا كنت فيهم ثاوياً كنت سيداً

وإن غبت عنهم لم تنلك المظالـمُ (٢)

أما ابن جابر (٣) الذي سكن بمدينة القدس حوالي ثلاثين سـنة ، فبعـد عودتـه حـن إلى منزلـه وجيرانه فقال :

أمنزلُنا بالقدس عند قبابـــــه

رعى ا لله أياماً تقضت لنَا بِـــه

وحَيِّ بخير جيرة لي ثـــــووا

فما القلب إلا عند من ثوى به

ترى هل إلى تلك الأماكن عودةٌ

فَيحيا بها قَلْبي بنيــلِ اقترابِــه (٤)

ولست بصدد الاستطراد في الحديث عن كـل مـن سـكن المشـرق مـن أهـل مملكـة غرناطة ، فهم كثير ومنهم من ترك آثاراً اجتماعية مست جوانب التكـافل والتعـاون بينهـم وبين إخوانهم المشارقة .

---

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص ٥٧٨ .

(٣) عن ترجمة ابن جابر انظر الفصل الثاني من الرسالة ص ١٩٤ .

(٤) النميري : مذكرات ابن الحاج النميري ، ص ٢٠٢ .

الخاتمـــة

من خلال تأريخنا لعلاقات مملكة غرناطة مع الدول الإسلامية استطعنا التوصل لنتائج تأريخية وحضارية نوجز أهمها في النقاط التالية :

- إن قيام مملكة غرناطة في الجزء المحصور من شبه جزيرة أيبيريا قد أدى إلى إطالة عمر الإسلام بتلك البلاد وأنقذ البقية الباقية من التراث الإسلامي لمدة قرنين ونصف .
- لقد أدى تدهور سلطة الموحدين بعد معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م إلى الاضطراب السياسي في الأندلس ومن ثم إلى ظهور رجال أشداء من المجاهدين الذين اعتادوا وتمرسوا على حرب النصارى وكانت تلجأ إليهم الجموع المسلمة في أوقات عدم الاستقرار السياسي ، وكان من بين هؤلاء المغاورين محمد بن يوسف بن نصر الذي قامت دولته على أساس تزعمه الدفاع عن أبناء دينه الإسلامي فكان التفاف المسلمين في الأندلس حول قيادة واحدة يشير إلى التجدد في هذه الأمة المسلمة ما دامت إلى دينها راكنة ومعانية فيها متمكنة .
- تبين من خلال الدراسة أن التضامن الإسلامي بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين كان قضية مصير وضرورة وجود وكان ذلك التضامن أخوة في العقيدة وأخوة في الشعور وأخوة في الهدف وأخوة في الألم وأخوة إسلامية عامة بين المسلمين في الأندلس وإخوانهم في الشمال الإفريقي .
- واتضح من خلال الدراسة أن بني مرين قد استجابوا لفكرة التضامن الإسلامي ولبوا نداءات الاستغاثة من إخوانهم في مملكة غرناطة وقاد ملوك بني مرين الجيوش وعبروا البحر إلى الأندلس انطلاقاً من إيمانهم الإسلامي وواجبهم التأريخي ومن التحديات المفروضة عليهم ، وبرز في ذلك لملوكهم وجيوشهم مواقف عظيمة في ميدان الجهاد وتثبيت دعائم مملكة غرناطة ومن ثم دعم الوجود الإسلامي في الأندلس، وكانوا سبباً في ظهور مملكة غرناطة لتحقيق التكافؤ مع نصارى قشتالة

وأرغون الذين يتلقون دعماً من أوروبا النصرانية وكان لبني مرين مواقف جهادية في الأندلس في مواطن عديدة .

- وتوصلت الدراسة إلى أن دور بني مرين في تضامنهم مع إخوتهم المسلمين في غرناطة لم يقتصر على المستوى الدولي بل تعدى إلى المجهود الشعبي بالمال والعتاد والرجال والتي هي دعائم أساسية في الحروب .
- وكشفت الدراسة عن الدور الكبير الذي لعبه المتطوعون في سبيل العقيدة من بني مرين (شيوخ الغزاة) في تصديهم للعدوان النصراني والذين كانوا فرساناً أشداء ألحقوا الهزائم بالنصارى في شبه جزيرة أيبيريا في مواقع عديدة وحافظوا على الكيان الجغرافي لمملكة غرناطة سنين طويلة .
- ولقد عالجت الدراسة الخلاف بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين ، وتبين أن ثورة بني أشقيلولة وخروجهم عن طاعة دولتهم كانت سبباً في الخلاف بين الدولتين ، وبما أن ثورة بني أشقيلولة كانت حدثاً داخلياً من شؤون مملكة غرناطة فقد أدى التدخل من قبل دولة بني مرين إلى جانب هؤلاء الثوار إلى التدخل في شؤون مملكة غرناطة وأدى ذلك بدوره إلى تدخل النصارى القشتاليين إلى جانب بني نصر تارة وإلى جانب بني أشقيلولة وبني مرين تارة أخرى مما أدى إلى سقوط بعض أراضي المسلمين في أيدي أعدائهم النصارى في شبه جزيرة أيبيريا .
- بينت الدراسة الدور الكبير الذي أداه بنو زيان في تضامنهم مع مملكة غرناطة وأن الأوضاع التي كانت تعيشها تلك الدولة لم تكن لتشكل حاجزاً بينها وبين التضامن الإسلامي على مستوى شعبها وحضورهم إلى جانب إخوانهم مسلمي مملكة غرناطة في حروبهم مع النصارى ، وأن ذلك الدور كان دوراً فاعلاً ومؤثراً إذ لم يقتصر الدعم الزياني من تلمسان على الدعم المادي بارسال شحنات الذهب بل وجدنا بعض القبائل من بني زيان تشارك مسلمي غرناطة الجهاد وكان لهم مواقف بطولية معروفة لدى النصارى .

- كما بينت الدراسة الدور الذي لعبته دولة بني حفص في تضامنها مع مسلمي مملكة غرناطة في وقت غابت فيه معظم الدول الإسلامية عن تقديم يد العون والمساعدة لمملكة غرناطة خاصة في النصف الأول من القرن التاسع الهجري إبان اشتداد العدوان النصراني على المسلمين في الأندلس .
- وأثبتت الدراسة أن غياب روح التضامن الإسلامي في أواخر القرن التاسع الهجري والشعور بالمصير المشترك وتخاذل الدول الإسلامية عن نصرة مسلمي مملكة غرناطة في الوقت الذي اتحدت فيه كلمة النصارى كان له دور أساسي في سقوط مملكة غرناطة ومواجهة المسلمين فيها المصير المؤلم وامتداد الخطر النصراني الأسباني إلى كافة الدول الإسلامية في شمال إفريقيا .
- لقد تبين من خلال البحث أنه بالرغم من انحسار مساحة الأندلس فيما تبقى من مملكة غرناطة إلا أن تلك المملكة اندفعت تستلهم التراث الإسلامي الأندلسي كله واستوعبته وشملت النهضة العلمية مختلف فروع العلم والمعرفة وأحيت مملكة غرناطة معالم الحضارة الإسلامية الأندلسية وقدمت للأمة الإسلامية وللبشرية نماذج من العلماء كانوا نجوماً في شتى فروع العلوم خاصة العلوم الشرعية واللغوية .
- وتبين من خلال الدراسة أنه بالرغم من بعد المسافة بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية ووصول علماء مملكة غرناطة إلى درجة عالية في الدراسات الشرعية واللغوية والاجتماعية والتطبيقية على تفاوت بينها ، فقد ظهر للباحث مدى شغف وإصرار العلماء الغرناطيين على القيام برحلات علمية إلى البلدان الإسلامية إما للتزود بالعلوم واللقاء بالعلماء هناك ونشر علومهم بهدف صقل مواهبهم وسبر غور العلوم الموجودة عند غيرهم أو التتلمذ على يد علماء من البلدان الإسلامية والحصول على إجازات من تلك البلدان أو يمنحوهم إجازات لطلاب العلم في تلك البلدان وضربت الدراسة أمثلة عديدة على ذلك مما نتج عنه قيام نوع من التواصل والتفاعل الحضاري بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية .

- لقد تناولت الدراسة أثر اشتداد العدوان النصراني على الساحة العلمية في مملكة غرناطة وبالتالي برز دور العلماء في مواجهة العدوان النصراني فاتجهوا إلى تأليف الكتب الداعية إلى الجهاد والأخذ بأسباب النصر وصناعة السلاح وبذلك رصدت الدراسة جانباً هاماً من جوانب الأثر الفعال للعلماء في مواجهة واقع كان من الصعب أن يتجاهلوه ، إذ وجد العالم الغرناطي نفسه مضطراً لأن يتحول إلى قائد شعبي يحمل السيف ويحث الناس على الجهاد ويكتب الكتب في فقه الجهاد وصناعة الأسلحة وبذل الجهد في تطوير وسائل الدفاع وبالتالي كشفت الدراسة عن جانب من دور العلوم الشرعية والأدبية التي تدعو إلى بذل المال والنفس في سبيل ا لله وفك أسرى المأسورين من المسلمين والمسلمات وتحث على وقف الأحباس لصالح أعمال الجهاد وصرف الزكاة في الجهاد .
- كما توصلت الدراسة إلى حقيقة مهمة هي اختفاء التأليف في جانب من جوانب العلوم وبرز التأليف في جانب منها نتيجه إستشهاد عدد من العلماء في ساحات الحرب أو هجره عدد آخر منهم إلى البلدان الإسلامية .
- وتوصلت الدراسة إلى نتيجة حضارية مهمة كشفت عن التفاعل والتواصل الحضاري بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية في المغرب والمشرق من خلال دراسة تأثير العلماء على الحياة العلمية في البلدان الإسلامية التي هاجروا إليها اتضح كثرة العلماء المرتحلين والمهاجرين من مملكة غرناطة إلى الدول الإسلامية في المغرب والمشرق وأن كل عالم إرتحل أو هاجر من مملكة غرناطة كان يمثل ـ بحد ذاته ـ نقطة توهج تأخذ وتعطي وتتأثر وتؤثر ، فكانوا في البلدان الإسلامية في المغرب والمشرق أساتذة وعلماء وأطباء وإداريين وقضاة وأئمة في المساجد وأئمة في الحرمين الشريفين في مكة والمدينة وتبين من خلال نماذج هؤلاء العلماء التي وردت في الدراسة أن التواصل بين علماء مملكة غرناطة وأقرانهم في البلدان الإسلامية كان حركة دائبة لا تنقطع ، وأنه كاد يكون سنة متبعة سار عليها أكثر العلماء ، شعوراً منهم بأن هذه المملكة الصغيرة غرناطة جزءلا يتجزأ من القارة الإسلامية الكبيرة

وأن علمهم لن تتوافر له الأصالة والعمق بل والاعتراف العام به ما لم يكن موصــولاً بعلم المشرق الإسلامي الذي نشأ فيه الإسلام وازدهرت فيه حضارته .

- وبينت الدراسة أنه كان لهذه الرحلات والهجرات آثارها على مملكة غرناطـة وعلى البلاد التي نزح إليها علماء غرناطة مثل الشمال الإفريقي ومصر والشام والحجاز . فنقلوا معالم الفكر الإسلامي الغرناطي إلى تلك البلدان ونقلوا معالم الفكر الإســلامي من المغرب والمشرق إلى بلادهم وساهموا في دفع عجلـة التقـدم العلمـي في البلـدان الإسلامية حتى أنه ليكاد يصعب التفريق بين التراث الغرناطي والمغربي ، وكـانوا في المشرق مشاعل حضارية وكان لهم دور في حلقات العلم في مجال المناظرات وإثـراء المكتبات الإسلامية في المغرب والمشرق بما ألفوا من كتب وبما ساهموا بقسـط وافـر في تعليم المسلمين في تلك البلدان أمور دينهم ولغتهم وليس أدل على ذلك من تأثير ابن مالك الجياني وأبي حيان الغرناطي فأولهما صاحب الألفية التي ذاعت وانتشرت في العـالم الإسـلامي وثانيهمـا صـاحب البحـر المحيـط هـذا بالإضافـة إلى تأثـيرهم في الفتاوى الشرعية مشرقاً ومغرباً وانتشار فتاوى فقهاء غرناطة أمثال الشاطبي وغـيره وهي فتاوى ما زال يستضاء بها في المشرق والمغرب حتـى يومنـا هـذا ، ولقـد كـان لهؤلاء العلماء الغرناطيين الذين لن يحاط بآثارهم بسهولة تأثيرات حضارية خـالدة في بـلاد الإسـلام فبينـت الدراسـة معـالم تلـك الآثـار وأزاحـت السـتار عـن الـتراث الحضاري المشترك بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية في المغرب والمشرق .

- من خلال دراسة مظاهر الحياة الاقتصادية في مملكة غرناطة بـين الازدهـار والتدهـور ففي الفقرة الخاصة بدراسة الزراعة في مملكة غرناطة أكدت الدراسـة أن الغرنـاطيين قد عرفوا عدداً من الآلات الزراعية خاصة ما استحدثوه من آلات لقياس وزن المياه واستواء الأرض والكشف عن المياه وهي في باطن الأرض دون الحفر إليها ، ومعرفة أماكن وجود المياه بطرق خاصة ومن ذلك استخدامهم لآلة المرجيقل لمعرفـة اسـتواء الأرض حتى يمكـن ريهـا بسهولـة ، وعـرف المزارعون الغرناطيون كيفية إجراء المياه

تحت الأرض في قنوات يتحكم فيها ويخرج الماء صافياً لا يختلط بشيء يضر العملية الزراعية ويحدث ذلك وفق خطة تم وزنها .

كما عرف الغرناطيون أماكن وجود المياه الجوفية وذلك وفق ملاحظات هندسية معينة يستدل بها عن قرب الماء من سطح الأرض من عدم قربه ، وعرفوا طريقة أخرى يستدل بها على مدى عمق الماء وطعمه أي مدى عذوبته وملوحته وهل هو خفيف أو ثقيل دون حفر يصل إلى المياه نفسها وذلك وفق طريقة علمية معينة تم شرحها .

- وتبين من خلال الدراسة أن الزراعة في مملكة غرناطة قد خطت خطوات واسعة إذ غدت مملكة غرناطة في عهد بني نصر جنة خضراء حتى تكاد لا ترى فيها أرضاً زراعية واحدة غير مزروعة .

- ولاحظت الدراسة أنه وفي مجال التجارة الداخلية لمملكة غرناطة فإن العملية التجارية الكبرى كانت تتركز في المدن الغرناطية إذ كان أهل الريف والقرى يتوافدون على المدن لبيع منتجات الحقول الزراعية ومنتجات الماشية من أجبان وألبان فضلاً عن التجارة في الماشية نفسها .

ولقد اشتهرت أسواق في مملكة غرناطة على مستوى المملكة نفسها وفي مختلف الأصقاع من العالم مثل سوق القيسرية في غرناطة ، واتضح من خلال الدراسة أنه كانت هناك أسواق غير سوق القيسرية المعروف ، فكانت التجارة داخل المدن تتم في الأسواق المعروفة وفي الشوارع الخاصة بتجارة التجزئة بينما كانت الفنادق مخصصة لتجار الجملة حيث يعقدون صفقاتهم التجارية ويعرضون نماذج من بضائعهم ، ومن خلال استعراض العمليات التجارية في مملكة غرناطة اتضح أن التجارات التي يزاولها العلية والتجارات المتواضعة كانت لها أماكن محددة لا تتجاوزها ، فتجارة مثل تجارة الذهب وتجار الأسلحة وتجار الروائح العطرية كانت بالقرب من الجامع الكبير ، أما تجار الأقمشة فقد تجمعوا في قلب المدينة ، كما احتلت تجارة المواد الغذائية مكاناً كبيراً في كل حي ، وكذلك تجار الخضار

والفاكهة التي غصت بها مدينة غرناطة ، أما الفخاريون والدباغون والحدادون والنحاسون وصانعو البرادع والأسرجة فكانوا يتخذون من الأسواق البعيدة عن مركز مدينة غرناطة مقراً لهم في الأرباض وذلك لما ينتج عن مهنتهم من روائح كريهة تعافها النفس مما أضفى على مدن غرناطة لمسات حضارية وجمالية جسد اهتمام سكانها بالنظافة والبيئة .

- وتوصلت الدراسة إلى حقيقة مهمة مفادها أن النشاط الاقتصادي والتجاري في مملكة غرناطة كان يتأثر على امتداد القرن التاسع الهجري بمستوى الأمن المتاح داخليًا وخارجيًا فكانت المدن المتاخمة للنصارى أكثر تأثراً من المدن الداخلية ، فكان على المدن الداخلية أن تقوم بعملية تعويض لما تخسره القرى والمدن التي تتعرض لغارات النصارى وتخريبهم العمراني والاقتصادي .

- واتضح أنه أثناء اشتداد العدوان النصراني على مملكة غرناطة وحصار العاصمة غرناطة انخفضت أسعار الأراضي الزراعية والسكنية والعقارات ووجد النصارى الفرصة سانحة للشراء ممن أراد الفرار والنجاة بنفسه إلى أرض الإسلام . أو البيع ممن أراد البقاء والعيش إلى جانب العدو وكل شيء في الحقيقة قد تعرض للتأثر وانخفضت أسعار الكماليات من أثاث منزلي وغيره لعدم وجود الاستقرار الاجتماعي في ذلك الوقت .

- وفي مجال الصناعة توصلت الدراسة إلى حقيقة أن مملكة غرناطة عاشت نهضة صناعية كبيرة نتيجة لتوافر المواد الخام من ثروات معدنية وزراعية وانتشرت المهن والحرف بين مختلف فئات المجتمع الغرناطي ، وقد كان من أهم الصناعات التي اشتهرت بها مملكة غرناطة ، الصناعة التي تعتمد على الإنتاج الزراعي نظراً للنهضة الزراعية التي تم شرحها ، خاصة نسيج الحرير الذي طُرِّز بخيوط من الذهب الخالص وبلغ من رفاهية بعض فئات الشعب الغرناطي أن ستروا جنائزهم بستر حرير معشش بالذهب فكان ذلك مثار تساؤل من خشي الله من أهالي مملكة غرناطة في جواز ذلك من عدمه ؟! فتصدى الفقه الإسلامي في غرناطة لتلك الظاهرة بالفتاوى حولها إذ كان يوجد في المرية وحدها أكثر من ثمانمائة نول .

- ومن بين الصناعات التي ازدهرت في مملكة غرناطة صناعة الأخشاب ، فنظراً للتطور العمراني والنماء الاقتصادي في مملكة غرناطة كانت حركة بناء القصور والمساجد والمساكن تحتاج دائماً إلى الأخشاب لذا فقد غلت أسعاره في غرناطة ، وتنافس الفنانون في تجارته وإبداع زخرفته خاصة ما زين به قصر الحمراء ، كما أنشئت دور لصناعة السفن في مملكة غرناطة أهمها دار صناعة السفن في مالقة والمرية والجزيرة الخضراء ، وبرز عدد من الغرناطيين في فن صناعة السفن لدرجة استعانة بعض البلدان الإسلامية في المشرق والمغرب بمهارتهم وخبراتهم فكان المهندس الغرناطي محمد بن علي بن عبدا لله بن محمد بن الحاج مشرفاً ومهندساً بدار صناعة السفن بمدينة سلا .
- ولقد بلغت صناعة الأثاث المنزلي في مملكة غرناطة تطوراً وازدهاراً كبيراً نظراً لطبيعه التفاخر والترف ، فكما أن غرناطة ثغر من الثغور تفرض عليها ظروفها الاهتمام بصناعة السفن ، كذلك اقتضت طبيعة الغرناطيين الحضارية لا سيما أسرة بني نصر الاهتمام بصناعة الأثاث حتى تحولت أَسِرَّة الخشب والمقاعد الصغيرة والكبيرة والمدفأة والمبخرة على يد الصانع الغرناطي إلى تحفة فنية وأدوات جمالية يشعر الناظر إليها أنه أمام تحفة فنية وزخارف هندسية أكثر منه أمام حاجة مطلوبة لمنفعة ما تحمل الشعار النصري ، ويضم متحف الحمراء بغرناطة عدة أدلة على ذلك تم شرحها في ثنايا الدراسة .
- وتطورت مملكة غرناطة تطوراً كبيراً في مجال صناعة السلاح نظراً لظروف موقعها وسط الأعداء ، فتم صنع مدفع البارود كسلاح ناري يستخدمه المسلمون لأول مرة في الأندلس واحتوت الكتب على كيفية صناعة السيوف والرماح والخناجر والسكاكين وصناعة التروس والدروع والرماح خاصة ما اشتهر منها من التروس المصنوعة من جلود حيوان اللاما وخاصيتها أنها إذا أصيبت بضربة سيف أو رمح انفلقت الضربة والتحمت من وقتها فلا تكاد تظهر .

- وأوضحت الدراسة التطور الكبير الذي وصلت إليه مملكة غرناطة في مجال صناعة الخزف المزجج منها وغير المزجج والتي نستطيع القول بها أنها تقدمت على معظم دول العالم في ذلك العصر في صناعتها إذ كشفت الحفريات الأثرية في جنوب غرناطة عن بعض المصنوعات التي تم إنتاجها في هذا المجال في عصر بني نصر والتي من بينها الجرار والخابيات ، وصناعة الأواني المنزلية لطهي الطعام مثل الموقد ، أو الكانون والسلسلة المتنوعة من المراجل والطناجر متعددة الاستخدامات مثل الأباريق ، والأطباق ، وألعاب الأطفال ، وصناعة "القرميدة" التي زخرفت بها جدران قصر الحمراء وغيره من المساكن والقصور ودخل الذهب في صناعة الفخار المذهب وكانت تلك الصناعة تتم على أيدي صانعي الفخار الغرناطيين المهرة التي أهدى بعضاً من نماذج صناعتهم ملوك بني نصر إلى بعض زعماء الدول الإسلامية فكانت مثار دهشة وإعجاب المشاهدين لها ، ولمن شاهد لما تبقى منها من نماذج إلى يومنا هذا .
- وكان من النتائج التي توصلت إليها الدراسة تأثر السكة الغرناطية بحركة الجهاد الإسلامي إذ أدى العدوان النصراني إلى التأثير الاقتصادي على مملكة غرناطة بصفة عامة وإلى انهيار قيمة النقد الغرناطي وتزييف للعملة النصرية ، وبينت الدراسة موقف الفقه الإسلامي في غرناطة إزاء تردي العملة الغرناطية وانخفاض قيمتها في العقد الأخير من القرن التاسع الهجري وتدخل الفقهاء لمعالجة الأوضاع الاقتصادية المتدهورة .
- وكشفت الدراسة أن الغرناطيين قد عرفوا معظم الطرق التجارية بحرية وبرية وارتادو طريق الذهب عبر الصحراء ووصلوا إلى أعماق المحيط الأطلنطي في رحلات استكشافية .
- وتوصلت الدراسة إلى حقيقة مهمة لم تكن واضحة من قبل وهي إقامة مملكة غرناطة شبكة علاقات تجارية مع الدول الإسلامية في المغرب بدوله الثلاث(دولة بني مرين ، وبني زيان ، وبني حفص) وبالتالي كانت مملكة غرناطة سوقاً للتجارة المغربية .

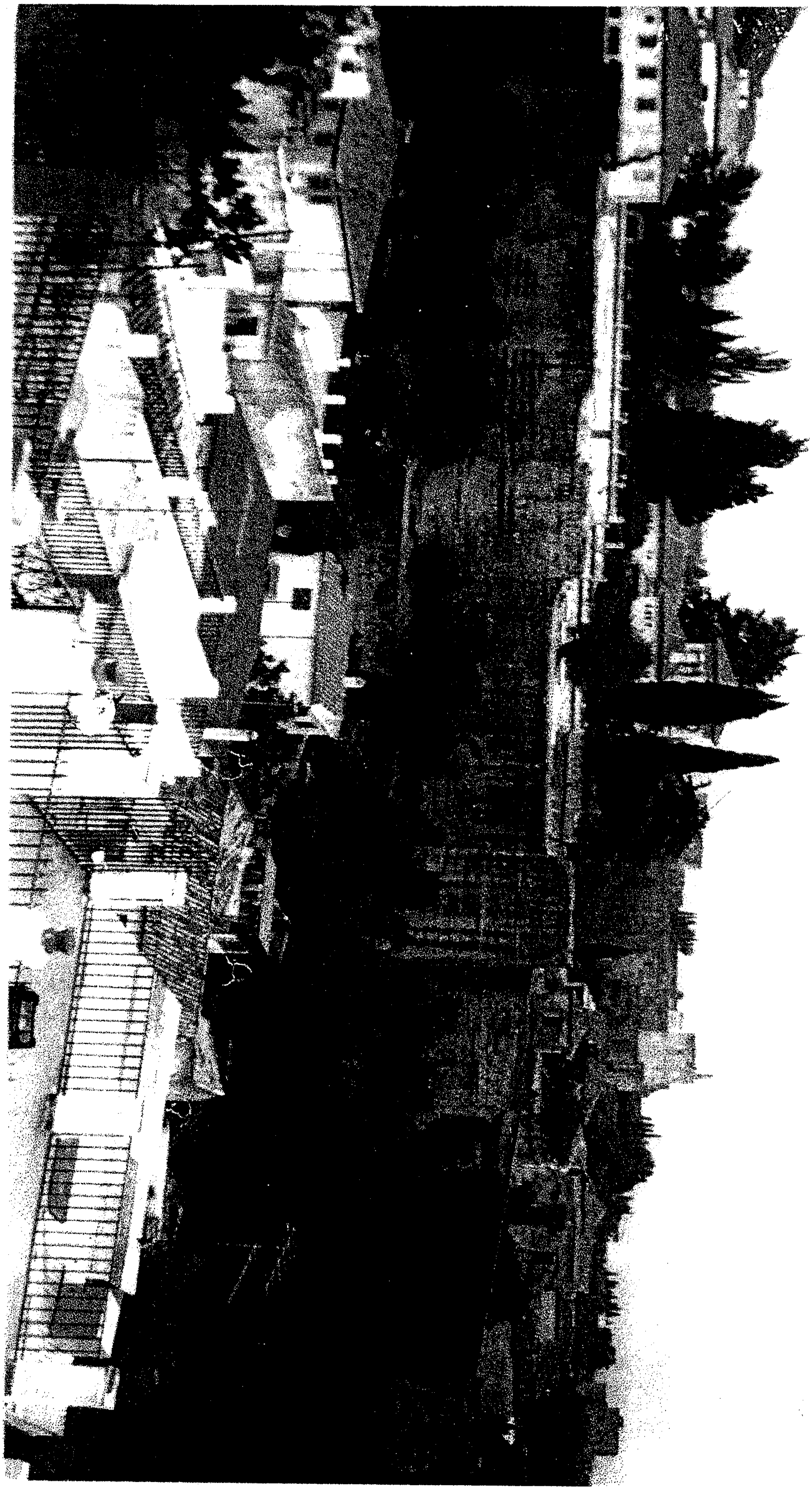
وأن أهم السلع المتبادلة بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية في شمال إفريقيا كانت: مادة القمح والشعير ، والدقيق والمواشي من أغنام وأبقار ، وأخشاب وأدوات ولوازم السفن ، والأواني الفخارية والمنسوجات ، والملابس ،والمفارش والبطاطين ، وكانت التجارة بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية في شمال إفريقيا تقدر بمبالغ كبيرة كثيراً ما تتعرض لخسائر من جراء هجوم الأساطيل النصرانية عليها .

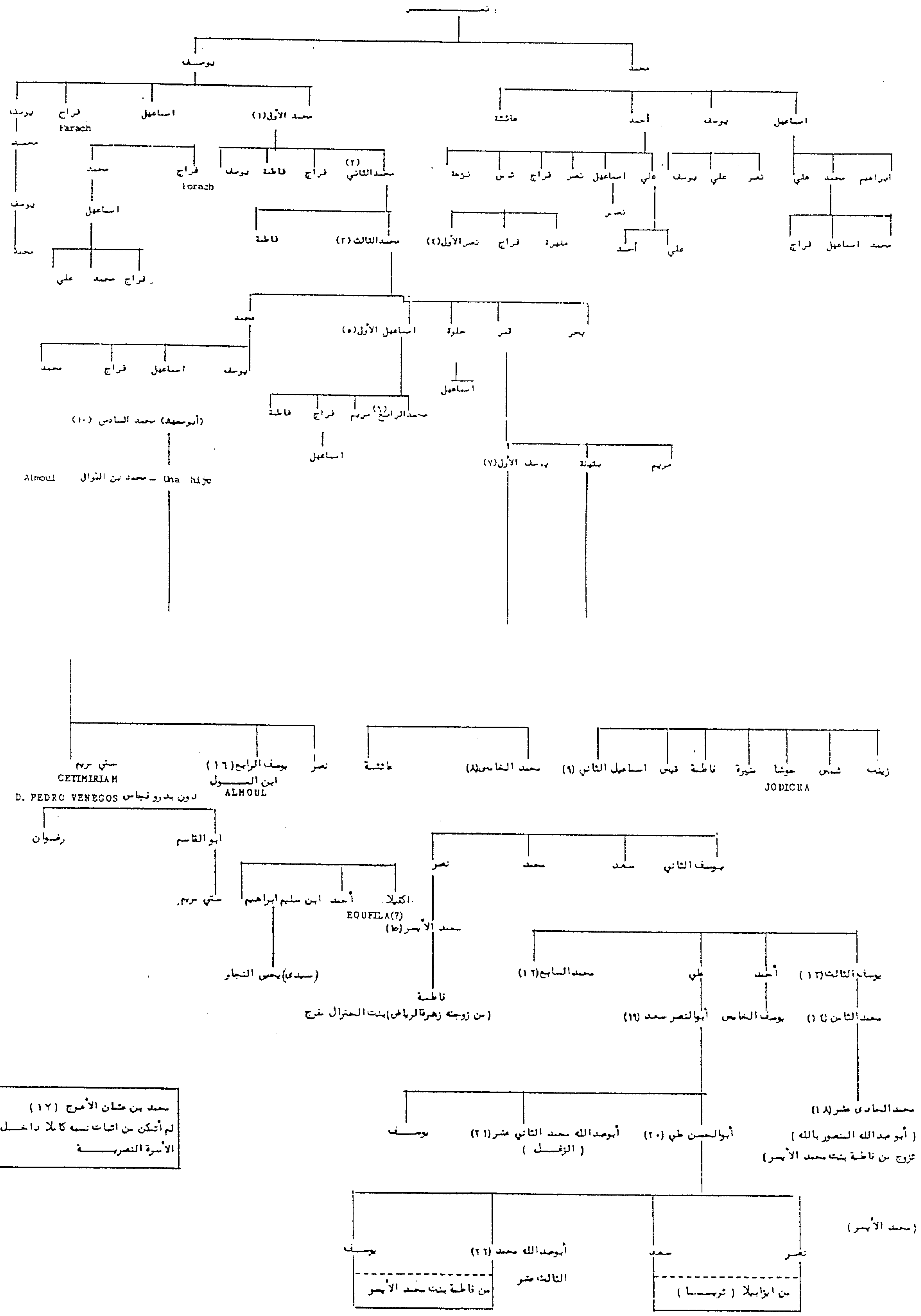
- كما توصلت الدراسة إلى معرفة أسباب ضعف التجارة بل وانعدامها بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية في المشرق والتي من بينها منح النصارى امتيازات تجارية في مملكة غرناطة ودولة المماليك وثانيهما القرصنة النصرانية في حوض البحر الأبيض المتوسط التي كانت تتابع الهجوم على السفن الإسلامية من لحظة انطلاقها من شواطئ غرناطة إلى لحظة وصولها إلى شواطئ مصر والشام بالإضافة إلى الرسوم الجمركية المرتفعة التي كانت تفرضها دولة المماليك على تجار الأندلس والمغرب أكثر من تلك التي تفرض على التجار النصارى ، بالإضافة إلى ضعف البحرية التجارية الإسلامية في عصر مملكة غرناطة .
- إن دراسة تأثر الأحوال الاجتماعية بحركة الجهاد الإسلامي في مملكة غرناطة قد بينت أن الحرب التي شنها النصارى في شبه جزيرة أيبيريا على المسلمين في مملكة غرناطة قد فرضت على مملكة غرناطة حكومة وشعباً جواً من الحذر والترقب والقلق ، ونتيجة لذلك انتشرت الأسلحة والتدريبات بين كافة طوائف المجتمع ، فكان لذلك آثار سلبية وآثار إيجابية ناقشت الرسالة كليهما .
- واتضح من خلال الدراسة أن المجتمع الغرناطي قد اتخذ عدة إحتياطات لمواجهة الأوضاع الناجمة عن حالات الحرب من كوارث ومن تفكك للأسرة الغرناطية المسلمة بما خلفته الحرب وراءها من أيتام وأرامل ونساء وأطفال ومعتوهين ومفقودين ومرضى وأسرى فحاول معالجة التغيرات التي طرأت على الأسر الغرناطية من جراء قتل رجالها وسبي نسائها ، فدرس البحث الأساليب التي

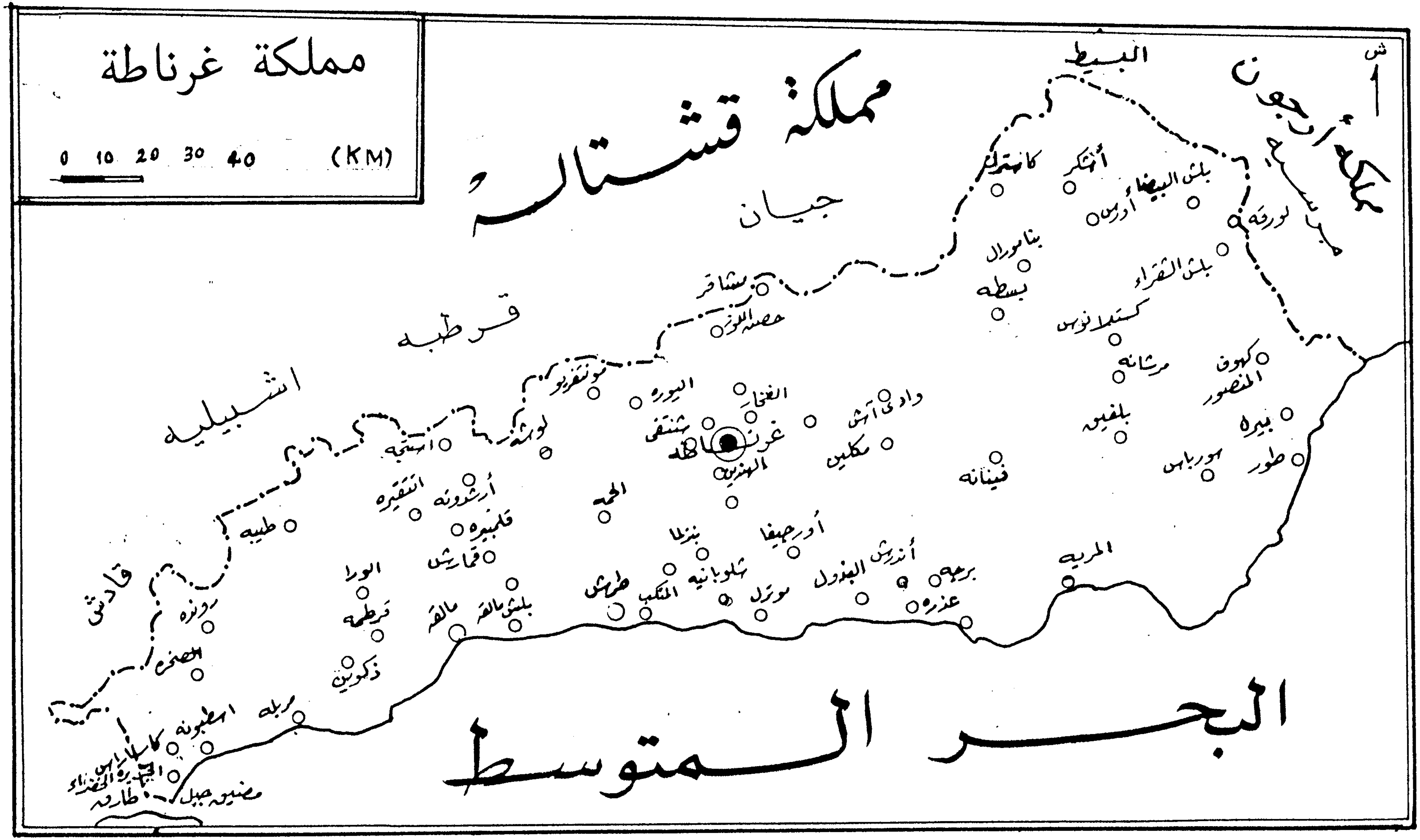
ساهمت إلى حد ما في تماسك المجتمع الغرناطي وترابطه وتعاونه وتكافله مع بعضه البعض في التصدي للعدوان وحملات الإبادة التي يتعرض لها وذلك من خلال دعوة وتوجيه العلماء والفقهاء للشعب الغرناطي بضرورة التضامن والتكافل الاجتماعي بين كافة أبناء المجتمع الغرناطي لمواجهة التحديات المفروضة عليهم .

- ورصدت الدراسة دور الفقه الإسلامي في غرناطة في مواجهة الآثار الاجتماعية المترتبة على حركة الجهاد الإسلامي في مملكة غرناطة واختلاط المسلمين بالنصارى .
- وبينت الدراسة أنه كان لدخول الفرق الحربية من بني مرين ودول شمال إفريقيا والمتطوعين في سبيل العقيدة إلى مملكة غرناطة آثار اجتماعية على المجتمع في مملكة غرناطة .
- وكشفت الدراسة أنه كان للاحتكاك الشديد الذي أملته ظروف سياسية وعلمية واقتصادية واجتماعية بين مملكة غرناطة والمغرب العربي بدوله المختلفه قد فرض تبادل التأثيرات الحضارية والاجتماعية بين هؤلاء وأولئك في مجالات اجتماعية عديدة منها الملابس ، والأعياد ، والحفلات ، والألعاب وفي مستوى العيش والاحتياط المنزلي والتدبير ونظام الأسرة في حياتها العامة والخاصة .
- وأكدت الدراسة أنه بالرغم من بعد المسافة بين مملكة غرناطة وصعوبة المواصلات وخطورتها في ذلك الوقت إلا أن التأثيرات الاجتماعية قد تبودلت بين المجتمع المسلم بمملكة غرناطة والمجتمعات الإسلامية في دول المشرق في مجال اللباس والمظهر العام للأفراد ، وفي مجال الألعاب والاحتفالات وفي مجال التكافل الاجتماعي بين المهاجرين الغرناطيين وإخوانهم من أهل المشرق وإخوانهم الغرناطيين المقيمين في بلدانهم عن طريق بعث الوصايا أو الهبات لأولئك المرابطين في الثغر الإسلامي .

- وتبين من خلال الدراسة أن رحلة الحج بين مكة المكرمة وغرناطة قد شكلت خطًّا ثقافياً اقتصاديا واجتماعيا بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية مروراً بالشمال الإفريقي ومصر فمكة والمدينة والشام ساهم في نقل المعطيات الحضارية والاجتماعية بين مملكة غرناطة والدول الإسلامية .




نصر
يوسف
محمد
يوسف
فراج
Farach
اسماعيل
محمد الأول(١)
عائشة
أحمد
يوسف
اسماعيل
محمد
محمد
فراج
Forach
يوسف
فاطمة
فراج
محمد الثاني (٢)
نزهة
شمس
فراج
نصر
اسماعيل
علي
يوسف
علي
نصر
علي
محمد
ابراهيم
يوسف
اسماعيل
نصر
محمد
فاطمة
محمد الثالث (٣)
نصر الأول(٤)
فراج
مليرة
أحمد
علي
فراج
اسماعيل
محمد
علي
محمد
فراج
محمد
اسماعيل الأول(٥)
حلوة
قمر
بحر
محمد
فراج
اسماعيل
يوسف
اسماعيل
فاطمة
فراج
مريم
محمد الرابع(٦)
(أبوسعيد) محمد السادس (١٠)
اسماعيل
يوسف الأول(٧)
بثينة
مريم
Almoul
محمد بن النوال - Una hijo
ستي مريم
CETIMIRIAH
يوسف الرابع(١٦)
ابن الـــول
ALMOUL
نصر
عائشة
محمد الخامس(٨)
اسماعيل الثاني (٩)
قيس
فاطمة
شيرة
حوشا
شمس
زينب
JODICHA
D. PEDRO VENEGOS دون بدرو فنجاس
رضوان
ابو القاسم
نصر
محمد
سعد
يوسف الثاني
ستي مريم
ابن سليم ابراهيم
أحمد
اكتيلا
EQUFILA(?)
محمد الأبسر (ط)
محمد السابع(١٢)
علي
أحمد
يوسف الثالث(١٣)
(سيدي)يحيى النجار
فاطمة
(من زوجته زهرة الرياض)بنت المنزال شرح
أبوالنصر سعد (١٩)
يوسف الخامس
محمد الثامن (١٤)
محمد بن عثمان الأعرج (١٧)
لم أتمكن من اثبات نسبه كاملا داخل الأسرة النصريـــة
يوســف
أبوعبدالله محمد الثاني عشر(٢١)
(الزغــــل)
أبوالحسن علي (٢٠)
محمد الحادي عشر(١٨)
(أبو عبدالله المنصور بالله)
(تزوج من فاطمة بنت محمد الأبسر)
(محمد الأبسر)
يوســف
أبوعبدالله محمد (٢٢)
الثالث عشر
سعد
نصر
من فاطمة بنت محمد الأبسر
من ايزابيلا (ثريـــا)



ملحق رقم (٣) مترجمة من كتاب BOSQUE MUREL (J.) GEGRAFI DE GRANADA

de paz, y acerca de los cuales ya os habíamos escrito y os había informado nuestro mensajero Abū ʿAlī al-Garrāf. Porque ya disteis, en efecto, vuestras órdenes de que fueran libertados, conforme lo requería vuestra conocida lealtad, y a ello correspondemos con el más profundo agradecimiento, y con nuestros elogios a vuestro acto. Pero cuando llegó vuestra orden, únicamente fueron libertados dos de ellos, quedando el tercero sin libertar.

En vista de ello, volvemos a escribiros, haciéndoos presente nuestro agradecimiento, y, también, respecto a dicho tercer individuo. Es Abkar, hijo de Ḥasan al-Azraq, vecino de Almería, hecho cautivo en Alicante, según el acta que recibiréis. Y os rogamos, ¡oh, Rey magnífico!, que completéis vuestro favor, acabando lo que falta hacer, en la forma que requieren vuestras excelentes promesas. Esto es lo que de Vos pretendemos.

Dios os proteja incesantemente, por profesar su santo temor, y os preste su ayuda para llevar a cabo aquello que a Él complace.

Reiterados e indelebles saludos sirven de correspondencia a vuestra salutación. Escrita el día veintinueve de *raŷab* el único, del año setecientos veintitrés.

Esto es válido. — Fin.

Número 75 del Archivo. Dimensiones: 0,35 por 0,24. Papel. Lleva dirección en el reverso, con restos de sello grande en lacre rojo.

19

Carta de ʿUṯmān ibn Idrīs ibn ʿAbd Allāh, Visir de Ismāʿīl I de Granada, en la que alaba las buenas cualidades del enviado del Rey de Aragón y le ruega busque una cartera de documentos que había dejado olvidada su emisario de Egipto.

19 de *šaʿbān* de 724 = 12 de agosto de 1324.

السلطان الاجل الاعز المكرم المبرور المشكور الشهير الاوفى ذون جيمى ملك ارغون اسعده الله برضاه واكرمه بتقواه شاكر عهده ووفائه العليم بعلو منصبه بين امثاله من ملوك النصرى ونظرائه عثمن بن ادريس بن عبد الله بن عبد الحق اما بعد فانى كتبته اليكم من حضرة غرناطة حرسها الله تعلى عن الخير الاكمل واليسر الاشمل والحمد لله وعن الشكر لجانبكم والعلم لمقاصدكم ومذاهبكم والى هذا فان كتابكم المكرم وصل معى راجلكم احمد بن الحاج سلمه الله تعلى وما قصر فى خدمتكم ونصيحتكم فى هذه المرة وفى كل مرة توجهونه فلا تسمعوا فيه قول احد ولا تشكوا فى خلوصه فى خدمتكم ولى عندكم ايها الملك المعظم حاجة وذلك انه لما وصل اليكم الحاج راجلى احمد بن عبد السلام من اسكندرية وعملتم معه من الكرامة ما شكرتكم عليه نسى خريطة فى الدار التى نزل فيها هنالكم بكتب من صاحب مصر لمولانا السلطان ايده الله ويعرف الدار سيدون راجلكم وكانت الخريطة فى كنانة من الخشب فعسى ان تتفضلوا بالبحث عنها وتوجهوها الى محبكم وهذه اكبر حاجة لى قبلكم والله يسعدكم برضاه ويعزكم بتقواه والسلام يراجع سلامكم كثيرا اثيرا كتب فى التاسع عشر لشعبن المكرم من عام اربعة وعشرين وسبعماية

Al egregio, glorioso, honorable, altamente reputado, digno de gratitud, famoso y fidelísimo Monarca D. Jaime, Rey de Aragón, ¡Dios lo haga dichoso, por profesar su santo temor, y le haga objeto de su generosidad, por conformarse con su divina voluntad!

El agradecido a su constancia en la amistad y a su lealtad, el que sabe cuán elevado es su rango entre sus iguales y pares, los reyes de la cristiandad, ʿUṯmān, hijo de Idrīs, hijo de ʿAbd Allāh, hijo de ʿAbd al-Ḥaqq.

Dicho esto, os escribo la presente desde la corte de Granada — ¡Dios vele por ella! — en ocasión en que, gracias a Dios, impera el bien más completo y la dicha en todos sentidos, junto con el agradecimiento a Vuestra Majestad y el conocimiento de vuestros propósitos e intenciones.

Añado a lo expuesto, que ha llegado vuestra estimada carta por conducto de vuestro emisario Aḥmad, hijo de al-Ḥāŷŷ — ¡Dios le libre de mal! —, el cual no ha escatimado su diligencia para serviros, ni su desinterés hacia Vos en esta y en todas las ocasiones en que lo habéis enviado. Y no deis oídos a lo que nadie diga acerca de él, ni dudéis de la lealtad con que procede en lo tocante a vuestro servicio.

Y ahora, ¡oh, Rey magnífico!, yo necesito una cosa de Vos. Cuando llegó a vuestra presencia mi emisario al-Ḥāŷŷ Aḥmad, hijo de ʿAbd al-Salām, procedente de Alejandría, y lo hicisteis objeto de vuestras atenciones, en los términos que tanto os agradezco, dejó olvidada en la casa en que ahí se alojó una cartera con cartas del Soberano de Egipto para nuestro señor el Sultán — ¡Dios consolide su poder! —. Vuestro emisario Saydūn sabe la casa que es; la cartera estaba en una canana de madera. Desearía que hicieseis el favor de buscarla y enviarla a vuestro amigo. Esto es lo que de un modo más imperioso necesito de Vos.

Dios os haga dichoso, por conformaros con su divina voluntad, y os proteja por profesar su santo temor.

Muchos e indelebles saludos sirven de correspondencia a vuestra salutación. Escrita el diecinueve del venerado *šaʿbān* del año setecientos veinticuatro.

Número 60 del Archivo. Dimensiones: 36,5 por 26. Papel blanco amarillento. En el reverso, dirección, sin huellas visibles de sello. Bastante maltratado por la polilla.

20

Minuta de la carta del nº 19.

الحمد لله — وصل الله كرامتكم بتقواه كنت عرفت جلالكم المعظم ان ثقتى احمد بن عبد السلام لما جاز من اسكندرية معى ارسالكم فى العام الفارط نسى بالدار التى نزل بها كنانة فيها كتب من صاحب ديار مصر لهذا المقام العلى السلطانى وفيها ايضا جملة كتب اخر ورغبت منكم ان تامروا احد خدامكم بالبحث

عنها عسى ان يقع عليها وتوجهوها الى هنا وانا الان اجدد قصدكم فى ذلك ولعل ان تجبر وزيدون المسلم
الذى هنالكم يعرف الموضع الذى نزل به فهو يعرفكم به وهذه من اكبر حوايجى قبلكم والله يصل
كرامتكم بتقواه والسلام يراجع سلامكم كثيرا اثيرا ،

Alabado sea Dios. Dios os haga incesantemente objeto de su generosidad, por profesar su santo temor.

He de hacer saber a vuestra magnífica Majestad que cuando nuestro comisionado Aḥmad, hijo de ʿAbd al-Salām, llegó de Alejandría, junto con vuestros emisarios, el año anterior, olvidó en la casa donde estuvo alojado una canana en la que había unas cartas del Soberano de Egipto para esta excelsa Majestad Soberana, y además otra serie de documentos. Deseo de Vos que ordeneis buscarlas a alguno de vuestros servidores, por si logra dar con ellas, y que las enviéis acá, e insisto en que os decidáis a hacerlo, para ver si son halladas. Zaydūn el musulmán, que se encuentra en ésa, sabe el sitio donde se alojó, y él os lo indicará. Ésta es una de las cosas más importantes que de Vos pretendo.

Dios, con su poder, os haga incesantemente objeto de su estimación, por profesar su santo temor.

Múltiples e indelebles saludos responden a vuestra salutación.

[Sin fecha ni nombres de remitente y destinatario. Parece como si fuera la minuta, entregada al Secretario, con el texto que había de llevar la carta nº 19.]

Número 51 del Archivo. Dimensiones: 20 por 14. Papel. Sin dirección.

21

Carta de Ismāʿīl I de Granada a Jaime II, en que comunica la llegada de seis cautivos apresados en tiempo de paz, agradece las gestiones hechas por el Rey de Aragón para rescatarlos e insiste en que mande buscar a otros, que todavía no han recobrado la libertad.

17 de *šaʿbān* de 724 = 9 de agosto de 1324.

ملحق رقم (٥)

نسخة كتاب صاحب الأندلس محمد الأحنف بن عثمان

....

فإنّا كتبنا إلى أبوابكم العزيزة ، كتب الله لها ما يبهج قلب الإسلام ، من السّعد الواضح الأعلام ، وقد فعل . كما أنطق بفضل معاليها من اختفى وانتقل من حمراء غرناطة دار ملك الجهاد بثغر الأندلس ، القطر الغريب الحلال ، الآوى إلى ناف ، ذلك الملك الذي له الزعامة الوارفة الظلال ، تداركه الله بعضْده ، ونصر من بها من المسلمين الغرباء ، فما النّصر إلا من عند الله ، وعندنا ثقةٌ بنصر الله الذي تعودّنا من صنعه الجميل ما تعوّدنا ، وبلّغنا به في إمداد كلمة الحق بهذه الديار الغربية ما أردْنا .

ونحن نوجب التعظيم لتلكم الأبواب الكريمة ، والثناء على ما عندنا من المواهب المتصلة والمنح العميمة ، كافأ الله عنّا ما لها من الحقوق ، التي قامت المفاخر منها على سوق .

وإلى هذا فموجبه إلى تلكم الأبواب الشريفة ، والإعلام بأن الواصل بهذا الكتاب إلى الأبواب العزيزة ، التاجر الأتقى الأفضل أبو عبدالله محمد البنيولي ، كتب الله سلامته . توجه برسم تلكم الإيالة الكريمة وتلكم السّمطيّة العظيمة ، وفي اكترائه واكتراء من معه المركب الذي وصلوا فيه إلى تلكم البلاد الشريفة ، واكتراؤه برسم ما يُسنى الله من المعونة لهذا الثغر الغريب ، والوطن الذي هو من العدو قريب ، المترقب لما يُيسّره الله تعالى من صدقات المسلمين ونوافل خيراتهم التي يعتمدون بها ما عند الله من الثواب الجسيم ، والجزاء الذي يخلد في دار النعيم . ومواهب أبوابكم العزيزة هي العطايا الفاخرة ، والمنح التي تُوفى سعادة الآخرة .

وأن المركب المذكور يصل بالسلامة إلى ثغر الإسكندرية ، حماها الله . والقصد من أبوابكم العزيز أن تأمروا بالمشاركة في تفريغه ووثقه ، وفي كل ما يحتاج إليه ، حتّى يتم معونة هذا الوطن المستصرخ بأبوابكم المتمسك بأسبابكم . ومبلغ كراء المركب المذكور في

سفره وعودته ثلاثة عشر ألـف دينـار وخمسـمائة دينـاراً مـن الذهـب الفارسـي ، كتـب ا لله سلامته .

وأبوابكم الشريفة ، زادها ا لله تشريفاً وأبقـى بهـا جـانب الإسـلام منيفـاً ، كفيلـةٌ / بإتمام هذا القصد وإكماله ، وإسعاف غرض ثغر الجهاد وتبليغ آماله .

وا لله تعالى يبقـى شـرف تلكـم الأبـواب عاليـاً ، ويجعـل سـعدها متواليـاً . والسـلام الكريم يعتمد أبوابكم الشـريفة مـن مقامنـا السـلطاني المحمّـدي العـالي النّصـري ، أعـزَّ ا لله جهاده ، وحمى معاقله وبلاده .،

ورحمة ا لله وبركاته .

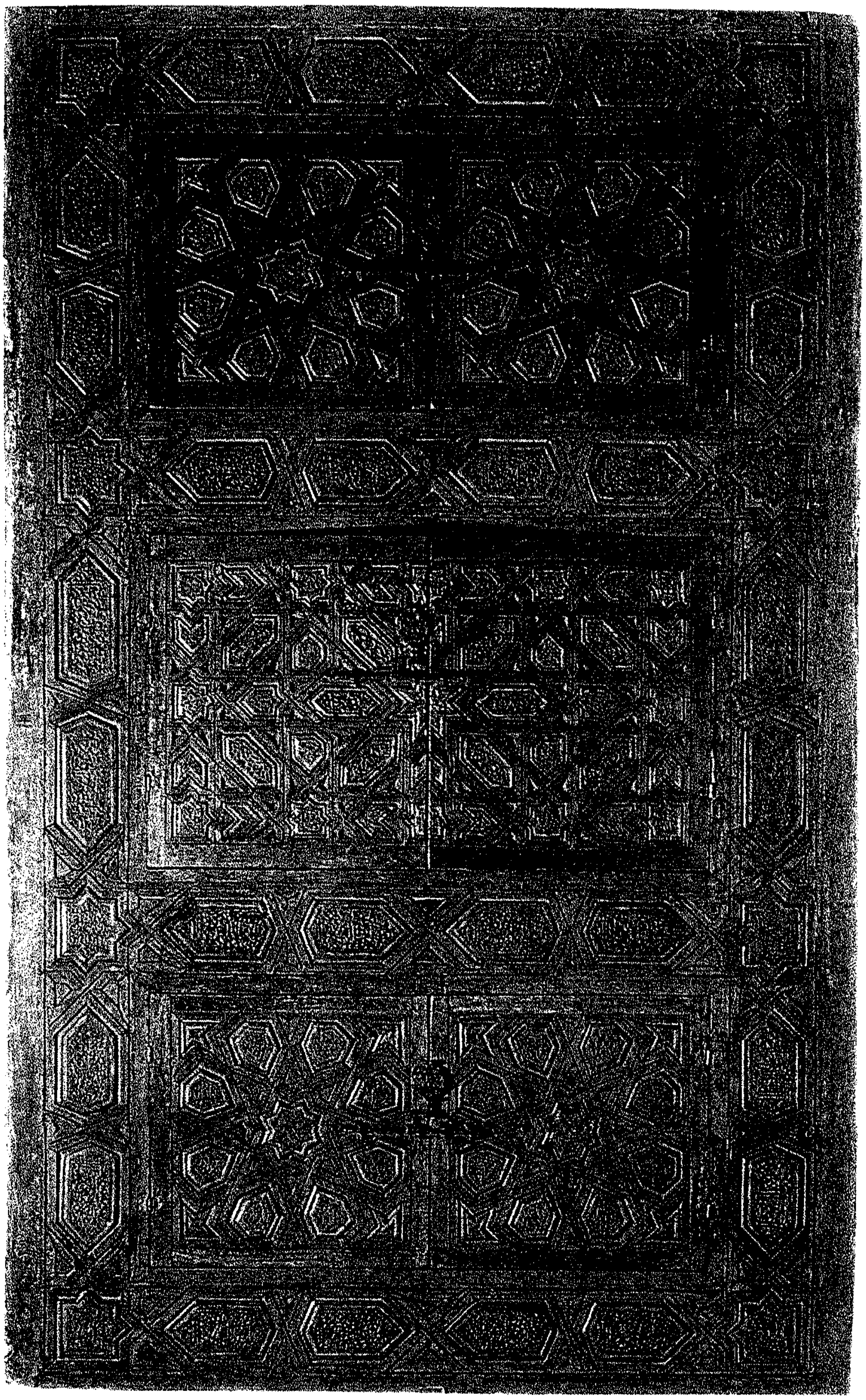
كتب في الثالث عشر من جمادى الأولى عام خمسة وخمسين وثمانمائة [1] .

---

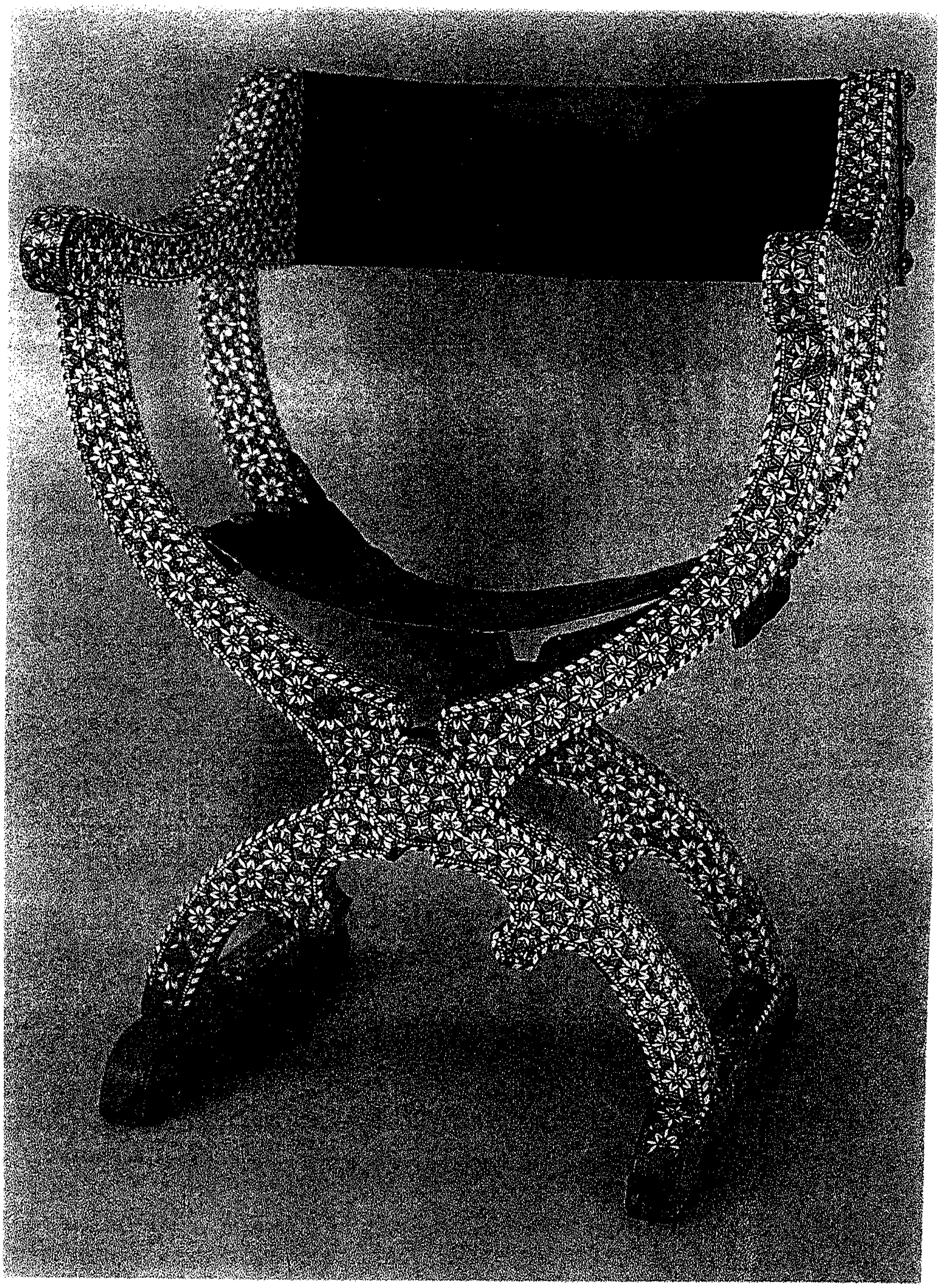
(١) نشر هذا النص د. أحمد دراج في كتابه المماليك والفرنج ص ١٨١ - ١٨٤ .



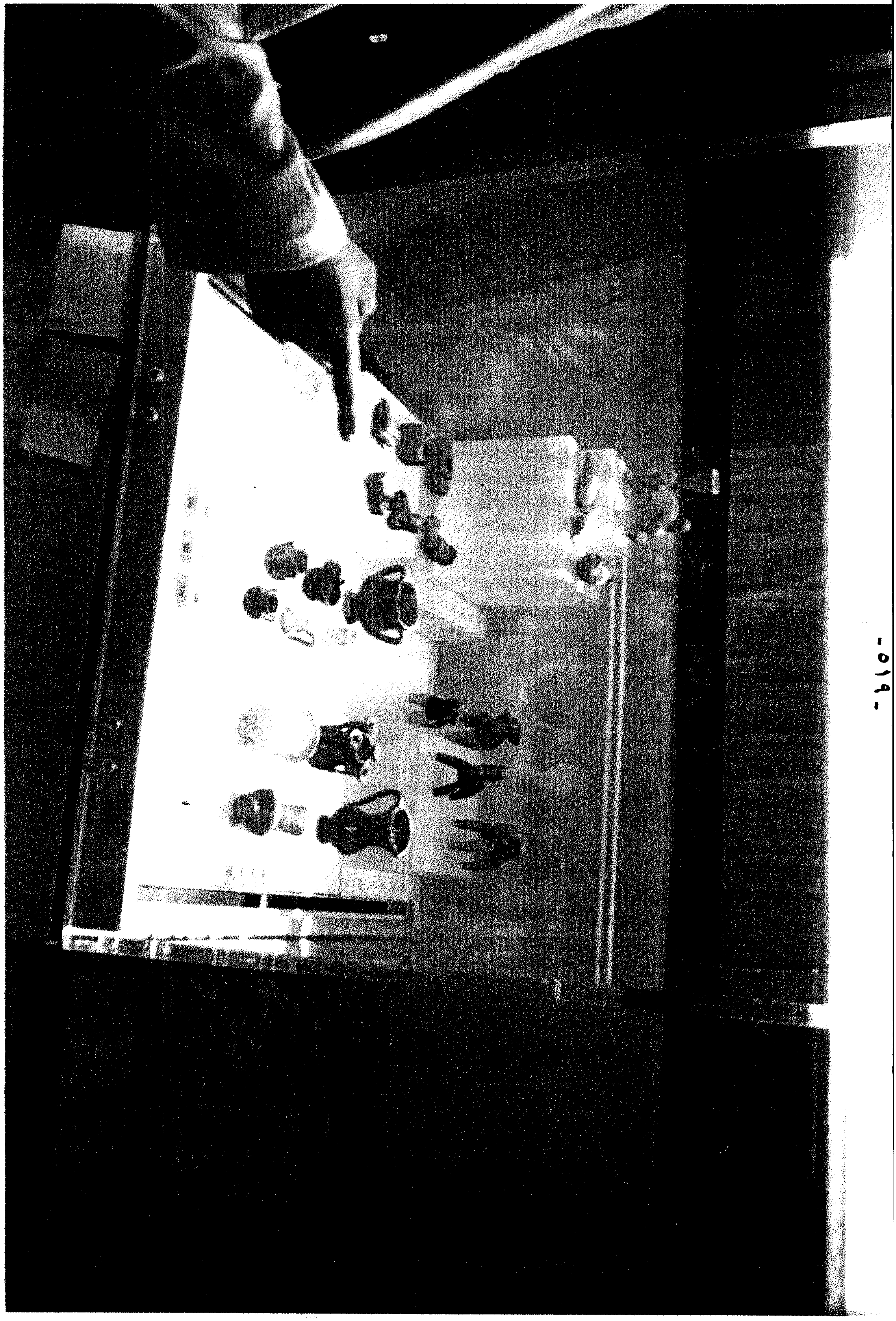
ملحق رقم (٦)



ملحق رقم (٧)

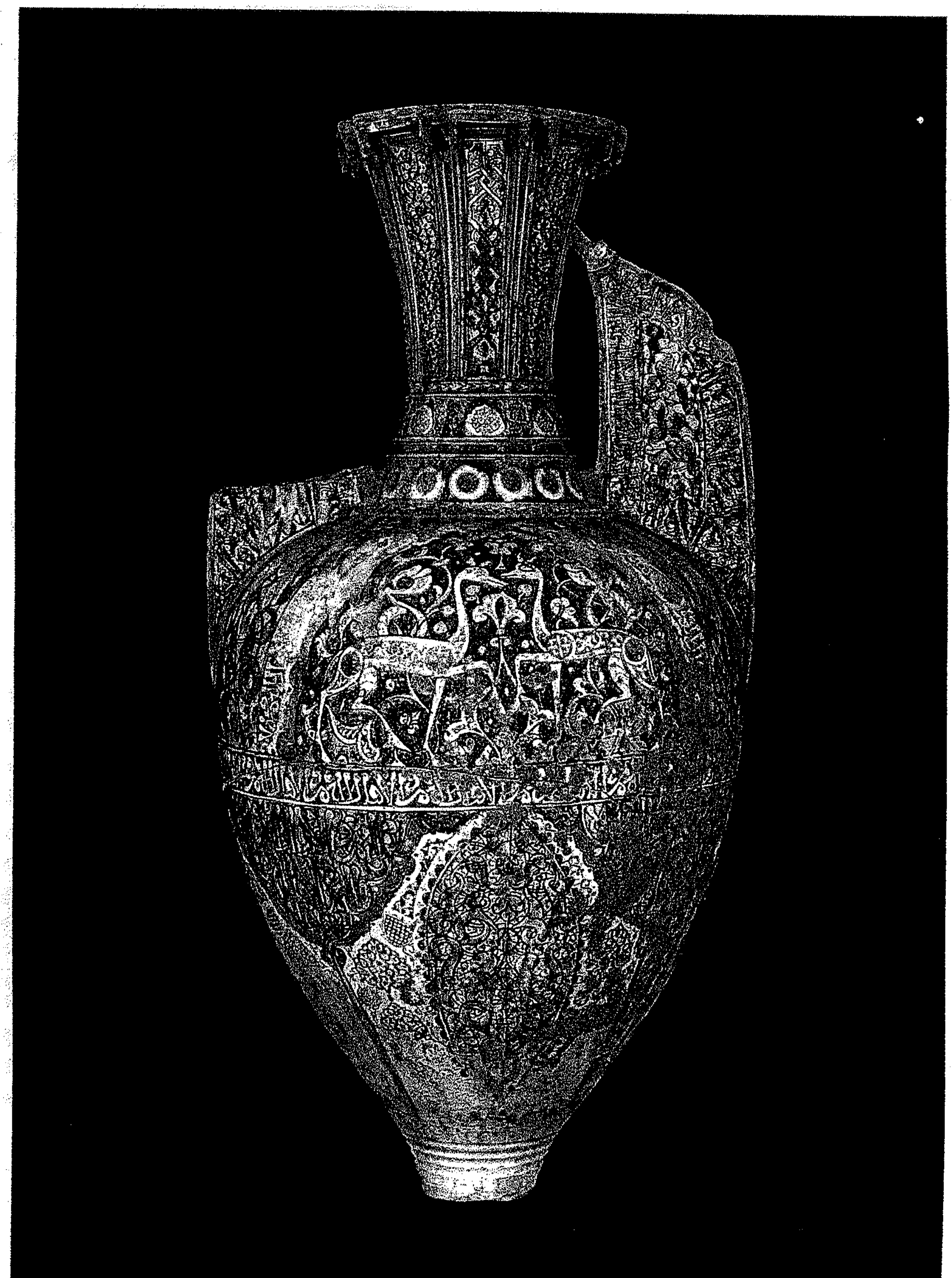


ملحق رقم (٨)



ملحق رقم (٩١)

-٥١٩-



ملحق رقم (١٠)

3

Tratado de paz y alianza entre Muḥammad II de Granada y Jaime II de Aragón contra Castilla.

Último día de *rabī'* segundo de 701 = 31 de diciembre de 1301, o 1° de enero de 1302.

ليعلم كل من يقف على هذا الكتاب انا الامير عبد الله محمد بن امير المسلمين ابى عبد الله بن نصر سلطان غرناطة ومالقة وما اليهما وامير المسلمين ننعم لكم ايها السلطان المعظم دون جايم ملك ارغون وبلنسية ومرسية وكند برجلونة بان نكون لكم صاحبا وفيا ويكون بيننا وبينكم صلح ثابت وصحبة صادقة يكون فيها اصحابكم اصحابنا واعداؤكم اهل قشتالة اعداءنا ونرفع الضرر والفساد عن بلادكم وارضكم من بلادنا وارضنا ولا نجعل سبيلا لذلك لاحد من ناسكم لا فى البر ولا فى البحر وان اتفق ان يصدر لاحد او لموضع من ناسكم او بلادكم ضرر من احد ممن يرجع الى حكمنا فنحن ننصف منه بالحق الواجب وعلى ان تكونوا انتم لنا كذلك صاحبا وفيا كما ذكرتم فى كتابكم وتلتزموا لنا صحبة صادقة وصلحا ثابتا وتصاحبوا كل صاحب لنا وتعادوا كل عدو لنا من المسلمين او من اهل قشتالة وترفعوا الضرر والفساد عن بلادنا كلها وعن ناسنا فى البر والبحر وان اتفق ان يرجع الى طاعتنا بلد من بلاد العُدْوَة او ناس من اهلها فيكون حكمهم فى ذلك كحكم ساير بلادنا الاندلسية ومتى صدر عن احد من ناسكم او من اهل بلادكم ضرر لاحد من ناسنا او من اهل بلادنا الاندلسية او التى تكون من بر العُدْوَة فعليكم ان تنصفوا منه فى الوقت والحين كما ذكرتم فى كتابكم وكذلك ننعم لكم بان يصل الى بلادنا كل من يريد الوصول برسم التجارة من بلادكم بما شاؤا من انواع التجارات ويسرح لهم ما ارادوا من ذلك ويكونوا مومنين فى نفوسهم واموالهم على ان ينصفوا من الحقوق الواجبة على العادة وينصفوا من حقوقهم الواجبة لهم فى الدواوين على العادة وعلى ان يكون ايضا كل من يتوجه من بلادنا الى بلادكم من التجار مومنين فى نفوسهم واموالهم ويسرح لهم فى بلادكم ما شاؤا من انواع المتاجر وينصفوا من الحقوق الواجبة على العادة من غير إحداث زيادة وينصفوا من حقوقهم الواجبة لهم كما ذكرتم فى كتابكم وكذلك ننعم لكم ان نعينكم على اهل قشتالة فى نفاقهم معكم وان اتفق ان يجى لكم الى مرسية صاحب قشتالة الان او مقدرته فنعينكم بما نقدر عليه فى ذلك الوقت ولا نعمل معهم صلحا ولا مهادنة الا برأيكم وفى منفعتنا ومنفعتكم وعلى ان تلتزموا انتم ما نلتزمه نحن من النفاق عليهم ومن الغارات على ارضهم كلها ولا تعملوا ?معهم؛ صلحا ولا مهادنة الا براينا وفى منفعتكم ومنفعتنا حتى تكون الحال واحدة فى النفاق والاتفاق وعلى ان تعينونا انتم عليهم متى احتجنا الى اعانتكم بما تقدرون عليه كما ذكرتم فى كتابكم وكذلك ننعم لكم أ.....

..... حتجتم الى اعانتنا فى ارض مرسية بفرسان من عندنا ان نعينكم بهم على ان يُضَمُّوا فى بلادكم.....

الماكول والعلف من يوم خروجهم من ارضنا الى يوم رجوعهم اليها وتامروا بان تغرم لهم الدواب التى تموت لهم فى خدمتكم من يوم خروجهم من ارضنا الى يوم رجوعهم اليها وكذلك ننعم لكم انه ان

..... مرسية ان نرده فى الحين لكم وان كان من غيرها من بلاد قشتالة فلا اعتراض لكم فيه وكل موضع يرجع لكم انتم من رياسة قشتالة لا اعتراض لنا نحن فيه الا ان يكون من المواضع التى هى لنا وهى طريفة

..... وقشتال فان اتفق ان ترجع هذه المواضع او واحد منها اليكم فعليكم ان تردوه الينا فى الحين من غير تطويل ولا مطلب وان اتفق ايضا ان ترجع هذه المواضع او واحد منها الى طاعة السلطان دون الفونش او اخيه الإنفانت دون فرانده فعليكم ان تفقوا معنا فى تكميل الربوط التى بيننا وبينهما بشهادتكم عليهما وضمانكم فى ردها الينا فى الحين والوقت من غير تطويل ولا مطلب وعلى ان تمنعوا اهل بلادكم من الدخول بالتجارة الى اشبلية وغيرها من بلاد اعداينا فى البر والبحر وان دخل احد منهم اليها فيكون حكمه حكم الاعداء الذين يكون معهم ولان يكون هذا كله ثابتا وتكونوا انتم منه على يقين امرنا بكتب ?هذا؟ الكتاب وجعلنا عليه خط يدنا وطابعنا فى اخر ربيع الاخر عام احد وسبعماية

وكتب فى التاريخ انتهى

Sepa todo aquel que leyere el presente escrito, que Nos el Príncipe, siervo de Dios, Muḥammad, hijo del Príncipe de los musulmanes Abū ʿAbd Allāh ibn Naṣr, Sultán de Granada y Málaga y sus dependencias, y Príncipe de los musulmanes, accedemos, augusto soberano D. Jaime, Rey de Aragón, Valencia y Murcia, y Conde de Barcelona, a ser vuestro fiel amigo y a que haya entre Nos y Vos paz firme y leal amistad, en virtud de la cual, vuestros amigos lo serán nuestros, y vuestros enemigos, las gentes de Castilla, enemigos para nosotros. Haremos cesar los daños y las correrías de que vuestras tierras y lugares pudieran ser objeto por parte de los nuestros, y no daremos ocasión ni permiso para que ningún vasallo nuestro los lleve a cabo, o los realice, ni por tierra ni por mar.

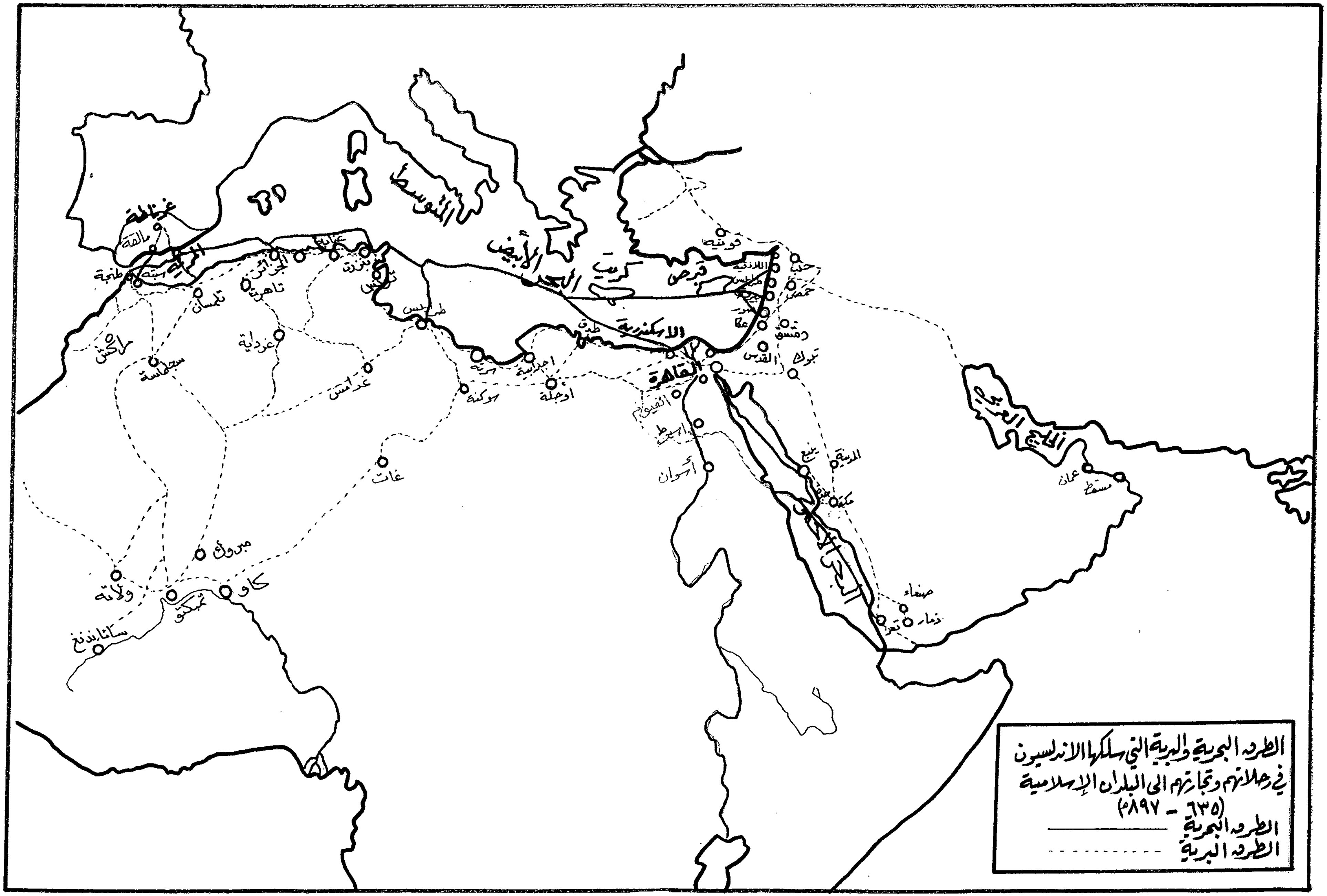
Y si aconteciera que a alguno de vuestros vasallos, o de vuestros lugares, le sobreviniera cualquier daño de parte de alguien que se halle sometido a nuestra autoridad, nosotros procuraremos que aquel daño sea reparado con toda justicia.

Y Vos, por vuestra parte, seréis igualmente fiel aliado nuestro, según manifestáis en vuestra carta, y os obligáis a mantener con Nos una alianza leal y una paz duradera, siendo amigo de quien lo sea de Nos y enemigo de todo enemigo nuestro, ya sea éste musulmán, o de la gente de Castilla; haréis cesar los daños y depredaciones contra todos nuestros territorios y vasallos, en el mar y en la tierra.

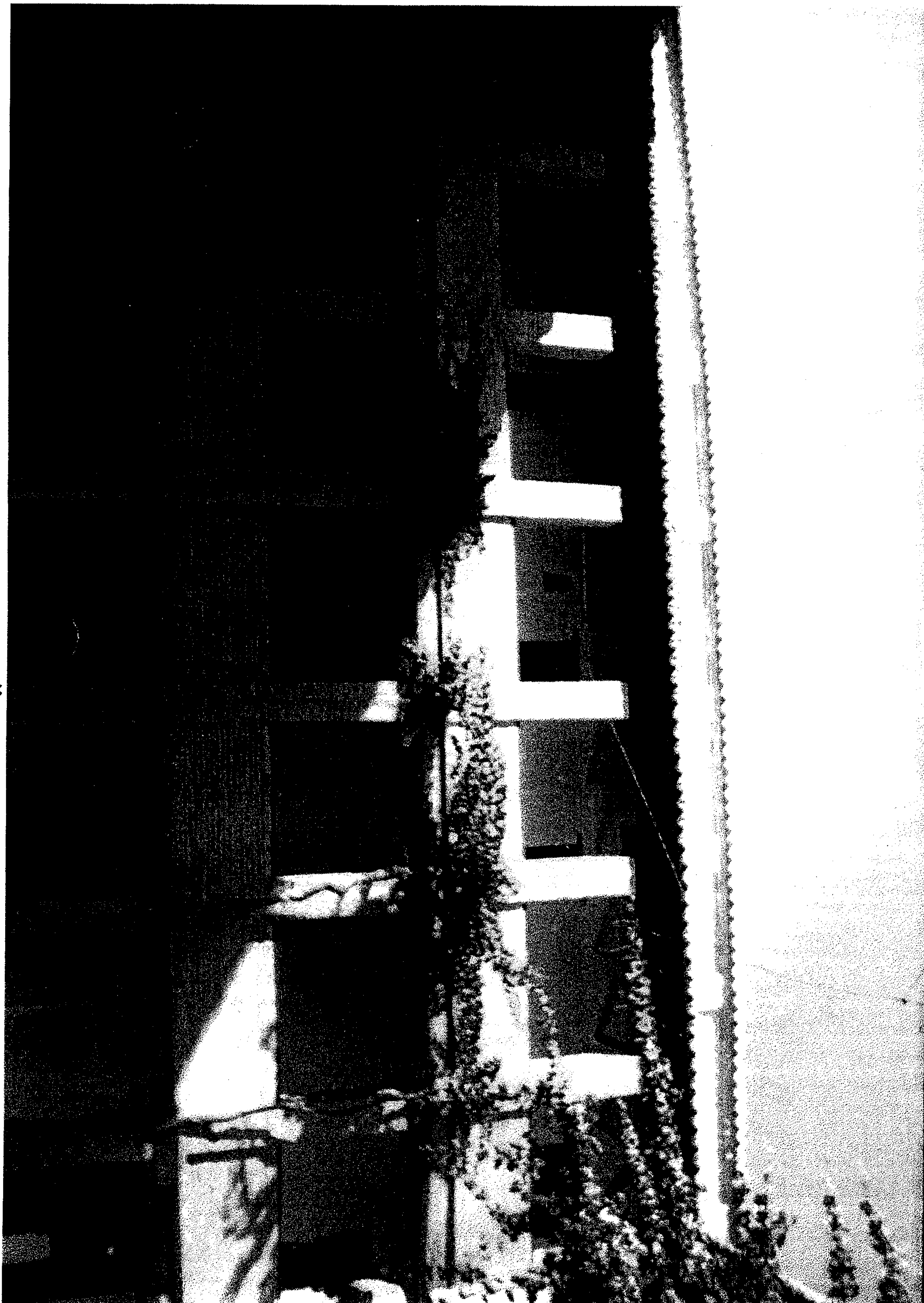
Si ocurriera que alguna comarca de allende el mar, o gentes de aquel país, quedaran bajo nuestra obediencia, observaréis con respecto a ellos las mismas normas seguidas con nuestros restantes territorios de al-Andalus.

Si sobreviniera algún daño de parte de vuestros súbditos, o de los habitantes de vuestras villas, a alguno de nuestros vasallos, o habitantes de nuestros lugares de al-Andalus, o de los situados en el país de allende el mar, Vos habéis de procurar la reparación de aquel daño en el acto, en el mismo instante, tal como en vuestra carta ofrecéis hacerlo.

Accedemos, igualmente, a que vengan a nuestro país todos los que deseen comerciar en cualquier clase de mercancías de vuestro país, que tengan por conveniente. Se les permitirá exportar cuantos artículos deseen, y se hallarán en completa seguridad sus personas y sus bienes, sin más que satisfacer los obligados derechos, con arreglo a la tasa acostum-


الطرق البحرية والبرية التي سلكها الأندلسيون
في رحلاتهم وتجارتهم الى البلدان الإسلامية
(٦٣٥ - ٨٩٧هـ)
الطرق البحرية
الطرق البرية
البحر الأبيض المتوسط
الخليج العربي
غرناطة
مالقة
طنجة
سبتة
تلمسان
تاهرت
الجزائر
بجاية
عنابة
تونس
طرابلس
برقة
اجدابية
اوجلة
زويلة
غدامس
غات
ورقلة
سجلماسة
مراكش
ولاتة
تمبكتو
كاو
ساتاندنغ
الإسكندرية
القاهرة
الفيوم
اسيوط
أسوان
قبرص
كريت
قونية
حلب
حماة
حمص
اللاذقية
طرابلس
عكا
دمشق
القدس
تبوك
ينبع
المدينة
جدة
مكة
صنعاء
ذمار
تعز
عمان
مسقط

ملحق رقم (١٢)



Qāsim. hijo de ʿAbd Allāh al-Saqqā. vecino de Málaga. Le tomaron en aquella partida de trigo seiscientas catorce copas del mismo.

Mūsa, hijo de Muḥammad al-Kawāb, vecino de Málaga. Le cogieron trescientas sesenta y una copas de trigo.

Muḥammad, hijo de Muḥammad al-Garrāṭišī (?). Le cogieron trescientas cincuenta y cuatro copas

Muḥammad, hijo de Yaḥyà, hijo de Ḥumayd al-Amīn. Le cogieron mil seiscientas ochenta y una copas de aquel trigo.

Nos consta que los cinco individuos nombrados son naturales de nuestros dominios, y que la cantidad que se les cogió es la que va detallada, con cada uno de sus nombres.

El saludo corresponde al vuestro, repetida y cordialmente.

Ha sido escrita por orden del Príncipe, siervo de Dios, Yūsuf, hijo del Príncipe de los Creyentes Abū-l-Walid Ismāʿīl, hijo de Faraŷ, hijo de Naṣr — ¡Dios le fortalezca con su apoyo! —, el décimo del venerado *šaʿbān* del año 745.

Esto es válido.

Número 80 del Archivo. Dimensiones: 26 por 18. Papel blanco.

60

Carta de Yūsuf I de Granada a Pedro IV de Aragón, con reclamaciones de cierto trigo robado por barcos aragoneses, a las que hace referencia el documento anterior.

10 de *šaʿbān* de 745 = 17 de septiembre de 1344.

السلطان الاجل المرفع المكرم الاوفى المشكور المبرور الاخلص ذون بطره ملك ارغون وسلطان بلنسية وسرذانية وقرصغة وميورقة وقمط برجلونة وصل الله عزته بتقواه واسعده بطاعة الله ورضاه مكرم مملكته وحافظ عهده الشاكر لمذهبه فى الوفاء وقصده الامير عبد الله يوسف ابن امير المسلمين ابى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر سلطان غرناطة ومالقة والمرية ووادى اش وما اليها وامير المسلمين اما بعد فانا كتبناه اليكم من حمراء غرناطة حرسها الله وليس بفضل الله سبحانه الا الخير الاكمل واليسر الاشمل والحمد لله كثيرا ومملكتكم مرفعة الجانب معلوم ما لها فى الوفاء من حسن المذاهب وموجبه اليكم هو ان تجارا من اهل مالقة اوسقوا بانفا من العدوة قمحا فى جفن النصرانى بون ناط بشك من اهل بلنسية وذلك فى شهر ربيع الاول من عام التاريخ الموافق لشهر يوليه المتصل باغشت واشترطوا معه ان يوصله الى مالقة فى جملة ما اوسق اهل العدوة فخرج على الجفن المذكور وهو قد قارب مرسى مالقة ثلاثة اجفان للنصرانى قليم قطاله من ارض برجلونة واستولى على الجفن بما كان فيه من الطعام وغيره وكان فى ذلك الجفن لناسنا اهل مالقة ما يصلكم به التفسير طى هذا الذى عليه علامتنا فنريد منكم ايها السلطان المعظم ان تعملوا فى ذلك ما هو المعلوم من وفائكم وتامروا بان يصرف على ناسنا طعامهم او قيمته وغير ذلك مما اخذ لهم حسبما يقتضيه

التفسير المذكور واعلموا اننا ما كتبنا اليكم فى هذه القضية الا ما اثبتت العقود بمقدار الطعام الذى اخذ لناسنا بالشهادة على بون ناط انه قبضه وعقود بتاريخ اخذه وانه فى وسط الصلح ونحن ننتظر ما يكون من عملكم فى الانصاف من ذلك فنشكره لكم ابلغ الشكر وقد قدم اصحاب الطعام الواصل (sic) بهذا الكتاب اليكم برسم قبض طعامهم وهذا قصدنا منكم وانتم تعملون فيه ما يليق بسلطانكم والله يصل سعادتكم بتقواه وييسركم لما يرضاه والسلام يراجع سلامكم كثيرا اثيرا كتب فى العاشر لشعبان المكرم عام خمسة واربعين وسبعماية عرف الله بركته

صح هذا

Al egregio, excelso, honorable, fidelísimo, digno de gratitud, altamente reputado, de elevados sentimientos, el Monarca D. Pedro, Rey de Aragón, Señor de Valencia, Cerdeña, Córcega y Mallorca y Conde de Barcelona. ¡Dios, con su poder, le preste incesantemente la protección a que debe su grandeza, y le conceda la dicha de serle obediente y merecer su divina complacencia!

El que mucho respeta a Su Majestad, el que le guarda fidelidad inquebrantable, el agradecido a la lealtad de su proceder y sentimientos, el Príncipe, siervo de Dios, Yūsuf, hijo del Príncipe de los Creyentes Abū-l-Walīd Ismā'īl, hijo de Faraŷ, hijo de Naṣr, Sultán de Granada, Málaga, Almería y Guadix y sus respectivas demarcaciones y Príncipe de los Creyentes.

Después de lo dicho, os escribimos la presente desde la Alhambra de Granada. ¡Dios vele por ella!

Por la merced de Dios — ¡glorificado sea! —, nada ocurre que no sean bienes de todo género y dichas en todos sentidos. ¡Muchas gracias a Dios! Vuestra Majestad goza de una elevada consideración, y es notoria la lealtad de su excelente proceder.

El motivo de escribiros la presente, es que unos mercaderes, vecinos de Málaga, cargaron en Anfa, allende el mar, cierta cantidad de trigo, en la nave del cristiano ¿Bonanat Bosch?, vecino de Valencia, en el mes de *rabī'* primero del año de la fecha, que corresponde al mes de junio, inmediato a agosto, y ajustaron con él que lo llevara a Málaga, con todo lo demás que habían cargado las gentes del otro lado del mar.

Hallándose ya la nave próxima al puerto de Málaga, la atacaron tres navíos del cristiano Guillem Cohello (?), de tierras de Barcelona, y se apoderó de ella con el trigo y todo lo demás que en ella iba.

De lo que había en la citada nave, pertenecía a vasallos nuestros, vecinos de Málaga, lo que se especifica en la relación que con ésta se incluye y que lleva nuestra suscripción. [Documento **59**].

Deseamos de Vos, ¡oh, Rey magnífico!, que procedáis en esto con arreglo a vuestra reconocida lealtad, y ordenéis que sea restituído a nuestros vasallos su trigo, o el importe del mismo, y todo lo demás que les cogieron, con arreglo a lo que figura en la expresada relación. Y sabed que en el caso presente sólo hemos puesto por escrito lo que consta en las actas acerca de la cantidad del trigo cogido a nuestros vasallos, con la de-

59

Carta de Yūsuf I de Granada a Pedro IV de Aragón, enviándole la lista de la cantidad de trigo apresado a unos súbditos del Rey naṣarī en una nave valenciana.

10 de *šaʿbān* de 745 = 17 de diciembre de 1344.

وصل الله السلطان المرفعى دون بطره ملك ارغون سعادة فى رضوانه وضاعف له بذلك مواهب احسانه
هذا التفسير هو الذى صح عندنا بالعقود الثابتة انه اخذ لاهل بلادنا فى جفن بون ناط باشك من اهل بلنسية حسبما يذكر

على بن ابراهيم بن قاسم من اهل مالقة اخذ له من ذلك الطعام قفيزان من اقفزة انفا كل قفيز منهم فيه ماية قدح من قمح واحدة وعشرون قدحا من اقداح الاندلس يجب للقفيزين مايتا قدح ثنتان واربعون قدحا انتهى على ملحق من قمح

قاسم بن عبد الله السقاء من اهل مالقة اخذ له فى ذلك الطعام ستماية قدح واربعة عشر قدحا من القمح انتهى

موسى بن محمد الكواب من اهل مالقة اخذ له من ذلك الطعام ثلاثماية قدح واحد وستون قدحا من القمح انتهى

محمد بن محمد الغرطشى اخذ له من ذلك القمح ثلاثماية قدح واربعة وخمسون قدحا انتهى

محمد بن يحيى بن حميد الامين اخذ له من ذلك القمح الف قدح واحد وستماية قدح وثمانون قدحا انتهى

هذه الاسماء الخمسة هى التى ثبت عندنا ان اهلها من بلادنا وان قدر ما اخذ لهم ما فسر باسمايهم والسلام يراجع سلامكم كثيرا اثيرا وكتب عن امر الامير عبد الله يوسف ابن امير المسلمين ابى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ايده الله بنصره بتاريخ العاشر لشعبان المكرم عام خمسة واربعين وسبعماية

صح هذا

Dios conceda al excelso Monarca D. Pedro, Rey de Aragón, una felicidad constante, ajustada a su divina complacencia, y dupliquele, merced a ésta, los favores de su generosidad.

Esta relación contiene lo que nos consta, en virtud de documentos debidamente autorizados, que fué cogido a los naturales de nuestros dominios, en la nave de ¿Bonanat Bosch?, vecino de Valencia, según va indicado.

ʿAlī, hijo de Ibrahīm, hijo de Qāsim, vecino de Málaga. Le cogieron dos cahices de trigo de la medida de Anfa, cada uno de los cuales contiene ciento veintiuna copas de trigo de las usadas en al-Andalus. Resultan, por tanto, para los dos cahices doscientas cuarenta y dos copas. — Fin en lo referente al trigo.

Merced a la generosidad de Dios y al don de bendición de que goza el reinado de mi señor el Sultán — ¡Dios afirme su poder y le preste su ayuda! — no hay de nuevo sino bienes y prosperidad, gracias a Dios.

Motiva el envío de la presente carta el haber llegado a este vuestro buen amigo carta vuestra, en la que pedís noticias acerca de la tregua concertada, y este vuestro amigo os hace saber que ha escrito a su señor el Sultán — ¡Dios afirme su poder y le preste su apoyo! — consultándole acerca de lo mismo.

Pero deseo de Vos que suspendáis las incursiones y prohibáis las correrías y las revueltas por espacio de veinte días; y yo lo haré asimismo, y prohibiré que se causen daños y se realicen incursiones en vuestro territorio durante los citados veinte días, tiempo que tardará en llegar la respuesta de mi señor — ¡Dios afirme su poder y le preste su apoyo! —. Si ha de haber paz, os lo haré saber y os lo escribiré, y si ha de haber guerra, también os informaré en todo caso. Sabedlo así y haced lo que os indico en lo tocante a la prohibición de las incursiones. Que Dios os favorezca incesantemente y os otorgue la paz y su misericordia.

Ya ha sido satisfecha vuestra demanda en lo concerniente al asunto del redentor de cautivos, Pedro de Lerma, y de los cristianos que con él se hallan, los cuales han quedado en libertad y se han marchado sanos y salvos. Tenedlo, pues, por sabido, y que Dios os favorezca incesantemente. Él os dé la eterna salvación.

Es fecha el miércoles, dieciocho de *ŷumādà* segundo del año setecientos dieciséis.

Así Dios os engrandezca con su protección. Hacedme saber lo que os parece acerca de los veinte días, para que yo obre conforme a vuestros deseos.

Dios os haga constantemente objeto de su amor y os dé la eterna salvación.

Número 9 del Archivo. Dimensiones: 22.5 por 16. Papel. Deteriorado por la presión del sello, puesto encima de la dirección al destinatario, y por destrozos que ocasionó la polilla.

5

Reclamación de ¿Ismāʿīl I? de Granada a Jaime II de Aragón, con motivo de una piratería.

3 de *muḥarram* de 723 = 12 de enero de 1323.

السلطان الاجل المكرم المرفع المبرور الوفى المشكور المشهور الاخلص . . . . . وسلطان بلنسية وسردانية
وقرصغة وقمط برجلونة وصل الله عزته بتقواه . . . . . معظم مملكته وشاكر قصده ومريد الخير له الامير عبد الله
. . . . . كتبناه اليكم من حمراء غرناطة مهدها الله ولا متعرف بفضل الله تعالى . . . . . الاجمل والحمد لله
كثيرا وعن العلم بمحلكم المشهور ووظائكم المشكور . . . . . وجب به تعريفكم ان جفنا توجه من مُتّرايل

من ارضنا الى هُنَيْن فأوْس (?) ..... جفن لاهل بلنسية كان صاحبه برنقير قلفاط من اهلها ولما اد..... ناس
ومالٍ سرحي منهم ثمانية اشخاص من اهل الاندلس وامسك من اهل الا ..... انهم من اهل الاندلس
احدهم ولد البُقَيق الحجام من اهل حضرتنا والاخر (?) ..... يعرف باحمد الاعرجي الدُلري والاخر احمد البحرى
من المنكب وهاولاء ..... من اهل بلادنا واخذ ايضا من مال اهل بلادنا للناس الذين سرحهم ..... التفسير
طى هذا فنريد منكم ايها السلطان المعظم ان تعملوا ..... وفائكم وحسب عهدكم وما اشتهر عنكم فى
جميعي الارض من الو ..... هاولاء المسلمين الثلاثة وما اخذ فى ذلك الجفن من اموال اهل ..... وهاولاء
الاشخاص الثلاثة الذين سميناهم ما هم الا من اهل بلادنا اما ولد البقيق الحجام فمن اهل حضرتنا غرناطة
معلوم عند جميعي الناس واما احمد الاعرجي فمن اهل وادى اش واما احمد البحرى فمن اهل المنكب من
بلادنا فلا يلحقكم فيهم شك فان كان احدهم قد قال خلاف ذلك فلا قاله الا خوفا من الموت وبعد الامتحان
فانتم بما عندكم من المعرفة بمثل هاذه الأمور لا يجوز عليكم فيها الباطل وانتم تفعلون فى ذلك ما نشكره
لكم ونقابلكم بمثله ومما نعرفكم به ان غيلوطا من المرية لناس من اهلها سافروا فيه الى لَقَنْت من بلادكم
برسم التجارة وجلب السلعي ثقة بصلحكم معنا فبينما هم بمرسى لَقَنْت يوسقون سلعهم دخلت عليهم
قرقورة واخذت منهم شخصا من المسلمين وما كان عندهم من الاسقاط فشكوا بذلك الى اهل لقنت وانصفوهم
بعض نصف ثم انهم اقلعوا برسم المرية فاتبعهم شَيْطِيّ حتى ادركهم بالقَبْطَة واستولى على الغيلوط وعلى
جميعي ما كان فيه من الوسق واخذ فيه امراتين وصبيتين وصبيا وخرجي سائر ناسه هاربين بالعوم وتوجه ذلك
الشيطى بجميعي ما اخذ الى لقنت والمدَّور والمَلّاحَة وباعوا ذلك بها وفى هذه الايام وصلت الى المرية بعض
سلعي ذلك الغيلوط من ارضكم فهذا شرحي القضية فى ذلك فاننا لما كتبنا لكم فيها اولا عرفتم انه ذُكِر لكم
ان المراتين والصبيتين والصبى حُمِلوا الى يابسة فان كانوا حملوا اليها فما حملوا الا من لقنت وقد عرفتم شروط
الصلحي وأن الحق فى هذه القضية ان يكون خلاصها من عندكم فنريد منكم ان تعملوا ايضا فى هذه القضية
ما هو المعلوم من وفائكم بالعهد وتامروا بصرف هذا الغيلوط ومن أُخِذ فيه من الناس بالبحث عنهم حيث
كانوا بيابسة او غيرها وردهم وتوجيههم الينا ..... فى ذلك نشكر لكم ..... الثلاثاء الثالث لشهر محرم
مفتتحي عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة عرف الله ..... افتتاحه بمنه وفضله
صحي هذا انتهى

Al Monarca egregio, honorable, excelso, excelentemente reputado, leal, digno de gratitud, renombrado, de elevados sentimientos [D. Jaime, Rey de Aragón] [1] y Rey de Valencia, Cerdeña y Córcega, y Conde de Barcelona. ¡Dios lo engrandezca incesantemente con su protección, por el temor que hacia Él se alberga en su corazón ..... !

..... El que mucho respeta a vuestra Real Majestad, el agradecido a sus propósitos, el que le desea todo bien, el Príncipe, siervo de Dios .....

Os escribimos desde la Alhambra de Granada, ¡el Señor rija sus destinos!

Por el favor de Dios — ¡ensalzado sea! — sólo hay que dar noticia de ..... más im-

1 Consta el nombre en la dirección, al dorso del documento, que dice así:
السلطان الاجل المكرم المرفعي المبرور الاوفى المشكور المشهير الاخلص دون جَاقْمِى ملك أرغون وسلطان بلنسية وصاحب
سردانية وقرصقة وقمط برجلونة وصل الله عزته بتقواه واسعد ورضاه

المصـــادر

أ ـ المصادر المخطوطة :

- ابن الأزرق : أبو عبدا الله شمس الدين محمد بن علي الغرناطي (٨٩٦هـ) ،
روضة الأعلام في التعريف بمكانة اللغة العربية في الإسلام ، مخطوط ، نسخة مصورة لدى الباحث .
- ابن باق : أبو الحسن علي بن محمد بن علي(ت ق ٨) ،
زهرة الروض في تلخيص تقدير الفرض ، مخطوط نسخو مصورة عن نسخة تطوان مهداة للباحث من حسن الوراكلي .
- ابن الخطيب : لسان الدين محمد عبدا الله السلماني (ت٧٧٦هـ) ،
الإحاطة في أخبار غرناطة ، مخطوط الأسكوريال رقم ١٧٥٥ .
- السراج : يحيى بن أحمد بن يحيى النفزي الحميري (٨٤٨هـ) ،
فهرسة السراج ، مخطوط نسخة مصورة عن نسخة الخزانة العامة رقم ٢٦٤٣ .
- ابن عاصم : أبو يحيى محمد بن أبي بكر (ت ٨٥٧هـ) ،
شرح ابن عاصم على تحفة أبيه ، مخطوط نسخة أصلية ملك الباحث .
- ابن فرحون : محمد بن فرحون اليعمري (ت ٧٩٩هـ) :
كتاب نصيحة المشاور وتسلية المجاور ، مخطوط نسخة مصورة مهداة للباحث من عبدالعزيز العبيدي .
- ابن لب : أبو سعيد فرج بن قاسم (ت ٧٨٢هـ) ،
كتاب ينبوع العين الثرة في تفريع مسألة الإمامة بالأجرة ، مخطوط نسخة مصورة خاصة بالباحث .

- مجهول :
مجموع فتاوى علماء غرناطة ، المعروفة بالحديقة المستقلة النضرة في الفتاوى الصادرة من علماء الحضرة ، نسخة مصورة عن مخطوط الأسكوريال ١٠٩٦ .
- المنتوري : أبو عبدا لله محمد بن عبدالملك بن علي (٨٣٤هـ) ،
فهرسة المنتوري ، مخطوط نسخة مصورة عن نسخة الخزانة العامة ، الرباط ، برقم ٢٦٦٧ .
- النباهي :أبو الحسن علي بن عبدا لله بن الحسن المالقي كان حياً سنة (٧٩٣هـ) :
نزهة البصائر والأبصار ، نسخة مصورة عن مخطوطة مكتبة الأسكوريال رقم ١٦٥٣ .
- ابن هذيل : أبو الحسن علي بن عبدالرحمن (ت ق ٨) ،
تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس ، نسخة مصورة مهداة للباحث من موسى رزق .

ب ـ الوثائق :

- وثائق من أرشيف مملكة أرغون
DOCUMENTOS ARABES DIPLOMATICOS DELA CORONA DEL ARAGON .
الوثيقة رقم (٣) ، الوثيقة رقم (٥) ، الوثيقة رقم (١٩) ، الوثيقة رقم (٢٠) ، الوثيقة رقم (٢١) ، الوثيقة رقم (٢٢) ، الوثيقة رقم (٥٩) ، الوثيقة رقم (٦٠) .

جـ - المصادر المطبوعة :

- ابن الأحمر : أبو الوليد إسماعيل بن يوسف (ت ٨٠٧هـ) ،
* مستودع العلامة ومستبدع العلامة ، تحقيق محمد التركي التونسي ، محمد بن تاويت ، المركز الجامعي للبحث العلمي (د.ت) .
* نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان ، حققه وقدم له محمد رضوان الداية وسماه أعلام المغرب والأندلس ، ط٢، بيروت ١٤٠٧هـ .
- الإدريسي : أبو عبدا لله محمد بن محمد بن عبدا لله بن إدريس الحمودي الحسني (ت٥٦٠هـ) :
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، عالم الكتب ط١ جزءان ١٤٠٩هـ .
- الأدفوي : كمال الدين جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨هـ) ،
الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، تحقيق سعد محمد حسن ، مراجعة طه الهاجري ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م .
- ابن إياس : محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ) :
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ستة مجلدات ، حققها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٤٠٤هـ ، ط٢ .
- ابن بصال :
كتاب الفلاحة نشره وعلق عليه خوسيه ماريه ، ومحمد عزيمان ، تطوان ١٩٥٥م .
- ابن بطوطة : أبو عبدا لله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ) :
رحلة ابن بطوطة ، دار صادر ، بيروت ١٤١٢هـ .
- البغدادي : صفي الدين بن عبدالمؤمن (ت ٧٣٩هـ) ،
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع وهو مختصر معجم البلدان لياقوت ، تحقيق علي البجاوي ، ثلاثة أجزاء ، دار المعرفة ، بيروت ١٣٧٤هـ .

- البلوي : خالد بن عيسى ،
تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، مقدمة وتحقيق الحسن السائح ، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشتركة بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة ، جزءان ، د .ت .

- ابن البيطار : أبو محمد عبدا الله بن أحمد (ت ٦٤٦هـ) ،
الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، حققه محمد العربي الخطابي ، دار الغرب الإسلامي ، المطبعة الأولى ١٩٩٠م ، بيروت .

- التنسي : محمد بن عبدا الله (ت ٨٩٩هـ) ،
تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرر والعقيان ، حققه وعلق عليه محمود بو عياد ، الجزائر ، ١٤٠٥هـ .

- ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٧هـ) ،
رحلة ابن جبير ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨١م .

- الجرنائي : علي ، (عاش في العصر المريني) ،
جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، ط ١٣٨٧هـ .

- ابن الجزري : محمد بن محمد بن شمس الدين (ت٨٣٣هـ) ،
غاية النهاية في طبقات القراء ، عني بنشره ج برجستراسر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط٣ ، ١٤٠٢هـ .

- ابن جزي : عبدا الله بن محمد الكلبي(ت ق ٨) ،
كتاب الخيل مطلع اليمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال ، تحقيق محمد العربي الخطابي ، دار الغرب الإسلامي بيروت ط١٤٠٦هـ .

- أبو جعفر البلوي : أحمد بن علي البلوي الوادي آشي ، (ت ٩٣٨هـ)،
ثبت أبي جعفر ، دراسة وتحقيق . د. عبدا الله العمراني ، دار الغرب الإسلامي ، ط الأولى ١٤٠٣هـ .

- ابن الجياب :أبو الحسن (ت ٧٤٩هـ) :
ديوان أبي الحسن الجياب ، نشر ماريه خيسوس بيقيرا ، مدريد ، ١٩٧٢م .
- ابن الحاج العبدري : أبو عبدا لله محمد بن محمد (ت ٧٣٧هـ) :
المدخل المسمى بمدخل الشرع الشريف على المذاهب أربعة أجزاء ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، د. ت .
- حاجي ، خليفة : مصطفى بن عبدا لله (ت ١٠٦٧هـ) ،
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، أربعة أجزاء حققه محمد شرف الدين ، دار إحياء التراث العربي (د. ت) .
- ابن حجر : شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) :
* إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، ٩ أجزاء ، دارالكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ .
* الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، أربعة أجزاء ، دار الجيل ، بيروت ط ١٤١٤هـ .
- الحميري : أبو عبدا لله محمد بن عبدالمنعم (ت تقريباً ٨٢٧هـ) ،
صفة جزيرة الأندلس ، نسخة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، عني بنشرها ليفي بروفنسال ، د. ت .
- الحنفي : عبدالباسط بن خليل :
الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم ، تحقيق برنشفك ، باريس ١٩٣٦م ترجمه إلى اللغة الفرنسية برنشفيك .
- أبو حيان : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي .
البحر المحيط ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ .
- ابن خاتمة : أحمد بن علي بن محمد بن علي (ت ٧٧١هـ) ،
ديوان ابن خاتمة ، الأنصاري الأندلسي ، منشورات دار الحكمة ١٣٩٩هـ ، تحقيق محمد رضوان الداية .

- ابن الخطيب : لسان الدين محمد عبدا الله السلماني (ت ٧٧٦هـ) ،
* الإحاطة في أخبار غرناطة : تحقيق محمد عبدا الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة المجلد الأول ط . الثانية ١٣٩٣هـ .
المجلد الثاني ط الأولى ١٣٩٤هـ .
المجلد الثالث ط الأولى ١٣٩٥هـ .
المجلد الرابع ط الأولى ١٣٩٧هـ .
* الإحاطة ، نصوص لم تنشر ، تحقيق عبدالسلام شقور ، كلية الآداب ، تطوان ، المغرب ١٩٨٨م .
* أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام جـ ٢ نشرليفي بروفنسال ط٢ بيروت دار المكشوف ، ١٩٥٦م .
* أوصاف الناس في التواريخ والصلات ، تحقيق محمد كمال شبانه ، طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة ، (د. ت) .
* ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، دراسة وتحقيق . د. محمد شريف قاهر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ط١ ، ١٩٧٣م .
* " ديوان لسان الدين بن الخطيب " حققه د. محمد مفتاح ، جزءان ، دارالثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ط ١٤٠٩هـ .
* رقم الحلل في نظم الدول ، طبع المطبعة العمومية سنة ١٣١٦هـ .
* ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، تحقيق محمد عبدا الله عنان جزءان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠ .
* الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ط ١٩٨٣م .
* كناسة الدكان بعد انتقال السكان ، تحقيق محمد كمال شبانه ، مراجعة حسن محمود ، القاهرة ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر (د.ت) .

* اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، تحقيق محيي الدين الخطيب ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٤٠٧هـ .

* معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، تحقيق محمد كمال شبانه ، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة ، ١٣٩٦هـ .

* نفاضة الجراب في علالة الاغتراب جـ٢ نشر وتعليق د. أحمد مختار العبادي ، مراجعة د. عبدالعزيز الأهواني (د.ت) .

* نفاضة الجراب جـ ٣ تحقيق د السعدية ط١ ، ١٤٠٩هـ .

- الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي(ت ٤٦٣هـ) ،

الكفاية في علم الرواية تقديم محمد الحافظ التيجاني ، سلسلة ذخائر المكتبة الإسلامية ، نشر دار الكتب الحديثة ، مصر ، مطبعة السعادة (د. ت) .

- ابن خلدون : أبو زيد عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) ؛

* العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ٧ أجزاء ، بيروت ١٣٩٩هـ .

* مقدمة ابن خلدون ، دار الجيل ، بيروت .

- أبو الخير الإشبيلي :

كتاب الفلاحة ، مدريد ١٩٩١م .

- ابن أبي دينار : محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ألف كتابه ١٠٩٢هـ) ،

المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، دار المسيرة ، لبنان مؤسسة سعيدان تونس ط٣ ، بيروت ١٩٩٣م .

- ابن رزين : التجيبي (ألف الكتاب في بداية عصر بني مرين) :

فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان ، تقديم وتحقيق محمد بن شقرون ، مطبعة الرسالة ، الرباط ١٩٨١م .

- ابن الزبير : أبو جعفر أحمد بن إبراهيم (٧٠٨هـ) ،
غرباء لأندلس ، منشور ضمن كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لأبي عبدا لله بن عبدالملك المراكشي ، القسم الثاني من السفر الثامن ، تحقيق محمد بن شريفة ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية .
- إبن أبي زرع : أبو الحسن علي بن عبدا لله الفاسي (٧٢٦هـ) ،
* الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، ١٩٧٢م .
* الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ،١٩٧٢م .
- ابن زرقاله : أبو جعفر أحمد (ت ق ٨) ،
رائق التحلية في فائق التورية ، حققه وقدم له محمد رضوان الداية ، منشورات دار الحكمة ، دمشق د. ت .
- الزركشي : أبو عبدا لله محمد بن إبراهيم (ت بعد ٨٩٤هـ) ،
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق وتعليق ، محمد ماخور ، المكتبة العتيقة بتونس ، د. ت .
- الزهري : أبو عبدا لله محمد بن أبي بكر ،
كتاب الجغرافيا ، اعتنى بتنقيحه محمد حاج صادق ، نشر مجلة الدراسات الشرقية ، دمشق ١٩٦٨م .
- السخاوي : شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (٩٠٢هـ) ،
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ستة مجلدات تحتوي١٢ جزءاً ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د.ت .

- ابن سعيد : أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ) ،
* اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الإسلامية ، بيروت ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ .
* رايات المبرزين وغايات المميزين ، حققه وعلق عليه محمد رضوان الدايه ، دمشق ط١ ، ١٩٨٧م .
* كتاب الجغرافيا ، حققه إسماعيل العربي ، منشورات المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع ط١ ، ١٩٩٧م .
* المغرب في حلى المغرب جزءان حققه وعلق عليه د. شوقي ضيف ط٣ ، دار المعارف .
- ابن سيده : أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـ) ،
كتاب المخصص ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت (د. ت) .
- السيوطي : جلال الدين (ت ٩١١هـ) ،
بغية الوعاه في طبقات اللغويين والنحاه ، جزءان ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت (د. ت) .
- ابن الشاط : القاسم بن عبدا لله (ت ٧٢٣هـ) ،
الإشراف على أعلى شرف في التعريف برجال سند البخاري من طريق الشريف أبي علي بن أبي الشرف ، تحقيق إسماعيل الخطيب ، منشورات جمعية البعث الإسلامي ، تطوان المغرب ١٤٠٦هـ .
- الشاطبي : أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الأندلسي (ت ٧٩٠هـ) :
* الإفادات والإنشادات ، تحقيق محمد أبو الأجفان ، مؤسسة الرسالة بيروت ط٣ ، ١٤٠٨هـ .
* فتاوى الإمام الشاطبي حققها وقدم لها محمد أبو الأجفان الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ تونس .

- الشفشاوني : محمد بن عسكر الحسني (ت ٩٨٦هـ) :
دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، تحقيق محمد صبحي ، ط٢ الرباط ١٣٩٧هـ .
- ابن الشماع : أبو عبدا لله محمد بن أحمد (ألف كتابه سنة ٨٦١هـ) ،
الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تحقيق وتقديم د. الطاهر بن محمد المعموري ، الدار العربية للكتاب ١٩٨٤م .
- ابن عاصم : أبو يحيى محمد (٨٥٧هـ) ،
* جنة الرضا في التسليم لما قدر ا لله وقضى ، ثلاثة أجزاء ، تحقيق صلاح جرار ، دار البشير للنشر والتوزيع ، عمان الأردن ، ط ١٤١٠هـ .
* حدائق الأزاهر ، حققه وقدم له أبو همام عبداللطيف ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٤١٣هـ .
- عبدالكريم القيسي (ت بعد ٨٩٠هـ) :
ديوان عبدالكريم القيسي الأندلسي ، تحقيق جمعه شيخه ، محمد الهادي الطرابلسي ، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة ، قرطاج ، ١٩٨٨م .
- العثماني : محمد بن غازي (ت ٩١٩هـ) ،
الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون ، تحقيق عبدالوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ، ط٣ الرباط ١٤٠٨هـ .
- ابن عذارى : أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (ت بعد ٧١٢هـ) :
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، قسم الموحدين ، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ، محمد بن تاويت الطنجي وآخرين ، دار الثقافة للنشر والتوزيع الدارالبيضاء ، المغرب ، ط الأولى ١٤٠٦هـ .
- العقباني : أبو عبدا لله محمد بن أحمد بن قاسم (ت ٨٧١هـ) ،
كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر ، في حفظ الشعائر وتغير المناكر ، تحقيق علي الشنوفي ، نشر الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي بدمشق ١٩٦٧م .

- ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) ،
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، ثمانية أجزاء في أربعة مجلدات ، د. ت .
- العمري : يحيى بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ) ،
* مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، دولة المماليك الأولى دراسة وتحقيق دوريتا كرافولسكي ، نشر المركز الإسلامي للبحوث ، بيروت ١٩٨٦م ، ط ١٤٠٧هـ .
* مسالك الابصار في ممالك الأمصار من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر ، يتضمن القسم الأندلسي ، تحقيق وتعليق د.مصطفى أبو ضيف ، ط١ ، ١٤٠٩هـ .
- العيني : محمود بن أحمد بن موسى بدر الدين (ت ٨٥٥هـ) ،
عقد الجمان في تأريخ أهل الزمان ، تحقيق وتعليق عبدالرزاق الطنطاوي ، الزهراء ، الأعلام العربي ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٩هـ .
- ابن غازي : محمد المكناسي (ت ٩١٩هـ) ،
فهرس ابن غازي التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد ، تحقيق محمد الزاهر ، الدار البيضاء ١٣٩٩هـ .
- الغبريني : أحمد بن محمد بن عبدا لله أبو العباس (ت ٧١٤هـ) ،
عنوان الدراية ممن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، حققه وعلق عليه عادل نويهض ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩م .
- الغساني : أبو القاسم محمد بن إبراهيم الشهيربالوزير ،
حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار ، حققه محمد العربي الخطابي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٤٠٥هـ .
- ابن فرحون : إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري (ت ٧٩٩هـ) ،
الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب ، تحقيق وتعليق د. محمد الأحمدي أبو النور جزءان ، كلية دار التراث ، القاهرة ، د. ت .

- ابن فركون : أبو الحسن بن أحمد بن سليمان (ت بعد ٨٢٠هـ) ،
ديوان ابن فركون ، تقديم وتحقيق محمد بن شريفة ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .
- ابن القاضي : شهاب الدين أحمد بن محمد المكناسي ، أبو العباس (ت ١٠٢٥هـ) ،
* جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس القسم الأول ط ١٩٧٣م والثاني ١٩٧٤م ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ١٩٧٣م .
* درة الحجال في أسماء الرجال ثلاثة أجزاء ، تحقيق محمد الأحمد أبي النور ، المكتبة العتيقة ، تونس ، د. ت .
- القلصادي : أبو الحسن علي (٨٩١هـ) ،
رحلة القلصادي ، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان ، الشركة التونسية للتوزيع ، د. ت .
- القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ) ،
صبح الأعشى في صناعة الإنشا جـ ٥ ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.
- ابن القنفذ : أبو العباس ، أحمد بن حسين بن علي (٨١٠هـ) ،
الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلي ، عبدالمجيد التركي ، الدار التونسية للنشر ١٩٦٨م .
- لوثينا ، لويس سيكودي ، وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ، حققها وقدم لها ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد .
- ابن ليون : أبو عثمان بن أبي جعفر التجيبي (أتم كتابه سنة ٧٤٩هـ) :
كتاب إبداء الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة ، نشر Adon Emilico Garciagomy Granada , 1988 .
- المالقي : أبو القاسم بن رضوان (ت بعد ٧٧٥هـ) ،
الشهب اللامعة في السياسة النافعة ، تحقيق د. علي سامي النشار ، دارالثقافة ، الدار البيضاء ط١ ، ١٤٠٤هـ .

- المجاري : أبو عبدا لله محمد (ت ٨٦٢هـ) ،
برنامج المجاري ، تحقيق محمد أبو الأجفان ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢م .
- مجهول :
* بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب ، تحقيق عبدالوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٤٠٤هـ .
- مجهول :
* نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ، تحقيق الفريد البستاني ، مطبعة الفنون المصورة ، يوسكا العرائش ، المغرب ، د. ت .
- أبو محمد الرشاطي ، وابن الخراط الإشبيلي (ت ٥٨١هـ) :
الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار ، تقديم وتحقيق وتعليق إميليو مولينا وخاثينتوبوسك بيلا ، نشرالمجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، معهد التعاون مع العالم العربي ، مدريد ، ١٩٩٠م .
- المراكشي : أبو عبدا لله محمد بن عبدالملك (ت ٧٠١هـ) ،
الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة السفرالثامن القسم الأول تحقيق محمد بن شريفة ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ١٩٨٤م .
- ابن مرزوق محمد التلمساني (ت ٨٧١هـ) :
المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا ابي الحسن تحقيق ودراسة ماريا خيسوس بيقيرا ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٤٠١هـ .
- مظهرالنور الباصر في أمداح أبي الحجاج الملك الناصر ،
جمع أبي الحسين ابن فركون ، إعداد محمد بن شريفة ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٤١٢هـ .

- المقري : شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (١٠٤١هـ) ،
* أزهار الرياض في أخبار عياض ، خمسة أجزاء ، تحقيق وتعليق مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبدالحفيظ شلبي ، اللجنة المشتركة للتراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة ١٣٩٨هـ .
* الأندلس من نفح الطيب ، قدمت له نجاح العطار وأعده للنشر عدنان درويش ، محمد المصري ، منشورات دار الثقافة في الجمهورية السورية ، دمشق ١٩٩٠م .
* نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق د. إحسان عباس ، دارصادر ، بيروت ١٣٨٨هـ ٨ أجزاء .
- المقريزي : تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي عبدالقادر (ت ٨٤٥هـ) :
* السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ق٢ ، نشر محمد مصطفى زياده ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة القاهرة .
* كتاب المقفى الكبير ، ثمانية أجزاء ، تحقيق محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي ، ط١ ، بيروت ١٤١١هـ .
* كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، جـ ٢ ، دار صادر ، بيروت ، طبعة جديدة بالأوفست . د.ت .
- مهذب : رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأبصار وعجائب الأسفار وقف على تهذيبه أحمد العوامري بك ، ومحمد أحمد جاد المولى ، الجزء الأول طبع بالمطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٣٤م .
- النباهي : ابو الحسن بن عبدا لله بن الحسن (كان حياً ٧٩٣هـ) ،
تاريخ قضاة الأندلس ، المرقبة العليا فيمن يستحق القضا ، والفتيا ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٤٠٠هـ .

- النميري : إبراهيم بن الحاج ، (ت بعد سنة ٧٧٤هـ) ،
*فيض العباب وإفاضة قداح الزاب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب ، دراسة وإعداد محمد بن شقرون ، ط دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٩٠م .
* مذكرات إبراهيم بن الحاج النميري ، نشر حواشيه باللغة الفرنسية Alfred Louis ١٩٧٨م .
- النويري : محمد بن قاسم (ت بعد ٧٧٥هـ) ،
كتاب الإلمام بالأعلام فما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية ، جـ٢ تحقيق عزيز سوريال عطية ، ط دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ١٣٨٩هـ .
- ابن هذيل : علي بن عبدالرحمن (ت ق ٨) ،
حلية الفرسان وشعار الشجعان ، تحقيق وتعليق محمد عبدالغني حسن ، دار المعارف للطباعة والنشر ، د.ت .
- ابن هشام : عبدالملك ، (ت ٢١٨هـ) ،
السيرة النبوية ، حققها ووضع فهارسها مصطفى السقا وآخرون ، أربعة أجزاء ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ط١ ، ١٤١٥هـ .
- الوادي آشي : محمد بن جابر(ت ٧٤٩هـ) ،
برنامج الوادي آشي ، تحقيق محمد محفوظ ط٢ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت١٩٨١م .
- الوزان : الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي (ت بعد ٩٥٧هـ) ،
وصف إفريقيا ، جزءان ترجمه عن الفرنسية محمد حجى ، محمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ط٢ ، بيروت ١٩٨٣م .
- الونشريسي : أحمد بن يحيى بن محمد (٩١٤هـ) ،
المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والأندلس والمغرب ، ثلاثة عشر جزءًا أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف د. محمد محمود ، دار الغرب الإسلامي ١٤٠١هـ .

- ياقوت الحموي : أبو عبدا لله شهاب الدين ياقوت بن عبدا لله الرومي (٦٢٦هـ) ،
معجم البلدان خمسة أجزاء ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٤هـ .
- يحيى بن خلدون : أبو زكريا يحيى محمد بن الحسن (ت ٧٨٠هـ)
بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد جـ١ ، تقديم وتحقيق د. عبدالكريم حاجيات ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ١٤٠٠هـ ، و جـ ٢ مطبعة بونطانة الأخوين الجزائر سنة ١٣٢٨هـ .
- يوسف الثالث (ت ٨٢٠هـ) :
ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث ، جمعه وحققه عبدا لله كنون ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٢ ، ١٩٦٥م .

المراجـــع

- إبراهيم حركات :

المغرب عبر التاريخ ، جـ ٢ نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء، ط٣ ، ١٤١٤هـ .

- إبراهيم علي حسين :

تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية ، ط٣ ، ١٩٦٧م .

- أحمد دراج :

المماليك والفرنـج في القـرن التاسـع الهجـري الخـامس عشـر الميـلادي ، دار الفكـر العربي ، القاهرة ، ١٩٦١م .

- أحمد بن عامر :

الدولة الحفصية ، صفحات خالدة من تاريخنا المجيد ، دار الكتـب الشـرقية تونـس ، د. ت .

- أحمد مختار العبادي :

دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، د. ت .

- أحمد محمد رمضان :

المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، ط١ ، ١٣٩٧هـ .

- افرنج واشنطون :

قصر الحمـراء في الأدب والتـاريخ ، ترجمـة إسمـاعيل العربـي ، دار الرائـد العربـي ، بيروت ١٤٠٤هـ .

- إميليو غرسيه غومس :

أشعار عربية على جدران ونافورات الحمراء ، مدريد ، ١٩٨٥م .

- جمس مونرو :

وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة، ترجمها وعلق عليها د. محمد عبدا لله الشرقاوي ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، دار الهداية (د.ت) .

- الحسن بن محمد السائح :
* الحضارة الإسلامية في المغرب ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ط٢، ١٤٠٦هـ .
* منوعات ابن الخطيب ، تأليف وتحقيق ونشر ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ١٣٩٨هـ .
- حسين مؤنس:
رحلة الأندلس ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ط٢ ، ١٤٠٥هـ .
- حياة ناصرالحجي :
العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجري ، ط١ ، الكويت ١٩٨٠م .
- درويش النخيلي :
السفن على حروف المعجم ، ط٢، ١٩٧٩م .
- روبار برنشفك :
تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٢ إلى نهاية القرن ١٥م ، نقله إلى العربية حمادي الساحلي ، جزءان ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى بيروت ، لبنان ١٩٨٨ م .
- زاهر رياض :
الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٨م .
- زكي مبارك :
التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق . جزءان ، القاهرة ١٩٣٨م .
- سعد بن عبدا لله البشري :
* الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ .

* الطيب عند الأندلسيين حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، مطابع الصفا بمكة المكرمة ، ط١ ، ١٤١٨هـ .

- سعيد عبدالفتاح عاشور :

المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، د. ت .

- السيد عبدالعزيز سالم :

تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٨٤م .

- السيد عبدالعزيز سالم ، والعبادي :

تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام . دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٦٩م .

- شوقي أبو خليل :

مصرع غرناطة ، دار الفكر ، دمشق ط٢ ، ١٤٠٢هـ .

- عبده محمد العواجي :

الخلافات السياسية في الدولة النصرية ودورها في سقوط الأندلس رسالة ماجستير غير منشورة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية العلوم الاجتماعية .

- عبدالعال مكرم :

المدرسة النحوية في مصر والشام ، مؤسسة الرسالة ط٢ ، ١٤٠١هـ .

- عبدالعزيز الشناوي :

الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ ٢ مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

- عبدالقادر العافية :

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها خلال القرن العاشرالهجري والسادس عشرالميلادي ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م .

- عبدا لله السويسي :
تـاريخ ربـاط الفتـح ، مطبوعـات دار المغـرب للتـأليف والترجمة والنشـر سلسـلة التاريخ ، الرباط ١٣٩٩هـ .
- عبدا لله عبدالعزيز :
الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب ، معهد مولاي أبي الحسن ١٩٥٣م .
- عبداللطيف بن محمد الحميد :
موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس ، ط الأولى ١٤١٤هـ .
- عبدالهادي بوطالب :
وزيرغرناطة لسان الدين بـن الخطيـب السـلماني ، دار الكتـاب ، الـدار البيضـاء ، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م .
- عز الدين موسى :
النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي ، دار الشروق ، ط١ ، ١٤٠٣هـ .
- علي أحمد :
الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من القـرن الخـامس وحتـى نهايـة القـرن التاسـع الهجري ط١ ، ١٩٨٩ .
- علي حامد الماحي :
المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني ، بحوث جامعية ١٩٨٦م .
- علي حسن حسن :
الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين ، مكتبـة الخـانجي القاهرة ط١، ١٩٨٠م .
- كمال أبو مصطفى :
* الأحباس فيما بين القرنين الرابع والتاسع للهجرة ، دار نشر الثقافة ، شارع محـرم بك ١٩٨٩م .

* جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار للونشريسي ، دار نشر الثقافة ، الإسكندرية ١٩٩١م .

- كولان :

البارود عند المسلمين ، كتب دائرة المعارف الإسلامية ، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية ، إبراهيم خورشيد ، د. عبدالحميد يونس ، حسن عثمان ، ط١ بيروت ، ١٩٨٤م .

- ل . أ . ماير :

الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتي ، مراجعة وتقديم : د. عبدالرحمن فهمي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- لونورنو روجيه :

فاس في عصر بني مرين ، نشر مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ، بيروت ، نيويورك ، ترجمة نيقولا زيادة ، مكتبة لبنان ١٩٦٧م .

- ليفي بروفنسال : ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

- محمد داود التطواني :

تاريخ تطوان جـ ١ ط٢ تطوان ١٣٧٩هـ .

- محمد جابر الأنصاري :

التفاعل الحضاري بين المشرق والمغرب في آثار ابن سعيد ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٢م .

- محمد رزوق :

الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرن ١٦ ، ١٧ ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء ١٩٩١م .

- محمد بن شريفة :
البسطي ، آخر شعراء الأندلس ، دارالغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ،١٩٨٥م .
- محمد عبدالعزيز مرزوق ،
الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس ، دار الثقافة بيروت ، د. ت .
- محمد عبدا لله عنان :
* لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكري ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٨٨هـ .
* نهاية الأندلس وتأريخ العرب المتنصرين ، ط٤ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤٠٨هـ .
- محمد العربي الخطابي :
الطب والأطباء في الأندلس ، تحقيق محمد العربي الخطابي ، جزءان ، دار الغرب الإسلامي ، ط الأولى ١٩٨٨م .
- محمد بن علي الدكالي :
الاتحاف الوجيز ، تحقيق مصطفى بوشعرك ، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية
- محمد كمال شبانه ،
يوسف الأول بن الأحمر سلطان غرناطة ، لجنة البيان العربي ، مطبعة الرسالة ١٩٦٩م .
- محمد بن محمد مخلوف :
شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، دار الفكر للطباعة والنشر د. ت .
- محمد المنوني :
ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط (د. ت) .
- محمود إبراهيم حسن :
الخزف الإسلامي في مصر ، مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٨٤م .

- محمود أبو عياد :
جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري (١٥م) الجزائر ١٩٨٢م .
- مصطفى ناعمي :
الصحراء من خلال بلاد تكنه تاريخ العلاقات التجارية والسياسية (د . ت) .
- نبيل عبدالحي رضوان :
جهود العثمانيين لانقاذ الأندلس واستراده ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ١٤٠٨هـ .
- نعيم زكي فهمي :
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والشرق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣م .
- يحيى الجبوري :
الملابس العربية في الشعر الجاهلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٩م .
- يوسف شكري فرحات ،
غرناطة في ظل بني الأحمر ، ط١ ، بيروت ١٤٠٢هـ .

الدوريات :

- أحمد مختار العبادي :

* الأعياد في مملكة غرناطة، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريدVoLXV ، ١٩٧٠م .

* الزراعة في الأندلس وتراثها العلمي ، ندوة الأندلس الدرس والتاريخ ، جامعة الإسكندرية ، كلية الآداب ١٤١٤هـ .

- سحر السيد عبدالعزيز :

* علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب سقوطها ، مقالة منشورة بمناسبة انعقاد أعمال المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية حول الذكرى الخمسمائة لسقوط غرناطة ، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسيكة ، زغوان ١٩٩٣م .

* ملابس الرجال في الأندلس في العصر الإسلامي، ندوة الأندلس ، الدرس والتاريخ ، جامعة الإسكندرية ، كلية الآداب ، ١٤١٤هـ .

- سعد بن عبدا لله البشري :

* حياة التسلية والترفيه في المجتمع الأندلسي ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد الخامس ، المجلد الأول ، مارس ١٩٩٧م .

*كتاب جنة الرضا في التسليم لما قدر ا لله وقضى لأبي يحيى محمد بن عاصم مصدر من مصادر التأريخ الأندلسي ، مجلة عالم الكتب ، مجلد (الجماديان ١٤١٧هـ) .

* النظافة وسلامة البيئة في المجتمع الأندلسي ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد الرابع ، المجلد الأول ، مارس ١٩٩٦م .

- عباس الجراري :
أهمية الموسيقى والغناء في حضارة الأندلس ، مقالة ، مجلة التراث الحضاري المشترك بين أسبانيا والمغرب ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، سلسلة الدوريات ١٧ — ١٩ شوال ١٤١٢هـ غرناطة .
- عبدالجليل التميمي :
رسالة مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٤١م ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٣ سنة ١٩٧٥م .
- عبدالعزيز الأهواني :
سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ١٦ الجزء الأول ، مايو ١٩٥٤م .
- عبدالقادر زمامه :
نص أندلسي لم ينشر ، مجلة المناهل ، العدد ٢٦ السنة العاشرة ، جمادى الأولى ١٤٠٣هـ ، وزارة الشؤون الثقافية ، الرباط ، المغرب .
- عبدالقادر العافية ، إبراهيم أبو إسحاق الشاطبي الفقيه المفتي ،
مجلة دعوة الحق العدد ٢٩٧ السنة ٣٤ شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة ١٤١٣هـ إبريل ، مايو ، يونيه ١٩٩٣م وزارة الأوقاف ، الرباط .
- عبدا لله عبدالعزيز :
التطور الحضاري في مصب أبي الرقراق ، مجلة المناهل ، العدد ١٠ ، ١٩٧٧م .
- كمال السيد أبو مصطفى :
الأندلسيون وإسهاماتهم الحضارية منذ القرن السابع حتى أوائل القرن الحادي عشر ، مقالة منشورة في مجلة كلية التربية ، جامعة الإسكندرية ، العدد الأول ١٩٩٢م .
- محمد بن أحمد أشماعو :
مدينة سلا وابن الخطيب ، مجلة دعوة الحق ، العدد الخامس ١٤ مايو ١٩٧١م .

- محمد الأمين البزاز :
الطاعون الأسود في المغرب في القرن ١٤م ، مقالة منشورة بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، العدد السادس عشر .
- محمد زكريا عناني :
من أعلام فن التوشيح في الأندلس ، لسان الدين بن الخطيب ، ندوة الأندلس ، الدرس والتاريخ ، جامعة الإسكندرية ١٤١٤هـ .
- محمد الطالبي :
الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين ، مجلة الأصالة ، الجزائر ، عدد ٢٦ ، سنة ١٩٧٥م .
- محمد عبدا لله عنان :
وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجري ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الثاني مدريد ١٣٧٣هـ .
- ناصر الدين السعدني :
الجالية الأندلسية بالجزائر ومساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي ، مجلة أوراق ثقافية يصدرها المعهد الأسباني العربي للثقافة ، عدد ٤ ، ١٩٨١م .

المصادر والمراجع الأجنبية

- **A. Lafuntey Al cantra :**
Historia de Granada de , Greade . 1843- 1846 .
- **Amasia de Ros (A.) :**
la Corona de Aragon ylos estudos del norte de Africa Bercelona , 1951 .
- **Antonio Vives yescudero :**
monedas , Dinas Tia Arbigo Espanola Madrid , 1893 .
- **Arcut de Molina , :**
Nobleza de Andalucia, Seville 1788 .
- **H. de Bueza :**
De Las Cofas Posoron entre reyes de Granada, Madrid , 1808 .
- **Jose Antonio Conde :**
Historia de la Dominacion del los Arabes en Espana Madrid 1820 .
- **J. Bosgue, Mourol :**
gegrafia alarana de Granada , Saragossa 1962 .
- **J . Heers :**
Prgorbus iness contratracts of Medieval provence, selectecl Notu la from the cartularyol Graade Amatricof marsilles tor out (1981) .
- **L. E. To (A.) , REGIO (J.) FOVE R (J.M) :**
Introduccion ala Historia de Espana, 2, d Barcolona 1965 .
- **Made l car men Vill aun ueva Rico :**
Cosas Mezguitas y tienctas de los hulices de ras fias de Granada , Madrid , 1966 .
- **Pedro Carrillo de huete :**
Coronica del hal conero, de Juan . II pufilicacion espso calp, Madrid , 1953 .
- **PEREZ del Pulgar (Hernana) :**
Cornica de los senores reyes Catolicos don Fernando Ydona Isabel de Castilla Yde Aragon [B.A. E] Madrid 1935 .
- **R.P.A. Dozy :**
No msdesvete ments Arabes . Librairie du liban Riad Solhsquur Beirut .

PERIODIQUES

AL- Andalus , Revista , DELASESCUE LASDE ESTUDIOS ARABES DE MADRID YGRANADA VOL . I 1933 Fasc I
Vol . 7 , 1942 .
Vol XIII, 1948 .
Vol XXVIII, 1963 .
Vol XL Madrid 1977 .
Arte islamico en Granada propue sta Paraun museo de la Hambra, Granada , 1995 .
- Arts et Traditions Poruraires Tunis 1968 .
B. R. B. L. Boletin de la RealAcademia de Buenas le tras, Burcelona .
- Cuadernos de la ALHambra , Granada
Vol 8, 1965
Vol 21, 1985
Vol . 26, 1990 .
Rela Ciones Dela peninsula ib Ericacon elmagreb siglos XIIIXVL, Nstituo Hispano - Prabe de Culura, Madrid 1988 .
Revista del centro de Estudios Histori cosde Granada , t2, 1912 .
Revista de instituo de Estudios islamicos en Madrid , Madrid , 1963 - 1964 , vols, II 12 .

محتويات الرسالة

رقم الصفحة